مذكرات تشرشل
١
دار المعرفة للطباعة والنشر
Bibliotheca Alexandrina
0130388

تشرشل

ونستون تشرشل

مذكرات تشرشل

الجزء الأول

منشورات مكتبة المنار بغداد

الفصل الاول

جهل المنتصرين

١٩١٩ ـ ١٩٢٩

بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، كان هناك اعتقاد شامل ، في العالم كله ، بان السلام سيسود العالم· وكان ممكنا تحقيق هذه الامنية القلبية لدى الشعوب ، وذلك بواسطة التزام الثبات على المعتنقات العقائدية الصحيحة ، والمنطق السليم ، وبعد النظر · وكان شعار « حرب من اجل انهاء الحرب » يتردد على كل لسان وقد اتخذت الاجراءات اللازمة لتحويل هذا الشعار الى حقيقة واقعة · وقد تمكن الرئيس ولسن ، عن طريق نفوذ الولايات المتحدة من جعل مفهوم عصبة الامم ، يطغي ويدخل جميع العقول · وشكلت الوكالة البريطانيه في فرساي هذه الفكرة وكونتها وحولتها الى آلة ستبقى دائما مقاسا لطريق تقدم الانسان · وكانت جيوش الحلفاء ، المنتصرة ، بالنسبة لهزيمة الاعداء مضطرة الى مجابهة مصاعب داخلية ، لا تعرف كيف تقضي عليها ، لكن القوة التوتونية المتكتلة في اوروبا الوسطى قد اضحت مطروحة امامهم الآن ، كما ان روسيا التي هشمتها المطارق الالمانية كانت هي الاخرى مضطربة نتيجة للحرب الاهلية التي اوقعتها في قبضة الاحزاب البلشفية او الشيوعية ·

* * *

في صيف عام ١٩١٩ وقفت الجيوش الحليفة على ضفاف الراين ورؤوس جسورهم امتدت داخل المانية المهزومة، المنزوعة السلاح، والجائعة·

واجتمع قادة الدول المنتصره في باريس ليبحثوا في امر المستقبل ويخططون له٠
وامامهم كانت خريطة اوروبا كي يعيدوا رسمها حسبما يروه ويتفقوا عليه ٠
لقد اصبح التكتل التوتوني تحت رحمتهم بعد اثنين وخمسين شهرا من الالم
والمخاطر ٠ ولم يكن في امكان اية دولة من دوله الاربع ، ان تعارض مشيئة
المنتصرين ٠ والمانية المعتبرة الرأس المدبر للاذية وواجهتها والسبب الاول
الكارثة التي احاقت بالعام ، اصبحت الان تحت رحمة المنتصرين الذين كانوا
يترنحون من العذاب الذي قاسوه اثناء الحرب ٠ لقد كانت الحرب حرب
شعوب لا حكومات ٠ فقد امتزجت جميع طاقات الحياة داخل اتونها الملتهب٠
وفي اجتماع قادة الحرب في باريس ، كانت التيارات العنيفة تتجاذبهم من
كل صوب ٠ فقد ولت ايام معاهدات او تراخت وفينا ، عندما كان الساسة
والدبيلوماسيين الارستقراطيين ، سواء اكانوا من الفريق المنتصر ام المهزوم ،
يجتمعون ليدخلوا في نقاش لطيف مهذب ، بعيدا عن هتافات الديمقراطية
وصخبها، كي يصلوا بالنتيجة لوضع الانظمة التي لا خلاف حولها في الاساس٠
وكانت الشعوب التي تشربت بالتعاليم والدعاوات تطالب بانزال اقصى
العقوبات بالمنهزمين ، ثأرا لملايين الضحايا من البشر ٠٠ والويل للذين
يفرطون بمكاسب الجنود ويضيعونها على طاولة المؤتمر ٠٠٠

كان زمام القيادة في يد فرنسا التي اسكتتبه بفضل جهودها وخسائرها
الفادحة ، وبفضل المليون والنصف من الضحايا من الجنود الذين لاقوا
حتفهم دفاعا عن الارض الفرنسية ٠ فقد شاهدت كنيسة نوتردام ، خلال قرن
من الزمن ، خمس مرات وميض المدافع الالمانية ، وسمعت ضجيجها الرهيب
خلال اعوام ١٨١٤ و ١٨١٥ و ١٨٧٠ و ١٩١٤ و ١٩١٨ ٠ وخلال السنوات
الاربع الرهيبة ، وقعت تحت نير الاحتلال العسكري الروسي ثلاث عشرة
مقاطعة فرنسية ، وقد دمر العدو مساحات كبيرة من الاراضي الفرنسية ، ولم
تخل مزرعة واحدة او عائلة واحدة من العائلات الفرنسية التي تعيش بين
فردان وطولون من مأساة لفقدان عزيز ، او رجوعه مشوها من الحرب ٠
لقد كان الفرنسيون يعيشون في رهبة مستديمة من الامبراطورية الالمانية
الجبارة ٠ وكانت ذكرى الحرب الوقائية التي اراد بسمارك شنها عام ١٨٧٥
لا تزال عالقة في اذهانهم بالاضافة الى التهديد الذي ادى الى سقوط حكم
دكلاسيه عام ١٩٠٥ ٠ وكانت خطب غليوم ، النارية ، وتهديداته التي كانت
تقابل بالسخرية في انكلترا واميركا ، كانت تدخل الهلع في قلوب الفرنسيين
الذين عاشوا خمسين عاما تحت ظل الارهاب الالماني وتهديداته ٠ والان لقد
جنوا ثمرة الدماء والتضحيات ، فزال الخطر والظلم ، وحل محله السلم

والامن· وكنت تسمع الشعب الفرنسي يردد عبارة واحده لا غير هي « ابدا ، مره اخرى »

لكن الخوف من المستقبل لا يزال قائما · فالشعب الفرنسي لا يبلغ بعدده ثلثي الشعب الالماني ، الذي يزداد نموه سريعا · ولن يمض وقت طويـــل حتى يتضاعف عدد القادرين على حمل السلاح في المانيا · وقد جابهت المانيا العالم كله وحاربته منفردة تقريبا ، وكادت ان تبلغ النصر · وكان المراقبون يعلمون ان نتيجة الحرب كانت ، اكثر من مرة ، تميل بفضل بعض الحوادث العرضية وحسن الحظ ، نحو الحلفاء ·

وعندما عادت الجيوش الالمانية ، يوم الهدنة ، الى وطنها قال الجنرال فوش ، القائد الاعلى للقوات الحليفة : « لقد حاربوا بشجاعة ، لذلك يجب ان تتركوهم يحتفظوا بسلاحهم » · وفي نفس الوقـــت طلب ان تصبح حدود فرنسا على نهر الراين ، منذ الان · وربما ستجرد المانيا من السلاح ، وقـد يتلاشى جهازها العسكري وتجرد قلاعها من سبل الدفاع ، وربما سيفرض الفقر على المانيا بعد ان تفرض عليها اعباء ضخمة من التعويضات · لكـن هذه باكملها ستبقى ظروفا طارئة وستزول بعد عشر سنوات او بعد عشرين سنة · وستنطلق من جديد صيحة القبائل الالمانية بمجموعهـا وتـرتفع نيران بروسيا المحـاربة من اخرى · لكن الراين ذلك النهر الكبير الشديد العمق ، سيكون بمثابة الدرع الواقعي الذي تركن وراءه فرنسا وتشعر بالاطمئنـان لاجيال قادمة طويلـة · لكن اراء العالم الاخر النـاطق باللغة الانكليزيـة ، ومشاعره كانت تختلف عن ذلك · وهذا العالم له قيمتـه واهميتـه الكبرى · فلولا معاونته لها لما استطاعت النجاة · وهكذا جـاءت الاتفاقات في معاهدة فرساى منسجمة مع وضع المانيا ، اذ تركتها بلدا سليمـا غير مجزأ ، فبقيت المانيا اكبر مجموعة عنصرية في قـارة اوروبا · وعندمـا استمع المارشـال فوش الى نص اتفاقية الصلح في فرساي ، علق عليها بقوله : « انها ليسـت سلاما ، بل هدنة لمدة عشرين سنة »

* * *

وكانت البنود الاقتصادية في تلك المعاهدة سخيفة الى حد جعلت منهـا بنودا غير صالحة · فقد وجب على المانيا ان تدفع مبـالغ هائلة كتعويضات · وكان هذا المطلب ليس الا تعبيرا عما يشعر به المنتصرون من غضب ومن فشل لدى الشعوب في تفهم الحقيقة الواقعـة وهي ان ليس في وسـع اي شعب ان

يقوم بدفع هذه الجزية التي تتفق مع متطلبات الحرب العصرية ٠

وكانت الشعوب غارقة في الجهل لابسط القواعد الاقتصادية ، وكان قادة الشعوب ، بدافع من حرصهم على الاصوات الانتخابية ، لا يتجرأون على توضيح هذه الحقيقة ٠ ولكن بعض الاصوات الضعيفة ارتفعت لتوضح ان دفع تلك التعويضات لن يتم الا عن طريق الخدمات او عن طريق شحن البضائع بواسطة القطارات او البواخر ٠ وعند وصول تلك البضائع الى البلاد التي فرضتها فستطغى على الصناعة المحلية ٠ وكانت الطريقة الوحيدة لسلب شعب مهزوم ، هي في نقل كل ما هو قابل للحركة ، ثم في سوق قسم كبير من رجاله الى العبودية الدائمة او المؤقته ٠ لكن الارباح الناجمة عن عمليات كهذه لا تتناسب مع نفقات الحرب ٠ ولم يكن في وسع اي زعيم ان يجروء على الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة للجماهير الناخبة ٠ لذلك استمر الحلفاء بتبجحهم بأنهم سيستمرون في عصر المانيا حتى « يسمع صرير أنابيبها » وبالتالي تختنق ٠ وكان لهذا اثر كبير في ازدهار العالم ، وفي اوضاع العنصر الالماني ٠

لكن هذه البنود من المعاهدة لم تنفذ ، فقد حصل العكس تماما ٠ فبعد ان صادر الحلفاء موجودات المانيا بمبلغ الف مليون جنيه ، قاموا هم انفسهم فيما بعد وعلى رأسهم بريطانيا واميركا باعطاء المانيا قرضا بمبلغ الف وخمسماية مليون جنيه ، وذلك لترميم ما دمرته الحرب في بلادها وباسرع وقت ممكن ٠ كل هذا ولم يزل ساسة الشعوب المنتصرة يذكرون ان المانيا ستدفع لاخر بنس كل التعويضات رغما عنها ٠

ان التاريخ سيصف هذه العمليات بالجنون ٠ لقد ساعدوا على تنمية اللعنة العسكرية و « الزوبعة الاقتصادية » ٠ وبدأت المانيا بالاستدانة من جميع الجهات وتبلتع بسهولة جميع المساعدات الممنوحة اليها بسخاء ٠ ان هذه هي قصة محزنة من الغباء المعقد الذي استنزف فيها الكثير من الجهد والفضائل ٠

* * *

لقد استنزفت الحرب دماء فرنسا ، وانتصر الشعب الفرنسي بعد ان ظل منذ عام ١٨٧٠ يحلم بالثأر، لكن هذا الانتصار كلفه غاليا٠ ولكن الخوف من المانيا ظل يعكر صفو احتفالات الشعب الفرنسي بالنصر ٠ ولا شك كان هذا الخوف المتأصل هو الذي دفع المارشال فوش الى المطالبة بجعل نهر

الراين حدا فاصلا لفرنسا ، وذلك كي يضمن سلامة فرنسا من جارتها القوية ٠ لكن الساسة البريطانيون والاميركيون اصروا على تمسكهم بالنقاط الاربعة عشرة ، التي تتعارض مع مطالبة فرنسا بضم جزء من الاراضي الالمانية الى ممتلكاتها ، بالاضافة الى ان هذه المطالبة تتعارض مع مبادىء القومية وحق تقرير المصير التي قامت معاهده الصلح هذه على اسسها ٠ وقد تمكن هؤلاء من كسب كليمنصو الى صفوفهم حين تمكنوا من اقناعه بانهم سيضمون ضمان حدود فرنسا ، واقامة منطقة غير عسكرية ثم تجريد المانيا من السلاح بصورة كلية ودائمة ٠ وسرعان ما وافق كليمنصو على هذه الضمانات بالرغم من معارضة المارشال فوش لهـا ، ولم يلبث ان وقـع ريلسون ولويد جورج وكليمنصو على معاهدة الضمان تلـك ، الا ان مجلس الشيـوخ الاميركـي رفض ان يصدق على توقيع الرئيس ويلسون ٠ وقد قيل لنا نحن بانه يترتب علينا ان نكون على علم ومعرفة بنصوص الدستور الاميركـي ، نحن الذيـن كنا نرضخ لاراء الرئيس ويلسون ورغباته بما يتعلق بقضايا السلام ٠

لكن الشعب الفرنسي اسقط الرجل الصلب كليمنصو ، في احدى نزواتـه الخائفة الغضبة ٠ وكما قال بلوتارك « ان الجحـود نحو الرجال العظام ، هو من ميزات الشعوب القوية » ٠ وكانت ضربا من الحماقة ان تلجأ فرنسـا الى هذا الاسلوب ، سيما في الوقت الذي اصبحت فيه شديدة الضعف ٠ وجاء بوانكاريه الى سدة الحكم ، الرجل ذو الشخصية القوية ، خليفا لكليمنصو، فحاول ان يجعل من المنطقة المحيطه بالراين ، ارضا مستقلة تحت حماية فرنسا واشرافها ٠ الا ان هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ٠ وكانت محاولته فـي غزو منطقة الروهر كمحاولة لفرض التعويضات على المانيا ٠ لكن هذا الغزو اثار النقمة لدى الرأي العام البريطاني والاميركي ، بالرغم من اتفـاقه مـع نصوص معـاهدة فرسـاي ٠ وكـانت النتيجة ان تدهورت اوضـاع المانيـا الاقتصادية والمالية ، وادى ذلك الى تدهور المارك الالماني بسبب التعويضـات الباهظة التي دفعتها خلال عـامي ١٩١٩ و ١٩٢٣ ٠ كمـا ان موجه الغضب والكراهية التي اجتاحت المانيا، نتيجة لغزو منطقةالروهر، دفعت بالمسؤوليين الى طبع كميات هائلة من الاوراق النقديـة ، بقصد القضـاء علـى النظـام الاقتصادي برمته ٠ واصبح الجنيه الاسترليني يعـادل ثلاثة واربعين مليون مليون مارك الماني ٠ وقد ادى هذا التضخم الفظيع الى تلاشي المبالغ التـي وفرتها الطبقات الوسطى ومالت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية ٠ وتشوه النظام الصناعي الالماني باكمله نتيجة لنمو الاحتكارات ٠ واختفـى الرأسمال العـامل من البلاد ، وبالتالـي الغيت القروض الداخلية والديون

الصناعية القائمة على الرهونات والفوائد · لكن هذه لم تعوض عن خسارة الراس المال العامل · واسفرت النتيجة عن قروض خارجية تعطي لامة مفلسة ، وهي الصورة التي تبلور عنها الموقف في السنوات التالية ·

اما بالنسبة لبريطانيا فقد تحول موقفها تجاه المانيا ، تحول من العنف الى العطف · ونشبت الخلافات بين لويد جورج وبوانكاريه واتسعت حدة الشقاق بين الشعبين قلبا وقالبا · ووجد العطف الانكليزي على المانيا ، او الاعجاب بها ، صدى حسنا قويا ·

وما ان ظهرت عصبة الامم الى الوجود حتى تلقت ضربة قوية، اذ تخلت عنها الولايات المتحدة· واصيب الرئيس ويلسون بالشلل، بعد ان كان مستعدا للكفاح من اجل مثله العليا وعقائده · واصبح بعد ذلك كتلة من الحطام واصيبت سياسته وسياسة حزبه بهزيمة ساحقة في معركة الرئاسة ، وفاز الديمقراطيون في عام ١٩٢٠ · وفي عشيه فوز الديمقراطيين، سيطرت المفاهيم الانعزالية على الناحية الاخرى من المحيط الاطلسي ، وكان على اوروبا ان تجني ما زرعته وتدفع ثمن ديونها، وفي نفس الوقت ازدادت التعرفة الجمركية وذلك للحؤول دون دخول البضائع التي يمكن لوارداتها ان تسدد بعض الديون · وراحت بعد ذلك الحكومتان البريطانية والامريكية تحطم وتغرق بواخرها ومنشآتها العسكرية ، وذلك لانه من غير اللائق ان ينزع السلاح من يد المغلوب ويبقى في يد الغالب ··· كما اعترضت اميركا لدى بريطانيا عن ان الاستمرار في علاقاتها الودية مع اليابان سيشكل بعض الخطر على مجرى العلاقات البريطانية ، الامريكية ، مع ان اليابان كانت تحترم هذه العلاقات وتحافظ عليها بكل صدق · وبناء لهذا التحذير ، اضطرت بريطانيا الى قطع تلك العلاقات مع اليابان مما ادى الى استياء الحكومة اليابانية ، واعتبرت ان هذا التصرف يعتبر امتهانا من بلد اوروبي نحو شعب اسيوي صديق ·

لقد كان باستطاعة اليابان ان تعتبر نفسها ثالث دولة بحرية بعد هزيمة المانيا وروسيا فتتمتع بمركز مرموق· ورغما عن ان الاتفاق البحري يقضي بان يخصص لليابان نسبة خمسه الى ثلاثة من السفن المخصصة الى الدولتين الكبيرتين ، الا ان هذه النسبة كانت مناسبة لامكانيات اليابان المالية للسنوات التالية ، وبالتالي راحت تراقب الانخفاض الكبير في الانتاج الاميركي والبريطاني بالنسبة لامكاناتهما المالية ومسؤولياتهما الجسيمة · وبذلك يكون الحلفاء قد مهدوا لتجدد الحرب في اوروبا واسيا ، وباعتقادهم ان هذا قد يؤدي الى السلام الدائم ·

وفي اوروبا اخذ الخلاف الجديد الاكثر فظاعة يبرز الى حيز الوجود ، هذا الخلاف الرهيب الذي خلفته الحرب الاهلية الروسية وانتصار الثـورة البلشفية الساحق ٠ فبالرغم من ان الجيوش السوفياتية المتقدمة نحو بولنده ، قد صدت في معركة وارسو ، الا ان المانيا وايطاليا قد بدأتا تذعنان للدعاوة الشيوعية ومشاريعها ٠ كذلك هنغاريا الـتي سقطـت في قبضة الدكتاتور الشيوعي بيلاكون ٠ وبالرغم من ان المارشال فوش لاحظ بحكمة بان « البلشفية لم تتخطـى حدود النصر » ، الا ان اسس الحضـارة الاوروبية اهتزت فـي السنوات الاولى بعد الحرب ٠ فالفاشية كانت ظل الشيوعية او وليدهـا البشع ٠ وبينما كان العريف هتلر يحاول تقديم خدماته على الضباط الالمـان في ميونيخ ، ويحرض الجنود والعمال ويغذي في صدورهم الحقد على الشيوعية واليهود الذين القى بمسؤولية الهزيمة عليهم ، كان هناك مغامر اخر ، بينيتو موسوليني الذي قدم لايطاليا نموذجا جديدا من الحكومة التي صرحت بانهـا ستنقذ الشعب الايطالي من الشيوعية ، ورفع نفسه الى قمة الدكتاتورية ٠ وكما انبثقت الفاشية عن الشيوعية ، كذلك النـازية تطورت من الفـاشية ٠ وهكذا تمكنت هذه الحركات من الوقوف على قدميها وتمكنت بعد ذلك من جر العالم الى صراع عنيف لا يمكن للمرء ان يقول انه انتهى بانتهائها ٠٠٠

* * *

في هـذه الصفحـات ، ساحـاول ان اقص قصـة إسوأ مأساة تعـرض لها الجنس البشري في تاريخه المضطرب ٠ ان المأساة المخيفة لم تقتصر على الضحايا وعلى الدمار الذي لا بد منه في الحروب ، ففي الحرب العالمية الاولى وقعت مجازر رهيبة ، كما فقدت كنوز كثيرة من الثروات الـتي جمعتهـا الشعوب ٠٠٠ واذا ما استثنينا الاعمال العنيفة التي حصلت اثنـاء الثورة الروسية ، فان الحضـارة الاوروبيـة ، بقيت ولم تزل حـال انتهـاء الحرب العالمية ٠ كما ان الشعوب المتحاربة عادت لتعترف ببعضها البعض ، وبقـي الجميع يحترمون القوانين والاعراف الحربية ٠ كما ان معاهدة الصلـح كانت منسجمة مع المبادىء المتبعة في القرن التاسع عشر بين الشعوب المتحضرة٠ كذلك يمكن القول انالجهاز الدولي الذي انشيء لحمايتنا كلنا، وخاصةحماية اوروبا نفسها ضد اخطار جديدة ٠

الا ان الحرب العالمية الثانية ، لم تكن كذلك ٠ لقد زالت الروابط التي كانت تربط بين الانسان واخيه الانسان٠ لقد قام الالمان، تحت الحكم الهتلري باقتراف جرائم منكرة وحشية لا مثيل لها ٠ ولا شك ان المجازر التي اودت

بحياة ستة او سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل في معسكرات الاعتقـــال الالمانية قد تطغي على جرائم جنكيز خـان الهائلة ، وتفوقها وحشية • وقـد رسمت المخططات اثناء الحرب في الجبهة الشرقية لافناء شعوب باسرها علـى ايدي الجنود الالمان والروس • أما من ناحية الحلفاء أنفسهـم فقد قامـوا بغارات وحشية تفوق الغارات الالمانية عشرين مرة ، بل كانت تزداد حـدة يوما بعد يوم ، الى ان بلغت ذروتها في القاء القنبلة الذرية على هيروشيمـا وناكازاكي وازالتهما من الوجود •

والان بعد ان خرجنا من جو الخراب المادي والمعنوي ، نجد اننا لا نزال نواجه نفس المشاكل والاخطار التي تخلصنا منها باعجوبة ، هذا اذا لم نقل انها اشد وادهى •

ساحاول ان اكشف للقارىء كيف كان بامكاننا تجنب وقوع حـرب عالمية ثانية ، نظرا لكوني عشت هذه الايام وعملت فيها • ساحاول ان ابين كيف ان ضعف الفضلاء قد ادى بالنتيجة الـى تقوية الاشرار ، كمـا سأبيـن أن أجهزة الدول الديمقراطية تفتقر الى مقومات الايمان ما لم تندمج مع أجهزة اقوى واكبر منها • ان مقومات الايمان والثبات هي التي تتمكن من احلال الامن والسلام والطمأنينة في نفوس الجماهير • كما اني سابين كيف ان لا يمكن لاي سياسة ان تستمر لعشرة او لخمسة عشرة سنة في آن واحد ، وذلك في قضية الدفاع عن النفس والمحافظة عليها • وسنرى كيف ان اتباع سياسة التردد قد تصبح عاملا اساسيا للخطر ، وكيف ان الحل المعقول الذي ينبع من الرغبة في السلامة والحياة الهادئة قد يؤدي بنتيجته الى مواجهة الكارثة • كما اننا سنرى انه من الضرورة القيام بعمل دولي مشترك بين دول يرجع تآلفهـا الى سنين سابقة ، دون الالتفات الى التيارات المتماوجة في السياسة القومية •

لقد كانت سياسة ابقاء المانيا مجردة من السلاح ، سهلة الحفاظ عليهـا ، وابقاء المنتصرين بسلاحهم الكامل لمدة ثلاثين سنة على الاقل ، وبنفس الوقـت بذل المحاولات لجعل مسالة التفاهم مع المانيا حقيقة واقعة ، وانشاء عصبة للامم قوية قادرة على الحفاظ على المعاهدات وتطبيقها ، ولا تغير او تبـدل دون اللجوء الى المفاوضات والاتفاقات • وعندما تتعاون ثلاث او اربع دول قوية ، وتطلب من شعوبها تقديم اقصى ما يمكنها من تضحيات ، وتقوم هذه الشعوب بتضحياتها في سبيل الهدف المشترك ، عند ذلك تصبح النتائج المطلوبة معقولة جدا ، الا ان قوة المنتصرين وعلمهم وثقافتهم كانت عاجزة عن الوصول الى هذه النتيجة المتواضعة • فقد ظلوا يعيشون ليومهم دون التفكيـر بالغد ،

وعندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية ، كان من الواجب ان نكتب عن ابناء الذين حاربوا وقتلوا بكل اخلاص :

كتف الى كتف ، وجنبا الى جنب

اجتازوا نور الحياة المشرقة .

الفصل الثاني

ظهور هتلر

في شهر تشرين الاول عام ١٩١٨ كان العريف الالماني ادولف هتلر طريح الفراش في احدى المستشفيات بعد ان اصيب بالعمى المؤقت من قنبلة الغاز ، في احدى المعارك التي شنتها القوات البريطانية بالقرب من كوفنر · وبينما كان طريح الفراش في المستشفى حلت الهزيمة بالمانيا وعمت الثورة البلاد ·

كان هذا العريف ابنا لموظف من موظفي الجمرك نمساوي الاصل · وكانت الاحلام تراوده بان يصبح فنانا عظيما ، لكنه بعد ان فشل في الالتحاق باكاديمية الفنون في فينا ، اضطر الى البقاء في العاصمة فقيرا سيء الحال · وما لبث ان غادرها الى ميونيخ وعمل هناك كدهان ، وكعامل مؤقت ،وعاش حياة شقية يغذيها الحقد على العالم كله ، والنقمة عليه لانه حرمه من نعمة النجاح · الا ان الشقاء والفقر لم يدفعا به الى احضان الشيوعية ، بل ظل يقدس الولاء العنصري الذي كان يتملكه بالاضافة الى اعجابه الشديد بالمانيا وبالشعب الالماني · وقد التحق بالجيش الالماني عند نشوب الحرب العالمية الاولى ، وبقي لمدة اربع سنوات في الجبهة الغربية ملتحقا مع احد الافواج البافارية ·

وعندما كان في مستشفاه في شتاء عام ١٩١٨ ، بدى له فشله السابق وكانه اختلط مع الكارثة التي حلت بالشعب الالماني كله ، فسادته نزعة عارمة من الحزن على نفسه وعلى شعبه ، خاصة بعد ان حلت الثورة وعمت الفوضى جميع البلاد ·

لم يتمكن ادولف هتلر من فهم او من تفسير الاسباب التي ادت الى

هزيمة المانيا ، الا انه كان متيقنا من ضروب الخيانة الشديدة التي طعنت الجيش الالماني من الخلف · وراح يفكر في تلك الاسباب العديدة التي ادت الى الهزيمة من خلال تجاربه الشخصية · فهو قد اختلط بفئات عديدة متطرفة في فينا واستمع الى قصص الغدر والخيانة الذي قام به عرق غريب اخر هو عدو لدودللشعب الجرماني العريق ، الا وهم اليهود · وهكذا تطورت نقمته الاولى المنصبة على الاغنياء والناجحين وتحولت الى كراهية عارمة ·

وعندما خرج من المستشفى ، رأى بعينيه التي ابصرت النور من جديد نتائج ما خلفته الهزيمة وما يدور في المدينة من ملامح ثورة حمراء مرعبة ، وشاهد السيارات تطوف بالمدينة ، تلقي بالمنشورات وتطلق العيارات النارية على المتشردين من ابناء الشعب · ورأى زملاءه في الجيش يضعون الاشرطة الحمراء على اذرعهم ، فوق بزاتهم العسكرية ، ويهتفون بغضب شعارات غريبة تتنافى مع كل ما يعتقده ويؤمن به · وهكذا صدمته الحقيقة المرة ، ورأى ان المانيا قد اصيبت بطعنة غادرة من الخلف ، كان ابطالها من اليهود الذين امنعوا تقطيعا بها ليرغموها على الاستسلام بدسائسهم ومؤامراتهم ويؤيدهم في ذلك حلفاء لهم من البلاشفة ليتمموا تنفيذ مخططات ومؤامرات دولية يقوم بها المثقفون اليهود · وشعر بالواجب يحتم عليه بان يخلص المانيا من هذا المرض الخبيث ، والاخذ بالثأر من الذين الحقوا بها الاساءات العديدة ، ثم النهوض بالشعب المتفوق الى مستقبل افضل ·

وانطلق ادولف هتلر يصعد بخطى سريعة نحو القيادة والزعامة ، يناصره في ذلك ضباط فوجه · وفي مساء احد الايام من شهر أيلول عام ١٩١٩، ذهب لحضور احدى اجتماعات حزب العمال الالمان في إحدى المصانع · وسمع لاول مرة في حياته اناسا يتحدثون بما كان هو يؤمن به من خيانات اليهود ومجرمو شهر تشرين الثاني · الذين دفعوا بالمانيا الى الهزيمة · فانضم الى هذا الحزب وخلال فترة بسيطة أصبح أدولف هتلر زعيم الحزب الاول · وغدا يحمل لقب الزعيم او « الفوهرر » وأصدر جريدة تنطق باسم حزبه هي جريدة « الفولكشاير بيوختر » ·

الا ان الشيوعيين لم يقفوا مكتوفي الايدي ، فحاولوا تحطيم حزبه وتفريق اجتماعاته الناجحة · واضطر هتلر الى انشاء حرس خاص لصد الهجمات الشيوعية ، ونشأت بذلك الوحدات الاولى لقوات العاصفة · وكان نشاطه محصورا في تلك اللحظة على بافاريا فقط ، وكان الجميع في كافة انحاء الرايخ

الالماني كانوا يستمعون بشغف لتعاليم هذا الانجيل الجديد • فقد كانت النقمة على الاوضاع الحالية تعم المانيا كليا • وأدت موجة الغضب التي عصفت بالشعب كله من احتلال فرنسا للروهر عام ١٩٢٣ الى انضمام الالوف من أبناء الشعب الى الحزب الجديد الذي أصبح الان « الحزب الاشتراكي الوطني » •

ومنذ البداية وضح هتلر ، ان السبيل الوحيد للوصول الى الحكم هو في الثورة والعنف ضد حكم ويمار وجمهوريته التي خلقت في عار الهزيمة • وانضم الى دعوة الفوهرر فئة ضمت بين صفوفها ، غورنغ وهيس وروزنبرغ وروهم ، الذين من ثم اتفقوا على وجوب استلام السلطة في بافاريا ، وانضم اليهم الجنرال فون لوندورف الذي كان رئيس أركان الجيش الالماني أثناء الحرب الاولى وسار على رأس قوة مجهزة لاحتلال بافاريا • الا ان رجال الامن من شدة احترامهم للجنرال لم يطلقوا عليه النار بل اكتفوا بالتصويب على المتظاهرين ، وتمكنوا من اعتقال فئة كبيرة منهم ومن بينهم هتلر نفسه الذي حوكم وحكم عليه بالسجن لمدة اربعة سنوات ، خفضت الى ثلاثة عشر شهرا • وفي سجنه هذا تمكن من تاليف القسم الاكبر من كتابه « كفاحي » الذي أصبح فيما بعد من أهم الكتب التي اقبل على قراءتها قادة الدول الحليفة وزعمائها العسكريين •

وفي عام ١٩٢٤ خرج هتلر من السجن وصرح انه لن يتمكن من اعادة تنظيم حزبه قبل خمس سنوات • وفي عام ١٩٢٨ لم يكن لحزبه في البرلمان الالماني « الرايشستاغ » سوى اثني عشر مقعدا • ومن ثم ابتدا الرقم بالارتفاع الى ان أصبح البرلمان في عام ١٩٣٢ يضم ٢٣٠ عضوا من الحزب ، كما اصبحت الدولة الالمانية كلها خاضعة لنفوذ الحزب الاشتراكي الالماني ، وبدأت حركة الاضطهاد بمختلف أنواعها وانصبت النقمة كلها على رؤوس اليهود انتقاما لما اقترفوه في السابق من جرائم وخيانات ودسائس •

وما ان اطل عام ١٩٣٣ حتى وصل هتلر الى سدة الحكم • أولا كمستشار لالمانيا • وكانت اولى أعماله ان اصدر امرا يمنع فيه الحزب الشيوعي من العمل في البلاد • وبدأت حملة قوية عمت البلاد كلها لمصادرة الاسلحة من أيدي الشيوعيين • ونشبت الاضطرابات وبلغت ذروتها حين هب حريق في دار الرايشستاغ ، فاستدعيت فرق رجال القمصان السوداء للعمل وللمحافظة على الامن • وفي نفس الليلة تم اعتقال أربعة الاف زعيم شيوعي ومن بينهم أعضاء اللجنة المركزية التابعة للحزب الشيوعي • وكان غورنغ الامر لهذه

الاجراءات كلها بعد ان أصبح وزيرا للداخلية ، وبذلك يكون قد أمن هزيمة الشيوعيين خصوم الحزب الاشتراكي الاشداء لكي تكون مقدمة للفوز بالانتخابات الجديدة المقبلة ·

وفي الانتخابات فاز النازيون بـ ٢٨٨ مقعدا في البرلمان واقترع الى جانبهم ١٧٫٣٠٠٫٠٠٠ ناخب · وبذلك تمكن هتلر من السيطرة نهائيا · وفي الحادي والعشرين من شهر اذار عام ١٩٢٣ افتتح هتلر أول مجلس للرايشستاغ في الرايخ الثالث · وجلس حوله كبار القادة ، وضباط جيش العاصفة والحرس النازي الخاص الذين يمثلون المانيا الجديدة · وفي الرابع والعشرين من الشهر ذاته وافق الرايشستاغ على منح هتلر سلطات استثنائية لمدة أربع سنوات ·

بينما كان هذا التغيير المخيف يجري في المانيا ، كانت حكومتنا مضطرة الى التخفيض والتقنين انسجاما مع الاوضاع والازمات المالية الراهنة التي حدث من تسلحنا · وبقيت حكومة مكدونالد بالدوين مصمة اذانها عن سماع أو رؤية الاخطار المحدقة بنا نتيجة التغيرات في اوروبا · ثم حاولت الحكومة ان تطبق قوانين معاهدة فرساي القاضية بنزع السلاح من المنتصرين ، فقدمت عدة مشاريع ومقترحات الى عصبة الامم لتضمن تطبيق هذه القوانين · كما أصرت فرنسا على وجوب بقاء جيشها الذي تعتبره محور حياتها ووجودها · وقد شجعت هذه المحاولات ، الحكومة الالمانية ، وادعت ان هذا السلوك انما هو نابع من صميم المجتمع البرلماني الديمقراطي الضعيف والمنحط بطبيعته · وراح الالمان بدافع من هتلر الذي أوحى اليهم بهذه الافكار ، يبدون أكثر عجرفة وكبرا · وما كان من أعضاء الوفد الالماني الذين حضروا مؤتمر نزع السلاح ، الا ان انسحبوا من الاجتماع في تموز عام ١٩٣٣ · وحاول الحلفاء مراضاة الالمان بشتى الوسائل الى ان توصلوا الى اقرار مشروع اقتراح دعي مشروع هريو ، وهو يقضي باعادة تنظيم جميع القوات العسكرية الدفاعية في اوروبا ، وجعلها جيوشا محدودة العدد ، وفرض المشروع على وجوب تخفيض عدد الجيش الفرنسي من خمسمائة الف الى مائتي الف جندي، بينما يرتفع عدد الجيش الالماني الى هذا الرقم · الا ان الجيش الالماني قد أصبح عدده يجاوز المليون متطوع مجهز بأحدث الاسلحة التي تنتجها المصانع الالمانية التي تم تحويلها الى مصانع للسلاح · وكانت النتيجة الغير منتظرة هي في الاوامر الصادرة عن هتلر والقاضية بالانسحاب من كل مؤتمر ومن عصبة الامم ·

لقد كان في وسع عصبة الامم ان ترد على تحديات هتلر وتهديداتـــه العسكرية ، وذلك بفرض العقوبات عن طريق القانون الدولي · كما ان الحكومة الاميركية لم تكن تكترث لهذه التهديدات الى ان حان الوقت بعد عدة سنوات ، فوجدوا انفسهم عند ذلك مضطرين للتضحية بأرواحهم لينقذوا انفسهم مـــن الخطر المميت ···

* * *

وفي مطلع عام ١٩٣١ سافرت برحلة الى الولايات المتحدة الاميركيـــة لالقاء سلسلة محاضرات هناك · وفي نيويورك تعرضت لحادث سيارة كاد ان يودي بحياتي · فقد نزلت من سيارتي من الجانب المعاكس وعبرت الشارع الخامس ، وكانت انظمة السير المطبقة في اميركا وخاصة فيما يتعلق بالسيـر المعاكس والاضواء الحمراء التي لم يكن معمولا بها في بريطانيا في ذلك الحين · وفجأة وقع اصطدام عنيف كانت نتيجته ان لازمت الفراش في المستشفى لمـدة شهرين وانا محطم شر تحطيم · ومر هذا العام وانا بصحة سيئة للغاية ، الى ان بدأت استعيد صحتي تدريجيا بعد ذلك ·

لقد كانت السنوات ما بين عام ١٩٣١ و ١٩٢٥ من أمتع سنوات عمري، فقد انصرفت الى التاليف والى القاء المحاضرات ، وقد كسبت الكثير مـــن عائدات مقالاتي وكتبي التي لاقت رواجا كبيرا في بريطانيا العظمى وفـــي الولايات المتحدة الاميركية ، كذلك في القارة الاوروبية كلها ·

وفي عام ١٩٣٢ اضطررت للسفر الى ميونيخ وذلك لمتابعة تاليف أحـد كتبي عن تاريخ حياة مارلبورو · وقد امضيت في ميونيخ حوالي الاسبوع ، ونزلت في فندق ريجينا · وهناك تعرفت الى شخص يدعى الهر هانفستانغل الذي كان من المتحمسين لهتلر والذي كان على علاقات طيبة معه · وقد دعوته في احد الايام لتناول العشاء معنا بعد ان اعجبتني لباقته · واثناء العشاء حدثنا كثيرا عن هتلر وعن نشاطاته وارائه ، وكنت اشعر وانا اصغي اليـــه ، ان الرجل كان واقعا تحت سحر هتلر دون ريب · وقد علمت ان الاوامر قـــد صدرت اليه بالاعتناء بي · وبدا انه يرغب في ادخال السرور والبهجة الـى نفسي · لقد كان الرجل لطيفا الى ابعد الحدود ، ومن المقربين الى الفوهرر ، وقد دعاني الى الاجتماع به وتطوع الى اعداد الموعد معه ، اذ ان الفوهرر يتردد كل يوم الى الفندق في الساعة الخامسة مساء ، وسيسره الاجتماع بي شخصيـــا ·

في ذلك الحين لم اكن أي عداء لهتلر بالذات ، ولم اكن أعلم الكثير عن عقيدته وفلسفته وشخصيته · بل كنت معجبا به ، لانه تمكن من النهوض ببلاده بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بها · وفي أثناء حديثي مع الهر هانغستانغل تطرقت الى الحديث عن اليهود بشكل لاحظت انه لم يكن راضيا عنه · وفي اليوم التالي عندما اجتمعت به للمرة الثانية قال لي ان الفوهرر لن يتمكن من الاجتماع بي ، فهو لن يأتي الى الفندق في هذا اليوم · وكانت هذه اخر مرة رأيت فيها « بوتزي » وهو اسمه الصغير ، بالرغم من انني أمضيت عدة أيام اخرى في الفندق · وهكذا اضاع هتلر فرصته الوحيدة في مقابلتي · وفيما بعد تلقيت عدة دعوات من الفوهرر ، بعد ان أصبح في ذروة القمة ، لكنني كنت أعتذر عن قبولها ، لان أشياء عديدة حدثت أثناء ذلك ·

* * *

أما في الشرق الاقصى ، فكان الاستعداد للحرب ينبع من اليابان بصورة خاصة · فقد أثرت الازمة الاقتصادية عليها بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣١ بشكل كبير · فقد ارتفع عدد سكانها من خمسين مليونا الى سبعين مليونا وازدادت اعداد مصانعها من خمسين الى مئة وثمانية وأربعين مصنعا ، كما ارتفعت نسبة المعيشة · وبقي انتاج الارز على ما هو فيما كان استيراده من الخارج باهظ التكاليف · واشتدت الحاجة الى المواد الاولية والى الاسواق الخارجية فاضطرت بريطانيا واربعون دولة اخرى الى زيادة التعرفة الجمركية العالمية على البضائع المستوردة من اليابان ، لمواجهة الكارثة الاقتصادية ، وخوفا من طغيان تلك البضائع على البضاعة الوطنية · فتحولت انظار اليابان الى الصين السوق الرئيسي لتصريف منتجاتها من القطن ، بالاضافة الى كونها المورد الوحيد لاحتياجاتها الهائلة الى الفحم والحديد · لذلك اصبحت السياسة اليابانية تقضي بفرض السيطرة على الصين ووضعها تحت اشرافها وسيطرتها واختلقت اليابان عذرا تافها وانقضت على منشوريا واحتلت منطقة سكة الحديد ، ثم طالبت بحل المنظمات الصينية المعادية لليابان · الا ان الحكومة الصينية رفضت هذا الطلب ، فانزلت اليابان قواتها عند ذلك الى المنطقة الشمالية من شنغهاي · وقد قاوم الصينيون ببسالة لمدة شهر واحد ، الا أنهم اضطروا بعد ذلك الى الانسحاب ، وتقدمت القوات اليابانية متوغلة في داخل الصين الى ان بلغت سورها العظيم · ومن ذلك الوقت بدأت الاستعدادات اليابانية تزداد وتقوى ، خاصة قواتها البحرية ·

الفصل الثالث

المنظر القاتم

لقد كانت فكرة احتلال النمسا تراود مخيلة هتلر منذ البداية ، فقد كتب في كتابه كفاحي العبارة التالية وفي الصفحة الاولى منه « يجب على النمسا الالمانية ان تعود الى الوطن الام الكبير » · لذلك فقد كانت النظرات الاولى تتجه نحو فينا منذ تسلم الحكومة النازية السلطة في عام ١٩٣٣ ··· الا ان هتلر كان يخشى الاصطدام مع موسوليني الذي كان يطمح ويطالب بمصالحه في النمسا ، خاصة وان الدوتشي لم يكن متحمسا لوصول هتلر الى سدة الحكم · لذلك فقد تحتم على المانيا ان تكون على حذر شديد في اعمالها ونشاطاتها السرية · وبالرغم من ذلك فقد بدأ الضغط على النمسا يظهر منذ الشهور الاولى · وراح الحزب النازي يطالب الحكومة النمسوية بشده بوجوب ادخال أعضاء من الحزب النمسوي النازي في الوزارة وفي المراكز الحساسة في الدولة · وبدأ النمساويون النازيون يتلقون التدريبات العسكرية في معسكرات اعدت خصيصا لهم في بافاريا · وراحت الطائرات الالمانية تلقي المنشورات على سالزبورج واينزبروك ، والتي كانت تنغص عيش الجمهورية الوادعة ·

وفي عام ١٩٣٤ وصل كبير مستشاري موسوليني في الشؤون الخارجية الى فينا ، وكانت زيارته بمثابة تحذير للحكومة الالمانية ، وما لبث ان صرح ان ايطاليا تؤيد استقلال النمسا وتحافظ عليه · ولم تمض اسابيع ثلاثة على هذه الزيارة، حتى قامت الحكومة النمسوية بسلسلة من الاجراءات ضد الاحزاب الاشتراكية في فينا ، وقامت بعد ذلك بحملة عنيفة لنزع السلاح من ايدي المنظمات الشبه عسكرية التابعة للاشتراكيين النمسويين · واسفرت

هذه الحملة عن اصطدامات عنيفة بين الاحزاب والقوات الحكومية ، وادت الى انهزام الاشتراكيين ، كما ادت الى تقوية مركز ايطاليا مستقبلا في صد تسلل النازيين وتآمرهم • الا ان عددا كبيرا من الاشتراكيين والشيوعيين انضموا الى المعسكر النازي ، كتعبير عن سخطهم الشديد • وادى ذلك بمجموعة الى تقوية النازيين والنازية •

وفي شهر حزيران من العام نفسه ، طار موسوليني الى البندقيه لمقابلة الفوهرر لاول مرة في حياته ، وعندما نزل هتلر من طائرته فوجيء بمظاهرة عسكرية يرأسها الدوتشي بنفسه وهو يتالق ببزة عسكرية أنيقة • وكانت اول كلمة قالها موسوليني لمرافقه حين رأى هتلر « لم احب شكل هذا الرجل » • وقد جرى الاتفاق في هذه المقابلة على تخفيف حدة الضغط على حكومة النمسا ، وقد اكد له هتلر ذلك بوعود قاطعة •

ولم تكن هذه التاكيدات او هذا التوقف ، بسبب من مداخلات موسوليني ، بل بسبب انشغال هتلر بمشاغل داخلية محضة •••

* * *

نشبت الخلافات بين هتلر وبين الذين حملوه الى سدة الحكم • وكان جيش الصاعقة يمثل الفئة الثورية في الحزب ، تحت قيادة روهم • وفي ربيع عام ١٩٣٤ بلغ عدد أفراد هذا الجيش ثلاثة ملايين مجند من ذوي القمصان البنية • وشعر هتلر بالقلق نتيجة لهذا النمو الهائل ، بالرغم من يقينه بولاء جميع أفراد هذا الجيش ، وتعلقهم بشخصه • وكان يردد أمام قادة جيشه هذا، بانه سوف يقاوم ويقمع اية محاولة لتغيير نظام الحكم القائم بمنتهى الشدة والبطش ، وان كل من يجرؤ على رفع رأسه ضد الدولة فسيحطمه بكل شدة وقسوة • وكانت هواجس هتلر ومخاوفه صحيحة ، اذ ان روهم قائد جيش الصاعقة ، بدأ محاولة للاطاحة بحكم هتلر • وفي كانون الاول من العام نفسه، عندما اعلنت الوحدة بين الحزب والدولة ، غدا روهم عضوا في مجلس الوزراء وبحث في أمر دمج ذوي القمصان البنية مع بقية أفراد الجيش النظامي • الا ان روهم خاف من هذه التضحية بجيشه الذي مضى السنين الطويلة في انشائه ، ومن ذلك الوقت بدأ الخلاف يذر قرنية بين روهم ورئيس الاركان الجنرال فون بلومبرغ ، الذي كان يبدي تذمره الشديد أمام الفوهرر من تصرفات ذوي القمصان البنية الحمقاء • وكان على هتلر ان يختار بين أمرين اثنين اما التضحية بقادة جيشه المنظم او بقادة جيش الصاعقة الذي

رفعه الى قمة المجد • واخيرا قرر التضحية بقادة جيش الصاعقة واستدعى روهم واجتمع به لمدة خمس ساعات حاول خلالها التفاهم مع روهم المتعصب الشاذ دون جدوى ••••

وكانت قد تالفت من جيش الصاعقة فرقا جديدة من ذوي القمصان السود ، ليكونوا بمثابة الحرس الخاص للفوهرر ، وللقيام بالمهام السرية الخطرة • وقد تولى قيادة هذه الفرق الجديدة هنريك هملر !

وهنا تختلف الاقاويل عن الاسباب التي جعلت هتلر يقوم بضربته القوية ضد روهم ورفاقه • فمنهم من كان يقول انه بسبب وجود مؤامرة تحاك ضده ، ومنهم من كان يقول ان الفوهرر أراد القيام بحركة تطهير شاملة وهو لا يزال في اوج عظمته وجبروته• وعلى كل حال، فقد تطورت الاحداث في يوم الخامس والعشرين من شهر حزيران ، اذ طلب هتلر من رجال الجيش البقاء في ثكناتهم ثم قام بتوزيع السلاح والعتاد على افراد الحرس الخاص من ذوي القمصان السود ، وبنفس الوقت اصدر امرا لذوي القمصان البنية ليكونوا على اهبة الاستعداد ، وطلب من جميع قادة جيش الصاعقة الحضور الى اجتماع يعقد في الثلاثين من شهر حزيران • وترددت شائعات ، وصلت الى هتلر ، أن مساعد روهم يحاول القيام بثورة • عندئذ قرر هتلر القيام بعمل سريع يقضي به على خصومه دفعة واحدة • فأمر غورنغ بالدخول الى برلين والسيطرة عليها ، وطار هو الى ميونيخ ليقوم بمفاجئة خصومه شخصيا ويعتقلهم بنفسه يساعده في ذلك اثنا عشر رجلا من ذوي القمصان السود • وما ان وصل الى مقر قيادة جيش الصاعقة ، حتى فاجأ كبار القادة بنبأ اعتقالهم ، ثم استقل سيارة يرافقه هذا العدد القليل من الحرس واتجه الى ويبسي حيث كان روهم • فوصل الى هناك في تمام السابعة صباحا •

ترجل هتلر من سيارته واتجه الى المنزل وحيدا دون سلاح واقتحم غرفة نوم روهم الذي اذهلته المفاجأة الشديدة ، وتم اعتقاله مع عدد من اركان حربه • وعاد الجميع مع الاسرى الى ميونيخ ، حيث وضعوا جميعهم في نفس السجن الذي أعتقل فيه هتلر قبل عشر سنين • وفي نفس اليوم بدأ تنفيذ حكم الاعدام بجميع المعتقلين دون استثناء واستمرت عملية الاعدام طيلة بعد الظهر ، وقد امر هتلر بتغيير الفرق التي كانت تقوم بمهمة الاعدام ، بسبب الاجهاد العقلي الذي اصابهم نتيجة للوحشية التي تم فيها تنفيذ حكم الاعدام •

وفي برلين تمت نفس العملية التي جرت في ميونيخ، فقد قام غورنغ بتنفيذ حكم

الاعدام بجميع الذين اعتقلهم ، وبلغ عدد الذين اعدموا في ذلك اليوم سبعة الافشخص !!

ورجع هتلر الى برلينحيث اطل من شرفةدار المستشارية ليتلقى هتافات الجماهير ، التي كانت تعتقد ان الفوهرر كان ضحية مؤامرة رهيبة خرج منها سالما بفضل قوته وسرعة بديهته · وهكذا تمكن هتلر بفضل هذه المجزرة الرهيبة من تثبيت اسس حكمه وترسيخ عقيدته ، كما حافظ على وحدة المانيا الاشتراكية الوطنية ، لتحمل لعنتها تلك الى العالم باسره ···

وأظهرت هذه المذبحة ان الفوهرر لن يردعه اي شيء عن تنفيذ كل ما يريده ، وبدت الاوضاع القائمة ، بالنسبة للعالم الخارجي ، اوضاعا لا يمكن وصفها بالاوضاع المتمدنة · وأصبح على هذا العالم ان يواجه حكما دكتاتوريا يقوم على الارهاب وسفك الدماء ·

نشطت الحركة بين بافاريا والحدود النمساوية في شهر تموز من عام ١٩٣٤ ، وبدأ الاعداد للثورة وقلب نظام الحكم فيها · وفي صباح الخامس والعشرين من الشهر نفسه غدتالثورة واضحة اذ دخلت جماعة من المسلحين دار المستشارية، وقتلوا الرئيس دلفوس، كما استولت فصيلة اخرىمن الثوار النازيين على دار الاذاعة واعلنت حل حكومة الرئيس دلفوس ، وتعيين رينتلين رئيسا جديدا ·

الا ان هذا الانقلاب المفاجيء لم يعمر طويلا ، اذ قام رئيس الجمهورية بالرد على الحركة الانقلابية ، ايده في ذلك موسوليني من ايطاليا وارسل ثلاث فرق عسكرية الى ممر برينر ، مما اضطر هتلر الى التراجع ، وطلب من وزير المانيا المفوض وبعض الذين اشتركوا في المؤامرة الرجوع الى بلادهم فورا حيث فصلهم من الخدمة ، وبذلك انهى المحاولة الاولى للاطاحة باستقلال دولة النمسا ·

وقد قربت هذه الاحداث بين ايطاليا وفرنسا ، فقد ادى هذا التهديد لاستقلال النمسا الى اعادة النظر في العلاقات بين فرنسا وايطاليا · كما شملت الابحاث موضوع توازن القوى واوضاع فرنسا وايطاليا بالنسبة الى جنوب ايطاليا الشرقي · وكان هدف موسوليني الحفاظ على مصالح ايطاليا الاستعمارية في افريقيا ، بالاضافة الى تقوية مركزه في اوروبا ضد التهديدات الالمانية ·

أما فرنسا التي كانت ترغب منذ وقت طويل في الوصول الى اتفاق رسمي حول اجراءات الامن والسلامة في الشرق ٠ الا ان تردد بريطانيا في التورط بأية تعهدات وراء نهر الراين ، ورفضها عقد محالفات مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، كما ان مخاوف دول التحالف الصغيرة من نوايا الروس ومطامحها ، بالاضافة الى شكوك روسيا في الغرب ٠ كل هذا أدى الى فشل برامج فرنسا ، الا ان السيد بارتو وزير خارجيتها عزم على المضي في برنامجه واتبع برنامجا يقضي بعقد اتفاق يضم المانيا وروسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق ، تقوم فيه فرنسا بضمان حدود روسيا في اوروبا ، وتضمن روسيا حدود المانيا الشرقية ٠ الا ان المانيا وبولندا عارضتا الفكرة ، لكن بارتو نجح في اقناع روسيا بوجوب الدخول الى عصبة الامم ٠

وكان هدف فرنسا الاول هو البحث عن حلفاء جدد ضد المانيا ، فاتجهت نحو روسيا محاولة ان تبعث فكرة توازن القوى التي كانت قائمة قبيل الحرب العالمية الاولى ، الا ان مأساة وقعت في شهر تشرين الاول حين دعي الملك الكسندر اليوغوسلافي لزيارة رسمية الى باريس ٠ وعندما نزل في مرسيليا ، كان في استقباله المسيو بارتو والجنرال جورج، بينما كانت الجماهير محتشدة في الشوارع تهتف معربة عن فرحها الكبير ٠ وفجاة ظهر شخص من بين الحشود وتسلق سيارة الملك واطلق عليه الرصاص من مسدس كان يحمله ، وهجمت الحرس عليه وامعنت فيه ضربا بالسيوف وقطعته اربا ٠ وقد قتل الملك على الفور ، واصيب المسيو بارتو والجنرال جورج باصابات بلغة ، ولم يتمكن الوزير بارتو من المقاومة فتوفي بعد بضع ساعات ٠ وبوفاته اصيبت السياسة الخارجية الفرنسية بضربة قاصمة ، وخلفه في الوزارة بيير لافال ٠

ان تاريخ لافال المشين اللاحق ، ومصيره لن يحولا بيننا وبين الاعراب عن حقيقة قوته الشخصية ومقدرته ٠ فقد كانت وجهة نظره صافية وصلبة ، فهو قد آمن بضرورة تجنب الحرب ، خاصة بالنسبة لفرنسا ، وهدف الى اجراء ترتيبات مع حكام المانيا وايطاليا ، اللذين لا يحمل ضدهما اي ضغينة ٠ وكان لا يثق بروسيا ونواياها ، كما انه كان لا يحب بريطانيا ، بالرغم من مظاهر الصداقة التي كان يظهرها تجاهها ، وكان يعتقد بانها حليف لا نفع منه٠لذلك قرر الابتداء بالتفاهم مع ايطاليا ، سيما وان الخوف من المانيا اصبح كبيرا جدا ، الا انها كانت مستعدة للتساهل طمعا في كسب صداقة ايطاليا ٠٠٠ وسافر في كانون الثاني عام ١٩٣٥ الى روما حيث عقد عدة اتفاقات بين

الدولتين لازالة العقبات التي تعترض طريق التفاهم بينهما ، وخاصة الاتفاق حول معارضة اعادة تسليح المانيا · وتعهدت فرنسا بالتساهل مع الايطاليين في تونس ، كما سلمت لايطاليا مساحات شاسعة من الاراضي الواقعة على حدود ليبيا والصومال ، واعطاء ايطاليا نسبة ٢٠٪ من عائدات سكة حديد جيبوتي – اديس ابابا · وكان من المقرر ان تكون هذه الاتفاقات بداية محادثات رسمية تشمل فرنسا وايطاليا وبريطانيا العظمى ، لاقامة جبهة تقف في وجه الخطر الالماني المتزايد · الا ان الصدام بين الجنود الايطاليين والحبشيين على حدود الحبشة والصومال الايطالي ، كان الحجة التي استخدمتها ايطاليا في المطالب التي وجهتها الى الحبشة · وهكذا ادى مصير الحبشة الى اضطراب فكرة التضييق على المانيا وحصرها في القارة الاوروبية ·

الفصل الرابع

فقدان التوازن الجوي والعقوبات ضد ايطاليا

لم تكن المانيا تعتقد ان في امكانها اعادة تسليح جيشها تسليحا كاملا متفوقا قبل عام ١٩٤٣ ، الا ان الاكتشافات العلمية الحديثة، وخاصة اختراع الالة ذات الاندفاع الداخلي ، وتقدم فن الطيران ، جعلا من مسالة التفوق العسكري والقوة العسكرية امرا يتوقف على جهود الدولة في ميدان العلم والمعرفة • وكانت المانيا تتمتع بامكانات ضخمة في هذه الميادين ، فتمكنت المانيا من خلق هيكل سلاح جوي في الجيش ، بعد ان كان محروما من هذه القوة الجوية الهامة • ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت امام اعيننا الحقيقة المرعبة فقد توصل هتلر الى الرقم المعادل في عدد الطائرات ، الذي وصلت اليه بريطانيا • ولم يتبق عليه الا ان يصدر اوامره بزيادة الانتاج والاسراع به كي يرفع من مستوى الطائرات الموجودة ويحسنها • واصبحت لندن مهددة من الجو ، ووجب علينا ان تاخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الثابتة في جميع القرارات التي نتخذها ، اذ لم يعد في امكاننا اللحاق بالمانيا ، الا اننا بذلنا مجهودات ضخمة جبارة ، وحلقت في سماء العاصمة طائرات « الهاريكين » و «السبيتفاير» في عام ١٩٣٥ ، الا ان العدد لا يزال ضئيلا ، وعندما نشبت الحرب شعرنا بتفوق السلاح الجوي الالماني الذي بلغ بمجموعة ضعف سلاحنا الجوي الملكي •

وفي اليوم التاسع من شهر اذار عام ١٩٣٥ اعلن هتلر بصورة رسمية انشاء السلاح الجوي الالماني، كما اعلن عن التجنيد الاجباري في جميع البلاد • وفي نفس الوقت اعلنت فرنسا تمديد مدة الخدمة العسكرية الى

سنتين • وشرعت المانيا في تنظيم جيشهـا على اسس حديثة • كمـا اصبح الجيش تابعا للفوهرر مباشرة ، وغدا القائد الاعلى له ، واصبح علـى كـل جندي ان يحلف يمين الولاء لهلتر لا للدستور ، كما اصبحت وزارة الحربية تابعة لاوامره مباشرة • واتخذت الاجراءات اللازمة لتدريب الشباب الالمان ، فما ان ينشأ الولد حتى ينضم الى شبيبة هتلر التي تضم جميع اولاد المانيا ، ثم ينتقلون بعد ذلك الى الحرس النـازي بعد ان يبلغوا سن الثـامنة عشرة ويعملوا فيه لمدة سنتين • وعندما يصبح الشاب في سن العشرين يفرض عليه تأدية الخدمة العسكرية لمدة ستة اشهر يقضيها في شق الطرق وبناء المعسكرات وتجفيف المستنقعات ، وبعد ذلك ينتقل للعمل مع القوات المسلحة •

وفي الخامس عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٥ افتتح هتلر كلية اركان الحرب الالمانية، وبدأ بذلك الاعداد الكبير لتدريب الجيش وتوسيع صفوفه•• كما استدعيت الفئة الاولى من مواليد عام ١٩١٤ للخدمـة العسكريـة حيث تقرر اعداد وتدريب ٥٩٦ الف رجل على فنون القتـال • وهكذا قفز رقـم الجيش الالماني الى ٧٠٠ الف رجل • الا ان هذه الارقام المخيفة لم تبلغ بعـد عدد وقوة الجيش الفرنسي و احتياطيه الكبير • وكان بالامكـان حتـى هذا التاريخ اتخاذ اي قرار من جانب عصبة الامم لوقف هذه العمليـات الرهيبة المخالفة لمعاهدات الصلح واتفاقاته • كمـا كان بالامكان تقديم المانيـا الـى المحاكمة امام هيئة دولية ، تقدم فيه بيانا عن تسلحها وتسمح للجان الحلفاء بالتحقيق في هذه الاوضـاع • اما في حالة رفضها الاذعان لهـذه الاجراءات ، تقوم الجيوش الحليفة باحتلال جميع المنافذ والمعابر على نهر الراين حتـى يضمن الحلفاء تنفيذ المانيا لتعهداتها • وبذلك يصبح بالامكـان تأجيل وقوع الحرب العالمية الثانية الى اجل غير مسمى •••

كانت الضربة الثانية للسلام العالمي ، بعد خسارة بريطانيـا للتعـادل الجوي ، حين انتقلت ايطاليا الى جانب المانيا • وبذلك تمكن هتلر من التقدم في طريقه نحو القتال • فبعد ان ساعد موسوليني النمسا على الحفاظ علـى استقلالها ، قرر ان ينتقل الى الجانب الاخر • ولم تعد المانيا وحيدة في الميدان العسكري بفضل اطماع ديكتاتور ايطاليا لتوسيع رقعة امبراطوريتـه التي شرع في انشائها •

وقد ظهرت جلية استعدادات موسوليني لاحتلال الحبشه ، بعد مؤتمر

ستريزا · وكان من الواضح ان الراي العام البريطاني سيعارض مثل هذا الاعتداء الصارخ · كما ان البعض كان يجد في هذه المعارضة تشجيعا لايطاليا في المضي نحو المانيا ، خاصة وهي الدولة المعتبرة من الدول الكبرى، فبانضمامها الى المانيا ستخسر بريطانيا حليفا مهما ·

ولا ازال اذكر الحديث الذي جرى بيني وبين المستر دف كوبر حول هذا التبدل في الميزان الاوروبي الذي جاء معاكسا لمصالحنا ، وقد اقترح البعض ان نؤلف وفدا لمقابلة موسوليني يشرح له النتائج التي ستؤدي اليها حركته في بريطانيا · وبالطبع لم يؤلف هذا الوفد ، فلم يكن هذا سيؤدي الى اي نتيجة ، فقد كان موسوليني يعتقد ان بريطانيا اصبحت عجوزا ضعيفة لا تستطيع القيام باي عمل حربي عدا الصراخ والضجيج ·

وكانت وجهة نظري في هذه المسالة هي في حمل القضية الى عصبة الامم ضد ايطاليا ، ومطالبة فرنسا بتاييدنا ، الا انني حذرت من الضغط عليها ، وذلك بسبب ارتباطاتها مع ايطاليا، وانشغالها في المشكلة الالمانية· كما انني نصحت بعدم تزعم هذه القضية والتحمس لها ، وذلك بسبب خوفي من المانيا ومن الاوضاع التي وصلت اليها اجهزتنا الدفاعية ··· الا ان الحكومة وقفت موقفا مكشوفا وصرحت بأن بريطانيا ستقف الى جانب التزاماتها والى جانب ميثاق عصبة الامم · وسافر بعد ذلك وزير الخارجية الى جنيف ليجمع تاييد الدول الاعضاء في عصبة الامم لفرض عقوبات على ايطاليا ، اذا هي قامت بضرب الحبشة · وكانت هذه العقوبات تعني قطع المساعدات المالية ، والمواد الاقتصادية عن ايطاليا ، وتزويد الحبشة بها · وكانت هذه العقوبة شديدة الخطورة على ايطاليا التي تعتمد على استيراد البضائع التي تحتاج اليها في الحرب ، من الخارج ·

وفي الثاني عشر من شهر ايلول وصلت البارجتان البريطانيتان « هود » و ريناون » الى جبل طارق بالاضافة الى سرب من الطرادات والمدمرات · كما اتخذت عصبة الامم قرارا باغلبية خمسين صوتا يقضي باتخاذ اجراءات جماعية ضد ايطاليا ، وعينت لجنة قوامها ثمانية عشر عضواً لتقوم بمحاولة اخيرة للوصول الى حل سلمي · وعندما اصدر موسوليني بيانه التاريخي بقوله : « ان ايطاليا ستواجه العقوبات بالنظام والاقتصاد والتضحية » الا انه اضاف ان ايطاليا اذا وجدت ان هذه العقوبات ستعرقل برنامجه لغزو الحبشة فسيشن الحرب على كل دولة تقف في طريقه ، وقد اضاف معلقا على

قرار عصبة الامم بقولــه « خمسون دولة ، نعم هذه الدول كلهـا تقودها دولة واحدة !

* * *

أثار سفك الدماء في ابسينيا ، والكراهية للفاشية وتطبيق العقوبات من قبل عصبــة الامم ، هياج الطبقــات العــاملة في بريطانيــا ، وحزب العمــال البريطاني · ولم يكن النقابيون وعلى راسهم المستر ارنست بيفن ميالين الى المهادنة والسلام · واجتاحت الرغبة العازمة في محاربة الدكتاتور الايطالي ، وتطبيق اقصى العقوبات عليه ، وتدخل الاسطول البريطاني اذا لزم الامر · وكان عدد كبير من اعضاء مجلس العموم يشــاطر النقــابات رأيهــا في هذا الصدد · واستقــال مستر لا نسبوري من رئاسة الكتلــة البريطــانية لحزب العمال ، وتولى الميجور اتلي الرئاسة خلفا له ·

وفي هذا الوقت حل البرلمان واجريت انتخابات جديدة ، واعلن رئيس الوزراء ان العقوبات تعني اولا الحرب لكنه كــان مصمما علــى ان لا تكون هناك حرب ، الا انه مصمم في نفس الوقت على العقوبات · وتجنبت عصبة الامم، بطلب من بريطانيا ، فرض العقوبات خوفا من استفزاز ايطاليا واكراهها على الحرب · فاكتفت بمنع بعض السلع من الوصول الى ايطاليــا وبعض المواد الحربية ، ولم تقطع الزيت عنها واستمر في الوصول اليها بكل حرية · اذ ان قطعه يعني الحرب بصورة قاطعة · وكان من جملة السلع الممنوعة ، تصدير الالومنيوم · الا ان هذا المعدن كانت ايطاليا تنتجه بشكل ضخم يفوق حاجاتها· وبالاجمال كانــت العقوبات المفروضة لا تعتبــر عقوبــات بالمعنى الصحيح ، يقصد منها شل حركة المعتدين ومنعهم من العدوان ·

اما بالنسبة لبريطانيا فقد كان بامكانها منع ايطاليا من المرور في قنــاة السويس ، وان تخوض معركة بحرية مع الاسطول الايطالي ، بالرغم من ان بوارجنا كانت قديمة ، وان الاسطول يفتقر الى المدافع المضادة للطائرات كما يفتقر الى الغطــاء الجوي الضروري · الا انه باستطاعتنــا قطع الامدادات والمواصلات الايطالية مع الحبشة · وكنت واثقــا مــن ان موسوليني لم يكن ليجرؤ على الاشتباك مع قواتنا ، فقد كان العــالم كله ضده في ذلــك الوقت ، وكان من المنتظر ان يتعرض حكمه للخطر ، في حاله خوضه غمار الحرب مع بريطانيــا · ومع انني كنت اعــارض فكرة القيــام باي عمل فردي تقوم بــه بريطانيا ، الا اننا قد اقطعنا شوطــا بعيدا في هذه المرحلــة ، ومن العــار ان

نتراجع الان • لكن الحقيقة كـانت ظاهرة في حب الحكومة الحاضرة للسلام والحفاظ عليه ، هذا الحب الذي جر العالم الى حرب اكثر فظاعة •

* * *

أدى سقوط البلاد الحبشية وضمها الى الممتلكات الايطالية ، الى نتائج ايجابية في المانيا ، فقد بدا الاعجاب بموسوليني وطريقته الفذة السريعة التي انهت فيهـا ايطاليا الحملة علـى الحبشه • وكـان الراي العام السـائد ان بريطانيا خرجت من هذه الازمة مقهورة ضعيفة • وقال احد ممثلينا في بلغاريا: « ان اشارات الاحتقار لبريطانيا اصبحت ظاهرة سافرة في جميع الاوساط • وهذا مما جعل المانيا تتصلب في مواقفها للتفاوض لايجاد تسوية في اوروبـا الغربية وتسوية اكبر لجميع الشؤون الاوروبية والعالمية » • وكـانت هـذه الاقوال صحيحة تماما • فقد تولت حكومة جلالته ، دون تفكير بالامر ، زعامة خمسين دولة للتعبير عن الشجاعة لوقف ايطاليا عند حدها • وما ان واجهت الحقائق القاسية حتى تراجعت الحكومة عن موقفها الشجاع وتخاذلت • وبذلك اصابت عصبة الامم بخيبة امل كبيرة والحقت بها اشد الاضرار •

الفصل الخامس

هتلر يضرب

لقد كان الاحتلال الوحشي للحبشة ، الصدمة القوية التي احسن بهـا الشعب البريطاني من اتفاق هور ـ لافال وفشل عصبة الامم من العوامـل التي غيرت اوضاع حزب العمال وحزب الاحرار بالاضافة الى الراي العام الحسن النية • وبدت فكرة قبول نشوب الحرب ضد الطغيان الفاشي والنازي، تلاقي صدى حسنا في النفوس ، حتى اللذين يحبون السلام ويعتزون بالمهادنة • وبالرغم من معارضة حزبي المعارضة لجميع الاجراءات المؤدية الى اعـادة التسلح ، الا ان مجال الاتفاق كان واسعا ، ولو حاولت حكومة جلالتـه ان ترتفع الى مستوى الاحداث ، لتمكنت من تزعم جبهة شعبية متحدة ، تقودها في طريق حملة قوية للتاهب والاستعداد •

الا ان الحكومة بقيت متمسكة بسياسة الاعتدال وانصاف الحلول • وقد اذهلني عدم اهتمامها بالبحث عن توحيد الانسجام الذي اخذ يسود صفوف الشعب • ولو انها حاولت البحث عن هذا التوحيد ، لقوت بذلك مركزهـا وكسبت قوة كانت ضرورية للبلاد •

اما بالنسبة لالمانيا ، فقد ادى تسليحها من جديد الى اقتراب موعـد الحرب العالمية ، واصبح نشوبها امرا مؤكدا • فبعد ان تاخرنا عن توقيف هتلر عند حدوده ، وبعد ان فرض هتلر الخدمة الاجبارية في الجيش ، متحديا بذلك جميع المعاهدات • وبعدان غفرت بريطانيا له هذا التحـدي العجيب ، وعقدت معه اتفاقا وسمح لهباعادة بناء اسطوله البحري الذي يضم عددا من الغواصات يوازي عدد الغواصات البريطانية • وبعد ان صرحت المانيا بنفسها

انها اصبحت تملك سلاحا جويا يضاهي السلاح الجوي الملكي البريطانـــي بدأت الان تدخل عامها الثاني في الاستعداد والعمل النشيط لانتاج العتاد الحربي الرهيب • واصبحت بريطانيا واوروبا كلها ، واميركا التي كانت تعتقـد انها بعيدة عن الخطر ، تواجه الان قوة ضخمة منظمة ، بالاضافة الى التصميم على خوض حرب ضروس ضد سبعين مليونا من البشر •

وكانت من جملة بنود معاهدة فرساي ، البنود القائلة بعدم السماح لالمانياباقامة تحصينات دفاعية على الجهة اليسرى من نهر الراين ، والى خمسين كيلو مترا من الجهة اليمنى من النهر ، كما انها منعت اي وجـــود لقوات عسكرية المانية في هذه المنطقة • كما ان معاهدة لوكارنو التي نصت على حفظ الحدود القائمة بين المانيا وبلجيكا ، وبين المانيا وفرنسا • وتعهد الفرقاء بعدم القيام باي هجوم عبر هذه الحدود ، واذا ما خرقت احـــدى الدول هذه الاتفاقات ، فان عملها هذا يعتبر عملا عدوانيا لم يسبقه استفزاز ، ويتوجب على الدول المعتدى عليها ان تقوم بأعمال افرادية ، وتنقل المشكلة الى عصبة الامم ، وان تطلب معاونة الدول الاخرى الموقعة على هذه الاتفاقية •

وفي نفس اليوم الذي عهد فيه تسليم هذا الاقتراح لعقدة كميثاق يعمل به لمدة خمسة وعشرين عاما اعلن هتلر انه قرر احتلال منطقة الراين ، وزحفت القوات الالمانية فورا لتأخذ مواقعها على طول المنطقة وعرضها •

وهبت فرنسا تطلب العون من حلفائها ، وتشكو امرها الى عصبة الامم • وكان من حق فرنسا ان تطالب بريطانيا بتنفيذ اتفاقها القاضي بحماية حدودها ضد اي اعتداء من المانيا ، نتيجة للضغط الذي قمنا به في السابق لاجلائهـــا عن منطقة الراين • وكان المسيو سارو ، رئيس الوزراء ، يرتأي اعـــلان التعبئة العامة فورا ، الا انه لم ينفذ هذا الرأي قبل الحصول على موافقـــة بريطانيا عليه اولا • الا ان حكومة جلالته ,اقنعت فرنسا بوجوب الانتظار ، حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك ، بعد ان يتمكنا من درس الوضع دراســة شاملة وافيــة • اما الرد الغير رسمي ، الذي اجابت بــه لندن ، فقد بعــث في نفسي القشعريرة ، اذ سارع المستر لويدجورج الى القول ، ان جريمة هتلر الكبرى كانت في الاستفزاز لا في خرقة الفاضح للمعاهدة ، وانه كان يامـــل باننا سنبقى رؤوسنا منخفضة • كان الاستفزاز في الظاهر ، هو فشل الحلفاء في نزع السلاح ، اكثر مما فعلوا حتى اليوم •

لقد اخطأت الحكومة الفرنسية في انصياعها لمشيئة بريطانيا وعرضهـــا للمشكلة على عصبة الامم ، وهي التي اصبحت ضعيفة لا قيمة لها بعد فشلها

الذريع في مهزلة العقوبات • فلو نفذت الحكومة الفرنسية تعبئتها العامة ، وجهزت مئة فرقة لكانت تمكنت من حمل هتلر على التراجع والانسحاب ، فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت من القوة بحيث تتمكن وحدها من ارغام الالمـان على الانسحـاب •

وعندما اجتمع هتلر بقادته العسكريين بعد نجاح حملته في احتـلال منطقة الراين ، كان في وده ان يصارحهم بان مخاوفهم السابقة كانت كاذبة ، لكنه برهن لهم بعمله هذا ان احكامه واراءه الخاصة اهم واقوى من احكـام القادة العسكرين ، ولهذا احنى القادة رؤوسهم باحترام • وكانت الفرحـة تغمرهم ، كالمان مخلصين ، حين رأوا ان بلادهم قد بدأت تستعيد مكانتهـا السابقة في القارة الاوروبية في هذه السرعة الهائلة • بالاضافة الى ان اعداءهم السابقين قد اصبحوا ممزقين مشتتين • واعلن الفوهرر للعالم : لقد حققت المانيا جميع مطامحها الاقليمية ••••

واصيبت فرنسا بالتفكك وسيطر على البلاد الخوف من الحرب ، والرغبة في اجتنابها • اما الانكليز السذج فقد ابلغتهم صحافتهم : « ان الالمان ، علـى كل حال ، لم يفعلوا شيئا سوى انهم عادوا الى بلادهم ، اذ كيف يمكن ان نشعر نحن الانكليز ، لو تحتم علينا ان نبقى بعيدين عن يوركشاير مثلا لمـدة عشر سنوات او خمس عشرة سنة ؟ » •••• الا انهم لم يفكروا ان الحـدود الامامية قد تقدمت الى الامام مئة ميل ، واصبح غزو فرنسا اقرب واسهل•••

* * *

مرت سنتان على الاستيلاء على منطقـة الراين ، لم تضع المانيـا خلالها اية دقيقة من وقتها • اذ بدأت التحصينات تظهر على طول الخط في تلك المنطقة • واخذت المصانع الالمانية تعمل ليلا ونهارا لتجعل من صناعة المانيـا كلها جبخانة مسلحة ، وتحول الشعب باسره الى الة للحرب •

وافتتح هتلر عام١٩٣٦ ، مشروع السنوات الخمس لاعـادة تنظيم الاقتصاد الالماني واعداده لمرحلة الاكتفاء الذاتي اثناء الحرب • كما حقق في الخارج « التحالف القوي » الذي كتب عنه في كتابه « كفاحي » وبين اهميته لسياسة المانيا الخارجية ، فتفاهم مع موسوليني وتم تشكيل محور برليـن ـ روما •

كانت سياسة هتلر العدوانية لا تعتمد على القوة العسكرية ، بل تعتمد على الخلافات الناشبة بين فرنسا وبريطانيا ، وعلى شدة خوفهما بالاضافة

الى عدم اكتراث الولايات المتحدة الاميركية · وكانت اعماله وتحدياته الاولى عبارة عن مغامرة يعرف انه لن يتمكن من الصمود لنتائجها ، اذا ما شعـــر بان لدى الحلفاء قليلا من الجدية الصادقة · وكان احتلاله لمنطقة الرايـــن واقامته للتحصينات فيها اولى هذه المغامرات التي نجح فيها نجاحا كبيرا · اما خصومه فقد كانوا على اشد ما يكونوا من الضعف والتردد ، الى درجة انهم لم يشعروا بهذه « البلفة » التي قام بها · اما حين تحركت جحافله في عام ١٩٣٨ لم تكن هذه التحركات عبارة عن « بلفة » اخرى ، فقد اصبـــح العدوان الجديد مدعوما بالقوة المتفوقة ، وما ان بدأت الدولتان البريطانيـــة والفرنسية تشعران بهذا التحول المفاجيء ، كان الوقت قد فات ·

* * *

اما في اسبانيا فقدتدهور النظام البرلماني فيها عام ١٩٣٦ الى حد ادى لنمو حركة جديدة تتجه الى اقامة نظام شيوعي او حتى فوضوي في البلاد ، ومن ثم الى قيام ثورة عسكرية مبيتة · وكانت التعاليم الشيوعية وكتبهـــا المدرسية التي ألفها لينين نفسه ، تقول بان الواجب يقضي بضرورة التعاون مع جميع الاحزاب والحركات اليسارية في البلاد ، ودعمها للوصول الى الحكم · عندئذ يصبح من السهل الانقلاب عليها ونسفها من الداخل ، واقامة الدولـــة الماركسية · وكانت هذه التجربة التي نجحت في روسيـــا ، تحدث الان في اسبانيا · الا ان الجيش الاسباني كان محتفظا بقوته ، لذلك فقد سار مـــع الحركات الشيوعية ، بينما كان يبيت ضدها مؤمراة عكسية ·

وكانت اعمال العنف والقتل بين الفرقاء المتخاصمين تنتشر انتشار الوباء في البلاد ، وازداد الوباء الشيوعي حدة جعل من مسالة حمل الخصوم السياسيين من بيوتهم وقتلهم دون محاكمة امرا طبيعيا · وقد حدثـــت حوادث كثيرة من هذا النوع في العاصمة مدريد بالذات · وبلغت هذه الحوادث حدتها حين قتل الزعيم الاسباني المحافظ السنيور سوتيلو ، وكانت هـــذه الحادثة اشارة الانطلاق للقادة العسكريين لابتداء العمل · وكان الجنرال فرانكو قبل شهر من هذا الحادث قد ارسل الى وزير الحربية الاسبانية رسالة قال فيها انه اذا لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الضمانات العادية للحياة، فان الجيش سيضطر للتدخل فورا ··· وعندما تمرد الجنرال فرانكو وحمل راية الثورة ، انضمت اليه فرق الجيش كلها ، واصبح السيد المطلق علـــى الكثير من الولايات · اما البحارة الاسبان فقد هبوا لفورهم وقتلوا ضباطهم وانضموا الى ما سمي بعد ذلك بالجانب الشيوعي · وقد استطاع الشيوعيون

ان يسيطروا بعد ان انهارت الحكومة وراحوا يطبقون نظرياتهم وتعاليمهم ٠

وبدأت الحرب الاهلية المخيفة ، وقام الشيوعيون بجرائـــم عديدة وقتلوا خصومهم السياسيين ، والاغنياء ٠ اما قوات فرانكو فقد قامت بدورها بقتل العديد من الشيوعيين وانتقمت للضحايا ٠ وسارت هذه القوات تحتل القرى الشيوعية وتنتقم من كل شيوعي تجده ٠

ووقفت الحكومة البريطانية موقف عدم التدخل ، واقترحت كذلك فرنسا مشروعا بعدم التدخل ، وترك الفريقين يحلان مشاكلهما دون مساعـــدات خارجية ٠ وايدت الحكومة الايطالية والالمانية والروسية هذا المشروع ٠ وقد حافظت بريطانيا العظمى على هذا الاتفاق ، الا ان المانيا وايطاليا من جهة ، وروسيا من جهة اخرى ، سارعت الى خرق هذا الاتفاق ، وراحـــت ترسل بالامدادات العسكرية لفريق من الفرقاء المتخاصمين ٠ وراحت الطائرات الالمانية تغير على المدن الصغيرة بشكل وحشي ٠ ولم تلبث فرنسا هي الاخرى ان راحت تبعث بطريقة سرية باسراب الطائرات للدفاع عن الجمهورية ٠٠٠٠

* * *

في الثامن والعشرين من ايار عام ١٩٣٧ ، إعتزل المستر بلدوين منصب الحكم ، بعد تتويج الملك جورج السادس ٠ وقد نال لقـــب اللورديه تقديرا لخدماته الطويلة ، بالاضافة الى وسام ربطة الساق ٠ وقد خلفه في الحكم المستر نافيل تشمبر لين وزير المالية السابق ، والذي كان يقوم فعليا باعباء الحكم طيلة السنوات الخمس الماضية ٠ وكان من اقدر الوزراء ،يتمتـــع بمزايا ومواهب جمة ٠ وقد رحبت بتسليمه مقاليد السلطة ، لانه كان مـــن الشخصيات المرموقة النابضة بالحيوية ، بالاضافة الى كفاءته ٠

ان باستطاعتي اجراء مقارنة بين الشخصيتين المستر تشمبرلين والمستر بلدوين ، اللذين عرفتهما مدة طويلة وكان مقدرا لي ان اعمل معهما ٠ فقد كان ستانلي بلدوين يتمتع بشخصية حكيمة بعيدة النظر ، الا انـــه كان يفتقـــر الى المقدرة علي التنفيذ واتخاذ القرارات ٠ وكان بعيدا عن شؤون الحرب والجيش والشؤون الخارجية ، فقد كان لا يعرف شيئا عن اوروبا ، واذا عرف شيئا فكان يكره ما يعرفه عنها ، الا انه كان يعرف بدقة مجرى السياســـات الحزبية البريطانية ٠ وكان قد ترشح خمس مرات عن حزب المحافظين باعتباره زعيما للحزب ، ففاز في ثلاث مرات ٠ اما رباطة جاشه فكانت صامدة قوية ، فقد كان يتمتع بموهبة فذة في الصمود تجاه الاحداث والانتقادات العاديـــة ٠

وكان ماهرا في تحوير الاحداث الى خدمته ، وانتهاز اللحظة المناسبة عندما تحين ٠

اما المستر نافيل تشمبر لين فقد كان يقظا ، متشبثا برأيه ، وشديد الثقة بنفسه الى حد المبالغة ٠ وكان على عكس زميله يعتقد في نفسه المقدرة على تفهم جميع المسائل المتعلقة باوروبا ، بل وفي العالم ٠ وقد حافظ على سياسة تضييق الخناق على الانفاق الحربي طيلة عهده في الوزارة سواء حين كـان وزيرا للمالية ام حين اصبح رئيسا للوزارة ٠ وكان العدو اللدود لجميـــع اجراءات الطوارىء ٠ وقد سن قوانين واحكام على الشخصيات السياسية المعاصرة لعهده ، سواء في داخل بريطانيا ام في العالم الخارجي ، وكان يشعر بانه قادر على التعامل مع جميع تلك الشخصيات ٠ وكانت اماله وامانيــه في ان يحصل على لقب بطل السلام ، لذلك عمل مخلصا لتحقيق هذه الغاية ، وقد عرض نفسه بذلك لاشد الاخطار كما عرض البلاد ايضا ٠ لكنه وقـــع في تيارات لم يتمكن من تقدير قوتها ، فواجه ازمات لم يتمكن من حلها او من الابتعاد عنها ولا الصمود في وجهها ٠

لقد كنت اؤثر العمل مع المستر بلدوين في تلك السنين التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، على العمل مع تشمبرلين ٠ الا انني كنت اشعر ان ايا من الاثنين لم يكن راغبا في التعاون معي الا عند الضرورة القصوى ٠

في ذات يوم من عام ١٩٣٧ قابلت سفير المانيا في بريطانيا الهر فـون ريبنتروب ٠ وكنت قد كتبت مقالا شرحت فيه ان الهر ريبنتروب قد اســـيء فهمه نتيجة لخطابه الذي القاه مؤخرا ٠ وقد التقيته في احدى الحفلات ، وطلب مني ان اقوم بزيارته في السفارة ، لنتحدث سوية ٠ وقد استقبلنـــي في دار السفارة ، حيث قضينا ساعتين في الحديث ٠ وكان ريبنتروب طيبـــا دمث الاخلاق ، دبلوماسيا الى ابعد الحدود ٠ وقد قال لي ان المانيا لا تريد الا كسب صداقة انكلترا ، وقال انه كان في استطاعته ان يصبح وزيرا لخارجيـــة المانيا ، الا انه طلب من هتلر ارساله سفيــرا الى انكلترا ، كي يتمكـن مـن العمل لتحقيق فكرة عقد اتفاق او محالفة بين انكلترا والمانيا ٠ وقد كان في وسع المانيا ان تصبح حارسا للامبراطورية البريطانية ، وبالطبع ستطلـــب استعادة مستعمراتها السابقــة ، الا ان ذلك لا يعتبر امرا اساسيا ٠ لكـــن ما تطلبه المانيا هو ان يسمح لها باطلاق يدها في اوروبا الشرقية ٠ اذ ان من

حق المانيا ان تحصل على مداها الحيوي ، لتضمن العيش لشعبها الذي يتكاثر عدده ٠ لذلك فمن الواجب على المانيا ان تهاجم بولندا وممر دانزيغ ٠ ولا يمكن للرايخ الكبير ان يحيا ، وهو يضم سبعين مليونا من البشر ، بدون روسيا البيضاء واوكرانيا ٠ ولا يمكن للرايخ الالماني ان يكتفي باقل من هذا ٠ لذلك فمطلبه الوحيد هو ان لا تتدخل بريطانيا في شؤونه تلك ٠ وكانت في الغرفة، حيث جلسنا ، خارطة ضخمة معلقة على الجدار ، وكان يشير اليها السفير ريبنتروب ليبين لي ما يقوله ٠

وبعد أن انهى حديثه ، اجبته برأيي الصريح ردا على كل أقواله ٠ ومما قلته : « ان الحكومة البريطانية لن توافق على اطلاق يد المانيا في أوروبا الشرقية ٠ فبالرغم من علاقاتنا السيئة مع روسيا السوفياتية ، وبالرغم من عدائنا الشديد للشيوعية الذي لا يقل عن عداء هتلر لها ، فانه لو ضمنا سلامة فرنسا فاننا لن نتخلى عن اوضاع القارة الاوروبية ونترك المجال امام المانيا لتسيطر على شرقي اوروبا ووسطها » ٠

والتفتت فون ريبنتروب الي فجأة وهو يقول : « اذن ، فلا بد من الحرب ، ولن يكون هناك اي سبيل لتجنبها ، فالفوهرر مصمم ، ولن يقف شيء في طريقه »

وأجبت السفير بقولي : « عندما تتحدث عن الحرب ، فستكون حربا عامة شاملة ، وهنا يجب علي ان انبهك بأن لا تستهين بقوة انكلترا ، فهي بلاد عجيبة ، يصعب على الاجانب فهمها ٠ ولا يمكنك ان تحكم عليها من موقف حكومتها الحاضر ٠ فعندما تعرض للشعب قضية عادلة ، فستتحقق عندئذ بنفسك ان هذه الحكومة بالذات بالاشتراك مع الشعب سيقومان بأعمال عظيمة غير متوقعه ٠٠٠ ، لذلك لا تستهن بقوة انكلترا ابدا ، فهي حادة الذكاء ، واذا ما اردتموها حربا عالية ، فستحرض انكلترا العالم كله ضدكم ، تماما كما حدث في الحرب الاولى » ٠

وهنا ظهر الغضب على وجهه ، فهب من مقعده واقفا وهو يقول : « ربما تكون انكلترا ذكية كما تقول ، لكنها هذه المرة لن تتمكن من تحريض العالم ضد المانيا » ٠

وانتقلنا بالحديث الى مواضيع اخرى اكثر سهولة ٠ وعندما جرت محاكمة فون ريبنتروب بعد انتهاء الحرب ، ذكر حديثنا هذا ، لكن بصورة مغلوطة ، واصر على استدعائي للشهادة ٠ ولو طلب الي ذلك لما زدت أو أنقصت حرفا واحدا عما كتبته هنا ٠٠٠

الفصل السادس

المستر ايـدن في وزارة الخارجية ـ واستقالته

ان وزير الخارجية في انكلترا يتمتع بمكانة خاصة · ومع انـه يعامـل بمنتهى الاحترام واللباقة ، الا ان اعماله ومهامه المتعلقة بالشؤون الخارجية تبقى دائما تحت المراقبة ، ان لم يكن من جميع اعضاء وزارته ، فمن المتنفذين منهم على الاقل · كما أنه يتوجب عليه تقديم تقارير كامله لزملائه · كما انـه يتحتم على وزير الخارجية اطلاع رئيس الوزراء على جميع الاسـرار مهمـا كـانت ·

وفي هذه الحقبة من الزمن كان المستر ايدن وزيرا للخارجية في حكومـة المستر بلدوين الذي كان معروفا بميله الشديد الى السلام والحياة الهادئـه، كما انه لم يكن يسهم اسهاما فعالا في السياسة الخارجية · اما بالنسبة للمستر تشمبرلين فكـان الوضع مختلفا ، فهو يريـد الاشراف الفعلـي علـى وزارة الخارجية وكانت له اراء ووجهات نظر قوية في الشؤون الخارجية · لذلـك فقد اكد رغبته منذ البداية في بحث هذه الشؤون والنظريات مع جميع السفراء الاجانب · ولهذاالسبب ادى توليه منصب رئيس الوزراء الى تغيـر ملحـوظ في وضع وزير الخارجية المستر ايدن · بالاضافة الى بعض الامور الاخـرى التي كانت تباعد بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية · لقد كان رئيس الوزراء راغبا في اجراء شبه تفاهم مع الدكتاتورين الاوروبيين ، وكان اعتقاده ان هذا يقوم في تجنب كل ما يسيء اليهما بالاضافة الى روح التفاهم الخالصة · · · اما ايدن فقد نال شهرته من جراء تحريضه لجميع دول اوروبا ضد موسوليني

لدرجة انه كان يريد المضي في فرض العقوبات ولو ادى ذلك الى نشوب الحرب وكان ايدن يؤمن اشد الايمان بفرنسا ، كما انه كان يرغب في اقامة علاقـــات متينة مع روسيا السوفياتيه ، لانه كان يشعر بخطر هتلر ، وكان يخا فـضعف تسلحنا وانعكاسه على سياستنا الخارجية· لذلك كنت واثقا ان الخلاف سيدب بين هذين الرجلين ، خاصة بعد تأزم الاوضاع العالمية واشتدادها ·

وكان رئيس الوزراء يجد في اللورد هاليفاكس ، زميلا ينسجم مع سياسته الخارجية كل الانسجام · وكنـت افضل ، والحاله هذه ، لو اعتمده وزيـــرا للخارجية منذ تكليفه بتأليف الوزارة ، وان يعهد بوزارة الحربية الى المستر انتوني ايدن · وهكذا بدأت الخلافات تذر قرنيها الى ان توسعت شقة الخلافات في الفترة الواقعة ما بين صيف عام ١٩٣٧ ونهاية العام ، الى ان اضطر بعد ذلك المستر ايدن الى تقديم استقالته في شهر شباط من عام ١٩٣٨ ·

لقد كانت سياستنا الخارجية تجاه المانيا ، مـن اهـم اسباب الخلاف بين رئيس الوزراء ووزير خارجيته المستر ايدن · فقد قرر المستر تشمبرلين ان يتابع سياسة التقرب من الديكتاتورين ، واستدعى في شهر تموز من عـام ١٩٣٧ سفير ايطاليا الكونت غراندي للاجتماع به في دواننغ ستريت · وكان المستر ايدن يعلم مسبقا موضوع الحديث ، لذلك لم يحضر الاجتماع هذا · وقد أفصح المستر تشمبرلين عن رغبته في تحسين العلاقات مع ايطاليا ، واقترح عليه السفير ان يبعث برسالة الى موسوليني يطلب اليه ذلك ، ويناشده العمل فـي هذا الاتجاه · وسارع المستر تشمبرلين الى كتابه هذه الرسالة ، اثناء المقابلة، وبعث بها دون مراجعة وزير الخارجية الذي كان في مكتبه على بعد بضعـــة خطوات من مكان الاجتماع · ولم تسفر هذه الرسالة عن اي نتيجة ايجابيـة بالطبع ، بل ظلت علاقاتنا مع ايطاليا تدهور بسبب تدخل هذه في شؤون اسبانيا الداخلية ·

وكان المستر تشمبرلين ، يشعر بأن رسالته تتلخص في خلق جو مـــن العلاقات الودية بين الدكتاتورين ، وخيل اليه انه قادر على ذلك · وكـــان راغبا في ان يعترف بحق ايطاليا في احتلال الحبشه كخطوة أولى نحو التقارب وكمقدمة لايجاد حل شامل لجميع الخلافات · كما انه كان يرغب في التنـازل لهتلر عن بعض المستعمرات البريطانية · وفي نفس الوقت لم يكن يرغب في العمل على تحسين اوضاع التسلح في بريطانيا · او في ايجاد تعاون وثيق مـع فرنسا سواء في الشؤون العسكرية ام في الشؤون السياسية · اما المستر ايدن فكانت نظرته تقضي بأن أي تعاون مع ايطاليا ، يجب انيشمل جميع الشؤون

المتعلقة بالبحر الابيض المتوسط ، بما في ذلك مشكلة اسبانيا · وكان يريد ان يجعل من مسألة الاعتراف بحق ايطاليا في الحبشة وسيلة للمساومة معها اثناء المفاوضات · لذلك وجد ان الاعتراف بهذا الحق اولا ثم الرغبة في اجراء التفاوض لا يدل على الحكمة وبعد النظر ·

وفي الخريف اشتدت هذه الخلافات ، واعتبر المستر تشمبرلين ان وزير الخارجية يقف عقبة في طريق التفاهم مع الدكتاتورين وفي الشروع في اجراء المحادثات مع المانيا وايطاليا ، كما شعر المستر ايدن ان رئيسه متسرع جدا في محاولته التقرب من الدولتين المذكورتين لا سيما في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا على اشد ما تكون من الضعف من الناحية العسكرية ·

* * *

على الرغم من خلافاتي مع الحكومة ، فقد كنت أشعر بالعطف نحو وزير الخارجية المستر ايدن · فقد ظهر لي انه أكثر الوزراء شجاعة وتصميما ، على الرغم من انه أثناء عمله كسكرتير خاص وكوكيل لوزارة الخارجية ، من قبل ، كان مجبرا على ان يكيف نفسه مع امور عديدة كنت اهاجمها شخصيا ، الا أنني كنت أشعر انه في قرارة نفسه يعارضها ويستنكرها ، كما انه بدا لي عنصرا طيبا وممتازا · وكان يدعوني مرارا الى وزارة الخارجية ، وكثيرا ما كنا نتبادل الرسائل بانطلاق وحرية · ولم يكن هذا الامر مستغربا ، فقد كان المستر ايدن شأنه شأن بقية الوزراء ، يرغب دائما في الاتصال بالشخصيات البارزة في البلاد ليستمزج رأيها في شؤون الساعة وفي القضايا الدولية ···

وكنت قد انتهيت الى وجه نظر مشابهة مع وجهة نظر ايدن فيما يتعلق بنشاط دول المحور حول تدخلهم في الحرب الاهلية الاسبانية · وكنت دائما أؤيده عندما يقف موقفا صامدا في مجلس العموم ، مهما كانت أهمية المواضيع المطروحة ، فقد كنت عارفا بالصعوبات التي يواجهها من بعض أعضاء الوزارة وخاصة رئيس الوزارة بالذات ، وكنت على يقين من أن تشجيعي له سيبعث في نفسه روح الامل والقوة · وما ان نشبت أزمة جديدة في البحر المتوسط ، حتى عالجها بعزم ومهارة ، واستطاع الوصول الى حل أتبعته الوزارة على الفور · فقد حدث ان أغرقت غواصات ايطالية عدة سفن تجارية ، بينما ادعت ايطاليا ان الغواصات ليست ايطالية بل اسبانية · ودعي مؤتمر الدول البحرية الى الانعقاد في (نيون) في العاشر من شهر أيلول · وذهب وزير الخارجية يرافقه فانسيتارت واللورد شاتفيلد ، لورد الاميرالية

الاول · وقرر المؤتمر ايفاد غواصات بريطانية فرنسية تقوم بعمل دوريات في البحر المتوسط ، وتحمل أوامر مشددة باغراق كل غواصة تقابلها · وفي الحال رضخت ايطاليا الى هذا القرار واختفت أعمال القرصنة ·

ويعتبر هذا الحادث دليلا ظاهرا على أهمية العمل المشترك بين بريطانيا وفرنسا ، اذا نفذ بصدق وقوة تجاه الديكتاتورين الاوروبيين · ان مثل هذه السياسة كان في مقدورها لا ان تمنع نشوب الحرب بل ان تؤجل وقوعها على الاقل · فالحقيقة الماثلة أمامنا هي ان سياسة التهدئة كانت تزيد من حدة عدوان الديكتاتورين ، وتزيد من شعبيتهما ، وان أي هجوم ايجابي معاكس من قبل الديمقراطيات الغربية سيؤدي فورا الى التخفيف من حدة هذا العدوان · وقد بقيت هذه النظرية سائدة طيلة عام ١٩٣٧ ، اما بعد ذلك فقد تغيرت الاوضاع وتبدلت كل التبديل ·

وشعر ايدن بقلق يتزايد يوما بعد يوم من بطء تسلحنا ، وما كان منه الا ان قابل رئيس الوزراء وشرح له مخاوفه وشكوكه ، وكان رد رئيس الوزراء عليه بان نصحه ان يعود الى منزله ويتناول قرصين من الاسبيرين ·

أما الخلاف الحقيقي فنتج عن مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن المسائل السابقة · ففي مساء الحادي عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، قام وكيل وزارة الخارجية الاميركية ، المستر سمنر ويلس بزيارة السفير البريطاني في واشنطن · وكان يحمل معه رسالة سرية من الرئيس روزفلت الى المستر تشمبرلين · فقد شعر الرئيس الاميركي بخطورة الوضع الدولي المتدهور ، وأحس بالقلق المتزايد فاقترح دعوة بعض ممثلي دول معينة الى اجتماع لبحث المشاكل الحالية ، لكنه أراد قبل تنفيذ هذا الاقتراح ، ان يستشير الحكومة البريطانية في وجهة نظرها حول هذا الاقتراح · وطلب ان يكون الرد جاهزا قبل السابع عشر من كانون الثاني ، وأشار في رسالته الى انه اذا وجد أقتراحه هذا قد حظي بموافقة حكومة جلالته القلبية وتأييدها المطلق ، فعندئذ ، وفي هذه الحالة فقط ، سيباشر اتصالاته مع حكومات فرنسا والمانيا وايطاليا ··· وللحقيقة كانت خطوة هائلة وفوق ما يتصوره الانسان ·

وعندما قام السفير البريطاني بنقل هذه الرسالة الى لندن ، أوصى حكومته بضرورة الموافقة عليها باسرع وقت ممكن · وتلقت وزارة الخارجية برقية واشنطن ووزعت نسخا عنها في الثاني عشر من كانون الثاني الى منزل رئيس الوزراء في الريف · وفي صباح اليوم الثاني حضر رئيس الوزراء الى مكتبه ، وارسلت الوزارة بردها على رسالة الرئيس روزفلت ، حسب تعليمات

رئيس الوزراء ٠ أما المستر إيدن فكان في اجازة قصيرة يمضيها في جنـوب فرنسا ٠ وكان رد المستر تشمبرلين ، انه يقدر هذه الثقة التي وضعها الرئيس روزفلت حين استشاره في موضوع اقتراحه المتعلق بازالة حدة التوتر فـي اوروبا ، الا أنه يريد أولا ان يشرح له الموقف بالنسبة الى الجهود التي يقوم بها للوصول الى اتفاق مع المانيا وايطاليا ، لا سيما ايطاليا بصورة خاصة ٠ ومضى يقول في رده : «انحكومة جلالته مستعدة ، بتفويض من عصبة الامم ان امكن ، للاعتراف باحتلال ايطاليا للحبشة ، اذا ما وجدت ان الحكومـة الايطالية ، على استعداد هي الاخرى لتبرهن عن رغبتها في الاسهام في أعادة الثقة والعلاقات الودية ٠ » وأنهى المستر تشمبرلين رسالته بقوله انه يعرض هذه الحقائق ليرى الرئيس روزفلت ما اذا كانت اقتراحاته تتعارض والمجهود الذي تبذله بريطانيا ، وما اذا كان الرئيس يرى أنه من الافضل تأجيل اقتراح مشروعه الاميركي هذا ٠٠٠

وكانت خيبة الامل كبيرة لدى الرئيس روزفلت لهذا الرد ٠ وقد قـال للسفير البريطاني بانه سيجيب على رسالة تشمبرلين برسالة يبعثها له فـي السابع عشر من الشهر الحالي ، اما ايدن ، وزير الخارجية ، فقد قطـع اجازته وعاد الى لندن على وجه السرعة ، بعد أن علم من موظفيه المخلصين في الوزارة ، ما جرى أثناء غيابه ٠ وقد انزعج ايدن من هذا الحادث كثيرا ، فقد عمل طويلا لتحسين العلاقات بين بريطانيا وأميركا ٠ وحاول ان يخفف مـن تأثير الرد فأبرق الى المستر رونالد ليندسي ، حول الموضوع ٠

ووصلت رسالة الرئيس روزفلت الى لندن في الثامن عشر من الشهـر الحالي ، وفيها قال الرئيس انه يوافق على تأجيل اقتراحاته لان الحكومـة البريطانية تفكر في اجراء مفاوضات مباشرة ، وأضاف معربا عن قلقه الشديد من اقتراح تشمبرلين حول اعتراف بريطانيا باحتلال ايطاليا للحبشة ٠ وقال ان مثل هذا الاعتراف سيترك أثرا سيئا على سياسة اليابان في الشرق الاقصى، وعلى الرأي العام الاميركي أيضا ٠ وقد اضاف المستر كوردل هل ، الذي قام بتسليم الرسالة الى السفير البريطاني ، بقوله : « ان هذا الاعتراف سيبعث على الازدراء ، وسيرسم صورة واضحة للمساومة القذرة التي ستنفذ فـي اوروبا على حساب المصالـح الاميركيـة في الشرق الاقصى والتي تهم أميركا كثيـرا ٠٠ »

وقامت اللجنة الوزارية للشؤون الخارجية بدرس رسالة الـرئيس روزفلت ، وبعد سلسلة من الاجتماعات ارسلت الى واشنطن رسالتين مضمونهما

ان رئيس الوزراء يرحب كثيرا برسالة الرئيس روزفلت الا أنه لا يتحمل أي مسؤولية في حال فشلت العروض الاميركية · كما انه يلفت نظر الرئيس روزفلت الى أنه ربما قد أساء فهم موقف حكومة جلالته بالنسبة الى الاعتراف· وقد شرح في الرسالة الثانية حقيقة موقفنا · فقد كنا عازمين على تقديم اعتراف كهذا ليكون جزءا من تسوية عامة مع ايطاليا ·

وعندما قام السفير البريطاني بتسليم المستر سمنر ويلس الرسالتين قال له : « ان الرئيس روزفلت يعتبر مسألة الاعتراف هذا كدواء مر ، الا أنه يجب علينا ان نشربه معا ، كما انه يريد ان نشرب هذا الدواء معا وفي آن واحد ·· »

وهكذا رفض المستر تشمبرلين اقتراح الرئيس روزفلت ، علما ان نفوذ الولايات المتحدة كان ضخما مع ما يمكن لها ان نستعمله من قوة جبارة !

* * *

وفي ساعة متأخرة من ليل العشرين من شباط ، جاءني الخبر الى غرفتي القديمة في شارنويل بان المستر ايدن قد قدم استقالته من الوزارة · وهنا يتحتم علي ان اعترف بأني حزنت كثيرا ، وشعرت باليأس يسيطر علي · لقد مررت بظروف عصيبة طيلة حياتي ، وفي سنين الحرب ، وفي أحلك ساعاتها المرعبة لم أشعر بالقلق الذي يحرمني طعم النوم · ففي أزمة عام ١٩٤٠ حيث كانت المسؤوليات الضخمة ملقاة على عاتقي ، وفي السنوات الخمس التي تلتها، كنت فريسة للقلق والفزع ، الا انى كنت أمضي الى فراشي واغرق في سبات عميق ، واستيقظ في الصباح نشيطا ، لا أشعر بتعب الليل الفائت بل أمضي الى عملي لاواجه المشاكل الضخمة واحاول ان اعالجها · أما اليوم وفي ليل العشرين من شهر شباط عام ١٩٣٨ ، وفي هذه المناسبة فقط ، شعرت بالارق ، ولم أنم طوال الليل ، وبقيت حتى الصباح في فراشي افكر بكثير من الاسى والخوف بذلك الشاب القوي الذي صمد بوجه تيارات مخيفة من الانشقاق والاستسلام ، ومن الحسابات الخاطئة ، والدوافع الضعيفة ····

الفصل السابع

اغتصاب النمسا

عندما تنهزم دولة من الدول أثناء الحرب ، فانها تبقى محتفظة بكيانها وجهازها وسرية وثائقها ٠ وقد استطعنا ان نحصل على اسرار العدو بكامله ، بعد ان خضنا غمار الحرب الى نهايتها ٠ وكان بامكاننا ان نتأكد من صحة المعلومات التي توفرت لنا في السابق ، وما قمنا به اثناء الحرب على ضوء تلك المستندات والوثائق التي حصلنا عليها في النهاية ٠ ففي شهر تموز عام ١٩٣٦، كان هتلر قد أصدر أوامره باجراء الاستعدادات ووضع الخطط لاحتلال النمسا عندما يحين الوقت المناسب ٠ وقد دعيت هذه العملية عملية « اوتو » ٠ وقد كشف عن مخططه هذا في الخامس من شهر تشرين الثاني عام ١٩٣٧ عندما قال لقادة القوات المسلحة بانه يترتب على المانيا ان تضمن لنفسها « مداها الحيوي » وهذا المدى يمكن ضمانه في شرقي اوروبا ، أي بولندا وروسيا البيضاء واوكرانيا ٠ أما احتلال هذه البلدان فيعني حربا رئيسية وابادة للشعوب التي تعيش في تلك المناطق ٠ لذلك وجب على المانيا ان تصفي حسابها أيضا مع « العدوين المكروهين » انكلترا وفرنسا اللتين تعتبران ان قيام العملاق الالماني وسط اوروبا سيكون غير محتملا ٠ ولكي تستغل المانيا ما وصلت اليه من تفوق في الميدان العسكري ، وما بعثه الحزب النازي من حماس وطني صادق ، فان من الواجب عليها ان تقوم بالهجوم في أول فرصة ممكنة ، لكي تقضي على هاتين العدوتين ، قبل ان تتمكنا من الاستعداد ٠

لقد كان هناك سببان اخران دفعا بهتلر الى اغتصاب النمسا خلاف ما ذكره من تصميم في كتابه « كفاحي » من رغبته في ضم جميع الشعوب التوتونية

الى الرايخ · فاحتلال النمسا يعني فتح ابواب تشيكوسلوفاكيا من جهة ، ومداخل جنوب شرق اوروبا من جهة اخرى ·

أما داخل النمسا فكانت الحركة النازية تنمو مع كل انتصار يحققه هتلر سواء في داخل المانيا ام في خارجها · وقد صدرت تعليمات خاصة الى فون بابن لكي يبقى على أحسن العلاقات مع الحكومة النمساوية بالاضافة الى محاولته الحصول على اعتراف رسمي من الحكومة بالحزب النازي النمسوي كمؤسسة مشروعة · واتقن فون بابن دوره وعمل بذكاء كبير داخل النمسا ، وقد رضخ الكثير من الزعماء النمساوين لضغطه ومكائده · وكانت الحركة السياحية التي تعتمد عليها النمسا ، قد تاثرت الى حد كبير نتيجة للأضطرابات الداخلية ولاعمال الارهاب ولحوادث القنابل التي كانت تهز أسس الجمهورية النمسوية ·

وساد الاعتقاد ان الوقت قد حان لاستلام زمام الامور عن طريق ادخال زعماء الحزب النازي النمسوي الى الحكم عن طريق الوزراء ، بعد ان تم الاعتراف به مؤخرا ··

وفي الثاني عشر من شهر شباط عام ١٩٣٨ استدعى هتلر المستشار النمساوي الهر فون شوشنيغ الى مقره في برختسغادن · وحضر المستشار برفقة وزير خارجيته غيدو شميدت · وبين أيدينا الان نسخة عما كتبه شوشنيغ عن هذه المقابلة التي جرت بينه وبين هتلر ، وننقل النص الحرفي لهذا الحوار ·

وقد بدأ هتلر بالسخرية من التحصينات العسكرية التي اقامتها الحكومة النمسوية على الحدود وقال انها لا تتطلب أي مجهود من المعتدي سوى عملية عسكرية بسيطة لازالتها من الوجود · ثم استطرد قائلا :

هتلر : لن احتاج الا لاصدار أمر ، وستختفي هذه الخيالات المضحكة التي وضعتوها على الحدود ، في ليلة واحدة · ولا أظن انكم تصدقون ان في امكانكم الوقوف أمامي أكثر من نصف ساعة · ومن يعلم ، فقد أصل الى فينا فجاة كعاصفة من عواصف الربيع · وعندئذ ستختبرون تجربة جديدة · لكني اريد ان أوفر عليكم هذه التجربة ، التي ستكلفكم الكثيرين من الضحايا · فبعد الجيش ، سيصل جيش الصاعقة ، ثم الحرس النازي · وعندئذ لن يتمكن أحد من ان يمنعهم من الثأر ، حتى أنا نفسي · فهل تريد ان تجعل من النمسا اسبانيا اخرى · ان كل ما أريده أنا هو تجنيبكم كل هذا ·

شوشنيغ : ساوقف عملية التحصينات الدفاعية على الحدود في الحال ، كما اني واثق من انك تستطيع ان تزحف على النمسا · ولكن ، يا سيدي

المستشار ، ان زحفكم هذا سيؤدي الى سفك الكثير من الدماء وربما سيؤدي الى حرب عالمية ، فأنت تعلم اننا لسنا وحيدين في العالم !

هتلر : انه لمن السهل ان تقول كل هذا وانت جالس على كرسيك المريح ، الا ان وراء هذه الاقوال الكثير من الويلات والدماء ٠ فهل انت على استعداد لتحمل مسؤولية كلامك ؟ لا تعتقد ان في هذا العالم من يستطيع ان يقف بيني وبين ما قررت ان أنفذه ٠ أتقصد ايطاليا ؟ لقد تفاهمت مع موسوليني ونحن الان على خير ما نكون٠ مـ ن ؟ انكلترا ؟ لن ترفع اصبعا واحدا من أجلكم ! فرنسا ؟ لقد غامرت ، منذ سنتين ، عندما زحفت لاحتلال منطقة الراين بمجموعة من الكتائب ٠ ولو قابلت فرنسا هذا الزحف بالهجوم لاضطررت الى الانسحاب ٠٠٠٠ أما الان فقد أضاعت فرنسا الفرصة على نفسها ٠

حصلت تلك المقابلة الاولى في تمام الساعة الحادية عشرة صباحا ٠ وبعد الغذاء استدعي النمسويون الى غرفة صغيرة كان بانتظارهم فيها ريبنتروب وبابن ، حيث قاما بتسليمهم الانذار الخطي الذي لم يكن يقبل أي مناقشة ٠ وقد تضمن الانذار تعيين ٠ سايكس- انكورات وهو نمسوي نازي ، وزيرا للامن في الحكومة النمساوية ٠ كذلك تضمن الانذار عفوا شاملاً عن جميع النازيين المعتقلين ، ثم ضم الحزب النازي النمسوي رسميا الى الجبهة الوطنية التي تشرف عليها الدولة ٠

وبعد ذلك استقبل هتلر المستشار شوشنيغ وقال له : « ساكرر عليك ، ان هذه هي فرصتكم الاخيرة ٠ واني منتظر تنفيذ الشروط خلال ثلاثة أيام » ٠ وفي مذكرات « يودل » عن نفس هذه الحادثة العبارة التالية : « وقد تعرض فون شوشنيغ وغيدو شميدت الى أعنف ضغط سياسي وعسكري ، الى ان وقع البروتوكول في تمام الساعة الحادية عشر مساء » وعندما عاد فون بابن مع شوشنيغ قال له : « هذه هي طريقة الفوهرر ، وقد اختبرتها بنفسك ، ولكن في المرة المقبلة سيكون الفوهرر شخصا اخرا ، انه للحقيقة ساحر كبير »

ومضت المهزلة بأن أرسل موسوليني برسالة شفوية الى شوشنيغ يقول له ان ما جرى في برختسغادن كان مشرفا وعادلا ٠ ثم اكد له ان موقف ايطاليا من النمسا لن يتغير ابدا ، كذلك اعرب له عن اخلاصه وصداقته الشخصية له٠ وفي الثالث من شهر اذار بعث شوشنيغ برسالة سرية الى موسوليني يعلمه فيها انه قد عزم على اجراء استفتاء شعبي عن الوضع السياسي ٠ وبعد اربع وعشرين ساعة جاءه الرد من الملحق العسكري لبلاده ، يخبره باجتماعه بموسوليني ويحذره من مغبة هذا الاستفتاء الذي وصفه بانه « خطيئة » وقال

ان كانت النتيجة مرضية فسيقول الناس ان الاستفتاء لم يكن نزيها ، أما اذا لم يكن مرضيا فسيصبح وضع الحكومة حرجا للغاية · واذا كانت النتيجة ...ـة فلن تكون ذات نفع على الاطلاق · الا ان شوشنيغ لم يأخذ بنصيحة موسوليني وتحذيره ، فقد اعلن في اليوم التاسع من شهر اذار عن رغبته في اجراء استفتاء عام في جميع البلاد صباح الاحد القادم في الثالث عشر من الشهر الجاري ·

وفي بداية الامر ، بدا ان سايكس ـ انكوارت قد قبل بالفكرة · الا انه في صباح يوم الحادي عشر تلقى شوشنيغ مكالمة هاتفية من مركز الشرطة في فيينا تقول ان الحدود الالمانية في سالزبورغ قد اقفلت ، وسحب موظفي الجمارك الالمان وقطعت مواصلات السكك الحديدية · ووصلت رسالة ثانية من القنصل في ميونيخ تقول ان القوات الالمانية متاهبة للتوجه الى النمسا ···

وبعد قليل وصل سايكس ـ انكوارت ليخبره ان غورنغ طلب منه ان يلغى الاستفتاء خلال ساعة · واذا لم يصله الرد بالالغاء خلال المدة المذكورة فسيفترض ان سايكس ـ انكوارت قد منع من استخدام الهاتف للاتصال به · وانه سيتصرف على ضوء هذا الافتراض · وعندما علم شوشنيغ ان الجيش لا يمكن الاعتماد عليه ، ابلغ سايكس ـ انكوارت ان الاستفتاء قد الغي · وبعد ربع ساعة عاد هذا يحمل اليه خبرا سجله على ورقة كتب فيها :

« لا يمكن انقاذ الوضع الا باستقالة شوشنيغ في الحال ، واذا لم يعين سايكس ـ انكوارت خلال ساعتين مستشارا ، فان غزو المانيا للنمسا سيتلوه فورا » ·

وفي خلال هذا الوقت انتظر شوشنيغ وصول الرئيس ميكلاس ليقدم له استقالته · وعندما دخل الى مكتب الرئيس جاءته رسالة بالشيفرة من الحكومة الايطالية تقول انه ليس في امكانها تقديم النصح مرة اخرى او ان تقوم بأي عمل من اجلهم · ورفض الرئيس تعيين المستشار النازي ، وقرر ان يجبر الالمان على القيام بأعمال عنيفة معيبة · لكنهم كانوا على اتم الاستعداد لارتكاب هذه الاعمال ، فأصدر هتلر اوامره بالزحف على النمسا ومباشرة عملية « اوتو » ·

وفي محاكمات نورمبرغ قدمت هذه المحادثة الهاتفية التي دارت بين هتلر وبين الامير فيليب هيسي ، مبعوثه الخاص الى الدوتشي ، التي قدمت كوثيقة هامة ، وجدنا ان ننقلها بنصها الحرفي :

هيسي ـ لقد وصلت لتوي من قصر البندقية · وقد وافق الدوتشي على الموضوع بروح ودية · وهو يرسل اليك بالتحيات والاحترام · وقد وصلته المعلومات من النمسا ومن شوشنيغ بالذات · واعلن ان تدخل ايطاليا هو مستحيل ، وهو لن يعدو ان يكون الا كذبة كبيرة او « بلفة » وليس في امكانه ان يقوم بها · وهكذا افهم شوشنيغ ان سوء الحظ قضى بذلك ، ولا يمكن تبديل الامور الان · ولم يلبث ان أعلن موسوليني ان امر النمسا لا يهمه على الاطلاق ·

هتلر ـ حسنا ، اخبر موسوليني ، اني لن انسى عمله هذا ·

هيسي ـ نعم

هتلر ـ ابدا ، ابدا ، مهما حصل · وانا لا زلت مستعدا لاجراء معاهدة مختلفة معه ·

هيسي ـ نعم ، وقد اخبرته بذلك ايضا ·

هتلر ـ وعندما تنتهي عملية النمسا ، ساكون مستعدا للمضي معه الى آخر الطريق · ولن يهمني شيء ·

هيسي ـ نعم ايها الفوهرر

هتلر ـ اسمع ، ساعقد اي معاهدة · ولن اخشى بعد الان عما سيترتب من الناحية العسكرية اذا ما اشتبكنا في صراع ما · ويمكنك ابلاغه شكري العميق ، ولن انسى مطلقا عمله هذا ·

هيسي ـ نعم ، ايها الفوهرر

هتلر ـ لن انساه مطلقا ، مهما حدث · واذا ما احتاج الى اي مساعدة ، أو حين يجد نفسه في اي خطر فليثق باني سالازمه مهما حدث ، ولو كان العالم كله ضده ·

هيسي ـ نعم ، ايها الفوهرر

ولا شك عندما قام بانقاذه من الحكومة المؤقتة الايطالية عام ١٩٤٣ قد وفى هتلر بوعده ·

* * *

لقد كانت امنية العريف النمساوي ، ان يدخل الى فيننا دخول المنتصرين · وفي يوم السبت في الثاني عشر من شهر اذار ، اعد الحزب النازي استقبالا حافلا للبطل المظفر · الا انه لم يصل اي شخص الى

العاصمة ، بل وصل ثلاثة من الجنود البافاريين الذين قدموا لاعداد الترتيبات اللازمة للجيش المحتل ، فرفعوا على الاكتاف · وبدأت الاخبار تتسرب ببطء ، فقد توقف الجيش عند الحدود مترددا ، ثم بعد ذلك عند لينز · وبالرغم من الاحوال الجوية المؤاتية وسهولة المواصلات ، فقد تحطمت معظم الدبابات · وبانت نقائص المدفعية الثقيلة وعيوبها ، التي سدت الطريق من لينز الى فيينا المتوقفة عن الحركة · وقد القي باللوم على الجنرال فون ريخناو ، وهو من اقرب المقربين الى الفوهرر ، الذي كشف التقصير الفاضح في تجهيزات الجيش الالماني ·

وقد استاء الفوهرر كثيرا حين مر في شوارع لينز ورأى هذه الفوضى في حركة السيارات ، وامر بفصل الدبابات الخفيفة لتستمر في مسيرها ، وهكذا دخلت العاصمة في صباح يوم الاحد ، ثم نقلت السيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة وغيرها في شاحنات ضخمة لتصل الى فيينا في الموعد المحدد وتشترك في الاستعراض · ولا شك ان صورة هتلر ، لا تزال ماثلة امام اعيننا ، حين عبر بسيارته شوارع فيينا بين الوف الجماهير المحتشدة ، منهم المتحمس له ومنهم الخائف منه · الا ان الفوهرر لم يكن راضيا عن فشل آلياته الثقيلة ، وراح يوزع التهم على جنرالاته الذين ردوا عليه بأنهم جذروه من مغبة هذا الهجوم لان الجيش لم يكن مهيئا بعد للاشتراك في صراع كبير · الا ان الجميع سيطروا على اعصابهم ، فاحتفظوا بالمظاهر ، وسارت الاحتفالات الرسمية والاستعراضات في مواعيدها · وبانتهاء الاستعراض وقف هتلر واعلن حل الجمهورية النمسوية ، وضمها الى الرايخ الالماني ·

* * *

في هذه اللحظة كان الهر فون ريبنتروب يستعد لمغادرة لندن لاستلام مهام منصبه الجديد كوزير للخارجية · وقد دعى المستر تشمبرلين ، في هذه المناسبة الى حفلة غذاء تقام على شرف السفير بمناسبة سفره ·· وكنت من جملة المدعوين · وكانت زوجتي تجلس قرب السير الكسندر كادوغان على مقربة من طرف الطاولة · وبينما كنا نتناول الطعام جاء رسول من وزارة الخارجية يحمل رسالة الى السير الكسندر ، الذي ما ان قرأها حتى هب واقفا من مكانه ، ثم تقدم من رئيس الوزراء وسلمه الرسالة · وقد لاحظت ان الرئيس قد غرق في قراءة الرسالة ، التي بدت هامة للغاية ، بينما عاد السير الكسندر الى مكانه بكل هدوء · وكانت محتويات الرسالة ، كما علمت بعد

ذلك ، ان هتلر قد غزا النمسا في هذه اللحظة ، وان قواته تتقدم نحو العاصمة · وبعد قليل ، قامت السيدة تشمبرلين ودعت الحضور الى شرب القهوة في غرفة الجلوس · وبدا في هذه الدقيقة ان المستر تشمبرلين وزوجته ارادا انهاء المأدبة باسرع وقت ، فسيطر شعور من الخوف والقلق على الحضور ، وقاموا ليودعوا ضيف الشرف ·

اما فون ريبنتروب فكان محتفظا بهدوئه ووقاره ، كأنه غير عالم بما يحدث في تلك اللحظات · وتقدمت من السيدة ريبنتروب ، وقلت لها « ارجو ان تتمكن المانيا وانكلترا من الحفاظ على صداقتهما ··· » وقد اجابتني بلهجتها الرقيقة ··· « أرجو أن تحرصوا على ان لا تفقدوا هذه الصداقة » · وتأكد لي ان السفير وزوجته كانا على علم بما جرى ، وانهما يحاولان ابعاد الرئيس تشمبرلين عن عمله وعن جهاز الهاتف · الا انه اضطر الى ان يقول للسفير « انا آسف جدا ، لاضطراري للذهاب لامر هام جدا ··· » ثم غادر الغرفة على الفور · وبقي فون ريبنتروب وزوجته ، حتى اضطر الجميع بعد ذلك الى مغادرة المنزل · وكانت هذه اخر مرة شاهدت الهر ريبنتروب قبل ان يشنق ·

وتحرك الروس هذه المرة ، ليدعوا الى مؤتمر عام لبحث الوضع العام · واقترحوا اعادة البحث في مشروع تنفيذ الميثاق الفرنسي – السوفياتي ، ضمن حدود عصبة الامم ، في حال تكررت تهديدات المانيا للسلام · الا ان باريس ولندن استقبلتا هذا الاقتراح بكثير من البرود · فقد كانت فرنسا منشغلة بأشياء اخرى · وكان المستر تشمبرلين لا يزال على تشاؤمه وانهيار معنوياته ، ولم يكن ليتفق معي حول تفسير الاخطار المتوقع حصولها وامكانية تجنبها او معالجتها حين تحصل · فقد كنت في ذلك الوقت احبذ هذه الفكرة ، اي فكرة قيام تحالف فرنسي – بريطاني – روسي ، وكنت متأكدا ان هذا هو الحل الوحيد لكبح جماح النازيين ·

الفصل الثامن

تشيكوسلوفاكيا

عندما كان هتلر متجها في سيارته نحو فيننا ، التفت الى الجنرال فون هولدر وقال له « لا شك ان خطوتنا هذه ستقلق التشيكيين » • وادرك هولدر على الفور ما قصده هتلر بكلمته تلك ، وظهرت له نواياه المقبلة •

وقد سمعنا ان غورنغ ، يوم دخلت الجيوش الالمانيــة أراضي النمسا ، قال للوزير التشيكي المفوض في برلين ، مؤكدا له بصورة قاطعة بأنه ليــس لالمانيا اية نوايا سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا • كما اعلن المسيو بلوم ، رئيس وزراء فرنسا يوم الرابع عشر من شهر اذار ، في حديث له مع الوزير المفوض في باريس ، اعلن له بكل جدية ووقار ، ان فرنسا ستقوم بالتزاماتها تجــاه تشيكوسلوفاكيا دون اي قيد أو شرط • الا ان جميع هذه التأكيدات لم تستطع أن تغير شيئا من الحقيقة الرهيبة •

ومن جهة ثانية ، حاولت بريطانيا الوصول الى اتفاق مع ايطاليا حــول البحر الابيض المتوسط ، رغبة منها في وقف المانيا عند حدها ، كما ان مثـل هذا الاتفاق سيقوي من مركز فرنسا ، ويمكنها هي من مراقبه ما يجري مــن احداث في أواسط اوروبا • وقد حاول موسوليني ان يتخذ لنفسه مركزا قويــا للمساومة خاصة بعد ان اطمأن لسقوط ايدن • فقرر الاتفاق مع بريطانيا ، وتم توقيع الاتفاق الانكليزي الايطالي في السادس عشر من شهر نيسان عام ١٩٣٨، الذي يقضي بالسماح لايطاليا بالعمل في الحبشه واسبانيا على هواها ، مقابل حسن نيتها في أواسط اوروبا • وكانت وزارة الخارجية كثيرة التشكك في هذه

الاتفاقية · وقد قال لنا مؤرخ حياة تشمبرلين ، فيلينغ ، انه كتب في رسالة شخصية خاصة : « لو رأيت مسودة الاتفاقية التي قدمتها وزارة الخارجية ، لقلت انها كافية لان تجمد دبا قطبيا ! »

وكنت من ناحيتي اشاطر وزارة الخارجية مخاوفها تلك ·

وكان هتلر من جهته يراقب الوضع باهتمام ، فهو يعلم ان موسوليني بحاجة الى مساعدته حين تطلق يده للعمل في الحبشة ، وهذا ما سيفرض عليه قبول ما ستعمله المانيا في تشيكوسلوفاكيا · وراحت الدوائر الرسمية تدرس البيانات الانكليزية والفرنسية ، وشعرت بارتياح لعزم الدولتين الغربيتين على اقناع التشيكيين بوجوب التروي حفاظا على السلام في اوروبا · وفي هذه الاثناء ، بدأ الحزب النازي السوديني بزعامة هانلاين ، بوضع لائحة بمطالبه المتضمنة الحصول على الحكم الذاتي في المناطق المجاورة لالمانيا · وسارع الوزيران البريطاني والفرنسي الى زيارة الوزير التشيكي لاقناعه و « للاعراب عن املهما الصادق في ان تمضي الحكومة التشيكية الى هذا الحد ، رغبة منها في تسوية النزاع وحسمه » ·

وفي شهر ايار ، وصلت التعليمات من المانيا ، الى الالمان في تشيكوسلوفاكيا، بزيادة الاضطرابات · وكان موعد الانتخابات قد حان ، وبدأت الحكومة الالمانية تساعد الفوضى ، بحملة مركزة من حرب الاعصاب ، والاشاعات القائلة ان القوات الالمانية تتجمع على الحدود التشيكية · ولم تؤد التطمينات التي اذاعتها حكومة المانيا ، الى تهدئة التشيكيين الذين اعلنوا هم ايضا التعبئة العامة في صفوفهم ·

لقد كان هتلر متيقنا ان انكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب دفاعا عن تشيكوسلوفاكيا · لذلك دعا مستشاريه واصدر التعليمات بالاستعداد للهجوم على تشيكوسلوفاكيا · الا ان هذا الهجوم المطلوب لم يكن بالامر السهل ، اذ يترتب على المانيا ان تقذف نحوا من خمس وثلاثين فرقة عسكرية لتتمكن من اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية ، فالجيش التشيكي يعتبر من احدث الجيوش كفاءة وتجهيزا · هذا بالاضافة الى ان روسيا السوفياتية مرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا ، وهي تتربص بالمانيا في حال محاولتها الهجوم على الاراضي التشيكية ·

الا ان هتلر ، بالرغم من اعتقاده بنجاح فكرته بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ، فقد حاول ان يطمئن قادته الذين عارضوا فكرته تلك ، بأن قال لهم بانه لن يبدأ هجومه الا حين يتأكد ان فرنسا وانكلترا لن تتدخلا في

هذه المعركة. الا انه في الثاني عشر من شهر ايلول في خطاب القاه في اجتماع لشبيبة الحزب في نورمبرغ ، هاجم الحكومة التشيكوسلوفاكية بعنف ، ولم تلبث الحكومة هذه ان ردت عليه في اليوم التالي بأن فرضت الاحكام العرفية في بعض المناطق من الجمهورية ...

* * *

وفي الحادي والعشرين من شهر ايلول القى لتفينوف في جلسة الجمعية العامة لعصبة الامم انذارا رسميا هذا نصه :

« ان جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، تعاني في الايام الحاضرة من تدخل احدى الدول الاجنبية المجاورة ، في شؤونها الداخلية ، كما انها تتعرض لتهديد سافر بالهجوم عليها . ولذلك سيجد هذا الشعب الذي نعتبره من اعرق الشعوب الاوروبية حضارة ، والذي كافح طويلا من اجل الحصول على استقلاله ، سيجد هذا الشعب نفسه مضطرا على حمل السلاح من اجل الدفاع عن كيانه واستقلاله . وقد تلقيت منذ ايام سؤالا من الحكومة الفرنسية ، عن موقف بلادي في حال تعرضت تشيكوسلوفاكيا لهجوم اجنبي مفاجيء . وقد وجهت الى الحكومة الفرنسية جواب بلادي الصريح التالي :

« اننا سنقوم بالتزاماتنا وسنطبق ميثاق عصبة الامم ، وسنقدم كل مساعدة ممكنة لتشيكوسلوفاكيا ، وذلك بالتعاون مع فرنسا . كما ان وزارة الحربية على اتم الاستعداد للاشتراك في اي مؤتمر يعقد بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدرس الوسائل المناسبه لمواجهة الاحداث . »
كما ان حكومتي قد تلقت من الحكومة التشيكوسلوفاكية سؤالا حول موقف الاتحاد السوفياتي وهل هو على استعداد لتقديم المساعدات بموجب الاتفاق السوفياتي ـ التشيكي ، اذا قامت فرنسا هي الاخرى بالوفاء بالزاماتها . وكان جواب حكومتي على هذا السؤال واضحا بالايجاب . »

ولم يلق هذا البيان الصريح اذنا صاغية لا من حكومة بريطانيا العظمى ولا من حكومة فرنسا . فقد تجاهلت الدولتان هذا العرض ، ولم يحسب اي حساب لهذه الدولة الكبرى . وقد اثرت هذه المعاملة المنطوية على الكثير من الازدراء ، وتركت اثرا كبيرا على عقلية ستالين وتفكيره ، وقد كلفنا الازدراء والتجاهل الكثير من التضحيات الغالية فيما بعد .

والقى هتلر في السادس والعشرين من الشهر الحالي ، خطابا هاجم فيه بعنف تشيكوسلوفاكيا ورئيسها ، الا انه كان معتدلا تجاه فرنسا وبريطانيا العظمى . ومما قاله في خطابه ، انه يجب على تشيكوسلوفاكيا ان تتخلى فورا عن بلاد السوديت ، وانها اذا ما تخلت عن هذه المناطق ، فسيعتبر القضية منتهية تماما ولن يعود يهمه امر تشيكوسلوفاكيا على الاطلاق . واضاف بقوله ان هذا المطلب هو آخر مطلب اقليمي له في قارة اوروبا . وفي الساعة الثامنة من الليلة نفسها صدر البلاغ التالي عن وزارة الخارجية البريطانية :

« بالرغم من المحاولات المبذولة من جانب بريطانيا لتسوية المشكلة التشيكوسلوفاكيا ، واذا ما حدث ان تعرضت البلاد الى هجوم الماني عليها ، فان فرنسا ستسارع الى مساعدتها . كما ان بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي سيقفان بلا شك ، الى جانب فرنسا . »

وشعرت ان ساعة القتال قد اقتربت ، فقد كان عدد الجيش التشيكي مليونا ونصف المليون من الجنود المجهزين باحدث الاجهزة ، تساندهم آليات جبارة رائعة التنظيم . وبدأت تعبئة الجيش الفرنسي في الحال ، كما اصدرت الاميرالية البريطانية الاوامر بتعبئة الاسطول .

* * *

وفي هذه الاثناء ، بدأ الصراع بين هتلر ومستشارية . فقد بدا لهم ان الازمة قد تفاقمت بشكل خطير . فهناك نحو من ثلاثين الى اربعين فرقة مدرعة قد احتشدت على طول الحدود الشرقية لالمانيا ، كما ان الجدار الغربي للبلاد قد سدته الحشود الفرنسية التي كانت تفوق قوة المانيا بنسبة ثمانية الى واحد . كذلك الجيوش السوفياتية التي راحت تشق طريقها عبر بولنده ورومانيا ... وفي الحال قام فريق من الجنرالات الالمان بمؤامرة لاعتقال هتلر و « انقاذ المانيا من هذا المجنون »

وفي هذا الوقت ، ابرق المستر تشمبرلين الى هتلر ، دون ان يستشير احدا ، مقترحا عليه زيارته وطار المستر تشمبرلين الى المانيا وقد اقتنع ان حل المشكلة التشيكية هو في فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا ، ولذلك سيقنع هتلر ويتخلى عن هجومه . وفي ميونيخ ، حيث نزل المستر تشمبرلين ، لحق به المسيوديلادييه رئيس وزراء فرنسا ، وموسوليني ، ولم توجه دعوة الى روسيا لحضور هذا الاجتماع ، كما لم يسمح للتشيكيين بالحضور ايضا . وقد ابلغت الحكومة التشيكوسلوفاكية بان مؤتمرا سيعقد في اليوم التالي يضم ممثلين عن الدول الاوروبية الاربع فقط . وانعقد المؤتمر

عند الظهر من اليوم نفسه واستمر حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ، وتم الوصول الى اتفاق بين « الاربعة الكبار » ، واعدت مذكرة وقع عليها الجميع في الجلسة نفسها ، وكانت المذكرة تتضمن قبولا بكل ما تطلبه المانيا وموافقة تامة على وجوب الجلاء عن منطقة السوديت خلال عشرة ايام ، كما تقرر تعيين لجنة دولية للاشرا فعلى تخطيط الحدود النهائية ·

وهكذا بدأت عملية تقطيع تشيكوسلوفاكيا · ولم تنتهي المشكلة عند هذا الحد ، فقد وجهت بولندا انذار الى الحكومة التشيكوسلوفاكية يقضي بتسليم منطقة « تيشين » الواقعة على الحدود بين البلدين ، و ذلك خلال اربع وعشرين ساعة ، ولم يكن هناك من سبيل لرفض هذا المطلب القاسي · كما جاء المجريون يطالبون هم ايضا بحصتهم من الغنيمة ·

* * *

ليس من السهل ، بعد ان مررنا خلال تلك السنوات القاسية ان نصور للاجيال القادمة حقيقة المشاعر المتأججة في نفوس البريطانيين نتيجة لاتفاق ميونيخ · فقد انقسم الرأي بين افراد أسر المحافظين واصدقائهم الى حد كبير جدا لم أر مثيلا له في حياتي · وكان الرجال والنساء الذين تربطهم ببعضهم البعض علاقات متينة ينظرون الى بعضهم البعض نظرات كلها احتقار وغضب · ونحن لم نكن لنهتم كثيرا آنذاك بالرغم من نظرات السخرية والهزء التي يقابلنا بها انصار الحكومة · واهتزت اركان الحكومة ، الا انها ظلت متماسكة · ولم يصمد الا وزير البحرية المستر دا فكوبر ، الذي قدم استقالته بعد ان بقي محافظا على كرامته حين أمر بتعبئة الاسطول · ففي الوقت الذي كان المستر تشمبرلين يسيطر على الرأي العام البريطاني سيطرة تامة ، كان المستر كوبر يندفع من بين الصفوف ليعلن الى الرأي العام معارضته التامة لموقف رئيسه ·

والقى المستر كوبر خطاب استقالته ، في مجلس العموم اثناء مناقشة موضوع اتفاق ميونيخ · وقد اعتبرت هذه الاستقاله حدثا بارزا في الحياة البرلمانية · وتحدث الوزير لمدة اربعين دقيقة بحرية تامة مرتجلا خطابا وطنيا سيطر فيه على مشاعر خصومه ومعارضيه من نواب الحزب · وصفق له نواب العمال والاحرار المعارضين للحكومة ، طويلا وهتفوا له محيين · و كانت هذه الحادثة بداية انشقاق في حزب المحافظين ·

ولا زلت اذكر حين قمت في المجلس وأعلنت « اننا قد منينا بهزيمة منكرة

لم يسبق لها مثيل » فقد ثارت ضدي عاصفة ضخمة في المجلس مما اضطرني الى التوقف عن الكلام لفترة قبل ان اعود الى متابعة كلامي · فقد كان هناك شعور من الاعجاب بما يبذله المستر تشمبرلين من جهود صادقة للمحافظة على السلام ، وخاصة محاولاته الشخصية التي قام بها في هذا الصدد · وهنا لا بد لي من ذكر الاخطاء وسوء التقدير للحقائق الراهنة التي وقع فيها تشمبرلين في محاولاته ، وان كنت لا اعارض الدوافع التي حدت به الى اتخاذ المواقف التي وقفها والتي تحتاج الى الكثير من الشجاعة الادبية التي كان المستر تشمبرلين يتمتع بها · وقد مدحت فيه هذه الشجاعة بعد عامين في خطابي الذي القيته بمناسبة وفاته ·

لقد كان في امكان الحكومة ان تعتمد حجة أخرى، بالرغم من انها تعرض بسمعة الحكومة نفسها · فلم يكن امر عدم استعدادنا لدخول الحرب بالامر الخفي ، لكن هل كان من هو اسرع مني للادلال على هذه الحقيقة ؟ لقد سمحت بريطانيا للقوة الجوية الالمانيا انتتفوق عليها· وكانت جميع مراكزنا معرضة للهجوم ، دون اي حماية · ولم يكن في بلد من اكبر بلدان العالم واكثرها كثافة في السكان ، سوى مائة مدفع مضاد للطائرات · وهذا المثل من ابسط الادلة على الواقع الاليم ·

لقد ادى اتفاق ميونيخ الى سلب الحلفاء جيشا قويا ، هو الجيش التشيكوسلوفاكي المجهز باحدى وعشرين فرقة نظامية ، بالاضافة الى فرق الخط الثاني التي تبلغ ست عشرة فرقة · اما خط دفاعها المحصن ، فقد كان يتطلب في هذه الاثناء ، ثلاثين فرقة المانية اي ما يعادل قوة الجيش الالماني الرئيسية باسرها · وقد ذكر الجنرال الالماني يودل ان ثلاث عشرة فرقة المانية ، بقيت في الغرب عندما جرى توقيع اتفاقية ميونيخ · وكانت الخسارة الفادحة حين قضت تلك المعاهدة بسلخ جزء هام من الاراضي التشيكية بما فيها مصنع سكودا البالغ الاهمية الذي كان يعتبر اهم مصنع في اوروبا الوسطى ، وكان انتاجه بين شهر آب ١٩٣٨ وايلول ١٩٣٩ معادلا لما تنتجه جميع المصانع البريطانية من سلاح · وبذلك اصبح هذا المصنع ملكا خاصا لهتلر قدمناه له على طبق من فضة ·

الفصل التاسع

براغ ، البانيا ، وضمانة بولندا

في شهر كانون الثاني عام ١٩٣٩ . سافر فون ريبنتروب الى وارسو لمواصلة هجومه الدبلوماسي المركز على بولندا · فابتلاع تشيكوسلوفاكيا يجب ان يتبعه حصر بولندا · والمرحلة الاولى تقضي بعزلها عن البحر وتأكيد سيادة المانيا في دانزيغ ، ومد سلطتها على سواحل البلطيق حتى ميناء ميميل الليتوني · اما الحكومة البولندية فقد قاومت بشدة هذا الضغط ، بينما كان هتلر يترقب الفرصة المناسبة لبدء العمليات العسكرية ·

وفي شهر اذار انتشرت الشائعات عن تحركات مريبة تقوم بها الجيوش الالمانية في المانيا والنمسا، خاصة فيمنطقة فينا سالزبورغ وقد قالت الشائعات ان اربعين فرقة قد اصبحت جاهزة للمعركة · وفي نفس الوقت كان السلوفاكيون ، بعد ان تأكدوا من ان المانيا ستقوم بمعاونتهم ، يخططون لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية · واحست بولندا بشيء من الارتياح ، بعد ان زال الخطر عنها مؤقتا ، واعلن وزير خارجيتها في وارسو ان حكومته تعطف على مطالب وآمال السلوفاكيين ·

وفي بريطانيا ساد الشعور بالتفاؤل الضال على الرغم من المحن التي كانت تقاسيها تشيكوسلوفاكيا في ذلك الحين نتيجة للضغط الهائل من المانيا · اما الصحف البريطانية التي سبق وايدت اتفاقية ميونيخ ، فلم تفقد ثقتها في السياسة التي جرت اليها البلاد · وقام وزير الداخلية والقى خطابا في العاشر من شهر اذار اعرب فيه عن امله في مشروع خمس سنوات من السلم يؤدي

بعد ذلك الى خلق « العصر الذهبي » · وكان البحث جاريا لانشاء علاقات تجارية مع المانيا · وقامت الصحيفة الاسبوعية الشهيرة « بنش » بنشر صورة كاريكاتورية لجون بول ، وهو يستيقظ من كابوس مرعب · وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه هذه الصورة ، وجه هتلر اخر انذار الى الحكومة التشيكية التي اصبحت ضعيفة واهنة بعد ان ضاعت خطوطها الدفاعية المحصنة نتيجة لاتفاقيه ميونيخ وهجمت الجيوش الالمانية على العاصمة براغ واحتلتها دون مقاومة · ولا زلت اذكر اني كنت في غرفة التدخين ، اجلس مع المستر ايدن حين طالعتنا صحف المساء بهذا النبأ الهام · وقد ذهلنا من هذا العدوان السافر المفاجيء الذي لم نكن نتوقعه · ولم نصدق ان حكومة جلالته ، بما لديها من اجهزة قوية للاستخبارات لم تعلم من قبل بمثل هذا الهجوم المفاجيء ·

وفي اليوم الرابع عشر من اذار اعلن السلوفاكيون استقلالهم · واجتازت القوات المجرية التي تؤيدها بولندا ، اجتازت الحدود الى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا التي سبق وطالبت بها · ووصل هتلر بعد قليل الى براغ ليعلن فرض حماية المانيا على تشيكوسلوفاكيا ويعلن ضمها الى الرايخ الالماني ·

وكان رد المستر تشمبرلين على هذا العدوان في خطاب القاه في مجلس العموم يوم الخامس من شهر اذار حيث قال : « في تمام الساعة السادسة من هذا الصباح تم احتلال القوات الالمانية لبوهيميا ، كما اصدرت الحكومة التشيكوسلوفاكية اوامرها بعدم المقاومة · » ثم قال عن الضمانة البريطانية لحدود تشيكوسلوفاكيا : « لقد تبدلت الاوضاع كلية عندما اعلن مجلس الدايت السلوفاكي انفصاله واستقلال سلوفاكيا · وادى بالتالي هذا الاعلان الى نهاية الدولة التي ضمنا حدودها بسبب من الانشقاق الداخلي · لذلك فان حكومة جلالته تجد نفسها غير مرتبطة بذلك الالتزام ··· »

وكان من المقرر ان يلقي رئيس الوزراء المستر تشمبرلين خطابا في برمنغهام بعد يومين · وكنت اتوقع ان يكون هذا الخطاب متسامحا ، الا اني فوجئت بتغير شامل لم اكن انتظره · وقد ادرك تشمبرلين الخطأ الذي وقع فيه كما ادرك انه خدع نفسه ، وفرض هذا الخطأ على الراي العام البريطاني · فبدل موقفه المسالم السابق مديرا له ظهره ، وقام ليكشف امام العالم عن حقيقة شخصيته القاسية الصلبة · قام المستر تشمبرلين ليلقي خطابا عنيفا هاجم فيه هتلر بشدة متهما اياه بالتنكر لجميع الوعود التي قطعها على

نفسه في مؤتمر ميونيخ وذكر جميع التأكيدات التي اكدها هتلر حين قال « ان هذا هو آخر مطلب اقليمي لنا في اوروبا » وقال رئيس الوزراء :

« لقد كانت غالبية الشعب البريطـاني مقتنعـة ، بعد مؤتمر ميونيخ ، بوجوب التقيد بسياسة الحفاظ على السلام ، اما الان فـلا يسعنـي الا ان اشارك هذا الشعب خيبة امله المريرة وسخطه الشديد لتحطيم تلك الآمـال ٠ اذ كيف يمكننا جمع هذه النقائض بين تاكيدات هتلر السابقة واحداث هذا الاسبوع ؟ وكيف سنطمئن الى ان هذا الهجوم لن يتلوه الهجوم الجديد علـى دولة صغيرة اخرى ؟ وهـل سيكون هجومـه هذا كخطوة اولـى نحو فرض سيطرته على العالم بالقوة ؟

وفي الثلاثين من شهر اذار اعلن المستر تشمبرلين في البرلمـان : بعد ان تأكد له ان خطوة هتلر التالية هي الهجوم على بولندا وابتلاعها ٠٠

« في حال وجود اي اعتداء من شانه ان يهدد استقلال بولندا ، فـان حكومة جلالته ستجد نفسها مضطرة في الحال الى مساعدة الحكومـة البولندية بكل ما في وسعها ٠ وقد اكدت حكومة جلالته ذلك الى الحكومة البولندية ٠

« واود في هذه المناسبة ان اقول ، ان حكومة فرنسا قد فوضتني ان اوضح موقفها المطابق لموقفنا من هذه المسالة الهامة ٠٠٠ وقد ابلغت جميع حكومات الدومينيونات بهذا القرار ٠ » !!

ولم يكن الوقت يسمح لتبادل التهم بين الاحزاب في المجلس ، وايد جميع الزعماء الضمانة التي قدمتها الحكومة الى بولندة ٠ وقلت معلقا على هـذا القرار « لن نجد اية وسيلة اخرى سوى ان نعمل هذا » فقد كان هذا العمل ضروري بعد ان وصلنا الى هذا الحد ٠ ولكن هذه الضمانة تعني حتما نشوب حرب عالمية ٠٠٠

وهكذا نصل الان في هذه القصة من الاحكام الخاطئـة التـي ارتكبهـا رجال اكفاء من ذوي النيات الحسنة ٠ ولا شك ، بعد ان وصلنا نتيجة لتلك الاخطاء الى هذا المأزق ، لنضع المسؤولين عن زمام الامور مهما كانت نياتهم حسنة ، يتحملون وزر اعمالهم امام التاريخ ٠ وبنظرة الى الوراء سنجد ما سبق وقبلناه او ما سبق وتخلينا عنه : لقد كانت المانيا منهوكة القوى مجردة من السلاح بفضل معاهدة صارمة ٠ وبعد ذلك قامت المانيا لتتسلح من جديد وتتحدى تلك المعاهدة ، ثم تخاذلنا فتقوقت علينـا المانيـا في ميـدان الطيران الحربي ، ثم احتلت منطقة الراين بالقوة واحتلت بناء تحصينات خط سيغفريد،

ثم انها اقامت معاهدة محور بينها وبين ايطاليا ، ثم انقضت على النمسا وابتلعتها · ثم تخلينا نحن عن تشيكوسلوفاكيا ، وساعدنا على تحطيمها حين وقعنا معاهدة ميونيخ وسلمنا بذلك خط دفاعها المحصن الى الالمان بالاضافة الى مصانع السلاح في سكودا التي انتقلت بموجب تلك المعاهدة الى ايدي الالمان ليقوموا بتزويد انفسهم بالسلاح · ثم تجاهلنا وساطة ومساعي الرئيس روزفلت لاقامة سلام في اوروبا ، ثم اهمالنا لرغبة الاتحاد السوفياتي الصادقة في الاشتراك مع دول الغرب لانقاذ تشيكوسلوفاكيا · كل هذه الاخطاء والتخليات ذهبت هباء منثورا ·

والان جاءت بريطانيا لتقدم ضمانتها لبولندا ، تلك الدولة التي ساعدت على تقطيع اوصال تشيكوسلوفاكيا قبل ستة اشهر فقط · وسنضطر الان لكي ندافع عنها ان نهاجم المانيا التي اصبحت اكثر قوة ومناعة مما كانت عليه عام ١٩٣٨ حين تراجعنا · اما الآن فقد عقدنا العزم على مجابهة المانيا · لكن هذا القرار قد اتخذناه في اسوأ الظروف ، وعلى اسس غير مقنعة والتي ستؤدي بحياة الملايين من البشر ···

* * *

ودفع البولنديون ثمن مقاطعة تيشن التي استولوا عليها من تشيكسلوفاكيا · فعندما استقبل فون رينبتروب سفير بولندة في برلين ، كانت لهجته جافة حادة اكثر من المرات السابقة ، فقد نجم عن احتلال بوهيميا وانشاء دولة سلوفاكيا ، وصول الجيش الالماني الى حدود بولندا الجنوبية · وقد قال له السفير البولوني ، ان رجل الشارع العادي لا يمكنه فهم السبب الذي دعا المانيا الى حماية سلوفاكيا بشكل يعتبر عملا عدوانيا موجها ضد بولندة ، كما طلب السفير معلومات عن المحادثات التي جرت بين فون ريبنتروب ووزير خارجية ليثوانيا ، وبالاخص فيما يتعلق بمرفأ ميمل · ولم يأت الرد على سؤاله هذا الا بعد يومين حين احتلت المانيا هذا المرفأ ·

ولم يعد بالامكان صد الهجوم الالماني على اوروبا الشرقية · اذ ان المجر قد وقفت الى جانب المانيا · كما انبولندا حينتخلت عن تشيكوسلوفاكيا اصبحت غير مستعدة للتعاون مع رومانيا ، كما انها ورومانيا لا ترضيان بمرور القوات الروسية عبر اراضيها للوقوف في وجه المانيا · وكان محور الموضوع يدور حول التفاهم مع روسيا بالذات !!

وفي السادس والعشرين من شهر اذار القى موسوليني خطابا عنيفا بين فيه بشدة مطالب ايطاليا من فرنسا بشأن البحر الابيض المتوسط · وفي

السابع من نيسان نزلت القوات الايطالية في البانيا ولم تلبث ان احتلت البلاد كلها بعد مدة وجيزة . وهكذا اصبحت البانيا نقطة ارتكاز للجيوش الايطالية للاعتداء على اليونان ، بالاضافة الى تهديدها ليوغوسلافيا وشل حركتها .

وفي الخامس عشر من نيسان بعث الرئيس روزفلت رسالتين شخصيتين الى هتلر وموسوليني طلب منهما التعهد بعدم القيام باي عدوان جديد لمدة عشر سنوات او خمس وعشرين سنة ... وقد رفض موسوليني ان يقرأ الرسالة تلك . الا انه قال بعد ان قرأها : « انها نتيجة لمرض شلل الاطفال ». ولم يكن ليعلم انه سيعاني هو نفسه فيما بعد من آلام مبرحة اشد من آلام شلل الاطفال .

★ ★ ★

في شهر اذار من السنة نفسها ، شاركت في وضع مشروع قرار الى المجلس نطلب فيه تاليف حكومة جديدة . وقد شاركني في وضع هذا المشروع حوالي ثلاثين نائبا محافظا من بينهم المستر انطوني ايدن . وظهرت حركة قوية تدعو الى تاليف حكومة جديدة قوية ، واستمرت طوال الصيف . وكانت الشعارات تنادي بادخالنا الى مثل هذه الحكومة . وشعر السير ستافورد كريبس ، الذي كان مستقلا في موقفه ، احس بقلق شديد من الاخطار التي تهدد الوطن . وقام بزيارتي وزيارة عددا من الوزراء ودعى الى تاليف حكومة « تضم الجميع » . ولم يكن باستطاعتي ان افعل شيئا في هذه الحال، الا ان وزير التجارة ، المستر ستانلي ، كان متحمسا لهذه الفكرة ، فكتب الى المستر تشمبرلين عارضا منصبه الوزاري اذا كان هذا يسهل اعادة تاليف وزارة جديدة وعلى اسس جديدة . وقد اكتفى المستر تشمبرلين باستلام رسالته دون التعليق عليها .

وتبنت الصحف هذه الفكرة على مرور الايام، وتزعمت الدايلي تلغراف والمانشستر غارديان هذه الحملة وراحت تطالب بوزارة جديدة . وقد دهشت لهذا الحماس في المطالبة بوزارة جديدة ، وصرت ارى في الشوارع اللافتات ترتفع وتحمل شعارات « تشرشل يجب ان يعود » . وبدات التظاهرات السلمية تجوب العاصمة وتتجمع امام المجلس تطالب باشتراكي بالوزارة . ولم اكن في ذلك الحين على اطلاع بهذه الاساليب من الاثارة ، الا انه لو طلب مني المشاركة في الحكم لما ترددت في ذلك . وقد شاء الحظ ان يحالفني في هذه الفترة ، فسارت الامور بطريقها الصحيح لتؤدي الى النتيجة المرتقبة والمخيفة ...

الفصل العاشر

على حافة الحرب

واخيرا وصلنا الى النقطة الحاسمة، التي تدهورت فيها جميع علاقاتنا مع المانيا ، والتي راحت تهدد بالانقطاع ٠ ونحن الان نعرف ان هذه العلاقات لم تكن صادقة بين بريطانيا منذ اليوم الذي جاء فيه هتلر الى سدة الحكم ٠ فقد كان هتلر يحاول اكراهنا بشتى الوسائل والطرق على قبول الوضع الحاضر والسماح له باطلاق يده في شرق اوروبا بينما كنا نقوم بدورنا في تهدئــة الخواطر بكل اخلاص ٠ وها قد جاء الوقت الذي فقدت فيه حكومة تشمبرلين كل أمل في تسوية الوضع المتأزم ٠ وما ان اقتنعت الوزارة ان المانيا جادة في طريق الحرب ، حتى سارعت الى عقد المحالفات ومنح الضمانات دون تفكير بما قد تجره هذه الضمانات علينا من اعباء مرهقة ، بالاضافة الى امكاناتنا المحدودة في تقديم العون لتلك البلاد ٠ وهكذا منحت ضمانات اخرى بالاضافة الى الضمانات السابقة ، الى كل من اليونان ورومانيا وعقدت حلفا مع تركيا٠

وترتب بالتالي ، على الحكومة ، ان تدرس امكــانية تطبيق الوســائل العمليــة لتنفيذ هذه الضمانــات نحو بولندا وروما نيــا ٠ وقد كــانت هذه الضمانات غير ذات قيمة ، من الناحية العسكرية ، ما لم تكن ضمن برنــامج من الاتفاقات يعقد مع روسيا ٠ وحاولت الوزارة ان تنفذ هذا التحالف مــع روسيا فطلبت من السفير البريطاني في موسكو ان يبدا سلسلة من المحادثات مع المسيو لتفينوف ٠ ولم إكن انتظر اية نتيجة من هذه المحادثــات بسبب معاملتنا الجافة لروسيا في السابق٠ وبالرغم منذلك فقد قدم الروس مشروعا

لعقد تحالف بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي يقضي بتقديم العون الى دول اوروبا الشرقية التي تتعرض للغزو الالماني • وكانت العقبة الكبرى التي عرقلت هذا التحالف ، هو خوف تلك الدول الصغيرة من التعاون مع روسيا الذي يقضي بدخول الجيوش السوفياتية الى اراضيها للدفاع عنها ضد المانيا ، والسبب في ذلك خوفها من قلب نظام الحكم الحاضر وضم تلك البلاد الى النظام الشيوعي السوفياتي التي كانت تعارضه تلك البلاد • ووقعت البلاد في حيرة من امرها ، هل تخاف الغزو الالماني اكثر ام العون الروسي • وكان هذا التردد السبب في شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية في تلك المنطقة •

وقف المستر تشمبرلين مذهولا امام هذه المشكلة الجديدة ، وبدأ طريقة المماطلة والتسويف • ولو انه قبل هذا العرض الروسي لتغير وجه التاريخ وسارت الامور بطريقة تختلف عما وصلت اليه ، وعلى الاقل ، لن تكون النتيجة باسوأ مما اصبحت عليه بالفعل •

وساد الصمت ، واعدت انصاف الحلول والتسويات والمساومات • واصيب المشروع بضربة قاصمة ، ومنيت محادثات ليتفينوف بالفشل الذريع ، وبدا له ان التفاهم مع الدول الغربية اصبح مستحيلا ، وفقدت الثقة بين الروس والغرب ، وشعروا بوجوب اتباع سياسة خارجية مختلفة تماما عن السابق ، وذلك للحفاظ على سلامتهم • وصدر البيان الرسمي القاضي بعزل لتفينوف من منصبه في وزارة الخارجية ، وتكليف مولوتوف، رئيس الوزارة، بمهام الوزارة بدلا منه • وهكذا تم اقصاء الوزير اليهودي الذي كانت المانيا تكره وجوده ، وتعاون مولوتوف مع ستالين نفسه في رسم سياسة خارجية جديدة اكثر تحررا من السياسة السابقة ، واكثر انسجاما مع مصلحة روسيا الخاصة • ولم يكن امامهم الا طريقا واحدا ، هو تأييد هتلر المطلق •

* * *

كان خوفي شديدا من تراجع حكومة جلالته عن ضمانتها لبولندا في حال تعرضها لهجوم الماني واسع النطاق • ولكن المستر تشمبرلين كان قد عقد العزم على خوض معركة ضارية مهما كان هذا العزم مريرا بالنسبة له• ولكنني لم اكن على معرفة وثيقة به كما اصبحت فيما بعد • وكان خوفي ان يقوم هتلر « ببلفة » جديدة من بنات افكاره ، كاختراعه لسلاح جديد رهيب يمكنه من تخويف مجلس وزارتنا المثقل بالاعباء • وكان الاستاذ ليندمان

يحدثني دائما عن الطاقة الذرية ، وقد طلبت اليه ان يطلعني على المعلومات الكافية حول هذا الموضوع ، ففعل وبعثت برسالة الى كنغزلي وود ، وزير الطيران ، هذا نصها :

« قرأت في احدى الصحف قبل اسابيع ، عن قصة الطاقة الهائلة التي يمكن بعثها من الاورانيوم ، وقد توصلت الاختبارات الحديثة الى اكتشاف هذه الطاقة بعد ان يتجزأ هذا النوع من الذرة بواسطة النيوترون • وقد اوحت هذه التجارب عن وجود قوة هائلة من المتفجرات التي يمكن ان تحتوي على قوة تدميرية مخيفة • ولكن يمكننا الاطمئنان الى ناحية هامة ، هوان هذا الاكتشاف الجديد لا يمكن وضعه في موضع الاستعمال قبل عدة سنوات •

« وهناك دلائل تشير الى ان القصص والروايات ستحاك حول امكانية استخدام هذا الاختراع العلمي الجديد لاستخراج مواد متفجرة سرية منه ، قادرة على محو لندن من الوجود • وستجري محاولات عديدة من قبل رجال الطابور الخامس لاقناعنا باستخدام هذه التهديدات لقبول عملية استسلام من نوع جديد • لذلك رأيت من واجبي ان الفت نظرك الى ذلك •

« اما الخوف من ان يكون الالمان قد اكتشفوا مثل هذا السلاح الرهيب ، فهذا لا يستند الى اي اساس علمي صحيح • ولا شك في ان التلويح بهذا السلاح سيظهر وستنتشر الاقاويل المخيفة وستتضخم الاشاعات ، وكل املي ان لا تأخذ الجهات المسؤولة بهذه الاشاعات المضخمة • »

لقد كان هذا التكهن صحيحا ودقيقا بنفس الوقت • فالالمان لم يجدوا الطريق الصحيح ، بل تبعوا طريقا خاطئا وما لبثوا ان تخلوا عن فكرة البحث عن اختراع القنبلة الذرية ، واستمروا في ابحاثهم لاختراع الصواريخ الموجهة والطائرات التي تطير دون طيارين، بينما كنت والرئيس روزفلت نتخذ المقررات الهامة التي سأتي على ذكرها في الوقت المناسب ، لاتمام صنع القنابل الذرية على نطاق واسع •

في السابع من شهر تموز صرح موسوليني للسفير البريطاني بكلمة حول

موقف بلاده من المانيا فقال : « قل لتشمبرلين ، انه اذا كانت بريطانيا راغبة حقا في الدفاع عن بولندا وحمل السلاح من اجلها ، فان ايطاليا لن تتأخر عن حمل السلاح والاشتراك مع حليفتها المانيا » . اما موقف موسوليني المستتر فكان اهتمامه الشديد في تثبيت مركزه في البحر الابيض المتوسط وشمال افريقيا، وحصوله على نتائج مرضية من جراء تدخله في اسبانيا ، واحتلاله لالبانيا . ولم يكن يرغب في الدخول في حرب اوروبية من اجل احتلال المانيا لبولندا . فبالرغم من تبجحه وادعاءاته فكان يدرك في قرارة نفسه ضعف مركزه العسكري السياسي . وربما كان على استعداد للدخول في الحرب عام ١٩٤٢ بعد ان تزوده المانيا بالسلاح اما في عام ١٩٣٩ فلا ، ثم لا ...

وفي الصيف ، بعد ان اشتد الضغط على بولندا ، اراد موسوليني ان يمثل الدور الذي مثله في ميونيخ ، كوسيط للسلام . الا ان هتلر كان قد عقد العزم على احتلال بولندا ، واوضح لتشيانو عن تصميمه لتسويه الوضع مع بولنده ، وانه سيضطر للدخول في حرب مع انكلترا او فرنسا ، وهو يطلب من ايطاليا الدخول معه في هذه الحرب ، وقال : « واذا قررت انكلترا الاحتفاظ بقوات كافية في بلادها ، فعليها ان ترسل بفرقتين من المشاة الى فرنسا مع فرقة مدرعة . وعليها ان تبعث بقاذفات القنابل الى المانيا ، اما الطائرات المقاتلة فيمكنها الاحتفاظ بها في بلادها ، لانها ستحتاج اليها هناك ، لان قواتنا الجوية ستهاجم انكلترا في الحال . وستحتاج الى تلك المقاتلات للدفاع عن بلادها . » اما عن فرنسا فقال ان تدمير بولندا لن يستغرق طويلا ، وستتمكن المانيا مـ حشد جيوشها على خط ماجينو وستكون على اتم الاستعداد للدخول في معركة الحياة او الموت .... ورجع تشيانو لينقل الى رئيسه ما سمعه من هتلر ، فلقاه مقتنعا هو الاخر ان الدول الديمقراطية ستخوض الحرب ، كما وجده اكثـر تصميما على البقاء خارجها .

وقامت محاولات جديدة للتقرب من روسيا ، الا انها باءت جميعها بالفشل الذريع ، وقد قال لي ستالين حين زرته في شهر اب عام ١٩٤٢ ، عندما كنا في الكرملين ، موضحا ناحية واحدة من موقف روسيا عندما قال : « لقد تأكد لنا ان الحكومتين البريطانية والفرنسية غير عازمتين على الدخول في حرب مع المانيا اذا ما هاجمت بولندا ، وان رغبتهما في عقد الحلف الروسي ــ الفرنسي ــ البريطاني ليست كما تبدو في الظاهر ، بل لرغبتهما في كبح جماح هتلر . وكنا على ثقة تامة ان هذا الحلف لن يوقف هتلر . »

وقد سأل ستالين احد المفاوضين : « كم فرقة تستطيع فرنسا ان تقذف بها الى الميدان ضد المانيا ؟ » وكان الرد « مائة فرقة » ثم سأل « وكم تستطيع انكلترا ان ترسل ؟ » وجاءه الرد « فرقتين اولا ، ثم فرقتين فيما بعد » ·

ثم سأل « هل تعلمون كم فرقة نستطيع ان نقذف الى الميدان في حـــال دخلنا الحرب ضد المانيا ؟ » ولما لم يجبه احد من المتفاوضين استطرد قائلا : « اكثر من ثلاثماية فرقة ! » ····

وهنا ارى من الواجب ان اسجل نص الميثاق المعقود بين المانيا وروسيا، بعد ان فشلت المحاولات الغربية لاشراك روسيا في حلف ضد المانيا ، وبعد ان اتجهت روسيا نحو المانيا التي سارعت الى عقد ميثاق عدم اعتداء هذا نصه ·

« ترى الدولتان المتعاقدتان ، ان من الواجب عدم القيام باي عمل

وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق باحتفال رسمي كبير ، وقام ستالين ليشرب نخب هتلر وقال : « انا اعرف ان الشعب الالماني يحب زعيمه حبا كبيرا · لذلك احب ان اشرب نخبه » ·

نستخلص مما تقدم ان الاستقامة هي السياسة المثالية · وسنرى فـــي هذا الكتاب امثلة عديدة على هذه النظرية · فقد يبدو الساسة والدهاة ، على خطأ في حساباتهم التي افترضوها · الا ان هذا المثل يبقى اوضح من غيره · فبعد اثنين وعشرين شهرا ارغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسي ان يدفعوا ثمنا باهظا ومخيفا لما وقع ····

الفصل الحادي عشر
الحرب

اصدر هتلر بيانه الاول في الحادي والثلاثين من شهر اب :

١ ــ لما فشلت جميع الاحتمالات السياسية لتسوية الوضع على الحدود الشرقية بطريقة سلمية ، ولما كانت الاوضاع الراهنة غير محتملة ، فقد قررت ان افرض الحلول بالقوة ٠

٢ ــ يجب تنفيذ الهجوم على بولندا حسب الخطة المرسومة ، وقد تقرر موعد الهجوم يوم الاول من شهر ايلول عام ١٩٣٩ في تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين صباحا ٠

٣ ــ من المهم ان يكون الاعتداء من جانب انكلترا او فرنسا ٠ بشكل واضح ٠ وفي حال وقوع حوادث طفيفة على الحدود ، يجب الاكتفاء بالعمل المحلي فقط ٠

وهكذا قامت المانيا بهجومها على برلندا في صباح الاول من شهر ايلول عام ١٩٣٩ ، كما اصدرت حكومتنا امرها بتعبئة جميع القوات المسلحة ٠ وبعد ظهر ذلك اليوم طلب مني رئيس الوزراء ان احضر لزيارته في دوانننغ ستريت٠ وقد قال لي انه لم يعد هناك من امل في تجنب الحرب مع المانيا ، لذلك فهو يقترح تشكيل وزارة صغيرة للحرب ، تضم وزراء دون وزارات معينة لتسيير دفة الحرب ٠ وقال ان حزب العمال غير مستعد للاشتراك في حكومة ائتلافية٠ اما الاحرار فهم يطلبون المشاركة في الحكم ٠ ثم طلب مني ان اكون عضوا في تلك الوزارة الحربية ٠ وقد وافقت على هذا الاقتراح دون اي تعليق ٠

وفي المساء انعقد المجلس ، والقى رئيس الوزراء خطاب تهدئة استقبله المجلس استقبالا سيئا ٠ وعلا الصراخ والهتافات ، ولم يكن ثمة شك في ان

المجلس استقبالا سيئا · وعلا الصراخ والهتاف ، ولم يكن ثمة شك في ان التاسعة والنصف مساء ، وان هذا الانذار سيعقبه انذار ثان وثالث · واعلنت الاذاعة ان رئيس الوزراء سيوجه كلمة الى الشعب في الساعة الحادية عشـرة والربع من صباح الثالث من ايلول ، اي بعد ان تنتهي مهلة الانذار الثالث ·

وتوجه الرئيس بكلمته معلنا ان بريطانيا اصبحت في حالة حرب مـــع المانيا · وما ان انهى كلمته ، حتى سمعنا صوتا حادا غريبا ينطلق ، سرعان ما اعتدنا عليه فيما بعد · وهبطنا الى الملجأ المخصص لنا على بعد مائـة ياردة من البيت ، ويتألف من قبو يلجأ اليه السكان · وكانت دلائل المـــرح بادية على الوجوه ، وهي عادة انكليزية يتمسك بها الانكليز في اوقات الشدائد·

وبعد عشرة دقائق دوت الصفارة من جديد معلنة انتهاء الغارة ، فصعدنا وتفرقنا الى بيوتنا وتوجهنا الى اعمالنا · وكان علي ان اتوجه الى مجلـس العموم الذي اجتمع عند الظهر حسب العادة بعد ان تلونا صلاة استهلاليـة قصيرة · وفي اثناء الجلسة تلقيت رسالة من رئيس الوزراء يطلب مني موافاته الى مكتبة بعد انتهاء الجلسة · وقال لي المستر تشمبرلين انه يعرض علي وزارة البحرية ، مع مقعد في وزارة الحرب · وسررت جدا لهذا العرض ، فقد كنت امل ان يعهد الي بمهمة معيئة محدودة قد عرضت علي هذه المهمـة بالاضافة الى مركزي السابق في الوزارة ·

وما ان توليت مركزي في وزارة الحربية ، حتى بعثت بكلمة سريعة الى الاميرالية ، اخبرهم فيها عن توليتي للقيادة فورا ، وابلغهم بانني ساصل الى الاميرالية في تمام الساعة السادسة · وكان المجلس رقيقا جدا اذ بعث بهذا الخبر الطريف الى جميع الوحدات يقول « لقد عاد ونستون » · وهكذا رجعت مرة اخرى الى نفس الغرفة التي غادرتها حزينا منذ ربع قرن ، عندما تنحيت عن وزارة البحرية بعد استقالة اللورد فيشر · وعندما جلست الى مقعـدي القديم ، رأيت شنطة الخرائط القديمة التي اعددتها في سنة ١٩١١ ، وفيهـا خريطة بحر الشمال التي كنت اطلب من دائرة المخابرات ان تسجل لي عليها تحركات الاسطول الالماني كل يوم ، كي اكون على اطلاع دائم على تحركاته · وهكذا بعد مضي ربع قرن ، عاد نفس الخطر القاتل يهددنا مرة اخرى ، وها نحن نضطر مرة اخرى الى حمل السلاح لنصرة بلد صغيـر تعرض للغـزو وان نقاتل دفاعا عن حياتنا وشرفنا ضد قوة وغضب شعب شجاع هو الشعـب الالماني المحب للنظام ، والبعيد عن الرحمة ····

كان اول عمل قمت به في وزارة البحرية ،تشكيل دائرة خاصة بـــي للارقام ، وعهدت الى الاستاذ ليندمان ، صديقي والمؤتمن لدي منذ سنوات بها·

وقد اضطررت الى ابقائه بصورة مستديمة مع نخبة من الرجال الاخصائيين والاقتصاديين الذين لا يهتمون بشيء سوى بالحقائق والوقائع · وقد استطاعت هذه المجموعة من الرجال الاكفاء ان تقدم اصدق الجداول والرسوم ، وتشرح لي سير الحرب يوما بيوم ·

ولم تكن ثمة هناك دائرة خاصة للاحصاء · فقد كانت الوزارات تقدم ما لديها حسب ارقامها وحساباتها · وكانت كل وزارة تتبع طريقة في الاحصاء تختلف عن طريقة زميلتها الاخرى ، كما كانت الوزارات تتحدث بلغات واصطلاحات مختلفة ، كثيرا ما كانت تخلق البلبلة واضاعة الوقت · اما انا فكانت مصادري كلها اكيدة وثابتة في المعلومات التي كنت اقدمها ·

* * *

وفي مجلس الوزراء كنا نراقب عمليات التدمير السريعة لدولة ضعيفة ، حسب البرنامج الذي اعده هتلر · فقد قذف بالف وخمسماية طائرة الى بولندا كما ارسل جميع فرقة الالية والمدرعة ، التي اشتركت مع ست وخمسين فرقة اخرى من المشاة · ولم يكن البولنديون اكفاء لملاقاة هذا العدد الضخم ، او هذه المعدات الهائلة ، كما لم يكونوا قد استعدوا ورسموا خطة حكيمة لحماية انفسهم ، فكل ما عملوه من استعداد عسكري انهم وزعوا جيشهم على طول الحدود ، بينما بقيت البلاد دون اية قوة احتياطية · وهكذا لم تصمد بولندا امام الجيش الالماني الا اسبوعين اثنين ، وما لبث جيشها الذي يعد مليونين ، ان فقد معظم محاربيه واضحى لا قيمة له ·

اما روسيا ، فقد ارسلت بجيوشها في السابع عشر من شهر ايلول عبر حدود بولندا الشرقية الخالية من اي مقاومة ، ثم سارت غربا ، وفي الثامن عشر منه تلاقت مع الجيوش الالمانية في بريست ليتوفسك · وزادت بذلك عملية التدمير المخيفة ودافعت وارسو بشجاعة فائقة واستبسل ابناؤها ، وبعد عدة ايام من القصف الجوي المستمر ، من المدفعية الالمانية الثقيلة التي نقلت عبر الطرق الرئيسية الالمانية من الحدود الغربية ، توقفت اذاعة وارسو عن البث ، ودخل هتلر الى المدينة الخربة · وانتهى كل شيء خلال شهر واحد واضحى الشعب البولندي الذي يبلغ عدده خمسة وثلاثين مليونا تحت رحمة الغزاة الذي امعنوا فيه تقتيلا ·

لقد شاهدنا تكتيكا جديدا من التعاون الوثيق بين القوات الجوية المغيرة والقوات البرية الزاحفة ، والقصف العنيف للمدن وطرق المواصلات الرئيسية كذلك رأينا تسليح الطابور الخامس وبث العيون ، وهبوط المظليين بصورة

واسعة النطاق ، كما رأينا الاندفاع الهائل لقوات ضخمة من الاليات والمدرعات التي لا يمكن مقاومتها ... ولم تكن بولندا اخر من تحتم عليها ان تعاني مثل هذه المحنة .

* * *

ساد الجمود لفترة طويلة ، العالم الغربي ، بعد هجوم هتلر الساحق على بولندا ، وعمت الدهشة لهذا التوقف الغريب ، بعد ان اعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على المانيا .. الا ان التحرشات الالمانية ، وعمليات الهجوم المباغت على السفن التجارية في البحر ، قد ازعج حركة التجارة . وبدأت السفن التجارية ، تغادر الموانيء يوميا على شكل مجموعات وقوافل وتزودت كل كل واحدة منها بمدفع مضاد وببحارة مدربين . وراحت كانسات الالغام تجرب البحار بالاضافة الى القطع البحرية الصغيرة المجهزة بقنابل الاعماق ضد الغواصات وأدت عملها على خير ما يرام ، وشعرنا بأن هجوم الغواصات الالمانية على السفن التجارية قد انتهى ، وغدت البحار تحت اشرافنا وسيطرتنا . وكان من المتوقع ان يزداد عدد الغواصات الالمانية بعد مدة وجيزة ، لان بناء الغواصات كان يجري في جميع الموانىء الالمانية بسرعة هائلة ، وكان علينا ان ننتظر بدء حرب الغواصات خلال سنة او سنة ونصف على الاكثر . الا اننا كنا ننتظر اكمال بناء مدمراتنا وقطعنا المضادة للغواصات التي اصبحنا بفضلها نملك زمام الامور لمواجهة الخطر بقوة .

وتلقيت رسالة من الرئيس روزفلت ، وكنت قد قابلته مرة واحدة اثناء الحرب الاولى في حفلة عشاء ، وقد ادهشتني حيويته وشبابه وحضور ذهنه . وقد كتب لي في رسالته الشخصية تلك : « لما كنا قد توطلنا الى مراكز مشابهة اثناء الحرب العالمية الاولى ، فاني اريد ان تعلم مدى سروري وغبطتي حين علمت برجوعك مرة اخرى الى الاميرالية . وربما تكون مشاكلكم قد ازدادت تعقيدا ، الا ان المشاكل الرئيسية لم تتغير . وفي هذه المناسبة اود ان أؤكد لك ولرئيس الوزراء عن استعدادي التام وترحيبي الكبير حين ترغبون الاتصال بي شخصيا بواسطة رسائل مغلقة ، وان تنقلا لي كل ما تريدان نقله . وبوسعكما ارسال رسائلكما الشخصية ضمن حقيبتنا الدبلوماسية او حقيبتكم »

واجبت على رسالته في الحال واستخدمت توقيع « شخص من البحرية » وبدأنا بذلك سلسلة من المراسلات الطويلة الخالدة التي بلغ عددها الف رسالة، والتي استمرت حتى وفاة الرئيس روزفلت بعد خمس سنوات .

وقع في شهر تشرين الاول حادث اثر على الاميرالية بشدة · فقد جاء التقرير يقول انه في ليل الرابع عشر من الشهر ذاته دخلت غواصة الى ميناء سكابافلو ، واغرقت احدى بوارجنا وهي في الميناء ،بعد ان انطلقت الطوربيدات بشكل لا يصدق ، واصاب احدهما قوس البارجة واحدث فيه انفجارا كبيرا ، ولم يصدق قبطان البارجة ما حدث لبارجته وهي راسية في الميناء مطمئنة · وظن ان الانفجار داخلي · ومرت عشرون دقيقة بين الطوربيد الاول والثاني الذي الحقته بسيل كبير منها فاغرقت البارجة بعد ان تحطمت شر تحطيم · وفي عشرة دقائق ابتلعتها المياه · وكان معظم البحارة في مراكز عملهم ،لكن السرعة التي تم فيها اغراق البارجة جعل من المستحيل عليهم النجاة من الغرق المحتم ·

ولا ريب ان هذه المأساة ، كانت عملا بطوليا رائعا لقائد الغواصة الالمانية القبطان برامبين · وقد اهتز الرأي العام البريطاني لهذا العمل الجريء · وكان في امكان هذا الحادث ان يقضي على اي وزير من الوزراء لو اعتبر مسؤولا عن الاجراءات الدفاعية التي اتخذت قبيل الحرب · اما لكوني حديث عهد في الوزارة ، فقد تخلصت من هذه الازمة ومن اللوم ومن استغلال المعارضة لهذا الحادث ·

وجاءنا الخطر المميت الثاني · فقد اغرقت اثنتي عشرة سفينة تجارية عند مدخل موانئنا خلال شهري ايلول وتشرين الاول ، بالرغم من تنظيف تلك الموانيء من الالغام · وقد شكت الاميرالية على الفور ، بامكانية استخدام العدو للالغام المغنطة · ولم تكن هذه الالغام جديدة علينا ، فقد استخدمناها على نطاق ضيق في نهاية الحرب الاولى ، لكن الاضرار الفظيعة التي يمكن ان تحدثها الالغام الارضية ، لم يكن فهمه شيئا سهلا ، وكان من المتعذر علينا ان نجد طريقه لعلاج هذه المشكلة الجديدة قبل ان نرى نموذجا من هذه الالغام · وقد تطورت الاعمال وازدادت الخسائر ، اذ بلغت خلال شهري ايلول وتشرين الاول نحوا من ستة وخمسين الف طن ، مما حدا بهتلر الى الاشارة الى هذا « السلاح السري » الجديد الذي لا يمكن اتقاؤه · وفي ذات ليلة ، بينما كنت في شارتويل جاءني الاميرال باوند ، وقد بدا عليه القلق والاضطراب واخبرني ان ست بواخر جديدة قد اغرقت عند مداخل نهر التايمز · وكانت البواخر التي تدخل موانئنا وتخرج منها تجاوز المئات كل يوم ، وكانت حياتنا كلها متوقفة على هذه الحركة المستمرة · ولا شك ان الخبراء لدى هتلر قد ابلغوه ان هذا النوع الرهيب من الهجوم سيقضي علينا ويدمرنا · ومن حسن الحظ ان هتلر كان ينتج هذا السلاح على نطاق ضيق محدود ·

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني ، وفي تمام الساعة التاسعة شوهدت طائرة المانية تسقط شيئا ضخما بمظلـــة كبيرة الـــى البحر قرب شوبارنيس ، ويطوق الساحل هنا مساحات شاسعة من الطمى التي تظهر عند حدوث المد ومن الممكن فحص هذا الشيء الضخم حال حدوث الجزر ، وهنـا ساعدنا الحظ وواتتنا الفرصة المناسبة ، وفي الحال استدعي الـــى مركـز الاميراليه ضابطـان من ابرز الضباط المتخصصين بالاسلحـة البرمائيـة وهما اوفري ولويس ، وتحدثت معهما ومع لورد البحر الاول ، واستمعت الى اراءهما · وفي تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل توجها الـى ساوثيند لاداء مهمتها الخطرة في الكشف عن هذا الشيء الغامض · وتمكنا قبل فجر يوم الثالث والعشرين من العثور على اللغم وفحصه ·

وبدات عملية دقيقة عندما وجد الضابطان لغما اخرا قريبا من اللغـم الاول · وراح اوفري يحاول تعطيل اللغم الاول ، بينمـا وقف زميله لويسـ ومعه البحار القدير فيرنيكومب يراقبه استعدادا لكل مفاجئة · وبعد ساعات رهيبة تم تعطيل اللغم الاول واستخلاصه ، ثم أرسل الى بورتسماوث لاجراء الدراسات الدقيقة عليه· ووصل في الحال اكثر من مئـة ضابط ليشاهدوا الخطر الذي كان يهدد حياتنا ·

وبدأنا منذ ذلك الحين سلسلة من التجارب العلمية ، بعد ان تمكنـا من اكتشاف سر تركيب الالغام، لاختراع وسائل الدفاع ضد هذه الالغام وتوصلنا الى اختراع بعض الاسلاك الكهربائية وتطويق السفن بها · الا ان هذهالطريقة لم تؤد الى النتيجة المطلوبة . فقد استمرت حوادث الانفجارات لكن السفـن المصابة لم تغرق في الحال ، بل كـانت تستمر في مسيرهـا الـى اقرب مرفأ لاصلاحها من جديد ·

وبعد مدة طويلة من التجارب توصلنا الى اختراع وسائل اكثر فعاليـة لمكافحة الالغام ، وكانت النتيجة مدهشة · وتمكنت اخيرا كانسات الالغـام منتطهير البحار من جميع الالغام المزروعة وبدأ الخطر يزول · وقد كلفتنـا هذه العملية الكثير من المجهود الحربي ، واضطررنا الى تحويل الكثير مـن المعدات والاموال من ميادين اخرى الى هذا الميدان ، وقد جندنا لهذه العملية الهامةما يقارب الستين الف رجل ، الا ان النتـائج كـانت مذهلة وتأثيرهـا المعنوي على رجالنا ورجال اسطولنا التجاري كانت رائعة · ولم نكن حتـى ذلك الوقت قد تعرضنا لاي اعتداء معين في الميدان الواسع للمعارك البحرية · لكن هذا الاعتداء سرعان ما حدث ···

ففي يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني، شاهد الطراد المسلح

« راولبندي » بينما كان يقوم بعملية استكشاف بين ايسلنده وفاروس، شاهد بارجة عدوة تقترب منه بسرعة · وظن قائد الطراد ان البارجة هي بارجة الجيب « دويتشلاند » فابرق الى الادارة المركزية في الحال ، وكان قائد الطراد يعلم انه من الجنون ان يحاول الدخول في معركة بحرية مع البارجة العدوة، أما الطراد فلم يكن اكثر من سفينة تجارية تحولت الى طراد مجهز بأربع مدافع قديمة من عيار احد عشرة بوصة لذلك أبرق الى الادارة المركزية وقرر المجازفة والقتال حتى النهاية · واقتربت البارجة بسرعة هائلة وراحت تطلق نيرانها من مسافة عشرة الاف ياردة ، فرد الطراد عليها ، وبدأت النيران الهائلة تنصب عليها حتى تحولت الى كتلة من النار ، وما لبثت ان غرقت بعد حلول الظلام مع قبطانها و ٢٧٠ رجلاً من رجالها الشجعان ·

وبالطبع لم تكن البارجة العدوة هي البارجة « دويتشلاند » وانما كانت الطراد « شارنهورست » ومعها « غنيزناو » · اللذان غادرا المانيا لمهاجمة قطع اسطولنا في الاطلنطي · الا انهما بعد ان اصطدما براولبندي ، اضطرا الى العودة في الحال بعد اكتشاف امرهما ··· وهكذا لم تذهب تضحيات رجال الطراد البواسل هباء ، فقد تمكن الطراد « نيوكاسل » من التقاط اشارة الطراد « راولبندي » وتوجه الى ميدان المعركة وحاول مطاردة العدو ، الا ان هذا تمكن من الافلات منه ·

وفي شهر آب وصلت الانباء الى القيادة العليا ، ان بارجة او اثنين قد غادرتنا المانيا متوجهة الى الاطلنطي ، فقام اسطولنا في الحال بالبحث عنهما · وعلمنا بعد مدة ان البارجة غراف شبي الالمانية قد اغرقت احدى بواخرنا الضخمة كليفت في شهر ايلول ، وذلك قرب برنا مبوكو · واضطربت الامبرالية لهذا النبأ المفجع ، وضج الرأي العام ، وارتسمت علامات الاستفهام وراح الهمس يدور : « اين هو اسطولنا ؟ » ··· فتألفت على الفور وحدات مسلحة لمطاردة البارجة واغراقها ، وقد انضم الى الوحدات عدد من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات المجهزة بقوة كافية لتتمكن من القضاء على البارجة الالمانية ·

وخلال الاشهر التالية كانت تسع وحدات بحرية مطاردة تجوب البحار بحثا عن البارجتين الالمانيتين « دويتشلاند » و « غراف شبي » · وكانت الثانية اكثر جرأة من الاولى ، فقد استمرت بنشاطها ، فكانت تضرب السفن الصغيرة ثم تختفي في الافاق الشاسعة · واستمر البحث عن « غراف شبي » الى ان عثر عليه في الثاني عشر من كانون الاول ، قرب مصب نهر لابلاتا، من قبل الطراد « اجاكس »· وكان على ظهره الكومودور هارورد·

وتم في الحال حصار البارجة العدوة وانضم الى المعركة الطرادان « اخيل » و « لايكسيتر » · وبدأت معركة حـامية الوطيس واشتعلت البحار بالنيـران اللاهبة لمدة سـاعة وعشرين دقيقة · واصيبت طراداتنا باضرار بالغة ممـا اضطرها الى الانسحاب تحت ستر الدخان الكثيفة بانتظار حلول الظلام كمـا اصيبت البارجة العدوة وشوهدت ابراجها تتساقط مشتعلة · وكانـت فرصة العدو الذهبية حين شعر قائد الطراد بـان الذخيرة ستنضب فاضطر الـى الانسحاب تاركا الفرصة للبارجة العدوة للانسحاب الـى ميناء مونيتفيديـو فتبعها الطرادان البريطانيان دون ان يشتبكا معها في اي معركة، ودخلت البارجة الى الميـناء للتزود بالوقود ولاصلاحهـا من جديد · بينمـا وقف الطرادان بانتظارها واغراقها في الحال عند خروجها من الميناء ·

وابرق قائد البارجة في السادس عشر من كانون الاول الى القيادة يقول ان سبيل النجـاة قد سد أمامـه وطلب تزويده بالتعليمات اللازمـة هل يقوم باغراق الطراد ام يستسلم ؟· وجاءته التعليمات من الاميرالية الالمانيـة : « حاول ان تبقى في المياه المحايدة ··· ثم حاول ان تتجه الى بيونس ايرس ان استطعت · ولا تستسلم في اورغواي ··· واذا قررت اغراق البارجـة دمرها تدميرا كاملا »

وهكذا ، بعد ظهر اليوم التالي ، شوهدت بحـارة البـارجة تغادرهـا الى احدى السفن الالمانية الراسية في الميناء ، وعند المساء توجهت البـارجة ببطء الى عرض البحر حيث كانت طراداتنا بانتظارها · وما ان اقتربت من عرض البحر حتى سمعنا انفجارا مدويا وشاهدنا النيران تشتعل في البارجة العدوة ، فعلمنا ان « غراف شبي » قد اغرقت نفسها ، كما علمنا ان قائدهـا لانغسروف قد اصيب بانهيار عصبي لخسارته الفادحة فانتحر بعد يومين ·

❀ ❀ ❀

الفصل الثاني عشر

الجبهة في فرنسـا

اتجهت الحملة البريطانية حال نشوب الحرب الـى فرنسـا ، ومـا ان انتصف شهر تشرين الاول حتى كانت اربع فرق بريطانية تتمركز على الجبهة الفرنسية ـ البلجيكية ، وانضمت اليها ست فرق اخرى في شهر اذار · وقـد وجدت القوات البريطـانية ان الجبهة مستعدة تمـام الاستعداد ، فقد حفرت الخنادق لمقاومة الدبابات ، وانشأت مراكز من الاسمنت المسلح ، ركزت عليها مدافع ورشاشات مضادة للدبابات ، بالاضافة الى الاسلاك الشائكة الممتـدة على طول الجبهة · وكانت مهمة جنودنا تحسين الجبهة الدفاعية التي اعدها الفرنسيون وتنظيم شكل مـن اشكـال خط سيغفريد · وتقدم العمل بصورة سريعة بالرغم من الجليد، وعندما اخذت الصور الجوية تبين ان الالمان بدورهم بدأوا يوسعون خط سيغفريد من الشمال عبر الموزيل · وقد كانت المواد الاولية في متناول ايديهم مما سهلت لهم مهمة العمل ، الا اننـا كنـا نسير بسرعـة تضاهي سرعتهم في التنفيذ · وتم تشييد المنشآت اللازمة لقاعدة ضخمة ، وانهينا تعبيد الطرقات وتحسينها ومدت سكة حديد جديدة يبلغ طولها مئة ميل · ثم اتممنا انشاء نحوا من خمسين مطارا جديدا وقـاعدة جوية صغيرة · كمـا تزودنا بكميات هائلة من العتاد والذخيرة توزعت في المستودعـات على طول طرق مواصلاتنا · وقد تزودنا بالمؤن التي كانت تكفي لمدة عشرة ايسام بين السين والسوم ، بالاضافة الى كميات اخرى تكفي لسبعة ايام شمالي السوم· وقد ساعدتنا هذه المؤن وانقذتنا بعد ان تمكن الالمان من اختراق الجبهة ·

كانت روح الجيش الفرنسي ، تختلف عن السابق اثناء الحرب الاولى ،

فقد ولت تلك الروح الثائرة المشبعة بالانتقام بعد ان حققت نصرها الاول وكان معظم القادة الذين تولوا زمام الامور ، قد قضوا نحبهم منذ وقت طويل ٠ وكان الشعب الفرنسي لا يزال مشدوها من هول المذبحة التي ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف المليون رجل ٠ وكانت فكرة الهجوم لا تزال مرتبطة بمخيلتهم وبالفشل الذي أصابهم اثناء هجومهم عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ وبالالام والخسائر التي تكبدوها اثناء الهجوم ، وسيطر عليهم الشعور بان الاسلحة والاختراعات الحديثة قد زادت من قوة الدفاع واصبحت تشكل خطر اكبر على الهجوم والمهاجمين ٠ ولم يكن هناك من يمكنه ان يتفهم الحقيقة الجديدة القائلة بأن السيارات المدرعة قادرة على الصمود امام نيران المدافع ، بالاضافة الى سرعتها الفائقة التي تمكنها من قطع مائة ميل في اليوم الواحد٠ ولم يكترث رجال الجيش وقادته لذلك الكتاب القيم حول هذه المواضيع، الذي كتبه شخص يدعى القومندان ديغول ٠٠٠ فقد كانت أفكار المارشال العجوز بيتان مسيطرة على عقول القادة ومغلقة الطريق أمام الافكار الجديدة الجريئة ٠

وقد سمعنا بعد انتهاء الحربالنقد الكثير حولسياسة خط ما جينو٠ ولا شك ان فكرة الدفاع لدى الفرنسيين كانت نتيجة هذه السياسة ٠ الا ان التدابير الاحترازية الصحيحة للدفاع عن حدود شاسعة تمتد الى مئات الاميال ، تقضي باقامة اكبر عدد ممكن من الحواجز والعقبات والحصون ، فهي توفر من استخدام القوات المحاربة ٠ ولو أحسن استعمال خط ماجينو لكان باستطاعته ان يقدم خدمة كبيرة لفرنسا ٠

* * *

هناك نكتة معروفه في بريطانيا تقول ان وزارة الحربية اليوم تستعد للحرب الماضية ٠ وكانت هذه النكتة مطابقة لواقع حال الجيش الفرنسي انذاك، وكنت من جملة المؤمنين بنظرية الاجراءات الدفاعية التي يجب تنفيذها بدقة ٠ وكنت بالاضافة الى ذلك عارفا بمدى تخوف الفرنسيين من الهجوم نتيجة المذابح المخيفة في الحرب الاولى ٠ كما ان الوقت الذي اضعناه قد فسح المجال امام الالمان لبناء خط سيغفريد ٠ وكانت المجازفة ضخمة لو فكرنا بقذف البقية الباقية من الشبيبة الفرنسية لاقتحام هذا الجدار الهائل من الاسمنت المسلح ٠ وكانت نظرتي في الاشهر الاولى للحرب لا تختلف كثيرا عن وجهه النظر السائدة المتعلقة بالدفاع ٠ وكنت اعتقد ان الاجهزة المضادة للدبابات ومدافع الميدان قادرة على صد اي هجوم مهما كان ٠ الا ان هذه

النظرية كانت خاطئة ، فقد قدر لنا ان نشهد بعد ثمانية اشهر هجوما هائلا شنته القوات المانية تتقدمها السيارات المصفحة التي لم تؤثر فيها قوة المدافع لقساوة فولاذها ، فتمكنت من تحطيم جميع ما اعددناه من مقاومة دفاعية ، وجعلت من المدفعية سلاحا لا قيمة له ، لاول مرة في تاريخ الحروب منذ اختراع البارود ·

لكن الجيش الفرنسي لم يكن في وسعه شن اي هجوم قبل نهاية شهر ايلول، الا ان بولندا في ذلك الوقت كانت قد استسلمت · ولم يحل شهر تشرين الاول حتى تمكن الالمان من حشد سبعين فرقة من الجبهة الغربية متفوقين بذلك على الحشود الفرنسية · ولو فكر الفرنسيون بشن هجوم من الجبهة الشرقية لتركوا الجبهة الشمالية خالية ، وهي الجبهة الاكثر اهمية ·

اما السؤال الذي طالما اثير : « لماذا بقيتم جامدين الى ان دمرت بولندا ؟ » فالجواب عليه هو ان المعركة قد تقررت نتيجتها منذ سنوات · فالفرصة كانت مواتية ومضمونة عام ١٩٣٨ يوم كانت تشيكوسلوفاكيا موجودة· وفي عام ١٩٣٣ كان في وسع عصبة الامم ان تستصدر أمرا ترغم به المانيا على الرضوخ دون حاجة الى اهراق نقطة دم واحدة · ولا يجوز ان نلقي باللوم على الجنرال غاملان لانه لم يقم بهذه المجازفة التي ازداد خطرها منذ الايام الاولى للازمات التي تخاذلت امامها فرنسا وبريطانيا ·

والان ما هي احتمالات شن هجوم الماني عام على فرنسا ؟ كانت هناك ثلاث احتمالات هي : ان تقوم المانيا بشن هجومها عبر سويسرا للالتفاف حول الجبهة الجنوبية لخط ما جينو · الا ان العقبات الطبيعية والاستراتيجية كانت تحول دون قيام هذا الهجوم · اما الاحتمال الثاني فهو في امكانية غزو فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين · ولم يكن هذا الاحتمال ممكنا ، اذ لم نكن نعتقد ان الجيش الالماني يملك المعدات اللازمة لتحطيم المنشآت المقامة واختراق خط ما جينو · يبقى الاحتمال الثالث وهو الهجوم عن طريق بلجيكا وهولندا · فبأمكان الجيش الالماني ان يتجنب اختراق خط ما جينو ويوفر الخسائر المتوقعة من جراء الهجوم على التحصينات المنيعة · ولم يكن في استطاعتنا صد الهجوم على بلجيكا ، وان كان ذلك في مستطاعتنا · وكان هناك خطان يمكننا ان نتقدم نحوهما اذا ما دعتنا بلجيكا لاحتلالهما · فالخط الاول هو ما يدعى خط « الشلدت » وهو قريب من الحدود الفرنسية ، ويمكن الوصول اليه بسهولة ، وبأمكاننا الاحتفاظ به للتضليل ، وهذا في اسوأ الاحتمالات ، كما يمكننا اذا ساعدتنا الظروف ان نقوم بانشائه وتدعيمه · أما الخط الثاني فهو الخط الذي يسير مع نهر الموز عبر جيفيت ودينانت

ونامور ولوفين الى انتويرب · ولو استطعنا ان نحتفظ بهذا الخط مهما كلفنا الامر ، فان الجناح الايمن للجيش الالماني سيتوقف ، وسيمكننا معرفة قوة الجيش الالماني ، فاذا كان ضعيفا ، عندئذ يمكننا ابتداء هجوم كاسح ندخل به الى المانيا ونشرف على منطقة الروهر الهامة بالنسبة للانتاج الحربي الالماني ·

ويقول رؤساء الاركان : « ان الخطة الفرنسية المسماة خطة « د » تقضي بأن يسرع الحلفاء الى احتلال خط جيفيت ـ نامور ، اذا تمكن البلجيكيون من الاحتفاظ بحوض الموز ، كما انه يترتب على القوات البريطانية ان تعمل في الجهة الشمالية · ونحن نجد ان هذه الخطة غير معقولة ، الا اذا وضعنا خططها مع البلجيكيين انفسهم لاحتلال هذا الخط ، قبل مدة من الزحف الالماني ، وبعد ان يتبدل موقف بلجيكا الحالي ، وترسم الخطط اللازمة بوقت قريب لاحتلال خط جيفيت ـ نامور والمسمى في بعض الاحيان خط الموز ـ انتويرب · ونحن نجد انه يترتب علينا ان نواجه الزحف الالماني في اماكن نعدها في وقت مبكر على الحدود الفرنسية بالذات »

وفي اجتماع مجلس الحلفاء الاعلى في باريس ، اتخذ القرار التالي : « نظرا للاهمية الكبرى المترتبة على وجوب ابقاء الالمان في أقصى مكان ممكن الى الشرق · فمن الضروري جدا بذل كل محاولة للمحافظة على خط الموز ـ انتويرب ، في حال تعرضت بلجيكا للهجوم الالماني » ·

وهكذ أمضت الحملة البريطانية فصلي الربيع والشتاء في تجهيز مواقعها وتحصينها ، واستعدادها للحرب الدفاعية او الهجومية · وقد كانت استعدادات الجيش رائعة ومنظمة واكثر قوة في نهاية فصل الشتاء · الا اننا كنا لا نزال نشكو نقصا كبيرا في الدبابات ، ولم يكن لدينا فرقة مدرعة واحدة ضمن الحملة البريطانية في فرنسا · فقد اهملنا تطوير هذا النوع من السلاح الفعال في فترة ما بعد الحرب الاولى ، ولم يكن عندنا سوى كتيبة تضم سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابه « مشاة » معظمها مجهزة بالمدافع الرشاشة فقط · لقد اهملنا هذا السلاح الهام الذي قدر له ان يسيطر على ميادين القتال ····

اما الجيش الفرنسي فلم يكن بحالة حسنة ، ففرنسا لم تواجه الحرب عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ بروح معنوية مرتفعة او بشيء من الثقة والايمان · فالسياسة الداخلية المضطربة قد خلقت نوعا من الانقسام والسخط · وكانت الدعايات السامة التي يبثها غوبلز تلاقي اذانا صاغية تحفظها وترددها · وكانت تاثيرات الانقسام والشيوعية والفاشية تنعكس على الجيش وتتغلغل

في صفوفه خاصة في فترة الانتظار الطويلة قبل الهجوم · ولم يكن هناك من ادنى شك في ان الانتظار الطويل قد أخر في كفاءة الجيش الفرنسي فلو قاتل في الخريف مثلا لكان قتاله رائعا واروع منه في الربيع ··· وسرعان ما وجد هذا الجيش نفسه عرضه لهجوم الماني كاسح صعقه بعنف ·

وختاما لهذا الفصل اذكر هذه الحادثة المهمة التيحدثت في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٤٠ والتي اكدت المخاوف بالنسبة الى الجبهة الغربية ، فقد قضت الظروف بأن تهبط طائرة المانية كانت تقل ضابطا المانيا ، في بلجيكا ، وعندما اعتقلته القوات البلجيكية حاول الضابط ان يتلف بعض الوثائق التي كان يحملها ، الا انهم تمكنوا من مصادرتها قبل ان يتمكن من اتلافها · وقد تضمنت تلك الوثائق الخطة الكاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا ، هذه الخطة التي وضعها هتلر بنفسه · وبعد قليل اطلق سراح الضابط فعاد الى بلاده واخبر قادته بما جرى له · وعندما نقلت الي التفاصيل ذهلت وانا غير مصدق كيف لا يضع البلجيكيون خطة يشركوننا فيها في الحال · لكنهم لم يفعلوا شيئا من هذا وقد طلبنا منهم ان يتعاونوا معنا، لكن الملك وقادة الجيش آثروا التروي والانتظار عله يأتيهم المستقبل بأشياء جديدة تقلب الاوضاع مرة اخرى · اما من الناحية الثانية ، فقد استدعى هتلر غورنغ وامطره بسيل من الشتائم ثم اضطر الى تغيير خطة الغزو من اساسها· وقد تأكد لنا الان من الوثائق المصادرة ان هذه الخطة كانت صحيحة ·

لقد آثر ملك بلجيكا ان يبقى على الحياد ، آملا ان يتمكن من الصمود أمام الجيش الالماني ، ثم يطلب الجيوش البريطانية والفرنسية لتسارع الى نجدته ··· لقد كان العصر عصر التردد والتخاذل ، ولم نكن لنلومه على موقفه هذا ···

الفصل الثالث عشر

اسكندنافيا وفنلنده

ان لشبه الجزيرة الممتدة من داخل البلطيق الـى الدائرة القطبية اهمية عسكرية كبيرة · وتمتد سلسلة الجبال الى المحيط ويفصل بينها ممر من المياه الاقليمية تتمكن المانيا بواسطته من المرور والاتصال بالبحار الخارجية ، مما يجعل حصارنا البحري لا قيمة له · وكانت المانيا تعتمد بصورة رئيسية على استيراد مسحوق الحديد من السويد الذي يصلها في أيام الصيف من ميناء لوليا السويدي عند رأس خليج بوثنيا ، اما في الشتاء وعندما تتجمد مياه الخليج تصلها من النروج · لذلك فان احترامنا لحياد هذه الخلجان يعني سماحنا لهذا الاستيراد والتصدير الذي تستغله المانيا تحت ستار الحياد متحدية بذلك تفوقنا البحري · وقد شعرت الاميرالية بهذا الخطر ، واخطرت بدوري وزارة الحرب عن هذا الموضوع ·

وعندما اثرت هذا الموضوع الهام اصطدمنا بعقبة احترامنا التام لحياد الدول الصغيرة ! هذا المبدأ الذي كنا نتعلق به بالرغم من استغلال المانيا لهذا الاحترام · ولبث الموضوع بين أخذ ورد الى أن أخذت الوزارة باقتراحي بعد مدة طويلة حيث بدا ان الوقت قد فات على اتخاذ مثل هذا القرار ·

وفي نفس الوقت كان الالمان يفكرون بنفس الاتجاه الذي كنت افكر بـه ، فقد قدم الاميرال ريدر ، رئيس اركان البحرية الالمانية ، اقتراحاً الـى هتلر باسم « كسب قواعد جديدة في النروج » وقد وضح في اقتراحه مقدار الضرر الذي سيلحق بالمانيا بحال تم احتلال البريطانيين للنروج وتحكمهم في مداخل البلطيق · وقد اصدر هتلر بناء على اقتراحات ريدر اوامره الـى القيادة

العليا باعداد الخطة لعملية غزو النروج •

وفي هذه الاثناء تحولت شبه جزيرة اسكندافيا الى ميدان للصراع اثار ضجة كبيرة في بريطانيا وفرنسا ، واثر على محادثاتنا مع النروج بشدة • فقد ادت مواثيق المساعدات المتبادلة المعقودة بين روسيا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا الى احتلال هذه الدول وتدميرها ـ وبذلك أصبح الجيش الاحمر يقطع الطريق للدخول الى روسيا من ناحية الغرب • وبقيت الطريق عبر فنلندا •

ومن ناحية فنلندا فقد وقع احد الساسة الفنلنديين مع روسيا معاهدة صلح في عام ١٩٢١ ، كان من اهم مطالب الروس العديدة رد الحدود الفنلندية عند برزخ كاريليا الى الوراء مسافة كافية لتصبح مدينة لينينغراد في مأمن من خط المدفعية المعادية ، كما تسلمت روسيا عددا من الجزر الفنلندية ، اما الاختلاف الذي ادى الى محاولة غزو فنلندا فكان حين طلبت روسيا استئجار الموانئ الوحيدة التي لا تتجمد في فصل الشتاء لكي تجعل منها قواعد بحرية وجوية • وكان الرضوخ لهذا الطلب يعني تهديد سلامة فنلندا بصورة اكيدة • وقد رفضت الحكومة الفنلندية هذا الطلب وانقطعت المفاوضات ، واعلن مولوتوف بناء على ذلك الغاء ميثاق عدم الاعتداء المعقود مع فنلنده • وبعد يومين بدأ الهجوم الروسي على فنلندا على ثمانية جبهات وقام الطيران السوفياتي بضرب العاصمة هلسنكي من الجو •

وقد استبسل الفنلنديون في الدفاع عن بلادهم ، فقد مضت الاسابيع الاولى للهجوم السوفياتي دون ان يتمكنوا من تحقيق اي نصر• وبرهن الجيش الفنلندي عن بطولة نادرة في صد الهجوم الكبير • وقوبلت الدبابات السوفياتية الضخمة بسلاح جديد من القنابل اليدوية التي سميت بكوكتيل مولوتوف • وقد استمرت الحملة حوالي الشهر الا انها باءت بالفشل الذريع ، وتاكد للحكومة السوفياتية بأنها تقابل عدوا يختلف بقوته عما كانت تتوقعه ان يكون، لذلك قررت القيام بهجوم كاسح كبير مما يحتاج الى اعادة تنظيم ، فخففت من حدة القتال على طول الجبهة الفنلندية بعد أن تمكن الفنلنديون من صد عدوهم القوي •

وساد شعور من السخط لدى الجميع ضد الحكومة السوفياتية ، بالاضافة الى الشعور بالاحتقار لعجز القوات الروسية عن غزو فنلندا الباسلة ، وبالعطف والحماس على فنلندا بالذات • وبالرغم من اننا نخوض حربا كبرى فقد كانت لدينا رغبة شديدة في مد يد العون الى الفنلنديين وذلك بتزويدهم بالطائرات والاليات الحربية وارسال المتطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وحتى فرنسا •ولم يكن هناك الا ممر واحد لارسال المتطوعين

والمعدات الحربية · وهو عبر ميناء نارفيك النروجي الـذي اكتسب أهميـة استراتيجية كبرى · وكان استعمال هذا الميناء كقـاعدة للتموين يؤثر علـى حياد النروج والسويد· وكان هم هاتين الدولتين البقاء خارج نطاق الحرب· فقد كانتا تخشيان كلا من المانيا وروسيا · وطلبت الحكومة البريطانيـة من النروج والسويد السماح لها بنقل الجنود والمؤن الى فنلنده ·

* * *

كانت احدى القطع البحرية الالمانية المسماة « التمارك » تشغل تفكيري ، وهي القطعة البحرية التي كـانت تساعد غراف شبي بالاضافة الـى كونهـا سجنا عائما لبحارة البواخر التي كانت غراف شبي تغرقها · وقد وصلتنـا الاخبار ان هناك ثلاثماية بحار بريطاني على ظهر (التلمارك) التي تمكنـت من الاختفاء لمدة شهرين في جنوب الاطلنطي وعندما اطمئن ربانها الى انـه أصبح في مأمن من مطاردتنا ، حاول العودة بباخرته الى المانيا · وفي الرابع عشر من شهر شباط شاهدت احدى طائراتنا الباخـرة المذكورة في الميـاه الاقليمية للنروج ·

وفي الحال تحركت المدمرات البريطانية بقيادة القبطان فيليب فيان على متن مدمرته « قوزاق » وقطعت طريق الباخرة الالمانية ، الا أنهـا لـم تباشر بضربهما فالتجأت الباخرة الى خليـج جوسينغ ، واعطيت الاوامر بتفتيش الباخرة، وشوهد فينفس الوقت زورقين نروجين مسلحين ابلغاهما ان الباخرة الالمانية غير مسلحة ، وقد سمحا لها بالمرور عبر المياه الاقليمية ، فاضطرت المدمرتان البريطانيتان الى الانسحاب على الفور ·

وما ان وصلت هذه الاخبار الى الاميراليه ، حتى عادت واصدرت الى مدمراتنا الاوامر بدخول الخليج · فدخل القبطان « فيان » بمدمرته الخليج وصعد الى احد الزورقين النرويجين وطلب من قائده ان تساق « التمـارك » الى ميناء بيرغن للكشف عليها حسب القانون الدولي ·فكرر القائد النروجي ان الباخرة غير مسلحـة وقد فتشوها مرتين ولم يجدوا على متنهـا اي أسيـر بريطاني · عند ذلك طلب القبطان « فيان » من القائد النروجي مرافقتـه الى ظهر الباخرة الالمانية فرفض هذا طلبه ·

واغتنمت البـاخرة الالمـانية هذه الفرصة لتتحرك وتحـاول الاصطدام بالمدمرة « قوزاق » الا انها فشلت ، وفي الحال صعد اليها فريق من البحارة ونشب قتال عنيف بالسلاح الابيض بين رجال الباخرتين ادى الى مقتل اربعة من الالمان وجرح خمسة واستسلم الباقون· وبدأ البحث في الحال عن الاس -

البريطانيين ، وبعد تفتيش دقيق عثر عليهم في المستودعات وفي خزان بترولفارغ وقد كممت افواههم كي لا يتمكنوا من الإستغاثه وطلب النجدة من رفاقهم · كما عثر على مدفعين وأربعة مدافع رشاشة · وعلمنا فيما بعد ان النروجيين لم يقوموا بتفتيشها بالرغم من صعودهم على متنها ·

وكان هذا الحادث قد ساعد الالمان على اتخاذ قرارهم بوجوب غزو النروج الذي أعد هتلر خطة غزوها في الرابع عشر من كانون الاول · وبعد ان اجتمع الفوهرر مع الجنرال فون فولكنهورست تقرر بدء العملية في التاسع من شهر نيسان ·

وفي هذه الاثناء كان الروس قد ضاعفوا من مجهودهم الحربي ، وقاموا بهجومهم الكبير على فنلندا في اليوم الاول من شهر شباط ، والذي استمر حوالي اثنين وأربعين يوما ، يصحبه قصف جوي عنيف · وتمكن الجنود الروس من اختراق خط الدفاع الفنلندي وتحطم خط مانرهايم وتركز الهجوم الروسي على خليج فيبوري ·

وفي اول شهر اذار ارسلت الحكومة الفرنسية خمسين الف متطوع ومائة قاذفة قنابل الى فنلندا ، كما قامت الحكومة البريطانية ايضا بارسال خمسين قاذفة قنابل · الا ان الفنلنديين قد وصلوا الى حد من الاعياء والجهد وكادت معداتهم الحربية ان تنفد فسافر المستر باسيكيفي مرة ثانية الى موسكو لاجراء المباحثات في شروط الهدنة ، ووافقت الحكومة الفنلندية على شروط الروس في الحال ·

الفصل الرابع عشر

النروج

في ليلة الجمعة الخامس من شهر نيسان دعا وزير المانيا المفوض في اوسلو عددا من الوجهاء والوزراء الى حفلة عرض فيها شريطا سينمائيا عن عملية احتلال بولندا التي وضح فيها المناظر المرعبة التي صورت اثناء قصف مدينة وارسو · وقد علق الوزير على الصور بقوله : « ان البولنديين يجب ان يشكروا اصدقاءهم الانكليز والفرنسيين على ما حل بهم من كوارث » !!

وتفرق الضيوف وعلى وجوههم امارات الرعب والقلق ، خاصة ممايقوم به الانكليز من نشاط كبير في النروج ومن زرع للالغام في مداخل الخليج الغربي المؤدي الى ميناء نارفيك ، واحتجت الحكومة النروجية على هذه الاجراءات الخطيرة ، الا ان الاميرالية البريطانية اعلمت المفوضية النروجية في لندن ان البوارج الالمانية بدأت تتحرك متجهة نحو الساحل النروجي ، بينما كانت الجحافل الالمانية تجتاح الدانمارك ، لكن الاخبار لم تصل الى النروج الا بعد ان تعرضت هي للهجوم الالماني ·

كان الهجوم الالماني الصاعق يتميز بالمفاجأة والشدة والدقة، في مداهمة بلدا اعزل وشعبا بريئا كشعب النروج · فقد استخدمت المانيا سبع فرق عسكرية ، وثمانماية طائرة وثلاثماية طائرة نقل ، بالاضافة الى الهجوم البحري الكبير · ولم تمض ثمان واربعين ساعة حتى سقطت جميع الموانيء النروجية في ايدي الالمان · وتغلغلت الدعايات الالمانية بسرعة البرق بين صفوف الشعب ، ووقف الماجور كويزلنغ ليعلن نفسه حاكما على المناطق التي سقطت في ايدي الالمان ·

وبدأت في الحال تعبئة الجيش الذي راح يقاتل بضراوة الجيوش الغازية الزاحفة شمالا من اوسلو · والتجأ الوطنيون الى الجبال والغابات ، وانسحب الملك وحكومته الى هامـار التي تبعد مئة كيلو متر عن اوسلو ، وطاردتهم المدرعات الالمانية وقصفتهم الطائرات من الجو الا انهم تمكنوا من الوصول ، واذاعوا بيانات تدعوا الى المقاومة والثورة · ولا شك ان السرعة التي تمكن بها هتلر ، بعد ذلك ، من السيطرة على البلاد تعتبر عملا وحشيا من اعمال الحرب والسياسة ومثلا حيا يدل على مدى اتقـان المانيـا لفظـاعة الحرب ووحشيتها ·

* * *

وبهجوم هتلر على النروج انتهى وميض الحرب ، وتلاه أعظم انفجار عسكري عرفته البشرية · فمنذ ان تحالف ستالين مع هتلر ، تلقى الشيوعيون الفرنسيون الاشارات من موسكو بوجوب اعـلان استنكارهم للحرب ونعتهـا بجريمة استعمارية رأسمالية ضد الديمقراطية ! وحاول الشيوعيون وسعهم في تحطيم معنويات الجيش، وعرقلة اعمال المصانع · وتمكنت الدعايات الهدامة من تحطيم الروح المعنوية لدى الجيش والشعب ·

ولم يحدث شيء من هذا في بريطـانيا ، فقد كـانت توجيهـات موسكو للشيوعية المحلية في بريطانيـا ضعيفة كل الضعف · وقد ادت الحملة علـى النروج الى اضطرابات عنيفة نشبت في بريطانيا ، واتقدت العواطف الثائرة ، وطالبت المعـارضة باجراء منـاقشة في المجلس عن الوضع الحربـي · فتقرر اجراء هذه المناقشة في السابع من شهر ايار · وحاول المستر تشمبرلين تهدئة العواطف المعادية ، لكنـه قوطـع بالاستهزاء · ورد المستر تشمبرلين على المستر هربرت موريسون بقوله انـي لم اكن اتمتع بصلاحيـات كبيرة اثنـاء حملة النروج · وراح الخطباء يهـاجمون الحكومة بعنف مشوب بالمرارة · وقـام المستر ايمري الذي قوبل بالهتافـات العـالية ليقول مـا سبق وقـاله كرومويل : « لقد امضيتم وقتا كثيرا هنـا لا ينسجم مع النفع الذي كنتـم تفعلونـه · وانـي اقول لكم الان ، اخرجوا وخلصونـا منكم ، بحق اللـه ، إذهبوا ··· »

وفي اليوم التالي اعلن المستر هربرت موريسون ، باسم المعارضة عـن عزمه طلب الاسراع على الثقة ، وقـام رئيس الوزراء ليعلن قبوله التحدي · وقام المستر لويد جورج ليلقي خطابا قصيرا وجه فيه ضربة قاضية على رأس الحكومة ، الا انه ابرأ ذمتي بقوله : « لا اظن ان وزير البحرية يعتبر مسؤولا

عن ما حدث في النروج » وقد قاطعته على الفور بقولي : « انــي اتحمل كــل المسؤولية عن كل ما قامـت بـه الاميراليـــة متحمـلا العـــبء كلـــه » فحذرني المستر لويد من مغبة جعل نفسي ملجأ يقي الحكومـة من الشظايا .
ثم التفت الى المستر تشمبرلين وقال : « ان القضية اضخم بكثير مما نتصور . لقد طلبت منا في السابق ان نضحي ، وانـا اقول ان الشعب باسره على اتـم الاستعداد للتضحية اذا رأى على رأسه القيادة الصـالحة . واذا رأى هـذا الشعب ان الذين يتولون زمـام الامور يقومون بدورهم باقصى ما يمكن مـن جهد . وانا اقول بكل احترام، ان من واجب رئيس الحكومة ان يقوم بتضحية كبيرة مقدما بذلك مثلا اعلى للشعب، اذ ليس ثمة من شيء يكون اكثر اسهاما من النصر في هذه الحرب من تضحيته بمركزه ... »

وعندما طرحت الحكومة الثقة فازت بها باغلبية واحد وثمانين صوتا ، بالرغم من امتناع ثلاثين نائبـا محافظـا عن التصويت . الا ان النتيجة لم تقنع المستر تشمبرلين ولم تطب نفسه بعد الالم الذي اصابه .

* * *

في اليوم العاشر من شهر ايار وردت الاخبار الهائلة بان جحـافل هتلر قد اجتاحت هولندا وبلجيكا ، واجتازت حدودهما في عدة مواقع ، واتجهت حركة الجيش نحو الاراضي المنخفضة وفرنسا ...

وفي مكتبي بالاميرالية وجدت بعض الوزراء الهولنديين الذين وصلوا من امستردام، بعد ان هوجمت بلادهم دون اي سبب . وطلبوا منا ان نفعل شيئا، ولحسن الحـظ ان عمـارة بحرية كانت قريبـة فاصدرنا اليها الامر بالتوجه فورا وضرب العدو وانزال اكبر عدد ممكن من الخسائر بقواته مع علمنا ان الامر قد انتهى وأصبحت البلاد في أيدي الالمان . وكـانت الملكة لا تزال في البلاد ، الا انها لن تتمكن من البقاء طويلا .

وفي اثناء هذه المعركة الجديدة وصلتني رسالة تستدعيني للمثول امام الملك في تمام الساعة السادسة .وما انوصلت الى القصر حتىسمح ليبالدخول على الفور ، واستقبلني جلالته ببشاشة ولطف كثيرين وأمرني بالجلوس ،ونظر الي وقال : « اعتقد انك تعلم لماذا استدعيتك ؟ » وأردت ان اجاريه في طريقته فاجبت « لا اعتقد اني اعلم ياسيدي » فضحك جلالته وقال : « اريد ان اطلب منك تاليف الوزارة . » واجبته باني سامتثل لامره في الحال .

ولم يشترط جلالته على نوع الحكومة وقوميتها . وشعرت ان تكليفي ليس مشروطا بتاليف حكومـة قوميـة ، الا انــي كنت افضل في هذه الظروف

بالذات قيام حكومة قومية · ولكن اذا تعذر على التفاهم مع المعارضة ، فاني عند ذلك لن اكون ممنوعا من الناحية الدستورية من تاليف حكومة قوية تضم جميع القادرين على الوقوف الى جانب بلادهم في هذه الظروف العصيبة شرط ان تكسب تأييد الاغلبية في المجلس · واخبرت جلالته اني عازم على تقديـــم اسماء خمسة او ستة وزراء ممن ستتالف منهم الوزارة ، قبل منتصف الليل ·

ودعوت المستر تشمبرلين هاتفيا وطلبت منه تولي رئاســـة المجلس ، فوافق وجرى الاتفاق على اذاعة بيان استقالته في الساعة التاسعة · وقد قام بهذه المهمة بطريقة رائعة كريمة ودعا الى تاييد خلفه والالتفاف حولـــــه · وبعد ذلك تمكنت من تاليف الوزارة وارسلت لجلالته قائمة بخمسة اسماء ، كما وعدته ان افعل · وقررت ان اتولى بنفسي مهام وزارة الدفاع · وهكذا تم لي تسلم القيادة في الدولة ، وبقيت محتفظا بها طيلة خمس سنوات وثلاثـة أشهر ، بكل اخلاص وقوة ، الى ان انتهت الحرب واستسلم اعداؤنا دون قيد او شرط ·

الجزء الثاني

سقوط فـــــــرنسا

الفصل الاول

معركة فرنسا

منذ نشوب الحرب في أيلول عام ١٩٣٩ ، خصص الالمان قوتهم الرئيسية لغزو بولندا ٠ وكانت تقف على الحدود الغربية الممتدة من اكس ـ ليشابل الى حدود سويسرا ، اثنتان واربعون فرقة المانية ، وكانت هذه الحشود خالية من أية فرقة مدرعة ٠ وكان بوسع فرنسا ان تواجه هذه القوة،بنحو من سبعين فرقة . الا أنهم لم يفعلوا ذلك وقرروا انه من المتعذر الهجوم على المانيا انذاك٠ أما الان فقد تغير الوضع تماما ، فقد اغتنم العدو الفرصة التي منحت له خلال ثمانية اشهر ، وبعد ان تمكن من احتلال بولندا عبأ ما يقارب المائـة والخمسة والخمسين فرقة من بينها عشرة فرق مدرعة ٠ وقد ساعده في ذلك الاتفاق المعقود بين هتلر وستالين ، والذي مكن هتلر من سحب وتخفيـض قواته على الجبهة الشرقية الى اقل عدد ممكن ٠ وقد وصف الجنرال هولـدر تلك القوات البسيطة المتبقية أمام روسيا بأنها قوة صغيرة تصلح لجمـع الضرائب فقط ٠ وهكذا استطاع هتلر ان يخصص لهجومه الكاسح علـى فرنسا مائة وست وعشرين فرقة مجهزة بأقوى الاسلحة ، تدعمها ثلاثة الاف سيارة مصفحة والف دبابة ثقيلة ٠

أما فرنسا فقد حشدت مائة وثلاث فرق ، بينها الفرق البريطانية الموجودة في فرنسا ، واذا تقرر اشراك الجيوش البلجيكية والهولندية فسيزداد العـدد بمقدار اثنين وعشرين فرقة إضافية ، ولما كان الهجوم الالماني الذي بدأ في العاشر من أيار عام ١٩٤٠ قد استهدف الجبهات الثلاث مجتمعة ، فقد بلغ مجموع القوات الحليفة مائة وخمس وثلاثون فرقة ، أي ما يوازي عدد الفرق

الالمانية تقريبا • ولو كانت هذه القوة الكبيرة منظمة تنظيما حسنا ومدربة تدريبا تاما لكان في امكانها وقف الهجوم الالماني • الا ان الجيش الالماني انذاك اصبح في وضع يمكنه من اختيار الوقت والاتجاه والقوة اللازمة لبدء هجومه • وكان اكثر من نصف الجيش الفرنسي متمركز في القطاعات الجنوبية والشرقية من البلاد ، بينما بقيت احدى وخمسون فرقة فرنسية بريطانية لتواجه الهجوم الكاسح في الشمال الذي تقوم به نحو من سبعين فرقة المانية • وقد بدأ الالمان هجومهم بزحف الدبابات الحديثة التي لا تخترقها قذائف المدافع والطائرات ، وقد صدرت الاوامر الى خمس فرق مدرعة وثلاث فرق اليـة بعبور الاردين الى سيدان ومونترمي •

أما الفرنسيون فقد واجهوا هذه الدبابات بدبابات من النوع الخفيف وقد بلغ عددها الفين وثلاثماية دبابة ، وقد تضمنت فرقهم الالية المدرعة بعض الانواع القوية ، الا ان معظم قوتهم المدرعة تلك كانت مجزأة ومتفرقة على عدة جبهات • أما بريطانيا التي كانت أول من اخترع الدبابة فقد اكملت تدريب أول فرقة مدرعة لها قبل أيام من بدء الهجوم ، ولم تتمكن من ارسالها الى فرنسا •

أما الطائرات الالمانية ، فكانت تفوق الطائرات الفرنسية بالعدد والقوة• اما القوة الجوية البريطانية العاملة في فرنسا فكانت تضم عشرة اسراب من طائرات « الهاريكين » ، التي تمكنا من الاستغناء عنها ، بالاضافة الى تسعة عشر سربا من أنواع مختلفة اخرى • اما طائرات الانقضاض ، هذا النوع الجديد من الطائرات الذي بدأ في الظهور منذ غزو بولندا ، فلم تكن فرنسا او بريطانيا قد انتجته بعد • وقد أثرت هذه الانواع من الطائرات على كتائب المشاة الفرنسيين وحطمت من معنوياتهم بشكل كبير •

* * *

بدأ الهجوم الالماني ليلة التاسع ـ العاشر من شهر أيار عام ١٩٤٠ ، وقد سبق هذا الهجوم ، غارات جوية على المطارات وطرق المواصلات والمنشآت العسكرية ، وبدأ الهجوم عبر حدود بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ • وتمكن الالمان من مباغتتهم في كل مكان ، وكان جنود العاصفة وهم يحملون المدافع الخفيفة ، ينطلقون من جميع الجهات ليشعلوا الجبهة بالنيران •• وعندما بدأ الزحف الكبير على هولندا وبلجيكا صرختا تطلبان النجدة • امـا الهولنديون فقد اركنوا الى خطهم المائي وفتحوا جميع الثغرات التي لم يتمكن

الالمان من الاستيلاء عليها ، كما راح حرس الحدود يقاومون الغزاة · الا ان الالمان كانوا قد اخترقوا الجبهة على عدة مواضع واقاموا الجسور واستولوا على فتحاتها والمفاتيح التي تضبطها · بينما راحت الطائرات المغيرة تضرب بقوة ، واصبحت مدينة روتردام بعد ليلة واحدة كتلة من الانقاض ، كذلـك لاهاي واوترخـت وامستردام ····

وفي الرابع عشر من ايار ، بدات الاخبار السيئة تصلنا عن اختـــراق الالمان للجبهة في سيدان ، ولم يتمكن الفرنسيون من الوقوف في وجه الجيش الالماني ، ومقاومة الدبابات وطائرات الانقضاض الهائلة · وقد وصلتنا الى مجلس الوزراء رسالة من المسيو رينو ، يطلب فيها ارسال عشرة اسراب من الطائرات لمساعدته في اعادة تنظيم الخطوط · كما وصلت رسائل اخرى الى رؤساء الاركان تشرح الموقف وتقول ان الجنرالين غاملان وجورج يعتبـران الوضع خطيرا جدا ، وقد ذهل الجنرال غاملان من سرعة الزحف الالماني · وفي جميع الاماكن التي اشتبكت فيها الجيوش كانت قوة الهجوم الالماني تسيطر على الموقف في الحال · اما الطائرات البريطانية فقد قاتلت ببسالة وقـــوة وحطمت الجسور الرئيسية في سيدان ، الا ان الخسائر التي تعرضت لهـــا الطائرات البريطانية كانت كثيرة الى حد مخيف · فمثلا خسرنا في يوم واحد حوالي سبعة وستين طائرة انزلتها المدفعية الالمانية المضادة للطائرات ، كمـا انا اسقطنا حوالي ثلاثة وخمسين طائرة المانية · ولم يبق لدينا في ذلك اليوم سوى ٢٠٦ طائرات من اصل ٤٧٤ طائرة في فرنسا ··· واتضـــح لنا ان الاستمرار على هذه الحال سيؤدي الى نهاية القوة الجوية البريطانية · وكان السؤال الان ، ماذا في وسعنا ان نرسل من طائرات الى فرنسا دون ان نترك بلادنا بلا دفاع · وكانت نداءات فرنسا الملحة ، ورغبتنا في القيام بالتزاماتنا تدفعنا الى ارسال المزيد ، الا اننا سنصل الى حد لا يمكننا تجاوزه لانـــه سيكلفنا بذلك حياتنا ·

وبحثت وزارة الحرب ، التي كانت تجتمع كل يوم ، هذا الوضع المخيف· وكان ماريشال الجو داودينغ قد اعلمني ان باستطاعتنا الدفاع عن وطننـــا بخمسة وعشرين سربا مقاتلا من الطائرات ، حتى لو هاجمنا السلاح الجوي الالماني كله · اما اذا انخفض هذا العدد ، فلا يمكننا الدفاع بعد ذلك · وكانت الهزيمة لا تعني فقط تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية ، بل تعني تدمير مصانع انتاج الطائرات الذي يتوقف عليها مستقبل بلادنا كله ····

وفي الساعة السابعة والنصف صباحا من يوم الخميس في الخامس عشر

من شهر أيار وصلتني مخابرة هاتفية الى المنزل وانا في فراشي مـن المسيو رينو · وكان يتكلم بالانكليزية ، والاضطراب باديا على صوتـه وهو يقول : « لقد هزمنا · لقد خسرنا المعركة » فقلت له : « لا يمكن ان تهزموا بهـذه السرعة !! » فأجاب « لقد تحطمت الجبهة عند سيدان ، وهم الان يتقدمون بالدبابات والاليات المدرعة » واجبته على الفور بأني سآتي الى فرنسا للتحدث معـه ·

لقد استطاع الالمان ان يقتحموا الجبهة ، واندفعت قوات كبيرة بعد ان اضمحل الجيش الفرنسي التاسع · وفي السادس عشر منه توغلت القـوات الالمانية ستين ميلا وراء الجبهة ، كما انتهى القتال في ذلك اليوم أيضا ، في هولندا بعد ان استسلمت القيادة العليا ···

***

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه ، توجهت الى فرنسا ومعـي الجنرال ديل ، نائب رئيس اركان حرب الامبراطورية والجنرال ايسماي · ووصلنا بعد ساعة الى مطار « لابورجيه » · وظهر لي الوضع اسوأ بكثير مما كنت أعتقده · وقد قال الضباط الذين كانوا في استقبالنا ان الالمان سيصلوا باريس خلال ايام معدودة ، وهذا على أكثر تقدير · وتوجهت الى سفارتنا وبعد ان استمعت الى الاخبار ، توجهت الى الكي دورسيه ، ودخلت الـى الغرفة حيث كان بانتظارنا رينو ووزير الدفاع ديلادييه والجنرال غاملان · وكان الجميع وقوفا ، ولاحظت على وجوههم دلائل التعـب والاضطراب · ورأيت امامهم خريطة قد رسم عليها بخط أسود جبهة الحلفاء ، وقد احدثت فيها ثغرة صغيرة مشؤومة عند سيدان ·

وأوضح القائد باختصار تفاصيل ما حدث · فقد اخترق الالمان الجبهة الى الشمال والجنوب من سيدان على بعد ستين ميلا ، وقـد تمزق الجيش أمامهم وتحطم شر تحطيم · وبدأت السيارات تتجه بسرعة هائلة نحو اميان واراس ، معتزمة الوصول الى البحر عند ابيفيل او قربها ، وربما غيرت هذه القوات وجهة سيرها ، وتحولت نحو باريس · وقال ان القوات المدرعة البالغة ثماني فرق تزحف وراء السيارات وتوسع في اجنحتها أثناء تقدمها بعـد ان شطرت الجيش الفرنسي وفصلت بينه تماما · وقد استمر الجنرال يحدثنا عن الوضع حوالي خمس دقائق · وبعد ان انهى حديثه ساد الوجوم والصمـت لفترة طويلة ، ثم سألته « اين القوة الاحتياطية وأين قـوات المناورات ؟ »

واجابني غاملان وهو يهز برأسه : « لا يوجد عندنا قوات احتياط او قـوات منـــاورة ···· »

وساد الصمت فترة اخرى · وارتفع الدخان في الحدائق من المشاعـل ورأيت الموظفين يحملون الوثائق والمستندات الهامة ويضرموا فيها النيران · استعدادا للجلاء عن باريس ·

وعلى الرغم من ان للتجارب الماضية ميزات عديدة ، الا انها تنقـص نقصا هاما هو في كون الامور لا تتكرر على نفس الصورة مرتين · ولولا ذلك لكانت الحياة تسير بسهولة كبيرة · وفي السابق تحطمت جبهاتنا وتمكن العدو من اختراقها ، لكننا كنا دائما نتمكن من وصل الاشياء ببعضها ونخفف مـن حدة الهجوم · اما الان فالتجربة كانت مختلفة ، فقد انقطعت طرق المواصلات، وتم الاستيلاء على الريف القائم وراء الجبهة باندفاع هائل من السيـارات المدرعة ، ولم يكن باستطاعتنا المقاومة لعدم وجود احتياطي استراتيجي لدى الفرنسيين ··· لقد أجابوني بانه ليس لديهم احتياطي ، وقـد اذهلنـي جوابهم هذا ، اذ كيف يمكننا اعتبار هذا الجيش الفرنسي الكبير بعد الان ؟ ولم استطع ان أتصور ان قائدا يعهد اليه مهمة الدفاع عن جبهة تقدر مساحتها بخمسمئة ميل ، ويبقى عاجزا عن المناورة · اذ لا يمكن لاي قائد ان يدافع عن جبهة واسعة كالجبهة الفرنسية ، خاصة بعد ان يندفع العدو بهذه القوة الهائلة ويخترق الجبهة · لذلك يتوجب على القائد ان يطلق فرقة الاحتياطية لمهاجمة العدو في نفس اللحظة التي تكون حدة هجوم العدو قد خفتت ·

اذن لماذا اقامت فرنسا خط ماجينو هذا ؟ فهو بلا شك قد وفر استخدام قوات كبيرة من الجيش ، وبنفس الوقت خلق مراكز اندفاعية ، باستطاعـة الجيش ان يستخدمها أثناء هجومه المعاكس بالاضافة الى استخدامه لتلـك المراكز لحشد قوات اضافية تساعد الجيش عند الضرورة · وهذه هي الطريقة الوحيدة لمواجهة مثل هذا الموقف · ولكنهم يقولون انه ليس عندهم احتياطي · وهنا لا بد ان اعترف ان قولهم هذا كان اكبر مفاجاة تلقيتها في حياتي · فلماذا لم يعرفوني بهذا الامر من قبل ، حتى ولو كنت منهمكا في اعمالي فـي الاميرالية ؟ بل لماذا لم تعرف الحكومة البريطانية بهذا الامر من قبل ، وخاصة وزارة الحربية ؟ ولا اعتقد ان القيادة الفرنسية ما كانت لتكشف لنا عن هذا الضعف او عن طريقة توزيع قواتها ، فهذا العذر هو اقبح من الذنب · اذ انه من حقنا ان نعرف ، فالجيشان يخوضان معركة حياة او موت في الجبهة ··· وعدت الى النافذة لأراقب السنة اللهب تلتهم الوثائق والمستندات الخاصـة

بالجمهورية الفرنسية · وكانوا لا يزالون يقذفون بمزيد من المستندات الـــى النيران المتأججة ····

وعاد الجنرال غاملان الى الحديث مرة اخرى ، ويقول اذا لم يكن من الضروري اعادة جمع القوات المشتتة لتضرب القوات الغازية · وقال ان هناك ثماني فرق او تسعة يمكننا سحبها من المراكز الهادئة في الجبهة عنـد خط ماجينو ، كما ان هناك ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد في المعركـــة · بالاضافة الى ثماني او تسع فرق ستتصل في طريقها من أفريقيــا خـــلال اسبوعين · وفي هذه الحالة سيجتاز الالمان طريقهم عبر ممر بين جبهتيـــن فيمكن شن الغارات المعاكسة عليهم ، ولن يتمكن الالمان من الصمود نتيجــة ضغط الجبهتين عليهم ···

ومع ان اقوال الجنرال غاملان كانت منطقية ومعقولة ، الا انني شعرت بان بقية الرجال لا يصدقون ما يقوله · وسألت الجنرال غاملان عن الموعــد الذي سيحدده للهجوم ، وعن الطريقة التي سيتبعها في هجومه ، وكان رده : «اننا اقل منهم عددا وعدة ، وأضعف منهم في أساليب الحرب ··» وبعد ذلك اكتفى بان هز كتفيه ، ولم نتكلم بعد ذلك ، اذ لم يكن من ضرورة لذلك ··· ثم اين تقف بريطانيا ازاء هذا الوضع ، بأسهامها الضعيف الذي لا يتعدى العشر فرق والتي لا يوجد بينها فرقة واحدة من الدبابات الحديثة ، وذلك بعد مضي ثمانية أشهر من اعـــلان الحرب ؟؟

***

وفي الصباح ، قبل ان اغادر المكان ، وصلني التفويض من مجلـــس الوزراء في لندن لنقل أربعة اسراب من الطائرات المقاتلة الى فرنسا · ورجعت الى السفارة لاطلب ارسال ستة أسراب اخرى ، تاركا خمسة وعشرين سربـا فقط للدفاع عن الجزر البريطانية كلها ، وهذا هو الحد النهائي · وجاءتنـي الموافقة في المساء ، فتوجهت لتوي الى منزل المسيو رينو وابلغته النبأ ، كما طلبت منه استدعاء المسيو ديلادييه ليسمع النبأ المفــرح ، الذي بدا لي انه سيرفع من معنويات اصدقاءنا الفرنسيين · وعندما سمع المسيو ديلادييــه بالخبر لم ينبس بكلمة واحدة ، واكتفى بان قفز من مكانه وامسك بيـــدي وعصرها وامارات الفرح ترتسم على وجهه ··· وفي صباح اليوم التالـــي عدت الى لندن · وقد اخبرت اصدقاءنا الفرنسيين ، قبل ان اغادر باريس ، انهم ما لم يبذلوا جهدا فائقا فان مغامرتنا الكبرى في ارسال تلك الاسراب من

الطائرات تصبح دون فائدة · وقد قيل لي ان خسائر العدو كانت اكبر من خسائرنا بخمسة أضعاف ، كما قيل لي ان فرنسا فقدت معظم طائراتها ···
وخيل للجنرال غاملان ان الوضع قد أصبح منتهيا ، وقد اخبروني بعد ذلك انه اعلن بأنه لن يتمكن من الصمود اكثر من يوم واحد فقط ، وان باريس ستسقط بين ليلة وضحاها !! وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه لندن ، وصلتني الاخبار ان الالمان دخلوا بروكسل وفي اليوم التالي دخلوا كامبرية ثم اجتازوا سان كانتان ، بينما كانت القوات الحليفة تتراجع منسحبة ···

وفي منتصف ليل الثامن عشر ـ التاسع عشر ، قام الجنرال بيلوتي بزيارة اللورد غوت في القيادة العليا · ولم تكن شخصية هذا القائد تبعث على الارتياح والثقة · ومنذ تلك اللحظة بدأت فكرة الانسحاب الى الشاطىء تراود مخيلة القائد العام البريطاني ، وقد ابرق الينا يقول ان الوضع في فرنسا قد تغير ولم تعد المسألة مسألة خرق لخط الدفاع ، بل أصبح الوضع يشكل صورة القلعة المحاصرة والمهددة بالسقوط ·

***

وبدأ المسيو رينو بتغيير اعضاء وزارته وقيادته العليا · وعين الماريشال بيتان نائبا لرئيس الوزراء ، ونقل المسيو ديلادييه الى وزراء الخارجية واخذ عنه مهام وزارة الدفاع والحربية واحتفظ بها لنفسه ، كما عين الجنرال ويغان قائدا أعلى بدلا من الجنرال غاملان ·

كان اخر أمر أصدره الجنرال غاملان هو ان تشق الجيوش الشمالية طريقها الى الجنوب الى نهر السوم مهما كلفها الامر ، وان تهاجم مدرعات العدو التي قطعت طرق مواصلاتنا · وفي نفس الوقت يترتب على الجيش الثاني والجيش السادس ان يخترقا الصفوف باتجاه الشمال نحو ميزيير · وقد اعجبت بهذه القرارات المتخذة ، فقد كانت قرارات صائبة جدا ·

وقد اثار اضطراب القيادة الشمالية ، وهزيمة الجيش الفرنسي الاول وغموض الموقف العام ، اثار القلق في نفوسنا ، وبقيت في نفس الوقت جميع الاجراءات التي اتخذناها هادئة مرنة وجاءتنا رسالة من اللورد غورت تقول أنه يدرس امكانية إنسحاب جيوشنا الى دنكرك ، بحال اضطر الى ذلك ··· ولم يكن باستطاعة رئيس الاركان الموافقة على مثل هذا الاقتراح الذي لم نكن نحن ايضا نوافق عليه ، فبعثنا برسالة الى اللورد غورت ، نعلمه بها بوجوب الاتجاه بالقوات البريطانية نحو الجنوب الغربي لتنضم

الى القوات الفرنسية في الجنوب ، وفي نفس الوقت يحث البلجيكيين على العمل بنفس الخطة · واذا لم يوافقوا عليه ان يخبرهم عن استعدادنا لاجلاء اكبر عدد ممكن من القوات من موانيء المانش · وقررنا في نفس الجلسة ان نرسل الجنرال ديل الى مقر قيادة الجنرال جورج ، الذي كنا على اتصال تلفوني دائم معه ، بينما كانت اتصالاتنا مع اللورد غورت متقطعه وصعبة ، وقد وصلتنا الاخبار بان الذخيرة والمؤن لم تعد تكفي الا لمدة اربعة ايام فقط·

وفي العشرين من ايار ، بعد ان درسنا وضع جيشنا من جديد ، قررنا بالجلسلة الخاصة ما يلي : « يتوجب على الاميراليه ان تقوم بحشد اكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة ، وذلك كاجراء احتياطي ، لنكون على استعداد للابحار الى الموانيء القائمة على طول الساحل الفرنسي » · وفي نفس اليوم عقد المؤتمر الاول لجميع من يعينهم الامر لدرس قضية الجلاء الطارىء عبر القناة لقوات كبيرة جدا · كما وضعت الخطة لاجلاء عشرة الاف رجل عن موانيء كاليه وبولون ودنكرك ، كل اربعة وعشرين ساعة · وقد اسميت هذه الخطة « عملية دينامو » التي برهنت على انها الطريقة الوحيدة التي انقذت الجيش بعد عشرة ايام

وفي ليلة العشرين من الشهر نفسه دخل الالمان مدينة ابيفيل ، بعد ان قطعت طرق مواصلات الجيوش الشمالية ، واصبح اتجاه قواتهم واضحا الان وكانت الفرق الالية والمدرعات تتدفق كالسيل الجارف دون ان تلقى اية مقاومة من الفرنسيين ، وكانت تتقدم مجتازه المدن والقرى بمعدل ثلاثين او اربعين ميلا في اليوم الواحد · وكان الضباط الالمان ينظرون الى السكان ويبتسمون بسخرية وهم يلوحون لهم بايديهم · وتتحدث الاخبار ان جماعات من الاسرى الفرنسيين كانت تسير معهم والبنادق لا تزال في ايديهم ، وكان الالمان يجمعونها بين الفترة والاخرى ويحطمونها تحت الدبابات ···· وقد اذهلني هذا الفشل في الوقوف امام هجمات المدرعات الالمانية التي تمكنت من تحطيم جيوش قوية بكاملها ، كما اذهلني الانهيار السريع في المقاومة الفرنسية بعد ان تمكن الالمان من اختراق الجبهة · فقد كانت القوات الالمانية تسير على الطرقات الفرنسية الرئيسية بحرية تامة · ولم يبد ان اي طريق قد اغلق في وجه الاعداء ولو في نقطة واحدة تدل على شيء من المقاومة ····

الفصل الثاني

المسير نحو البحر

لقد كان هتلر الرجل الوحيد الذي يستطيع اختراق حياد بلجيكا وهولندا ، وبلجيكا لن تطلب العون من الحلفاء الا اذا هوجمت · لذلك بقي زمام المبادرة العسكرية في يد هتلر الذي وجه ضربته في اليوم العاشر من شهر ايار · وانتقلت الجيوش الفرنسية والبريطانية من وراء خطوطها الى بلجيكا لمحاولة انقاذها ، بدلا من البقاء عند خطوط الدفاع المحصنة · وقد كانت هذه المحاولة حسب خطة رسمها الجنرال غاملان والملقبة بالخطة «د» · وكان الفرنسيون قد تركوا نقطة الدفاع المقابلة للاردين ، دون دفاع قوي ، فتمكنت الجيوش الالمانية من الاندفاع بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ وقسمت خط الجيوش الفرنسية · وبعد ثمان واربعين ساعة اصبحت الجيوش الالمانية تهدد بقية الجيوش المتمركزه بالشمال قاطعة خط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر ايضا · وكان على القيادة العليا الفرنسية ، ان تأمر جيوشها بالانسحاب فورا وباقصى سرعه ممكنة متحمله الخسائر البالغة في المعدات · الا ان الجنرال غاملان لم يواجه هذه الحقيقة المخيفة ، بينما كان قائد الجيوش الشمالية ، بيلوتي ، عاجزا عن اتخاذ القرارات الهامة بنفسه · لذلك عمت الفوضى جميع الجيوش في الجبهة الشمالية المهددة ·

وعندما شعرت هذه الجيوش بالخطر المحدق بها ، تراجعت الا ان العدو كان قد طوقها من الايمن ، فقامت بانشاء خط دفاعي · لكنها لو بدأت هذه الجيوش بالتراجع قبل هذا الوقت الذي تراجعت فيه ، لكان باستطاعها ان تصل الى خطها القديم فتتمكن من النجاة · لكن هذه الجيوش تأخرت وفقدت

ثلاثة ايام بين اخذ ورد فاستكمل العدو حركة التطويق ! ورات وزارة الحرب في بريطانيا ان القتال الفوري في الجنوب هو الطريقة الوحيدة لانقاذ الجيش البريطاني · لكن اللورد غورت ، لم يوافق على هذه الفكرة وبامكانية نجاحها فالخطة المقترحه من وزارة الحرب تقضي باشغال العدو على عدة جبهات لتتمكن من خرق جبهة واحدة لتنفيذ خطة التراجع · وفي هذا الوقت تغيرت القيادة العليا في فرنسا وصرف الجنرال غاملان وخلفه في القيادة الجنرال ويغان · وادى هذا التغيير في القيادة الى التاخير ثلاثة ايام اخرى · واقترح الجنرال خطة مشابهة لخطة سلفه واضطررنا الى قبولها مرغمين وحاولنا بكل جهد ان ننفذها مخلصين الى ان انقطعت طرق المواصلات امامنا ، بعد ان صد الالمان هجماتنا الضعيفة واحتلوا اراس وانهارت الجبهة البلجيكية واوشك الملك ليوبولد على الاستسلام · وفقدنا كل امل في الانسحاب الى الجنوب · ولم يبق امامنا الا البحر ··· وفي الحال ، اقام اللورد غورت راس جسر حول دنكرك محاولا شق طريقه بكل قوته · وكنا في هذه الايام بحاجة الى كل ما عرف عنا من نظام وطاعة ودقة في القيادة ···

* * *

وهنا سنعرض قصة كثر الجدل حولها · فقد ذكر الجنرال هولدر رئيس اركان الجيش الالماني ، ان هتلر قد تدخل في هذا الوقت شخصيا ولاول مرة لانه شعر بالخوف على آلياته المدرعة لانها اصبحت في وضع خطر للغاية ، فهي الان في ارض وعرة محاطة بالاقنية ولا يمكنها التقدم بشكل سريع · وبنفس الوقت لا يمكنه احتمال اي خسارة في معداته ، فهو بحاجة اليها في المرحلة الثانية من حملته · واعتقد ان سلاح الطيران سيتمكن من السيطرة ومنع التراجع والانسحاب عن طريق البحر · لذلك ارسل اوامره بوقف آلياته المدرعه وتراجعها في بعض الاماكن · وهكذا اصبح في مقدور البريطانين الانسحاب والوصول الى دنكرك · هذا حسب قول هولدر نفسه · وعلى كل حال فقد تمكنا من التقاط رسالة المانية في صباح الرابع والعشرين من ايار ، تأمر بوقف الهجوم على دنكرك · ويقول هولدر ايضا انه رفض التدخل في تحركات الجيوش التي كانت تحت امرة رونشتادت والتي كانت تحمل الاوامر الصريحة بمنع العدو من التقدم والوصول الى البحر · وقال انه كلما اسرع في تحقيق النصر كان اسهل فيما بعد التعويض عن الدبابات والمدرعات المفقودة ·

ولم يلبث هتلــر ان اصدر امسرا بايفاد ضابط ارتباط شخصي الــى الجبهة · ومضى الجنرال هولدر يقول :

« لم اعرف كيف اقتنع هتلـــر بضرورة عدم تعريض قواته المدرعه الى الخطر ومن المرجح ان يكون كايتل قد اوحى له بهذه الافكار عــن طريــق القصص التي كان يقصها عليه »

وقد صرح قادة اخرون بقصة مشابهة واشاروا الى ان هتلر قد اصدر اوامره هذه لاسباب سياسية منها فسح المجال امام انكلترا لطلب الســلام بعد الهزيمة التي لحقت بفرنسا · وقد ظهرت بعد انتهاء الحرب بعض الوثائق التي صدرت عن مقر قيادة رونشتادت على شكل يوميات دونت في ذلك الوقت اما هذه الوثائق فتروي القصه بشكل مختلف تماماً ! فالاوامر صدرت عنــد منتصف ليل الثالث والعشرين من ايار من مقر القيادة العامة ، تحمل توقيع براوخيتش تذكر فيها ان الجيش الرابع سيبقى تحت قيادة رونشتادت ليقوم بالمرحلة الاخيرة من معركة التطويق · وفي صباح اليوم التالي ، عندما وصل هتلر لزيارة رونشتادت ، اخبره ان الاليات المدرعة ، التي توغلت بعيداً قد ضعفت قوتها ، وهي بحاجة الى فترة من التوقف لاستعاده نشاطها كي تتمكن من توجيه الضربة القاضية للعدو الذي يقاتل بضراوة · وكان رونشتادت ينتظر هجمات شديدة من الحلفاء في الشمال والجنوب ، وهي الخطة التــي اقترحها ويغان · وقد وافق هتلر على وجوب توقف السلاح الدرع لتجهيزه للمعركة الحاسمة المقبلة · ومع ذلك ، فقد وصل في صباح اليوم التالي الامر من براوخيتش ، القائد العــام ، باستمرار تقــدم المدرعــات · وهنا رفض رونشتادت الامر الموجه اليه ، بعد ان اطمأن الى موافقة هتلر الشخصية · ، ولم ينقل هذا الامر الى قائد الجيش الرابع « كلوغه » بل طلب منه ان يستمــر في تجميع القوات المدرعة · وقد احتج « كلوغة » على هذا التأخير ، ولكــــن رونشتادت لم يصدر اوامر القيادة العليا الا في صباح يوم السادس والعشرين واضاف انه يجب ان لا يهاجموا دنكرك بالذات ··· وقد ذكرت هذه اليوميات عن احتجاج قادة الجيش الرابع على هذا التخصيص وكتــب رئيس اركــان حربيـــة يقــول :

« ان الوضع في الموانيء كان على الشكل التالي : فالبواخــــر الكبيرة كانت تقترب من الارصفه ، وتمد الالواح الخشبية الــى الشاطيء وبسرعة عجيبة كانت اسطحة البواخر تكتظ بالرجال · اما اسلحتهم وعتادهم الحربي فيتركونه وراءهم · لكننا لم نكــن

نريد ان نرى هؤلاء الرجال أنفسهم يعودون مرة اخرى وقد تسلحوا بسلاح جديد ليقوموا بجولات جديدة ضدنا » ٠

ومن هذه اليوميات يتبين ان المدرعات قد توقفت بناء للاوامر التي صدرت عن رونشتادت لا عن هتلر ٠ ولا بد ان تكون هناك وجهة نظر خاصة ، الا ان القادة الالمان اجمعوا على ان هذه الاوامر قد اضاعت فرصه عظيمة عليهم ٠

* * *

لم تكن القوات الالمانية تضغط بشدة على خط الدفاع البلجيكي ، ولكنها ما ان بدات ضغطها المتزايد حتى انهار الخط وتمكن الالمان من تحطيمه على جانبي كورتاني ، التي لا تبعد عن اوستند ودنكرك اكثر من ثلاثين ميلا ، وما لبث ملك بلجيكا ان يأس من الوضع الحاضر فقرر الاستسلام ٠

واتخذ اللورد غورت قراره الحاسم بالتخلي عن خطة الجنرال ويغان القاضية بالزحف نحو الجنوب ونحو السوم ٠ وقرر بدلا عنها بعد اقتناعه التام بان اشراف الحكومتين البريطانيه والفرنسيه قد انتهى على ميدان المعركة ، وكل سيطرة للقيادة الفرنسية العليا قد زالت ٠ لذلك قرر ان يستبدل فكرة الهجوم نحو الجنوب ، بسد الثغرة التي ستحدثها استسلام بلجيكا في الشمال ، وان يزحف باتجاه البحر ٠ وهكذا اصدر اوامره الى الفرقتين الخامسة والخمسين بوجوب الانضمام الى اللواء البريطاني الثاني لسد الثغرة في الجبهة البلجيكية ، كما نقل الى الجنرال بلانشار الفرنسي عزمه على تغيير الخطه الاولى ووافق الجنرال وقرر الانسحاب الى الخط الواقع وراء قناة ليز غربي ليل ، وقرر اقامة راس جسر حول دنكرك ٠

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر ايار ، قام غورت وبلانشار برسم خطة الانسحاب نحو البحر ٠ ولما كان على الجيش الفرنسي ان يقطع مسافة اطول ، لذلك مهدت قوات الحمله البريطانية الطريق بينما بقيت القوات الاخرى في خطوط الدفاع في الجبهة حتى ليله الثامن والعشرين من ايار ٠ وكان اللورد غورت يتصرف حسبما يراه مناسبا وعلى مسؤوليته الخاصة ، الا اننا في الوزارة كنا قد توصلنا الى نفس النتيجة حسب المعلومات التي حصلنا عليها ٠ لذلك اصدرنا له برقية تأييد للاجراءات التي قام بها طالبين منه التوجه الى البحر بالاشتراك مع مع القوات الفرنسية والبلجيكية ٠ ثم بدأ حشد اكبر عدد ممكن من المراكب والسفن ٠

وفي هذه الاثناء ، استمرت عملية اقامة رؤوس الجسور حول دنكرك ، كما تقرر ان يحتفظ الفرنسيون بالاماكن الواقعه بين « غريفلاين » و « بيرغ »

بينما يحافظ البريطانيون على القناة عبر فيرنز الى نيوبورت والشاطىء وتلقى اللورد غورت من الوزارة تأكيدا للامر الذي صدر اليه في اجلاء اكبر عدد ممكن من الرجال • وكنت قد اخبرت المسيو رينو ان هدفنا هو سحب القوات البريطانية ، كما طلبت منه ان يصدر أوامر مماثلة ، وكانت حركة المواصلات قد اصبحت ضخمة حتى ان قائد الجيش الفرنسي الاول اصدر امره في السابع والعشرين من ايار الى جنوده يقول : « ان المعركة تدور الان دون تراجع حتى خط ليز »

أصبح الخطر يهدد فرقا بريطانيا اربعة ، بالاضافة الى الجيش الفرنسي الاول كله ، بالعزلة والانقطاع • وراحت (الكماشه) الالمانية تحاول الضغط بكل قوتها على جيوشنا • وكانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة التي تلعب فيها وسائل النقل الميكانيكية دورها البارز • فما أن أصدر اللورد غورث أمره بالتراجع حتى كانت الفرق الاربع تتراجع بسرعة مذهلة في ليلة واحدة • وتمكنت بقية الفرق البريطانية من الاحتفاظ بالمر المؤدي الى البحر بكثير من الجهد ، وبعد معارك دامية تمكن العدو من اغلاق (الكماشة) بعد ان تم تأخيرها ثلاثة أيام بفضل الفرق البريطانية الثانية ، وتم اغلاق ذراعي الكماشة بصورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالينغراد سنة ١٩٤٢ • وقد تم انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية ، خلال هذه الفترة ، وتمكنت من النجاة عدا اللواء الخامس من الجيش الفرنسي الذي فقد •••

* * *

قبل عشرة أيام طلبت من المستر تشمبرلين درس امكانية استمرارنا في الحرب وحدنا ، والان ما لبثت ان عرضت الامر بصفة رسمية على مستشارينا العسكريين • وقد وضعت الاسئلة بطريقة تترك المجال امام رؤساء الاركان لابداء ارائهم بحرية تامة ، مهما كانت تلك الاراء • وبالرغم من ثقتي التامة بانهم سيطلبون الاستمرار في الحرب ، الا انني وجدت من الحكمة ان احتفظ بسجلات خطية عن مثل هذه الاراء • كما اردت ان أؤكد للبرلمان ان اراءنا بالاستمرار في الحرب تدعمها اراء الخبراء العسكريون المحترفون • وهنا أسرد نص السؤال بحرفيته مع رد رؤساء الاركان عليه :

« ١ ـ لقد اطلعنا على التقرير عن « استراتيجية بريطانيا في حال حدوث تطور معين » على ضوء المهمة التي كلفنا بها رئيس الوزراء في رسالته التالية :

« في حال عجزت فرنسا عن الاستمرار في الحرب ، وفي حال اتخذت

موقف الحياد ، وفي حال احتفاظ الالمان بوضعهم الحالي واستسلام الجيش البلجيكي بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول الى البحر ، وفي حال التقدم بعروض من شأنها ان تضع بريطانيا تحت رحمة المانيا بسبب اقتراحات نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل في جزر اوركني وغيرهـــا ، فما هو الامل في استمرار الحرب ضد المانيا ، وربما ضد ايطاليا ايضا ؟ وهل سيتمكن الاسطول والسلاح الجوي ، من حمايتنا ضد غزو الماني خطير ، وهل ستتمكن قواتنا التي سنحشدها في هذه الجزر من مقاومة الغارات الجويــة عليها ، مع العلم ان هذه القوات تضم وحدات لا يبلغ عدد افرادها العشرة الاف ! شرط ان نأخذ بعين الاعتبار ان اطالة مدة المقاومة ستشكل خطرا كبيرا على المانيا التي ستكون منصرفة الى السيطرة على الاجزاء التي احتلتها في اوروبـــا ٠

« ٢ ــ هذا وقد توصلنا الى نتائج سنذكرها في الفقرات التالية :

« ٣ ــ يمكن لاسطولنا البحري ان يتعاون مع سلاحنا الجوي في الدفاع ومنع المانيا من القيام بهجوم كبير عن طريق البحر » ٠

« ٤ ــ اذا افترضنا ان المانيا استطاعت ان تتفوق على قواتنا الجوية ، فنحن نعتقد ان الاسطول سيتمكن من المقاومة لفترة محدودة فقط » ٠

« ٥ ــ اذا لم يتمكن اسطولنا من المقاومة ، واذا ما تمكن العدو مـــن التغلب على سلاحنا الجوي ، واذا حاولت المانيا ان تغزونا ، فلن تتمكـــن قواتنا الساحلية من الدفاع ومنع انزال قوات برية على الشواطىء ٠ وفي هذه الحال ستكون قواتنا البرية غير قادرة على الصمود امام غزو الماني كبير » ٠

« ٦ ــ فاذا ما تمكنت المانيا من احراز تفوق جوي ، فباستطاعتها غـــزو بلادنا واخضاعها عن طريق الجو فقط » ٠

« ٧ ــ لن تتمكن المانيا من التفوق علينا في الجو ، الا اذا تمكنت مـــن القضاء على سلاحنا الجوي برمته ، واذا ما تمكنت من تحطيم جميع مصانع الطائرات في كوفنتري وبرمنغهام » ٠

« ٨ ــ قد تقع الغارات الجوية على مصانع الطائرات في الليل وفـــي النهار ٠ ونحن نرى انه بامكاننا ان نلحق بالعدو خسائر فادحة اثناء قيامــه بغارات في النهار ٠ ومهما حاولنا فلن نتمكن من حماية جميع مصانع طائراتنا خاصة اثناء غارات العدو الليلية ، فعلينا ان نحول بينه وبين تنفيذ اهدافــه قدر امكاننا » ٠

« ٩ ــ ان نجاح العمليات الجوية في القضاء على صناعة الطائرات ،

لا تعتمد على القنابل والتخريب الذي ينجم عنها ، بل يعتمد ايضا على التأثير المعنوي على العمال الذين سيتوقف عليهم وحدهم الرغبة في الاستمرار في العمل بالرغم من الاضطرابات والمخاوف » ٠

« ١٠ ــ اذا استمر العدو في غاراته الليلية على مصانع طائراتنا ، فقد ينجح في الحاق الاضرار المادية والمعنوية بنا ، وسيتوقف العمل في مصانعنا على الفور » ٠

« ١١ ــ علينا ان نتأكد من ان الالمان متفوقون علينا في عدد الطائرات بنسبة اربعة الى واحد ٠ بالاضافة الى ان مصانع طائراتهم اكثر توزيعا وقوة من مصانعنا ٠

« ١٢ ــ ومن ناحية ثانية ، فبامكاننا نحن ايضا توجيه ضربات قوية على مصانع العدو ، ما دامت لدينا قوة كبيرة من قاذفات القنابل ، التي ستلحق بغاراتها على مصانعهم الكثير من الاضرار المادية والمعنوية وتوقف قسما كبيرا منها عن العمل » ٠

« ١٣ ــ وبالاجمال ، تبدو المانيا لاول وهلة انها تملك زمام الامور بيدها ٠ ولكن النتيجة تتوقف على مقدرة جنودنا وسكاننا المدنيين على الصمود ، بفضل ما نتمتع به من روح معنوية عالية تمكننا من موازاة المانيا التي تبدو انها متفوقة علينا » ٠

لقد كتب هذا التقرير في احلك الاوقات ، وقبل عملية انقاذ دنكرك وقد وقع على التقرير رؤساء أركان الحرب الثلاثة ، وهم : « نيووال ــ باوند ــ وايرونسايد ، ونوابهم الثلاثة : ديل ــ فيليبس وبيرس ٠ وعندما قرأت هذا التقرير بعد سنوات ، اريد أن اقر على ما كان يحتويه من خطورة وغموض ٠ الا اننا كنا قد حزمنا امرنا وقررنا المضي يدا واحدة وقلبا واحدا ٠

وقد اصدرنا التعليمات العامة التالية :

سري للغاية

« ان من دواعي امتنان رئيس الوزراء ، في هذه الايام السوداء ، ان يرى زملائه الوزراء وهم محتفظين بروحهم المعنوية العالية ، خلال الفترات الصعبة التي يعيشونها ٠ وعلينا ان لا نقلل من اهمية هذه الاحداث وخطورتها وحراجتها ، وعلينا ان نبرهن عن عزمنا وتصميمنا الاكيدين على المضي في هذه الحرب ، حتى نحطم ارادة العدو الراغب في السيطرة على اوروبا واخضاعها لنفوذه وسيطرته ٠

« وعلينا ان لا نتسامح بالفكرة القائلة ان فرنسا ستقوم بعقد صلح

منفرد مع المانيا · ولكن مهما حدث على هذه القارة الاوروبية فعلينـــا ان لا نشك في واجباتنا ، وسنستخدم كلما نملكــه من قوة للدفـــاع عن بلادنـــا وامبراطوريتنا وقضيتنا » ·

* * *

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين استسلمت بلجيكـــا ، وقد وصلت الانباء الى اللورد غورث قبل الاستسلام بساعة واحدة ، وكان هذا الانهيار متوقعا قبل ثلاثة ايام ، وقد استطاعت القوات البريطانية ان تسد هذه الثغــرة التي كان متوقعا حدوثها · واستطاعت قوات الحملة البريطانية الجلاء ، كما تمكن نصف الجيش الفرنسي الاول من الوصول الى دنكرك سالما حيث تم نقل رجاله بسلام · لكن خمس فرق لم يكتب لها النجاة بعد ان اطبقت عليها الكماشة الالمانية ، الا انهم صمدوا أمام الضغط الهائل واستبسلوا في القتال حتى مساء الحادي والثلاثين من أيار ، واضطروا الى الاستسلام بعد ان نفد ما لديهم من غذاء وعتاد · وهكذا استسلم نحو من خمسين الف جندي فرنسي للاعداء · وقد تمكن هؤلاء من الصمود بقيادة الجنرال مولنييه الباسل واتاحوا بذلـــك الفرصة أمام رفاقهم للنجاة عن طريق دنكرك ·

وقد مررت بمحنة قاسية خلال الايام المخيفة ، ولم اكن اجرؤ علــى التدخل ، اذ ان التدخل سيؤدي الى زيادة الخطر على الرجال بدلا من تخفيفه عنهم · ولا شك ان التزامنا المخلص لخطة الجنرال ويغان قد زادت من خطورة الموقف · الا ان قرار اللورد غورث ، الذي وافقنا عليه وايدناه ، والقـــاضي بالزحف نحو البحر قد نفذ بدقة متناهية بفضل عبقرية القائد ومساعدوه ، وسيبقى هذه الحادث كاسطورة رائعة من اساطير البطولة في تاريخ بريطانيـــا العسكري ·

الفصل الثالث

انقاذ دنكرك

منذ العشرين من أيار ، بدأ حشد البواخر والقطع الصغيرة تحت قيادة الاميرال رامسي قائد موقع ووفر · وفي مساء السادس والعشرين من الشهر نفسه اعلنت الاميرالية ابتداء عملية « دينامو » ووصلت أول قوة جلت عــن دنكرك الى الوطن · وبعد ان فقدنا ميناء بولون وكاليه ، لم يبق عندنا سوى السواحل الرملية القريبة من حدود بلجيكا وما تبقى من ميناء دنكرك · وقد خيل لنا ان اكبر عدد يمكننا انقاذه في ذلك الوقت لن يتعدى الـ ٤٥ الف رجل خلال يومين · وقد اتخذت اجراءات الطوارىء للحصول على اكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام « بمهمات خاصة » وهذا يعني نقل نصف قــوات الحملة البريطانية · وكان عمــل السفن الصغيرة يقتصر علــى الشواطىء الرملية ، بينما تعمل بقية السفن الكبيرة في ميناء دنكرك نفسه · وقام ضبــاط الاميرالية بالبحث عن الزوارق الصغيرة في جميع الاحواض القائمة بيــن تيدلنفتون وبراتيلينغسي ، فتمكنوا من جمع اربعين زورقا بخاريــا ولنشا ، كما جمعت كافة القوارب واليخوت والزوارق وزوارق صيد السمك والمواعين وكل ما كان على شواطىء البحر من وسائل النقل · وفي ليل السابع والعشرين من أيار اندفع سيل هائل من هذه القطع الصغيرة نحو شواطىء دنكرك لانقاذ جيشنا الحبيب ·

وبعد ان تأكد للاميرالية ان الامر لم يعد سريا اطلقت العنان لكل حركة من حركات الانقاذ وسمحت لكل من يملك قاربا او زورقا مهما كان نوعه ان يبحر الى دنكرك · وعمل الجميع في هذا الجو الرائع من الحماس الوطني على

انقاذ ما لا يقل عن مئة الف جندي من جنود الوطن من الشواطىء الى السفن الراسية في عرض البحر ، تحت وابل من الغارات الجوية العنيفة ، والقصف الذي لم ينقطع من طائرات العدو ·

* * *

في هذه الاثناء ، كانت القوات الاضافية تعزز المواقع الامامية حول دنكرك وبدأت النجدات تصل الى خطوط الدفاع الامامية · وكان من المقرر ان تشترك ثلاثة ألوية في عملية الدفاع ، لكن الفرنسيين حملوا عنا القسم الاكبر من مهمة الدفاع عن الجبهة . فقررنا الاكتفاء بلواءين فقط · وكان الالمان يطاردون جنودنا اثناء انسحابهم فينشب القتال المرير بين جنودنا ومطارديهم خاصة حول الجناحين في نيوبورت وبيرغر · ومع استمرار الجلاء كان العدد ينخفض وتتقلص الخطوط الدفاعية · ووقفت الالوف من الجنود موقف الابطال أمام القصف الجوي المستمر مدة اربعة او خمسة ايام مريرة · وثبت ان مزاعم هتلر حول منع عملية الانسحاب بواسطة سلاحه الجوي لم تكن صحيحة بالاضافة الى انها كانت غير معقولة وفاشلة · فقد تبين ان القصف الجوي المستمر على حشودنا الكبيرة على الشواطىء لم يلحق بهم اضرارا كبيرة · وفي البداية عندما بدأت اولى الغارات الصاعقة ، ذهل جنودنا من ان تلك الغارة لم تقتل ايا منهم تقريبا ، فقد كانت الانفجارات تقع حولهم في كل مكان ، الا انها لم تصبهم بأذى · فلو كانت تلك الشواطىء صخرية لتغير الوضع واضحت النتائج مهلكة ، الا ان الشواطىء الرملية بطبيعتها جعلت من نفسها مكانا امينا يقيهم شر الغارات الوحشية ·

وقد أذهل سلاح طيراننا العدو لشدة بأسه ونشاطه · فقد كانت المعارك الجوية التي دارت في سماء دنكرك تجربة للكفاءات الجوية البريطانية والالمانية · واحتفظت قيادتنا الجوية بطائرات مقاتلة ملأت سماء المعركة بصورة مستديمة ، باذلة جهدا عظيما في مجابهة العدو الذي يفوقها في العدد · وكانت طائراتنا تتغلب على الطائرات العدوة بسرعة مذهلة وتنزل بها خسائر فادحة وتطردها خارج سماء المعركة · وقد استمرت هذه المعارك الهائلة يوما بعد يوم الى ان حقق سلاحنا الجوي النصر الكبير · وما ان تشاهد الطائرات العدوة حتى تهاجمها اسرابنا وتلتحم معها في معارك ضارية وتسقط منها العشرات · وهكذا استخدمنا في هذه المعركة العنيفة كل ما نملكه من طائرات احتياطية في الوطن · وكان الطيار البريطاني يقوم باكثر من أربع غارات

يوميا ، ولذلك حصلنا على نتائج واضحة ومرضية · فقد كان العدو المتفوق علينا ينهزم امامنا او يقتل ويتخاذل ويضعف · لقد كانت المعركة فاصلة · ولم يكن جنودنا على السواحل يشاهدون هذا الصراع الهائل في الجو ، فالمعارك كانت مشتعلة بعيدا عن انظارهم · وكانوا يجهلون ما يفعله نسورنا في الجو ، وكل ما يشعرون به هو هذه القنابل المنهمرة على الشواطيء التي يرسلها العدو الذي يتمكن من الافلات والوصول الى الشواطيء · ولسوء الحظ ، سيطر شعور من الغضب والنقمة على سلاحنا الجوي البطل لان الجنود لم يشاهدوه في سماء المعركة ، ولم يعلموا شيئا عن الخسائر الهائلة التي كان يلحقها بالعدو · وقد وصل بعض الجنود الى دوفر وموانيء التيمز وهم يشتمون زملائهم الطيارين ، جهلا منهم لتلك الحقيقة المشرفة والبطولة النادرة· لذلك قررت ان أذيع تلك الحقائق في البرلمان ·

اما في البحر فقد ساد النظام الكامل على ظهر السفن والبواخر ، وكان البحر هائجا مما ساعد على استمرار الهدوء والنظام · وراحت الزوارق تعمل بهمة لتنقل الرجال من الشواطيء الى البواخر غير عابئة بالغارا تالرهيبة التي كانت تمطرهم بوابل من قنابلها المميتة · وكان عدد هذه الزوارق الكبير هو وحده الذي تحدى الغارات الجوية · وثبت ان « اسطول البعوض » الجبار لا يغرق ·

* * *

وفي الحادي والثلاثين من شهر أيار بلغ القتال في دنكرك ذروته ، وقد نقل خلال يومين فقط ما يزيد عن ١٣٢ الف رجل ، انتقل معظمهم من الشاطيء في زوارق صغيرة تحت وابل من القنابل بل والمدافع · وقد بذلت القاذفات المعادية اكبر مجهود لها في اليوم الاول من حزيران · وكانت تركز غاراتها اثناء عودة مقاتلاتنا للتزود بالوقود · وقد خسرنا عددا ضخما من بواخرنا نتيجة لتلك الغارات ، وبلغ مجموعها مجموع ما غرق في الاسبوع الماضي بكامله · وبلغت خسائرنا في ذلك اليوم احدى وثلاثين سفينة بالاضافة الى احدى عشر سفينة اخرى اصيبت اصابات طفيفة · وزاد العدو من ضغطه وهو يأمل في اختراق خطوط دفاعنا الا انه لم يتمكن بفضل مقاومة قواتنا الحليفة الخلفية الرائعة ·

ومضت المرحلة النهائية لعملية الجلاء بكثير من الدقة والمهارة ، وأصبح بامكاننا رسم الخطط سلفا ، بدلا من اضطرارنا الى الاعتماد على الظروف

والاحداث التي كانت تتغير في كل لحظة · وعندما حل فجر اليوم الثاني من حزيران لم يبق في ضواحي دنكرك سوى اربعة الاف بريطاني ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات و ١٢ مدفعا مضادا للدبابات ، ظلوا بالاشتراك مع القوات الفرنسية التي كانت لا تزال تحافظ على خط الدفاع الرئيسي وقرر الاميرال رامسي النزول دفعة واحدة الى الميناء في تلك الليلة ، اذ لم يعد ممكنا الانسحاب الا أثناء الليل · وابحرت من انكلترا في هذه الليلة اربع وأربعون باخرة بالاضافة الى الزوارق الصغيرة المحتشدة ، كما اشترك في هذه العملية اربعون سفينة اخرى فرنسية بلجيكية · وتم نقل قوة المؤخرة البريطانية كلها قبل حلول منتصف الليل ·

لكن هذه لم تكن النهاية في دنكرك · فقد كنا على أتم الاستعداد لنقل المزيد من القوات الفرنسية الموجودة في الميناء · لكن عندما اضطرت بواخرنا الى الانسحاب في تلك الليلة ، كان على الشواطيء عدد كبير من الجنود الفرنسيين لا يزالون مشتبكين مع العدو في قتال عنيف ، وكان علينا ان نحاول مرة اخرى بالرغم من الاعياء المسيطر على بحارتنا من جراء الجهد الهائل الذي بذلوه دون توقف خلال الايام الماضية دون ان يذوقوا طعما للراحة والنوم · وفي اليوم الرابع من حزيران انزلنا في انكلترا ٢٦١٧٥ فرنسيا كان بينهم واحد وعشرين الفا في سفن بريطانية · اما الباقون والبالغ عددهم بضعة الوف ، فقد واصلوا القتال عندما وصل العدو الى ضواحي البلدة بعد ان بلغ بالجنود الاعياء واحتملوا اقسى ما يمكن للطاقة البشرية ان تحتمله بحيث تمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم ، فسقطوا اسرى في أيدي الاعداء ·

واعلنت الاميرالية اخيرا في تمام الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر يوم الرابع من شهر حزيران انتهاء عملية « دينامو » · وقد تم نقل (٣٣٨٠٠٠) جندي بريطاني وحليف الى الجزر البريطانية ·

الفصل الرابع

التسابق نحو المغانم

كانت علاقاتي الشخصية مع موسوليني في المرتين اللتين اجتمعت فيهما معه عام ١٩٢٧ ، وثيقة ، ولم اكن لاحرض حكومتي على مقاطعته حول موضوع الحبشة ، او لاثير نقمة عصبة الامم عليه ، الا اذا كنا على استعداد لخوض معركة ضده حتى النهاية ·

وفي هذه الاثناء ، وبعد الكارثة التي الت بنا في فرنسا ، وجدت انـه يترتب علي بصفتي رئيسا للوزارة ان ابذل ما في وسعي لابقاء ايطاليا خارج الحرب · وبالرغم من ثقتي بعدم جدوى هذه المحاولة الا انني لم اتردد فـي استخدام كل ما لدي من نفوذ وطاقات · فبعد ستة أيام من تسلمي للحكم في بريطانيا بعثت بنداء الى موسوليني ، وقد سمحنا بنشر النداء والرد عليـه بعد عامين في ظروف مغايرة عن تلك الظروف · وكان تاريخ ندائي هذا هو السادس عشر من أيار عام ١٩٤٠ وهذا نصه :

من رئيس الوزراء الى السنيور موسوليني

« الان بعد ان أصبحت رئيسا للوزارة ووزيرا للدفاع ، فقد رجعـت بذاكرتي الى اجتماعاتنا الماضية في روما ، فانني اشعر بالرغبة في نقل عبارات حسن النية بوصفك رئيسا للشعب الايطالي ، عبر ما يبـدو انها ثغرة تتسع بسرعة · هل فات الوقت لصد نهر الدماء من الاندفاع بين الشعبين البريطاني والايطالي ؟ ان في امكاننا ان نلحق ببعضنـا اصابات قوية مؤلمة ، وان يضرب بعضنا البعض دون رأفة ، وان نحيل

البحر الابيض المتوسط الى ظلام بنزاعنا وخصامنا · فاذا كانت هـذه رغبتك ، فلتكن كذلك ، ولكني اعلن باني لم أكن يوما من الايام عـدوا لعظمة ايطاليا او عدوا للمشرع الايطالي الذي منحنا القوانين والشرائع ان من العبث معرفة وجهة هذه المعارك الدائرة الان في اوروبا ، ولكني متأكد من شيء واحد هو انه مهما حصل في القارة الاوروبية ، فـان بريطانيا ستمضي بثبات الى نهاية الطريق ، حتى لو اضطرت الـى البقاء لوحدها كما جرى في السابق · كما اني متيقن من ان المساعدات الاميركية لنا ستزداد ، بل اننا سنتلقى العون من الاميركيين انفسهم ·

« واني ارجو ان تصدق ، ان الدافع الذي دفعني الى توجيه هذا النداء اليك ، لم يكن الخوف او الضعف ، فهذا النداء سيسجل علـى صفحات التاريخ · فعبر الاجيال المقبلة وفوق الهتافات ، سيبقى الهتاف الوحيد قائما بأن لا يشترك الوارثان للحضارتين اللاتينية والمسيحية في صراع دموي ضد بعضهما البعض · واني اناشدك ان تصغي الى هذا النداء بكل اجلال واحترام قبل ان تصدر اشارتك المخيفة وعلى كل حال ان هذه الاشارة المخيفة لن تصدر عنا أبدا ··· »

وكان جواب موسوليني على هذا النداء قاسيا جدا ، ولكنه لم يخلو من الصراحة ، وهذا نص الجواب :

من السنيور موسوليني الى رئيس الوزراء

« اجيب على الرسالة التي بعثت بها الي ، انك بلا شك مطلـع علـى الاسباب الخطيرة التي حدت ببلدينا الى الوقوف في معسكرين متعاكسين ولا أرى سببا للرجوع الى الماضي ، ولكني اذكرك بالدور الذي قامت به حكومتك عام ١٩٣٥ في فرض العقوبات على ايطاليا التـي ارادت ان تحتفظ لنفسها بقطعة صغيرة من ارض أفريقيا دون ان تلحـق الاضرار بممتلكاتكم او مصالحكم او ممتلكات او مصالح غيركم · كما اريد ان الفت نظرك الى الحالة الراهنة من العبودية الحقيقية التي تجد ايطاليا نفسها فيها وفي بحرها الخاص بها · واذا كانت حكومتك تريد المحافظة على كلمتها وتوقيعها ، لذلك اعلنت الحرب على المانيا ، فيمكنك اذن فهم حقيقة هذا الشعور بالنسبة لايطاليا أيضا التي هي الاخرى تريـد المحافظة على كلمتها ومعاهدها مـع المانيا ، مهما كانـت الظروف والاعتبارات · »

وبعد وصول هذا الرد من موسوليني لم نعد نشك في انه لا يريد الحرب، فهو سينتظر الفرصة المناسبة ، وقد وجد في هزيمة فرنسا الفرصة الذهبية لاعلان الحرب على بريطانيا وفرنسا معا · وقد ذكر تشيانو ان موسوليني سيعلن الحرب خلال شهر واحد وفي أي وقت يراه مناسبا بعد الخامس من حزيران ، الا ان الموعد تأجل الى العاشر منه بناء لطلب خاص من هتلر نفسه ·

وقد حاولت الولايات المتحدة التدخل لمنع اعلان الحرب من جهة ايطاليا ، وبذلت جهودا هائلة في هذا السبيل ، الا ان الدكتاتور الايطالي رفض كل عرض تقدمت به الولايات المتحدة · وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين من بعد ظهر اليوم العاشر من حزيران ، ابلغ وزير الخارجية الايطالية سفير بريطانيا ان ايطاليا ستعتبر نفسها في حالة حرب مع المملكة المتحدة منذ منتصف تلك الليلة · كما وجهت مثل هذا الاشعار الى حكومة فرنسا أيضا ، وعندما نقل تشيانو هذا الخبر الى السفير الفرنسي قال هذا وهو يتجه الى الباب : « وانتم أيضا ستجدون ان الالمان هم سادة قساة » · واعلن السنيور موسوليني من شرفة قصره الى الحشود المتجمهرة ان ايطاليا قد اعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا ·

وبدأ الايطاليون معركتهم بأن راحوا يهاجمون القوات الفرنسية في جبال الالب ، واعلنت بريطانيا الحرب على ايطاليا في الحال · وصدرت الاوامر بتوقيف خمس بواخر ايطالية كانت في جبل طارق كما أخطر الاسطول بوجوب توقيف كل باخرة ايطالية يجدها · وقامت اسراب طائراتنا بالاغارة على تورين وميلانو ·

اما فرنسا فلم تتمكن من حشد اكثر من ثلاث فرق بالاضافة الى عدد مماثل من الحاميات الجبلية ، وذلك لصد أي محاولة للغزو من قبل الايطاليين عبر الالب وساحل ريفييرا · وكانت الجيوش الايطالية تقدر باثنتين وثلاثين فرقة تحت قيادة الامير اومبرتو · وفي نفس الوقت شرع الالمان بتطويق الفرنسيين عبر نهر الرون · وصمدت الفرق الفرنسية المقاتلة أمام الايطاليين، حتى بعد ان سقطت باريس وليون في أيدي الغزاة الالمان · وعندما اجتمع موسوليني وهتلر بعد ذلك لم يجد الدوتشي ما يفخر به أمام صديقه · اذ لم يتمكن الايطاليون من تحقيق أي نصر في فرنسا رغم محاولاتهم المتكررة ·

وكان مقررا ان يلقي الرئيس الاميركي خطابا يوم العاشر من حزيران · واستمعت الى خطابه العظيم حوالي منتصف الليل وأنا لا أزال في غرفة العمليات الحربية في الاميرالية · وعندما توجه الرئيس روزفلت بهذه العبارة

الجارحة لايطاليا : « في هذا اليوم العاشر من حزيران عام ١٩٤٠ ، ارتفعت اليد الممسكة بالخنجر وطعنت ظهر جارتها » شعرنا جميعا بالرضى والارتياح ٠ فقد كان خطابه رائعا يحمل في طياته بريق الامل نحونا ٠ وبعثت على الفور برسالة اشكر له فيها عواطفه ٠

***

وبعد سقوط فرنسا بدأ التكالب على المغانم ، ولم يكن موسوليني الوحش الوحيد الجائع ، فقد لحقه الدب الذي جاء يركض مع ابن آوى ٠

لقد كان سير العلاقات الانكليزية ـ الروسية يسير الى حد قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا ، خاصة بعد ان غزا الروس فنلندا ٠ وكانت المانيا وروسيا تعملان معا الى الحد الذي تسمح به خلافاتهما العميقة القديمة ، وراح ستالين وهتلر يعملان بنفس الاسلوب من الدكتاتورية المتشابهة الى حد كبير ٠ وكان مولوتوف يثني بشدة على اجراءات هتلر وسياسة المانيا العسكرية ٠ وعندما قام الالمان بهجومهم على النروج صرح مولوتوف ان الحكومة السوفياتية تقدر كل التقدير جميع الاجراءات التي ارغمت المانيا على هجومها هذا . وقال ان الانكليز قد تجاهلوا تماما حقوق الدول المحايدة ، ثم اضاف متمنيا النجاح والتوفيق لالمانيا في اجراءاتها الدفاعية ٠ وفي يوم العاشر من حزيران ابلغ هتلر زميله ستالين عن ابتداء الهجوم الالماني الكاسح على فرنسا وعلى البلاد المنخفضة المحايدة ٠ وكتب شولنبرغ يقول : « وقد استحسن مولوتوف هذا الاجراء . عندما قمت بابلاغه النبأ ، وقال انه من الواجب على المانيا حماية نفسها ضد أي هجوم انكليزي ـ فرنسي مشترك تقوم به هاتان الدولتان ٠ وأضاف انه لا شك مطلقا في انتصارنا ٠ »

وفي الرابع عشر من حزيران ، أي يوم سقطت باريس ، ارسلت موسكو انذارها الاخير الى ليتوانيا تتهمها والدول البلطيكية الاخرى بالتآمر على روسيا ، وتطالبها باجراء تغييرات شاملة في الحكومة ، وببعض التنازلات العسكرية ٠ وفي اليوم التالي قام الجيش الاحمر بغزو تلك البلاد التي لم تتمكن من المقاومة ٠ ثم تعرضت لاتفيا واستونيا لنفس الطريقة وفرضت عليها حكومات جديدة موالية لروسيا ، كما فرضت عليها حاميات سوفياتية في أراضيها ٠ ولم تلبث جميع تلك الدول ان انضمت الى الاتحاد السوفياتي في الثالث من شهر آب ٠

ووجه الروس انذارا الى رومانيا طلبوا فيه منها التخلي عن بساربيــا والجزء الشمالي من بوكوفينا لمصلحة الاتحاد السوفياتي ، وطلبوا ان يصلهم الرد في اليوم التالي ۰ وقد انزعجت المانيا أشد الانزعاج لهذا التصرف من قبل روسيا ، لما يترتب على هذا العمل من اضرار بمصالح المانيا في رومانيا ، الا أنها اضطرت للموافقة طبقا لارتباطها بمعاهدة ريبنتروب ــ مولوتوف عام ۱۹۳۹ الذي اعترفت فيه المانيا بحق روسيا بتطبيق سياستها في جنوب شرق اوروبا ۰ وبناء على ذلك أوعزت المانيا الى رومانيا بالموافقة فوراعلى المطالب الروسية ۰ وهكذا انسحبت القوات الرومانية مـــن المقاطعتين المذكورتين وانتقلت اليها القوات الروسية ، وبذلك اصبحت القوات السوفياتية متمركزة على طول سواحل البلطيق وعلى مصب نهر الدانوب ۰

الفصل الخامس

مأساة فـرنسا

عندما اذعنا عدد الذين تم انقاذهم من دنكرك ، ساد البلاد شعور من الراحة والاطمئنان • لقد ساد شعور من الارتياح بعد فترة طويلة من القلق الذي سرعان ما تحول الى نوع من الاحساس بالنصر • فان إنقاذ ربع مليون جندي شاب من خيرة جنودنا يعتبر نصرا عظيما بعد سنوات طويلة من الهزيمة • وقد عاد هؤلاء الى الوطن وهم لا يحملون شيئا سوى بنادقهم والحراب وبضع مئات من المدافع الرشاشة • وقد كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية ، وكانوا على ثقة تامة من انهم سيتغلبون على عدوهم اذا ما اتيحت لهم فرصة ثانية للاشتباك معه •

لكن معركة دنكرك كانت قد خسرتنا كل ما نملكه من معدات ، لا سيما تلك التي انتجتها معاملنا مؤخرا وارسلت بها الى ميدان المعركة في فرنسا ، وستمضي عدة اشهر قبل ان نتمكن من انتاج وتعويض تلك الخسارة الفادحة •

لكن العواطف الجياشة في الولايات المتحدة ، وخاصة تلك التي كانت تتأجج في صدور القادة البارزين هناك ، حتمت عليهم التفكير بالموضوع جديا ، وسرعان ما اصدر الرئيس الاميركي أوامره الى وزارتي الحربية والبحرية ، كما طلب الجنرال مارشال من نائبه اعداد قوائم بموجودات الجيش الاميركي من سلاح احتياطي • وفي خلال ثمان واربعين ساعة كانت القوائم الكاملة جاهزة ، وفي الحال وافق الجنرال مارشال عليها ، وطلب ارسالها الى بريطانيا وفرنسا • وتضمنت القائمة الاولى نصف مليون بندقية من مجموع مليوني بندقية يعود تاريخ صنعها الى عامي ١٩١٧ و ١٩١٨

وبقيت مختزنة حوالي عشرين عاما • وقد ارسل مع كل بندقية ٢٥٠ طلقة • كما ارسل معها ايضا تسعمائة مدفع من عيار (٧٥) ومليون قذيفة وثمانـون الف رشاش وانواعا اخرى من الاسلحة • وشرعت جميع مخازن الجيـــش الاميركي بحزم الاسلحة وتوضيبها وشحنها • وقد وصل الى الميناء في الحادي عشر من حزيران اثنتا عشر باخرة بريطانية لتبدأ بنقل شحنات الاسلحة الى بريطانيا وفرنسا •

لقد كان هذا العمل الذي قامت به اميركا عملا رائعا من اعمال الايمان والقيادة ، فقد حرمت نفسها من تلك الاعداد الهائلة من الاسلحة لترسلها الى بلاد يعتبرها الكثيرون من ابناء البلاد انها قد منيت بالهزيمة •

***

كانت لا تزال لدينا في فرنسا فرقة جبلية خاصة بقيت وراء السوم وكانت لا تزال في حالة ممتازة • كما كانت هناك فرقتنا المدرعة الاولى والوحيـــدة وكتيبة الدبابات اللتان ارسلتا الى كاليه للمشاركة في عملية الانقاذ • ولـم يحل شهر حزيران حتى كانت الفرقة هذه قد خسرت أكثر من ثلثي رجالها ، فصدرت الاوامر اليها بوجوب انسحابها الى ما وراء نهر السين لاعـــادة تنظيمها • وفي نفس الوقت جمعنا تسعة انواع من فرق المشاة التي لـم تكـن تملك سوى البنادق ، أي انها كانت شبه عزلاء •

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الاخيرة من معركة فرنسا ، وبدأ هجـوم الماني جديد اتسم بالعنف والقوة خاصة المدرعات التي وفروها لهذه المعركـة الفاصلة والتي تدفقت بمجموعها الآن على الجبهة الفرنسية التي كانتتترنحمن شدة الضعف • وحاول الجيش الفرنسي القاومة للحفاظ على حدود نهـــر السوم ، لكن فرقتين المانيتين تمكنتا من اختراق صفوفه واندفعت نحو روان فعزلت جناح الجيش الفرنسي الايسر والذي يضم فرقتنا الجبليـــة ، عن بقية اجزاء الجيش • وصدرت الاوامر الى الجنرال فورشون بوجوب الانسحاب باتجاه روان • لكن هذه الاوامر لم تنفذ بسبب بدء انحلال القيادة الفرنسية ، فقدمنا عدة احتجاجات وبيانات الى القيادة الفرنسية بهذا الشان لكن دون جـــدوى ••••

وتمكنت فرقتنا من التراجع بعد قتال مرير ضار باتجاه سان فاليـري وهي تأمل بالجلاء عن طريق البحر • لكن الضباب الكثيف حال دون جلاءها ، ووصل الالمان الى الشواطيء الصخرية وسدت سبل النجاة امام فرقتنـــا

الباسلة بعد ان أصبح الشاطىء تحت سيطرة رشاشاتهم · واستسلم اللواء الفرنسي وارتفعت الرايات البيضاء فوق البلدة ، فاضطرت فرقتنا الجبلية الباسلة الى الاستسلام ووقع ثمانية الاف بريطاني وأربعة الاف فرنسي في الاسر وكان قائد الفرقة الالمانية المدرعة التي أسرتهم ، هو الجنرال رومل بالـذات ·

***

تلقيت في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الحادي عشر من حزيران رسالة من المسيو رينو يطلب فيها مقابلتي في « بريار » على مقربة من اورليان بعد ان انتقلت العاصمة من باريس · فاستقليت طائرتي بعد الظهر وسافرت يصحبني المستر ايدن وزير الحربية في ذاك الوقت والجنرال ديل رئيس الاركان والجنرال ايسماي · وكانت رحلتي هذه هي الرحلة الرابعة الى فرنسا ·

وبدأنا الاجتماع في تمام الساعة السابعة ، فطلبت من الحكومة الفرنسية الاستمرار في الدفاع عن باريس وقلت لهم مؤكدا ضرورة بدء حرب الشوارع والقتال من بيت الى بيت لاستنزاف قوة الجيش الغازي · وقد ذكرت المارشال بيتان بتلك الليالي التي قضيناها سوية في قطاره في مدينة « بوفيـه » بعد الكارثة التي حلت بالجيش البريطاني في عام ١٩١٨ ، وذكرته كيف تمكن من انقاذ الوضع في عملية مشابهة · وقد ذكرت المارشال بأقوال كليمنصو حين صرح بقوله : « سأقاتل أمام باريس · وفي داخلها ، وورائها » · وقد أجابني المارشال بيتان بكل اعتزاز وهدوء انه كان تحت تصرفه في تلك الايام قوات تبلغ بعددها ستين فرقة ، اما الان فليس لديه أي منها · كما ذكرني ان الفرق البريطانية كانت تبلغ بعددها الستين فرقة في تلك الايام أيضا ، كما اضاف ان تهديم مدينة باريس لن يغير شيئا من النتيجة المرتقبة ···

وعرض علينا الجنرال ويغان الوضع العسكري بالنسبة الى المعركة « المائعة » الدائرة على مقربة منا ، واثنى ثناء كبيرا على الجيش الفرنسي وبسالته ، وطالبنا بارسال نجدات عسكرية عاجلة وفي طليعة مطالبه إرسال جميع ما لدينا من أسراب المقاتلات ، واستطرد قائلا : « ان هذه اللحظة حاسمة ، لذلك لا يجوز الابقاء على أي سرب من الطائرات المقاتلة في انكلترا » وقد اجبته على الفور بقولي : « ان هذه اللحظة ليست باللحظة الحاسمة وستاتي تلك اللحظة حين يقوم هتلر بهجومه الجوي على بريطانيا العظمى ، واذا تمكنا من الاحتفاظ بسيطرتنا على الجو ومن ابقائنا على البحار مفتوحة،

وهذا ما سنقدر عليه حتما ، فعندئذ سنعود لاستعادة كل ما فقدتموه » · لقد كان لدينا خمسة وعشرون سربا من الطائرات ، وقد قررنا الاحتفاظ بها ولن نفرط بسرب واحد منها مهما كلف الامر ، فنحن قد قررنا الاستمرار في الحرب الى أجل غير محدود ، واما التخلي عن هذه الاسراب فمعناه القضاء على املنا الوحيد في الحياة ··

وبعد قليل وصل الجنرال جورج الذي اطلع على خلاصة حديثنا السابق ، وبعد ان عرض ملخصا للوضع القائم في الجبهة ، اكد ضرورة ما سبق وطلبته أي البدء في حرب الشوارع وحرب العصابات · فالجيش الالماني ليس بالقوة التي يبدو عليها حين مجابهته بجيوش مماثلة · فلو حاول كل لواء من الجيش الفرنسي الاصطدام مع لواء مماثل من الجيش الالماني ، واستعمل في اصطدامه كل ما يملكه الجيش الفرنسي من حيوية ونشاط لتمكن من التغلب على عدوه أو عرقلة تقدمه السريع على الاقل · وكان ردهم المتخاذل ان الاوضاع اصبحت مخيفة على الطرق التي امتلأت بأفواج اللاجئين الذين تطاردهم نيران رشاشات الطائرات العدوة ، والحقوا هذا ببيانات عن حالة السكان وعن انهيار الجهاز الحكومي والسيطرة العسكرية · وقال الجنرال ويغان بأنهم قد يضطروا الى طلب الهدنة · وقد أجبته بقولي : « اذا وجدت فرنسا ، في هذه المحنة ، انه من الخير لها استسلام جيشها فعليها أن تبادر الى اعلان ذلك ولا تتردد بسببنا ، فنحن قد صممنا على المضي في حربنا وعلى القتال الى الابد ، الى الابد والابد » · وعندما اعدت لهم قولي ان على الجيش الفرنسي ان يستمر في القتال اينما كان وحيثما استطاع لانهاك قوة مائة فرقة المانية ، أجاني الجنرال ويغان على الفور : « حتى لو قاتلنا ، فسيبقى لديهم مائة فرقة اخرى تقوم بمهاجمتكم واحتلال بلادكم ، وماذا تستطيعون ان تعملوه بعد ذلك ؟ » واجبته : « ان مستشاري العسكريين يرون ان طريقة صد أي هجوم الماني على بريطانيا هي في محاولة اغراق اكبر عدد ممكن منهم في البحر ، اما الباقي فيمكننا تحطيمهم على الشاطيء · »

الفصل السادس

مشاكل الدفاع

في هذا الوقت من صيف عام ١٩٤٠ ، أصبحنا منفردين تماما بعد هزيمة فرنسا ، ولم يكن في امكان دول « الدمنيونات » او الهند او المستعمرات ان تمدنا بالمساعدات اللازمة التي كنا في أشد الحاجة لها ، وكانت الجيوش الالمانية الضخمة المنتصرة المدربة والتي توفر لديها السلاح الاحتياطي الضخم ، والمستودعات والمصانع التي غنمتها بكل بساطة ، اخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة ·

اما ايطاليا فوقفت بقواتها الكثيفة الجرارة ، بعد ان اعلنت علينا الحرب ، تبحث في شوق عن طريقة لتدميرنا في البحر المتوسط ومصر ·

كذلك وقفت اليابان في الشرق الاقصى تنظر الينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا في الحاح وتهديد اغلاق طريق بورما في وجه المساعدات الى الصين ، كما كانت روسيا تقدم الى هتلر مساعدات هامة من المواد الاولية ····

أما اسبانيا التي احتلت منطقة طنجة الدولية ، فقد تغدر بنا بين آونة واخرى وتطالبنا بجبل طارق وربما استنجدت بالمانيا لمساعدتها في احتلاله او في اقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتطويق اسطولنا عبر المضيق ، وفي هذا الوقت كانت الحكومة الفرنسية التي اصبح بيتان رئيسا لها ، قد انتقلت الى فيشي ، واصبح من المنتظر بين لحظة واخرى ان تعلن الحرب علينا بعد ان اصبحت ميالة الى فكرة أوروبا النازية ، كذلك اصبح الاسطول الفرنسي في

قبضة الالمان في طولون · وهكذا وجدنا اننا لسنا في حاجة الى المزيد مـــن الاعــــداء ·

ومع ان معنوياتنا لم تضعف ، الا ان السؤال الذي ظل يراودنا هو : كيف يمكن لنا ان نجتاز هذه الصعوبات القائمة ؟ لقد كان من المعروف ان جيشنا في الوطن لا يحمل سلاحا اكثر من البنادق ، وستمضي فترة من الزمن قبل ان تتمكن مصانعنا من التعويض على ما خسرناه من عتاد في دنكرك ··· اليس من العجيب بعد كل هذا الا يكون العالم كله متراجع على يقين من ان ساعتنا الاخيرة قد دنت ؟؟

وانتشر الرعب في الولايات المتحدة وسائر الدول الاخرى الحرة ، واخذ الاميركيون يتساءلون في اهتمام : هل من واجبهم ان يجازفوا بمواردهـــم المحدودة الضئيلة ارضاء للمشاعر الطيبة وحدها وان كانت المخاطرة ميئوسا منهــــا ؟

اليس من الاجدى ان يبذلوا اي جهد وان يوفروا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم · وكان التغلب على هذه الاسانيد ، يتطلب منطقا مستقيما وعلى جانب من الثقة ، ولا ريب في ان الشعب البريطاني مدين لرئيس الولايـــات المتحدة وكبار القادة والمستشارين ، لانهم على الرغم من اقتراب موعـــد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية في تصميم بريطانيا وقدرتها على النضال · وليس من شك في ان تصميم بريطانيا القوي الذي لم ينله اي ضعف او وهن كان عاملا من عوامل رجحان كفتنا في القتال ·

ان هذا الشعب الذي ظـل في سنوات ما قبل الحرب يسير في طريـــق المسالمة وعدم التفهم ، ويخوض غمار المهازل الحزبية ، ويغرق الى ابعـــد الحدود في لجة السياسات الاوروبية بلا خوف ··· ها هو الان يلاقي مصير تقصيره في التاهب والاستعداد ، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة ، ولكن العالم يراه في الوقت نفسه مصمما على ان تصبح بلاده قطعة من الخراب قبل ان تبدو جزيرته خانعة ذليلة ···

وهذه بلا جدال احدى صفحات التاريخ الرائعة ، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به ، فعندما استولى الاسبرطيون على اثينا ، اصرت قرطاجة على الصمود والاستبسال حتى الموت امام روما ، والتاريخ حافل بصفحات كثيرة عن شعوب استماتت في النضال ، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء ··· آثرت ان تفنى وتموت والا يبقى لها اثر ·

ولم يكن هناك في ذلك الحين سوى اقلية معدودة من البريطانيين والاجانب

تقف على الاهمية الاستراتيجية لموقعنا الجغرافي المنعزل ، ولم يكن كثيرون قد عرفوا في مدى سنوات ما قبل الحرب اننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحري والجوي ، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من الف عام لم تشهد ارضها نيران غزو من الجو ، وظل كل بريطاني في قمة الكفاح محتفظا بهدوء اعصابه ، راضيا كل الرضا بالتضحية بحياته في سبيل بلاده · وسرعان ما أخذ الاعداء والاصدقاء في سائر بلاد العالم يدركون ان هذه هي طبيعتنا الاصلية ··· وماذا يكمن خلفها ؟ انه الامر الذي يمكن ان يظهر في الشدائد··

وكانت هناك ناحية اخرى ، فقد تعرضنا خلال شهر حزيران لخطر كبير ··· فقد رأينا اخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضى عليها في محاولة يائسة في فرنسا ، وان قواتنا الجوية تتضاءل شيئا فشيئا في هذه الغارات التي نمضي بها الى القارة او في نقلها الى هناك · ولو كان هتلر موهوبا ، او متمتعا بحكمة خارقة ، لابطأ في هجومه على الجبهة الفرنسية مدة ثلاثة أسابيع او أربعة بعد معركة دنكرك على خط نهر السين ، ليتم استعداداته للهجوم على بريطانيا ··· ولو حدث هذا لاصبحنا في وضع مخيف لا خيار لنا فيه . فاما ان نتخلى عن فرنسا وفي هذا تعذيب لنا ، وألم لفرنسا ، واما ان ننثر قواتنا وننشرها مع ما في هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا ، اذ كلما حفزنا الفرنسيين على المضي في القتال ، تحتم علينا نحن ان نزيد في العون لهم ، وهذا يؤدي الى اشتداد الصعوبات في طريق اعدادنا للدفاع عن بريطانيا نفسها ، ولا سيما بالنسبة للاسراب الخمسة والعشرين من طائراتنا المقاتلة التي يتوقف مصير كل شيء عليها · وبالطبع كان مستحيلا ان نتخلى عن هذه الاسراب ، ولكن رفضنا سيؤدي بالتأكيد الى اغضاب حليفتنا الباسلة مما يعكر صفو علاقاتنا ، وعلى هذا فقد رأينا عددا من كبار قادتنا ، ينظرون الى مشكلاتنا الهينة نوعا ما ، بعد ان أصبحنا لوحدنا ، بشيء من الراحة ، وكأن عبئا ثقيلا قد نزل عن كواهلهم ، وأصبح وضعنا كوضع مدرب احد النوادي العسكرية الذي اخذ يخاطب لاعبا قد تهاوت معنوياته بقوله : « ايا ما كان الامر فقد بلغنا المعركة الفاصلة ، وسيكون نادينا ميدانها »

***

لم تكن القيادة الالمانية العليا ، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة ، وقد ذكر تشيانو انه قابل هتلر في برلين في ١٧ تموز

عام ١٩٤٠ وتحدث مع الجنرال فون كايتل طويلا ، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لبريطانيا ، فأكد له ان الرأي لم يستقر نهائيا على أي شيء وقد ذكر ان عملية النزول الى البر في انكلترا غير مستعجلة الا أنها صعبة جدا ، ويجب ان تقوم بها المانيا وهي في غاية الحذر ، اذ ان اخبارنا عن الترتيبات العسكرية في الجزيرة ، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة في صحتها ٠ واضاف كايتل ان ما يبدو سهلا وجوهريا هو شن هجوم جوي مركز على المطارات والمصانع ومراكز المواصلات الرئيسية في بريطانيا العظمى ، ومن المحتم ان يعرف كل انسان ان السلاح الجوي البريطاني في منتهى القوة ، وذكر كايتل ان هذا السلاح الجوي يتألف من حوالي ألف وخمسماية طائرة مستعدة للدفاع والهجوم المضاد ، كما اعترف ان الغارات التي يقوم بها السلاح الجوي البريطاني قد تزايدت كثيرا ، وان من ناحية اصابة الاهداف من الجو فهم في غاية المهارة ٠ وكان عدد الطائرات المغيرة في كل مرة يصل الى الثمانين لكن بريطانيا تعاني نقصا كبيرا في الطيارين ، وليس في وسعها ان تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الالمانية الان ، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب الى حد كبير ٠

واصر كايتل على ضرورة توجيه ضربة الى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها ، ولم يشر كايتل او هتلر الى مدة الحرب او أجلها ، وكان هملر وحده الذي ذكر عرضا ان الحرب يجب ان تنتهي قبل ابتداء شهر تشرين الاول ٠

هذا هو التقرير الذي وضعه تشيانو في مذكراته ، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشي العاجل امداده بحوالي عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سربا للمساهمة في الغزو وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية في لباقة ، ووصلت بعض الاسراب الجوية الايطالية ، لكنها لم تصب نجاحا في مهمتها كما سنرى ٠

وقد ألقى هتلر في ١٩ تموز خطاب القائد المنتصر في الرايشتساغ ، وبعد ان تنبأ باني سالجا الى كندا ، قدم ما يمكن ان يسمى عرضا للصلح ، وقد ارفق عرضه هذا بمذكرات دبلوماسية ارسلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان ــ وبدا من الطبيعي بعد ان خضعت اوروبا كلها لارادته ، سيكون في غاية السرور اذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله ، ولم يكن العرض في الحقيقة يتناول السلام ، وانما يتناول الاستعداد لتقبل اذعان بريطانيا للتخلي عن كل ما خاضت الحرب من اجله ٠

وفكرت في أول الامر في اثارة الموضوع بصفة رسمية في البرلمان ، ولكن زملائي الوزراء رأوا ان مثل هذا العمل يؤدي الى التشويش حول موضوع كنا جميعا متفقين حوله ، وتقرر عوضا عن ذلك ان يكلف وزير خارجيتـــه بالرد على عرض هتلر في اذاعة موجهة في يوم ٢٢ تموز يرفض فيها دعوة هتلر ··· واذيع الحديث الذي « قذف جانبا » بدعوة هتلر « للاستسلام لارادته »· ثم قارن بين اوروبا الهتلرية ، واوروبا التي نقاتل في سبيل حمايتها ، واعلن اننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية ·· وفي خلال ذلك كانت الصحف البريطانية والاذاعة قد رفضت أي حديث عن الصلح ، دون تدخل من حكومة جلالته ، وانما بدافع من نفسها بعد الاستماع الى خطاب هتلر مـن الاذاعـــة ·

ويذكر تشيانو في مذكراته انه « عندما اذيع اول رد بريطاني ، الــذي كان متسما بالبرودة ، على الخطاب في الساعات الاخيرة من ليلة ١٩ تموز·· ساد بين الالمان شعور بخيبة الامل · بيد ان هتلر كان يتطلع الى التفاهـم مع بريطانيا العظمى ، فقد كان يدرك ان الحرب مع البريطانيين ستكـــون قاسية تفيض بالدماء — وهو يدرك تماما ان الناس في كل مكان يكرهـــون سفك الدماء — اما موسوليني فيخشى من ناحية اخرى ان يجد الانكليز في خطاب هتلر الماكر للغاية مبررا للبدء في المفاوضات ، وهذا مما يحز فـــي نفس موسوليني لانه يرغب في الحرب الان اكثر من أي وقت مضى ، وايا كان الامر فلم يكن موسوليني في حاجة الى الغضب او الثورة ، فسيتاح لـــه ان يخوض كل أهوال الحرب التي يتمناها ·

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال ايَسماي اقتراحا فـــي أواخر شهر حزيران لازور المناطق المهددة في السواحل الجنوبية والشرقية · وتلبية لهذا الاقتراح خصصت يوما او يومين من كل اسبوع للقيام بهـــذه الزيارة المحبوبة ، وكنت أنام عندما تفرض الظروف في قطاري الخاص الذي تهيأت لي فيه كل أسباب الراحة ليتاح لي اداء اعمالي العادية بكل انتظام·· مع العلم اني كنت اتصل دائما (بهوايتهول) · وقد قمت بزيارة « التاين » و « الهامير » وغيرهما من الاماكن المهددة بانزال محتمل ، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية في كنت ، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية فـــي هارويتسن ودوفر ، وكانت احدى زياراتي الاولى للفرقة الثالثة التي يقودها الجنرال مونتغومري وهو ضابط لم اكن قد التقيت به · وقد صحبتني زوجتي في هذه الزيارة للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون · وكانت هذه

الفرقة قد اعطيت اهمية خاصة من ناحية الاعداد ، وكانت على وشك الابحار الى فرنسا عندما انهارت المقاومة الفرنسية ·

وقد أقام الجنرال مونتغومري مركز قيادته في ستيتنج ، وأراني مناورة صغيرة كانت الحركة الرئيسية فيها مناورة قامت أساسا على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التي لم يكن في استطاعته ان يستخدم منها حينذاك سوى سبع او ثماني حاملات · ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر « شورهام » و « هوف » الى ان وصلنا الىجبهة برايتون المعروفة التي لي فيها الكثير من الذكريات القديمة · وقد تناولنا عشاءنا في فندق « البيون » الملكي الذي يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلي · وكاد الفندق انيكون مقفرا من الناس بسبب عمليات الانسحابالاخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطيء ، وفي الميادين وقد سرني ان ارى طائفة من « حرس قاذفي القنابل » يمهدون مركزا لمدفعهم الرشاش في احد اكشاك الرصيف · فذكرني ذلك بما كنا نفعله في طفولتنا ونحن نعبث بالمخلفات القديمة · وكان الجو رائعا جميلا ، وتحدثت الى القائد احاديث مثمرة ··· والحق اني كنت شديد السرور بهذه الزيارة ·

وفي منتصف شهر تموز اقترح علي وزير الحربية احلال الجنرال بروك محل الجنرال ايرونسايد في قيادة الجيوش ، وفي ١٩ تموز حينما كنت اطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم زرت القيادة الجنوبية ورأيت التجربة الواقعية التي ساهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريبا ، وبقيت في السيارة طيلة بعد الظهر مع الجنرال بروك الذي كان يتولى قيادة تلك الجبهة ، ولا شك ان سجل ماضيه كان رائعا ، فقد قاد المعركة الفاصلة عند « أبيرس » اثناء عملية الانسحاب الى دنكرك ، ثم تمكن بما أوتي من حذق وصلابة ، وفي وسط عوامل في منتهى الصعوبة والقوة ، عندما كان يقود القوات الجديدة التي ارسلناها الى فرنسا خلال الاسابيع الاولى من شهر حزيران ، تمكن من انقاذ حملته ، وكانت تربطني به صلة أيضا عن طريق اخوية البطلين اللذين كانا لي صديقين في بداية حياتي العسكرية ·

على ان هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أي تأثير على وجهة نظري في موضوع حيوي كهذا الذي يتصل باختيار القائد العام ولكنها وُثقت الصلات بيني وبين الان بروك في غضون الحرب · وقطعنا ما يقارب الاربع ساعات معا في السيارة في ذلك اليوم من تموز عام ١٩٤٠ ، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع في داخل الوطن · وبعد المشاورات الضرورية مع الاخرين

وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولي بروك القيادة العامة خلفا للجنرال ايرونسايد الذي واجه احالته الى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز في جميع الظروف التي تمت بها أعماله العسكرية ٠

وظل بروك في القيادة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو ، فنظم القوات تنظيما حسنا ، وعندما صار فيما بعد رئيسا لاركان حرب القوات الامبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعا حتى انتهينا الى النصر ٠٠٠ وسأورد بعد قليل المكاسب التي حققتها من استشارته في اجراء تغييرات حاسمة في القيادات في مصر بالشرق الاوسط في شهر اب عام ١٩٤٢ ، وما كان لها من خيبة أمل في موضوع قيادة عملية الغزو عبر القنال (المانش) في عملية السيد الاكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤ ٠ وقد أدى خدمات جليلة في المدة الطويلة التي عمل فيها رئيسا للجنة رؤساء أركان الحرب ، في معظم سني الحرب ورئيسا لاركان حرب القوات الامبراطورية ، لا للامبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعا ، وسأحكي في هذه القصة بعض الاختلافات في وجهات النظر التي حدثت فيما بيننا أحيانا ، وأقص كذلك كثيرا من المسائل التي اتفقنا فيها وهي تؤكد مدى صداقتنا كل التاكيدات ٠

***

وفي هذا الشهر وصلت الينا كميات وافرة من السلاح الاميركي عبر الاطلنطي من غير ان تمس بسوء ، وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمله من عتاد لا يقدر بثمن ، كانت هناك قطارات خاصة اعدت لتحملها من الموانيء ، وقد مكث الحرس الوطني في كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفا على تسلم هذه الاسلحة ، واكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الاسلحة وجعلها صالحة للاستعمال ٠ وهكذا أصبحنا في نهاية شهر تموز شعبا مسلحا على اهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو يقوم به المظليون ٠ نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما تكون « بخلية نحل » واذا قدر لمقاومتنا ان تنهار ، وهو احتمال بعيد ، فان حشدا من الرجال والنساء ، سيظل شاكي السلاح وقد استطعنا بوصول الدفعة الاولى من البنادق الاميركية الى حرسنا الوطني بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة ، استطعنا ان نزود جيشنا العامل بثلاثماية الف بندقية بريطانية ٠

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين

ملليمترا التي وصلت الينا ، ومع كل مدفع منها الف قذيفة ، ولم يكن بحوزتنا معدات لايصال المدافع بعرباتها كما انه لم توجد لدينا الوسائل العاجلة لانتاج عدد أكبر من القذائف على الرغم من ان المدافع المختلفة الاحجام تعقـــد العمليات الحربية ، الا انني صممت منذ البداية على استخدامها · وأصبحت هذه المدافع منذ وصولها الينا وطيلة عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ جزءا مهما فـي قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن · كما قمنا بعمل ترتيبات خاصة تعـــد مبتكرة دربنا عليها عددا من الرجال لادارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان الى اخر ، وعندما تقاتل دفاعا عن كيانك فان وجود مدفع خير من عدمه · وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز ٧٥ مللميترا سلاحا فعالا بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز ٢٥ رطلا والمدافع الالمانية (هاوتزر) ·

وعندما مضت أشهر تموز وآب دون ان تنزل بنا الكارثة الساحقـــة ، هدأنا بعض الشيء وازدادت ثقتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة قاسية ، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يوما عن يوم · فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار ، ويمضي الى نومه بعد ذلك شاعرا بثمار اعماله ، واثقا بان الوقت أصبح في صالحنا ، واننا سننتصر في الحرب دون شك ·

وازدحمت الشواطيء الان بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغدا السلاح يتدفق من المصانع ، ولم يكتمل شهر آب حتى اصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة · وبدأنا نجني ثمار المساعدة الاميركية واخذ رجال الجيش البريطاني العامـل وزملاؤهم من رجال الجيش الاقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصبـــاح الباكر حتى المساء ، وبهم لهفة الى لقاء العدو ، وازداد عدد جنـــود الحرس الوطني الى ما فوق المليون ، وعندما كان ينقصهم السلاح كانوا يعمدون الى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة وأحيانا الفـــؤوس والمجارف · ولـــم يتكون في بريطانيا طابور خامس ، وان صادفت قـــوات الامن بعض الجواسيس ، اما القلة الشيوعية الموجودة في بلادنا فقد تلاشت اصواتهم على حين اقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيـــات غاليـــة ·

وعندما زار فون ريبنتروب روما في أيلول قال لتشيانو : « ان الدفـــاع الاقليمي عن انكلترا لا وجود له بلا شك ، وان فرقة المانيـــة واحدة يمكنها ان تؤدي الى انهيار كامل فيها » ان قوله هذا يكشف عن جهله الفاضح بنا ،

وعلى كل فقد تساءلت في قرارة نفسي : ماذا يكون لو تمكن مائتا الف الماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا ؟ لا شك بان المذبحة ستكون رهيبة مروعة لدى الفريقين ـ اذ لم يكن هناك مجال للرحمة او الشفقة ، فقد كان الالمان على استعداد لاستخدام الارهاب ، وكنا من ناحيتنا على استعداد للمضي في المقاومة الى اقصى حد ممكن • وقد قررت تطبيق المثل السائر : « بوسعك دائما ان تمضي بشخص اخر معك بعيدا عن هذه الدنيا » وقد قدرت ان اهوال هذا المنظر ستقضي بالنهاية الى ترجيح كفة الولايات المتحدة، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار ، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء ربضت عشرات العمارات البحرية المتلهفة على القتال ساهرة الليل بطوله ، بينما كان طيارو القاتلات يحلقون في السماء او يقفون الى جانب طائراتهم استعدادا لتلقي اي اشارة تصدر اليهم •

حقا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة او الموت • اذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها شانها وروعتها • فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار ، بالرغم من وجود اساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة امامه ، عمل حربي معجز ، وقد اضاف البخار كثيرا من القدرات الى امكانيات الاسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى • ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر الى الخلف ، لكن ما حصل بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الاساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم في الطريق • وادى كل تعقيد في الاجهزة الحديثة بالنسبة الى الجيوش الى ان اصبحت مهمتها اكثر صعوبة ومشقة ، والى ان صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد انزالها امرا فوق الطاقة، وفي ازمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة ، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا ، لقد عجز عن مجابهة قوة طراداتنا وبالطبع كانت ثمة فرص اكثر من ان تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة في حال تكاثف الضباب ، على انه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا واستطاع العدو النزول الى شواطئنا في مكان او اكثر ، فان مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها باية تجمعات اخرى ، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل • هكذا كان الوضع في الحرب العالمية الاولى • اما الان فقد دخل عنصر الطيران ، فما هو تاثير هذا التغيير الرئيسي على الغزو ؟ من الظاهر ان العدو اذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر ، بقوته الجوية المتفوقة ، فان خسائرنا في المدمرات ستكون كبيرة للغاية ، وقد

تكون أيضا قاضية علينا ، ولن يوجد انسان لديه الرغبة في الاتيـان ببوارج ضخمة او طرادات كبيرة الى مياه تسيطر عليها القاذفات الالمانية ، وبالفعل لم نضع أي بواخر ضخمة الى الجنوب من « فيرث اوف فورث » او الى الشرق من « بلايموث » ولكننا جهزنا في هارويش ونـــور ودوفر وبورتسمـــاوث وبورتلاند دوريات دائمة اليقظة تتالف من سفن حربية خفيفة ، وقد أخـــذ عددها يتكاثر باستمرار ولم يات شهر أيلول حتى صار العدد أكثـــر مـــن ثمانماية ، ولم يكن في الامكان بعد ذلك تدميرها الا بواسطة قوة جوية متفوقة معادية تحاول العمل على عدة مراحل ٠

وهنا يرد السؤال : لمن كان التفوق في الجو ؟ لقد كنا نقاتل الالمان في معركة فرنسا وهم متفقون علينا في العدد بضعفين او بثلاثة اضعاف ، وبالرغم من ذلك فقد الحقنا بهم خسائر تعادل النسبة السابقة ، وفي سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية انقاذ جيشنا ، كنا نحاربهم بكسب وغنم على الرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة اضعاف او خمســة ، وتوقع مارشال الجو الاعلى داودنج ، قدرتنا على قتالهم وصد هجماتهــم بنجاح ، فوق مياهنا وشواطئنا ومقاطعاتنا المكشوفة ، حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف ٠

وقد كانت قوة السلاح الجوي الالماني في ذلك الحين حسب معلوماتنـا الصحيحة تعادل ثلاثة اضعاف ما نملكه ، وبالرغم من ان هذا التفاوت كبير بالنظر الى القتال مع اعداء شجعان اقوياء كالالمان ٠ فقد توصلت الى النتيجة التي سبق التوصل اليها ، وهي ان في سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيـــع الانتصار على السلاح الجوي الالماني ، واذا صح هذا فان بحريتنا هـــي الاخرى ستبقى محتفظة بسيطرتها على البحار والمحيطات وستقوى علـــى احباط محاولات الاعداء الذين يحاولون شق طريقهم الينا ٠

وبقي عامل ثالث في الامكانيات والاحتمالات ، فلو تمكن الالمان بمـــا عرف عنهم من مقدرة ٠ وبعد في النظر ــ من تجهيز حملة كبيرة بطريقة سرية تحوي قطعا خاصة للانزال لا تحتاج الى موانيء او أرصفة ، وانما تقـــوم بعملية الانزال للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة في أي نقطة مناسبة على الشاطيء ، فهل يقدرون بعد ذلك على تزويد هذه القوات بالمؤن ؟ ومع انه لم يكن لدينا أي مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود مثل هذه المخترعات لـــدى العدو ، الا ان قواعد الحساب الصحيحة تقضي باحتمال الخسائر تمامـــا كالاربـــاح ٠

وتطلب منا ايجاد المعدات التي لزمتنا في عملية غزو نورماندي ، بذل جهد كبير متواصل بالاضافة الى التجارب والعون المادي الضخم من جانب الولايات المتحدة الاميركية طوال أربع سنوات · وبالحقيقة لم يكن الالمان بحاجة الى هذا العدد الكبير من المعدات في مثل هذا الوقت ، الا أنهم كانوا يملكون معابر قليلة في العدد ·

وهكذا اوجبت علينا مشكلة غزو بريطانيا في صيف عام ١٩٤٠ وفي الخريف من نفس العام ، تفوقا جويا ضخما وامكانية ضخمة في السيطرة على المياه الاقليمية بالاضافة الى كميات هائلة من معدات الانزال · لكن السيطرة على البحار كانت الى جانبنا ، كما كان لنا التفوق الجوي ، وكنا على ثقة ـ وقد ثبت لنا فيما بعد صحة هذا الاعتقاد بان الالمان لم يقوموا ببناء قطع بحرية ضرورية للانزال ·

هذه هي اسس تفكيري عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث حول هذا الموضوع بالذات والكثير من القلق في شهر تموز لدى الدوائر الحكومية وخارجها ، وبالرغم من عمليات استطلاعها المستديمة عن سفن النقل الالمانية في البلطيق او في مرافيء الراين والشلدات ، وقد كنا على يقين كذلك من ان أية بواخر او صنادل من ذوات المحرك الالي لم تعبر المضائق الى بحر المانش ، فبالرغم من كل هذا فقد كان شغلنا الشاغل هو التجهيز والاستعداد الكامل لمواجهة أي غزو وسحقه · وكنا نعتمد اعتمادا كليا على تفكيرنا هذا في وزارة الحربية وفي القيادة العسكرية ·

وكانت خطة الالمان التي كشف عنها ، تعتمد على وجوب الغزو عبر القنال بسفن متوسطة الحجم تتراوح حمولتها بين اربعة الاف طن وخمسة الاف ، بالاضافة الى قطع صغيرة اخرى ، والان نحن نعلم انهم لم يكونوا يتطلعوا الى المضي بجيوشهم من مرافيء البلطيق او بحر الشمال في سفن كبيرة ، كما انهم يفكروا بالغزو في موانيء بسكاي ، وهذا لا يعني انهم كانوا منصفين حين اختاروا الساحل الجنوبي كهدف لغزوهم ، وان كان كل منا على خطأ ، فعملية غزو الساحل الشرقي كانت ذات قيمة أكبر لو تمكن العدو من ان يؤمن السبل والوسائل لتلك المحاولة ، وطبعا لم يكن هناك من مجال لغزو الساحل الجنوبي الا بعد ان تمر البواخر الضرورية جنوبا عبر مضيق دوفر ، بعد ان تتجمع في المرافيء الفرنسية القائمة على القنال ، وطوال شهر تموز لم نر اثرا لشيء من هذه التحركات ·

وبالرغم من كل هذا فقد ترتب علينا ان نستعد لكافة الظروف

والاحتمالات ، والا نوزع قواتنا المتحركة في الوقت ذاته ، وان نقوم بجمع قواتنا الاحتياطية وحشدها ، وفي الامكان حل هذه المشكلة المستعصية والشائعة في نفس الوقت ، فالاحداث تتالى من اسبوع لاخر والساحل البريطاني المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله اكثر من الفي ميل ، باستثناء ايرلندا ، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا قد يتعرض اي جزء منه او جزءان منه في وقت واحد لهجوم مفاجيء ناجح يحتم علينا انشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الشاطيء او الحدود غايتها عرقلة الزحف الاجنبي مع ايجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطي في الوقت نفسه تضم جنودا مدربين وعاملين في وحدات متحركة يمكنها الوصول الى اي مكان يقع عليه هجوم مفاجيء في اقصر مدة ممكنه ، ثم البدء في هجوم معاكس ٠

وعندما وجد هتلر نفسه محاطا ـ في مراحل الحرب الاخيرة ـ بالاعداء ، وواجه نفس المشكلة ، وقع في اخطاء كبيرة حين عالجها ، فلقد اقام شبكه من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت ، لكنه نسي العنكبوت نفسه ، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئه التي ادت الى الكارثه واقتضتنا ثمنا فادحا لا تزال حاضرة في ذهني ، فانني قد صرفت جهدي كله منذ البداية الى حشد قوات المناورة ، وقد رسخت هذه السياسة في نفسي الى اقصى حد ممكن تسمح به موازدنا المتضاعفة ٠

وقد التقت ارائي بوجهات نظر البحرية ، وارسل الي الاميرال باوند بيانا مفصلا في ١٢ تموز اعده بالاشتراك مع رؤساء اركان حربه ، الذي كان قائما على هذه الاسس النظرية ٠٠٠ وقد فصل البيان بالطبع جميع الصعوبات التي علينا مواجهتها وقال الاميرال باوند في اجماله للخطه : « ربما يصل الى شواطئنا ما يقارب المئة الف جندي دون ان تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم ٠ »

الا ان الابقاء على خط مواصلات لتموين هذه القوات امر مستحيل عمليا اذا استطاع السلاح الجوي الالماني ان يتغلب على سلاحنا الجوي واسطولنا في نفس الوقت ، واذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم نحو لندن بسرعة والاعتماد في تموينه على البلاد التي يحتلها في طريقه ، على حين يرغم الحكومه على الخضوع والاستسلام ٠ وقد اقتنعت بهذا الاحتمال اقتناعا تاما، وتغير الوضع تغيرا حاسما في شهر آب ، فقد تاكد لمخابراتنا الماهرة ان هتلر قد اصدر تعليماته بالاعداد لعملية « اسد البحر » وان هذه العملية في دور الاعداد الفعلي في هذا الوقت ، وبدا لنا بشكل نهائي ان الرجل سيقدم المغامرة

وكانت الجبهة التي سيهجم عليها تختلف تماما ، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقي الذي كنت انا قد وجهت اليه بالغ العناية مع رؤوسا اركان الحرب الاميراليه وسرعان مابدأ عدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الالي ، والزوارق البخارية يعبر مضايق دوفر اثناء الليل زاحفا بالقرب من الشاطيء الفرنسي ، ليتجمع شيئا فشيئا في سائر الموانيء الفرنسية الممتدة من كاليه الى بريست · وكانت الصور الفوتوغرافية التي ترد الينا كل يوم تظهر لنا هذه التنقلات بدقه وعناية ، ورأينا انه من العسير علينا ان نزرع الغامنا على مقربة من الساحل الفرنسي ، ومضينا فورا الى مهاجمة هذه المراكب المتحركه بوحداتنا الصغيرة ، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومها على موانيء الغزو وسرعان ما انهالت علينا الانباء عن احتشاد جيش او جيوش المانية ضخمة استعدادا للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادي ، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديديه واحتشادات ضخمه في خليج كاليه ونورماندي وظهرت الى حيز الوجود اعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى ، منتشرة على طول الساحل الفرنسي القائم على القتال ، وكان يترتب علينا ان نجابه الخط الجديد وننقل اعتمادنا على هذه الخطوة الى خطوة اخرى ونهيء كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذي يتضاعف عدده الى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددا والمتقدمة كفاءة وسرعة في التحرك ، تطمئننا الى قدراتها وفعاليتها · ولم ينقض النصف الاخير من شهر ايلول ، حتى كان في استطاعتنا ان نحشد سته عشر فرقه من احسن الفرق نظاما واعدادا على الساحل الجنوبي بينها ثلاث فرق مدرعة عدا اجهزة الدفاع الساحلية المحلية ، وقد اصبح في مكنتها القيام على الفور بأي عمل عسكري يوكل اليها ضد اية عمليه للغزو او الانزال واصبحت لنا قوة ضاربة او مجموعة من القوى الضاربة التي كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه ·

***

جرى كل ذلك بالرغم من عدم ثقتنا بان جميع الداخل ومصبات الانهار المنتشرة من كاليه الى تيرشيلنج وهيلجولاند ، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندي والدنمركي ، لا تخفي قوات معاديه هائلة اخرى من نوع صغير او متوسط · وقد خطر في بالنا ان الهجوم سيبدأ من مارويش حول بورتماوث وبورتلاند الى بليموث مع تركيز خاص على مقاطعة « كنت »

ايضا ، ولم توجد لدينا اية براهين اخرى ايجابية على ان موجة ثالثه من الغزو قد لا تتسق وتتوافق في الزمن مع الموجتين الاوليين ، وتشن من موانيء البلطيق خلال مضائق سكاجراك في سفن كبيرة ، ولا شك في ان مثل هذا الغزو جوهري بالنسبة لخطط الالمان لتحقيق النجاح ، اذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الاسلحة الثقيلة التي تم انزالها ، او لاقامة مستودعات تموين كبيرة ·

ودخلنا في ذلك الحين فترة من التوتر الشديد ، واليقظه الدائمه وكان علينا طيلة الوقت ان نحرص على وجود قوات كبيرة في الشمال من « دوش » حتى « كروماريتي » كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها في حالة وقوع الغزو في الجنوب ، وكان في مقدرتنا بفضل الشبكه الرائعة الداخلية من سكك حديدنا ، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو في سماء وطننا ، أننسحب اربع فرق او خمسة من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب في حالات الضرورة القصوى خلال ايام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو ·

واجرينا دراسه دقيقة لاوضاع القمر والمد والجزر وتيقنا من ان العدو سيؤثر عبور البحر في الليل والنزول الى الارض عند الفجر ، وها نحن أولا نعرف ان ما تيقنا به كان على صواب ايضا ، ولم نجد لدينا ذرة من الشك في مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول في اكمة دوفر البحرية او في القطاع الساحلي المتد من دوفر الى بورتسماوث والى بورتلاند ، وكانت افكارنا جميعا ــ نحن الذين نتولى القيادة ــ تسير في اتجاه وتوافق تامين مما يثير الاعجاب لتوجيه ضربة الى عدونا تخلف دويا في كافة انحاء العالم ، ولم يكن في استطاعة أي انسان الا أن يحس بالحماسة ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذي يولى بعزم هتلر وعتاده ·

وكان من بيننا من يتحرق شوقا الى قيام هتلر بمحاولته ، يحدوهم الى ذلك العوامل المجردة التي تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لومني هتلر بتدمير محاولته وتحطيم امانيه · وكنا قد انتهينا خلال شهري تموز وآب من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا ، وكانت قواتنا متفوقة تماما وبصورة خاصة في سماء القطاعات الواقعه في الجنوب الشرقي لبلادنا ، واخذت المعدات الدفاعيه الدقيقه ، والمراكز المنيعة والحصون الشماء وحواجز مكافحة الدبابات ، وحواجز الطرق الى غير ذلك تملأ كل مكان · وتوهجت سواحلنا بالاجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة في الاطلنطي مع ما في هذا الاجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية في الاطلنطي كما شيدنا عددا آخر منها ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل ،

وقد احضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) واحدى الطرادات الى بلايموث وظل اسطولنا في ذروة قوته ، وفي قدرته ان يعمل مع تجنب كثير من الاخطار

وبهذا كنا على اتم الاستعداد لمواجهة اي شيء ··· واخيرا اقترب موسم الزوابع الاستوائيه المعروفه في شهر تشرين الاول ، وكان شهر ايلول هو الشهر الذي يتحتم على هتلر ان يوجه فيه ضربته اذا واتته الجرأة الكافية حيث يكون في صالحه ظواهر المد والجزر والقمر في اواسط الشهر المذكور ·

وارى ان الوقت قد حان لانتقل بالقاريء الى معسكر الاعداء ، حتى اطلعه على مدى استعداداته وخططه ، كما وقفنا عليها في هذه الآونة ·

الفصل السابع

عملية اسد البحر

لم تكد تنشب الحرب في ٣ ايلول عام ١٩٣٩ ، حتى بدأت البحرية الالمانية، كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب ، عـدا الدراسات اللازمـة لغـزو بريطانيا · وقد رأت عكس ما ارتأيناه ، ان السبيل الوحيد هو اتمام الغـزو عبر المياه الضيقه لبحر المانش ، ولم يقدر الالمان اي احتمال آخر . ولو كنـا قد علمنا بالحقيقة هذه انذاك لاسترحنا كثيرا حيث يواجه الغزو عبر المانش اكثر سواحلنا تحصينا ، وهي الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا حيث الموانيء المحصنة ، وحيث قواعـد المدمرات الرئيسيـة ، واغلـب المطارات ومحطات الاشراف الجوي للدفاع عن لندن ، ولم نكن نعتمد في اي جزء مـن اجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء في المسارعة الى العمل بقوة ضخمة وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث ··· وكان الاميرال رايدر موجها كل اهتمامه للاعداد في حال قيام الاسطول الالماني بغزو بريطانيا ، وفي نفس الوقت طلـب تركيز الكثير من الاوضاع ، وفي مقدمتها الاشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندا وموانيها ومصبات انهارها وهذا هو سبب نوم المشـروع طيلة فترة ما قبل الحرب ···

وفجاة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب ، وتمكن رايدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم الى الفوهرر مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا بمشروع نال اعجابه ، كما تحدث في الحادي والعشرين من ايار مع هتلر في الموضوع ذاته وفي العشرين من حزيران تحدث اليه لا عن اقتراح الغزو بل عن نسبة التاكد من انه في حال صدور الامر بالغزو فان اعداد التفاصيل المتعلقة

بالمشروع لن يتم بطابع العجلة · وكان هتلر بدوره تساوره الظنون في النجاح فعقب قائلا ، أن يقدر تماما الصعوبات المحتومة التي سيواجهها مشروع كهذا، وكان هتلر ينعلق بالامل الواهي من ان انجلترا قد تطلب الصلح وتنشده ، ولم تتنبه القيادة الالمانية الى فكرة الغزو الا في آخر اسبوع من حزيران · وفي الاسبوع الثاني من تموز صدرت الاوامر الاولى بتجهيز خطة للغزو كأنه أمر محتمل الوقوع ، وتقضي هذه الاوامر بان الفوهرر قد علق غزو انكلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفي طليعتها السيطرة الجوية ·

واصدر هتلر في ١٦ تموز توجيها منه يقول انه بالرغم من المازق العسكري الحرج لانكلترا فانها لم تظهر اية رغبة في التفاهم ، ومن اجل هذا عزمت على اعداد عملية النزول في انكلترا لتنفذ في الوقت المناسب · وينبغي ان تتم الترتيبات اللازمه للخطه كلها قبل منتصف شهر آب ، وكانت الاجراءات العمليه لتنفيذ هذه الاشارة قد بدأت في كل مكان · فقد كانت خطه الاسطول الالماني تتسم بالميكانيكية بوجه عام ، فتحت ستار نيران المدفعية الساحلية من كاليه في اتجاه دوفر ، وتحتحماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسي المقابل للمضيق ، كانت خطة البحرية تقضي باقامة نطاق ضيق عبر المانش في اقصر مسافة ممكنة واحاطته من الجانبين بسياج من الالغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية · وكان من المتفاهم عليه ان ينقل الجيش في مراكب عبر القنال على ان تمونه سلسلة طويلة من الامدادات · والى هنا ينتهي دور الاسطول الالماني · وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة ·

فاذا قدرنا انه كان في استطاعتنا بفضل تفوقنا البحري الهائل ان نقضي على حقول الالغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضح لنا ان هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ بدايتها · وكان في استطاعة اي انسان يعرف انه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مفر من امتداد اجل الحرب وتزايد الاخطار الا اذا اضطرت بريطانيا الى التسليم · وكان الاسطول الالماني قد تأثر بمعركة النروج ولم يعد في امكانه ، بوضعه الحالي ، ان يقدم الى الجيش الا بمساعدة جزئية ضئيلة ، ومع ذلك فقد جهز الاسطول خطة ولم يكن في امكان احد ان يقول ان حسن الحظ قد هبط عليه فجاة · وكانت القيادة العليا الالمانية قد اعتبرت غزو انكلترا في بادىء الامر شيئا يثير القرف في النفوس ، ولم تكن قد دبرت اية خطط او استعدادات لتنفيذه ، كما لم يتلق جنودنا تدريبا على العمليات الخاصة به · لكنه بعد ان توالت أسابيع من نشوة الانتصارات

الرائعة وجدت القيادة في نفسها الجراة والشجاعة للقيام باية مهمة ، ولم يكن اقتحام البحر بامان مسؤولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الادارية ولكنهم كانوا على ثقة من ان الجيش اذا بلغت قواته الضخمه شاطيء بريطانيا في سلام وأمان فان مهمة احراز النصر على بريطانيا تصبح امرا يسيرا ٠

وقد شعر الاميرال رايدر في شهر اب بوجوب الانتباه الى ان عبور القنال يتضمن مخاطر كبيرة ، والى امكانية فقدان الجيش كله في هذه المحاولة ٠

وعندما تولى الاسطول مهمة نقل الجيش العابر ، اصبحت البحرية الالمانية تدور في حلقة مفرغة من القلق المستمر ، وقابل قادة الاسلحة الثلاثة الفوهرر في ٢١ تموز ، فابلغهم ان الحرب قد شارفت على المرحلة الفاصلة الا ان انكلترا لا ترغب في الاعتراف بذلك ، وما زالت تأمل ان تدور عجلة القدر ٠٠ ثم تحدث عن الامدادات التي تصل الى انكلترا من الولايات المتحدة ، كما اشار الى احتمال تبدل في العلاقات السياسية في المانيا وروسيا ٠ واستطرد قائلا ان تنفيذ عملية « اسد البحر » الخطة الاكثر جدوى في التعجيل بنهاية الحرب ٠ وبعد حديث طويل مع الاميرال ، بدأ هتلر يكشف خطورة ما تخفيه عمليات عبور المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر ، وبما في البحر من غموض ٠ ثم وصف عملية « اسد البحر » بانها عملية في منتهى الجراة والمغامرة واستطرد يقول : « وبالرغم من قصر المسافة فان العملية ليست مسالة اجتياز نهر ، لكنها اقتحام بحر كبير يسيطر العدو عليه ٠ وليست العمليه اجراء فرديا في العبور ، كما حدث في النروج ، اذا لم تكن هناك عناصر المفاجأة ، ولكننا هنا سنواجه عدوا مستعدا للدفاع وقد صمم على القتال وفرض سيطرته على المنطقة البحرية التي يجب علينا استخدامها ، وستقتضينا عملية الجيش نحوا من اربعين فرقه وربما يكون نقل الامدادات اصعب شيء في هذه العملية ، اذ ليس في مقدورنا ان نعتمد على أي نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل انكلترا ، وكان الاساس الاول في نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة في الجو واستخدام مدفعية قوية في مضيق دوفر والحماية عن طريق الالغام ٠٠٠ » ثم تابع هتلر حديثه بقوله « والطقس عامل حيوي ايضا ، فهو في بحر الشمال وفي المانش يشتد في النصف الثاني من شهر ايلول ، كما يتكاثف الضباب في منتصف شهر تشرين الاول لذلك يتحتم علينا انهاء عملية الغزو قبل الخامس من ايلول ، فبعد هذا التاريخ يصعب علينا ان نضمن قيام تعاون بين الطيران والاسلحة الثقيلة ٠ فهذا التعاون من الطيران يعتبر عملا هاما وحاسما في تحديد الموعد

وقد نشب نقاش حاد تخلله شيء من العنف بين اركان الحرب الالماني

حول عرض الجبهة وعدد المراكز التي يجب ان تهاجم ، وقد طلب الجيش ان تتم سلسلة من عمليات الانزال على طول الساحل الجنوبي لانكلترا الذي يمتد من دوفر الى « لايم ريجيز » الى القرب من بورتلاند • وطالب بانزال قوات مساعدة في رامسجيت الى الشمال من دوفر • واعلن اركان البحرية الان ان اصلح مكان للعبور هو المكان الواقع ما بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت • وعلى هذا الاساس جرى تجهيز مائـه الف جندي لانزالهـم في هذه المنطقـة على ان يلي ذلك مائة وستين الف جندي اخرين في اماكن اخرى تمتد من دوفر غربا الى خليج لايم • واعلن الجنرال هود رئيس الاركان انه من المحتم انزال اربع فرق على الاقل في منطقة برايتون ، كما طالب بانزال قوات اضافية بين ريل ورامسجيت على ان يجرى توزيع ثلاثه عشر فرقة ان امكن وفي وقت واحد في اماكن متعددة على طول الجبهة ، كما طلب سلاح الطيران سفنا كافية لتنقل اثنين وخمسين مدفعا من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الانزال الاولى •

لكن رئيس اركان البحرية بين استحاله القيام بعمليات واسعه وسريعة كهذه العمليات ، قرر انه لا يستطيع عمليا حراسـة اسطول الانـزال في هذه المسافة الممتدة من البحر ، وان على الجيش اختيار افضل مكان ضمن هذه الحدود المذكورة • اذ ليس لدى الاسطول قوة لحماية اكثر من عملية عبور واحدة في وقت واحد ، حتى لو كانت لنا السيادة على الجـو ، وهو يرى ان اضيق مكان في مضايق دوفر هو اكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقـل المائة والستين الف جندي في المرحلة الثانية في عملية واحدة وهذا يحتاج الى الف سفينة تبلغ حمولتها مليون طن • ثم اضاف رئيس اركان البحرية انه حتى في حالة توفر هذا العدد الخيالي فان موانيء الابحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم ، اما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الاولى من الفرق الاربع لتشييد رؤوس جسور ضيقة على ان تقوم بنقل الفصائل الباقيـة في اليومين التاليين وذلك دون ذكر اي معلومات عن الفرق الست الباقية المتوجب انزالها لنجاح العملية • واشار ايضا الى ان الانزال على جبهة واسعة يعنـي ايجاد فرق في اوقات المد العالي بين مختلف الاماكن المختارة يترواح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف • وعلى هذا يتوجب ان نختار بين امرين : اما اوضاع المد غير المناسبة في بعض الاماكن واما الرجوع عن فكرة انزال القوات في مناطق مختلفه في وقت واحد • وكان الرد على هذا الاعتراض من اشد الصعوبات • ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل المذكرات ••• واخيـرا التقى الجنرال هولدر ورئيس اركان البحرية في اجتماع بينهما لاول مرة عقد

في ١٧ اب ، وقال هولدر في هذا الاجتماع : « اني ارفض اقتراحات الاسطول رفضا قاطعا ، فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية ٠ اذ ان ارسال القوات بالشكل الذي اقترحتموه معناه القاؤها في مفرمة للحم ، تماما كما نلقي اللحم في المفرمة ٠ » واجابه رئيس اركان البحرية بقوله انـه هو ايضا لا يمكنه قبول فكرة النزول على جبهة واسعة ، اذ ان ذلك لا يعني الا شيئا واحد ، هو التضحية بالجنود اثناء عبورهم ، وتم الوصول ، اخيرا ، الى حل وسط قام به هتلر نفسه ولم يقتنع الجيش أو البحرية ٠ فقد صدر الامـر من القيادة العليا في السابع والعشرين من شهر اب يقضي بان علـى عملية الجيش ان تتسق والحقائق التي توجبها شروط الحمولة المحدودة في البواخر وسلامة العبور والانزال ٠ وقد تم نبذ فكرة النزول في منطقة ريل رامسجيت ، ولكن تقرر ان تمتد الجبهة من فولكستون الى بوجور ٠ وهكذا لم يتم الاتفاق النهائي قبل نهاية شهر اب ، فكل شيء بالطبع متوقف على النصر والتفوق في المعركة الجوية الناشبة منذ ستة أشهر ٠٠٠

وتم تجهيز الخطة النهائيه على ضوء طول الجبهة التي جددت في النهاية كما عهد بالقيادة العسكرية الى رونشتادت ، لكن النقص في عدد السفن قلل من عدد القوات فأضحت ثلاث عشرة فرقة أساسية واثنتي عشرة فرقـة اخرى احتياطية ، وتم القرار على ابحار الجيش السادس عشر من المرافيء الواقعه بين بولون وروتردام ، وان تنزل بالقرب من هايث وهيسنجر وايستبورن ، على ان يبحر الجيش التاسع من المرافيء الواقعة بين بولون والهافر وأن يهاجـم المناطق بين برايتون دورتيج ٠ وقد جهزت الخطة على اساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر وان يزحف الجيشان بعد ذلك على الخط الممتد من كانتربوري الى اشفورد فيفيلد واروندايل ، كما تنزل احدى عشرة فرقة في المراحل الاولى فقط ٠ وتمنت القيادة العليا الالمانية ان تتمكن القوات المهاجمة في الاسبوع الاول من التقدم الى جريفسن وريفيت وبورفيلد وبورتسماوث، وان يقف الجيش السادس الاحتياطي على اهبة الاستعداد لتعزيز القوات المهاجمة او لتوسيع رقعة الهجوم اذا قضت الظروف الى ديماوث ٠ ولا ريب ان القيادة الالمانيـة لم تفتقر الى الجنود الشجعان المسلحين احسن تسليح افتقارها الى سفن للنقل ولسلامـة العبـور ٠

ووقع عبء المرحلة الثقيل في الهجوم على اركان البحرية ، ولم يكن في حوزة المانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتي الف طن من السفن المجهـزة تجهيزا كاملا ونقل القوات الغازية يحتاج الى اكثر من نصف هذه الحمولة ،

كما يؤدي الى الكثير من المشكلات الاقتصادية • وعندما حل شهر ايلول تمكنت القيادة البحرية من ان تعلم انها استطاعت ان تضع يدها على ١٦٨ باخرة مجموع حمولتها سبعماية الف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الاسماك و ١٦٠٠ زورقا بحريا • وكان بالامكان نقل هذا الاسطول العتيد بعد تجهيزه باخرة مجموع حمولتها سبعماية الف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الاسماك في اليوم الاول من ايلول عملية اندفاع الملاحة الضرورية للغزو جنوبا كانت قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهة من انتوبرب الى الهافر • وسجلت اركان البحرية الالمانية ان دفاعنا المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراتنا على مرافىء ابحار سفن عملية « اسد البحر » ومواصلة اعمال الاستكشاف توحي جميعها باننا على علم بالغزو القريب •

وذكرت تقارير اركان البحرية الالمانية ايضا ، انه ما زالت الطائرات البريطانية من قاذفات للقنابل وطائرات لبث الالغام تواصل اعمالها بصفة دائمة ، وعلينا ان نقر ان غارات الطائرات البريطانية كانت موفقه وان لم تكن فاصله في عرقلة نقل السفن الالمانية الى المرافىء •

وبالرغم مما حدث من تدمير وتعويق فقد استطاعت البحرية الالمانية اتمام الجزء الاول من مهمتها الخطيرة ، ولم تتجاوز خسائرها العشرة في المئة من مجموع قوة الغزو الكاملة ، وهي نسبة اقل بكثير مما قدرته القيادة الالمانية ، اما ما تبقى على اهبة الاستعداد فلم يكن باقل من الحد الادنى الذي قدرت القيادة حتمية وجوده للقيام بالمرحلة الاولى من العملية • وقد القى الجيش والاسطول الالماني العبء كله عاتق السلاح الجوي ، وكانت حماية الممر بما يلازمها من بث الالغام التي بمثابة الاسوار موكلة الى السلاح الجوي الالماني ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة • اي ان الخطة كانت قائمة على الحاق الهزيمة بالطيران الانكليزي والسيطره المطلقه لالمانيا على الجو ، لا فوق المانش وجنوب شرقي اسيا فقط بل فوق مناطق العبور والانزال كذلك • وهكذا اوكل السلاحان الالمانيان القديمان مهمة الخطة الى ماريشال الرايخ غورنغ •

وقد رحب غورنغ بقبول هذه المهمة ، لثقته المطلقة بالتفوق العددي للطيران الالماني ، وانه لن تمضي اسابيع معدودة من القتال الشديد حتى تنزل الهزيمة المنكرة بالدفاع البريطاني ويتم تدمير مطاراته في كنت وسكس ومن ثم تسيطر المانيا على المانش ••• وقد ظن غورنغ ايضا ان قصف انكلترا من الجو وخاصة العاصمة لندن سيدفع بالشعب البريطاني المنحل الذي يفضل

العافية الى الرضوخ وطلب الصلح ، هذا بالاضافة الى ان نذر الغزو وكانت قد بدت في الافق القريب لكن البحرية الالمانية لم تجاره في تفاؤله هذا وكانت شكوكها عميقة الجذور · لان عملية « اسد البحر » لا يمكن الا ان تكون اجراء اخيرا ، فاوصت في شهر تموز بتأجيلها حتى ربيع عام ١٩٤١ ، الا اذا اجبرت الغارات الجوية وحرب الغواصات الرهيبة الانكليز على مفاوضة الفوهرر بالشروط التي يفرضها ، اما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الاعلى غورنغ ·

لقد عاشت المانيا اياما مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل ان تذل له فرنسا في هدنة كومبين ، وسار الجيش الالماني الظافر تحت اقواس النصر وعبر الكاب اليسيه . فهل بقي هناك شيء يعجزون عن تنفيذه ؟ فلم التردد اذن في الاقدام على مجازفة مضمونه ؟ وهكذا فان الاسلحة الثلاثه التي تشترك في انقاذ عملية « اسد البحر » ولفتت نظر كل منهما الى الجانب المضيء في الدور الذي سيقوم به وترك الجانب المظلم الى السلاحين الاخرين ·

وبمرور الايام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل ، وكان قرار هتلر الصادر في ١٦ تموز قد حدد انهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر اب لكن كافة الاسلحة وجدت ان تنفيذ هذه الخطة في الوقت المحددة غير ممكن · وقبل هتلر في نهاية شهر تموز تحديد موعد ١٥ ايلول كموعد مبكر للغزو ، بينما أجل قراره الاخير القاضي بتحديد موعد البدء في العمل حتى تتضح نتائج معركة الجو التي حمي وطيسها ····

وابلغت البحرية في ٣٠ اب القيادة العليا ، ان استعدادات اسطول الغزو يستحيل ان تتم في ١٥ ايلول بالنسبة للاجراءات المضادة التي اقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجل البدء في الغزو حتى ٢١ ايلول مع اشتراط عشرة ايام كانذار مسبق ، وهذا يعني ضرورة اصدار الامر الاول في ١١ ايلول · وابلغت البحرية مرة أخرى في العاشر من ايلول القيادة العليا مدى الصعوبات الكثيرة التي تجابهها نتيجة لرداءة الطقس واعمال بريطانيا المضادة ، وبالرغم من ان التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلا قبل ١١ ايلول ، الا ان الشرط الاساسي الذي يحتم السيطرة المطلقة على جو القنال لم يتحقق بعد · وقد ادى ذلك الى ان اصدر هتلر قراره في ١١ ايلول بتاجيل صدور الامر التمهيدي لثلاثة ايام اخرى ، وبذلك يكون الغزو قد تأجل الى الرابع والعشرين ، كما تأجل مرة ثانية في الرابع عشر ثلاثة ايام اخرى وفي السابع عشر من ايلول تأجل اصدار هذا الامر الى اجل غير مسمى لاسباب هامة في نظرهم ونظرنا ايضا ·

وقد علمنا مـن الاخبار الواردة الينا في ٧ ايلـول ان تحركـات السفن الصغيرة ما زالت مستمرة في الغرب وفي الجنوب في اتجاه المرافيء الواقعه بين هومستند والهافر ، ولما كانت هذه المرافيء تحت وطأة الغـارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول الا تنتقل اليها السفن الكبيـرة الا قبيل الغزو ، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوي الالماني بين امستردام وبريست حتى بلغت مائه وستين قاذفة قنابل وصلت من النروج الى هذه المنطقه ، كما رأينـا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير في المطارات الاماميـة الواقعه في خليج كاليه وقد اعترف اربعه مـن الجواسيس الالمـان الذين تـم اعتقالهم قبل مضي بضعة ايام من نزولهم من احد زوارق التجذيف على الساحل الجنوبي والشرقي من انكلترا انهم جاءوا ليكونوا على استعداد في اية لحظة اثناء الاسبوعين القادمين ، وليرسلوا بتقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانيـة الاحتياطيـه في ايبويس ولندن وريدنـج واوكسفورد ٠ وكانت اوضاع القمر والمد بين الثامن والعاشر من شهـر ايلول مناسبه للغزو مـن الساحل الجنوبي الشرقي ٠ لذلك قرر رؤساء اركان الحرب عندنا انهم يتوقعون الهجوم في اية لحظة ، وان على قواتنا الدفاعية ان تقف على اهبة الاستعداد لمواجهة اى طارىء عاجـل ٠

ولم يكن في القيادة العامة حينذاك جهازا يستطيع اعلان حالة الطوارىء المحددة له ثماني ساعات الى عمل فوري ، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السـر « كرومويل » التي يقصد بها ان عملية الغزو محتمله في اية لحظـة ، صدرت الكلمة الى القوات في الساعة الثامنة من مساء السابع من شهر ايلول ، والى القيادتين الجنوبية والشرقية ، للعمل الفوري السريع للفرق الساحلية الامامية، وجميع الوحدات في منطقة لندن ، والى الفيلقين الرابع والسابـع مـن قوات الاحتياط التابعه للقيادة ٠

وتكررت الكلمة الى جميع القيادات الاخرى ، للعلم بها فقط ، في جميع انحاء المملكة المتحدة ، وعندما وصلت هذه الكلمة الى قادة الحرس الوطنـي في بعض انحاء البلاد ، قاموا بدافع من انفسهم باستدعاء قوات الحرس لدق اجراس الكنائس ٠ ولم اكن انا ورؤساء اركان الحرب قد علمنا بان كلمـة « كرومويل » قد استخدمت فعلا ، ولذا فقد صدرت اوامرنا في الصباح التالي بضرورة ايجاد مراحل انتقاليه يتضاعف فيها الحذر في المناسبات المقبله دون اعلان ان الغزو قد حصل ، وفي استطاعة كل انسان ان يتخيل ما اثاره هـذا الحـادث من هرج ومرج وفوضى ، وان لم يشر اليه سواء في الصحف ام

في البرلمان ··· وعلى كل فقد كان هذا الحادث اشاره تدريب لكل من يعنيهم الامر ·

* * *

والان وبعد ان تتبعنا مراحل اعداد القيادة الالمانية العليا حتى وصلت الى القمة ، فقد اصبح في مقدورنا ان نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر الى قيام حالة من الشك ، ثم الى فقدان كل ثقة في النتيجة ، وقد شاهدها القائد البحري وايدر في شهري تموز وآب وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائيه الواسعة النطاق ومشقاتها ، فقد احس الاميرال بضعفه واحتياجه الى عامل الوقت لاستكمال المعدات ، وان كان تنفيذ الخطه الواسعة النطاق التي وضعها هولدر هي انزال قوات ضخمة في وقت واحد في منطقة مترامية الاطراف ، وكان غورنغ بخياله الجامح مصرا في الوقت نفسه على احراز النصر الساحق بقواته الجوية وحدها وابى ان يساهم بدور متواضع في الاعداد لخطة مشتركة تهدف الى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية في جبهة الغزو ·

ويتضح من الوثائق والسجلات ان القيادة الالمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون في سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشاكل الاسلحه المختلفه الوعي الناجح السليم · فقد كان الاحتكاك فيما بينهما واضحا منذ البداية ، وطالما كان في مقدور هولدر ان يلقي بالمسؤولية على كاهل رايدر فانه لم يحاول ان يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الامكانيات العملية ، وكان من المحتم ان يتدخل هتلر ، وقد تدخل بالفعل لكن تدخله لم يعمل على تحسين العلاقات بين القوات المسلحة ، وكانت سمعة الجيش في المانيا قد ارتفعت الى ما فوق السحب ، وكان القادة العسكريون ينظرون بتعال الى زملائهم من قادة البحرية ·

وقد يكون من الصعب على اي انسان ان يقاوم الادلة التي تنهض على تاكيد ان الجيش الالماني لم يكن راضيا عن وضعه تحت اشراف البحرية في عملية رئيسية كهذه وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط اجاب وهو نافذ الصبر « كانت خططنا تشبه تماما الخطط التي وضعها يوليوس قيصر »

وربما يكون في هذا القول الصادر عن جندي الماني موثوق به بالنسبة لعمليات البحار ، ما يلقي الضوء على ان الجندي الالماني لم تتضح في ذهنه

المشكلات الخاصة بعمليات الانزال والاخطار الناجمة عن نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه ·

اما نحن في بريطانيا فضلا عما كنا نعانيه من نقص ، فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته ، فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا ، وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطاني باسره · ولعل هذا التفهم هو الذي مكننا اكثر من اي عامل اخر من النظر الى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء · وقد خضع التخطيط الذي وضعناه لاشراف رؤساء اركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما ادى الى ايجاد نظام متناسق ككتله واحدة والى التعاون التام الذي لم نر له مثيلا في الماضي والى التعرف المتبادل الى كافة المصاعب · وعندما آن الاوان لنبدأ نحن في عمليات غزو عظيمة واسعة النطاق من البحر ، كان عملنا آنذاك مرتكزا على اساس وطيد من الاستعداد الشامل لاداء العمل ومن الاحاطة الكاملة بكل الاحتياجات التكميلية للاقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة الكبرى من الخطورة ·

ولو كان للالمان في عام ١٩٤٠ قوات برمائيه جيدة التدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمائيه الحديثه لما قدر لمهمتها النجاح امام قواتنا البحرية والجوية ، فكم بالاحرى والالمان لم يكن لديهم شيء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب وهما عاملان ضروريان في مثل هذه الحرب · وكلما زادت رغبة الفوهرر والقيادة العليا في المغامرة ضعفت آمالهم فيها ، ولم يكن في استطاعتنا ان نصل الى معرفة اوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا ، ولكن كلما مر اسبوع ابتداء من اواسط تموز وانتهاء منتصف ايلول كان الغموض الذي يكتنف الموقف بالنسبة للبحرية البريطانية والالمانية وللقيادة العليا الالمانية ورؤساء اركان الحرب البريطانية وبالنسبة للفوهور ولمؤلف هذا الكتاب ينجلي رويدا رويدا · ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى في القضايا الاخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب ، فقد اتفقنا بادىء ذي بدء على ان المصير سيتقرر في الجو ، كان السؤال الذي يعرض لنا ولهم في وقت واحد هو كيف ستنتهي هذه المعركة الدائرة في الجو ؟ وكان الالمان يتساءلون هل يصمد الشعب البريطاني لنيران الغارات الجوية التي كان تاثيرها قد بولغ في تقديره في تلك الايام ؟ او انه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام · وكان ماريشال الرايخ ذا أمل كبير وثقة بالنتيجة بينما كنا نحن لانهابها ·

الفصل الثامن
معركة بريطانيا

ذكرنا سابقا ان مصيرنا اصبح مرتبطا باحرازنا النصر الجوي ، وان القادة الالمان قد ادركوا ان نجاح عملية غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية في سماء القنال ، وفي بعض الاماكن على الساحل الجنوبي لبلادنا ، على انه لم يكن في مقدور الالمان القيام باستكمال استعداداتهم في مرافيء الابحار ، وحشد سفن النقل ، وتطهير المعابر من الالغام ثم القيام ببث الغام اخرى دون ان تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوي البريطاني · اي ان الامر الفصل كان للسيادة الجوية في سماء مناطق العبور والانزال ومن اجل هذا كان لا بد من تدمير السلاح الجوي الملكي وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر ، ونحن نعلم الان من الوثائق التي حصلنا عليها ان هتلر ابلغ الاميرال رايدر في ٣١ تموز : «انه اذا لم يتمكن سلاحنا الجوي من القيام بعملية تدمير المطارات العدوة بالاضافة الى موانئه وقواته البحرية خلال مدة ثمانية ايام ، فان عملية الغزو ستتأجل بالضرورة حتى ايار من العام المقبل » · وهذه المعركة التي كان علينا ان نخوض غمارها ، على انني لم احس بخوف لحظة واحدة ـ ولو عن طريق التصور ـ من التجربة العظمى التي كنا نواجهها ، وكنت في الرابع من حزيران قد ادليت للبرلمان ببيان هذا نصه :

« ان الجيش الفرنسي العظيم قد اضطر الى التراجع ، واضطرب حل اموره نتيجة الهجوم الذي قامت به بضعة الوف من السيارات المدرعة فهلا يدافع عن قضيــة الحضارة بضعة الوف من الطيارين بمهارتهم واخلاصهم !! وارسلت الى سمطس في ٩ حزيران الثاني اقول واني ارى

الان بوضوح ان هتلر بشكل قاطع سيشن هجوما على هذه البلاد ، فيدمر سلاحه الجوي في هذا الهجوم · »

والان جاءت الظروف مواتية ···

ولاشك ان كتبا كثيرة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوي بين السلاحين البريطاني والالماني ، وهو الصراع الذي يكون معركة بريطانيا ، وقد استطعنا الان التعرف الى اراء القيادة الالمانية العليا ،والى ردود الفعل لديها في المراحل المتباينة ، ويظهر ان خسائر الالمان في بعض المعارك الرئيسية ، كانت اقل بكثير مما خيل الينا ، وان تقارير الجانبين في وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة ، ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية لذلك الصراع المعروف الذي كانت تتوقف علية حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة ·

كان السلاح الجوي الالماني قد التحم في معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة واضحى في حاجة الى الراحة بعد هذا القتال ، تماما كما حدث للاسطول الالماني بعد معركة النروج ، كذلك كان الامر بالنسبة لنا اذ ان ثلاثة اسراب من مجموع كل أربعة من اسراب طائراتنا المحاربة كانت قد اسهمت في وقت او اخر في معارك القارة ، ولم يكن في مقدور هتلر الا ان يعتقد ان بريطانيا سترحب بعرض للصلح ، بعد انهيار فرنسا ·

وكان هتلر يشبه في ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين ، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم في جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها الطبيعة به من شمم · لقد كان من شانه شان هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وارادتنا ، وقضى هتلر شهر حزيران في تحوير الاوضاع لتتمشى مع الاحوال التي وجد نفسه فيها تدريجيا، وفي خلال ذلك كان الطيران الالماني يقضي فترة من النقاهة واعادة التنظيم استعدادا للمهمة الجديدة ، ولم يكن ثمة شك في خطر هذه المهمة ، اذ كان على هتلر ان يختار واحدة من اثنتين ، اما ان يغزو انكلترا ويحتلها او يخوض غمار حرب طويلة الامد ، تنطوي على كثير من الاخطار والمشكلات ، على ان احتمال نصر جوي يقضي على المقاومة البريطانية كان ماثلا في اذهانهم مما يجعل الغزو الفعلي امرا غير محتم الا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها · واستطاعت القوة الالمانية الجوية خلال شهر حزيران ومطلع شهر تموز ان تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية في صفوفها ، وان تنتشر في جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التي يحتمل بدء الهجوم منها ، واستطاعت الغارات

الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التي ستجابهها ومدى طاقتها ٠

وشرعت في ١٠ تموز بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التي تعد بحق بدء معركة بريطانيا ، وهناك تاريخان مهمان يرتفعان ايضا في هذه المعركة هما ١٥ آب و ١٥ ايلول ، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة في الوقت ذاته حين الغزو الالماني ، وقد اتسمت المرحلة الاولى بين ١٠ تموز و ١٨ آب بالتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانيء الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر حصر سلاح الطيران البريطاني وايقاعه في معركة حاسمة والقضاء عليه ، وكذلك تدمير الموانيء التي تقرر النزول فيها ٠ وفي المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ آب و ٢٧ ايلول كان من المحتم تمهيد الطريق الى لندن وذلك بتحطيم السلاح الجوالبريطاني ومنشاته لتامين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطيء المهددة بالغزو ٠ اما غورنغ فلا شك انه كان يرى في هذه الغارات غرضا أكبر وهدفا أبعد وهو احداث الاضطراب الكامل في اكبر مدن العالم وشل حركتها ، وايقاع الفزع الاكبر في بريطانيا حكومة وشعبا ، واضطرارهما اخيرا الى الخضوع لارادة المانيا ، واتجه امل الجيش الالماني والاسطول الى الرغبة في ان يكون غورنغ مصيبا فيما رآه ، ولكن مع مرور الوقت ، وتغير الاحوال راى قادة السلاحين ان السلاح الجوي البريطاني لم يقض عليه ، وان أملهم في عملية « اسد البحر » قد تبدو في سبيل تحقيق ما أراده غورنغ من تدمير لندن ، واخيرا عندما انتابتهم خيبة امل في كل شيء ، وعندما تأجل الغزو الى اجل غير معلوم لان الشرط الحيوي الاساسي وهو السيطرة على الجو لم يتحقق ، بدات المرحلة الثالثة والاخيرة ٠ فقد تبدد حلمهم في النصر الذي بدا كسراب خادع وسلاح الطيران البريطاني ما زال حيا ، مما حدا بغورنغ في شهر تشرين الاول ان يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لندن وغيرها من مراكز الانتاج الصناعي ٠

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم ، فالطائرات الالمانية اسرع وأقدر على الارتفاع ، اما طائراتنا فاقدر على المناورات وافضل تسليحا ، وكان طيارو المانيا على ثقة من تفوقهم العددي ، كما كانت الانتصارات التي احرزوها في بولندا والنروج والاراضي المنخفضة وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء ٠ اما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصي ، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التي تعتبر من صفات الشعب البريطاني وتبدو في وقت الازمات

والعواصف · وقد كان الالمان متمتعين بمزية استراتيجية هامة ، احسنوا استغلالها . فقد توزعت قواتهم وانتشرت في جبهة واسعة للغاية ، وكان في وسعها ان تشن هجمات علينا باعداد كبيرة مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا ان نعرف مواقعهم الحقيقية ، وكان الطيران الالماني قد جمع في شهر آب ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ قاذفة قنابل ، و ٣٤٦ طائرة من طائرات الانقضاض · وأصدر الفوهرر في ٥ آب أمرا يحمل الرقم ١٧ يقضي بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا ، ولم يكن غورنغ واثقا من عملية « أسد البحر » ، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية « المطلقة » ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوي الهدف الاساسي بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة الى شن الهجوم الشامل على بوارجنا وسفننا · وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من اسف لان غورنغ لا يهتم كثيرا بتركيز غاراته على الاهداف البحرية ، كما احنقها التأجيل المتكرر للغارات الجوية · وفي ٦ آب ابلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث الالغام في بحر المانش اصبح من المتعذر القيام به نتيجة لضغط التهديد البريطاني المتواصل في الجو · وقد تركز القتال الجوي المتواصل طيلة شهر تموز ومطلع شهر آب على قاعدة « كنت » البحرية وساحل القنال ، وقد تأكد غورنغ ومستشاروه ان غاراتهم قد شغلت كل اسرابنا المقاتلة في ميدان المعركة في الجنوب ، فقرروا القيام بغارة في وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة في الشمال ، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الاول وهي (المسرز شميث ١٠٩) فاضطروا الى المغامرة بطائراتهم القاذفة على ان تصحبها طائرات (المسرز شميت ١١٠) وهذه بصرف النظر عن مقدرتها على الطيران الى مسافات أبعد ، فهي غير مجهزة بأسلحة القتال ، وهو امر له اهميته في هذا الوقت ، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة ·

وهكذا قامت في الخامس عشر من آب نحو مائة قاذفة قنابل ، واربعون طائرة مسرز شميت ١١٠ ، بشن هجوم على مدينة تاينيسان ، وفي الوقت نفسه كانت اكثر من ثمانماية طائرة تشن هجوما على قواتنا الجنوبية لحصرها في منطقتها ، اذخيل لهم انها متجمعة في هذه المنطقة · لكن التوزيع الذي وضعه داودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر اثره ، فقد كان داودنج يفكر في مثل هذا الخطر فسحب سبعة اسراب من طائرات « الهاريكين » و « السبتفاير » من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلا ولحماية الشمال في نفس الوقت ، وقد احس رجال هذه الاسراب ببالغ الاسى

لابتعادهم عن ميدان اسرـ مضطرين ، اذ اكدوا لقيادتهم ان القتال لم يجهدهم ولم ينل من نشاطهم . وها هم اولا يفاجئون بما لا يخطر على بالهم ، فقد اصبح في مقدورهم ان يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل واستطاعوا اسقاط اربعين طائرة المانية اغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (هينكل ١١١) التي تنقل الواحدة منها اربعين رجلا مدربا ، ولم يصب طيارينا بأي جراح سوى اثنين · وليس هناك مجال للشك في سعة أفق المارشال داودنج وتفكيره السديد في توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير ، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى في احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة في الشمال اثناء الاسابيع الطويلة من اشتعال الحرب في الجنوب · وهذا النوع من القيادة يعد مثلا على العبقرية في فن الحرب ·

وأعقب هذا اليوم الفاصل ان اضحت مدن الشمال في مأمن من الغارات الجوية وبعد يوم ١٥ آب اليوم الذي بلغ فيه الصراع الجوي أشده ، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل . كان حقا يوما رائعا ، فقد التحمت جميع اسرابنا الاثنين والعشرين في موقعه في الجنوب ، وبعضها عاود المعركة مرتين او ثلاثا ، وكانت خسائر الالمان في الجنوب والشمال قد بلغت ستا وسبعين طائرة ، مقابل اربع وثلاثين من جانبنا · ولا شك في ان هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوي الالماني ·

وليس هنا مجال للشك في ان قادة الجو الالمان قد هالتهم هذه الهزيمة الساحقة التي انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل ، وكان السلاح الالماني قد ركز اهتمامه في الاغارة على ميناء لندن ، ذي الارصفة الطويلة التي تقف عليها مختلف انواع البواخر ، واذلال كبرياء المدينة باعتبارها من اكبر مدن العالم واوسعها ، على ان تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته اسهل وأيسر ·

* * *

قام اللورد بيفربروك خلال تلك الاسابيع الطويلة من القتال المتواصل والقلق الذى لا نهاية له ، بمساعدات واضحة ، فمن الضروري ادخال تجديد على اسرابنا المقاتلة وتزويدها بطائرات مضمونة ، وقد حال ضيق الوقت دون الاخذ والرد والاطالة في البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك في كل نظام هادىء رتيب · وكانت طباع اللورد بيفربروك مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة ، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الاقبال على العمل ، وقد اغتبطت

لذلك كثيرا فقد اعتمدت عليه ووثقت في مساعدته فلم تخب هذه الثقة مـــرة واحدة ، وها قد دنت الساعة لاظهار عبقريته واستعداده الشخصي مع مـا يصحبها من قدرة على الاقناع تمكنه من تذليل شتى الصعاب • وكنا نلقـي في جحيم المعركة بكل مواردنا ، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة او ما تـم اصلاحه من اسرابنا التي اغتبطت حينما طالعتها هذه الاعداد الكبيرة غيـر المتوقعة ، واخذت ورش الصيانة والاصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها • حينئذ تجلت لي قيمة الرجل واهميته فدعوته في الثاني من شهر آب بعـــد موافقة الملك الى الاشتراك في عضوية وزارة الحرب ، وفي الوقت نفسه كـان ولده الاكبر ماكس اتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة واحرز انتصاره السادس •

وكان ارنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذيـــن حرصت على الاكثار من لقائهم في تلك الفترة الحرجة نظرا للمهمة الحيوية التي كـان يقوم بها مـن ادارة اليـد العاملـة في البـلاد ، وبعث الحيويـة والنشاط فيها • وكان جميع العمال في مصانـــع الذخيرة مستعدين لتلقـــي توجيهاته ، وانضم هو الاخر الى عضوية وزارة الحرب في شهر آب • وضحى العمال النقابيون بارباحهم وحقوقهم التي احرزوها بعد جهد طويل والتـــي كانوا يولونها اعظم الرعاية ، ضحوا بها من اجل المصلحة الوطنية وهم يرون بقية الثروات والامتيازات والممتلكات التي يملكها الغير قد ضحوا بهـا هـم الاخرين • وكنت انا على وفاق تام مع بيفر بروك وبيفن في اسابيع الازمـة التي خضناها ، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعـد ، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام ، اما في تلك المرحلة من الكفاح الذي بلغ ذروته ، فقد كنا جميعا نعمل يدا واحدة ، وليس في مقدوري الا ان اثنـي كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين وثبات جميع الزملاء وكفايتهم ، فالـى الجميع تحياتي •

ولم يدرك غورنغ حتى نهاية شهر اب اي اثر سيء للصراع الدائر فـي الجو ، فقد كان على ثقة هو ورجاله من ان المطارات البريطانية وصناعـــة الطائرات ، وقوة سلاح الطيران البريطاني المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة ، وكانت هناك فترة خلال شهر ايلول تحسن فيها الطقس فازداد امل السلاح الالماني في احراز نتائج فاصلة ، وامتحنت المطارات حول لندن بغارة جويـــة عاتية ، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ ايلول بالاغارة على لندن تبعهـــا في الليلة التالية هجوم اخر قامت به ثلاثماية طائرة في وقت واحد ، وفي ذلـك

اليوم كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز المدفعيـــة المضادة للطائرات · في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصمة ، وكانت القوة الجوية الالمانية توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرنا ·

وكان ميزان القتال الذي وقع بين ٢٤ آب و ٦ ايلـول قد رجح ضـد طائراتنا المحاربة ، فقد اتخذ الالمان في تلك الايـــام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لتشن غارات على مطاراتنا في جنوب انكلترا والجنوب الشرقي، وكانوا يهدفون الى تدمير الجهاز الدفاعي عن العاصمة في اثناء النهار التي استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها ، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات اسرابنا منها ، اكثر اهمية لنا من حماية العاصمة التي منيت بحملات من القصف الجوي ، غرضها الاول نشر الرعب واثارة الفزع · وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم نكن نفكر حينذاك بالدفاع عن لندن او غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر ؟ وقد ساد قيادة الطائرات المحاربة في (ستاجور) احساس بالقلق وخاصة فيمقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في اوكسبريدج ، اذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الامامية وستة من مراكز الجبهة باضرار جسيمة وكذلك محطة قطاع بجين هيل الى الجنوب من لندن ، حتى ان سربا واحدا هو الذي استطاع العمل وحده مدة اسبوع كامل ، ولو استمر العدو في هجماتـه الثقيلة على الاماكن القريبة وهدم غرف العمليات فيها ، وقطـــع اتصالاتها الهاتفية لاضحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجويـة معرضـة لاشد الاخطار ، ولم يكن دليلا على مجرد توجيه الاساءة الى لندن بل على وهـن اشرافنا على سمائنا في هذا المكان الحيوي الحساس · وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات في الثامن والعشرين من آب وخصوصا مانستون وبجين هيل القريبة من منزلي ، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهمـــا مملوءة بالحفر ، وعندما غير العدو هجومه في السابع من ايلول الـــى لندن ، أدركت قيـادة الطائرات المحاربة هذا التغيير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك ، وكان على غورنغ ان يستمر في هجماته على مطاراتنا التي تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت ، لكن بتخليه عن قواعد الحرب المألوفة ، ومـا تمليه الروح الانسانية من قواعد مقررة ، ارتكب أجسم الاخطاء وأبشعها · وكانت هذه الفترة الواقعة ما بين ٢٤ آب و ٦ أيلول من الايام التي شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة الى اقصى حد ، وكانت القيادة قد منيت بخسارة مـــا يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين خلال اسبوعين بالاضافة الى مائة وثمانية

وعشرين اصيبوا بجراح خطيرة ، كما تحطمت حوالي ٤٦٦ طائرة من طراز الهاريكين والسبيتفاير او اصيبت بأضرار جسيمة ، واذا اعتبرنا ان عدد الطيارين في قوتنا المحاربة كان في هذه الاونة الف طيار ، بدا لنا ان سلاحنا الجوي قد فقد ربع رجاله تقريبا ٠

ولم يكن في وسعنا ملء هذا الفراغ الذي نشأ عن فقدانهم ، الا باستحضار مائتين وستين طيارا جديدا ينقصهم التدريب وان لم تنقصهم الحماسة ، نقلوا من وحدات التدريب قبل ان يستكملوا مدتهم الدراسية في كثير من الاحيان ، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد السابع من ايلول والتي استهدفت الارصفة ومراكز السكك الحديدية في قتل عدد كبير من المدنيين واصابة الكثير بجراح ، لكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء ، ارسلت الينا على حين كنا في اشد الحاجة اليها لنأخذ انفاسنا ٠

وعلينا ان نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها في الخامس عشر من ايلول ، فقد شن سلاح الطيران الالماني – بعد غارتين متواليتين في ١٤ من الشهر نفسه – اكبر هجوم جوي مركز في رائعة النهار على مدينة لندن ٠ لقد صارت احدى المعارك الفاصلة في الحرب ، وقد حدثت في يوم من ايام الاحد كمعركة « واترلو » تماما ، وكنت في ذلك اليوم في تشيكرز ، وطالما قمت – قبل هذا اليوم – بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لارى بنفسي سير احدى المعارك الجوية التي لا يحدث فيها الكثير ، وأحسست في ذلك النهار ان الطقس مناسب لعدونا ، ولذلك فقد ركبت سيارتي الى اوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التي تتكون من حوالي خمسة وعشرين سربا تختص بالدفاع عن ايسكس وكنت وساكس وهامشاير وجميع المداخل المؤدية الى لندن ، وكان نائب مارشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالي ستة اشهر، وكان عليها يتوقف مصيرنا الى درجة عظيمة ، ومنذ ان ابتدأت معركة دنكرك اسند الى بارك ادارة كافة اعمال الطيران في النهار في جنوب انكلترا وقد بلغت استعداداته حد الكمال ، وتسللت مع زوجتي الى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل والواقعة على بعد خمسين قدما تحت الارض ، ومن المعلوم أن تفوق طائرات السبيتفاير والهاريكين انما يرجع الى وجود هذا الجهاز الدقيق من الاشراف ، وامتداد شبكة اسلاك التليفون تحت الارض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة المارشال داودنج ٠ وكانت القيادة العامة توجه التعليمات والاوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة في ستاجور ، لكن القيادة الفعلية لاسراب الطائرات قد عهد بها الى

المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الاشراف علـــى سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات قد عهد بها الى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الاشراف على سائر الوحدات الموزعـــة في شتى محطـات الطائرات المحاربة في مختلف انحاء البلاد ٠ وكانت غرفة عمليات المجموعـة تشبه المسرح الصغير ، وطولها يبلغ ستين قدما ، وتتكون من طابقين ، وقد اخترنا مقاعدنا في الحلقة الوسطى وامامنا على المائدة افردت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا حوالي عشرين شابا وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفي التليفونات وأمامنا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله ، وقد قسمته المصابيح الكهربائية الى ستة اعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست ، ولكل منها ايضا عمود اضافي مقسم بخطوط افقية ٠ وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الاسراب الواقفة على اهبة الاستعداد والمستعدة للطيران خلال دقيقتين ، ثم تعلوها المصابيح التي توضح الاسراب المتاهبة للعمل خلال خمس دقائق ، ثم تعلوها تلك التي يتم استعدادها في عشرين دقيقة ، وهكـذا بالنسبة الى تلك التي تقوم بالطيران او التي شاهدت العدو او المشتبكة معـه في هذه اللحظة او تلك التي في طريقها الى قاعدتها ، وهناك غرفة صغيرة على الجانب الايسر تشبه المقصورة في المسرح يجلس فيها اربعة او خمسة ضباط من فرقة المراقبة التي كان عددها قد بلغ حينذاك حوالي خمسين الف رجـل وامرأة وشاب ، وقد كان الرادار انذاك في بدايته ، ومع ذلك فقد كان كافيا لتوجيه الانذار بالغارات حين تقترب من السواحل ، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المتنقلة ، مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة ، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها الوف الرسائل والاشارات في اثناء وقـوع الغارة ٠ وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين في غرف تمتلىء بهم في مقر القيادة الكائن تحت الارض ، يحلون رموز تلك الرسائل ويلخصونهـــا بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة الى اخرى النتائج التي يصلون اليهـا الى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية ، والى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التي اشرنا اليها ٠

وفي الناحية المقابلة (مقصورة) ثانية يحتلها عدد من ضبـاط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال المدفعية المضادة للطائرات وقد كان لدينا منها تحت اشراف هذه القيادة مائتا مدفعا ، وكان من الضروري جدا ان تتوقف هذه المدفعية عن العمل لبضع ساعات اثناء الليـــل في بعض المناطـــق ، اذ أن طائراتنا المقاتلة تكون في ذلك الوقت قد اشتبكت في القتال مع العدو ، وكنت

على علم بهذا النظام ، فقد اطلعني داودنج على عمل الجهاز كله قبل ان تبدأ الحرب بعام عندما زرته في ستاغور ، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والاصلاح منذ تلك الزيارة وصار الان اداة حيوية من ادوات الحرب لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم ٠ وقال لي بارك عندما نزلنا الى المقر في الطابق الاسفل : « لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم ، كل شيء هادىء » ٠

ولم يكد يمضي ربع ساعة على هذا الكلام ، حتى كان منظموا الخطة قد بدأ تحركهم ، اذ ابلغوا انه حوالي أربعين طائرة تحركت للأغارة من المحطات الالمانية في منطقة دييب ، واخذت المصابيح تضيء في الصف الادنى مشيرة الى الاسراب التي وقفت على أهبة الاستعداد . ثم وصل خبر اخر يقول ان عشرين طائرة مغيرة اخرى تستعد ، ولم تمض عشر دقائق اخرى حتى صار من البين ان معركة قاسية في طريق الوقوع وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين ٠ وتتابعت الاشارات ، اربعون طائرة ، ستون طائرة ، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت الى اخـــر في علامات توضح اتجاهاتها ، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضيء المصابيح، مشيرة الى طيران اسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الارض على أهبة الاستعداد اكثر مـن عدد قليل ، وقد ظلت هذه المعارك الجويـة التـي يعلق عليها الكثير ـ اكثر من ساعة بعد وقوعها ـ وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التي مكنته من ارسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات الـى قلب الهجوم ، وكان على اسرابنا التي تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو ان تعود الى قواعدها بعد سبعين او ثمانين دقيقة من طيرانها لتتـزود بالوقود او الذخائر ، ولو تمكن العدو في اثناء ذلك من حشد طائرات جديدة في حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهي على الارض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسي دائما ان نوجه اسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الارض في وقت واحد ٠

وسرعان ما أوضحت الاضواء الحمراء ان معظم اسرابنا ملتحمة مع العدو ، وكنت اسمع همسا متصلا بين القائمين بالتخطيط ، وهم ينقلـــون الاشارات من مكان لاخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الاوضاع ٠ وكـــان نائب مارشال الجو يصدر التعليمات العامة موجها طائرته المقاتلة التي تترجم فورا الى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة الى كل محطة من المحطات ٠

وكنت اجلس بجواره ، وسالت عن اسمه بعد سنوات ، فقيل لي انـه

اللورد ويلوبي دي بروك · وقد التقيت به لثاني مرة في عام ١٩٤٧ عندما استجبت لدعوة من نادي الفرسان ، وكان عضوا في مجلس ادارته لمشاهدة حفلة سباق الدربي · وقد استغرب كثيرا لانني لم انس لقائي الاول به · وكان في ذلك الحين يصدر التعليمات والاوامر للاسراب الفردية بالتحليق في الجو والقيام بأعمال دورية على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة ·

وكان مارشال الجو انذاك يسير في الغرفة جيئة وذهابا وهو يلحظ بعين حذره متنبهة كل حركة وخطوة في اللعبة ، مراقبا بنفسه رجال جهازه التنفيذي ومتدخلا اذا اقتضى الامر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة · ولم تمر لحظات حتى صارت جميع اسرابنا ملتحمة في المعركة ، ولم يبق سرب واحد في الاحتياطي ، وتحدث بارك في تلك الاثناء تلفونيا الى داودنج في ستاغور ، فطلب منه ان يضع ثلاثة اسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطا للطوارىء ، وفيما اذا وقع هجوم رئيسي اخر ، خلال قيام اسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر ، وقد تم فعلا هذا ، وكانت الاسراب الزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة حيث ان المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفذت كل قواها ·

واستمر الضابط الشاب الذي اتخذ من هذه الامور مسالة روتين في اعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام ، بلهجة هادئة ، وسرعان ما انطلقت الاسراب الاضافية الثلاثة الى ميدان المعركة مرة اخرى ، وشعرت بقلق القائد الذي كان يصطنع الهدوء في وقفته وراء مقعد مساعده ، وكنت حتى هذه الاثناء اشهد التطورات صامتا ، فسألته : « هل تملك قوات اخرى احتياطية ؟ » فاجابني نائب المارشال : « كلا ··· لم يبق لدينا في الاحتياطي أي شيء · » وقد كتب في تقريره فيما بعد انني ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس ، وربما اكون حقا قد قطبت جبيني ، وعبس وجهي ، اذ ماذا يكون الامر لو فاجأت اربعون طائرة جديدة او خمسون اسرابنا وهي على الارض تتزود بالوقود لتعود الى التحليق من جديد · ان الميزان حينذاك كان في كفة القدر ، وكانت قدراتنا محدودة ، والاخطار التي تتعرض لها جد كبيرة ··· ومرت خمس دقائق اخرى ، واغلب طائراتنا المحاربة تعود الى الارض لتتزود بالوقود ، ولم يكن في وسع مواردنا الحالية ان تضمن لها الحماية الجوية الكافية ، وعرفنا ان طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث أتت ، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الالمانية نحو الشرق ولم يبد اثر لاي هجوم جديد ، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدانا نرتقي السلم

نحو سطح الارض ، وحينما وصلنا كانت صفارات الامان تدوي في الاسماع منبئة بانتهاء الغارة ·

وقال بارك : « اسعدنا يا سيدي ، انك رأيت المعركة ، للحقيقة لقد كنا في الدقائق العشرين الاخيرة نكاد نختنق من المعلومات التي عجزنا امامها ، ولعلك يا سيدي شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية ، وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع · »

وسألته عما اذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل اليه ، وذكرت ان الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة ، فأجاب بارك بأنه غير راض وان طائراته لم تستطع ان تسقط العدد الذي كان يتوقعه، وكان من المستبعد ان يكون العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية في كل مكان تقريبا ، وقد سرت الانباء بان عشرات من القذائف الالمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل الى لندن ، ولكن الصورة الصادقة عن النتائج لم تتضح تماما ، كما لم تصل الينا أية أرقام نهائية عن الخسائر او الاضرار ·

وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة والنصف من بعد الظهر ، عندما رجعت الى تشيكرز ، فمضيت بعد ذلك الى فيلولني ، ويبدو ان المسرحية التي عاينتها في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد انهكت قواي حتى انني لم أصبح من نومي الا في الثامنة مساء ، وحينما دققت الجرس حضر لي جون مارتن رئيس امناء سري ومعه موجز اخبار المساء من جميع انحاء العالم ·· كانت اخباره تدعو الى القلق ، فقد سار هذا الامر سيرا خاطئا هنا ، وتأخر ذاك هناك ، والرد غير مقنع عن اخره ، او ان الاطلنطي قد ابتبع قطعة من قطعنا البحرية ، ومضى جون مارتن يقول : « اننا قد حققنا في الجو ما نهدف اليه ، فقد اسقطنا مائة وثلاثا وثمانين طائرة عدوة مقابل خسارتنا التي لم تبلغ الاربعين ·

***

وبالرغم من ان المعلومات التي بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير الى ان خسائره في هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة ، الا ان الخامس عشر من أيلول كان قمة معركة بريطانيا حقا ، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة في تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانيء العدو من بولون الى انتويرب ، وقد انزلت بالميناء الاخير خسائر بالغة ، وها نحن نعلم الان ان الفوهرر قد قرر في السابع عشر من أيلول تأجيل عملية « اسد البحر » الى

أجل غير مسمى ، وتم أخيرا في الثاني عشر من تشرين الاول تأجيل هذا الغزو نهائيا الى الربيع التالي ٠

وقرر هتلر في تموز عام ١٩٤١ تأجيل الغزو مرة اخرى حتى ربيع عام ١٩٤٢ عندما تكون الاغارة على روسيا قد انتهت ٠٠٠ وكان هذا الحلم ضروريا مع كل ما فيه من عبث واستحالة ٠ وفي الثالث عشر من شباط عام ١٩٤٢ اجتمع الاميرال رايدر بهتلر للمرة الاخيرة للبحث في عملية « اسد البحر » واضطره ان يقرر العدول عنها نهائيا ، ومن ذلك يتضح ان الخامس عشر من أيلول عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة ٠ ولا شك في اننا كنا متهاونين في تقدير خسائر العدو ، وفي الحقيقة كنا نسقط طائرتين او ثلاثا للعدو مقابل طائرة واحدة تهوى من طائراتنا ، وفي هذا ما يكفينا ٠ وقد استطاعت قواتنا الجوية ان تحقق النصر ، بدلا من ان يحيق بها الدمار على يد العدو ٠ وكان هناك عدد من الطيارين الجدد لا ينقطع ، وبالرغم من الاصابات التي لحقت بمصانع طائراتنا ـ وهي العامل الفعال في قدرتنا على شن حرب طويلة الاجل ، الا مجرد امدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب ، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائيا ، وبقي عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التي تتوهج من حولهم ، فكانوا اشبه ما يكونون بالمدافع التي تواصل عملها دون انقطاع ٠ وكان هوبرت موريسون في وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد ، كل في حدود عمله ، وكان يحفزهم بكلمة : « هيا ، الى العمل » فلا يمتنع احد عن الاسراع بتلبية ندائه ، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل ، ببذل كل عون مستطاع الى معركة الدفاع الجوي ، لكن اشتراكها الرئيسي كان متاخرا ، اما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب وبدون ان يتاثر اخلاصها ; اما قيادة الطائرات المقاتلة التي تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد ، وقد اقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل اشهرا عديدة امام الاجهاد المستمر ، حقا لقد ادى كل فريق واجبه أحسن الاداء ٠

واستمرت ارواح طيارينا وشجاعتهم ، وهم يخوضون غمار المعركة في منتهى القوة والروعة ، وهكذا أنقذت بريطانيا ، واصبح علي ان اقف في مجلس العموم واقول : « لم يسبق قط في تاريخ الصراع الانساني ان احس مثل هذا العدد الضخم من الناس ما في اعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعا اليوم نحو طيارينا » ٠

الفصل التاسع

الحرب الخاطفة

لا شك في ان الاراء التي تروى عن الهجوم الجوي الالماني على بريطانيا هي اراء متناقضة ذات اهداف متباينة ، وخطط مبتورة ، ففي خلال هـــذه الاشهر كلها ، كان يقلق راحتنا ، ليتخذ اسلوبا جديدا ، ولكن هذه المراحل جميعها متداخـلة وليس في المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محـددة ٠ فالمرحلة الواحدة منها تسلم الى المرحلة الثانية وتتداخل فيهـا ، وكانـت العمليات الاولى تهدف الى الالتحام مع قواتنا الجوية في معارك فوق المانش والساحل الجنوبي ثم تحول القتال الى سماء المقاطعات الجنوبية وخصوصا في كنت وساسكس حيث اراد العدوان يحطم جهاز قوتنا الجوية ، ثم اخـذ يتجه نحو لندن قليلا قليلا حتى اصبح اخيرا يحلق في قلب سمائها حيث اضحت المدينة هدفه الرئيسي ، واخيرا عندما احرزت لندن النصر ، انتقل القتال الى سماء المدن في الاقاليم والى شريان الحياة البريطاني خلال الاطلنطي عـن طريق ميرس وكلايد ٠

وقد شهدنا الهجمات الالمانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبي في الاسبوع الاخير من شهر اب ٠ والاسبوع الاول من شهر أيلول ، وفي السابع منه تسلم غورنغ قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية ، ونقل مكـان المعركة من مطارات « كنت وساسكس » الى عمارات لندن وأبنيتها ، امـا الغارات النهارية فلم تنقطع وان كانت ثانوية ، حدث هذا باستثناء غـارة نهارية ضخمة اخرى ، لكن الطابع العام للهجوم الالماني قد تغير تماما ، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع مما جعل

أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية ، ولم يكن في مقدور أي انسان ان يتنبأ بالنتائج ، ولم يسبق قط ان تعرضت هذه البلدان لمثل هـذا القصف الجوي الراعد ، كما لم يسبق ابـدا ان واجـه العدد الضخم مـن الاسراب والمشكلات والمصاعب التي احدثها هذا القصف الرهيب ونكباته ٠

وقد قمنا بغارة على برلين ردا على هذه الغارات المتواصلة على لندن في نهاية شهر اب ، بالرغم من المسافات الشاسعة التي كان على طائراتنا ان تجتازها ، ولم تكن مثل هذه الغارة شيئا مذكورا بالنسبة للغارات الالمانيـة المركزة على لندن والمطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية ٠ ولكـن وزارة الحرب رات نفسها في وضع يحتم عليها الثار رفعا للروح المعنوية ، وتاكيدا لتحدينا للعدو ، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأي وجدواه ، اذ اني اعلـم ان هتلر يثير اضطرابه صمود بريطانيا واظهار قوتها ، وان كان هتلر فـي اعماق نفسه يعجب بشعبنا ، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنـا الثارية على برلين فاعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة في تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية الى اطلال ورسوم حين صرح في الرابع من أيلول قائلا : « ان هجومهم على مدننا سيدفعنا الى ازالة مدنهم من الوجود ٠ »

وقد بذل هتلر اقصى ما يستطيع من جهد ٠

واسهم في الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ أيلول و ٣ تشرين الاول أكثر من مائتي طائرة في كل غارة ، وكانت الهجمات التمهيدية العديدة التي نزلت بمدننا الاقليمية في الاسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينـا ان نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصور فعلية ، وعندما اصبحت لندن الهدف الرئيسي للمرة الاولى لم تكن تحتوي على اكثر من اثنين وتسعين مدفعـا ، ورأينا أن الاجدى ترك الجو حرا لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة ، وكان من بين تلك الطائرات ستة اسراب من طراز « بلنهايم » وطراز « دينايانت » وكان الاشتباك الليلي ما يزال في بدايته ولذلك فان خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة ٠٠٠

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل في الليالي الثـلاث الاولى ، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التي تستخدمها المدافع المضادة ، فقد اضطرنا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ومدى ما نواجهه من مشاكل في حاجة الى الحل ، اضطرنا كل اولئك الى ان نعطي لرجال هذه المدفعية الحريـة التامة في اطلاق نيرانهم على اهداف غير واضحة متخذين أي أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته ٠٠٠ وبعد ثمان واربعين ساعة ، تمكن الجنرال بايـل ،

المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها في العاصمة بجلب عدد من مدن الاقاليم ، وهكذا اخليت السماء من طائراتنا المقاتلة ، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع · ومكث أهل لندن ، ثلاث ليال متعاقبة ، ملازمين مساكنهم او معسكراتهم غير المعدة ، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة العاشر من ايلول حين انطلقت مدافعنا المضادة فجاة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة ، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو اضرارا جسيمة الا انها اعلت الروح المعنوية بين ابناء العاصمة ، وتمشت الحماسة في صدر كل انسان لمجرد الاحساس باننا نرد الصاع صاعين ، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع اطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة ، ومهد التمرين والاختراع والحاح الحاجة الى زيادة التصويب دقة ، واخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد اخرى ، وكانت المدفعية تلوذ بالصمت احيانا حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة ، بعد ان تحسنت اساليبها ، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة الى الحد الذي كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة احيانا ، وطالما اطلقت صفارات الانذار ، ودوى صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم باكمله ، ولكن اهل لندن الذين يبلغون في ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الاحوال الشاذة ·

***

ولتنوير القراء ورغبة مني في الترفيه قليلا عنهم ، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم ، اورد هنا بعض ملاحظاتي الشخصية عن غارات لندن ، متيقنا ان لدى الالاف من ابناء العاصمة كثيرا من الحكايات التي تفوق في اثارتها هذه الملاحظات ·

فعندما اخذت طائرات العدو في قصف جو العاصمة كنا نرى ان نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث ، فاستمر كل انسان في حي « الوست اند » يعمل ويلهو ، ينام وياكل كما تعود ، دون ان يغير شيئا من مجرى حياته العادية ، فالمسرح مزدحم بالمشاهدين والشوارع المظلمة تموج بالمارة ، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب الذي بدا في العناصر الانهزامية في باريس ، عندما تعرضت المدينة لاول هجوم جوي في شهر ايار · واذكر اني كنت على مائدة العشاء ذات ليلة مع صحبة خيرة ، عندما حدثت غارات

مستمرة قوية ، وكانت نوافذ قصر « ستورانواي » ـ حيث كنا نجلس ـ تطل على ـ جرين بارك ـ الذي انارته اضواء المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة ، وهيء لي اننا كنا نغامر بأرواحنا ، دون ما ضرورة او مبرر ٠ وبعد ان تناولنا العشاء انتقلنا الى عمارة شركة الصناعات الكيمائية الامبراطورية وهي تطل على الجسر ، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ورأينا على الاقل عشر حرائق تشتعل في الجانب الجنوبي ، وبينما كنا نقف تساقط عدد من القنابل الثقيلة ، انفجرت احداها بالقرب مني فدفعني صديق الى وراء عمود حجري راسخ القواعد ، واكدت لي هذه الحادثة الفكرة التي خطرت ببالي وهي ان نكيف حياتنا مع الوضع الجديد ، وان نفرض على متع حياتنا كثيرا من القيود ٠

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الابنية الحكومية المحيطة بالبيت الابيض ، على ان دور الحكومة في « داوننج ستريت » قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عاما المتعهد الاستغلالي الذي ما زال اسه محفورا على أسس ضعيفة واهنة ، وخلال أزمة ميونيخ اقيمت المخابيء لسكان رقمي (١٠ و١١) من هذا الشارع ، كما دعمت الاسقف بأعمدة جديدة قوية ، وانشئت سقوف اخرى داخلية ، وكان الظن ان هذه الاسقف الجديدة تستطيع ان تصمد فيما اذا نسفت الابنية أو انهارت ، لكنها لا تحتمل على اية حال الاصابة المباشرة ، وقد تم في الاسبوعين الاخيرين من أيلول نقل مقر رئاسة الوزارة الى مكاتب جديدة اكثر تحملا وصلابة ، مطلة على ميدان « سانت جيمس » وكنا ندعو هذه الابنية باسم (الملحق) وقد ظللت مع زوجتي خلال الايام الباقية من الحرب في هذا البناء ، ننعم بالهدوء والراحة ، وكنا نوقن ان هذه الابنية القوية المشيدة من الاسمنت في وسعها ان تصد الحديد والفولاذ وعلقت زوجتي عددا من صورنا في غرفة الاستقبال التي كنت اقترح عليها ان تظل بلا صور ، ولكنها نفذت فكرتها ، وتغلبت علي بالطبع ، وساعدتها الاحداث ، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح (الملحق) على مقربة من القبة في الليالي الساجية ، وقد هيأوا لي مكانا على السطح ، فوقه سقف متين ، كي اتمكن في ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية ، وتحت هذا المكان اقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الاثاث الصالح للنوم ، وحيث لا تجد القنابل اليها منفذا ٠ وكانت القنابل في تلك الايام أصغر بالطبع من القنابل التي طالعتنا في المراحل الاخرى من الحرب ، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا في داوندج ستريت في الفترة التي سبقت بناء هذا المسكن

الجديد مثيرة للغاية ، اذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به الى مركز قيادة احدى الفرق في ميدان القتال ٠

ولست أنسى مساء يوم السابع عشر من تشرين الاول حيث كنا نتناول عشاءنا في غرفة الحديقة في داوننج ستريت رقم ١٠ عندما انطلقت الغـارة الليلية المالوفة ، وكان يشاركني العشاء ارشي سنكلير واوليفر ليتلتون ٠ وكانت النوافذ الفولاذية مغلقة ، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقـرب منا ، وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان ، وهو لا يبعد عنا باكثر من مائة ياردة ، وكان دويها هائلا ، وعلى حين غرة شعرت بهـاتف سماوي ٠٠٠ ينبهني الى الخطر الماثل ٠ فالمطبخ عال ومكشوف وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين مترا ، والساقي والفتاة يقدمان لنـا العشاء دون تاثر بدوي الانفجارات ، وخلف النافذة توجد السيدة لانذميـر الطباخة وسائر الخدم ان يسرعوا الى المخبأ ، ثم عدت الى مكاني بالمـائدة ، وأمرت الساقي ان يحمل العشاء الى غرفة المائدة مباشرة ، وطلبت الـى الطباخة وسائر الخدم ان يسرعوا الى المخبأ ، ثم عدت الى مكاني بالمائـدة ، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوي هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد ان البيت نفسه قد أصيب وجاء مفتش المباحث الملحـق بخدمتي ليخبرني بفداحة الخسائر ، فقد اصيب المطبخ ، ومخزن التمويـن ومكاتب القسم المالي ٠٠٠

وذهنا الى المطبخ لنشاهد ما جرى ، فلم نر الا انقاضا ! فقد سقطـت القنبلة على بعد خمسين ياردة على القسم المالي ، فدمرت كل ما في المطبخ ، وتحول الى انقاض ، وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياهـا في كل جوانب المطبخ ، ولو ظل به أحد الى ان حدث الانفجار لغدا اشـلاء مبعثرة ، ولا شك في ان الهاتف السعيد الذي خطر لي جاء في وقته المناسب ٠ اما مخبأ القسم المالي في الساحة فقد اصابته قذيفة مباشرة فتناثرت اجزاؤه ، واستشهد تحت انقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلا بأعمال الحراسة ، وعلى أية حال فلم يكن في مقدورنا ان نحدد عدد المفقودين ، فقد دفن الجميع تحت ركام الانقاض ٠٠ ولما كانت الغارة متواصلة ، فقد لبسنا خوذنا وارتقينا الدرج الى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملا ، وقبل ذهابي لم أستطع مقاومة الرغبة في ان اغري الطباخة والخدم بالتوجه الى المطبخ ، وبالطبع اصيبـوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال الى ركام ٠ وصحبت ارشي الى سطـح الملحق ، وكان المساء ساكنا والجو صافيا ، وكانت لندن بكاملها تجاهنـا ،

ورايت معظم حي (بال مال) تاتي عليه النيران ، وعلى اية حال كانت ثمة خمس حرائق مضطرمة في الجانب المقابل من المدينة على طول النهر ، لكـن (بال مال) كان طعمة للنيران ··· ثم اخذت الغارة تنزاح غمتها شيئـا فشيئا الى أن دويت صفارة الامان ، وان ظلت الحرائق مشبوبة في المدينة ·· ونزلت الى مسكني الجديد في الطابق الاول من الملحق فوجدت الضابط دايفيد فارجسون ، رئيس مراقبي مجلس العموم ، والذي يقطن في نادي كارلتون ، وقد اخبرنا ان دار النادي قد تهدمت ، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجـرد ان شاهدنا اندلاع النيران ، وكان فارجسون في النادي عندما دوى الانفجار ، وحوالي مائتين وخمسين من الاعضاء والموظفين ، وقد احدث الانفجـار قذيفة ضخمة مباشرة ، اطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع (بال مال) · وكان الاعضاء يزدحمون في قاعة التدخين ، فتهاوى السقف عليهم ، وعندما شاهدت الانقاض في اليوم التالي اخذتني الدهشة لان احدا من كانوا في القاعة لم يقتل ، وانما نجا الجميع رغم الانقاض والدخان وكانما حدثت معجـزة ، ولئن اصيب بعضهم بجروح الا انهم نجوا من الموت جميعا · وعندما سعيت بالحقائق مفصلة الى مجلس العموم ، قال زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين : « ان الشيطان لا يمس انصاره بسوء » · وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده ، وهو وزير مالية سابق ، انتشله من بين الركام ، كما حمـل اينياس والده انخيزاس في حرب طروادة · ولم يجد فارجسون مسكنا يأوي اليه في تلك الليلة ، فاعددنا له سريرا في الطابق الارضي من الملحق ، لقـد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفزع ، وكان من الغريب حقا بالنظر الى اصابات المباني الا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن الفين او ثلاثة الاف ·

ومضيت للمرة الثانية الى زيارة رامسغيت ، وشن علينا الهجوم فمضوا بي الى النفق الكبير الذي يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمـرة ، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريبا ، بدأنا نتأمل الخرائب التي ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها ، وقد تهدم فندق صغير دون ان يصـاب احد من نزلائه بأذى على الرغم من تحوله الى تل من الركام والحجارة تتناثر خلالها قطع الاثاث المحطم ، وأدوات المطبخ ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم ، وهم يولولون حول فجيعتهم في مصدر رزقهم ومأوى حياتهم ··· وعندئذ قررت بكل مالي من نفوذ وأمكانيات ان أصدر أمـرا بالتعويض الفوري الكامل ، وعندما عدت بالقطار املیت على وزير الماليـة

كنغزلي وود الرسالة التي توضح هذا المبدأ الهام وهو ان كافة الخسائر التي تحدثها الغارات يجب ان تكون على مسؤولية الدولة ، وان الحكومة تلتـــزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذي يصابون في بيوتهم او أعمالهم ، بل على كاهل الشعب كله تحقيقا للعدالة فقد اثار هذا القرار فزع كنغزلي وود بما ينطوي عليه من التزام لا نهائي . ولكنني اكدت له ضرورة القيام بهـــذا الاجراء ، ولم يمض اسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهـزت مشروع التأمين الذي قدر له ان يقوم بدور فعال في حياتنا ٠٠ وقد واجهـت وزارة الخزينة مشاعر مضطربة ومقاومة ازاء هذا المشروع ، فقد ظنت في باديء الامر انه سيستنزف الخزينة حتى الافلاس ، ولكن بعد أيار عام ١٩٤١ ، حيث توقفت الغارات الجوية اكثر من ثلاث سنين ، اخذت المكاسب تنهال على خزينة الوزارة بفضل هذا المشروع الذي اعتبرته أنا في حينه عملا من أعمال التوفير والبراعة السياسية ، وفي أواخر مراحل الحرب عندما اخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة صعدت الارقام ثانية الى جانب الخســـارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانماية وتسعين مليونا من الجنيهات في شؤون التعويض وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث ٠

***

وأصبح من المحتم في هذه الفترة الجديدة من الحرب ، ان نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل ، ليس في المصانع فقط بل في الدوائر الحكومية بلنـدن كذلك ، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوي مستمر ليل نهار ، فكان الموظفون في البداية عندما تدوي صفارات الانذار يسرعون الى الطوابق الارضية حيـث تستخدم كملاجيء للوقاية ، وكان يُثير زهونا ان تتم هذه العملية في هـدوء ونجاح ، وفي احوال كثيرة لم تكن الغارة تعني اكثر من هجوم من بضـــع طائرات او حتى طائرة واحدة ، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصــل الى العاصمة ، وهكذا يتوقف العمل في جميع المصالح الحكومية الادارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة ٠ لذلك فقد فكرت في ان يستخدم الانذار علـــى مرحلتين ٠ مرحلة التنبيه المبدئي ومرحلة الخطر الفعلي الذي لا تنطلق صفاراته الا حين يحل الخطر ويصبح في حالة مداهمة فعلية ، فقبل اقتراحي ونسقت الخطة على أساسه ٠

وكان البرلمان أيضا في أشد الحاجة الى الارشاد بالنظر الى مواصلـة عمله في تلك الايام المليئة بالخطر ، وكان اعضاء المجلس يوقنون بان واجبهم

يحتم عليهم ان يكونوا مثلا للشعب ، ولا شك في ان الحق كان بجانبهم في هذا اليقين ، ولكن كان علي ان أوجه انتباههم الى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظرا الى الاخطار المحدقة ، واستطعت اقناعهم في جلسة سرية بوجوب اتخاذ الاجراءات الوقائية الضرورية ، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات ، وايقاف النقاش حين تدوي صفارات الانذار ، وصاروا يخفون بنظام الى المخابيء المفعمة والتي لم تكن معدة كما يجب ٠

ولا شك في ان مواصلة البرلمان البريطاني اداء مهمته وتصريف الشؤون في تلك الاونة يعتبر صفحة مشرقة في تاريخه وذيوع شهرته ، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم في هذه الظروف ، فكان من اليسير على أي انسان ان لا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم ، فعندما تنزل الاضرار بأحدى القاعات كانوا ينتقلون الى قاعة اخرى ، وكنت أواجه صعوبات جمع في اقناعهم بضرورة الاخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب في هذه الفترة قد نهجوا نهجا ينم عن التعقل ووزن الامور والحرص على الكرامة ٠ ومن حسن الطالع ان الانفجار الذي حدث بعد عدة شهور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ ، حدث ليلا حينما كانت القاعة خالية من أي انسان ٠

ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية احساسا بالراحة والهدوء النفسي ، أما في خلال الشهور الاولى فقد سيطر علي الشعور بالقلق الذي يتملع بحقوق السيادة ، والذي انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهي الاقتراع العام ، وفي يده دائما القدرة على اسقاط الحكومة ، ولكنه الان في أقسى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها ٠٠ وهكذا كتب النصر لبرلماننا ٠

واني لا أعتقد ان أي دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية في بلاده مثل تلك التي خولت لوزارة الحربية البريطانية ، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تاييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة افق وحرية ، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وان ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على اي شيء اخر ٠ واذا تحدانا النقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم بأغلبية ساحقة ، واذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا ان برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد او كبت او ايحاء او استعمال للشرطة وأجهزة الامن السرية ، ولا شك في ان هذا كان يثير زهونا واعتزازنا ، ويؤكد لنا ان الديمقراطية البرلمانية او على الاصح ما يحق ان نسميه السلوك البريطاني في الحياة العامة قد استطاع

الصعود والانتصار والبقاء بالرغم من كل المحن القاسية ، ولم يستطع التهديد بالابادة وافناء اعضاء برلماننا ان يرهب احدا ، وكان من حسن الحظ ان هذا التهديد لم ينفذ ولم تحدث الابادة ٠

***

وحل منتصف شهر أيلول ، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا ، فقد بدأت الطائرات تلقي بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة ، وكثيرا ما سارت في وجوهنا مسافات شاسعة من السلك الحديدية ، فنخترق الطرقات الهامة ، والسبل الموصلة للمصانع الحيوية والمطارات والمؤسسات ، وحظر علينـــا دخولها في أوقات احتياجنا إليها ، اذ فرض علينا اولا ان نتعقب هذه القنابل لنفجرها او نتلفها ، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة في بداية الامر ، عندما اضطررنا الى ان نتعلم الوسائل والاساليب بواسطة عمليات من التجـــارب الموضحـــــة ٠

وقد تكلمت سابقا عن حكاية الالغام الممغنطة ، اما هذه القذائف المتفجرة من تلقائها فقد أصبحت منتشرة ، وصارت مشكلة تحتاج الى التفكير ، وقد وجهت اهتمامي الى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الالمـــان لاول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات فـــي زحفنا على المانيا ، وكنت قد اقترحت ان نستخدمها في النروج وقناة كيـــل ومنطقة الراين ، ولا شك في ان هذا السلاح من اكثر اسلحة الحرب فعاليـــة بالنسبة الى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتياب ٠ وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح ، فانشانا هيئة خاصة للتصرف في شانه ، وعهدنا الى مجموعات خاصة شكلت في كل مدينة وبلدة ومقاطعة لتتبعه ، وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل ، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للاخرى سوء المصير ٠ وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح ، والعيش الى نهاية الحرب ، بينمـــا نجا البعض الاخر من التجربة العاشرة او العشرين او الثلاثين او الاربعين قبل ان يلقوا حتفهم ، وكنت حين اشاهد أعضاء هذه الفرق اينما ذهبت في رحلاتي وتجولاتي ، أرى وجوههم مغايرة تماما لكل الوجوه التي أعرفها او رايتها ، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر ، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب ، ومعالم الاجهاد ، وسماته الضخمة والجهـــد ،

فضلا عن بريق العيون وزرقة الوجوه وجفاف الشفاه ، فاذا ما تذكرنا الايام المضنية التي عشناها ، فيجب ان لا نستعمل كثيرا كلمة (أوقات كئيبة) اذ تكاد الكآبة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم ٠

وواجب علي ان أسرد هنا ما حدث لاحدى هذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات ، كانت هذه المجموعة تضم اللورد سافولك وسكرتيرته وسائقه العجوز ، وكانوا يسمون أنفسهم « الثالوث المقدس » وقد شاعت أخبار جرأتهم ، وذاع الكثير عن شجاعتهم ، وقد استطاعوا ان يتخلصوا من اربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر ، بروح طيبة مرحة ، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثارت لزملائها ، فانفجر معها اللورد وثالوثه المقدس ولكن الايمان يملأ نفوسنا بأن ارواحهم عرفت مستودعها الامين في دار الخلود ٠٠٠

وقد توصلنا بفضل كل فرد في هذه المجموعات ، وبالتضحيات النبيلة التي بذلوها الى ان نتحكم في هذا الخطر الجديد ٠

***

من الشاق علينا ان نعقد مقارنة بين الاختبار القاسي الذي مر به سكان لندن في شتاء عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ ، وبين الاختبارات التي عاناها الالمان في سنوات الحرب الثلاث الاخيرة ، فقد غدت القنابل أشد هولا والغارات أكثر قسوة ، ولكن من ناحية ثانية ـ كان الاعداد الطويل ، وما اشتهر عن الالمان من دقة قد ساعدهم على انشاء وحدات كاملة من الملاجيء المحصنة ضد القنابل ، وكان يفرض على كل الماني الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادي رتيب ، وعندما اجتزنا المانيا في النهاية شاهدنا انها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالا ، ولكننا شاهدنا أيضا عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الارض وملاجيء حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه على سطح الارض ، اما في لندن ، فعلى الرغم من ان الغارات كانت أقل قسوة ، الا ان وسائل التامين والوقاية كانت ابطأ تطورا فاذا استثنينا الاقبية لم نجد عندنا اماكن للوقاية والتامين ٠ حقا لقد كان ثمة طوائف أرضية ، وطوابق تحت الارض تستطيع ان تجابه الضربات المباشرة ، ولكن عددها كان قليلا لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل في الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو ، مستمتعين بما اشتهر عن الانكليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمل

المثمر الجاد ، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية الا من شظايا القذائف لكن الانهيار النفسي لم يكن شيئا بجانب الاحتمال البدني ، وحقيقة لو كانـــت قذائف عام ١٩٤٣ قد اسقطت على لندن في عام ١٩٤٠ لانتهينا الى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشري ، ولكن لكل شيء وقته المعين ، ونسبه المحدودة ، ولا يملك انسان القول بان لندن التي لم تجرب الخضوع قط ، كانت محصنة ضد الاستسلام ٠

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب او في الفترة السلبية الاولـــى التي مرت في مطلعها ، اية اماكن محصنة ضد القنابل ، تستطيع هيئتها المركزية ان تلجأ اليها لمواصلة الاعمال ، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن ، وفعلا انتقلت فروع باكملها من جميع الوزارات والدوائر الى هاروغيت وشبلتيفهام وغيرها ، واستولت السلطات على المساكن الكافية في مناطـــق شاسعة لسكنى جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن ، أما في هذه الاونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومـــة والبرلمان ورغبتها الاكيدة على البقاء في لندن دون مناقشة ، وكنت اشاركهما نفس هذه المشاعر ، وكنت مثل غيري يخيل لي ان الدمار سيكون عاما ، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الاعمال أمرا محتما ، ولكن بالنسبة الى ما حـــدث بالفعل ، فقد امتلأ بعكس هذا الاحساس ، وظللنا في تلـــك الاشهر نعقـــد اجتماعاتنا الوزارية ليلا في غرفة الحرب في الطابق الاسفل ٠ ولم اكن اتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر الى العمليـــة الجراحية التي اجريت له ، ولكن لم يستطع أي شيء ان يقعد به عن هذه الاجتماعات التي كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الاكيد ، والتي كانت اخر ما شهده من اجتماعات ٠

ونظرت ذات مساء في أواخر شهر ايلول عام ١٩٤٠ من باب داوننـــغ ستريت الذي يطل على الطريق ، فشاهدت العمال يقومون بوضع اكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنـــا ، وسالتهم عما يقومون به ، فقيل لي ان المستر نفيل تشمبرلين في أمس الحاجة الى العلاج من حين لاخر بعد العملية التي اجريت له ، وكان من غير الميسور ان يقوم بهذا العلاج في ملجأ داوننغ ستريت رقم ١١ لان عشرين شخصا على الاقل يتجمعون فيه اثناء قيام الغارات ، ولذلك فقد رؤي تهيئة ملجأ صغيـــر خاص به وظل حريصا على عاداته اليومية ، لابسا خير ثيابه ، باديا غاية في الاناقة وانسجام الهندام ٠ وكان هذا كله اكثر مما في طوقه ، ولذلك قررت

ان استخدم سلطاتي فذهبت الى الطريق الممتد بين رقمي ١٠ و١١ وحيـــن رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها : « ينبغي الا يوجد هنا في هذه الظروف ، ويجب ان تبتعدي به حتى تعاوده الصحة وسأرسل اليه يوميا بالانباء » · وذهبت السيدة للقاء زوجها ، وبعد ساعة ارسلت لي تقول « لقـد ابـــدى استعداده لتنفيذ مشيئتك ·· سنرحل الليلة · » ولم التق به ثانية ، ولكنني على يقين انه كان يرغب في الموت اثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غيـر ذلــك ·

***

ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة ، فقد اظهر المستر هربرت موريسون نشاطا ملموسا كوزير للتموين ، كما قابل السير جون اندرسن الهجمات على لندن بادارة في منتهى الصمود والكفاية ، وتبين لي في مطلع تشرين الاول ان الهجوم المتواصل على أعظم مدن العالم كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية لدى اهل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف ، مما يفرض علينا ان نعهد الى برلماني حازم صاحب خبرة وتجربة في شؤون وزارة الداخلية التي أصبحت في تلك الاونة وزارة الامن الداخلي كذلك ، فلندن هي التي تعاني قسوة الغارات ، وهربرت موريسون واحد من أهلها ، وهو ملم بكل جانب من جوانب ادارتها ، وكانت له خبرة لا تبارى في حكم مدينة لندن · اذ كان رئيسا فيما سبق لمجلس مقاطعتها ، وكان الشخصية البارزة في كافة امورها وكنت في ذات الوقت في احتياج للسير جون اندرسن ليمثل الحكومة في مجلس الملك الخاص ، ليقوم كما يملي عليه منصبه الجديد بالاشراف على الكثير من الامور الداخلية في مجال أوسع باعتباره رئيسا للجنة الشؤون الداخلية التي يعهد اليها بالكثير من المشاكل تخفيفا لاعباء مجلس الوزراء · وأتاحت لي هذه التغيرات التي خففت العبء عن كاهلي ان أحشد اهتمامي لتصريف شؤون الحرب ، التـي تبين لي ان زملائي يميلون الى توسيع مسؤولياتي بشانها وزيادة اختصاصاتي ولذلك فقد رغبت الى هذين الوزيرين اللامعين ان يحل كل منهما محل الاخر ، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقا مفروشا بالورود وليس في مقدور هذه الصفحات بحال ما ان توضح المصاعب الجمة في ادارة لندن وحكومتها في ذلك الوقت الذي كان يضحي فيه عشرة الاف مواطن او عشرون الفا كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوي المستمر ، عندما كان حذر السكان وحرصهم

وحده بمثابة حرس اولي يقاوم حدوث الحرائق على أسطح المنازل التي قد يتعذر القضاء عليها ، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهي القنابل من الرجال والنساء ، وعندما ظل مئات الالاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة في هذه الخنادق التي تحتاج الى الامان والوسائل الصحية ، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار ، وعندما كانت المجاري والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميرا ، وعندما يجب ان تظل ــ بصرف النظر عن ذلك ــ روح لندن المناضلة صامدة عالية . وان يتيسر نقل حوالي مليون مواطن في كل يوم ليلا ونهارا من مساكنهم الى المصانع وبالعكس ، كان يجب علينا كل هذا ، ولم يكن في مقدورنا ان نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهي ، ولم يكن لدينا ما يشير الى انها لن تستمر او لن تزداد سوءا • وعندما حدثت المستر موريسون عن رغبتي بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيدا ما ينطوي عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل ، فاستمهلني بضع ساعات ليفكر ، ولم يلبث ان جاءني قائلا انه سيكون فخورا بالقيام بكل هذه المهمات ، وهزني اعجابا به هذا القرار الذي يدل على كل صفات الرجولة •

وبعد ان تمت هذه التعديلات الوزارية ادى تغيير العدو لوسائله الى ان تتأثر سياستنا العامة ، فقد كانت الغارات حتى الان تستخدم القنابل الشديدة الانفجار ، لكن في ليلة ١٥ تشرين الاول وكان القمر بدرا ، نزلت بنا اقسى غارات جوية في ذلك الشهر ، واسقطت الطائرات الالمانية فضلا عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالي سبعين الف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الاثناء نبث الشجاعة في سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء للخنادق وقت حدوث الهجوم ، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم • ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا ان نطلب اليهم الصعود الى سطوح المساكن بدلا من اللجوء الى الخنادق اثناء الهجوم • وكان على وزير الداخلية الجديد ان ينفذ هذه السياسة ، فاعد على الفور تشكيلا هائلا لمراقبي الحرائق ، ومقاومتها على مدى واسع يكفي مدينة لندن بكاملها ، فضلا عن اجراءات اخرى اتخذت من المدن الاقليمية في اقصر مدة ممكنة • وكانت مراقبة الحرائق عملا اختياريا في اول الامر ، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الافراد والاحساس بحتمية قيام كل انسان بواجبه في مثل هذه المحنة القاسية ليشارك في الامها ، فرض علينا ان نلزم المواطنين بالمشاركة في اعمال المكافحة ، وقد ادى ذلك الى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع الوانهم ومستوياتهم • وصممت النساء على المساهمة بقدر حيوي في هذه الخدمة واتخذت التدبيرات على

نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة ، ولتعويد مراقبي الحرائق مكافحـــة كل أنواع القذائف المحرقة التي يسقطها الاعداء وقد تفوق الكثيرون في اداء هذه الخدمة حتى استطاعوا ان يخمدوا الوف الحرائق قبل شبوبها ، وسرعان ما صارت تجربة الصعود الى أسطح المنازل ليلة اثر اخرى تحت وطأة النيـران المشتعلة ودون ادنى اجراء وقائي اخر سوى الخوذة النحاسية أمرا مألوفا ٠

ورأى المستر موريسون ان يجمع الفرق المحلية للاطفاء التي يبلغ عددها حوالي الف واربعمائة فرقة في تشكيل قومي موحد لمقاومة الحرائق ، وان يزود هذا التنظيم بحرس شعبي كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل في أوقات فراغهم ، وكان حرس الحرائق أول الامر يتألف من المتطوعين أيضا ٠ ولكن ما لبث ان تقرر بالاجماع تحويله الى خدمة الزامية ، وقـــد استطعنا بواسطة الجهاز القومي لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الالي ، وأحدث الاجهزة وأدق التدريبات في اعمال رسمية تشرف عليها مجموعة مـــن العسكريين ٠ أما أسلحة الدفاع المدني الاخرى فقد كانت تضمن وجـــود مجموعات على استعداد للتوجيه الى أي مكان في خلال دقيقة واحدة ، وقد اكتفي باسم سلاح الدفاع المدني عن الاسم القديم الذي عرف قبل الحـــرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بمـــلابس عسكرية خاصة تبث الشعور في نفوسهم بأنهم يؤلفون السلاح الرابع من قوات التاج المسلحـــة ٠

وقد اغتبطت لان لندن قد صمدت امام الموجات المتتالية من الغـــارات الجوية على مدننا ٠ ان لندن تشبه فيما أرى حيوانا هائلا من حيوانات مـــا قبل التاريخ في وسعها ان تتحمل الاذى المخيف ، ثم تظل رغم جراحها النازفة عتبة الصمود تموج بالحياة والحركة ٠ وقد كثرت خنادق أندرسن في احياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين ٠ وقد بذلنا كل ما في وسعنـــا لتكون هذه الخنادق صالحة للاقامة والحياة ، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الامطار ٠

***

وللمرة الاولى منذ حوالي شهرين لم تدو في الجو صفارة الانذار ليلة الثالث من تشرين الثاني في لندن ، فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائـــد وبدأوا يتساءلون ما الخبر ؟ وفي الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية ، وظل هذا بصفة مستمرة الى بعض الوقت

واتضح ان الالمان قد جددوا وسائلهم الهجومية ، وبالرغم من ان لندن استمرت كهدف أساسي الا ان جهودا ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل في المراكز الصناعية البريطانية • وقد ارسل العدو اسرابا جديدة مدربة على ابتكارات جديدة في الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة في الجزيرة ، فمثلا تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الالمانية على تحطيم مصانع الات الطائرات « رولز رويس » في (« هلينجتون » قرب غلاسكو ، ولا شك في ان هذه الخطة الجديدة لم تكن تعني مجرد التغيير ، فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا الى حين ، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد ، كما لم يفكر فيه احد غير هتلر والمقربين اليه • وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الالماني على التكتيكات الجديدة في الهجوم الليلي والاغارة على التجارة البحرية في بريطانيا • أما الغاية من ذلك فهي تدمير انتاجنا العسكري • وكان أجدى للالمان لو ظلوا على هجومهم في ناحية واحدة حتى اخر الشوط فربما وصلوا الى نتيجة حاسمة ، ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم في ذلك الوقت لان ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة •

وبدأت هذه الوسائل الجديدة في الهجوم بغارة جوية عارمة على كوفنتري ليلة الرابع عشر من تشرين الثاني ، وقد اتضح لغورنغ ان مدينة لندن شاسعة الابعاد الى الدرجة التي لا تتيح له نتائج فاصلة ، بينما كان في مقدوره ان يزيل من الوجود مدن الاقاليم ومراكز انتاج الذخيرة ، وقد بدأ الهجوم في الساعات الاولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالي خمسمائة طائرة المانية اسقطت حوالي ستماية طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا الوف القنابل المحرقة • وكانت تلك الغارة أقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة ، فقد تحطم قلب كوفنتري ، واصيبت الحياة بالشلل التام في المدينة ، وقد قتل حوالي أربعمائة شخص كما اصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير • وأذاعت المانيا ان جميع مدننا ستلقى نفس المصير ، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات او قطع الماكينات الاخرى ، كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات • ولم يمر اسبوع حتى كانت لجنة تجديد الابنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة الى طبيعتها في المدينة •

وشن العدو ليلة ١٥ تشرين الثاني هجوما اخرا على لندن استخدم فيه عددا ضخما من الطائرات في ضوء القمر الساطع فاصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة في كنائسها ونصبها التذكارية ، وكانت بيرمنجهام هدف

العدو الثالث ، فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابعة بين ١٩ و٢٢ تشرين الثاني فاصيبت المدينة بخسائر فادحة في الارواح والممتلكات ، ووصل عـدد القتلى الى حوالي ثمانماية والجرحى اكثر من الفين ، ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة ، وارتفع الليون من اهلها بتنظيمهم ووعيهم وفهمهـم الى اعلى مما نزل بهم من الام • وتحولت وجهة الغارات في اخر اسبوع من الشهر نفسه ومطلع شهر كانـــون الاول الى الموانـــيء فتعرضت برستول وساوثها مبتون وليفربول لهجمات قاسية ، ومرت بلايموث وشفيلد ومانشستر وليدز وجلاسكو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعنينا ان يوجه العدو ضربته فان الشعب كله واجهها بايمان وصبر وعزيمة •

وبلغت الغارات ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينـة لندن يوم الاحد في ٢٩ كانون الاول ، فقد جمع الالمان فيها كل ما حصلوه من خبرات ، فكان الهجوم مفعما بالقذائف المحرقة التي ركزت قسوة نيرانها على حي « السيتي » • وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر ، فتهدمت سدود المياه في بداية الامر بسبب الغام شديدة الانفجار اسقطتها المظلات ، وكان الضرر الذي اصيبت به محطات السكة الحديديـة والارصفة فادحا ، وهدمت ثماني كنائس وشبت الحرائق في « غيلدهول » وفي كاتدرائية القديس بولس ، ولم تنج من الدمار الا بجهود خارقة تفوق حـد الوصف ، واخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطاني ، ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الاماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ اشد مما كانا يقابلان به في اية زيارات اخرى •

وظل الملك صامدا في غضون هذه الاشهر الطويلة من التجربة القاسية والتي لم تنته بعد في قصر باكنجهام ، وقد شيدنا خنادق ملائمة في الطابـق الاسفل من القصر ، ولكن اعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت ، وكثيرا ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر باكنغهام • وقد انقذ جلالتـه والملكة باعجوبة من الموت ذات مرة • ففي حديقة القصر انشيء ميدان خاص للرماية ، كان جلالته وغيره من افراد الاسرة المالكة ، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومي ، وقد قدمت للملك غدارة اميركية قصيرة المدى ، كانت واحدة من مجموعة وصلتني وكان سلاحـا قيمـا •

وبدل الملك في تلك الاثناء موعد لقائي الرسمي بجلالته من الساعـة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء كما جرت عادته في خلال الشهرين الاولين منذ

توليت الحكم ، الى ان اتناول الغذاء معه في نفس اليوم من كل اسبوع ٠ وكنت في هذه الزيارات التي قد تحضرها الملكة ، اعرض على جلالته شؤون الحكم ، وكثيرا ما اضطررنا الى حمل صحاف الطعام واقداح الشراب الى الخندق الذي كان لا يزال في حالة الاعداد فنستكمل طعامنا فيه ، واصبحت هذه الزيارات الاسبوعية عادة رتيبة ، وبعد مرور الاشهر الاولى ، امر جلالته ان يبعد الخدم جميعا من هذه الاجتماعات وان نمارس نحن خدمة انفسنا بانفسنا ، وقد تكشف لي خلال السنوات الاربع والنصف التالية من الحرب ان جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التي اقدمها اليه ، ويقرر العرف الدستوري البريطاني ان من حق الملك ان يطلع على كل شيء يقع تحت اختصاصات وزرائه ، وان يقدم المشورة الى حكومته بدون قيد ولا شرط ، وكنت حريصا جدا على ان اطلعه على كل شيء، وكثيرا ما بدا لي خلال اجتماعاتنا الرسمية الاسبوعية انه قد قام بدراسة كافة الوثائق التي لم اكن قد درست بعضها بعد ، وانني لاقول ان من حسن الطالع لبريطانيا انه كان على عرشها في مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا ومليكتنا ، واني كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية ، نظرت ببالغ التقدير الى الشرف الذي اسبغه علي صاحب الجلالة بهذه الصلات التي وثق عراها معي كوزيره الاول ، وانني لا أرى لذلك نظيرا في تاريخنا الا في ايام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو ٠

وهكذا ابلغ بنا العام الى نهايته ٠٠٠ ، وأن كنت قد استطردت ـ راغبا ـ بعيدا عن شؤون القتال الخاصة ، وسيرى القاريء ان كل هذا الدوي وتلك الزعازع لم تكن الا رفيقا على الطريق يسير مع اجراءاتنا الهادئة التي حرصنا عليها في ادارة جهودنا الحربية ، وتوحيد سياستنا ودبلوماسيتنا ، وعلي ان اقر هنا ان هذه الخسائر التي منينا بها والتي لم تكن مميتة ، كانت في اعتبارنا نحن المقيمين في قمة الموقف دافعا فعالا للتعبير عن ارائنا ، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم اسس اعمالنا الجوهرية الواعية، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال ان افترض بان الغارات التي شنت علينا لو تزايدت الى عشرة او عشرين ضعفا او حتى بنسبة ضعفين او ثلاثة فان هذه الانطباعات السلمية التي فصلتها ، كانت ستوجد بصورة مؤكدة ، وعلى النحو الذي اوضحت ٠

الفصل العاشر

الاعارة والتأجير

اطل علينا فجر جديد ، وصليل الاسلحة يملأ الجو ، لكن مصدره هذه المرة كان مختلفا عما سبق • فقد دارت الانتخابات الاميركية للرئاسة في الخامس من تشرين الثاني ، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تتميز بها هذه المصارعة الحادة التي تحدث مرة كل اربع سنوات ، وعلى الرغم من الخلافات التي تثار حول الشؤون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين ، الا ان كبار الزعماء في كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى والاهتمام بها ، فاعلن المستر روزفلت في ٢ تشرين الثاني بمدينة كليفلاند ان سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التي ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الاطلنطي والهادي • كما صرح منافسة المستر ويندل ويلكي في نفس اليوم في خطاب القاه بحديقة ماديسون بانهم جميعا جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وانهم يتعهدون للشعب البريطاني بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم • ولا شك في ان هذا الشعور الوطني النبيل كان الطريق المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن أيضا •

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم ، وانا اترقب النتيجة ، فليس في مقدور كل من يتولى الرئاسة ، ان يكون مسلحا بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بها فرانكلين روزفلت ، وليس في مقدور أي شخص سواه ان يحوز نفس المواهب والكفايات ، وكنت قد وثقت علاقتي الشخصية به ، وحافظت على تنميتها ورايت انها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصداقة الى الدرجة التي

أصبحت بها ذات أهمية في تفكيري ، وكنت لهذا احس بالقلق ازاء كل ما يهدد هذه الزمالة ، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل ، وانفر من فكرة قطع هذا الاتصال في احاديثنا ومباحثاتنا لابدأ من جديد مع شخص اخر صاحب عقلية وشخصية مختلفتين ، ولم احس منذ أيام بمثل ما احس به الان من قلق ، ولذلك فقد كانت غبطتي عظيمة عندما علمت ان الرئيس روزفلت قد أعيـــد انتخابـــه ٠

***

وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الاميركية بحرية وحيوية ، وان كان ذلك يتم بعد التفاوض معها ٠

وادت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا الى التناقض أحيانا ، مزاحمـــة الرغبات الامريكية ذاتها ، مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويـــات الخفيضة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين ٠ وكتب المستر ستيتينيوس يقـــول :

« ان في امكان سياسة موحدة من أجل تحقيق غايات المقاومة ان تؤدي أغراض هذه المهمة التي تواجهنا الان » ٠ ومعنى هذا ان لحكومة اميركا ان توصي وحدها بصنع الاسلحة التي نحتاجها من اميركا ٠ وخرج الـــرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الافضلية في توزيع انتاج الاسلحة الاميركية ، على ان يكون خمسون في المائة من انتاج اميركـــا للاسلحة مخصصا لاحتياجات أميركا الدفاعية ، وخمسون في المائة للقوات ـ البريطانية والكندية ٠ وأصدر مجلس الافضلية الاميركي في نفس اليـــوم موافقته على رغبة بريطانيا في اعداد اثني عشر الف طائرة في الولايـــات المتحدة فضلا عن رغبتنا السابقة في احد عشر ألف طائرة اخرى ، ولكن من أين نأتي بالاموال الضرورية لنغطي ثمن الاسلحة التي نحتاجها من المصانع الاميركيـــة ؟

وامضى اللورد لوثيان في اواسط تشرين الثاني يومين في ديتشلي معي ، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله في واشنطن الى الوطن ، وكنت قد استمعت الى نصيحة بأن لا أمضي في تشيكرز جميع نهايات الاسابيع ، خصوصـــا عندما يكون القمر بدرا ، خشية ان يعطف علي العدو بلطفه الخاص ، وكان السيد رونالد تري وزوجته قد استقبلاني احسن استقبال ، انا وموظفـــي ، في بيتهما الكبير الجميل الذي يقع على مقربة من اوكسفورد ولا تزيد المسافة

على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلي ويلنهايم ، وهكذا التقيت بسفيرنا في واشنطن في هذا الجو الامن ، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الاميركي ولم يكن قد حصل على شيء سوى النية والثقة من واشنطن ، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذي توثقت بينهما أطيب العلاقات ، وكان فكره مشغولا بمسألة الدولار ، وهي مسألة كئيبة بلا شك ٠

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب ، كان في حوزتها حوالي ٤٥٠٠ مليون دولار أما على صورة دولار بالفعل ، او ذهب او استثمارات أميركية من المستطاع ان تتحول الى دولارات ، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزيد هذه الموجودات ، هي التوسع في استخراج الذهب في الامبراطورية البريطانية وخاصة في جنوب أفريقيا ٠ وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات الى أميركا وخاصة الكماليات كالويسكي والمنسوجات الصوفية الرائعة والخزف ٠ وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالي الفي مليون دولار في خلال ستة عشر شهرا منذ بداية الحرب ، وكنا في السابق تتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة الى العتاد من أميركا ، وبين فزعنا من نقصان دولاراتنا الموجودة لدى أميركا ، وكان السير جون سيمون وزير المالية في حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيرا عن المصير المؤسف لارصدتنا الدولارية ، ويوجه انظارنا الى ضرورة الحرص عليها ، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الاميركية بقدر المستطاع ، وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفيز ، رئيس لجنة المشتريات للمستر ستيتينوس « وكأننا نحيا في جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذي نحاول الابقاء عليه اطول مدة ممكنة » ٠

وكان يقصد بهذا اعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا ، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا في الاستيراد ، وندفع بالعملة التي نريد ، وعندما قامت الحرب اضطررنا ان نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الاجنبي ، وان نقف دون تحقيق رغبات ذوي النوايا المنحرفة في تحويل رأسمالهم الى البلاد التي يحسبون انها اكثر أمنا من بلادهم ، وان نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الانفاق الاخرى ، وفضلا عن عزمنا على الابقاء على اموالنا ، كان علينا ان نضمن استمرار الاخرين في قبول عملتنا ، وكانت بلاد الكتلة الاسترلينية معنا ، فهي تحتم سياسة الاشراف ذاتها على النقد التي تحتمها ، وهي تريد التعامل الدائم بالاسترليني، وقمنا بابرام عقود خاصة مع الاخرين تلزم بأن ندفع لهم بالاسترليني الذي يقدرون على التعامل به في أي مكان داخل حدود الكتلة الاسترلينية ، كما

ضمنوا الابقاء على فائض الاسترليني لديهم ، وان يحرصوا في مبادلاتهم على هذه الشروط مع السويد والارجنتين ، ثم ما لبثت ان اتسع نطاقها فشملت بلادا اخرى في القارة وفي جنوب أميركا · وقد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠ ، ولا شك في ان مما هو جدير بالثناء وباطراء الاسترليني نفسه اننا استطعنا الابقاء عليه في مثل هذه الظروف القاسية ، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار في معاملاتنا التجارية مع غالبية البلاد في العالم بالاسترليني ، وأن نبقي على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملاتنا الحيوية مع أميركا ·

وعندما أصبحت الحرب واقعا مرعبا في أيار ١٩٤٠ ، أدركنا على الفور اننا نشهد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الانكليزية الاميركية ، فمنذ ان توليت تاليف الوزارة ، وعهد الى السير كنغزلي بوزارة المالية ، بدأنا نسير في طرق أكثر يسرا ، وهي ان توصي باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة ، تاركين للالهة الخالدة ان تتولاها بعنايتها ، ولقد كان من الزيف في شؤون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل ان نترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة او موت ، منفردين ، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جوي مستمر ، ونتعرض لاهوال غزو يذيقنا من ويلاته، ان نترك الفرصة للقلق يستولي علينا من جراء نفاد ارصدتنا الدولارية لدى أميركا · وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير في الراي العام الاميركي وشعرنا بالادراك الجديد الذي سرى لا في واشنطن وحدها بل في جميع ارجاء الولايات المتحدة ، بأن مصير أميركا وثيق الصلة بمصيرنا نحن ، وفضلا عن هذا فقد سرى تيار من العطف والاعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الاميركي ووصلتنا برقيات مودة من واشنطن مباشرة ، وعن طريق كندا ، لمسنا في غضونها التشجيع والمؤازرة ، والاحساس بأن شيئا ما في الافق سيتحقق عن قريب · ولقيت قضية الحلفاء في المستر مورغنتا ووزير الخزانة الاميركية نصيرها وحاميها الذي لا يكل من الذود عنها ، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية الينا في شهر حزيران تضاعف معدل انفاقنا في النقد الاجنبي · زيادة على ذلك اننا رغبنا من جديد في صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الانواع ، وحثثنا على انشاء مصانع ضخمة جديدة في أميركا وكندا ·

والى شهر تشرين الثاني قد قمنا بدفع الثمن لكل ما وصلنا من أميركا وكنا قد بعنا ما قيمته (٣٣٥) مليون دولار من السندات والاسهم الاميركية التي قمنا بمصادرتها من ذويها في لندن مقابل الدفع بالاسترليني ، وكنا قد

قمنا أيضا بدفع ما يزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار نقدا ، وأصبح كل ما لدينا الفي مليون معظمها في صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفوري في الاسواق ، وظهر أن ليس في وسعنا ان نسير على هذا المنوال ، لاننا انفقنا كل ما في حوزتنا من الذهب والنقد الاجنبي فلن نستطيع ان ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الامريكية ، فكيف يكون الامر والحقيقة ان امتداد زمن الحرب وشمولها يضطرنا الى أن نحتاج من المصانع الاميركية عشرة أضعاف ما احتجنا اليه الان ٠ وعلينا فضلا عن كل هذا ان نبقي على شيء في أيدينا لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة ٠

وكان لوثيان واثقا من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جديا في خير الوسائل لمعاونتنا ، أما وقد انتهت المعركة الانتخابية ، فقد دقت ساعة العمل ، وكانت المباحثات دائمة في واشنطن بين ممثل لوزارة حربيتنا هناك السير فريد ريك فيلبس ــ وبين المستر مورغنتاو ، ورغب الى سفيرنا في ان احرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا ، وهكذا كتبت بالمشاورة معه في ذلك اليوم ، الاحد في ديتشلي ، رسالة خاصة الى الرئيس روزفلت ، ولما كان ينبغي عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب ، ووزارة الخزانة لدراستها ، ثم توافق عليها وزارة الحرب فانها لم تكن معدة للارسال قبل رجوع لوثيان الى واشنطن ٠ وتمت الرسالة في صورتها الاخيرة ، ثم ارسلت بتاريخ ٨ كانون الاول الى المستر روزفلت فورا ، فانتهت ــ وهي من أهم ما احرزته في حياتي ــ الى صديقنا العظيم وهو يمخر عباب البحر الكاريبي على ظهر البارجة الاميركية « توسكالوزا » مع اصدقائه وخاصته ، وابلغني هاري هوبكنز ، بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد ان الرئيس قرأ الرسالة مرارا على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده ، وانه امضى يومين في دراستها ، الى أن وضحت أمامه مراميها ٠ لقد ظل في أحضان تفكير عميق ، يتمتم لنفسه في صمت ٠

ونتج عن كل هذا قرار عظيم ، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس لحقيقة ما نريد ، وانما كانت في أي الوسائل يجب ان يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا ، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى ٠ ويقول ستيتينروس ان الرئيس كان في اخريات الصيف الماضي قد رأى في احدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية في موضوع الموارد اللاحية ان ليس من المحتم ان يبذل البريطانيون أموالهم ٠ وليس من المحتم أيضا ان يستدينوا منا لهذا الغرض ، ولكن ــ مع انه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك ــ في مقدورنا أن نأخذ

الباخرة التي تم صنعها ، وان نؤجرها لهم اثناء استخدامهم لها ٠

ويظهر انه كان هناك قانون صدر في عام ١٨٩٢ ، يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى في ذلك مصلحة عامة بشرط الا يكون الجيش في احتياج اليها مدة خمس سنوات ٠ وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون ، وأجر بعض ممتلكاته من حين لآخر ٠

وهكذا انبثقت فكرة « التأجير » في ذهن الرئيس روزفلت لتلبية احتياجات بريطانيا . بدلا من تقديم قروض غير محدودة ، ربما قد يؤدي ذلك الى درجة يصعب معها الدفع والتسديد ، وسرعان ما انتقلنا من المجال النظري الى المجال العملي . وظهرت في هذا الزمن الذي اعلن فورا وهو الاعارة والتأجير ٠

وعاد الرئيس من رحلته في البحر الكاريبي في ١٦ كانون الاول بمشروعه العميق في مؤتمر صحفي عقد في اليوم التالي ، وقد أوضحه في بساطة عندما قال : « لنفرض ان منزل جاري قد شب فيه حريق ، وكنت املك في حديقتي خرطوما طويلا يبلغ اربعمائة قدم او خمسمائة ، وكان في استطاعة جاري اذا منحته خرطومي ان يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة ، فماذا ترون واجبي في ذلك الحين ؟ انني لن اخاطبه قائلا في مثل هذه الظروف: اسمع يا جاري ، لقد كلفني هذا الخرطوم خمسة عشر دولارا وعليك ان تدفع ثمنه اولا ٠٠ كلا ٠٠ انني لن افعل ذلك ، وانما سأقول له ٠٠ انا لا اريد الخمسة عشر دولارا ولكنني اريد خرطومي بعد ان تخمد الحريق ٠٠ واستطرد قائلا : « لا ريب عند أي أميركي يرى أن أفضل سبل الدفاع العاجل عن أميركا ، هي ان تنتصر بريطانيا في الدفاع عن نفسها ، ولذلك ـ فضلا عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة في المحافظة على الديمقراطية كشيء جوهري ـ فان في غاية الاهمية ـ من الناحية الذاتية ايضا ـ وبالنسبة للدفاع الاميركي ان نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا في الدفاع عن نفسها ٠٠ » ثم ختم كلمته قائلا : « انني احاول ان أمحو حاجز الدولار » ٠

وعلى هذه الاضواء ، تم اعداد مشروع الاعارة والتأجير عاجلا ليعرض على الكونغرس ، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان في أحد البيانات قائلا : « اكرم عمل قام به أي شعب في التاريخ » وفي الوقت الذي تمت فيه موافقة الكونغرس على هذا القانون ، تغير الوضع كاملا بصورة عاجلة ، فقد أعطانا القانون الحرية في أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الاعارة والتأجير ٠ ولم ينص على اعادة الدفع ، كما لم يكن ثمة حساب رسمي يسجل بالدولار او الاسترليني ، فكل ما نحتاج اليه

يأتينا بالاجارة او الاعارة ، لان مقاومتنا المتصلة لجبروت هتلر ، اعتبـرت اعمالا دفاعية عن مصالح الولايات المتحدة ، فقد قال الرئيس روزفلت ان الدفاع عن اميركا لا الدولار هو الذي سيعين منذ الان المكان الذي ستتوجـــه اليه الاسلحة الاميركية ٠

***

وامتدت يد الموت في تلك الساعة الحاسمة الـى اللورد فيليـب لوتيان ، فانتزعته من بين جماعتنا ، بعد رجوعه الى وشنطن حيث تسلط عليه المرضـ بصورة غير متوقعة ، ولكنه ادى واجبه حتى النهاية وبدون ادنى توقف ، وتوفي في ١٢ كانون الاول وهو كدبلوماسي مرموق في قمة نجاحه ٠ فكـــان موته خسارة لوطنه وللقضية كلها ، ودمعت عليه عيون الاصدقاء في جانبـي المحيط ، اما انا وكنت قبل اسبوعين وثيق الصلة به ، كما ذكرت قبل ذلـــك بقليل ، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لي ، وقد ابنته بخطاب في مجلس العموم اعظم تأبين ذاكرا له بثناء جم جهوده ومسيرته ٠

وكان علي ان اوجه اهتمامي فورا لمن يخلفه ، وادركت ان علاقاتنـــا باميركا في تلك الفترة في حاجة الى ان يكـون سفيرنا اليهـا شخصية بارزة متمتعة بسمعة قوية خاصة ، فضلا عن الكفاءات التي ينبغي ان يكون حائزا لها سياسي مطلع على كافة شئون العالم ٠ وبعد ان ضمنت موافقة الرئيس روزفلت على وجهة نظري رغبت الى المستر لويد جورج في ان يقوم بمهام هذا المنصب ، وكان المستر لويد جورج قد اعتذر عن تولي منصب في وزارة الحرب في تموز الماضي كما كانت ظروف سيئة في السياسة البريطانية الداخليـــة ، وكانت آراؤه في الحرب والاحداث التي ادت اليها تخالف ما أراه ، وبالرغـم من ذلك لم يكن هناك شك في أنه ألمع رجل في وطننا ، وفي ان كفاياته وخبراته التي لا نظير لها ستساعده كلها على حمل اعبائه ٠ وقد تحدثت اليه طويـــلا في غرفة الحرب في اليوم التالي حول مائدة الغداء ، واستخفه السرور بهـذا التكليف فقال : « انني سأخبر أصدقائي بأن رئيس الوزراء عرض علي عروضا مشرفة ، ولكنه كان على ثقة من أن رجـلا في السابعة والسبعين مثله ، ليس في وسعة القيام بالتبعات الجسام التي يعنيها هذا المنصب » وبعد محادثـات متواصلة معه اتضح لي ان الرجل قد اوهنته الشيخوخة لا سيما في الاشهر الاخيرة منذ دعوته للاشتراك في وزارة الحرب ، لذلك تنحيت عن اختياري الاول ٠

وتنبهت الى اللورد هاليفاكس ، صاحب المقام الرفيع في حزب المحافظين والمكانة التي دعمتها اعماله في وزارة الخارجية ، ولا شك في ان توجه وزير الخارجية الى منصب سفاري يعني اهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التي تحظى برئاسته ، وبالاضافة الى هذا المغزى فان أعماله في سنوات ما قبل الحرب ، والاسلوب الذي سارت به الاحداث في تلك الفترة قد وضعاه موضع عدم الاستلطاف بل العداء احيانا من جانب العمال في حكومتنا القومية ، وكنت أعرف ان اللورد يدرك هذا جيدا ٠ وعندما عرضت الامر عليه ، الذي لم يكن بالطبع يعني اي ترقية ذاتية ، اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن استعداده للخدمة حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة ٠ وتاكيدا مني لاهمية بعثته وواجباته رتبت الامور على ان يباشر عمله كعضو في وزارة الحرب عندما يعود في اي اجازة الى الوطن ٠ وقد نجحت في هذا دون صعوبات بفضل ما تنطوي عليه نفوس الشخصيات التي تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية :

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل في ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفتها الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير في واشنطن مدى ست سنوات في نجاح مستمر لما يقوم به من اعمال ونفوذ تتضاعف يوما بعد يوم ٠ وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل ، وغيرهما من شخصيات واشنطن البارزة ، بتعيين اللورد هاليفاكس ، وسرعان ما عرفت ان الرئيس قد استحسنه عن اختياري الاول ، وبذلك صادف التعيين الجديد رضى وترحيبا في كل من امريكا وبريطانيا ، واعتبر منسجما مع روح الاحداث الجارية ٠

ولم اكن على حيرة من أمري في الشخص الذي سيخلف اللورد هاليفاكس في وزارة الخارجية ، فقد ظللت طيلة السنوات الاربع الماضية متفقا اتفاقا تاما بالنسبة للقضايا الرئيسية مع انتوني ايدن ٠ وقد بينت مشاعر القلق في نفسي عندما تنحى عن صحبة المستر تشمبرلين في ربيع عام ١٩٣٨ وكنا قد امتنعنا معا عن التصويت على اتفاق ميونخ ، ووقفنا معا نقاوم الضغط الحزبي الذي تعرض له كل منا في دائرته الانتخابية في شتاء تلك السنة المؤسفة، وقد التقينا معا عقلا ووجدانا عند اعلان الحرب وفي خلال مسيرها ، كزميلين ، وكان ايدن قد خصص الجزء الاكبر من حياته العامة لدراسة الشئون العالمية ، وتولى منصب وزير الخارجية المرموق فملأه عن كفاية ومقدرة ، واستقال منه وهو في الثانية والاربعين من عمره لاسباب اذا نظرنا اليها الان بمنظار الحقيقة فسوف تنال تاييد جميع الاحزاب ٠ وقد قام بدور فعال كوزير للحربية في تلك السنة الرهيبة ، وكان تصريفه لشئون الجيش ، قد قرب كلانا

للاخر ، فكنا نتشابه في التفكيـر ، حتى بـدون استشارة او عرض لوجهات النظر ، في كثير من المسائل العملية ، التي تقابلها يوميا ، وكنت بدوري أطمح في زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة ، في خلال السنوات الاربع والنصف التالية ، المليئـة بأعمال الحرب والسياسة ، وقد أسف ايدن حينما ترك وزارة الحربية التي كان قد دار في دوامة متاعبها واستثاراتها ، ولكنه عاد الى وزارة الخارجية ، وكأنه رجل يعود الى بيته •

❀ ❀ ❀

الفصل الحادي عشر

الانتصار في الصحراء

عقدت الهدنة مع فرنسا ، وحدث ما حدث في وهران وانتهت صلتنـــا الدبلوماسية بفيشي التي انتقلت اليها حكومة الماريشال بيتان ، ولكن علــى الرغم من كل ذلك بقي لي الايمان بوحدتنا مع فرنسا ، واني لاهيب بالرجال الذين لم يواجهوا المحن الشخصية التي دهمت رجال فرنسا البارزين بالنظر الى الدمار المخيف الذي حل ببلادهم ، ان يترفقوا في اصدار حكمهم علـــى هؤلاء الرجـــال ٠

وليس من خطة هذا الكتاب ان يخوض مجاهيل السياسة الفرنسية . ولكنني اقرر أنني كنت مليئا بالثقة من ان الشعب الفرنسي لن يتوانى عـــن التضحية بكل ما يستطيع في سبيل هدفنا المشترك على ضوء الحقيقة التي تبين له ، فعندما سمع هذا الشعب ان سبيل خلاصه الوحيد ينحصر في الانقيـــاد لمشورة الماريشال المشهور ، وان انكلترا لم تبذل في سبيله الكثير ، ستحتـــل عاجـــلا أو تستسلم لم ير امامه مجالا للاختيار ، ومع ذلك فقد كنت على يقين من ان جموع الشعب الفرنسي ترجو لنا النصر ، وان اكثر سرورها ان ترى بريطانيا ماضية في القتال دون هوادة ٠ وكان اول واجب علينا ان نؤازر بما استطعنا كفاح الجنرال ديغول ، ودفاعـــه الباسل ٠ فابرمت معـــه في ٧ آب اتفاقية عسكرية ، تضمنت شتى الاحتياجات العاجلة ، وتوجهت الاذاعـــة البريطانية بنداءاته الثائرة الى فرنسا والى العالم كله وكان اصدار حكومـــة بيتان حكم الاعدام عليه ، بمثابة تمجيد لاسمه ، ورفع لشأنه وقد قمنا بكـــل ما نملك لمساندته ، وتوفير الاموال لحركته ٠

وكان الابقاء على اتصالنا بفرنسا ، بل بفيشي ايضا ، ذات اهميـــة خاصة في تلك الظروف . لذلك بذلت محاولات متكررة للحصول من رجـــال فيشي على اكثر ما يمكن ، وقد سرني كثيرا ارسال امريكا في نهاية ١٩٤٠ بسفير منها الى فيشي من طراز الاميرال ليهي وطبقته ، لصلتـه المعروفـــة بالرئيس روزفلت وقد ابديت تشجيعا لرئيس وزارة كندا المستر مكنزي كينج لكى يحرص على بقاء ممثله المسيو دى بوا الشهور بتفوقه الديبلوماسـي في فيشي ، فبذلك توجد على الاقل نافذة لنا ، نطل منها على عالم لا سبيل الى رؤية ما فيه دون هذه النافذة • وارسلت في ١٥ تموز مذكرة لوزير الخارجيـة اخبرته فيها عن رغبتي في تشجيع نوع من التآمر الخفي في حكومة فيشـــي ، بحيث يذهب بعض اعضائها الى الشمال الافريقي باتفاق مع الاعضاء الاخرين، للحصول على مساومة افضل ، لفرنسا من الشاطيء الافريقي ، ومن وضع استقلالي احسن وافضل ، وسأستخدم لهذا الهدف سلاح الغذاء وغيره مـن الامور الحافزة بالاضافة الى المبررات المعتادة • واعتمدت سياستنا دائمـا على بث الشعور في حكومة فيشي واعضائها بـأن آملنا كبيـر في احساسهـم بالخطأ ومحاولة اصلاح اوضاعهم ، ومهما يكن في الماضي فستبقى فرنسـا بالنسبة لنا زميلة السلاح وصديقة الازمات ، ولن يقف شيء – غير انحيازها فعليا في الحرب ضدنا دونها ودون المساهمة معنا في ثمرات النصر • وكـان عملنا هذا شاقا على نفس ديغول ، الذي جازف بكل شيء ، لتبقى رايـــة الكفاح خفاقه • ولكن لم يكن في وسع القلة القليلة من اتباعه خارج فرنسـا ان يزعموا بأنهم يمثلون حكومة فرنسية كافية وقوية ، ومع ذلك فقد قمنـا بكل ما في وسعنا لتدعيم نفوذه ، وتوطيد سلطانه •

وكان طبيعيا ان يعارض في اية مداعبة منا لحكومة فيشي ، ويرى بـأن الواجب يلزمنا بالوفاء له وحده ، وادرك بأن وضعه تجاه الشعب الفرنسي يحتم عليه ان يتسم بالصرامة والكبرياء في تصرفاته مع بريطانيا الغـادرة بغض النظـر عن لجوئـه اليها كمنفـى ، واستنـاده الى حمايتها واقامتـه في ارضها •

وكان من الضروري ان يتظاهر بخشونـة التصرف مـع البريطانيين ، ليؤكد للفرنسيين انه ليس لعبة في يد بريطانيا ولا شك في انه مثل خطته هـذه بكل عناء واصرار • وقد برر لي ذات يوم هذا النهج فتفهمت تمام التفهـم صعوبة موقفه ، وكنت دائم الاعجاب بقوته الخارقة ، ومهما قامت به فيشـي من خير او شـر ، فمـن المحال ان نتنحى عنـه او نثبط همتـه في استعادة

مستعمرات بلاده ، وفضلا عن هذا كله ، صممنا على ان نحول بين اي من اجزاء الاسطول الفرنسي المجرد من سلاحه ، والموجود حاليا في موانيء المستعمرات الفرنسية ، وبين العودة الى فرنسا · ومضت لحظات كانت الخشية تستبد فيها بالامبرالية من ان تعلن فرنسا الحرب علينا ، فتضاعف المصاعب التي نواجهها ولكنني كنت دائم الثقة بأن اصرارنا على النضال وقدرتنا الكافية على الصمود الى آخر الشوط ستوقظ معنويات الشعب الفرنسي الى الدرجة التي يحول فيها بين حكومة فيشي وبين القيام بمثل هذا العمل الشاق · وفعلا سيطر على الشعب الفرنسي في هذه الآونة ، اعجاب ببريطانيا وشعور قوي بزمالتها ، وظلت آمال الفرنسيين تنمو وتزداد على ممر الايام ، وقد اعترف المسيو لافال نفسه عندما اصبح وزيرا لخارجية بيتان بهذه الحقيقة ·

وكان الوضع بالنسبة لايطاليا مختلفا عن ذلك ، فبعد اختفاء فرنسا من ميدان المعركة ، وبعد التحام بريطانيا في هذه المعركة المصيرية ذيادا عن كيانها ، كان من المحتمل ان يرى موسوليني ان حلم سيطرته على البحر الابيض المتوسط ، واعادة تشييد الامبراطورية الرومانية السابقة ، قد اقترب من التحقق الفعلي ، وصار في مقدوره ـ بعد ان امن ظهره من الفرنسيين في تونس ان يعزز قواته المحتشدة في ليبيا لغزو مصر ، ولكن وزارة الحرب عقدت عزمها على الدفاع عن مصر ضد كل القوى المعادية ، وبشتى الموارد التي تبقى لديها بعد مستلزمات القتال العنيف الذي يدور في ارض الوطن ·

وقد غدت هذه المهمة في غاية الصعوبة عندما اكدت الاميرالية استحالة مرور القوافل العسكرية عبر البحر المتوسط بالنظر الى الاخطار الجوية ، ومعنى ذلك ان تدور وسائل النقل حول رأس الرجاء الصالح ، وهكذا ستنزع من معركة بريطانيا وسائل هي في أمس الحاجة اليها · ومن الغريب اننا في تلك الايام وجميع القائمين بالامر ، نبدو مرحين هادئين ، مع ان مجرد استعادة هذه الذكريات والكتابة عنها يصيب الانسان بالرعدة وعندما اعلنت ايطاليا دخولها الحرب في ١٠ حزيران ١٩٤٠ ، رات اجهزتنا الاستخبارية ـ وقد أيدت الحقاءق بعد الحرب صحة مارات ـ انه ـ فضلا عن القوات الايطالية المقيمة بالحبشة واريتريا والصومال ـ يوجد في المناطق الساحلية من شمال افريقيا حوالي ٢١٥١ الف جندي ايطالي بينما وحداتنا في مصر ، لا تزيد عن خمسين الف جندي ، قد فرض عليها ان تقوم بالدفاع عن الحدود الغربية لمصر ، وان تحافظ على الامن في داخل البلاد ، ومن هذا يتضح ان ميزان القوى كان في

صالح الايطاليين ، بالاضافة الى ان عدد طائراتهم يزيد كثيرا عن كل ما لدينا ٠

ونشط الايطاليون في غضون شهري تموز وآب في اماكن عدة ، وتوقعنا خطرا من ناحية كسلا غربا في اتجاه الخرطوم ٠ وساد الرعب في كينيا بسبب حملة ايطالية تزحف من الحبشة ، وقد قطعت حوالي اربعمائة ميل نحو تانا ومدينة نيروبي ٠ واخترقت قوات ايطالية ضخمة الصومال البريطاني ولكن هذا الرعب لم يكن شيئا بجانب ما يترتب من اخطار على غزو الايطاليين لمصر ، وهو ما عرفنا انه كان في سبيل الاعداد على صورة شاملة ٠ فقبل قيام الحرب تم تعبيد طريق رائع على طول الساحل من القاعدة الرئيسية في طرابلس بين مقاطعتي طرابلس وبرقة حتى الحدود المصرية ٠ وكنا نرقب على هذا الطريق خلال ما مضى من الاشهر تحركات عسكرية على مدى واسع ، وانشئت في هدوء مخازن ضخمة امتلأت بالمعدات والمؤن في كل من بنغازي ودرنة وطبرق والبرديسة والسلوم ٠ ويزيد طول هذا الطريق عن الف ميل ، انتشرت على طوله الوحدات الايطالية مع معداتها وكأنها حبات مسبحة في خيط طويل ٠ وعلى مقربة من حدود مصر ، احتشد جيش ايطالي منظم ، يبلغ تعداده من سبعين الف جندي الى ثمانين الفا ، وقد زودوا بالمعدات الحربية ، وتجاه هذا الجيش تألقت جوهرة مصر ، ووراءه امتد الطريق الطويل الى طرابلس ومنها طريق البحر الى ايطاليا ٠ فاذا استطاعت هذه القوة ـ التي تم بناؤها شيئا فشيئا ، ودعمت اسبوعا اثر اسبوع ـ التقدم شرقا بصفة مستمرة ، مستولية على كل ما يعترض طريقها ، فانها ستكون ميمونة الطالع ، واذا ما وسعها ان تحتل مناطق الدلتا الخصيبة في مصر ، فان شتى متاعبها بالنظر الى الطريق الطويل الممتد خلفها ستكون قد انتهت ٠ اما وهذا هو التقدير الثاني اذا لحقها سوء الحظ ، فلن يجد احد من جنودها الا القليلين طريق العودة الى بلادهم ، فثمة في جيش الميدان ، وفي حلقات مراكز التموين الضخمة بطول الساحل كان يقف في خريف ذلك العام حوالي ثلثمائة الف جندي ايطالي ، لن يستطيعوا التراجع غربا حتى ولو هربا من مضايقات جنودنا ، الا على مراحل وبصورة تدريجية ، وهذا يستغرق عدة اشهر ٠ واذا ما فشلت معركتهم على الحدود المصرية ، واذا ما تصدعت وحدة القوات الايطالية ، ولم يجدوا فرصة كافية للتراجع ، فان مصيرها لن يكون سوى الموت او الوقوع في الاسر ٠ ولكن حتى تموز سنة ١٩٤٠ ، لم يكن احد يعرف من الذي سيخرج منتصرا ٠

وكان مركزنا الامامي الحصين في تلك الاثناء في آخر الخط الحديدي

بمرسي مطروح ، وكانت ثمة طريق ممهدة تمتد غربا الى سيدي براني ، ولكن بينها وبين السلوم الواقعة على الحدود لا توجد طريق نستطيع ان نحشد فيها قرب الحدود جيشا كبيرا لفترة طويلة ، وكنا قد اعددنا وحدة آلية صغيرة للتغطية تتألف من امهر الجنود ، وقد صدرت الاوامر لهذه الوحدة بالهجوم على المراكز الايطالية القريبة من الحدود بعد اعلان الحرب مباشرة وبمقتضى هذه الاوامر عبرت قواتنا الحدود في خلال اربع وعشرين ساعة ، وفاجأت الايطاليين بهجومها عليهم بينما هم لم يسمعوا بعد بنبأ أعلان الحرب · ومن ثم استولت على بعض الاسرى ، وفي الليلة التالية احرزت نفس النجاح ، ووضعت يدها في ١٤ تموز على نقطتي الحدود في كابوتزو ومادالينا، وأخذت حوالي ٢٢٠ جنديا اسيرا · وتوغلت في السادس عشر منه الى مسافة أبعد ، فحطمت اثنتي عشرة دبابة ايطالية وقطعت الطريق على قافلة في طريق طبرق البردية واوقعت جنرالا ايطاليا في الاسر ·

ومن هذه العمليات الصغيرة المعبرة عن القوة والانتصار ، احس جنودنا بمدى تفوقهم على العدو وادركوا على الفور انهم بحق سادة الصحراء · وكان في مقدورهم ـ ما لم تعترض طريقهم جيوش هائلة او حصون منيعة ـ ان يصولوا ويجولوا حيثما ارادوا ، محرزين الغنائم وأكاليل الغار من المعارك الصغيرة التي يشتبكون فيها · وعندما يقترب جيشان كل من الاخر ، يصبح ذات اهمية بالغة ادراك ايهما يسيطر على الارض التي يقف عليها الجيش او ينام ، ومن يسيطر على كل شيء آخر · وقد جربت بنفسي هذا في قتال البوير ، حيث لم نكن نملك شيئا سوى نيران معسكراتنا ، ووحداتنا الخلوية ، بينما كان البوير يصولون ويجولون في مختلف انحاء البلاد · ووصلت خسائر الايطاليين في الاشهر الثلاثة الاولى الى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل بينهم سبعمائة اسير ، بينما لم تزد خسائرنا عن مائة وخمسين جنديا · وهكذا كانت بداية المرحلة الاولى من الحرب التي شنتها ايطاليا علينا بداية مليئة بالتفاؤل ·

***

وأحسست بالحاجة الماسة لمناقشة الاخطار الداهمة في الصحراء الليبية مع الجنرال ويفل بالذات ، ولم اكن قد التقيت بهذا القائد الماهر الذي يرتبط به مصير كثير من الاشياء · فرغبت الى وزير الحربية القيام باستدعائه لمدة اسبوع كي اتباحث معه عندما تتيح الظروف الملائمة · وقد حضر ويفل في ٨

آب فتباحث طويلا مع اركان الحرب ، ومعي ، ومع المستر ايدن • وكانت قيادة الشرق الاوسط في تلك الاثناء تواجه مجموعة غريبة من المشاكل السياسية والعسكرية والديبلوماسية والادارية بالغة التعقيد ، وقد مر عام تقريبا من الانتصارات والانكسارات لتبدو لي أنا والزملاء الضرورة التي تحتم توزيع اختصاصات الشرق الاوسط بين القائد العام ووزير الدولة مع مسئول خاص يصرف شئون التموين ، وبغض النظر عن عدم موافقتي التامة على وجهات النظر التي أبداها الجنرال ويفل في توجيه الجيوش التي يتولى قيادتها ، رأيت من الافضل ان اعطيه الحرية في تصرفاته ، فقد اعجبت بصفاته الممتازة ، كما كنت مأخوذا بالثقة الكبيرة التي منحها الكثيرون لشخصه •

وعلى هدى مباحثات اركان الحرب ابلغني الجنرال ديل بموافقة ايدن المتحمسة ويقول ان وزارة الحرب بدأت تهيىء الوسائل لارسال حوالي مائة وخمسين دبابة من المدافع عاجلا الى مصر • وكانت العقبة الوحيدة التي تعترضنا هي الطريق الذي تبخر فيه البواخر المحملة بتلك المعدات •• هل هو رأس الرجاء الصالح ام هو البحر المتوسط ؟ •• ودار جدل عريض حول هذه المشكلة ، فرأت وزارة الحرب ابحار هذه الوحدة المدرعة ، حتى تصل الى جبل طارق ثم يعاد النظر في قرار نهائي • وظل الاختيار متأرجحا حتى ٢٦ آب ، وبالطبع رأينا الفرصة متاحة لتجمع المعلومات الضرورية عما اذا كان الهجوم الايطالي قد حان ميعاده أم لا ، ولم نضع وقتنا فاجراء عملية نقل الدم هذه في ذلك الوقت الذي نستعد فيه لمواجهة شر مستطير ، تحتاج الى قرار صائب وان كان رهيبا في الوقت نفسه ، ولم يتردد واحد منا في اتخاذ هذا القرار •

***

كانت السيطرة على البحر الابيض المتوسط قبل انهيار فرنسا موزعة بين الاسطولين البريطاني والفرنسي ، ولكن بعد ان عزلت فرنسا عن الحرب واشتركت فيها ايطاليا ، غدا أمامنا اسطول ايطالي ضخم في عدده يؤازره سلاح جوي قوي ، وقد ظهر لنا الموقف في بداية الامر مرعبا ، حتى لقد فكرت الاميرالية في الانسحاب من شرق البحر الابيض والتجمع حول جبل طارق • وقد قاومت هذه الفكرة ، لانها بغض النظر عن وجود كل ما يؤيدها نظريا بسبب وجود الاسطول الايطالي العارم ، لا تلتقي مع احساسي الخاص بالمثل الكفاحية والحربية • يضاف الى ذلك ان هذه الفكرة تحكم على جزيرة

مالطة بالموت · وتبعا لارائي تقرر ان نجابه القتال في جانبي البحر المتوسط ، وكانت التبعات المنوطة بالامبرالية في ذلك الحين بالغة الاهمية ، فخطر الغزو ما زال ماثلا ، مما يستلزم منها اعداد اكبر عدد مستطاع من المدمرات والقطع الصغيرة في المانش وبحر الشمال ·

وكانت الغواصات التي اخذت في العمل منذ شهر آب من موانيء خليج بسكاي ، تفرض ضريبة ضخمة على قوافلنا في الاطلنطي دون ان تصاب بأية اضرار · والى تلك الساعة لم يكن الاسطول الايطالي قد دخل اية معركة تضعه موضع الاختبار ، ولم يكن في مقدورنا ان نغفل عـن احتـمال دخول اليابان ميدان الحرب ، وما يعنيه هذا الدخول من اخطار تهدد كيان امبراطوريتنـا في الشرق ، فلا غرو والحالة كما نرى ان يستولي القلق على الاميرالية مـن جراء فكرة المجازفة ببوارجنا في البحر المتوسط ، وان تتشبث بأهداب الوسائل الدفاعية في كل من جبل طارق والاسكندرية · أما انا فقد كنت لا اجد سببـا كافيا لتحول بين هذا العدد الهائل من قواتنا البحريـة التي خصصناها في البحر المتوسط ، وبين القيام بدور رئيسي منذ البداية · وعلينا ان نرسـل الامدادات الجوية والبحرية الى مالطة ، وبالرغم من ان قوافل نقلنا التجاري قد اتجهت الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبالرغم من ان البوارج الكبيرة التي تنقل جنودنا الى مصر تتخذ نفس الطريق ، فانني لم اكن مقتنعا باستمرار هذا البحر مغلقا في وجوهنا · وقد طمعت في ان يكون اختراق قوافلنا لهـذا الطريق وسيلة لاستثارة الاسطول الايطالي وجره الى معركة نختبر فيها قوته · وكانت رغبتي تتلخص في ان يجري كل هـذا ويتـم امداد مالطـة بالحاميـة وبالمعدات والطائرات والمدافع المضادة قبل ان يقدم الالمان الى هذا الميدان ، وهو أمر كنت اعمل حسابه · وقد امضيت اشهر الصيف في مباحثات هادئة ولكنها جادة مع الاميرالية حول هذا الاتجاه في نشاطنا الحربي ·

وبالرغم من ذلك فقد فشلت في اقناع الاميرالية بأن تمخر الوحدة المدرعة أو سياراتها على الاقل عباب البحر المتوسط ، فاستمرت كل قوافلنا تدور حول رأس الرجاء الصالح · وقد أسفت لهذا الموقف بل غضبت منه ، ولم تحدث اية واقعة خطيرة في مصر وبقينا ممسكين بالرغم من وجود سلاح الطيـــران الايطالي بزمام المبادرة ، كما ظلت مالطة في مقدمة الحوادث كقاعدة أمامية لشن هجومنا على المواصلات الايطالية مع القوات المرابطة في افريقيا ·

***

ويظهر ان القلق الذي اعترانا من غزو ايطاليا لمصر كان ـ كما بدا لنا الآن ـ اقل من القلق الذى احاط بنفس الماريشال غرازياني قائد الغزو ، فقبل بضعة ايام من الموعد المتفق عليه طلب الماريشال تأجيله شهرا كاملا فرد عليه موسولينى مهددا بالاقالة من منصبه اذا لم يبادر بالهجوم يوم الاثنين . فرد الماريشال عليه بأنه سيمتثل للامر · وكتب تشيانو في مذكراته ولم يحدث ابدا ان وقعت عملية حربية مثل هذه رغما عن مشيئة قائدها » ·

وبدأت القوات الايطالية زحفها الرهيب على الحدود المصرية في ١٣ آب مكونة من ست فرق المشاة ، وثمانية افواج من الدبابات · وكانت جيوشنا المواجهة تتألف من ثلاثة افواج من المشاة وفوج من الدبابات وثلاث بطاريات وسريتين من السيارات المدرعة · وقد اصدرنا اليها امرا بالاشتباك مع العدو في قتال انسحابي . وهي طريقة تجيدها قواتنا لما تتسم به من شجاعة ولما اكتسبته من خبرات في حرب الصحراء · وبدا الهجوم الايطالي بفتح نيران المدفعية على مراكزنا قرب مدينة السلوم على الحدود ، وعندما انكشف الغبار والدخان . تجلت القوات الايطالية مصطفة في نظام بديع · ففي المقدمة راكبو الدراجات النارية في تنظيمات متقنة تمتد من الجناح الى الجناح ، ومن المقدمة الى المؤخرة ، وتليهم الدبابات الخفيفة ثم عدد من السيارات المصفحة في صفوف منتظمة ايضا · وعلق ضابط بريطاني على هذا المنظر فقال انه كان اشبه بحفلة عيد ميلاد في الوادي الفسيح في الدرشوت · واسرع فوج حرس غولد ستريم الثالث الذي كان امام الجيش المغير بالانسحاب بينما تقاضت مدفعيتنا ضريبتها من هذه المائدة المعروضة امامها بسخاء ·

وتحرك الى الجنوب فوجان كبيران من افواج العدو عبر الصحراء المكشوفة جنوبي الروابي الممتدة بمحاذاة البحر ، والتي ليس في المقدور اختراقها الا عند « حلفايا » او ما يعرف « بممر نيران جهنم » ، وهو ممر ادى دورا فعالا في معاركنا المقبلة كلها · وكان كل فوج منهما يتكون من عدة مئات من السيارات تساندها الدبابات والمدافع المضادة لها والمدفعية التي تظهر في المقدمة ، ثم المشاة في الوسط حيث تقلهم السيارات وكنا نسمي هذا التنظيم الذي شاهدناه كثيرا باسم « القنفذ » وامام هذا العدد الهائل تراجعت وحداتنا مستغلة كل فرصة لتغير على العدو الذي بدت الحيرة والاضطراب في كل تصرفاته · وقد قال غرازياني فيما بعد انه غير خطته في الآونة الاخيرة التي كانت تعتمد على القيام بتطويق صحراوي الى « تركيز القوات جميعا في الجناح الايسر . ثم شن هجوم صاعق كالبرق على طول الساحل في اتجاه سيدي

براني » · وعلى هذا الاساس زحفت الجموع الايطالية الضخمة الى الامام ببطء في خطين متوازيين على الطريق الساحلي وكانوا يحشدون للهجوم مجموعات من المشاة تنقلهم السيارات ، تتقدم نحو الامام في وحدات عدد كل منها حوالي خمسين جنديا واستمر حرس غولد ستريم في انسحابه وعلى مهل لمدة اربعة ايام من السلوم الى مواقع متلاحقة ، منزلا بالعدو الاضرار الفادحة اثناء انسحابه ·

وعسكرت القوات الايطالية في سيدي براني يوم ١٧ ايلول ، وبلغت خسائرنا اربعين رجلا بين قتيل وجريح ، بينما نزل بالعدو من الاضرار ما يقدر بعشرة اضعاف هذا العدد ، فضلا عن تدمير حوالي مائة وخمسين سيارة · ورأى الايطاليون بعد ان امتدت بهم سبل المواصلات ستين ميلا اخرى ، ان يجمعوا قواهم وان يرابطوا في مكانهم الاشهر الثلاثة القادمة ، ولكنهم لم يعفوا من الهجمات المستمرة التي كانت تشنها جماعاتنا الصغيرة المتحفزة ، وقد واجهوا اقسى المتاعب بشأن مستلزمات الصيانة ، وكان موسوليني في بداية الامر قد « اهتز سرورا » ، ولكن لما بلغت الاسابيع شهورا بدا زهوه يخف فتاكدنا في لندن اننا في الشهرين او الثلاثة القادمة سنواجه قوات ايطالية هائلة اضخم من كل ما نقدر على تجنيده لتواصل التقدم بغية احتلال الدلتا · وهناك ايضا تهديد الخطر الالماني فقد يدهمنا في اية لحظة ، ولم يكن بالطبع يدور بخلدنا ان فترة التوقف لزحف غرازياني ستطول الى هذه المدة كما دار بخاطرنا احتمال حدوث معركة حاسمة في مرسي مطروح ، وهو شيء معقول في وسط هذه الظروف · وقد استطعنا ان نستغل هذه المدة ، فوصلت دباباتنا الثمينة التي دارت حول رأس الرجاء الصالح ، دون ان يسبب لنا طول مدة دورانها اية خسائر ·

وعندما ارجع بذاكرتي الى كافة هذه المشقات ، اتذكر قصة الرجل العجوز الذي حانت منيته فباح على فراش الموت بانه واجه في حياته كثيرا من المتاعب ، بينما لم تكن في حياته اية متاعب ·

وأرى ان هذه القصة تنطبق تماما على الحالة التي مررت بها في ايلول عام ١٩٤٠ · فلقد انهزم الالمان في غاراتهم الجوية على بريطانيا ولم تحدث اية محاولة لغزونا من البحر · ثم تحول هتلر بعد ذلك بنظراته النهمة الى الشرق ، وعوق الغزو الايطالي لمصر ، ووصلت وحدة الدبابات التي ارسلناها عن طريق رأس الرجاء الصالح في موعدها المناسب ، لا لتشترك في معركة

دفاعية عن مرسى مطروح ، بل لتخوض عملية اخرى كانت اكثر نفعا واعظم فائــــدة ٠

وقد وفقنا الى الوسائل المطلوبة لتعزيز الدفاع عن مالطة قبل ان يحاول الاغارة عليها احد ٠ وفي كل مراحل هذه الفترة جبنت كل القوى عن التعرض لهذا الحصن البحري ٠ وعلى هذا النحو مضى شهر ايلول ٠

***

واخذ موسوليني الآن يقوم بحركة جديدة كانت في مجال احتمالاتنــا ٠ وقد اثارت لنا ، نظرا لمشاكلنا العديدة ، كثيــرا من الصعوبات المفاجئــة ، والنتائج البالغة الاثر بالنسبة لميدان الحرب في البحر الابيض المتوسط ٠فقد اصدر الدوتشي اوامره بشن هجوم على اليونان في ١٥ تشرين الاول ١٩٤٠ ، وقبيل فجر ٢٨ وجه وزير ايطاليا المفوض انذارا حاسما الى الجنرال متيكاس رئيس الوزراء اليوناني ، يطلب فيه موسوليني فتح الحدود امام الجيوش الايطالية ، وفي الوقت ذاته زحف الجيش الايطالي من البانيا على اليونان من عدة اماكن ، فقابلت الحكومة اليونانية هذا الطلب بالرفض ٠ وكانت جيوشها على اهبة الاستعداد في الحدود ، وطالبتنــا بتنفيــذ التعهدات التي سبق ان ضمنها لها المستر تشمبرلين في ١٣ نيسان سنة ١٩٣٩ ، وكان من الطبيعــي ان نحترم وعودنا ، وقد رد جلالة الملك استجابة لمشورة حكومته ، وبالاصالة عن رغبته العميقة على برقية ملك اليونان قائلا : « ان قضيتنا واحدة وسنقاتل معا ضد عدونا المشترك » وارسلت الى الجنرال متيكاس في اثناء ردي على رسالته أقول : « سنبذل من اجلكم كل ما في وسعنا ، وسنحارب العدو المشترك كما سنحرز النصر متحدين » ٠ ولقد قمنا بهذه التعهدات بعد قصة طويلــة من الكفاح ٠

ولم يكن في مقدورنا ان نرسل الى اليونان باكثر من بضعة اسراب من الطائرات ، وبعثة بريطانية ، ومجموعة رمزية من القوات ٠ وعلى الرغــم من ضالة هذه المعاونة فقد كنا نحس بالالم ونحن ننقصها من حساباتنا فــي العمليات الحادة الرهيبة التي بدأت تواجهنا فيصحراء ليبيا٠ ووضحت لعيوننا نقطة استراتيجية بالغة الاهمية وهي كريت ، التي يهيب بنا الواجب الا ندع الايطاليين يحاولون احتلالها ، ولذلك فمن الضروري ان نحتلها نحن أولا ٠ وعلى الفور وكان المستر ايدن لحسن حظنا موجودا في تلك الاثناء بالشــرق الاوسط فتم لي بذلك وجود الوزير الزميل الذي يسعني تصريف هذا الشــأن

معه ، فأبرقت اليه • وعلى الفور قامت قواتنا بدعوة من الحكومة اليونانية باحتلال خليج سودا ، وهو خير موانيء الجزيرة واكثرها صلاحية •

ولا شك في ان قصة خليج سودا تثير كثيرا من الاسى ، لكن المأساة لم تحدث الا عام ١٩٤١ ، ويقيني انه توفر لي التصرف الكامل لشئون الحرب مثلما توفر لاي رجل مسئول في اية بلاد غير بلادنا في ذلك الحين ، فقد ادت خبرتي لحقيقة الاشياء ، وايمان زملائي في وزارة الحرب ، وتازرهم المخلص معي وتعاون جميع زملائي وصلاحية جهازنا الحربي المتطور على الدوام ، ادى كل ذلك الى تركيز جميع السلطات في يدي • ومع كل هذا فقد كان العمل الذي قامت به قيادة الشرق الاوسط دون ما امرت به ودون ما كنا نطمع الى تحقيقه ، ولكن لعلنا لم ننس بعد حدود الطاقة الانسانية ، فقد دارت عمليات في اماكن كثيرة في وقت واحد • وبالرغم من ذلك فانه ما زال يحيرني حتى الآن عجزنا عن ان يكون خليج سودا هو الحصن البرمائي لكل ما تمثله قلعة بحرية مثل جزيرة كريت •

***

كان هجوم ايطاليا على اليونان من البانيا ، صفعة جديدة للدوتشي ، فقد اندحر الهجوم الاول بعد ان تكبد اضرارا جسيمة ، ومن ثم قام اليونانيون على الفور بهجوم مضاد ، واظهر الجيش اليوناني تحت قيادة الجنرال باباغوس ضروبا من المهارة الفائقة في حرب الجبال فتفوق على عدوه في مجال المناورة وحركات الالتفاف • ولم تات نهاية العام حتى كانت بسالته قد حملت الايطاليين على الانسحاب الى مسافة ثلاثين ميلا على طول الجبهة ، خلف حدود البانيا • واستطاعت ست عشرة فرقة يونانية فرض عدم التحرك على سبع وعشرين فرقة ايطالية لاشهر عديدة خلف حدود البانيا •

وبانتشار انباء هذه المقاومة الباسلة ، دبت الحماسة والشجاعة في نفوس الدول البلقانية الاخرى كما انهارت على اثرها سمعة موسوليني • لكن القصة لم تقف عند هذا الحد ، ـ فقد عاد ايدن الى وطنه في تشرين الثاني ، وقدم في نفس الليلة ليراني بعد بداية الغارات الجوية المعتادة • وكان يطوى سرا حرص الا يبوح به لاحد ، وكنت اود لو عرفته من قبل ، وتحدث ايدن كثيرا لي ولبعض صحبه المختارة ومنهم رئيس اركان حرب الامبراطورية ، والجنرال اسماي • وشرح بالتفصيل مشروع خطة هجومية وضعها الجنرال ويفل والجنرال ويلسون ، تقضي بالا نظل في اماكننا بمرسي مطروح ننتظر

الهجوم الايطالي المترقب ــ وقد أعددنا لصده كل الوسائل الدفاعية الممكنة ــ بل نبادر نحن في خلال شهر أو نحوه بشن هجوم على العدو ٠

وانتشينا لهذا النبأ المثير ، فقد وقعنا على عمل يستحق التنفيذ ٠ واتخذنا القرار فورا بعد ان صدق عليه رؤساء اركان الحرب ، ووزراء الحرب ــ بالموافقة على الخطة واعداد كل مستلزماتها ٠ وكنت مستعدا عندما عرضت الخطة على وزارة الحرب لتوضيح الامور ، ولكن عندما بلغ الزملاء ان قادة الميدان العسكريين ، ورؤساء اركان الحرب قد تم اتفاقهم معي ، ومع المستر ايدن بهذا الصدد ، اثر الزملاء عدم الاطلاع على تفاصيله ، حيث رأوا خير له وابقى ان تظل معرفته بين عدد محدود ٠ وأعلنوا تاييدهم التام لفكرة الهجوم بصورة عامة ، وكان هذا التصرف مثالا لتصرفات عديدة قامت بها وزارة الحرب في عديد من المناسبات ٠ واني لابادر بتسجيله هنا ليكون سابقة تحتذى فيما اذا تعرضنا في المستقبل لظروف مماثلة ٠

***

وقد جد تحسن واضح في موقف قواتنا في البحر الابيض المتوسط بالرغم مما يبدو من تفوق الاسطول الايطالي على اسطولنا الرابط هناك في عدد جنوده ومن الناحية النظرية ٠ وقد استطاعت البارجة « فاليانت » وحاملة الطائرات المدرعة « ايلستريوس » وطرادان مضادان للطائرات اختراق البحر الابيض المتوسط في سلام ، وتعضيد قوات الاميرال كينجهام في الاسكندرية ٠ وقد ظلت هذه القوات تحت مراقبة سلاح ايطاليا الجوي ، ومعرضة لهجماته ٠٠ لكن ٠٠ « الايلستريوس » بطائراتها الحديثة المحاربة ، وجهاز رادارها الجديد وبدورياتها المقاتلة وطائراتها المغيرة تمكنت من ان تضفي صفة السرية على تنقلاتنا ، وكانت هذه الصفات الممتازة قد جاءت في الوقت الذي نريد ٠

وكان الاميرال تستبد به الرغبة منذ زمن بعيد الى انزال ضربة قوية بالاسطول الايطالي الرابط في قاعدته الرئيسية في تورنتو ٠ وقد وقع الهجوم في ١١ تشرين الثاني كقمة لعمليات حربية متتابعة وشديدة الاحكام ، وتقع تورنتو في كعب ايطاليا فتبعد عن جزيرة مالطة حوالي ثلاثمائة وعشرين ميلا ، وميناؤها البديع محصن تماما ضد كافة الوان الهجوم الحديثة ٠ وبوصول بعض طائراتنا الاستكشافية السريعة الى مالطة استطعنا ان نحدد بالضبط مكان الفريسة . وبعد الغسق بقليل اطلقت طائرات « الايلستريوس » من مسافة يبلغ بعدها مائة وسبعين ميلا عن تورنتو ، واحتدم القتال زهاء ساعة بين

الحرائق المشتعلة والدمار الذي نزل بقطع الاسطول الايطالي ، وبالرغم من قوة نيران المدافع المضادة فان ما لحق بنا من اضرار لم يـزد عن طائرتيـن سقطتا في البحر ، أما بقية الطائرات فقد عادت الى قواعدها سالمة ٠

وبهذه الضربة القويـة تبـدل ميزان القوة البحريـة في البحر الابيض بصورة نهائية ٠ فقد اوضحت الصور الجوية ان بوارج ثلاثا من بينها البارجة الحديثة « ليتوريو » قد اصيبت كما أصيب طراد اخر ، حلت بظهره اضرار فادحة ٠ وهكذا اصبح نصف الاسطول الايطالي على الاقل عاجزا عن الحركة لمدة ستة اشهر ٠ وكـان في مقدور سـلاح الاسطول الجـوي ان يهتز طربـا لاستطاعته بهذه المجازفة الرائعة استغلال الفرصة النادرة التي سنحت له ٠

ولعل من سخرية المقادير ، ان كان السلاح الايطالي ، انصياعا لاوامر موسوليني في نفس اليوم الذي شهد هذه الضربة القاصمة يجرب الهجـوم الجوي على بريطانيا العظمى ٠ فقد شاءت قوة من القاذفات الايطالية تؤازرها حوالي ستين طائرة محاربة الهجوم على الحلفاء في ميدواي ، فاشتبكت معها مقاتلاتنا وقضت على ثماني قاذفات وخمس مقاتلات ، وكانـت هذه هـي التجربة الاولى والاخيرة من جانب ايطاليا بالنسبة للتدخل في شئوننا الخاصة٠ ولا شك في انهم عرفوا بعد ذلك ان الدفاع عن اسطولهم في تورنتو كان خيرا لهـم وابقـى ٠

وأمضت قواتنا التي بات عليها ان تقوم بعملية هجوم الصحراء مـدة شهر تقريبا في تدريبات خاصة ، يتطلبها هذا الهجوم المعقد لدرجة كبيرة ٠ ولم يكن احد يعلم بتفاصيل الخطة سوى عدد قليل جدا من الضباط ، كمـا لم يحرر شيء خاص بها على اي ورقة ، وفي السادس من كانون اول زحـف جيشنا المدرع بخمسة وعشرين الف جندي ٠٠ كل منهم لوحت وجهة شمس الصحراء وتركت على عوده صلابة طبيعتها الصارمة ، فاشتد عوده وانفتلت عضلاته ، زحف الجيش بهم مسافة اربعين ميلا ثم اختفى في الصحراء عـن عيون السلاح الجوي الايطالي ٠ وفي الثامن من الشهر نفسه استانف زحفه الجريء وفي تلك الليلة ، قيل للجنود ، للمرة الاولى ، انهم الان لا يمارسون تدريبا صحراويا ، ولكنهم يقومون بعملية حية ٠ وفي فجر ٩ كانون اول بدأت معركة سيدي براني ، ولا أجد داعيا للكتابـة عـن تفاصيل القتـال الكثيرة والدقيقة معا ، الذي ظل يدور في خلال الايام الاربعة التالية على ارض واسعة تكاد تماثل مقاطعة يوركشارير بكل اتساعها ٠ ومر كل شيء في نظامه الذي قدرته الخطة الموضوعة ٠ وتواصلت المعركة طيلة اليوم العاشر ، وفي الساعة

العاشرة ابرقت قيادة فوج حرس جولد ستريم تقول انه تعذر عليها احصاء عدد الاسرى لكثرتهم البالغة ، ولكن ثمة « ما يملأ خمسة افدنة من الضباط ومائتي فدان من الجنود » وكانت تصلني في داوننج ستريت انباء القتال لحظة بعد اخرى • وكان من الصعب علي ان استوعب ما يحدث ، ولكن الموقف كان يملا شعوري بالرضا والارتياح • وقد لفتت نظري اشارة من ضابط شاب كان يقود دبابة بالفرقة المدرعة السابعة قال فيها : « لقد وصلت الى يقبق » وتم الاستيلاء على سيدي براني في اليوم العاشر بعد الظهر وفي ١٥ كانون اول كان جيشنا قد نفى عن ارض مصر تماما جميع القوات المعادية وكانت البردية غايتنا الثانية ، وفي محيطها الذي يبلغ سبعة عشر ميلا ، الجزء الاكبر من اربع فرق ايطالية اخرى ، وتتكون الخطوط الدفاعية عنها من خندق ممتد لمقاومة الدبابات وراءه اسلاك شائكة تستند الى بيوت من الاسمنت المسلح قائمة هنا وهناك ، يكمن وراء خط اخر من الحصون • وكان اجتياح هذا الحصن يستلزم عددا كبيرا من المقاتلين • ولاتمام الحديث عن انتصارنا في الصحراء ارى ان استمر في سرد احداث السنة الجديدة ففي ٣ كانون ثاني استطاعت فرقة استرالية تحت حماية المدفعية الشديدة انتزاع موقف لها في القطاع الغربي ، وبدأ مهندسونا محتمين بالاستراليين يغلقون الخندق المضاد للدبابات ، واستمرت كتيبتان استراليتان في الاغارة الناجحة في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي ، وفي خلال زحفهم كانوا يتغنون بلحن من الحان الافلام الامريكية ، نال شهرة في تلك الآونة في سائر البلاد حتى في بريطانيا ايضا ، وهو يتعلق « بساحر اوز » • وعندما اصغى الى هذا اللحن اليوم تطوف بي ذكريات تلك الايام المفعمة بالاحداث • واستطاعت الدبابات البريطانية بعد ظهر ٤ كانون ثاني اقتحام البردية تؤازرها قوة من المشاة ، واستسلمت حاميتها في ٥ من الشهر نفسه ، وكان عددهم خمسة واربعين الفا ، أسروا جميعا ، كما استولت قواتنا على ٤٢٦ مدفعا •

وفي اليوم التالي اى ٦ كانون ثاني تم حصار مدينة طبرق ، ولم يكن في المستطاع مهاجمتها قبل ٢١ كانون ثاني ، ولكنها استسلمت في صباح اليوم التالي • وانتهت مقاومتها وغنمنا فيها ٢٣٦ مدفعا عدا ثلاثين الفا في الاسر • وهكذا استطاع جيش الصحراء في ستة اسابيع ان يزحف مائتي ميل في ارض جرداء خالية من الماء والزراعة واستطاع الاستيلاء على ميناءين قد حصنا تحصينا كاملا ضد البر والبحر والجو ، واسر (١١٣) الفا واستولى على اكثر من سبعمائة مدفع ، وتهاوى الجيش الايطالي الضخم الذي كان

قد زحف على مصر ، وداعبته الآمال في الاستيلاء عليها ، وسقط من الحساب كقوة عسكرية • وكانت مصاعب التموين والامتداد الهائل للمسافات هي الاسباب الرئيسية لتأخير زحف قواتنا نحو الغرب •

وهكذا ، كان العام يقترب من نهايته ، والصورة أمامنا تتنازع جوانبها مختلف الاضواء والظلال في وقت واحد • فنحن لم نزل احياء ، وقد استطعنا انزال الهزيمة بالسلاح الجوي الالماني ، ورددنا الغزاة من بلادنا مدحورين • وأصبح جيشنا في الوطن في منتهى القوة والتفوق • ولم تستطيع كل المحن ان توهن من عزيمة لندن الصامدة ، وبدأنا نسيطر تماما على سماء جزيرتنا بكافة الامكانيات • لكن همسات الشيوعيين القذرة خضوعا لاوامر موسكو ظلت تتردد على الاسماع ، عن الحرب الاستعمارية الرأسمالية ، ثم تموت على شفاههم ، فالمصانع تفيض بالحيوية ، والشعب بأكمله يعمل ليل نهار ، وقد ارتفعت روحه المعنوية ، وتدفق في كيانه احساس بالارتياح والاعتزاز ، وبدأ نصرنا النهائي ، في صحراء ليبيا قريبا ، كما بدأت الولايات المتحدة تقترب شيئا فشيئا من واجبها الحقيقي وهو الاشتراك الفعال معنا •

وفي مقدورنا ان هذه السنة المجيدة نادرة بمكاسبها ، كما كانت مروعة بأحداثها ، ولعلها اروع وأرهب السنين في تاريخ انكلترا بأكمله •• فلقد حطمت بريطانيا العظمى بمهارتها الخاصة الارمادا الاسبانية ، وخاضت غمار الصراع الذي استمر زهاء خمسة وعشرين عاما ، والذي خاضه ويليام الثالث ووزيره مارلبورو ضد لويس الرابع عشر ، فظلت طيلة هذه المدة تشتعل في صدرها حمية العزيمة والاصرار ، كما اقتحمنا حلبة الصراع ضد نابليون • وكنا ندين ببقائنا لسيطرة الاسطول البريطاني على البحار ، بفضل القيادة الماهرة لنيلسون ورفاقه ، كما قتل مليون بريطاني في الحرب العالمية الاولى •• ولكن كل هذه المحن التي ذقنا اهوالها لم تكن شيئا بجانب ما قاسينا في عام ١٩٤٠ •

وبرغم ذلك لم تأت نهاية العام حتى كانت الدنيا تشد هذه الجزيرة الصغيرة العريقة ، بجميع شعوبها المؤمنة بها ، وبممتلكاتها المستقلة ، وعلاقاتها الناجحة تحت كل سماء ، وقد اكدت انها قادرة على تحمل كل ما يأتي بمصير العالم من اعباء وتبعات • ولم يعرف الضعف والتحير سبيله الينا • بل ظلت روح الشعب البريطاني ، والعنصر البريطاني في قوة لا تغلب ، وبرهن حصن جامعة الشعوب البريطانية والامبراطورية على انه لا سبيل الى اقتحامه • وقررنا وحدنا ـ بتأييد كل القلوب الكريمة الطيبة ـ أن نتحدى الطاغية وهو في قمة غروره وانتصاراته •

واستيقظت الآن جميع طاقاتنا الفعالة ، فقد تمت سيطرتنا على الارهاب الجوي ، واصبحت الجزيرة حصنا لا يمس ولا يمكن تدنيسه ، ومنذ الآن سيتوافر لنا السلاح • ومنذ الان سنكون نحن جهازا حربيا ماهرا ، فقد عرف العالم كله أننا نعرف كيف نصمد ، فثمة نظرتان لموضوع السيطرة الهتلرية على العالم ، فبريطانيا التي كان لا يعبأ بها الكثيرون ، ما زالت في الميدان ، أضخم مما كانت عليه في اي زمن مضى ؛ وهي يوما بعد يوما تزداد قوة وصلابة ، وها هو عامل الزمن يتحرك ثانية الى صفنا ويدعم مصالحنا ، لا اقصد مصالحنا القومية فحسب ، فأميركا تدعم أسلحتها بصورة عاجلة ، وتقترب شيئا فشيئا من حلبة الصراع وروسيا السوفياتية ـ التي اصدرت حكمها الخاطىء علينا بعدم الصلاحية ، والتي تساومت مع المانيا لتكسب مناعة عابرة وتحصل على نصيب من الغنائم ـ اخذت الآن تستكمل قوتها واستطاعت غرس اقدامها في مواقع امامية لتؤمن على نفسها • اما اليابان فربما تكون في هذه الفترة فريسة شعور جارف بالخوف من استمرار الحرب ، وهي تنظر بقلق الى روسيا والى امريكا وتقوم بدراسات واسعة لما تعتقد انه سيكون في صالحها ، ومتفقا مع دواعي العقل والحكمة • وها هي بريطانيا بعلاقاتها الدولية الشاملة والتي ظهرت وكأنها على حافة الدمار ، والسيف المصلت يكاد ان يمزق احشاءها تظل صامدة خمسة عشرا شهرا • وقد وجهت كل جهودها للاعداد الحربي ، تدرب الرجال وتحشد للمعركة كل ما لديها من كفاءة وجهود ، ونظرت الدول الصغيرة المحايدة والدول المستعمرة الى السماء ، فرأت فيها نجوما لا تزال متألقة فهزتها الدهشة والسعادة معا • واستيقظ الرجاء والعطف معا في قلوب مئات الملايين من البشر ، فستنتصر قضية الخير ، ولن يذهب الحق هباء تحت اقدام الطغاة ، وستظل راية الحرية ـ التي يمثلها في ذلك الحين علم بريطانيا ـ عالية خفاقة مهما عصفت الرياح واشتدت الانواء •

اما من ناحيتي انا وزملائي الاوفياء ، الذين نحيا في ذروة الصورة ، تصلنا ادق المعلومات عن كل شيء ، فقد نازعنا كثيرا القلق ، وانتابتنا الهموم ، فمازال خطر حصار الغواصات ماثلا ، وعلى القضاء على هذا الخطر تستند كل خططنا ، وقد خسرنا معركة فرنسا ، ولكنا ربحنا معركة بريطانيا ، وكان علينا في ذلك الحين ان نخوض غمار معركة الاطلنطي •

الفصل الثاني عشر

الحرب المتسعة

توثقت صلتي مع الرئيس روزفلت مع بداية السنة الجديدة وكنت قد ارسلت اليه تهنئتي بمطلع العام الجديد ، وفي ١٠ كانون ثاني ١٩٤١ حضر الى داونغ ستريت انسان لطيف ومعه اوراق الاعتماد يرغب في لقائي · وكانت البرقيات من واشنطن قد اخبرتنا ان هذا الرجل يعتبر ممثلا خاصا موثوقا به للرئيس · ومن اجل هذا فقد رغبت ان يستقبله السيد براندن براكن في المطار · وفي اليوم التالي دعوته لنتناول الغداء معا ، وكذا التقيت بالرجل القدير هوبكنز الذي ادى دورا هاما في جميع شئون الحرب · وكان روحا نابضة بالحيوية في جسد نحيل واهن ، وكان منارة تكاد ان تهوى ولكنها ترسل ضوءها الساطع الذي يهدي الاساطل الضخام الى مرساها الامين · وكان يتسم بروح من الدعابة الساخرة ، وكثيرا مارغبت في صحبته وخصوصا عندما يسوء الموقف ، ولقد كان في مقدرته ايضا ان يتخلى عن الرقة والدماثة وان ينطلق في كلمات قلبية جارحة ، وكانت خبراتي قد هدتني الى ان اكون واحدا من هذا النوع عندما تحتم الظروف ·

ودام اجتماعنا الاول ثلاث ساعات ، وبسرعة توصلت الى مميزات شخصيته الديناميكية ، وما يتعلق بها من المهام · وكنا في اقسى فترات الهجوم على لندن ، بينما تنهال علينا المتاعب من الداخل كذلك ولكن تبين لي ان هذا الرسول الخاص من الرئيس ، ذو اهمية عظيمة لحياتنا ومصيرنا ، وقال لي وعيناه تتالقان والهدوء والتحفظ يغلف حديثه : ان الرئيس مصمم على ان

نكسب الحرب معا فأرجو ان لا تخطىء في تفهم حديثي حين أقول :

« لقد ارسلني هنا لاخبرك بأنه مهما تفاقم الثمن ، وأيا كانت الوسيلة ، فسيظل يؤازركم حتى النصر ، وبالرغم من اي مصير شخصي يواجهه فلن يتوانى عن تقديم كل عون في وسع الطاقة البشرية انتقدمه حتى تبلغوا غايتكم»

ولا شك في ان كل من عرف هاري هوبكنز في مدى سني الحرب يرسم الصورة التي قدمتها عن شخصيته • ومنذ التقينا بدأت تنمو الصداقة بيننا ، وتسمو على كل الانفجارات والزلازل ، ولقد كان اضمن وأقرب وسيلة للاتصال بالرئيس ، فلقد ظل هذا الرجل لسنوات عديدة موضع السر والثقة للرئيس روزفلت ، وباعث الامل الذي يحفزه ويشجعه • واستطاع هذان الرجـلان ـ واحدهما مساعد بدون منصب رسمي ، والاخر يتولى مهام منصب الرئاسة ـ اتخاذ القرارات ذات النتائج الخطيرة بالنسبة لكافة البلاد التي تتحدث اللغة الانجليزية • وكان هوبكنز بكل تأكيد يحتفظ بنفوذه الشخصي على الرئيس ولذلك لم يكن يتيح الفرصة لظهور اي منافس له في صفوف الامريكيين • ولقد يصدق عليه قول الشاعر جراي : « ان المقرب لا صديق له » ، ولكن هذا لا يهمني ، فها هو يبدو امام عيني نحيلا هزيلا واهنا ، ولكنه ينبض بالفهم العميق لمشاكلنا • ومحور هذه المشاكل كما يتفهمها يتلخص في اندحار هتلر وتدميره وذبحه فضلا عن عدد اخر من الاماني والاهداف • ولا شك في ان تاريخ اميركا لم يعرف الكثيرين من طراز هذا الرجل النادر الفياض بالاخلاص •

وكان هاري هوبكنز يستشف دائما اعماق القضايـا ، ويصـل الـى جذورها • وقد حضرت عددا من المؤتمرات التي كان يشهدها حوالي عشرين او اكثر من الشخصيات الكبيرة صاحبة السلطة • وعند ما تمتد المحادثات وتتهـادى ، ويصل الكثيرون الى طريق الصواب ، كنت اجد هوبكنـز يسأل الرئيس دائما بصراحة وعناد : « حسنا يا سيدي الرئيس ••• هذه هـي المسألة التي تحتاج الى حلنا واقرارنا ، فهل نحن اولا على اهبة الاستعداد لمواجهتها ؟ » والنتيجة الضرورية لذلك هي مواجهة المشكلة ، ومعنى ذلـك حلها والسيطرة عليها ، لقد كان قائدا عظيما للرجال ، ولم يكن احد في مقدوره التفوق على حماسته وحكمته حين الازمات ، وكان ولاؤه للضعفاء والفقراء يسير جنبا الى جنب مع مقته الشديد للطغيان ، ولا سيما عندما يبدو هـذا الطغيان في موقف المنتصر •

***

واستمر الهجوم الجوي المدمر علينا بكل مناورته ، مع تغير يسير ، فقد تأكد هتلر انه عاجز عن سحق بريطانيا بغاراته الجوية المباشرة ، وكان هذا الفشل هو الهزيمة الاولى التي ذاق مرارتها • ولم تنجح هجماته الوحشية في تحويل الشعب وحكومته الى موقف الخضوع • واخذ الاعداد لغزو روسيا في مطالع صيف سنة ١٩٤١ يستأثر بالكثير من قوة المانيا الجوية ، ولم تكن الهجمات الكثيرة القاسية التي شنت علينا حتى أواخر شهر أيار تمثل كل ما لديه من قوات وبالرغم من انها سببت لنا الكثير من المتاعب والماسي فانها لم تكن على جانب كبير من اهتمام القيادة العليا الالمانية أو الفوهرر ، بل كان استمرارها على بريطانيا العظمى في تقدير الفوهرر تمويها ضروريا ومناسبا ليخفي استعداده ضد روسيا •

وكانت آماله الواسعة تخيلَ اليه ان السوفيات كالفرنسيين سينهارون خلال ستة أسابيع • وان كافة القوات الالمانية ستكون محتشدة لتوجيه ضربة قاضية لبريطانيا في خريف ١٩٤١ • وفي خلال ذلك سيسأم الشعب من عناده • وتستنفذ قواه ، بفضل حصار الغواصات والغارات الجوية البعيدة المدى اولا ، ثم من الهجمات الجوية على مدنه ومرافقه ثانيا • وقد استبدلت عملية « سبع البحر » بالنسبة لبريطانيا ، بعملية باربا روسا » بالنسبة لروسيا ، بالنظر الى الجيش الالماني • أما بالنظر الى الاسطول فقد تلقى تعليمات بأن يركز اهتمامه على طرق مواصلاتنا عبر الاطلنطي ، كما امر السلاح الجوي بالتركيز على موانينا والمداخل الموصلة لها ، وكانت هذه الخطة ابعد ضررا من الهجمات المتفرقة العمياء على لندن وأهلها الآمنين • ومن يمن الطالع بالنسبة لنا ان الالمان لم يستمروا في تنفيذها بكل ما تبقى لديهم من قوات ، وبرغبات حازمة ، وأفسد سوء الاحوال الجوية في شهري كانون الثاني وشباط خطط العدو ، واذا استثنينا الغارات التي شنها على كارديف وبورتسماوث وسوانس ، فان قوات دفاعنا المدني قد وجدت الفرصة للراحة المناسبة • ولكنها لم تضعها هباء بل استغلتها كاملة ، وعندما تحسنت الاحوال الجوية ، شن الهجوم القاسي ثانية ، واخذ السلاح الجوي الالماني في شهر اذار في تنفيذ ما عرف حينئذ « بالتجول على الموانيء » • وكانت غاراته فردية او مزدوجة ، ومع خطورتها الشديدة فقد فشلت في ايقاف الحركة بموانئنا • وتعرضت بورتسماوث في ٨ آذار ، مدى ثلاث ليال متوالية لهجوم شديد الوطأة انزل بأرصفتها خسائر فادحة ، وشن هجوم على مانشستر وسالفورم في يوم ١١ وفيما تلا من الليالي وفي ١٣ و ١٤ قامت الطائرات الالمانية بغارة

شديدة على « كلايد » للمرة الاولى ، فقتلت وجرحت ما يزيد على الفـــي شخص • وظلت احواض السفن متعطلة عن العمل حتى شهر حزيران • ولم تنزل اقصى الضربات الا في شهر نيسان حيث كانت كوفنتري ، في ٨ منه هدفا لنيران حامية • أما في سائر الايــام فقد نزلت أفدح الخسائر ببورتسماوث وشنــت علــى لنــدن هجمــات قاسيــة في ١٦ و ١٧ فقتــل أكثــر من الفين وتلثمائة انسان ، واصيب ما يزيد عن ثلاثة الاف بجراحات بالغة ، واستمــر العدو في محاولته التدميرية لموانئنا الهامة بغارات قد تستمر في بعض الاحيان اسبوعا بأكمله • وتهدمت مدينة بريستول ، واستمرت الغارة على بلايموث بين ٢١ ، ٢٩ نيسان ، وبالرغم من ان الحرائق الخادعة قد ساهمت في انقاذ الارصفة والاحواض الا ان انقاذ ذلك كان على حساب المدينة • وبلغ الهجوم غايته في اول ايار عندما اغير على ليفربول وميرسي سايد سبع ليال متواصلة ، فأصبح سبعة وستون الف انسان بلا مأوى ، وقتل وجرح حوالي ثلاثة الاف شخص ، وتعطل عن العمل تسعة وستون ملاذا من ملاذات البواخر التي يبلغ مجموعها مائة واربعا واربعين ، واصبحت الحمولة التي يمكن تفريغها منخفضة الى الربع • ولو استمر العدو في هجماته علينا ، لغدت معركة الاطلنطــي بالنسبة لنا شاقة للغاية ، ولكنه كان قد عاد أدراجه ، وقصف مدينة « هــل » لمدة ليلتين متتاليتين بنيرانه الحامية وقد دمرت قنابله المتفجرة والحارقــة مساكن اربعين الف مواطن ، ونسفت مخازن الاغذية ، وأصابت الاعمـــال الهندسية البحرية بالشللمدة شهرين كاملين • وفي هذا الشهر ايضا شن هجوما على « بلفاست » التي سبق له الهجوم عليها مرتين قبل ذلك •

وكانت اخر الغارات اسوأ من سابقتها ، ففي ١٠ أيار عاد العــدو الى لندن بقذائفه المحرقة التي اضرمت أكثر من الفي حريق ، ودمرت حوالــي مائة وخمسين انبوبا ضخما للمياه ، حدث ذلك أثناء المد الادنى لنهر التايمز فصعب اصلاحها ، وفي الساعة السادسة من صباح اليوم الثاني كانت نيران مئات الحرائق ما زالت متأججة ، وقد عز القضاء عليها ، وحتى ليلة ١٢ كانت لا تزال أربع منها مشبوبة النيران ، وقد لحق الضرر بخمسة أرصفة ، وحدثت احدى وسبعون اصابة كان عدد المصانع من بينها يبلغ النصف على الاقل • وتعطلت لمدة أسابيع محطات السكك الحديدية سوى محطة واحــدة رئيسية • وظلت الطرق في حالة غير طبيعية حتى أوائل حزيران ، وسقط أكثر من ثلاثة الاف شخص بين قتيل وجريح ، وتعتبر هذه الغارة من زاوية اخرى تاريخية ، فقد نسفت مجلس العموم واحدثت قنبلة واحدة أضرارا فادحــة

يحتاج اصلاحها الى عدد من السنين • وحمدنا حسن الحظ لان احدا من أعضاء المجلس لم يكن بالقاعة ، واسقطت مدفعيتنا وطائراتنا المحاربة بدورها ست عشرة طائرة مغيرة ، وهو اكبر عدد تكبده العدو اثناء غاراته الليلة •

وكانت هذه الغارة ـ دون أن ندرك ذلك في حينه ـ اخر غارات العدو علينا ، ففي ٢٢ أيار تحول كيسلرنغ بمقر قيادة اسطوله الجوي الى بوزن ، ولم تات بداية شهر حزيران حتى كانت قوات العدو الجوية باكملها قد تحولت الى الشرق • فمرت ثلاث سنوات قبل ان يتحرك دفاعنا المدني بتنظيماته ليعالج اثار « الهجوم الصغير » الذي شن في شباط ١٩٤٤ ، وما تبعه من غارات شديدة الوطأة بالصواريخ والقذائف الطائرة • وكاد عدد ضحايانا من المدنيين في الاثني عشر شهرا المنصرمة بين حزيران سنة ١٩٤٠ ، وحزيران سنة ١٩٤١ ، يبلغ حوالي ٣٨١ و٤٣ انسانا قتلوا بينما أصيب بجراح خطرة حوالي ٨٥٦ر٥٠ اخرين ، مما يصل بالمجموع الى ٢٣٧ و٩٤ شخصا •

ان التفريق بين الامور العسكرية والسياسة يصبح متعذرا في الحروب الكبيرة ، فكل المسائل في القمة تصبح واحدة ، وطبيعي ان يعتبر الجنود الشئون العسكرية فريدة في نوعها ومتفوقة في أهميتها وان ينظروا الى الاعتبارات السياسية نظرة استهزاء وزراية ، ولا ريب في ان كلمة «سياسات» قد لاقت الكثير من الصعوبات ، بل صادفت التشويه لاقترانها بالسياسات الحزبية ، ولذلك فان معظم ما كتب عن هذا القرن الفياض بالماسي تؤثر عليه الفكرة القائلة انه في زمن الحرب تؤخذ بكل عناية الاعتبارات العسكرية وحدها ، وان الجنود كثيرا ما تصدم أفكارهم المستنيرة الحرفية تطاولات الساسة ، الذين يلعبون بنيران المعارك الفاصلة انسياقا لمصالحهم الشخصية والحزبية ، ولكن العلاقات الدائمة التي شملتها الثقة بيني وبين وزارة الحرب ورؤساء الاركان ، واختفاء كل اثر في بريطانيا للحزبية في تلك الاثناء ، قد قربت وجهات النظر وقللت من سبل الخلاف الى أدنى حدوده •

***

وبينما استمر القتال في شمال أفريقيا الشرقي سائرا في طريق النصر وبينما ظل اليونانيون يخترقون لهم طريقا داخل البانيا بكل شجاعة ، كانت الاخبار التي نستقيها عن تحركات الالمان ورغباتهم تؤكد يوما بعد يوم ان هتلر يقترب من التدخل في البلقان والبحر الابيض على أوسع نطاق ، وقد علمت في بداية شهر كانون الثاني ان وحدة جوية المانية قد نزلت بصقلية ،

وادركت ما تعنيه هذه التحركات من خطر على مالطة ، ومن تهديد للامال التي راودتنا بشأن اعادة الملاحة في البحر الابيض واصبت بالذعر من جراء انتقال قوات المانية وغالبا ما تكون من المدرعات الى طرابلس ، ولم يكن في مقدورنا ان نرتاب في ان خطط الالمان كانت تسعى الى ايجاد ممر من الشمال الى الجنوب عبر ايطاليا الى افريقيا كما تريد في الوقت ذاته وبنفس الاساليب مصادرة تحركاتنا عبر البحر المتوسط شرقا وغربا ٠

وكان الخطر الذي يجابه الدول البلقانية ومن بينها اليونان وتركيا يتجسم أمام عيني في صورة اغراء او ارهاب لتنضم الى امبراطورية هتلر فان لم ترضخ لهذه الرغبة اجتاح حدودها ، وبذلك نشهد ثانية الحركة الخطيرة التي رأيناها في النرويج والدانمارك وهولندة وبلجيكا وفرنسا ، فعاد مرة ثانية في جنوب شرقي أوروبا ٠

احقا ٠٠٠ سيحكم على الدول البلقانية بالعبودية واحدة بعد اخرى ومن بينها اليونان النافحة ثم تعزل تركيا حتى تضطر اخر الامر الى فتح أبوابها امام الجيوش الالمانية الجرارة ، فتزحف على فلسطين ومصر والعراق وفارس ؟٠٠ الا يوجد أمل في تكتيل وحدة بلقانية وجبهة بلقانية ، تتقاضى حتى من العدو افدح الاثمان عن هذا العدوان الجديد ، اليس في الاحتمال ان تكون للمقارنة البلقانية لالمانيا ردود فعل بالغة الاثر توقظ الامل في روسيا السوفياتية ، لا شك ان في هذا الميدان تتاثر مصالح الدول البلقانية نفسها ، وقد تتاثر المشاعر أيضا اذا سمح البلقانيون لمشاعرهم ان تتاثر على حسابهم ، وهل نقدر بمواردنا المستنزفة والمتزايدة في الوقت نفسه ان نعثر على المشاركة الخارجية الاضافية التي تسعى لتوحيد هذه الدول المتماثلة للعمل من أجل هدف واحد او ان الواجب علينا من ناحية اخرى ان نركز اهتمامنا على أمورنا ، وان نحرز نصرا من حملتنا في شمال شرق افريقيا ، وان ندع اليونان والبلقان وتركيا وغير ذلك من بلاد الشرق الاوسط تنزلق نحو هاويتها المنتظرة ؟ لا شك في ان هذا الراي الاخير يعفي الكثيرين من المتاعب والتفكير ، وقد لقى معضدين له في رسائل كل الضباط الذين كانوا يحتلون مراكز ثانوية ، والذين بعثوا بارائهم ، ولا شك في ان هؤلاء الضباط قد انتهزوا فرصة الحديث عما حل بنا من اضرار ٠ ولكن معلوماتهم لم تكن كافية ليعرفوا المصير الذي كان ينتظرنا لو سرنا وفق وجهة النظر هذه ولو استطاع هتلر دونقتال ان يجبر اليونان على الخضوع وان يرغم جميع الدول البلقانية على طاعته ، وان يفرض على تركيا عبور قواته الى الجنوب والشمال ، الا نتوقع حينئذ

ان يتفاهم مع السوفيات على السيطرة على هذه المناطق الشاسعة وتقسيمها ، ثم يقوم بتأجيل موقعته الفاصلة معهم الى أجل اخر في حسابه ؟ ثم الم يكن في مقدوره اذا دانت له كل هذه الرغبات ان يشن هجومه على روسيا بجيوش اكبر وفي ميعاد أسبق ؟ وفي الفصول التالية سأحاول التعمق في بحث سؤال رئيسي وعرضه في صورة سليمة ، ويتلخص هذا السؤال فيما اذا كان ما نفذته الحكومة البريطانية بالغ الاثر بصور واضحة على تصرفات هتلر في جنوب شرق اوروبا ، وانه ادى الى نتائج بعيدة المدى في نظرة روسيا للامور أولا ، وفي مصيرها ثانيا ٠ ؟ وطوال شهري شباط واذار كانت تصلنا اخبار طيبة من ميدان الشرق الاوسط فقد أعد الدفاع عن مالطة فاستطاعت الصمود في اخر لحظة ، لغارة مجتاحة قام بها السلاح الجوي الالماني عليها من صقلية ، واقتربت عملية احتلال الامبراطورية الايطالية في الاريتريا والصومال والحبشة من نهايتها المنتصرة ، وفي خلال شهرين استطاع جيش الصحراء ان يستمر في زحفه الى مسافة خمسمائة ميل وأن يقضي على جيش ايطالي يربو تعداده على تسع فرق ، وسيطر جيش الصحراء على بنغازي ومنطقة برقة باكملها ٠٠

وبالرغم من كل هذا فقد ظلت المسائل المحفوفة بالخطر من دبلوماسية وعسكرية بالغة الاهمية وكان الجنرال ويفل تتراكم عليه التبعات مما حدا بلجنة الدفاع ان توفد في ١١ شباط وزير الخارجية والجنرال ديل رئيس أركان حرب الامبراطورية الى القاهرة ، وطار ايدن من القاهرة الى اثينا يرافقه ويفل وغيره من الضباط الكبار لاجراء مشاورات مع ملك اليونان وحكومته ٠

وقرأ المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان اثناء الاجتماع بيانا تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان في اجتماع عقده في اليومين السابقين ، ولان هذا البيان قد اصبح قاعدة لاعمالنا فاني أورد القسم الحيوي منه هنا تاما ! اود ان اؤكد ثانية ان اليونان كحليفة تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان في اجتماع عقده في اليومين السابقين ، ولان هذا البيان قد اصبح قاعدة لاعمالنا مخلصة ستظل ماضية في القتال باصرار حتى يتحقق النصر ، ولا تقتصر عزيمتها على مناهضة ايطاليا وحدها بل يشمل ذلك اي عدوان الماني ٠٠ وايا كان الامر وسواء كان لليونان نصيب في صد الهجوم عن مقدونيا ام لم يكن فانها ستظل مدافعة عن اراضيها حتى ولو اضطرت الى الاعتماد على قوتها وحدها دون عون اخر وقد ابانت الحكومة اليونانية انها صممت على هذا القرار قبل ان تتاكد من مقدرتنا على مساعدتها ام عدم استطاعتنا ذلك ، فاكد المستر ايدن لهم ان عزم

لندن قد انعقد مع كل قادتها في الشرق الاوسط على بذل كـــل عون لمؤازرة اليونان ، واستمرت المؤتمرات العسكرية ومحادثات الاركان طوال الليلة ، وفي اليوم التالي ارسل الينا ايدن في ٢٤ شباط ببرقية بالغة الاهمية هذا نصها:

« لقد هزتنا صراحة المفاوضين اليونانيين ووضوح آرائهم في سائـر الشؤون التي اتممنا بحثها واني على يقين من اصرارهم على المقاومة لاخر جهد في طاقتهم ، وليس امام حكومة صاحب الجلالة سوى ان تؤازرهـــم بصرف النظر عن كل النتائج ، ونحن على يقين تام باننا قد آثرنا السبيـــل السوي ، ولما كانت الساعة قد اعلنت الحادية عشرة فاني متأكد انك لا ترغب في الاطالة ، مؤجلا التفاصيل حتى التقي بكم ، ان المغامرة ضخمة ، ولكن الامل في النجاح كبير »

وعلى هدى من هذه المكاتبات التـي حملت موافقة كل من ديـل وويفـل اصدرت وزارة الحرب تأييدها للاقتراحات تأييدا كاملا ·

سافر المستر ايدن بعد ذلك الى انقرة ، حيث قام بمشاورات طويلة مع الاتراك ، ولم يصل الى نتائج مشجعة ، فالاتراك يدركون الصعوبات التـي تواجههم كما ندركها نحن ولكنهم يقررون ان ليس في وسعنا تقديم قوات بالقدر الكافي لتغيير نتيجة أي معركة فاصلة ولانه لا توجد لديهم اية قوة هجوميـة فقد رأوا ان ما يستطيعون ان يقوموا به هو ان تلتزم بلادهم بموقف الحياد الى ان يستكملوا جوانب النقص التي يحسون بها ، والى ان تصير قواتهـم على درجة كافية من التأثير والفعالية ، اما اذا شن عليها هجوم فانهـــا ستخوض غمار الحرب بكل تأكيد ، وقد ادركت كاملا الموقف الذي تواجهـــه تركيا ، وبدا من الصعب عليها ان تلتزم بالمعاهدة التي ابرمت معها قبل الحرب لتغير الظروف وعندما بدات الحرب في عام ١٩٣٩ ، واستعد جيش تركيا الباسل ولكن هذا الجيش يعتمد على وسائل الحرب العالمية الاولى والمشاة الاتراك من افضل الجنود ومدفعيته مقبولة ولا غبار عليها ، ولكنهم يفتقرون الى الاسلحة الحديثة التي اكدت منذ ايار ١٩٤٠ انها فاصلة في الحرب الدائرة كما ان الطيران التركي كان في صورة بدائية هزيلة الى درجة تستدعي الرثاء وليس في حوزتهم ايضا دبابات او سيارات مدرعة ، كما لا توجد عندهـــم المصانع التي تنتجها او تشرف على صيانتها وليس في حوزتهم اية مدافـــع مضادة للطائرات او الدبابات اما سلاح الاشارة فساذج ، والرادار شيء لا ندري به ، كما ان جنودها ليس لديهم التأهيل الكافي لادراك هذه التطـورات الحديثـــة ·

أما بلغاريا فقد قامت المانيا بتسليحها بكميات ضخمة من العتاد مـــن شتى الانواع التي غنمتها من فرنسا والبلاد المنخفضة بعد معارك سنة ١٩٤٠ وبهذا أمكن لالمانيا ان تجد فائضا من العتاد تسلح به حلفاءها ، أما نحن فقد خسرنا كثيرا في دنكرك وكان علينا ان ندعم قواتنا لنصد اي هجوم على الوطن ونجابه اقسى الغارات على مدننا في الوقت الذي نواصل فيه القتال في الشرق الاوسط ، ولهذا لم يكن في مقدورنا أن نبذل الكثير ولا ان نضحي مما يلزمنا٠

وهكذا نرى ان الجيش التركي في تراقيا ، سيكون بالنظر الـى هـذه الظروف في حالة سيئة وربما يائسة تجاه الجيش البلغاري ، فاذا ضاعــف هذا الخطر أسراب من سلاح الجو الالماني ووحدات من السلاح المدرع فــان مهام تركيا ستصبح فوق المستطاع ٠

وفي هذه المرحلة المهددة بخطر الحرب كان الامل الوحيد هو خلق كتلة واحدة تضم جيوش يوغوسلافيا واليونان وتركيا وكان هذا ما نسعــى الـى تحقيقه وتمثل عوننا لليونان في ارسال ، بعض الاسراب الجوية من مصرعندما بدأ موسوليني زحفه عليها واقتصرت المرحلة التالية على تقديم عرض بارسال وحدات فنية وقد رفضه اليونانيون ، لاسباب أحسبها معقولة جدا ، وها نحن نقدم على المرحلة الثانية حيث رأينا ان في وسعنا حشد جيش صحراوي قوي في بنغازي وفيما وراءها ، لنوفر الجزء الاعظم من قوات المناورة والاحتيــاط الاستراتيجي لمصر ٠

وكنا الى ذلك الوقت لم نقدم على أية خطوة سوى تركيز معظم الاحتياطي الاستراتيجي من قواتنا في الدلتا ، ورسم الخطط والاستعداد الملاحي لارسال قوات الى اليونان ، واذا تغيرت الظروف بحدوث تغير في وجهة النظر اليونانية او لاي أسباب اخرى فسنقدر على مواجهة الوضع ومقابلة الطوارىء ، وكان من المحتم علينا بعد كل الذي لقيناه من ضغط شديد ان نستطيع انهاء القتال بنجاح في الحبشة والصومال والاريتريا ، وان نضم عددا من الفرق الـــى قواتنا المرابطة في مصر وفي الوقت الذي صعب فيه معرفة نوايا العدو او مدى ردود الفعل ونوعها عند الاصدقاء والمحايدين ، اتسع مجال الاختيار أمامنا وظل المستقبل بالنسبة الينا في غاية الغموض ، ولكننا لم نبعث بقواتنا بعـــد ولم نضيع اي يوم في الاعداد ٠

الفصل الثالث عشر

معركة الاطلنطيك

الشيء الذي اثارني حقا في غضون الحرب كان هو تهديد الغواصات فقد كنت متأكدا من فشل الغزو ، وقد مهدت ليقيني هذا نتائج المعركة الجوية فقد احرزنا النصر الجوي ، وبذلك اصبح الغزو شيئا طيبا بالنسبة لنا ، حيث يخوض الانسان معاركه برضى بغض النظر عن شناعة الحرب وقسوة ظروفها ، ونحن الان نواجه خطرا شديدا اذ ان شريان حياتنا حتى في غمار المحيطات وخصوصا في مداخل جزرنا يهدد باستمرار وكان القلق ينتابني من جراء هذه المعركة اكثر مما لقيته واشد حين خضنا غمار المعركة الجوية المجيدة في سماء بريطانيا ٠

واستولى هذا القلق ايضا على الاميرالية الذين كنت دائما معهم في ود وتفاهم مستمرين ، وكان يتحتم علينا حماية شواطئنا من اي غزو واستمرار خطوط مواصلاتنا مع العالم الخارجي حرة دائمة ، وكان هذا العمل واجبا مقدسا يقتنع به اسطولنا ويحرص عليه ، وهكذا كنا دائمي التفكير والبحث في هذه الازمة ، وليست هذه المعركة قتالا عنيفا او اعمالا خلابة ولكنها عبارة عن ارقام ومخططات ورسوم بيانية لا يستطيع الشعب ولا الجماهير معرفتها ولا تفهمها ٠

فالى اي مدى تستطيع ان تصيب به حرب الغواصات وارداتنا وملاحتنا وهل في وسعها ان تصل الى حد القضاء على مقومات حياتنا وهنا لا يتسع المجال للحدس ولا للعواطف ولكنه يقتضي التخطيط الهادىء الدقيق ورسم الخرائط التي توضح احتمالات خنق حياتنا ، فاذا ما عقدنا مقارنة بين نتائج

هذه الحرب ونتائج الحروب الاخرى ظهر لنا ان لا قيمة للجيوش الباسلة المستعدة للوثب على الغزاة ، ولا لما أعد من خطط جيدة لمعركة الصحراء ، كما ان لا جدوى من الروح المعنوية العالية التي يتحلى بها شعب في مثل هذا الخضم المظلم ، وليس لنا ان نختار فاما ان نحصل على الغذاء والمؤن والسلاح من العالم الجديد ومن الامبراطورية واما ان نحصل على شيء من ذلك ، اما الالمان فبعد ان استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكرك الى بوردو لم يضيعوا وقتهم عبثا ، بل سارعوا الى اقامة قواعد لغواصاتهم ولطائراتهم المقاتلة على مدى الساحل المحتل ، وبعد شهر تموز اضطررنا الى تحويل ملاحتنا من مداخل ايرلنده الجنوبية حيث لم نستطع حشد طائرات مقاتلة ، وفرض علينا ان تدور كل سفننا حول ايرلنده الشمالية ، وقد ظلت الستر هنا صامدة بعون الله ، كحارس لا ينام ، فميرس وكلايد هما رئتان بدونها لا نستطيع استنشاق الهواء ، واستمرت البواخر الصغيرة تمر قرب الشاطىء الشرقي وشواطىء القناة على الرغم من تهديد الغارات الجوية ، وهجمات زوارق الطوربيد الالماني ، فضلا عن الالغام المبثوثة في كل مكان ولكن مرور كل قافلة بين فيرث أوف فورث ولندن وحده قد أصبح عملية يومية في غاية الصعوبة ٠

وأصبحت الاضرار التي لحقت بملاحتنا التجارية فادحة ، في مدة الاثني عشر شهرا من تموز ١٩٤٠ الى تموز ١٩٤١ ، وهو التاريخ الذي كنا نستطيع ان نؤكد فيه انباء انتصارنا في معركة الاطلنطيك وكان اشد الاسابيع علينا منذ نشب القتال هو الاسبوع الذي ينتهي بيوم ٢٢ ايلول سنة ١٩٤٠ وفي خلاله منينا بغرق حمولة أكثر من اية حمولة خسرناها في ظروف مشابهة من عام ١٩١٧ وتزايد الضغط علينا باستمرار ، بينما الخسائر كانت تربو على اعداد البواخر الجديدة التي نسرع في بنائها بصورة مذهلة ، اما موارد الولايات المتحدة الهائلة فقد كانت تقترب من ميدان العمل ببطء وعلى هوادة ، ولم يكن احتمالنا ان نرث فجأة عددا من السفن كتلك التي غنمناها بعد استسلام النرويج والدانمارك والبلاد المنخفضة في ربيع سنة ١٩٤٠ ، فقد فقدنا سبعا وعشرين باخرة اغلبها كان في قافلة محروسة ، ثم منينا بقافلة اخرى في شهر تشرين أول بالاطلنطيك ، غرقت منها اثنتان وعشرون من بواخرنا التي يبلغ مجموعها اربعا وثلاثين ، ومع مرور ايام شهري تشرين ثاني وكانون أول بدأت مداخل ومصبات الانهر كالميرس وكلايد تمثل خطرا اشد من اية عوامل اخرى في الحرب ، وكنا نستطيع انذاك ان ننزل على ايرلنده ديفاليرا وان نعيد

الينا بالقوة السيطرة على الموانىء الجنوبية • ولكني اعلنت سابقا انني لن اتخذ خطوة كهذه الا دفاعا عن النفس ، وعلى اية حال لم تكن مثـل هـذه الخطوة الجريئة العنيفة لتخفف شيئا من حدة الموقف وقسوته ، وكان الاجراء الوحيد هو ان نضمن حرية الدخول والخروج من نهري المرسى والكلايـــد واليهما • وكانت القلة العارفة بحقيقة الموقف عندما تجتمع في كل يوم ينظر كل منهم الى الاخر ، وفي استطاعة الانسان ان يدرك حالة الغواص تحت سطح البحر وهو يعتمد من دقيقة الى الاخرى على الانبوبة الهوائية الممتدة للخارج، ومدى شعوره حين يرى مجموعـة من كلاب البحـر تحاول ان تعزق له هذه الانبوبة ، بالاضافة الى انه لا يجد فرصة للوصول الى السطح لان الواقع ان ليس هناك سطح بالنسبة الينا ، ولم يكن الغواص سوى ستة واربعين مليونا من البشر في جزيرة غاصة بالسكان ، يستمرون في عمل كبير وشاق هو الحرب في شتى انحاء العالم ، وقد استقر هذا الغواص بحكم الطبيعة والجاذبية في قا ع البحر ، وماذا يمكن لكلاب البحر ان تصنعه بانبوبة هوائية وكيف يستطيع اقصاءها عنه او تحطيمها ؟ ••

وثمة جانب اخر لحرب الغواصات ، فقد كانت الاميرالية في بداية الامور تركز اهتمامها قبل كل شيء في ايصال البواخر سليمة الى الميناء ويحـــدد نجاحها قلة عدد البواخر الغارقة ، ولكن هذه التجربة لم تعد الان ملائمة ، فقد اصبحنا نعرف ان حياة هذه البلاد وجهودها الحربية يركزان بصـــورة ثنائية على حمولة الواردات التي يتم انزالها على الميناء في سلام ففي الاسبوع الذي انتهى بيوم ٨ حزيران اي في غمار معركة فرنسا وقصـــة انقاذهـــا ، استطعنا ان نوصل للبلاد حمولة مليون وربع مليون طن فضلا عما نستورده من الزيت ، وقد تدرجت الارقام في الهبوط من هذه الذروة حتى نهاية تموز الـــى اقل من ثلاثة ارباع المليون طن كل اسبوع وفضلا عما اصابنا من تحسن فـــي شهر اب فقد كان المعدل الاسبوعي لا يزال في هبوطه ولم يتعد طيلة الشهـــور الثلاثة الاخيرة من العام ثمانمائة الف طن في الاسبوع ، واصابني هذا الهبوط المشئوم في الواردات بقلق شديد ، وارسلت الى لورد البحر الاول في منتصف شهـــر شباط سنة ١٩٤١ • رسالة بخط يدي اقول فيهـــا « ان الارقام تشير الى ان وصول البواخر المحملة في شهر كانون ثاني كان اقل من نصف مـــا وصل الينا في مثل هذا الشهر من السنة الماضية »

ونظرا لوسائل التامين الكثيرة وتقدمها ، وتسيير السفن ، وتحويـــل الطرق البحرية ومحاولات تطهير البحر من الالغام المبثوثة ، وعدم ابحارنـــا

في المتوسط ، وامتداد طرق مواصلاتنا في الزمن والمسافة ، والتخلف في الموانىء نتيجة للغارات الجوية وعمليات التعتيم ، كل ذلك ادى الى هبوط انتاج حركتنا الملاحية الى حد مزعج تفوق خطورته كل ما اصبنا به من اضرار ، وازدحمت موانينا يوما بعد يوم بالبواخر التي يتاخر تفريغ شحناتها ولم يات شهر اذار حتى غدت البواخر المصابة تبلغ حمولتها حوالي مليونين وستمائة الف طن ، لا يستطيع اكثر من نصفها مباشرة العمل لما يلزمها من استصلاحات .

وفوق خطر الغواصات دهمنا خطر اخر تمثل في الطائرات التي تذهب الى اعماق المحيط تبحث عما تفترسه من البواخر ، وكانت الفوكا وولف ٢٠٠ « المعروفة باسم كوندور » هي اشد هذه الطائرات خطورة وان كان عددها قليلا في بداية الامر لحسن حظنا وفي مستطاع هذه الطائرات ان تقلع من بريست او بوردو لتقوم بجولة على شواطىء الجزر البريطانية ثم تتزود ثانية بالوقود من النرويج لتؤوب في اليوم التالي الى مقرها الاول ، وفي وسع هذه الطائرات في الذهاب والعودة ان تبصر قوافلنا الكبيرة تحتها المكونة من اربعين او خمسين باخرة ، ارغمنا على تسييرها في قافلة واحدة بالنظر الى قلة ما نجده من وحدات الحماية ، وهي تقوم برحلاتها من الجزر البريطانية واليها داخلة وخارجة ، وفي مقدور هذه الطائرات ان تسقط على هذه القوافل او البواخر المنفردة قذائف ماحقة وان ترسل في ذات الوقت اشارات لاسلكية للغواصات المتحفزة لتوجهها الى قطع الطريق عليها .

ودب النشاط في الطرادات الالمانية العنيفة ، فالاميرال شير تعمل الان في جنوب الاطلنطيك متوجهة الى المحيط الهندي ، وقد استطاعت خلال ثلاثة اشهر اغراق عشر بواخر تبلغ حمولتها ستين الف طن ثم تمكنت من الافلات والرجوع الى المانيا ، وكانت « هيبر » لاجئة في ميناء بريست ، وفي نهاية شهر كانون ثاني تلقت البارجتان ــ الطرادتان شارنهورست وغنيزناد ــ بعد ان تم قبل قليل اصلاحها مما لحق بهما من تعطيل فيمعركة النروج ،تلقتا امرا بالمسير الى شمال الاطلنطي ، بينما تقوم « هيبر » بالاغارة على الطريق البحري الممتد الى سيراليون واستطاعت الطرادتان خلال شهرين اغراق او أسر اثنتين وعشرين باخرة تبلغ حمولتها مائة وخمسة عشر الف طن ، اما « هيبر » فقد اغارت على قافلة في طريقها الى الوطن بالقرب من جزر الازور ، ولم تكن لحقت بها وحدات للحماية بعد ، واستطاعت في اغارتها الوحشية التي استمرت زهاء ساعة كاملة اغراق سبع بواخر من تسع عشرة باخرة

تألفت منها القافلة دون ان تحاول قط انقاذ الناجين من البحر ، ثم أتـــت سالمة بعد يومين الى بريست ، وقد اضطرتنا هذه الطرادات المفزعة الى ان نحشد كل ما لدينا من بوارج حربية ضخمة في تامين القوافل ، وقد مضى وقت ولم يكن في قاعدة القائد العام لاسطولنا غير بارجة وحيدة •

ولم تكن بسمارك قد انضمت الى البواخر المستخدمة بعد ، ولا شك في ان الاميرالية الالمانية كانت ترقب اتمامها بصبر نافد ، واكمال قرينتها تيربيتز ، ولم يكن هناك سبيل يمكن لهتلر ان يستخدم فيه بارجتيه الهائلتين بطريقـــة أكثر فائدة وجدوى من وجودهما على أهبة الاستعداد دائما في الاطلنطيك ، واشاعة الامتناع عن خروجهما المحتمل من وقت لاخر وكان مثل هذا العمـل سيفرض علينا ان نركز قواتنا بقدر المستطاع في سكابافلو أو ضواحيها ،لنكون كفوءا لاستعداده ، بينما يظل هو حرا تماما في اختيار وقت العمل ، ولاضطرار البوارج لان تذهب الى قواعدها بين الحين والحين بسبب احتياجها الى بعض الترميمات والاصلاحات فقد كان يتعذر علينا دائما الاحتفاظ بمستوى مـــن التفوق والكفاءة ، فأي خطر مفاجيء كان كافيا لتدمير هذه الكفاءة •

وظللت افكر ليل نهار في هذه المشكلة المرعبة ، وتجمع أملي في نصـــر مؤكد ، في قدرتنا على اثارة حرب طويلة الان الى أن يأتي اليوم الذي نملك فيه التفوق الجوي ، وتقف دول كبيرة ـ كما هو المحتمل ـ الى جانبنا ، ولكن هذا الخطر الذي كان يقف بالمرصاد لاسباب حياتنا كان يفعمني الما ، وفـي بداية شهر اذار نقل الاميرال باوند الى وزارة الحرب اخبارا عن ابتلاع البحر لمجموعة اخرى من البواخر ، واستمعت الى الارقام ، ثم قلت لباوند بعد هذا الاجتماع الذي تم في غرفتي بمجلس العموم : (علينا ان نضع هذه المشكلة في اعتبارنا وان نهتم قبل أي شيء اخر ، وسأعلن بداية حرب الاطلنطيك) واشبه هذا الاعلان اعلاني السابق عن معركة بريطانيا منذ تسعة اشهر ، ويعني ذلك الايعاز الى كافة الدوائر والوزارات المختصة بتركيز اهتمامها وجهودها على حرب الغواصات •

وانشأت (لجنة معركة الاطلنطي) لرغبتي في متابعـــة هذه المشكلـــة واعطائها مزيدا من العناية والاهتمام ، ولاستطيع باستخدامهـــا توجيــــه التعليمات الضرورية لازالة المصاعب والعقبات وفرض العمل على معظـــم الدوائر والفروع المختصة ، وبدأت هذه اللجنة في اجتماعات اسبوعية يشترك فيها كل الوزراء والمنفذين المعنيين من عسكريين ومدنيين • ويمتد الاجتماع الاسبوعي الى ساعتين ونصف تقريبا ، نستعرض خلاله كل أمر ، ونبحث في

كل موضوع ، بل نقتل المشكلة بحثا وتمحيصا ، لننتهي الى قرارات واضحة ، وهكذا وجدت هذه اللجنة الجديدة التي كوناها من الدوائر الواسعة لقيادتنا الحربية التي تضم الالوف من الرجال ذوي الخبرة والولاء ، والتفت حول هذه اللجنة مئات العيون الفاحصة القلقة ٠

وفي هذه الاونة اخذت الغواصات تستخدم طرقا جديدة اصبحت تعرف باسلوب (جماعات الذئاب) ويعني هذا الاسلوب ان تشترك مجموعة من الغواصات في عمل واحد ، وان تنقض على الفريسة دفعة واحدة من جوانب مختلفة ، وكانت هذه الهجمات انذاك تشن ليلا ، وعلى سطح البحر ، وفي غاية السرعة ، وكان في مقدرة المدمرات وحدها ان تلحق بهذه الغواصات بينما لم تكن اجهزة المكافحة ذات جدوى ، وكان الحل يتمثل في زيادة عدد الحارسات السريعة كالغواصات ، وفي تحسين الرادار بصورة جوهرية ، بحيث تقدر شاشته على انذارنا باقتراب الغواصات قبل وصولها واخذ العلماء والبحارة والطيارون يبذلون كل ما في استطاعتهم ، وبرغم ذلك كانت النتائج تمشي على مهل ، وكنا في احتياج الى سلاح جوي ينسف الغواصات العائمة ، والى وقت ندرب خلاله قواتنا على ذلك ، فاذا ما توصلنا الى سد هذين الاحتياجين فان الغواصات ستمضي الى الاعماق كوضعها المعتاد ، ويصبح في مقدورنا معالجة ذلك بوسائلنا القديمة وخبراتنا التي مهدنا عليها ، لكن هذا لم يتحقق الا بعد مرور عامين ٠

وفي خلال ذلك كان برايان المعروف وسواه من قادة الغواصات الالمانية يستخدمون في اندفاع اسلوب (جماعات الذئاب) الذي انتجه الاميرال دونتس قائد سلاح الغواصات ، وقبطان الغواصات الذائع الصيت في الحرب العالمية الاولى ، ولكن عدالة القصاص لم تمهلهم فقد غرق بارايان مع جميع رجاله على ظهر غواصته (يو ٤٧) في ٨ اذار بواسطة المدمرة وولفيرين ،وما مرت تسعة أيام حتى نزل الغرق بالغواصتين (يو ٩٩ ويو ١٠٠) في قتال اشتد أواره عقب مهاجمتهما لاحدى القوافل ، وكان قائداهما من المع الضباط البحريين ، فأدى فقدان هؤلاء الثلاثة المتازين الى ضعف هجوم الغواصات ، وكان القادة الذين تبعوهم الى العالم الثاني من طرازهم كفاءة وشجاعة ، ففي شهر اذار غرقت خمس غواصات في المداخل الغربية ورغم ان هجوم الغواصات قد الحق بنا أضرارا بالغة ، تمثلت في (٢٤٣) الف طن ، غير (١١٣) الف طن تكبدناها على أيدي الطائرات ، فان الجولة من معركة الاطلنطي قد انتهت نتيجة متعادلة بيننا وبين العدو ٠

ولما رأت الغواصات خسائرها الفادحة في المداخل الغربية ، اتجهت الى الغرب أي الى المياه التي لا يمكن للمدمرات الكثيرة ان تصل اليها بالنظر الى حرماننا من موانيء ايرلندة الجنوبية ، والتي لا تقدر على حمايتها جويا بالنظر الى بعدها ، ولم يكن في مقدور مدمراتنا ان تحرس قوافلنا المقلعة من المملكة المتحدة في طريقها الى هاليفاكس غير مسافة ربع الطريق فقط ، وفي بداية شهر نيسان أغارت ارتال من الغواصات بطريقة (جماعات الذئاب) على قافلة بريطانية عند خط الطول ٢٨ درجة ، غربا ، قبل ان تلحق بها الوحدات المدافعة عنها ، وقد غرقت عشر بواخر من اثنتين وعشرين مقابل غواصة واحدة ، واضطررنا الى أن نبحث عن وسائل كافية لحمايتنا ، والا فان نهايتنا ستكون قريبة ·

وتقع جزر نيوفوندلند وغرينلند وايسلنده بين كندا وبريطانيا العظمى ، وهذه الجزر جميعها تقع بالقرب من جناح الدائرة الكبرى بين هاليفاكس وسكوتلندا ، وفي استطاعة قوات تكمن في (نقطة الوثب) هذه ان تسيطر على الطريق كله بعد توزيعه الى قطاعات ، وكانت غرينلند لا يوجد بها أي مورد ، أما الجزيرتان الاخريان فالافادة منهما مستطاعة ، وكان من الاقوال الشائعة « ان من يسيطر على ايسلنده وبيده مسدس يمكنه ان يسدده في ثقة الى انكلترا واميركا وكندا » وكانت هذه الفكرة هي التي دفعتنا الى احتلال الجزيرة بعد موافقة الاهالي عندما احتل الالمان الدانيمرك في عام ١٩٤٠ واقمنا فيها قواعد في نيسان عام ١٩٤١ لفرق حراستنا البحرية وطائراتنا وبهذه الطريقة امتد اتساع حراستنا السطحية الى خط الطول (٣٥) درجة غربا ، وبالرغم من ذلك فقد بقيت هناك ثغرة مروعة في الغرب ، لم يكن في مقدورنا انذاك سدها ، وفي شهر ايار أغير على قافلة آتية من هاليفاكس عند خط الطول (٤١ غربا) وخسرنا تسع بواخر ، قبل أن تلحق النجدة بالقافلة ·

وبدا من المحتم علينا فرض الحماية من الطرف الى الطرف أي من كندا الى بريطانيا ولهذا طلبت الاميرالية في ٢٣ ايار من حكومتي كندا ونيوفوندلاند اعداد ميناء سنت جون في نيوفوندلاند كقاعدة أمامية لوحدات الحراسة المشتركة ، وكانت الاستجابة سريعة ، فلم تأت نهاية الشهر حتى تحققت الحراسة الدائمة على طول الطريق ، ومنذ ذلك الوقت تعهد الاسطول الملكي الكندي بأن يقوم بحماية القوافل في القطاع الغربي من طريق المحيط ، بامكانياته وحدها وكان في استطاعتنا ان نضمن من ايسلنده ومن بريطانيا العظمى حماية كافية على باقي الطريق ومع ذلك فقد ظلت القوات التي لدينا

قليلة الى درجة مزعجة واستمرت خسائرنا في التزايد ، وقد استطاعت الغواصات وحدها في الاشهر الثلاثة المنتهية باخر ايار اغراق ١٤٢ باخرة تبلغ حمولتها ٨١٨٫٠٠٠ طن منها ٩٩ باخرة بريطانية .

وفي غمار هذا التوتر الشديد ، قام الرئيس روزفلت ، بمقتضى السلطات التي خولها له الدستور الاميركي ، ولانه القائد الاعلى للقوات المسلحة ، بمد يد المعونة العسكرية لنا – فقد أصدر أمرا بعدم السماح للغواصات الالمانية والسفن الاخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الاميركي ، وان يضمن له وصول الذخائر التي كان يرسلها الى بريطانيا سالمة حتى منتصف الطريق على الاقل ، وتمخض عن الخطط التي كانت قد أعدت منذ زمن طويل مشروع يقتضي بأن تتضامن الدولتان الناطقتان بالانكليزية في حماية المحيط الاطلنطي ، ولاقناعنا بوجوب اقامة قاعدة لنا في ايسلنده ، فقد بادر الرئيس روزفلت الى اتخاذ الخطوات اللازمة لاقامة قاعدة جوية أميركية في جرينلند ، وكان من المسلم به ان الالمان انشأوا محطات لرصد الاحوال الجوية على الشاطيء الشرقي من الجزيرة في مواجهة ايسلنده ، ولهذا أتى عمل الرئيس في وقته المناسب واصدر الرئيس اوامره الاخرى التي تقضي بأن تتوجه السفن المصابة في معارك البحر المتوسط او غيره من البحار لاجراء عمليات اصلاحها في الاحواض الاميركية ، مما يسر الكثير من العبء الملقى على أحواضنا .

وفي مطلع شهر نيسان وصلتنا انباء رائعة ، فقد تلقيت برقية من الرئيس في ١١ نيسان يخبرني فيها ان اميركا قد قررت توسيع دائرة أمنها التي تجوب فيها دورياتها ، وهو الاجراء الذي اتخذته منذ ان نشبت الحرب ، الى خط يمر بكل مناطق شمال الاطلنطي الواقعة الى الغرب من خط الطول ٢٦ درجة غربا ، وتحقيقا لهذه الغاية فهو يقترح ، ان تستخدم الطائرات والقطع البحرية العاملة من غرينلند ونيوفوندلند ونوفاسكوتيا والولايات المتحدة وبرمودا وجزر الهند الغربية مع توقع امتداد ذلك الى البرازيل ، وحثنا على ان تصله تحركات قوافلنا في طريقة غاية في السرية (لنتمكن بمجموعات دورياتنا من التنقيب عن سفن الاعداء او طائراتهم التي تعمل الى الغرب من خط منطقة الامن المذكورة) ومن جهة اخرى سيسرع الاميركيون في الاعلام بالمناطق التي تحدد دورياتهم وجودالسفن او الطائرات المعادية فيها ، وقد ارسلت هذه البرقية مباشرة الى الاميرالية وانا اشعر بارتياح بالغ .

واعلنت حكومة اميركا في ١٨ نيسان خط الحدود الجديد الذي يفصل بين نصف الكرة الارضية الغربي ونصفها الشرقي وهو الذي اشار اليه

الرئيس في برقيته السابقة ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الخط هو الحدود البحرية لاميركا ، وقد شملت الممتلكات البريطانية التي تقع في القارة الاميركية او بالقرب منها ، وغرينلند وجزر الازور ثم شملت بعد قليل ايسلنده كذلك وأكد هذا القرار أيضا أن السفن الحربية الاميركية ستقوم بأعمال الدورية في مياه نصف الكرة الغربي ، وسترسل الينا مباشرة عن أي تحركات معادية ، لكن أميركا حرصت على موقف الحياد ولم يكن في مقدورها آنذاك ان تضفي حمايتها على قوافلنا ، فظلت بريطانيا وحدها تضطلع بعبء هذه المشكلة طيلة الطريـــق ٠

وكانت سياسة الرئيس الجديدة بعيدة النتائج ، واستمر نضالنا ، وقد خف عبء كبير من أعبائنا ليقوم به الاسطولان الكندي والامريكي ، وبـــدأت امريكا رويدا رويدا تقترب من حلبة الصراع ، وقد قوى هذا التيار العالمي اختراق البارجة بسمارك الاطلنطي في نهاية شهر أيار ، فعلى أثر ذلك اعلـن الرئيس في ٢٧ أيار ــ وهو التاريخ الذي غرقت فيه بسمارك ــ ان انتظارنـــا حتى يدهمنا الخطر نوع من الانتحار ، ولهذا فقد وسعنا أعمال دورياتنـــا شمالا وجنوبا في مياه الاطلنطي وما كاد الرئيس ينهي خطابه حتى اعلن في البلاد « حالة الطوارىء لاجل غير مسمى » ٠

وليس هناك أي برهان على ان الالمان قد هزتهم هذه الخطوات من قبل أمريكا فقد أراد الاميرالان ريدر ودونتس ان يصدر الفوهرر أمـــرا بتوسيـــع المجال للغواصات الالمانية ، ويطلق لها حرية العمل في اتجاه الساحل الامريكي وصد البواخر الامريكية اذا سارت في قوافل أو بدون أضواء ولكن هتلر ظل عنيدا في موقفه ، لانه كان لا يأمن عاقبة الحرب مع أمريكا ، ويصمم على ان تتجنب القوات الالمانية أي استثارة من هذا النوع ٠

ونتيجة لاتساع نشاط العدو لحقت به خسائر فادحة ، ففي شهر حزيران، كان للعدو فضلا عن العدد الموجود تحت التدريب حوالي خمس وثلاثيـــن غواصة في قلب البحر ، وكان ما يعده من غواصات جديدة يزيد بكثير عمـــا لديه من بحارة مدربين ولا سيما القباطنة ذوي الخبرة والتجربة ، وهكـذا بدأ عدد بحارة غواصاته الجديدة يقل تدريجيا وأصبحت غالبيتهم من الشبان قليلي الخبرة ولذلك فقد فاتتهم الدقة والمهارة الكافيتان ، وأدى شمول المعركة للاطراف البعيدة من المحيط الى عدم استمرار التعاون المخيف بين الغواصات والسلاح الجوي ، ولم يكن من قديم اعداد الطائرات الالمانية الكافية او تدرب طياريها على العمل فوق البحر ، ومع ذلك فقـــد استطاعت في خـــلال اذار

ونيسان وأيار ان تغرق (١٧٩) باخرة حمولتها (٥٤٥) الف طن ، غـرق معظمها في المناطق الساحلية ، ومن بين هذه السفن عدد تصل حمولته الـى أربعين الف طن غرق بسبب غارتين جويتيـن في غايـة العنف على أرصفـة ليفربول في بداية شهر أيار ، وقد حمدت الله لان الالمان لم يستمروا في شـن هجماتهم على هذا الجانب الواهن ، وفي الوقت نفسه استمر خطر الالغـام المغنطة مسلطا على سواحلنا غامضا وخداعا ، ينزل بنا أفدح الخسائر وان كانت قد بدأت تقل شيئا فشيئا ، وقد نهضنـا بقواعدنـا في ايسلنده وكنـدا ودعمناها فورا ، ووضعنا مخططات قوافلنا على هدى من هــذا الاعداد ، وضاعفنا الطاقة الوقودية لمدمراتنا القديمة كما وسعنا مجال تحركاتهـا ، وخاضت القيادة المشتركة التي كونت حديثا في ليفربول بكل امكانياتها غمار المعركة ، ومع تزايد المدمرات الحارسة بالاضافة الى خبرة بحارتها استطاع الاميرال نوبل تقسيمها الى وحدات دائمة ، لكل وحدة منها ، قائد معيـن ، وتقوت روح العمل الجماعي وتعود الرجال الاتحاد والتفاهم على العمل مع ادراك عميق لوسائل قائدهم ، وهكذا أصبحت وحدات المدمرات تخطو نحـو القوة والمتعة بينما بدأت قوات الغواصات تنحدر الى هاوية الضعف والوهن ٠

ولم يأت شهر حزيران حتى كنا قد صعدنا الى درجة التفوق ، وكنا نبذل كل جهد لتطوير اسلوب قوافلنا ، وتدعيم الدفاع عنها ، وتحسين الاسلحـة والاختراعات الحديثة ، وكانت احتياجاتنا الضرورية تتمثل في حيازة عـدد أكبر وأسرع من سفن الحراسة شرط قدرتها على تحمل لوازم الوقود لاطول زمن ممكن وانشاء اكبر عدد من الطائرات ذات المدى البعيد ، ورادار علـى جانب كبير من الكفاية والصلاحية ، ولم تكن الطائرات المقاتلة في القواعـد الساحلية تستوفى الشروط المطلوبة ، بل ظلت القوافل في احتياج لطائـرات تحملها البواخر لتنقض على أية غواصة تبدو على مدى اطلاق النار في وضح النهار ، وتضطرها الى أن تنسحب الى أعماق المياه فيحال بينها وبين القتال ، أو لتخبر عنها القطع البحرية الاخرى فتصل الى المكان في وقت مناسب وقـد استطاعت في مدى قصير طائراتنا المقاتلة التي تطلقها أجهزة قاذفة اقيمت لهذا الغرض خاصة على ظهر البواخر التجارية العادية او البواخر التي تحولت الى بوارج وأمدها السلاح الملكي بالرجال ، استطاعت ان تواجه خطر طائرات « الفوكاولف » وكان الطيار المقاتل الذي ينطلق كصقر يطارد فريسة يعتمد في بداية الامر على احدى سفن الحراسة لانقاذ حياتــه ، وبهذا أصبحـــت « الفوكاولف » فريسة مطاردة بعد أن كانت الطائر المنقض ، وفرض غزو هتلر

لروسيا على القيادة الالمانية توزيعا جيدا لقواتها ، وهكذا بعد ان ارتفعت خسائرنا في شهر نيسان الى القمة حتى بلغت ثلاثمائة الف طن اسبوعيا أخذت تهبط الى خمس هذا الرقم في أشهر الصيف ٠

وقام الرئيس الان بخطوة جديدة هامة ، فقد رأى انشاء قاعدة في ايسلندة ، وان ترابط بموافقتنا وحدات أمريكية بها ، بدلا من القوات البريطانية وفي ٧ تموز وصلت الحامية الامريكية الى الجزيرة فأصبحت جزءا من الدفاع عن النصف الغربي ، وأخذت قوافل أمريكا تحت حماية بوارجها تصل بصفة مستمرة الى ريكجا فيك منذ هذا التاريخ ، وبغض النظر عن ان أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب الا انها قد أصبحت تحمي البواخر الاجنبية مع قوافلها ٠

وفي قمة هذا الصراع ، قمت باصدار امر تعيين ، احسبه أهم ما أصدرت من تعيينات وأحسنها حظا ، في ادارتنا الحربية ، ففي سنة ١٩٣٠ ، وقد كنت خارج الحكم ، قبلت لاول مرة ولاخر مرة في حياتي ان أكون عضوا لمجلس ادارة احدى الشركات ، وكانت مؤسسة فرعية لمنظمة اللورد انشاب الخاصة بخطوط الملاحة الشرقية والهندية ، وظللت مداوما ثماني سنوات على حضور الاجتماع الشهري الذي يعقده مجلس ادارة الشركة ، وحريصا على تأدية واجباتي نحوها حرصا تاما ، وخلال الجلسات تعرفت شيئا فشيئا برجل من ألمع الشخصيات ، كان يرأس حوالي ثلاثين او أربعين شركة ، كانت واحدة منها ولعلها أصغر الجميع الشركة التي كنت أحد أعضاء مجلس ادارتها ، وقد عرفت على التو ان فردريك ليثرز هو الرأس المدبر والقوة الموجهة لهذه المنظمة بكاملها ، وكان واسع المعرفة ، ويمتلك الثقة به امتلاكا ، ومكثت الاحظه عاما بعد عام من منصبي المتواضع في الشركة التي يرأسها ، وكثيرا ما حدثت نفسي : « اذا نشبت حرب اخرى فهذا هو الرجل الذي في وسعه ان يقوم بالدور العظيم الذي أداه كبار رجال الاعمال الذين كانوا رهن توجيهي في وزارة الذخائر خلال عامي ١٩١٧ ، ١٩١٨ ٠

وكان ليثرز قد أبدى استعداده لوزارة الملاحة لدى قيام الحرب في سنة ١٩٣٩ في المساهمة بخدماتها ، ولم تقم بيننا صلة وثيقة حينما كنت في الامبرالية لان المهام التي كان يقوم بعبئها فنية وليست توجيهية ، أما الان وفي سنة ١٩٤٠ عندما واجهت صعوبات معركة الاطلنطي ، وكنا في امس الحاجة الى تنسيق الاعمال بين ادارة شئون باخراتنا التجارية وبين تحركات تموينيا بالسكك الحديدية والسيارات من موانينا المجهدة ، فقد لمع اسمه في ذاكرتي ، وتنبهت

اليه في ايار ، وبعد مشاورة طويلة نظمت من جديد وزارتي الملاحة والنقل في جهاز واحد متكامل ، وعهدت الى ليترز رئاسته ، ولاعطى له امكانيات السيطرة اللازمة عليه أوجدت منصب وزارة النقل البحري ووليته عليها ، وكنت احس بحرج شديد امام مجلس العموم حين اقفز باشخاص الى اعلى المناصب الوزارية دون ان يكونوا قد نموا داخل المجلس ومكثوا به بضع سنين وتستبد الرغبة بالاعضاء المحنكين من غير اعضاء الوزارة لان يعملوا على مضايقة كل قادم جديد ، فيجد نفسه بدون اية مناسبة متضايقا من اعداد الخطب والقائها في المجلس ، لذلك رجوت العرش ان يتفضل بمنح الوزير الجديد لقب « لورد » •

وأصبح اللورد ليثرز منذ ذلك التاريخ حتى انتهاء الحرب قائما بالاشراف الكامل على وزارة النقل الحربي ، وصار اسمه يصعد رويدا رويدا وقد استطاع ان يحرز ثقة رؤساء اركان الحرب وجميع اركان الحرب وجميع الوزارات في الوطن ، ووثق صلاته بالامريكيين اللامعين في ذلك الميدان ، وكان على صلة طيبة وفي غاية النجاح بالمستر لويس دوفلاس رئيس مجلس الملاحة الامريكي ، الذي غدا بعد ذلك سفير بلاده في لندن ، وفي استطاعتي ان أقرر ان ليثرز كان مساعدا هاما لي على تصريف شئون الحرب ، وقل ان عجز هذا الرجل ذو الكفاءة الممتازة عن القيام باعباء المهمات التي كنت القيها على عاتقه •

وحينما كانت تفشل الوسائل الوزارية او الاركانية في تصريفها لبعض الشئون كنقل فرقة اضافية او تحويلها من البواخر البريطانية الى الامريكية ، او انجاز بعض المهمات العاجلة كنت التمس عونا شخصيا ، وعلى التو اجد هذه التعقيدات قد حلت وكأنما مستها يد ساحرة •

ورابطت البارجتان ـ الطرادتان الالمانيتان شارنهورست وغنيزناو في بريست طيلة هذه الاشهر القاسية ، وكان انطلاقها الى الاطلنطي محتملا في اية لحظة ، وبفضل السلاح الجوي الملكي شل نشاطهما فقد استمرت طائراتنا تشن الهجوم عليهما وهما في الميناء ، منزلة بهما افدح الاضرار ، مما تركهما عاطلتين عن العمل طيلة العام ، وقد توجه انتباه العدو الى اعادتهما لالمانيا ولكنهما عجزا عن تحقيق ذلك أيضا حتى عام ١٩٤٢ ، وسنعرف في اللحظة المناسبة مقدار نجاح اسطولنا وقيادة سلاحنا الجوي الساحلي ، وكيف اصبحنا مسيطرين على الموقف في الداخل وكيف باتت الغواصات تنهار في نفس البحار التي عملت على تدميرنا فيها الى ان استطعنا ثانية باسلحتنا تطهير مداخل الجزر البريطانية •

الفصل الرابع عشر

ـ يوغوسلافيا ـ

فرض علينا ان نصل الى قرار حاسم بشان جيش النيل ٠٠ هل نرسله الى اليونان ام لا وكان اجتياز هذا التساؤل في غاية الاهمية ، لا لمعاونة اليونان ومؤازرتها في محنتها وعذابها فحسب ، بل ايضا لتكوين خط دفاعي بلقاني يضم يوغسلافيا واليونان وتركيا لعدم الهجوم الالماني المحتمل مع ما يتضمنه ذلك من تاثير على روسيا السوفييتية ، لا يمكن ان نعرف مداه الان ، وان كنا لا نستطيع ان ننكر خطورته ، هذا اذا كان الحكام الروس قد تفهموا المخاطر التي تهددهم ، ولم يكن ما نقدر على ارساله هو الذي سيوجه المسالة البلقانية فغايتنا المعروفة هي اثارة العمل الجماعي وتنظيمه ، واذا استطعنا عن طريق التلويح بقوتنا ان نستثير يوغسلافيا واليونان وتركيا على الاشتراك في العمل ، فاننا سنقهر هتلر على الاختيار بين امرين ، اما ان يترك اطماعه الحالية في البلقان واما ان يخوض قتالا عنيفا مع جيوشنا المشتركة حيث يجد قوة واحدة متازرة في الميدان ، ولم يصلنا انذاك انه عقد العزم على زحفه الجرىء على روسيا ولو عرفنا ذلك في حينه لكنا على يقين اكبر من فوز خططنا وكنا نعرف انه يغامر بالسقوط بين مقعدين ، وقد يقهر على التحول عن مشروعه الضخم الى اتخاذ خطوات مبدئية في البلقان ، وهذا هو الذي حدث بالفعل ، ولم يكن في مقدورنا ان نصل الى معرفته آنذاك ، وقد يعتقد البعض ان ما افترضناه كان صحيحا ، او انه كان اصح مما كنا ندرك ، فقد سعينا الى ضم يوغسلافيا واليونان وتركيا في جبهة قوية ، اما واجبنا حتى ذلك الوقت فقد كان يفرض

علينا تعضيد اليونانيين ، ولجميع هذه الاهداف فقد كان موقف فرقنا الاربع في الدلتا في وضعه الملائـــم ·

وفي مطلع مارس اخذت القوات الالمانية تنهال على بلغاريا ، واستعـــد الجيش البلغاري بكل قواه ، ووقف على اهبة الاستعداد على الحدود اليونانية وكانت الجيوش الالمانية بصفة عامة تزحف نحو الجنوب ، يؤازرها البلغاريون بشتى الطرق والوسائل ، واستانف المستر ايدن والجنرال ديل في اليوم التالي محادثاتهما في اثينا ، وارسل الينا المستر ايدن على هدى ذلك ببرقية غايـــة في الاهمية ، غيرت بعض الشيء من افكارنا بلندن ، وبالرغم من ان الاميرال كنغهام كان مقتنعا بصحة ارائنا الا انه لم يدعنا في شك من الاخطار البحرية التي تهددنا في المتوسط ، والتي تحملها هذه الاراء وسجل رؤساء اركـــان الحرب العوامل العديدة التي تنمو باطراد متعارضة مع خططنا في البلقـــان وخصوصا مع نوايانا في تسيير جيش الى اليونان ولخص الرؤساء رأيهـــم في هذه العبارة : « الاخطار قد تزايدت على المشروع بصورة واضحة » لكنهـــم لم يرتابوا على الاطلاق في تاكيد القادة العسكريين العاملين في المنطقة بـــان الامور لا تدعو الى اليأس بأي حال من الاحوال وبعد ان اعملت التفكير منفردا في تشيكرز ليلة الاحد تلك وقبلت وجهات النظر التي عرضت بوزارة الحـــرب في الصباح الماضي ، ارسلت الخطاب التالي الى المستر ايدن ، الذي كـــان قد رجع الى القاهرة من اثينا ، وكان هذا الخطاب يشير الى تغير ملحوظ من موقفي ، ولكنني احمل كل المسئولية في القرار الاخير ، اذ انني كنت واثقـــا في قدرتي على ايقاف كل شيء لو اقتنعت وايقاف العمل اسهل دائما على كل انسان من العمل ، وقد جاء في خطابي :

« لقد حاولنا بكل الوسائل ايجاد اتحاد بلقاني ضد المانيا ، وعلينـــا ان نتذرع بالحذر فلا ندفع اليونان وحدها دون رغبتها الحرة ، الى المقاومة الباسلة ، في الوقت الذي ليس في مقدورنا مؤازرتها الا بمجموعة ضئيلة مـــن الجنود تستطيع ان تصل الى ميدان المعركة في الفرصة المواتية ، وقد تثـــار مشاكل امبراطورية هامة عندما نزج بالجيوش النيوزيلندية والاستراليـــة في عمل وصفته انت بالخطورة البالغة · ولذا علينا ان نحرر اليونانيين مـــن احساسهم بالتزام الرفض لاى انذار الماني ، اما اذا اصروا من ناحيتهـــم على الكفاح فعلينا ان نؤازرهم في موقفهم بقدر المستطاع ولكن سرعة الزحف الالماني ستتقف بكل تاكيد دون اشتراك جيوش امبراطورية كبيرة في القتـــال ، ولا تعتبر خسارة اليونان والبلقان باى حال من الاحوال بالنسبة لنا خسارة

جوهرية بشرط ان تظل تركيا بكل امانة وصدق على الحياد ، ونستطيع ان نستولي على رودس ، وان نعد لاحتلال صقلية او طرابلس وتشير علينا جهات عديدة بأن الاطاحة بنا من اليونان يضر بسمعتنا في اسبانيا وفيشي ، اكثر من تركنا للبلقان ، الذي لا نقدر على الحيلولة بينه وبين السقوط في يد العدو ولضالة قواتنا •

وقد ارفقت بهذه البرقية التقرير الهام الذي وصلني من رؤساء اركان الحرب •

وعندما قرأ رسالتي سفيرنا لدى اليونان ، اصيب بالياس وخيبة الامل ، وارسل الى وزير الخارجية برقية يقول فيها (كيف يتسنى لنا ان نترك ملك اليونان وحده بعد ما ابدى له القائد العام ورئيس اركان حرب الجيش تأكيدات واضحة عن الفرص المتاحة للنصر ؛ انني لا اتصور موقفنا كهذا لاننا سنضع انفسنا موضع التشهير في اليونان وفي كافة انحاء العالم ، وسيشاع اننا نعرف الوفاء بالوعد ، فليس هناك مجال لان نترك لليونانيين حرية رفض او قبول الانذار الالماني ذلك لانهم قد بيتوا العزم على قتال المانيا وحدهم اذا لزم الامر والقضية الان هي : انمد لهم يد العون ام لا ؟

على هدى ذلك قررت وزارة الحرب تأجيل خطتها الى ان يصلنا رأى المستر ايدن . وفي اليوم التالي وصلتنا برقية يعبر فيها عن رايه بقوله : « لا شك في انهيار اليونان دون ان نحاول انقاذها بالتدخل العسكري ، خصوصا بعد ان ادرك العالم كله ان انتصارات الصحراء قد وفرت لنا القوات المطلوبة ، سينذر بفاجعة محتمة ، فحينئذ ستهوى يوغسلافيا ايضا ، ولن نثق في امكانيات تركيا على الصمود اذا استطاع الالمان والايطاليون ان يحتلوا اليونان دون ان نقاومهم باي مجهود من جانبنا ، ولا اشك في ان سمعتنا ستتأثر من طردنا من اليونان طردا معيبا، لكن القتال في اليونان وتكاليفه اخف بكثير على اي حال من ان نتخلى عنها لتقابل اقدارها بلا معين وبالنسبة الى الظروف الحاضرة ، فكلنا هنا نرى ان ما رايناه سابقا يجب ان ينفذ ويجب ان نمد اليونان بكل عون •

وذهبت انا ورؤساء اركان الحرب ، الى وزارة الحرب التي كانت تحيط علما بكل شيء اثر وقوعه لتقرر بصدده الرأى الاخير ، وهناك عرضنا القضية للبحث ، وعلى الرغم من ادراكنا للحقيقة الماثلة التي تؤكد عجزنا عن ارسال طائرات اكثر عددا من التي قد ارسلناها او من التي ما زالت في طريق وصولها ، فاننا لم نجد سبيلا للتردد ولم تختلف اراؤنا وقد ادركت ان

المسئولين هناك قد مروا بتجربة مفيدة ، لم يكن ثمة ريب على الاطلاق في انهم يقعون تحت اي ضغط سياسي من لندن ، وقد اقتنع سمطس بوجهة النظر هذه وهو الدقيق الراى ، الذي يتمتع باستقلال فكري خاص ، ولم يكن في طاقة اي انسان ان يدعي او يفترض اننا تطفلنا على اليونان واجبرناها على العمل ضد ارادتها ، اذ لم تكن ثمة دولة اكثر منها اقتناعا بالسير في الطريق الذي سلكته ، وكنا بقرارنا قد حصلنا على تعضيد كافة الرجال المسؤولين الذين أصدروا حكمهم في حرية كاملة ، وعلى هدى من أدراكهم التام للموقف من مختلف جوانبه ، وكان زملائي الذين حنكتهم التجارب قد انتهوا بكامل حريتهم الى النتيجة ذاتها ، وكان المستر منزيس الذي تثقل المهام كاهله بالنسبة لهذا الموضوع في غاية الشجاعة لقد كان من جذوة متقدة تنادي بالعمل وكان الاجتماع قصيرا والقرار حاسما والرد مختصرا وهذا هو : « رأي رؤساء أركان الحرب ، انه بالنظر الى اصرار قادة المنطقة ورئيس أركان حرب الجيش البريطاني ، ورؤساء الوحدات المعدة للعملية ، على وجهة نظرهم في ان يستمر تنفيذ القرارات السابقة ، فقد انتهى رأي وزارة الحرب الى ان تتحمل أنت مسئولية تنفيذ العملية ، وهي في قرارها هذا تتحمل كافة التبعات ، وستتصل بحكومات استراليا ونيوزيلنده تنفيذا لهذا القرار .

وعلينا الان ان نتحدث عن مصير يوغوسلافيا ، كان الدفاع عن منطقة سلانيك يعتمد اعتمادا كاملا على دخولها الحرب ، وكان في غاية الاهمية ان نقف على حقيقة نياتها وقد اجتمع سفيرنا في بلغراد المستر كامبل في ٢ اذار بالمستر ايدن في أثينا ، وأوقفه على مدى الفزع الشديد الذي يستولي على يوغوسلافيا من المانيا ، وان الاحوال الداخلية ليوغوسلافيا يسودها القلق بسبب النزاع السياسي ، لكن هناك فرصة لضمان تأييد اليوغوسلافيين اذا ما أدركوا سياستنا في مساندة اليونان ، وارسل وزير الخارجية في ٥ اذار مستر كامبل الى بلغراد ومعه رسالة مخطوطة الى ولي عرش يوغوسلافيا الامير بول ، وقد صور المستر ايدن مآل يوغوسلافيا اذا وقعت في أيدي الالمان ، وأبدى له تصميم تركيا واليونان على الدفاع اذا وقع أي هجوم عليها ، فعلى يوغوسلافيا في مثل هذا الموقف ان تنحاز الينا ، وطلب من السفير ان يبلغ الامير بول شفويا ان بريطانيا قد أعدت قوات كبيرة برية وبحرية لتمد بها اليونان بصورة عاجلة وانه اذا ما وصل الى أثينا احد ضباط الاركان اليوغوسلافيين فسيشترك في المباحثات الدائرة .

وانعقد الكثير من الامل على ظروف الوصي ، فقد كان الامير انسانا محبوبا ، يحب الفنون ولكن سمعة الملكية في البلاد كانت سيئة للغاية ، وكان في هذه الاونة يحرص على موقف الحياد حرصا تاما ، وكان يخاف من تفسير الالمان لاية حركة تتخذ من جانب يوغوسلافيا على انهـا استشـارة لهـم ، فيزحفون جنوبا في اتجاه البلقان ، وقد ابدى اعتذاره عن قبول زيارة للمستر ايدن كان قد رغب في القيام بها ، وكان الرعب مستوليا عليه ، ولم يكن في وسع الوزراء والساسة المرموقين ان يبدوا رأيهم بوضوح ، ولكن كان هناك رجل واحد فقط يدعى سيموفيتش يخرج على هذا الاجماع وهو جنرال في السـلاح الجوي ، يمثل العناصر الوطنية بين ضباط الجيش وقد أصبح مكتبه الخاص منذ حزيران مكانا سريا لمقاومة التسلل الالماني الى البلقان ، ومناهضة موقف الجمود الذي طبع تصرفات حكومة يوغوسلافيا ٠

وقام الامير بول بزيارة سرية لبيرخيتسغارن في ٤ اذار ، وانصياعـا للتهديد الشفوي الشديد تعهد بأن تنحو يوغوسلافيا منحى بلغاريا ، وعندما عاد كانت في انتظاره وجهات نظر متعارضة في مجلس التاج ، وفي المحادثـات الفردية التي قام بها مع القادة ـ سياسيين وعسكريين ـ وكان الجدل حادا ، ولكن الانذار الالماني كان حقيقة صارخة ، وعندما استدعي الجنرال سيموفيتش الى القصر الابيض حيث يقيم الامير بول على التلال المطلة على بلغـراد ، عارض الاستسلام بشدة ، وأكد ان مثل هذا القرار سترفضه بلاد العرب وان الاسرة المالكة ستواجه الاخطار ، ولكن الامير كان قد بذل تعهده السالـف باسم بـلاده ٠

وعقد مجلس الوزراء ليلة ٢٠ اذار جلسة وانتهى فيها الى قـرار الاشتراك في المعاهدة الثلاثية فاستقال ثلاثة وزراء أحتجاجا ، ومن محطـة جانبية للسكة الحديدية استقل رئيس الوزراء ووزير خارجيته القطار الـى فيينا ، وأبرما الميثاق في اليوم التالي مع هتلر ـ واذيع النبأ مباشرة من راديو بلغراد وسرعان ما أعقبته شائعات في جميع مقاهي العاصمة اليوغوسلافية ومنتدياتها عن الويلات المتوقعة ٠

وكانت المجموعة الصغيرة من الضباط الموالية لسيموفيتش قد فكـرت منذ أشهر في القيام بعمل ايجابي اذا ما استسلمت الحكومة للالمان ، وعندما شاعت في ٢٦ انباء رجوع الوزيرين من فيينا الى بلغراد رأى هؤلاء ان يبدأوا العمل ، ولسنا نعرف عددا كبيرا من الثورات كان في مثل نعومة ثورتهـم ، حيث لم ترق قطرة من الدماء فقد قاموا باعتقال عدد من كبار الضباط ، وساق

رجال الشرطة رئيس الوزراء الى مكتب سيموفيتش حيث وقع مرغما على استقالته ، واخبر الامير بول بأن سيموفيتش قبض على ناصية السلطة نيابة عن الملك واصدر امرا بحل مجلس الوصاية ، واقتيد على التو الى مكتب سيموفيتش الامير نفسه ، حيث فرض عليه وعلى زميله ان يوقعا على وثيقة تنازلهما عن الوصاية ، وامهل الامير بضع ساعات ليحزم متاعه ، وليغادر البلاد مع أسرته الى اليونان في الليلة نفسها •

وقد وضعت هذه الخطة وتم تنفيذها بواسطة مجموعة صغيرة من الضباط الوطنيين الصربيين الذين تحسسوا بوعي مشاعر الجماهير الحقيقية ، فاثار عملهم موجة طاغية من التأييد الشعبي ، وانطلقت الجماهير الصربية في شوارع بلغراد تهتف « الحرب ولا المعاهدة » والموت والعبودية » وتناثرت حلقات الرقص في الميادين العامة وانتشرت الاعلام الانكليزية والفرنسية في كل مكان ، ورددت الجموع الصربية اليائسة المناضلة النشيد الوطني في اندفاع عارم وشهد الملك في ٢٨ اذار صلاة شكر في كاتدرائية بلغراد ، وكانت الظروف وحدها هي التي خلصته من مجلس الوصاية ، وحضر الصلاة جمهور ضخم مندفع ، ووجهت علنا الاهانات لوزير المانيا المفوض ، وبصق الشعب على سيارته واثارت المفاجاة العسكرية موجة فياضة بالحماس والوطنية واستيقظ الشعب الذي كان قد حرم من حرية العمل ، تحت سلطة حكومة مستبدة ، وحكام فاسدين ، والذي رأى الكثير من الشباك تنصب من حوله ، استيقظ ليعلن تحديه للطاغية وهو يحلم بالفتح في عزة بطشه وسلطانه •

وكانما اصيب هتلر بلدغة ثعبان ، فاهتاج ذلك الاهتياج المدمر الذي يعوق التفكير السليم لبعض الوقت والذي كان يؤدي به احيانا الى اخطر مغامراته واكثرها جراة ، واستدعى في فورة اهتياجه رجال القيادة العليا الالمانية ، فأسرع جورنج وكايتل ويودل ، ولحق بهم على الفور ريبنتروب ، وقال ان يوغوسلافيا قد أصبحت عاملا مريبا في الخطة المدبرة ضد اليونان ، وفي خطة « بربروسا » القادمة ضد روسيا كذلك ، واستطرد قائلا ان اعلان يوغوسلافيا عن حقيقة نواياها ليس سيئا على كل حال قبل الشروع في عملية « بربروسا » ثم اضاف : يجب تدمير يوغوسلافيا ووحدتها القومية والعسكرية ، ويجب أن تنزل بها ضربة قاضية ، وامضى القادة العسكريون طيلة الليلة يعدون خطط العملية ويحضرون اوامرها ، وقد أيد كايتل وجهة نظرنا في ان الخطر الاكبر الذي تتعرض له المانيا يتمثل في هجوم من المؤخرة على الجيش الايطالي ، واستطرد قائلا : « وكان قرار هتلر بالهجوم على

يوغوسلافيا يعني نقض كافة الخطط والترتيبات العسكرية التي أعددناها حتى ذلك الوقت وفرض علينا ان نضع ثانية ترتيبات الهجوم على اليونان ، وان ننقل وحدات اخرى من الشمال عبر المجر ، أجل لقد فرض علينا الارتجال في كل شيء ٠

وكان تاثر المجر متوقعا بصفة عاجلة ، وبالرغم من أن الغزو الالمانـي المباشر ليوغوسلافيا سيمر عبر رومانيا ، الا أن كافة سبل المواصلات تخترق الاراضي المجرية ، وكرد فعل لما حدث في بلغراد بعثت المانيا بوزير المجـر في برلين الى بودابست بالطائرة ، ومعه رسالة فورية الى الاميرال هورتي الوصي على عرش المجر هذا نصها :

« ستمحى يوغوسلافيا من الوجود ، لمناهضتها علنا لسياسة التفاهم مع المحور ، ويجب ان تعبر معظم القوات الالمانية المسلحة اراضي المجر أولا ، لكن الغزو الرئيسي لن يتم عبر الجبهة المجرية ، وعلى القوات المجرية ان تتدخل في هذه الجبهة ، ومقابل هذه المعاونة سترد للمجر كل الاراضي التي كانت لها سابقا والتي ارغمت فيما مضى على التنازل عنهـا الى يوغوسلافيا ، ان المشكلة عاجلة تماما والمانيا تنتظر الرد السريع الايجابي » ٠

وكانت المجر قد أبرمت مع يوغوسلافيا معاهدة صداقة في كانون اول ١٩٤٠ ، لكن الرفض الصريح لمطالب المانيا سيؤدي الى احتلال المانيا للمجر في غمار الزحف العسكري الذي أصبح متوقعا في كل حين ، ولا سبيل الـى اغفال الاغراء الالماني برد مناطق الحدود الجنوبية التي انتزعتها يوغوسلافيا من المجر بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان الكونت تيليكي رئيس وزراء المجر يحافظ باستمرار على حرية بلاده في التصرف ، ولم يكن مقتنعا بأية حـال بانتصار المانيا في الحرب وعندما وقع المعاهدة الثلاثية ، وكان غير متأكد من استقلال ايطاليا كشريكة في المحور

وكان معنى انذار هتلر له أن يتخلى عن الوفاء ليوغوسلافيا بما تفرضه معاهدة الصداقة لكن القيادة المجرية العليا تحت قيادة الجنرال ويرث وهـو الماني الاصل ، قد تسلمت زمام المبادرة منه ، ووضعت مع القيادة الالمانيـة العليا خطة مشتركة بدون أن تدري حكومة المجر ٠

وقد أسرع تيليكي فاتهم الجنرال ويرث بالخيانة ، ووصلت برقية مـن وزير المجر المفوض في لندن الى رئيس الوزراء في ٢ نيسان سنـة ١٩٤١ ، يخبره فيها ان وزارة الخارجية البريطانية تعتبر ـ كما ابلغته رسميـا ـ ان مساهمة المجر في أية عملية ضد يوغوسلافيا اعلان من بريطانيا للحرب ضدها٠

وهكذا رأت المجر نفسها في موقف اختيار بين مقاومة لا جدوى منهـــا لاختراق الجيوش الالمانية لاراضيها ، وبين الوقوف علنا ضد الحلفاء وخيانة يوغوسلافيا ، ولم يجد الكونت تيليكي سوى طريق واحد لانقـــاذ شرفـــه الشخصي ، فما تجاوزت الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم بقليل حتى كان قد ترك وزارة الخارجية وذهب الى غرفته الخاصة بقصر ساندور ، وبعـد محادثة تليفونية يغلب على الظن انها اخبرته باجتياز القوات الالمانية لحدود بلاده ، أطلق الرصاص على نفسه منتحرا ٠

وبذلك قدم حياته قربانا للتكفير عن نفسه وعن شعبه من جريمة الغزو الالماني ليوغوسلافيا ولا شك في ان هذا العمل قد برأ ساحته أمام التاريـخ ولكنه لم يوقف الغزو الالماني ، ولا ما تسبب عن هذا الغزو من نتائج ٠

وبدأت في خلال ذلك عملية زحفنا في اتجاه اليونان ، وقد سار الزحـف تبعا لترتيب قيامه من اللواء البريطاني المدرع الاول ، والفرقة النيوزيلندية ، والفرقة الاسترالية السادسة وقد جهزت هذه القوات بالعتاد الكامل علـى حساب غيرها من الفرق في الشرق الاوسط وكان المفروض ان يذهب في اثرها اللواء البولندي ، والفرقة الاسترالية السابعة ، واعدت الخطة على ان تأخذ قواتنا خط الياخمون الذي يبدأ من مصب النهر الذي يسمى الخط باسمه مارا بفيريا وادهيسا حتى الحدود اليوغوسلافية ، وكان على جيوشنا ان تنحاز الى الجيش اليوناني المقيم في هذه المنطقة ، والذي كان يبلغ حوالي سبع فـرق ، على ان يتولى القيادة العامة الجنرال ويلسون ٠

وكانت القوات اليونانية اقل عددا مما تعهد به الجنرال باباغوس بادىء الامر ، فقد كان القسم الاكبر منها يبلغ خمس عشرة فرقة في البانيا ، امـا الباقي ففي مقدونيا ، وقد رفض باباغوس ان يسحبها ، وقد أصبحت قوة غير عسكرية بعد أربعة أيام من الغزو الالماني ، وتكونت قواتنا الجوية من حوالي ثمانين ، طائرة محاربة أمام قوة جوية المانية يبلغ عددها عشرة أضعاف ذلك العدد ، وكانت نقطة الضعف في خط الياخمون تتمثل في جناحه الايسر الـذي يتمكن الالمان بزحف سريع عبر المناطق الجنوبية اليوغوسلافية من محاصرته ، ولم يكن هناك اتصال بالقيادة اليوغوسلافيـــة العليا حيث لم نكـــن نحن واليونانيون قد وقفنا على مدى استعدادها ونوع خطتها للدفاع وعلى اية حال فقد تمثلت أمامنا في الارض الوعرة التي يجب ان يجتازها العدو ، وطبيعتها التي تستطيع ان تعطي الفرصة لليوغوسلافيين لتعويق الزحف فترة مـــن الزمن ، ولكن هذا الظن تبدد سريعا ولم يجد الجنرال باباغوس ان عمليـــة

الانسحاب من البانيا تستطيع ان تواجه حركة التطويق هذه فهي ستؤثر أولا في الروح المعنوية للجيش ، كما ان وسائل النقل السريعة غير متاحة للجيش اليوناني كما أن وعورة الطريق تجعل هذا الانسحاب متعذرا جدا ولا شك في ان تأخير قرار بهذا الشأن قد ضيع الفرصة المتاحة ، وفي غضون هذه الملابسات وصل الى الجبهة الامامية لواؤنا المدرع في ٢٧ اذار ، وتبعته بعد أيام قليلة الفرقة النيوزيلندية ·

ولا شك في ان أخبار ثورة بلغراد ، قد بثت في نفوسنا الارتياح والامل فهي على أقل تقدير مكسب وحيد ملموس لما بذلنا من جهود متوالية في سبيل قيام جبهة للحلفاء في البلقان · ولمنع ان تسقط الدول واحدة بعد اخرى في يد هتلر بسهولة ويسر ورؤى أن يظل ايدن في اثينا للتصرف في أمر تركيا · وان يتوجه الى بلغراد الجنرال ديل ، وكان في استطاعة كل انسان ان ييأس من وضع يوغوسلافيا الا اذا تكتلت سائر الدول المعنية في جبهة واحدة بمنتهى السرعة ، وكانت الفرصة متاحة بالنسبة ليوغوسلافيا على الاقل لتسديد ضربة الى مؤخرة الجيوش الايطالية المضطربة في البانيا ، واذا سدد الجيش اليوغوسلافي ضربة فورية حاسمة استطاع ان يحقق عملا جوهريا من وجهة النظر العسكرية فمع ان بلادهم معرضة للغزو من الشمال الا ان هذه الفرصة ستمكنهم من احراز كمية هائلة من الذخائر والعتاد ، تقدر على تموينهم في حرب العصابات بالجبال ، وقد أصبحت أملهم الوحيد ، ولا شك في أن تحقيق مثل هذه الضربة سيكون أمرا عظيما للغاية ، ويسدي صداه في ارجاء الجانب البلقاني بأكمله وهذا ما كنا ندركه تماما في لندن ·

لكن اخطاء السنين لا يمكن معالجتها في ساعات ، فعندما هدأت شعلة الحماس العام التي اتقدت في صدر كل انسان ببلغراد بدأ كل منهم يدرك ان بلاده على حافة الهاوية ، وان ليس في مقدوره أن يقوم بأي عمل لانقاذها ، وكان في استطاعة القيادة العامة على الاقل ان تحشد قواتها لكن لم يكن لديها أية خطة استراتيجية ، ولم ير ديل الا الركود وسوء النظام وربما تكون الحكومة اليوغوسلافية نتيجة لخوفها من الوضع الداخلي قد عزمت على تجنب أي عمل يثير المانيا ، وها هي الجيوش الالمانية تتدفق عليها كجبال من الثلج، وكان بمقدور أي انسان حين يتأمل في موقف الوزراء اليوغوسلافيين وارائهم ان يظن أنهم عقدوا العزم منذ أمد بعيد تجاه الحرب مع المانيا او الصلح معها والواقع انهم لم يبدأوا التفكير في هذا الصدد الا في غضون الاثنتين والسبعين ساعة · التي سبقت اجتياح الالمان لبلادهم ·

ولاحت طائرات المانيا في سماء بلغراد صباح ٦ نيسان ، وأمطرت الطائرات العاصمة اليوغوسلافية بوابل من القنابل ، ثلاثة أيام متوالية بصورة منظمة نموذجية وكانت تحلق على ارتفاع قريب من أسطح العمائر بدون أن تهاب أية مقاومة ، فشاع الدمار في كل أنحاء المدينة بصورة تخلو من احساس بالرحمة او الانسانية ، وقد عرفت هذه الغارات باسم « عمليات العقوبة » وعندما خيم الهدوء ثانية على سماء بلغراد في ٨ نيسان تكشف عن حوالي سبعة عشر الف انسان من أبناء العاصمة وقد صاروا جثثا هامدة على جوانب الطريق او تحت الانقاض وانطلقت الوحوش الضارية الى فك حصارها من حديقة الحيوانات بعد هذه الغيوم الثقيلة السوداء المليئة بالدخان والشرر، وسار دب ذاهل لا يدرك شيئا مما يحدث حوله وسط هذا الجحيم في خطوات ثقيلة ومرعبة نحو نهر الدانوب ، ولكنه لم يكن اخر دب لا يفهم ٠

وفي الوقت نفسه وبلغراد تعاني أهوال الغارات الوحشية ، كانت القوات الالمانية تجتاح من كل الجوانب حدود يوغوسلافيا ، ولم تتحرك القيادة اليوغوسلافية العليا لتسديد ضربتها الوحيدة القاتلة الى مؤخرة الايطاليين ، واعتبرت ان الواجب يلزمها بعدم التخلي عن كرواتيا وبلاد السلوفين ولذلك فقد حاولوا الدفاع عن جميع مناطق الحدود ، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الفرق اليوغوسلافية الاربع العاملة في الشمال نفسها ، محاصرة بالوحدات الالمانية المدرعة ٠ تؤازرها الوحدات الهنغارية التي عبرت نهر الدانوب ، والوحدات الالمانية والايطالية الزاحفة نحو زغرب ٠

واضطرت الجيوش اليوغوسلافية الى الانسحاب الى الجنوب في ارتباك وفوضى ، ووصل الالمان الى بلغراد في ١٣ نيسان ، وفي خلال ذلك كان الجيش الالماني الثاني عشر المرابط في بلغاريا قد اجتاح بلاد الصرب ومقدونيا واقتحم « موناستر » و « يانينا » في اليوم العاشر من نيسان ، فقطع بذلك كل اتصال بين يوغوسلافيا واليونان ودمر جيش يوغوسلافيا في الجنوب ٠

وما مرت سبعة أيام حتى اعلنت يوغوسلافيا استسلامها ، ونسف هذا الانهيار آمال الاغريق وكان هذا مثالا جديدا لخطة هتلر « عدو واحد في كل مرة » وقد بذلنا ما فوق الطاقة ، لايجاد نوع منظم من العمل ، ولكننا عجزنا ، وليس الخطأ في ذلك خطأنا ، وبدت لنواظرنا صورة قاتمة مروعة ، فقد تعاونت خمس فرق المانية ــ ثلاث منها مدرعات ــ على غزو اثينا من الجنوب وبدا لنا ان مقاومة يوغوسلافيا في الجنوب كانت تلقى تدميرا كاملا وان جناحنا الايسر على نهر الياخمون سيدهمه الخطر عما قريب وفعلا بدأ الهجوم على

حرس جناحنا في ١٠ نيسان ، ولكنه توقف اثر مقاومة عنيفة ظلت يومين في طقس ‌ اس للغاية • وغربا كانت فرقة واحدة من الفرسان اليونانيين متصلـة بالقوات المرابطة في البانيا ، فرأى الجنرال ويلسون التراجع بجناحه الايسر نتيجة لما يلقاه من ضغط شديد •

وتم هذا في ١٣ نيسان ، ولكن القوات اليونانية أخذت حينذاك فـي التمزق ، ومنذ ذلك الوقت أضحت القوات البريطانيـة في الميدان وحدها ، وبالنظر للخطر الذي يحدق بالجناح الايسر رأى الجنرال ويلسون التراجع به الى ترموبولي ، واستشار باباغوس فوافق على رأيه ، وعرض بدوره انتنسحب في هذه المرحلة الوحدات البريطانية عن اليونان ، وكانت الايام القليلة التي أعقبت ذلك أياما فاصلة وبعث ويفل في ١٦ نيسان برقية يقول فيها ان باباغوس اعترف للجنرال ويلسون بأن القوات اليونانية تواجه ظروفا قاسية ، وتعاني مصاعب جمة في التمرين والادارة نظرا للغارات الجوية ، وكانت أوامر ويفل الى ويلسون تشير باستمرار القتال بجانب اليونانيين ما داموا قادرين على القتال ولكنه ترك له حرية تقدير الجلاء عندمـا تحتم الظروف ، وأعطيت التعليمات لكافة البواخر الذاهبة الى اليونان بالعودة اذ كان الموقف في غناء عن امدادات جديدة أما البواخر التي بسبيل تنزيل حمولتها فيجب ان تتـم مهمتهـا •

وقد قلت ردا على خطورة هذه الانباء غير المنتظرة انه لا يهمنا الاستمرار في اليونان ضد رغبة قائدها العام ، اذ نكون بذلك قد عرضنا البلاد للدمـار والخـراب •

ولذلك اصدرت اوامري بالانسحاب فورا اذا ما رأت حكومة اليونـان ذلك وأضفت الى ذلك قولي : « أما كريت •• فمن المحتم الابقاء عليها في يدنا بكل وسيلـة » •

واستقل الجنرال ويلسون في ١٧ نيسان زورقه البخاري من طيبة الى القصر الملكي في تاتوي حيث اجتمع بالملك والجنرال باباغوس وسفيرنـا ، وقرروا التراجع الى ترموبولي كعمل حازم ممكن ، وكان الجنـرال ويلسون على يقين من مقدرته على الصمود بهذا الخط الى وقت ما ، وتركـز الحديث على أسلوب الانسحاب ونظامه ، واستقر الرأي على الا تجلو الحكومـة اليونانية الا بعد أسبوع على الاقل •

وقد أوردت سابقا اسم المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان ، وقـد وقع الاختيار على هذا الرجل ليسد الثغرة التي خلفها ميتاكساس بوفاته ،

وكانت مؤهلاته التي رشحته لهذا المنصب ·· سيرة شخصية نظيفة ، ومعتقدات واضحة ثابتة ، واتضح لي ان ليس في مقدوره ان يشاهد تدمير بلاده ، كما لم يعد في وسعه النهوض بأعبائه ، فحذا حذو الكونت تيليكي ، رئيس وزراء المجر وقرر ان يضحي بحياته ثمنا لكل ما حدث فانتحر في ١٨ نيسان ، ولا شك أن ذكراه ستبقى محفوفة بكل تقدير ·

وكان الانسحاب الى ترموولي مهمة قاسية ، ولكن تغطية المؤخرة البارعة ، صدت رغبات الجيش الالماني المتحفزة ، منزلة به أضرارا جسيمة ، ولم يأت يوم ٢٠ نيسان ، حتى كانت جيوشنا قد سيطرت تماما على مواقعها الجديدة ، وكانت الجبهة قوية أما جنودنا فكانوا متعبين جدا ، واستمر الجيش الالماني في زحفه ببطء ، ولم تحدث أي محاولة شديدة وجادة لاختيار الموقع ، وفي اليوم نفسه اعلنت القوات اليونانية التي كانت لا تزال على حدود البانيا استسلامها وفي ١١ نيسان ابلغ جلالة ملك اليونان الجنرال ويفل ، ان الزمن وحده هو الذي لم يساعد أية قوة يونانية على مؤازرة الجناح البريطاني الايسر قبل أن يملك العدو فرصته للهجوم ، وقد قال ويفل ان واجبه في مثل هذا الموقف يهيب به ان يعمل على انسحاب سريع للجيش ، حتى ينقذ منه ما يمكن انقاذه وقد لاقى هذا الرأي قبولا تاما من الملك فيبدو انه كان يفكر فيه وعبر عما يشعر به من أسف لانه كان السبب في ان تلاقي الجيوش البريطانية هذا الوضع المحرج وأبدى استعداده لتقديم كل ما في وسعه من مساعدة ، لكن هذا كله كان هباء ، وفي ٢٤ نيسان استسلمت اليونان استسلاما تاما للزحف الالماني الجبار ·

***

واصبحنا الان أمام عملية انسحاب تشبه تلك العمليات التي فرضت علينا عام ١٩٤٠ ، واتضح لنا ان اجلاء ما يزيد عن خمسين الف رجل بصورة منتظمة من اليونان ، في مثل هذه الاوضاع القاسية ، أمر مستحيل ، ففي دنكرك كنا متفوقين جويا أما اليونان فالالمان يقبضون بيد من حديد على ناصية الجو ، وفي وسعهم الاستمرار في الاغارة على الموانيء وعلى القوات المنسحبة ، وكان من الواضح ان الجلاء لا يمكن أن يحدث الا اثناء الليل ، وان المفروض على الجنود الا يبصرهم العدو نهارا قريبين من الساحل ، انها قصة النرويج تعود من جديد ، مع تزايد الصعوبات التي تلقاها عشرة اضعاف على الاقل ·

وقذف الاميرال كنجهام بكل الوحدات البحرية الخفيفة لتحمل العبء

وتتألف هذه الوحدات من ستة طرادات وتسع عشرة مدمرة ، وبدأت عمليات الجلاء ليلة ٢٤ من الموانيء اليونانية الصغيرة ، وسواحلها الرملية في الجنوب واستخدمت فيها فضلا عن القطع البحرية ، سفن النقل ، وسفن الهجـــوم ومجموعة من القطع الصغيرة .

وتواصل العمل طيلة خمس ليال متوالية ، وسيطر العدو في ٢٦ علـى الجسر الهام على قناة كورنث ، بهجوم جوي عن طريق جنود المظلات ، وانهالت القوات الالمانية على شبه جزيرة البلوبونيس ، يمطرون جنودنا المجهدين وابلا من النيران الحامية ، بينما هم يجاهدون لكي يصلوا الى الشطآن الجنوبية ، ونزلت بنا في نوبليون احدى الكوارث ، فقد مكثت الناقلة « سلامات » في الميناء وقتا أكثر مما ينبغي في محاولة مستميتة ـ ولكنها غير مجدية ـ لتنقذ أكبـر عدد من القوات ، وما كادت تقلع من الشاطيء بعد الفجر حتى انقضت عليها طائرتان فأغرقتاها ، وسعت مدمرتان لانقاذ القوات التي كانت تقلها ويبلـغ عددهم سبعمائة جندي ولكن الغارات الجوية اغرقت المدمرتين أيضا ، ولـم ينج رجال من القطع الثلاث سوى خمسين رجلا تقريبا .

وقام طرادان وست مدمرات في ٢٨ ، ٢٩ بنقل ثمانية الاف جندي وحوالي الف وأربعمائة لاجيء يوغوسلافي من السواحل القريبة من كالا مانا ، ومـا كادت تصل احدى المدمرات الى المكان لتبدأ في عملية الاجلاء حتى كان العدو قد احتل البلدة وشوهدت نيران الحرائق مشتعلة ، فعدلت المدمرة عن المهمة ، وفضلا عن ان قواتنا شنت هجوما على القوات المحتلة وارغمتها على الانسحاب من البلدة ، فلم يقدر النجاة لاكثر من أربعمائة وخمسين رجلا من الشواطيء الشرقية ، عن طريق اربع مدمرات استعانت به الزوارق ، وكانت هذه الاحداث نهاية لعمليات الانسحاب الاساسية ، واستطاعت قطعنا البحرية انقاذ جماعات صغيرة متناثرة في عديد من الجزر او في زوارق صغيرة بالبحر في غضـون اليومين التاليين ، كما استطاع حوالي الف وأربعمائة ضابط وجندي بفضل اليونانيين ورغم الاخطار الهائلة ان يمهدوا السبيل لهم نحو مصر فرادى في خلال الاشهر التالية .

وهكذا خسرنا حوالي احد عشر الف جندي ، ولكننا استطعنا انقـــاذ (٥٠ر٦٦٢) رجلا ، من بينهم رجال السلاح الجوي الملكي ، وعدة الوف من قبرص وفلسطين واليونان ويوغوسلافيا ، وهذا العدد يبلغ حوالي ٨٠ ٪ من القوة الاساسية التي أرسلت الى اليونان ، وكان هذا ـ بكل تأكيد ـ بفضل بحارة اسطولنا التجاري وأساطيل أصدقائنا وما امتاز به اولئك البحارة من

عزيمة قوية وخبرة وافرة ، وتصميم على اداء المهمة تحديا لكل ما ق
العدو من محاولات مستميتة عنيفة ، وقد خسرنا نتيجة للهجوم الجو
باخرة منذ ٢١ نيسان حتى نهاية الانسحاب · وقد بذل السلاح الجوي
ووحدة من سلاح الاسطول الجوي من كريت كل ما في طاقتها ، ولكن ا
كان يتفوق دائما عليهما بأعداد ضخمة من الطائرات ومع ذلك فقد ق
سلاحنا الجوي بمهمات رائعة منذ تشرين الثاني الماضي الى آخر مع
اليونان فقد اسقط بكل تأكيد (٢٣١) طائرة معادية ، وامطر العدو بما
بخمسمائة طن من القنابل · اما خسائر سلاحنا فكانت فادحة ايضا .
اسقطت (٢٠٩) طائرات منها (٧٢) في المعارك الجوية ، التي شهدت
نادرة من البطولة ·

وكان الاسطول اليوناني الصغير قد فر الى الاسكندرية وكان عبا
طراد وست مدمرات حديثة ، واربع غواصات ، وصلت كلها سالمة
نيسان وانضمت الى قواتنا تحت اشراف قادتنا وقد أبدى هـذا الا
الصغير مهارة ملحوظة في كل المعارك التي خاض غمارها بجانبنا منذ
التاريخ في البحر الابيض المتوسط ·

واذا كانت كتابتي عن هذه الكارثة توحي بأن جيوشنـا البريط
والامبراطورية لم تعضدها المساعدات العسكرية اليونانية ، فان علينا أن
ان هذه الاسابيع الثلاثة من الحرب في شهر نيسان ضد الحشود الهائل
تعتبر لدى اليونانيين قمة النضال الذي امتد خمسة اشهر ضد ايطاليا ،
قضى على كل منابع القوة والحياة في البلاد ، فقد هوجم اليونانيون
أيار من عام ١٩٤٠ دون سابق انذار بقوات تبلغ ضعف ما لديهم على
فصمدوا امامها أولا ، ثم شنوا هجوما ارغم العدو على الانسحاب مس
أربعين ميلا داخل البانيا ، كما استمر اليونانيون طيلة الشتاء القاسي ي
في الجبال عدوا قد تفوق عليهم في العدد والعتاد · ولم تكن في حوزتهم
النقل في الشمال الغربي او سبله اللازمة للقيام بمناورة سريعة يصدور
الهجوم الالماني العنيف في اخر لحظة والذي يطوق مؤخرة الجيش اليو
ويحاصر جناحه ، ولقد استنفد جيش اليونان كل طاقته في الدفاع البا
حياض وطنـه ·

ولم يكن ثمة سبيل ، لالقاء التهم ، فما لقيناه من اخوة ومساع
الجيش اليوناني قد استمرا في صدق واخلاص الى النهاية ، وكان سكا
وغيرها من مناطق الانسحاب الاخرى ، مهمتين بسلامة من عرفوا أنهم

جاءوا الا لحمايتهم ، اكثر من اهتمامهم بسلامتهم الشخصية ، وسيظل الشرف العسكري اليوناني نقي السيرة ٠

ووجهت اذاعة الى الشعب حاولت فيها ان لا أعبر عن مشاعر العالم الناطق بالانكليزية فحسب ، بل ان اعرض الظروف التي صنعت أقدارنا أيضا وجاء فيما اذعته :

« وبينما ننظر قلقين متألمين الى أحداث أوروبا وأفريقيا والى ما قد يحدث في اسيا علينا ان نسيطر على أعصابنا والا يستبد بنا الفزع أو الاحساس بوهن العزيمة ، وعندما نسلط نظرة فاحصة على المتاعب التي ما زالت تنتظرنا ، فاننا نتذرع بالايمان من جديد اذا ما لاحظنا العقبات التي استطعنا اجتيازها الى اليوم ، وكل ما يحدث اليوم لا يمكن ان تقاس أخطاره بالاخطار التي واجهناها في العام الماضي ، ولا شيء مما قد يحدث في الشرق يمكن ان يقاس بما يعد اليوم في الغرب

واني لاذكر أبياتا من الشعر ، أحس بأنها تتوافق مع ظروفنا الراهنة ، ويملؤني الاعتقاد بان كل أرض تنطق بالانكليزية ستصدر عليها هذا الحكم وكذلك كل بلد تخفق فيه راية الحرية ٠

« وبينما ـ عبثا ـ تتكسر الامواج الواهنة
يائسة من الحصول على شبر من الشاطيء الهاديء
بعيدا ٠٠ هناك ٠٠ عبر الخلجان والمداخل
تأتي الموجة الغامرة ٠٠ في هدوء
وعبر النوافذ الشرقية ٠٠ وحدها ٠٠ لا يأتي الضوء
عندما يشرق نور الصبح ٠٠ وتنسل الاشعة من النوافذ التي تصعد الشمس أمامها الى أجواء الفضاء ٠٠
بطيئة وعلى مهل ٠٠٠
بل هناك ٠٠ الى الغرب ٠٠ لا تزال الشمس مشرقة ٠٠٠

الفصل الخامس عشر

جناح الصحراء

اصبحت كل مهمتنا تكوين جبهة بلقانية مع الابقاء على جناح الصحراء في شمال افريقيا ، وكان في مقدورنا ان نكون هذه الجبهة في طبرق ، ولكن ويفل اختار ان يستمر في زحفه السريع غربا وان يستولى على بنغازي ، مما مهد لنا الاستيلاء على برقة كاملة ، وكانت الزاوية البحرية في « العقيلة » هي المدخل لهذه المنطقة ، وتقرر في القاهرة ولندن ان تستمر هذه الجبهة بكل الوسائل ، وافرادها بالاولوية دون اية مغامرة اخرى ، وقد اقتنع ويفل نظرا الى تحطيم الجيوش الايطالية تحطيما كاملا في برقة ، وبالنسبة للمسافات البعيدة التي يفرض على العدو اجتيازها قبل ان يستطيع الاتيان بقوات جديدة ولا في استطاعته الى فترة طويلة الابقاء على هذا الجناح الفعال بوحدات معقولة والاستعاضة عن الوحدات المجربة باخرى اقل منها خبرة ، ولم يكن يخطر ببال احد ان يضحى بهذا المرتكز الذي يعتمد عليه كل شي في الصحراء او تعرضه للخطر في سبيل اليونان او من اجل اى شيء اخر في البلقان ·

ولكن صعد الان على المسرح وجه جديد ، هو مقاتل الماني سيفرض نفسه كثيرا على اساطير قومه وبطولاتهم الحربية ·

***

ولد ايروين رومل في هايد نهايم دورتمبرج في تشرين الثاني سنة ١٨٩١وفي

الحرب العالمية الاولى اشترك في معارك الارغون ورومانيا وايطاليا ، وجـرح مرتين واستحق ارفع الاوسمة من الصليب الحديدي ومنع وسام الاستحقاق ، وتولى في بداية الحرب العالمية الثانية قيادة مقر الفوهرر في الحملـة علـى بولندا ثم تولى قيادة الفرقة السابعة المدرعة (البانزر) من الفيلق الخامس عشر ، وقد سميت هذه الفرقة باسم « الاشباح » وكانت خلال جبهـة المـوز بمثابة رأس الرمح للاختراق الالماني ، ونجا من الاسر بما يشبه المعجـزة عندما شن البريطانيون هجوما مضادا على اراس في ٢١ ايار سنة ١٩٤٠ ، وكانت فرقته ثانية رأس الرمح الذي اخترق السوم متقدما نحو السين فـي اتجاه روان مطوقا الجناح الفرنسي الايسر ، وموقعا عددا كبيرا من الفرنسيين والبريطانيين حول سان فاليري في أسره ، واحتلت فرقته شربورج ، بعد ان تم انسحابنا ، واستسلمت له المدينة وما بها من القوات الفرنسية التي كان يبلغ تعدادها ثلاثين الفا ٠

وكانت هذه المهام الجسيمة هي الدافع الى اختياره ، في بداية عام ١٩٤١ قائدا للقوات الالمانية المرسلة الى ليبيا ، وكانت اماني الايطاليين في ذلك الحين تنحسر في الابقاء على مقاطعة طرابلس وتولى رومل قيادة الفرق الالمانيـة النشيطة تحت الاشراف العام للقيادة الايطالية ، وحاول اثر وصوله تدبيـر هجوم قوي وعندما طلب منه القائد الايطالي في بداية شهر نيسان ان يتعهد له بعدم تحرك القوات الالمانية الافريقية بدون أوامره قال له رومل محتجا : «بصفتي قائدا المانيا يجب على اصدار التعليمات حسب ما يملي علي الموقف»٠

ولقد ابدى رومل في الحملة الافريقية ضروبا من البراعـة في قيـادة التنظيمات وتوجيهها وخصوصا في ارجاع التجمع على الفور بعد اية عملية ، والاستمرار في اكتساب النصر والغلبة ، ولقد كان مغامرا عسكريا نادرا ، يسيطر بكل براعة على شئون التموين ويستخف بالدفاع ، وكانت القيـادة العليا الالمانية قد القت له الزمام في بداية الامر فادهشها بانتصاراته ، وجنحت الى تقييد تصرفاته ، وقد انزلت بنا حيويته اضرارا فادحة مؤلمة ، ولكنـه جدير بالتحية التي ارسلتها في مجلس العموم في كانون الثاني ١٩٤٥ ، مع ما جلبه الي من لوم الجماهير فقلت انذاك ان امامنا خصما جريئا بارعا ، بل اني لاجد من الجرأة في نفسي ما استطيع به ان اقول: اننا نواجه جنرالا عظيما، خليقا بكل تقدير ، لانه على الرغم من كونه جنديا المانيا مخلصا ، بدأ يمقت هتلـر ويكره كل اعماله ، واشترك في مؤامرة عام ١٩٤٤ لانقاذ المانيا من قبضـة الدكتاتور المجنون ، وقد دفع حياته ثمنا لهذا العمل ٠

كان مضيق العقيلة مرتكز الموقف كله ، فاذا استطاع العـدو اجتياح جبهتنا والوصول الى اجدابية ، فان بنغازي وكل ما يقع الى غرب طبرق ، تغدو في خطر ، وكان على العدو ان يختار بين ان يمضي في الطريق الساحلي الممهد الى بنغازي وما وراءها وبين الطرق الصحراوية التي تصل مباشرة الى المخيلي وطبرق ، والتي تتخلل منطقة صحراوية يبلغ طولها مائتي ميـل وعرضها مائة وقد اخترنا نحن هذا الطريق في شهر شباط الماضي فحاصرنا واسرنا بضعة الاف من الايطاليين المنسحبين عبر بنغازي ولم نكن نفاجأ قط اذا اقتحم رومل الطريق نفسه ، وواجهنا بلعبتنا السابقة ، ولكن مادمنـــا مسيطرين على العقيلة فانه لن يستطيع استغفالنا بهذه الصورة ٠

وقد اعتمدت كل خطوة على ادراك طبيعة الحرب البرية والصحراوية معا فان الحرب في الصحراء تستلزم تفوقا في السلاح المدرع ، وفي نوع الجنود لا كميتهم وتستلزم جوا معينا ٠ ولو ضمنا هذه الامور لاستطعنا ان ننتصر في معركة الانهيار والتماسك في الصحراء حتى ولو اصبحنا ببوابة العقيلة ، ولكن اي وضع من هذه الاوضاع لـم يتهيأ لنا برغـم كـل الاعدادات التـي اتخذناها ، كانت قوات العدو الجوية متفوقة علينا ، وكان سلاحنا المدرع في حالة غير صالحة لاسباب ساذكرها فيما بعد ، كمـا كانت احـوال جنودنـا التدريبية ومعداتهم الى الغرب من طبرق تثير الاسى ٠

وبدأ رومل في هجومه على العقيلة يوم ٣١ اذار ، وتراجعت وحدتنـا المدرعة التي لم تكن في الحقيقة تتالف الا من لواء واحد مع مساعديه تراجعت في بطء خلال اليومين التاليين ، وضح منذ البداية تفوق العدو الجوي ، ولـم نكن نلقي بالا ـ للطائرات الايطالية ، فثمة مائة طيارة المانية مقاتلة ، ومائة من القاذفات المنقضة وفي مواجهة قسوة هذا الهجوم انتثر نظام جيوشنا ونزلت بنا افدح الخسائر وانهار في يوم واحد ، وفي ضربة واحدة ، جناح الصحراء الذي كان اساس جميع خططنا ٠

وارسلت التعليمات بالجلاء عن بنغازي ، ولم تات ليلة ٦ نيسان ، حتى كان الاخلاء يتم بسرعة بالغة ، وكانت طبرق قد دعمت بقوات اضافية واصررنا على الاحتفاظ بها ، ولكن الفرقة الثانية المدرعة وكتيبتان هنديتان مدرعتـان فوجئت بحصار من قوات العدو فاستطاع عدد من الرجال اختراق طريقـا للنجاة بانفسهم من هذا المازق واسروا حوالي مائة جندي الماني ، ولكـــن الاغلبية قـد استسلمت مرغمـة ، وعلـى التـو اندفـع العدو الى البرديـة والسلوم بواسطة عـدد كبيـر مـن السيارات المدرعـة الثقيلـة والمشـاة

المحملين على السيارات ، بينما شنت قوات اخرى هجومها على خطوط طبرق الدفاعية ، واستطاعت قواتها الصمود امام هجومين منزلة بدبابات العدو اضرارا بالغة ، وهكذا استتب الامر في تلك الاونة بكل من طبرق والحدود المصرية ٠

***

كانت الهزيمة التي منى بها جناح الصحراء على حين وجود جيوشنا في معركة اليونان فاجعة من نوع فريد ، واستبدت بي الحيرة الكاملة في العوامل التي ادت الى هذه الكارثة ، ولذا فقد اسرعت في مساءلة الجنرال ويفل في بداية فترة التوقف ، وطلبت اليه ان يوضح لي بصورة كافية كل ما حدث ، وكان مما لاينسى ان الجنرال نسب الى نفسه كل تقصير ، ورأى انه سبب الكارثة التي استنفذت كل مالديه من سلاح مدرع ٠

وبينما كنت في رتيشلى اقضى عطلة الاسبوع في يوم الاحد ٢٠ نيسان وصلتني رسالة كتبها الجنرال ويفل الى رئيس اركان حرب الامبراطورية يوضح فيها خطورة الموقف ، وقد توسع في الحديث عما يوجد لديه من دبابات ٠

ورسم لى لوحة قاتمة ، واستطرد قائلا : « ويظهر من هذا بوضوح ان هناك فرقتين فقط من الدبابات السريعة في مصر في اواخر شهر ايار ، بينما لم تكن هناك اية قوة متوافرة لسد الفراغ حين وقوعه ، وبالرغم من ان لدينا بمصر قوات مدربة ومتفرقة تكفي لعدة كتائب ، وان مدنا بالدبابات الثقيلة والسريعة امر جوهري وخصوصا ان الدبابات الثقيلة تنقصها السرعة وتحتاج الى مجال العمل الفسيح الذي تحتمه العمليات الصحراوية ، ارجوك يا رئيس الاركان ان تبذل شخصيا كل ما في وسعك » ٠

وقد فزعت من قراءة هاتين الرسالتين ورأيت ان اتغافل عن كل تردد يبدو على الاميرالية من ارسال القوات عبر البحر الابيض المتوسط ، وان ارسل الى الاسكندرية رأسا قافلة تتضمن ما يحتاج اليه الجنرال ويفل من الدبابات ٠ وكنا قد جهزنا قافلة بامدادات مدرعة ضخمة ، وكادت ان تقلع الى مصر عن طريق رأس الرجاء الصالح فقررت ان تتجه البواخر السريعة الحاملة للدبابات في القافلة من جبل طارق نحو مصر متخذة اقصر طريق حيث توفر اربعين يوما ، وحضر الجنرال ايسماي ليراني عند الظهيرة وكان يقيم بالقرب من المنزل الذي اقيم فيه ، فدفعت اليه برسالة خاصة ليبلغها بدوره

الى رؤساء الاركان ، ورغبت اليه في ان يذهب بها عاجلا الى لندن ، وان يؤكد لرؤساء الاركان انني اعطي اهمية بالغة لتنفيذ هذه الفكرة عاجلا ٠

وكان رؤساء الاركان في الوقت الذي وصل فيه ايسماي الى لنـــدن يعقدون اجتماعات ، فأخذوا يناقشون رسالتي في ساعة متأخرة من الليل ٠ وكانت احساساتهم الاولى لا تؤيد ما جاء بها ، كما كان املهم ضعيفا في ان تستطيع السفن المحملة بالدبابات ان تمخر عباب المتوسط ، متجنبة كل خطـر بينما تواجه بعد اجتيازها مالطة ودخولها في المضايق هجمات من طائرات العدو المنقضة ، بينما لا تستطيع طائراتنا المقاتلة فرض حماية عليهـا مـن قواعدها الساحلية ، واشار بعضهم الى حاجتنا للدبابات في داخل البلاد والى ان اي خسارة في الدبابات خارج البلاد تستلزم ــ لتعويضها ــ ارسال دبابات اخرى من سلاحنا الداخلي ٠

وعندما اجتمعت في اليوم التالي مع لجنة الدفاع احسست بالارتيـاح لوقوف الاميرال باوند الى جانب رأيي ، وموافقته على عبور القافلة في البحر المتوسط وتعهد ماريشال الجو بورتال رئيس اركان السلاح الجوي بأن يبذل كل ما في وسعه لارسال وحدة من طائرات «البوفاتير» ، لتضفى من جزيـرة مالطة حمايتها على القافلة ورغبت حينئذ الى اللجنة ان تبحث في ارسال مائة دبابة سريعة اخرى مع القافلة ، فاعترض الجنرال ديل على ذلك بحجة افتقارنا الى الدبابات في الدفاع الداخلي ، ولكنني تذكرت انه ابدى موافقته سابقـا وقبل عشـرة شهور على ارسـال نصف ماتحت يدنـا من دبـابات الـــى الشرق الاوسط عـن طريق رأس الرجاء الصالح وكان هذا في تمـوز سنـة ١٩٤٠ ، لذلـك لـم أسلـم بحجتـه الراهنة ، ولعل القارىءيذكـر ان خطر الغزو لم يكن بالنسبة لنا في نيسان سنـــة ١٩٤١ خطرا مهـددا بالنظـر الى مـا اعددنـاه مـن ترتيبـات المقاومة ، وها نحن اليوم نـرى ان رأيي كان صائبـا وقـد استقر الرأي اخيـرا على تنفيذ هذه الخطـة التـي دعوناهـا باسـم « النمـر » ٠

***

وبينما حدث كل هـذا كانت طبرق لا تزال تمـلأ خـواطرنـا ، فقـد فقدنـا كل طائـرات « الهاريكين » في اليونـان ، وفي طبـرق حطم عدد منهـا او أسقط ، وأكد ماريشـال الجـو لونغمور ان كل محاولـة للابقـاء علـى سرب من الطائـرات المقاتلة فـي طبرق ستضيف خسـارة جديـدة دون ان

تخدم غاية ، وهكذا سيمضي العدو في سيطرته الكاملة على سماء طبرق الى ان نقدر ثانية على تجهيز قوة جوية محاربة ، ومع ذلك فقد صدت قواتنا هناك هجوما جديدا للعدو وكبدته خسائر لا يستهان بها ، وأسرت من رجاله مائة وخمسين •

وقد ارسل الينا الجنرال ويفل عاجلا اخبارا مروعة اخرى عما ينتظره رومل من امدادات جديدة ، واخبرنا بأن نزول الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة الى الساحل سيتم في ٢١ نيسان ، وكانت هناك علامات على استخدام بنغازي في هذه العمليات بشكل منظم ، وعلى الرغم من ان حشد المؤن يستلزم خمسة عشر يوما على الاقل الا ان ويفل توقع ان تبدأ الفرقة الالمانية الجديدة المدرعة ، والفرقة الخامسة الالية الخفيفة ، والفرقتان الايطاليتان اريتي وتورنتو هجوما في منتصف حزيران ، وقد ازعجنا ونحن في الوطن ان نعجز عن استخدام بنغازي قاعدة ، مفيدة ، بينما يستطيع الالمان بعد سيطرتهم عليها استخدامها على هذا النحو •

وفي الاسبوعين التاليين اخذ اهتمامي وقلقي يجتمع في سير عملية « النمر » ولم أهون أبدا من مدى الاخطار التي اخذ على عاتقه لورد البحر الاول مواجهتها ، وأدرك ان الاميرالية تنظر للعملية بقلق وخوف ، ومرت القافلة المكونة من خمس بواخر تسير بسرعة خمس عشرة عقدة بمضيق جبل طارق في ٦ ايار تحت حراسة من قوة الاميرال سرموفيل التي تتكون من ربناون والملايو وارك رويل وشيفلد واحتوت القافلة كذلك على المجموعات التي بعث بها لتدعيم اسطول متوسط وتتكون من الملكة اليصابات ـ ونایاد وفيجي ، وصدت الغارات التي شنت على القافلة في ٨ ايار دون ان تصاب احدى القطع بأي سوء ، لكن الالغام في تلك الليلة قد انفجرت في باخرتين لدى اقتراب القافلة من مضيق صقلية فنشبت الحرائق في احداهما وغرقت بعد الانفجار الذي حدث على سطحها ، وقدرت الثانية على الاستمرار في الرحلة مع القافلة وعندما وصلت القافلة مدخل المضيق من جانب قناة سكيركي غادرها الاميرال سومر فيل بقواته وعاد الى جبل طارق وجاء الاميرال كنجهام الذي تهيأت له الفرصة في ٩ أيار لتسيير قافلة الى مالطة فالتقى بقافلة «النمر» باسطوله على بعد خمسين ميلا جنوب الجزيرة ، وشقت كل هذه القوات طريقها نحو الاسكندرية حتى رست بها في أمان دون أي ضرر أو خسارة •

وبينما كان قدر العملية كلها مجهول المصير ، ذهبت بأفكاري الى

جزيرة كريت التي كنا على يقين من وقوعها تحت وطاة هجوم جوي بين لحظة واخرى ، وفكرت في ان الالمان اذا قدروا على احتـلال مطـارات الجزيـرة واستعمالها ، فستكون لديهم الفرصة دائما لتعضيد مركزهم وتدعيم اوضاعهم، وان في مقدور اثنتي عشرة دبابة ان تفرض عليهم حرمانا ابديا من هـــذه الفرصة ، ولهذا طلبت من رؤساء اركان الحرب ان يدرسوا احتمـــال اقلاع عدد من بواخر القافلة « النمر » الى كريت لتمدها بعدد قليل من هذه الدبابات قبل ان تصل الى الاسكندرية ·

وعلى الرغم من موافقة زملائي الخبراء على الاهمية القصوى لارسال هذه الدبابات الا انهم راوا ان الاسلم عدم استهداف بقية ما تحمله الباخرة لخطر مؤكد نتيجة لهذا التغيير ، واستنادا لهذا طلبت في ٩ ايار تجنبا لـما يحدث من اخطار انه لو ابحرت احدى السفن كطلان لامونت مثلا الى خليـج سودا في كريت ، ان تبحر هي او سواها بعد ان تنزل حمولتها في الاسكندرية وتحمل اثنتي عشرة دبابة لتنزلها هناك ، واصدرت التعاليم بمقتضى هـــذا مباشرة ، وارسل الينا ويفـل في ١٠ ايـار انه قد تمت الاجراءات لتبعث الى كريت بست دبابات ثقيلة وخمس عشرة دبابة خفيفة ·

ويحتمل وصولها خلال الايام القليلة القادمة اذا واتت الظروف ، وكانت الامور تسير سيرا حسنا لكن الزمن كان معنا في سباق ·

الفصل السادس عشر

معركة كريت

في مختلف شئوننا في البحـر الابيض المتوسط بـدت بوضو ح الاهميـة الاستراتيجية لكريت فالبوارج البريطانية التي تتخذ من خليج سودا قاعـدة لها او التي تتزود منه بالوقود تستطيع ان تفرض حماية ـ ليس من السهل تجاهل اهميتها ـ على جزيرة مالطة ، فاذا استطعنا حماية قاعدتنا في كريت ومقاومة كل الغارات الجوية ، فان تفوقنا البحري يصد بصورة كافية كل هجوم عن طريق البحر ، ولكن على بعد مائة ميل فقط من الجزيرة كانت توجد قلعة رودس الايطالية بما جهزت به من مطارات شتى ومنشآت حربية هامة ، بينما لم يكن يوجد في كريت سوى الصمت والجمـود وكنت قـد ارسلـت التعليمات المتوالية بضرورة تحصين خليج سودا ، واشرت في آحداهـا الى ضـرورة تحصين هذا الخليج «سكابا فلو» بطريقة جديدة ، والان وقد مرت علىالجزيرة وهي تحت سيطرتنا اكثر من ستة اشهر ، وليس في وسعنا تدعيم الميناءبمجموعة حديثة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات الا اذا انتقصنا من حاجتنـا الماسة في جوانب اخرى ، كما أن قيادة الشرق الاوسط كانت لا تعرف السبيل لسد احتياجاتها الى العمال اللازمين لتوسع المطارات واصلاحها ، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لوجود قوات كبيرة في كريت أو حشد وحدة جوية كبيـرة. في مطاراتها ما دامت بلاد اليونان في يد الحلفاء ، ولكن كان المفروض ان تعد كريت كقاعدة تستقبـل الامدادات حيـن توفرهـا ، وعند اقتضاء الظروف لارسالها ، ولا شك في أن تبعة القصور في تفهم المشكلة ، وفي ضعـف التنفيـذ

للاوامر الصادرة تتوزع بين القاهرة وهوايتهول معا ، ولـم تتضح لي جسامة الاعباء التي يحملها كاهل الجنرال ويفل وجهازه ، ومدى القصور في تكوين هذا الجهاز الا حين حلت بنا الكوارث في برقة وكريت والصحراء ، لقد جهد ويفل وسع طاقته ، لكن الجهاز التنفيذي الذي كان تحت يده لم يكن كفوءا لتحمل الاعباء الكثيرة الهائلة المفروض اضطلاعه بها نتيجة لاربع أو خمس معارك تنشب في وقت واحد ٠

***

وكان جهاز مخابراتنا في ذروة دقته ومهارته في تلك الآونة ، ففــي غمــار الاضطراب الشديد الذي اجتاح اثينا غداة الاحتلال الالماني لها ، بدأ ضباط الاركان الالمان يتخففون مما اشتهر عنهـم من حيطة وحذر ، وكتمان شديد للاسرار الحربية ، فدب النشاط في وسائل استخباراتنا ، وتذرعوا بالجرأة والحيوية ، مما اتاح لنا في الاسبوع الاخير من شهر نيسان ان نتلقى معلومات هامة عن الضربة القادمة لالمانيا ولم يكن في مقدور الالمان التستر على تحركات الفيلق الجوي الحادي عشر ولا نشاط رجاله ، او اخفاء سرعة تجميع القطع البحرية الصغيرة في الموانيء اليونانية عن العيون اليقظة والاذان المرهفـة ، وقد تحملت بما لم يسبق له مثيل ـ متاعب شخصية في دراسة كافة التقارير وتقدير شتى البراهين ، للتأكد من درجة الوعي اللازمة لدى القادة بالاهمية الخاصة للهجوم المنتظر ، وللتأكد من انهم قاموا بنقل هذا الوعي الى قادة العمليات الفعلية في الميدان ٠

وكنت قد رغبت الى رئيس اركان الحرب ، ان يتولى الجنرال فيريبــرغ قيادة ـ جزيرة كريت ، فابلغ الرئيس بدوره رغبتي الى الجنرال ويفل الذي وافق على الفور ، وكان فريبرغ صديقي من سنين عديدة ، وكان حائـزآ على وسام صليب فكتوريا ووسام الخدمة الممتازة ، ووسامين اخرين ، مما يؤكد تفوقه في اداء واجبه العسكري ، وكان كمثيله الاوحد ـ كارتون دي ويارث ـ يستحق لقب « الضفدعة » الذي اطلقته عليه ، فكلا الرجلين بطل جابه النيران بصلابة وكـاد ان يطير اشلاء دون ان يتاثر في جسده او في معنوياتــه بمــا يتعرض له من اهوال ، ولم يكن احق منه في بداية الحرب بتولي قيادة الفرقة النيوزيلندية فتولى قيادتها ، وكان يدور بذهني في شهر ايلول سنة ١٩٤٠ ان يعهد اليه بقيادة اكثر فاعلية ، وها هي الفرصة المواتية التي تتقدم اليه فيها هذه القيادة المهمة ليتولى زمامها

ولم يكن أي من فيربرغ وويفل واهمـا او خياليـا ، فالوضع الجغرافي لجزيرة كريت يجعل من الدفاع عنها معضلة ، فهناك طريق احـد يسير فـي محاذاة الشاطىء الشمالي للجزيرة وتوجد على امتداده كل النقـاط الصالحة للهبوط والغزو في الجزيرة وكان من المحتم ان تصبح كل نقطـة الوسائـل الكافية لتامينها ، ولم يكن في وسعنا توفير قوة احتياطية ، حرة التحرك تتمكن من الانتقال الفوري الى أي نقطة يقع عليها تهديد بعد ان يكون العدو قد قطع الطريق المشار اليه ودعم موقفه فيها ، وهناك طرق غير صالحة للسيـارات تمتد من جنوب الجزيرة الى شمالها وعندما اقترب الخطر من الجزيرة اخذت العقول الموجهة تبذل ما في وسعها لحشد الامدادات والتموين والاسلحة وخاصة المدافع في الجزيرة ، ولكن الوقت كان قد مضى ، ففي الاسبوع التالي من شهر أيار كان السلاح الجوي الالماني من قواعده في اليونان وجزر بحر ايجـه قد قام بتطويق عنيد وكبدنا أضرارا جسيمة في وسائل النقل وخاصة على الساحل الشمالي ، وهو مكان الموانىء الوحيدة في الجزيرة فلم نستطع انزال أكثـر من ثلاثة الاف طن من سبعة وعشرين الفا من الامدادات الهامة ارسلناها في الاسابيع الثلاثة الاولى من شهر أيار الى البر ، وقد عادت بقية الحمولة ،وكنا قد أوجدنا في الجزيرة حوالي خمسين مدفعا مضادا للطائرات ، وأربعة وعشرين كشافا ، وكان لدينا هناك كذلك خمس وعشرون دبابة خفيفة بعضها كان في حاجة الى اصلاحيات وتناثرت حامياتنا في شتى المناطق التي يتوقع هبوط العدو بها وكان مجموع هذه القوات يبلغ حوالي ثمانية وعشرين الفا ٠

ولكن السبب الرئيسي الذي مهد لهجوم الالمان هو ضعفنا الجـوي ، فكانت طائرات سلاحنا الجوي في بداية ايار لا تعدو ستا وثلاثين طائـرة ، يصلح النصف منها فحسب لدخول معركة وقد وزع هذا العدد القليـل على ريتمو وماليمي وهيراقليون وكانت شيئا لا يعبأ به بالنظر الى الافواج الهائلة التي انهالت على سماء الجزيرة وقد أدرك جميع من يهمهم الامر ضعف سلاحنا الجوي ، وفي ١٩ أيار اعطيت التعليمات بانسحاب ما تبقى من طائرات الـى مصر ، وكانت وزارة الحرب ورؤساء الاركان والقاعدة العاملون يدركون ان عليهم ان يختاروا بين أمرين : اما الاشتباك وسط هذه العوامل المروعـة ، أو الجلاء عن الجزيرة كما كان ذلك متاحا في مطلع شهر أيار ، ولكن اتحدت وجهات نظرنا على ضرورة الاشتباك ، وعندما ندرك الان بالنظر الى ما توفر لنا اخيرا من دلائل ، انا بغض النظر عن كل صعوباتنا كدنا ننتصر في القتال وانّ ما أحرزناه بفشلنا كان مكسبا بعيد المدى ونحس بالارتياح لاننا قررنا ان

نغامر وسط هذه الاخطار ، وان ندفع الثمن مهما كان غاليا ٠

***

بدأ القتال في صباح ٢٠ أيار ، ولم نشهد حتى هذا التاريخ هجوما اكثر منه اندفاعا وعنفا ، فقد كان لاسباب كثيرة طرازا وحده ، لم ير العالم مثله ، لقد كان أول هجوم في سجل الحروب ينقل بالجو على نطاق واسع ، وكـان الفيلق الالماني يمثل عنفوان حركة الشبيبة الهتلرية ، كما كان تجسيدا عنيفـا للثأر من اندحار عام ١٩١٨ ، وكان جنود المظلات النازيون بولائهم الشديـد وبسالتهم النادرة تعبيرا عن عنفوان الرجولة الالمانية ، وعاطفتها المندفعـة للتضحية على مذبح مجد المانيا ووهم السيطرة على العالم ، وقد شاء القدر لهم ان يصطدموا بكبرياء جنود أتى اكثرهم من طـرف العالم الاخـر عبـر المحيطات والبحار متطوعا للدفاع عن الوطن الاب وعن كل ما يؤمن به من قيم الحق والحريـة ٠

وبذل الالمان اقصى ما في وسعهم من قوة ، فقد اعتبـر غورنغ هـذا الهجوم أعظم ما سيقوم به ، وكان من المحتمل ان يفرض هذا الهجـوم على انجلترا ذاتها سنة ١٩٤٠ لو دمر سلاحنا الجوي آنذاك ، ولكن هـذا الامـل ضاع هباء ، وكان ربما يقع على مالطة ، ولكننا أسرعنا بتفادي هذه الضربة ، وقد لبث الفيلق الالماني الجوي ينتظر ما يزيد عن سبعة اشهـر ليسدد هـذه الضربة ، وليكشف عن مدى قوته ونوع معدنه ، وها هو غورنغ يجد في وسعه اخيرا ان يصدر الامر الذي تحرقوا شوقا اليه ، وعندما شب القتال لم تكن لدينا المعلومات الكافية عن جنود المظلات لدى العدو ، وكان من المحتمل ان يكون الفيلق الجوي الحادي عشر وحدة من مجموع وحدات ست مـن هـذا الطراز ، وقد مرت بضعة شهور على المعركة قبل ان نعرف يقينا ان هذا الفيلق كان وحده كل ما لدى الالمان من هذا الطراز ، لقد كان في الواقع رأس الرمح للسلاح الالماني ، وهذه هي حكاية نجاحه وحكاية تدميره ٠

تم اسكات مدافعنا المضادة للطائرات في ماليمي دفعة واحدة ، وقبـل انتهاء الضرب الجوي اخذت الطائرات التي تسير بلا محركات تنزل غـرب المطار ، وكانت الطائرات تمطر قواتنا حيث توجد وابلا من قذائفها ، واستحال القيام بهجوم مضاد في وضح النهار ونزلت هذه الطائرات او ناقلات الجنود على السواحل وعلى السهل الضيق وعلى أرض المطار الذي حطمته القذائف، واستطاع خمسة الاف جندي الماني النزول الى الارض في أول يـوم حـول

ماليمي وكانيا وفيما بينهما ، وقد كبدتهم نيران النيوزيلنديين الذين التحموا معهم في معركة بالسلاح الابيض اضرارا جسيمة ، وعندما أتى المساء كـان المطار لا يزال تحت أيدينا ، ولكن من كان لا يزال باقيا من الفوج انسحب عنه الى النقط المساعدة أثناء الليل واستهـدف القصف الجوي العنيـف ريتيمو وهيراقليون في ذلك الصباح ، واعقب ذلك هبوط جنود المظلات عند الظهيرة ، وشبت معركة حامية ، وعندما جن الليل كان كل من المطارين تحت سيطرتنـا الكاملة ، وهكذا كانت نتيجة الاشتباك في اليوم الاول مرضيـة الى حـد مـا باستثناء القتال في ماليمي ، ولكن عدد الجنود الذين نزلوا في كل نقطة مـن النقاط كان ضخما ، وقد كان عنف الهجوم أكثر مما دار في خواطرنـا كما ان العدو لم يكن يتوقع هذا الدفاع المستميت •

وفي اليوم الثاني واصل العدو غاراته القاسية ، عندما اطلت الطائرات من حاملات الجنود ، وبالرغم من ان مطار ماليمي ظل تحت وابل من نيران مدافعنا القريبة منه ، الا ان حاملات الجنود استمرت في النزول به ، وغريبا منه رغم وعورة الارض ، وبدأ ان القيادة الالمانية كانت تستهين بالخسائر فقد دمرت حوالي مائة طائرة على الاقل خلال نزولها في تلك المنطقة ، ومع ذلك واصل العدو عنفوان هجومه ، وشنت هجوما مضادا في تلك الليلة ، زحفـت فيه نحو أسوار المطار ، ولكن عندما بزغ النهار عادت الطائرات الالمانية من جديد فاستحال على قواتنا الابقاء على مكاسبها •

واصبحت ماليمي في اليوم الثالث بالنسبة للعدو مطارا حسنا للعمليات واستمرت ناقلات الجنود تنهال بما يبلغ عشرين طائرة في كل ساعة

وكان في مقدور هذه الطائرات ان تكرر عملياتها ، وقد بلغ عدد الطائرات التي هبطت في تلك الايام التالية حوالي ستمائة طائرة ، ونتيجة للضغط المتفاقم بدأ اللواء النيوزيلندي يتراجع الى ما بعد ريتيموا ، فقد بقيت لنا السيطرة على الموقف في هيراقليون بدأ العدو في عملية انزال شرقي المطار ، وأخذ في تثبيت اقدامه على مساحة تتسع شيئا فشيئا •

وفي الليلة التالية رأت قواتنا المجهدة نارا تشتعل في صفحة السماء من ناحية الشمال وشاهدوا بريق انفجارات ، فأيقنوا ان اسطولنا بدأ يدخـل المعركة واخذت أول قافلة المانية بحرية تبذل محاولـة مستميتة ، فتعقبتهـا البوارج البريطانية طيلة ساعتين ونصف الساعة مغرقة اثني عشر زورقا على الاقل وثلاث بواخر مفعمة بالجنود الالمان ، ويبلغ عدد الغرقى من رجال العدو حوالي أربعة الاف في تلك الليلة ، وفي خلال ذلك كان الرير أميرال كنغ قـد

أمضى الليلة يمخر عباب البحر أمام هيراقليون على طراداته الاربع ومدمراته الثلاث ، وعندما اطل صباح الثاني والعشرين بدأ يذهب نحو الشمال ، فاغرق احد الزوارق المزدحمة بالجنود ، ووصل الى جزيـرة ميلوس في الساعـــة العاشرة ، وبعد دقائق قليلة رؤيت مدمرة معادية ترافقهـا بعض الـزوارق الصغيرة في شمال الجزيرة ، فناوشتها الوحـدات الريطانية وشب بنهمـا القتال ، ولاحت مدمرة أخرى وهي تنفث سحبا من الدخان ، وتحـت هـذا الستار يغيب عدد اخر من القوارب ، وهكذا اعترضت وحداتنا البحرية طريق قافلة اخرى مبهمة للعدو محملة بالجنود ، وقد أخبرت طائرات الاستطلاع هذا الى الاميرال كانينغهام ، ولكن مرت اكثر من ساعة قبل ان يتاكد الاميرال كنغ من هذه الاخبار ، وكانت قطعة البحرية تغير عليها الطائـرات المعاديـة منذ الصباح وعلى الرغم من سلامتها التامة فان ذخيـرة المدافع المضادة للطائرات قد قاربت الانتهاء ، ولم يدرك الاميرال أي مكسب كان علـى بعـد خطوات منه ، ولكنه احس بان استمراره في المضي شمالا ، يهدد قواته بالتوقف تماما عن الحركة ، ولذا فقد اعطى تعليماته بالتراجع غربا ، وعندما وصلته التعليمات الى القائد العام اصدر أوامره الحاسمة ·

« احرص على موقعك ، واتصل بنا باستمرار ··

يجب الا ينزل الجيش الالماني في كريت ، من المهم جدا الا ينـزل جنود الاعداء من البحر في الجزيرة » ·

وقد مضت الفرصة الان لتدمير القافلة التي رجعت ادراجها وتناثـرت في اتجاهات شتى بين مختلف الجزر ، وهكذا فر خمسة الاف جنـدي المانـي من نفس المصير الذي لقيه زملاؤهم ، ولعل مـا وضح الان من غرابة هـذا التصرف للقيادة الالمانية ، واصدارها الامر لهذه القافلـة بالسير محملـة بالجنود ، ودون ان تفرض عليها أية حماية في مياه لا تسيطر بحريا عليها ولا جويا ، يعتبر مثالا لما كان يمكن ان يحدث ، وعلى مدى اوسع في بحر الشمال وقناة المانش في ايلول من سنة ١٩٤٠ انه يشير الى نقصان خبـرة الالمـان ومدى فهمهم القاصر لاثر القوة البحرية في مقاومة القوآت المهاجمة ويشيـر كذلك الى الثمن الباهظ الذي قد تدفعه حياة البشر عقابا على هـذا النـوع الغريب من الجهـل ·

وكان الاميرال كننجهام قد عقد عزمه ، على تحطيم الغزاة بطريق البحر مهما اتخذ من وسائل ، ولذلك فقد القى بكل جنوده في لهيـب المعركـة ، ولم يعتره أي تردد في هدفه فقذف بعدد من بوارجه الغالية في الميـدان بل اقحـم

كل اسطول الشرق الاوسط عن اخره ، وقد اجمعت الاميرالية اجماعا تاما على قراره ، ولم تكن القيادة الالمانية تقامر وحدها بكل شيء لديها في هذه المعركة ، ولذلك اكدت الاحداث التي وقعت في الثماني والاربعين ساعة بين الحرب البحرية للعدو ان محاولة انزال قواته من البحر مستحيلة ، فلم يكرر المحاولة نفسها مرة اخرى حتى تحدد مصير جزيرة كريت ٠

وفي يومي الثاني والعشرين والثالث والعشرين من أيار دفع اسطولنا ثمنا غاليا فقد مني طرادان منه وثلاث مدمرات بالغرق كما توقفت البارجة وورسبايت عن التحركات لمدة غير قصيرة ، ومنيت البارجة الاخرى فاليانت وغيرها من القطع البحرية بخسائر فادحة ، وبالرغم من كل ذلك حمينا الجزيرة بحريا ، ووفق الاسطول في اداء واجبه ، ولم يستطع الماني واحد ان يطأ بقدمه الجزيرة عن طريق البحر الى ان انتهت المعركة ٠

وكان يوم ٢٦ أيار يوما فاصلا ، فطيلة الايام الستة الماضية كانت قواتنا هدفا لقسوة ضارية ، ولم يكن في وسعها ان تصمد اكثر ، فاتخذ في تلك الليلة قرار الانسحاب من كريت ٠ وفرض علينا ان نقوم من جديد بتلك العمليات الشاقة المزعجة ، وان نتوقع أفدح الخسائر ، وان يقوم الاسطول المنهك القوي بعملية ترحيل لحوالي اثنين وعشرين الف جندي أغلبهم من الساحل المنكشف في « صفاقية » وكان من المحتم ان تستتر القوات بالصخور الى ان تدعى لركوب البواخر ، وكان هناك على الاقل خمسة عشر الف جندي يتخذون من شقوق الارض واخاديدها مخابىء لهم بالقرب من صفاقية ، بينما استمرت المؤخرة في مناوشات مستمرة مع الاعداء ٠

وحدثت فاجعة للحملة التي جهزها الاميرال رولينجز في نفس الوقت لانقاذ رجال الحامية الى الطرادات المنتظرة بالخارج ، وتمت المهمة في الساعة الثانية والنصف صباحا ، وابحر اربعة الاف جندي على السفن الحربية التي اخذت سبيل العودة وكانت القيادة قد دبرت تامينا جويا لها ولكن الطائرات المقاتلة لم تستطيع الوصول ، ولا العثور على السفن لتغيير المواقيت وفي السادسة صباحا بدات الغارة العنيفة تمطرهم بوابل من القذائف ، وتواصل ذلك حتى الثالثة مساء عندما بدت القافلة على بعد مائة ميل من الاسكندرية ، واصيبت المدمرة « هيروورد » اصابة شديدة في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، ولم تقدر على الاستمرار في رحلتها وفر الاميرال وكان محقا في ذلك أن يدع المدمرة المصابة لتواجه اقدارها ورؤيت للمرة الاخيرة بالقرب من شواطىء كريت ، وقد نجا أكثر من كانت تقلهم من الجنود ، ولكن

الالمان قد أسروهم ، وفيما بعد حدث اسوأ من ذلك ، فقد اصيب الطرادان ديدو ، وأوريون ، والمدمرة ديكوي في خلال الساعات الاربع التاليـة وخفـت سرعة القافلة الى احدى وعشرين عقدة ، ولكن سائر قطعها استمرت في السير نحو الجنوب ، وعلى سطح الطراد أوريون كانت الاحوال مثيرة للرعب فعلا ، فقد كان هناك الف ومائة جندي فضلا عن رجالها ، وقد قتـل حوالـي ٢٦٠ جنديا ، وأصيب ٢٨٠ جنديا اخر بجراح نتيجة لاختراق قنبلة ظهر الطراد ، وقد سقط قبطان الطراد « باك » قتيلا وشبت فيه الحرائق ولاحت في الافق لدى الظهيرة طائرتان من نوع الفولمار من سلاحنا الجوي فاثارت في النفوس مشاعر التفاؤل ، وبرغم ما قام به سلاحنا الجوي منجهود فلم تستطع طائراته أن تعثر على الوحدات المعذبة ، مع انها اشتبكت في اكثر من قتـال واصابت طائرتين من طائرات العدو على الاقل ، وعندما انتهت القـوات الى ميناء الاسكندرية في الساعة الثامنة مساء ٢٩ ، رؤي ان مجمـوع الذين قتلوا او جرحوا او أسروا يبلغ خمس قوات الحامية التي كتبت لهـا النجـاة مـن هيراقليـون ٠

***

وبعد هذه المحن كان على الجنرال ويفل ورفاقه ان يفكروا الى اي مدى سيحاولون انقاذ جنودهم من جزيرة كريت ، لقد كان الجيش في خطر داهم ، وليس في وسع السلاح الجوي أن يفعل شيئا ، وكل الاعباء تثقل كاهل الاسطول المنهوك القوى الذي أصابته القذائف وكان من راي الاميرال لينجهام ان ترك الجيش ليواجه قسوة هذا الاختبار أمر يتجاوز حدود تقاليده البحرية وصرح الاميرال بأن انشاء سفينة واحدة يستغرق من الاسطول ثلاث سنوات ولكن تدعيم تقاليد جديدة يتطلب ثلثمائة عام ، ولذلك فلن تنقطع مهمة نقل الجنود٠

وعندما اتى صباح ٢٩ كان خمسة الاف جندي قد انقذوا ، ولكن ما زال عدد كبير يدفع ثمن بقائه ، ويتستر في مداخل صفاقية ، ويتعرض لنيران العدو اذا ما غادر مخابئه بعض الوقت وكان اتخاذ قرار الانقاذ بما فيه من مغامرة اخرى بخسائر بحرية غير معروفة المدى قرارا يحمل مبرراته ليس بالنظر الى بواعثه فحسب ، بل باعتبار النتيجة ايضا ٠

وأبحر الاميرال في يوم ٢٨ الى صفاقية واستطاع ستة الاف جندي في الليلة التالية أن يصلوا الى سفن النقل دون ما تدخل من الاعداء ، وعلىالرغم من استهداف القوات البحرية للهجوم ثلاث مرات يوم ٣٠ من نفس الشهر الا

انها وصلت الى الاسكندرية سالمة ، وهم مدينون لحسن حظهم لطائرات السلاح الجوي الملكي ، التي استطاعت رغم عددها الضئيل ، ان تصد الطائرات المعادية في اكثر من غارة قبل ان تتمكن من أهدافها ، وفي صباح يوم ٣٠ ابحر القبطان ارليس ثانية الى صفاقية وبصحبته مدمرات اربع ، اضطرت اثنتان منها الى العودة ، واستطاعت الاخريان اجلاء الف وخمسمائة جندي بنجاح ٠ وبرغم الاضرار التي اصيبتا بها في طريق العودة الا انهما وصلتا الى الاسكندرية بسلام ٠ وكانت القطع البحرية قد نقلت ملك اليونان بعد أن صادف كثيرا من الصعاب وفي رفقته وزيرنا المفوض في أثينا ، وفي تلك الليلة أيضا ، تم انقاذ الجنرال فريبرج عن طريق الجو تنفيذا لاوامر القائد العام ٠

وأرسلت التعليمات بالقيام بمحاولة اخيرة في ٣٠ ايار لاجلاء من ظل هناك من القوات ، وكان عدد الموجودين في صفاقية لا يزيد في احتمالنا عن ثلاثة الاف جندي ولكن الانباء التالية اكدت ان هذا العدد يبلغ الضعف ، وفي صباح يوم ٣١ ابحر الاميرال لينتج ثانية ولم يكن هناك رجاء في اجلاء الجميع ولكن تعليمات الاميرال كننجهام اقتضت بأن تحمل البواخر أقصى ما يمكن ، وقيل للاميرالية في الوقت نفسه بان هذه اخر ليلة في عمليات الانقاذ ، وتم الركوب في أمان وفي الساعة الثالثة من صباح أول حزيران ابحرت البواخر وعلى ظهرها حوالي أربعة الاف جندي وصلوا الاسكندرية بسلام ٠

وبقي في كريت اكثر من خمسة الاف جندي من الوحدات البريطانية والامبراطورية واذن الجنرال ويفل لهم بالاستسلام ، ولكن كثيرين منهم تناثروا في انحاء الجزيرة الجبلية التي يبلغ طولها مائة وستين ميلا ، وقد أعانهم أهل القرى والريفيون بحاجاتهم من المؤن وضمدوا جراحهم ، هم والجنود اليونانيين ، ولكن وقعوا تحت طائلة عقاب وحشي عندما عرف الالمان حقيقتهم ، وامتدت هذه العقوبات الوحشية للفلاحين الطيبين الابرياء ، فصدرت أوامر اعدامهم بالجملة في مجموعات يبلغ عدد كل منها عشرين او ثلاثين انسانا ٠

وكان هذا هو السبب الذي دفعني لاقدم اقتراحا بعد ثلاث سنوات اي في سنة ١٩٤٤ الى مجلس الحرب الاعلى يقضي بمحاكمة مرتكبي هذه الجرائم الوحشية في جزيرة كريت وان يحاكم المتهمون في قلب الجزيرة ، فأخذ باقتراحي وسددت كثير من الديون الضخمة ٠

***

انسحب الى مصر في سلام ستة عشر الفا وخمسمائة جندي ، اكثرهم من قوات بريطانيا وامبراطوريتها ، واستطاع حوالي الف جندي اخر ان يمهدوا لهم طريق الفرار بمعاونة الفدائيين الباسلة ، ووصلت خسائرنا الى ثلاثة عشر الفا بين قتيل وجريح وأسير فضلا عن الفين من رجال القطع البحرية ، وقد احصيت بعد الحرب بالقرب من ماليمي وخليج سودا حوالي أربعة الاف قبر الماني ، والف قبر اخرى بالقرب من ويتمو وهيراقليوان فاذا ما اضيف الى هذا الاعداد الضخمة المجهولة التي ابتلعتها الامواج ، بدت لنا خسائر الالمان في صورة باهظة ، فلن يبلغ عددها اقل من خمسة عشر الفا بين قتيل وجريح ، كما دمرت حوالي مائة وسبعون طائرة من طائرات النقل ، وايا ما كان الامر ، فان النصر الذي احرزوه لا يمكن ان يقارن بالمجازر الذي نزلت بهم ٠

فمعركة كريت ليست سوى مثال للنتائج الفاصلة التي يتمخض عنها قتال عنيف بعيدا عن قدرات المناورة للفوز بمواقع استراتيجية ، ولم نكن ندري شيئا عن عدد فرق جنود المظلات الالمانية ولكن الفرقة السابعة المحمولة بالجو كانت الفرقة الوحيدة التي في حوزة جورنج ، وقد دمرت هذه الفرقة في كريت ، فقد قضى على اكثر من خمسة الاف جندي من اكثر محاربيه شجاعة وقد تهدم الكيان الكلي لهذه الوحدة بصورة يعز ترميمها ، فلم تظهر ثانية بشكل حيوي فعال ، وتستطيع القوات النيوزيلاندية والبريطانية والامبراطورية واليونانية ان تقول انها احتملت عبئا لا ينكر في عملية جلبت لنا الكثير من راحة الاعصاب في ظروف مروعة ٠

فقد زال الخطر الرهيب لسلاح جنود المظلات الالماني فلم يعد الى الظهور بصورة حيوية في معارك الشرق الاوسط ، نتيجة للاضرار البالغة التي حاقت به في محاربيه الممتازين ، وقد نال جورنج في كريت انتصارا اشبه بالهزيمة ، لان الجهود التي بذلها هناك كانت كافية لسيطرته على قبرص والعراق وسوريا وربما فارس ايضا فمثل القوات ضرورية للاستيلاء على مناطق واسعة الاماد ، حيث لا تواجه بمقاومة جادة او عنيفة ، ولعله اصيب بكثير من خطل الراي الى الدرجة التي اطاح فيها بمثل تلك الفرص السانحة بينما ضحى بقوات لا تعوض في قتال بائس لعب فيه السلاح الابيض الدور الاكبر مع مقاتلي الامبراطورية البريطانية ٠

وقد حصلنا على « تقرير المعركة » الذي اعده الفيلق الجوي الالماني الحادي عشر الذي كانت الفرقة السابعة المحمولة بالجو بعضا منه ، وعندما

نوجه نقدنا القاسي الى أنفسنا والى خططنا ، فقد يكون من المفيد أن نضيف الى ذلك وجهة نظر الفريق المضاد « لقد كتب الالمان ما يلي : كانت قوات البر البريطانية في كريت ثلاثة اضعاف ما دار في احتمالنا ، وقد أعدوا في غاية المهارة والدقة عمليات الدفاع في الجزيرة ، وجهزوا المنطقة بكل الطرق المستطاعة ٠٠ واتقنت عمليات التعمية بمهارة فائقة ، ونتيجة لافتقارنا الى المعلومات الصائبة عن مدى قوة العدو ونوع موقفه ، عرضنا هجوم الفيلق الجوي الحادي عشر للخطر ، وكبدناه اضرارا جسيمة ظهرت نتائجها ٠٠

واهتز الموقف في البحر المتوسط نظريا على الاقل بالاضرار الجسيمة التي حاقت بنا في جزيرة كريت وحين الانسحاب منها ، وكانت معركة ماتايان في ٢٨ اذار قد اضطرت الاسطول الايطالي ان يلتزم مواقعه حينا ٠ اما الان فقد منى اسطولنا بخسائر جديدة باهظة ، وبانتهاء القتال في كريت لم يجد الاميرال كننجهام تحت تصرفه سوى بارجتين وثلاث طرادات وسبع عشرة مدمرة ، وهناك تسع طرادات اخرى ومدمرات رهن الاصلاح في مصر ، أما البارجتان وورسبايت و « برهام » ، وحاملة الطائرات الوحيدة «فورميدال» وسواها من القطع البحرية ، فكان عليها ان تبحر من الاسكندرية حيث تستصلح في مناطق اخرى ، وقد خسرنا ثلاث طرادات وست مدمرات وعلينا ان نرسل فورا بالامدادات التي تعيد التكافؤ للموقف البحري ، ولكن كوارث اخرى كانت معنا على ميعاد وهذا ما سيتضح بعد حين ، وهيأت ظروفنا الشائكة احسن الفرص للعدو ليتحدى سيطرتنا على البحر المتوسط والشرق الاوسط ، ويتمادى في الشك بهذه السيطرة ، بكل ما يعنيه هذا الشك وذلك التحدي من اخطار علينا ، ولم نكن نستطيع ان ننكر عدم فوزه اذا خاض غمار التجربة ٠

الفصل السابع عشر

الجهد الاخير للجنرال ويفل

بينما كان وطيس المعركة في كريت والصحراء الغربية يشتد الى ابعد مداه والبحث عن البارجة « بسمارك » باقتناصها ومواراتها في امواج الاطلنطي كانت مصاعب لم تسفك فيها كثير من الدماء ، ولم يبلغ في اخطارها حدا كبيرا قد بدات تعترض طريقنا في سوريا والعراق ، وكانت معاهدتنا مع العراق سنة ١٩٣٠ ، تسمح لبريطانيا في اوقات السلم ـ فضلا عن اشياء اخرى ـ بانشاء قاعدتين اولاهما قرب البصرة والاخرى في الحبانية ، وتعطي لقواتنا المسلحة ومعداتها حق المرور في سائر الاوقات وتضمنت المعاهدة ايضا ان لجيوشنا في حالة الحرب ان تجد كل تسهيلات مستطاعة من خطوط حديدية وانهار وموانيء ومطارات لتيسير التنقلات ، وعندما اعلنت الحرب ، قطع العراق علاقته الدبلوماسية مع المانيا ، وان كان لم يشهر عليها الحرب ، وصارت المفوضية الايطالية في بغداد هي مقر الدعاية للمحور ، واثارة مشاعر العداء لبريطانيا وكان يسهم في تلك المهمة مفتى القدس الذي فر من فلسطين قبيل ، اعلان الحرب وذهب الى بغداد كلاجيء سياسي وتعرضت سمعة بريطانيا بعد مزيمة فرنسا للتدهور ، وانتابنا القلق للاوضاع هناك ، ولكننا لا يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد فوات الاوان ، واي ضعف ينتاب افضل ما نستطيع من وسائل ٠

وفي اذار عام ١٩٤١ حدث التغير السيىء ، فقد اصبح رشيد عالي الذي كان منساقا للالمان رئيسا للوزراء ، وفر من العراق الامير عبد الاله

الوصي المتضامن مع بريطانيا ، وتحتم علينا ان نستوثق من بقاء البصرة ، الميناء الرئيسي للعراق على الخليج العربي ، مؤمنا لحسابنا ، ولذا فقد ارسل الجنرال اوكنلك القائد العام في الهند مجموعة لواء ، استقلت الشاطىء في ١٨ نيسان دون مقاومة ، وبدأ رشيد عالي الكيلاني العمل مستندا الى مساعدة الطائرات الالمانية وجنود المظلات في تحركاته :

وكان اتجاهه في بادىء الامر نحو الحبانية قاعدتنا الجوية للتدريب في صحراء العراق ، وبها حوالي ٢٢٠٠ جندي وتسعة الاف عامل مدني ، وأصبحت مدرسة الطيران هناك ذات أهمية خاصة ، فبدأ مارشال الجو الذي كان يتولى قيادة القاعدة في اتخاذ اجراءات مؤقتة صغيرة ، وكان كل ما في القاعدة من طائرات كان طائرات تدريب او طائرات اصابها العطب ، فطلب من مصر بعضا من طائرات « الجلاد يتيور » فتوافد الى القاعدة على الفور حوالي اثنتين وثمانين طائرة شكلت في أربع مجموعات ، ووصلت دفعة اخرى بريطانية من الهند في ٢٩ نيسان وكان محيط كل هذا القطاع حوالي سبعة أميال ليس به من وسائل الدفاع سوى خط واحد ضعيف من الاسلاك ، وفي ٣٠ نيسان لاحت القوات العراقية القادمة من بغداد على ربوة لا تبعد عن المعسكر اكثر من ميل واحد ، وتطل عليه وعلى المطار في نفس الوقت ثم انضمت اليها قوات اخرى للتعزيز حتى بلغ العدد حوالي تسعة الاف جندي وخمسين مدفعا ، ومر اليومان التاليان في مباحثات من الجانبين بلا جدوى ، وفي فجر ٢ أيار بدأ الاشتباك ·

وواجهنا في سوريا خطرا مماثلا مع ضيق مواردنا وقلتها وكانت سوريا أحدى ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار ، ورأى الفرنسيون فيها ان الهدنة التي وقعتها حكومتهم في فيشي تسري عليهم شروطها ، وكانت السلطات في فيشي من جانبها تحاول جاهدة ان تحول بين جنود فرنسا في الشرق وبين الانضواء تحت لواء الحلفاء في فلسطين ، وفي شهر اب عام ١٩٤٠ وصلت لجنة الهدنة الايطالية الى البلاد ، وافرج عن المعتقلين الموالين للالمان الذين تحفظ عليهم منذ نشوب الحرب ، فاتيحت الفرصة ليبذلوا كل الجهود ، ولم تأت نهاية العام حتى وصل عدد أخر من الالمان واستطاعوا بالاموال الكثيرة التي بذلوها ان يوقظوا المشاعر المعادية لبريطانيا والصهيونية بين العرب في نفس الوقت الذي أستولى رشيد عالي فيه عنوة على السلطة · فاثارت سوريا قلقنا ايضا · كانت الطائرات الالمانية قد بدأت في شن غاراتها على السويس من قاعدتها في جزر الدوديكانيز ، وكان

في مقدورها ان تعمل اذا رغبت ضد سوريا ، وخصوصا بقوات منقولة عن طريق الجو ، ولو استطاع الالمان التمكن من سوريا لاضحت مصر وقناة السويس ومعامل تكرير الزيت في عبادان واقعة تحت خطر التهديد المباشر من الهجوم الجوي المتواصل ، وستكون طرق مواصلاتنا البرية بين فلسطين والعراق معرضة للخطر ايضا ، وربما تثير هذه التغيرات قلاقل في مصر ، كما ان هذا سيعتبر ضربة قاصمة على سمعتنا في تركيا وسائر دول الشرق الاوسط ٠

وما كان رشيد عالي يطلب العون العسكري من هتلر حتى بدا الاميرال في اجراء مباحثات مع الالمان حول اتفاق مبدئي عن سوريا واتفقوا على توصيل ثلاثة ارباع المواد الالمانية الموجودة لدى بعثة الهدنة الايطالية في سوريا والعراق ، وان تسهل للطائرات الالمانية سبل النزول في مطاراتها ، وصدرت التعليمات للجنرال وانزل المفوض السامي الفرنسي والقائد العام بتنفيذ هذه الاوامر ، وما اقترب ايار من نهايته حتى استقبلت مطارات سوريا مائة طائرة المانية وعشرين ايطالية ٠

ومنذ ان بزغ هذا التهديد الجديد ، بدا على الجنرال ويفل تردد واضح في القدرة على استيعاب مهام جديدة ، وابدى ان كل ما في وسعه ليعده ضد سوريا لا يعدو مجموعة لواء واحد ، وقال انه سيبذل كل ما في وسعه ، وسيطلق الشائعات عن وجود قوة كبيرة على اهبة الاستعداد في فلسطين فربما تفكر حكومة العراق في موقفها ، ولكن ما يقدر على توجيهه بالفعل لا يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد فوات الاوان ، واي ضعف ينتاب قواتنا في فلسطين يوقفها على حافة الخطر ، خصوصا والحث على الثورة يجوب انحاءها ، وابرق قائلا : « لقد حذرتكم دائما ان من المستحيل ارسال اية مساعدة للعراق في الظروف الحالية عن طريق فلسطين ، وكثيرا ما نصحت بالابتعاد عن اي التزام هناك ، فقواتي منتشرة الى ابعد مدى في كل مكان ، وليس في استطاعتي ان اقامر باي فريق منها في عمليات يملؤني اليقين بعدم جدواها » ٠

اما الجنرال اوكنلك ، فقد عرض علينا مدى المساعدات التي في مقدوره ان يمد بها العراق ، اذا حصلت على الحماية الكافية في وسائل النقل الضرورية ، والتي اوضح انها تصل الى خمسة الوية من المشاة عدا قوات اخرى مساعدة ، مما اثار اعجابنا بحماسته واندفاعه ، اما الجنرال ويفل

فلم يكن ينصاع للتعليمات دون ان يرفق بذلك احتجاجه وتبرمه ، وفي ٥ ايسار ارسل لنا برقية قال فيها :

« ارى من واجبي ان احذركم بلا تردد في ان امتداد القتال في العراق يعرض الدفاع عن فلسطين ومصر للخطر ، وقد يترتب عليه من النتائج السياسية مالم يدر في الحسبان ، وقد يحدث نتيجة له ما بذلت عامين في محاولة تجنبه ، وهو اندلاع فتن خطيرة داخل قواعدنا ، ولهذا فاني استحثكم ثانية بكل قوة واصرار على ان الواجب يحتم عليكم التباحث مع العراق من اجل الوصول الى ترضيات مقبولة في اقصر مدى مستطاع » .

ولم اكن مقتنعا بذلك ، وعندما عرفت ان رؤساء اركان الحرب يوافقونني عرضت القضية على لجنة الدفاع عندما انعقدت ظهر اليوم التالي ، وانتهى الاجتماع الى قرارات نهائية مؤكدة ، فارسلنا الى الجنرال ويفل تبعا لذلك التعليمات الاتية : « لا نقبل انهاء الموقف عن طريق المباحثات الا بخضوع العراقيين وتعهدهم بالتخلى عن اية مشاريع قادمة للمحور في العراق ، اما الوضع هناك فانه يؤكد الولاء التام للمحور من جانب رشيد عالي ، وانه كان ينتظر الوقت الذي يمد فيه المحور له يد العون ، قبل ان يكشف عن حقيقة اتجاهاته ، وقد اضطره وصولنا للموصل الى الافصاح عن نواياه ، قبل ان يقدر الالمان على مساعدته ، وهناك فرصة لا شك فيها للسيطرة على الموقف ثانية بالعمل الفوري الحاسم .

« وقد تعهد رؤساء اركان الحرب بتحملهم لكل مسئولية تنتج عن ارسال القوات المعينة في برقيتك على الفور ، وتطلب لجنة الدفاع الابراق الى نائب ماريشال الجو سمارت بأن المساعدة المطلوبة في طريقها اليه : وان الواجب يحتم عليه في خلال ذلك الدفاع عن الحبانية الى اقصى ما يمكن ، ومن المحتم ان نرسل الى العراق غاية ما في الوسع من المدد الجوي لتعضيد العمليات هناك بشرط ان تستمر حماية الامن في مصر » .

وفي خلال ذلك بدات طائراتنا في الحبانية وقاذفاتنا العاملة من طراز ويلنجتون من قاعدة الشعبية تشن هجومها على القوات العراقية المتجمعة على ربوتها ، وقد اجابت هذه القوات بمدافعها المضادة ، واسهمت الطائرات العراقية بقذائفها ونيران مدافعها الرشاشة ، وقد قتل وجرح حوالي اربعين جنديا من قواتنا في اليوم الاول كما تحطمت حوالي اثنتين وعشرين من طائراتنا ، وعلى الرغم من الخطورة التي تهدد الطيران من منطقة تقترب منها نيران مدفعية العدو ، الا ان طيارينا خاضوا التجربة ببسالة ، ولم

يهاجمنا المشاة العراقيون . وصمتت مدافعهم بعد قليل ، فلم تستمر في قصفها لغاراتنا الجوية ، او لطائراتنا حينما تحلق فوق قواتهم ، فكانت حالتهم العصبية فرصة لنا انتهزناها في اليوم الثاني ليقوم بهجوم جوي جزء من سلاحنا الجوي على قواعد السلاح الجوي العراقي ، وشنت الدوريات هجومها في ليلتى الثالث والرابع على الجبهة العراقية ، وفي الخامس وبعد اربعة ايام من هجمات سلاحنا الجوي الملكي ، كنا قد انزلنا الكثير بالعراقيين فاضطروا في تلك الليلة الى الجلاء عن مواقعهم وتبعتهم قواتنا في حملة ناجحة كانت نتائجها ان اسرنا اربعمائة عراقي ، واستولينا على اثني عشر مدفعا وستين مدفعا رشاشا وعشر سيارات مصفحة . ووجدت طائراتنا قوات في طريقها للتعضيد فأمطرتها وابلا من نيرانها ، وفي ٧ ايار فك الحصار ، وفي ١٨ من نفس الشهر وصلت طلائع المدد الحربي المرسل من فلسطين ٠

وعندئذ اصبح العراقيون غير منفردين ، ففي ١٣ ايار هبطت بالموصل طليعة الطائرات الالمانية وغدت المهمة الاولى لسلاحنا الجوي شن الهجوم عليها ، وقطع طرق تموينها من سوريا في الخطوط الحديدية وبعد بضعة ايام كنا قد دمرناها ووصلت مجموعة من الطائرات المقاتلة الايطالية فيما بعد ، ولكن تحركاتها قد شلت تماما ، ووصل الضابط الالماني الذي يحمل عبء توزيع العمليات في العراق بين قوات المحور وقوات العراق وهو ابن الماريشال بلومبرج ، وصل الى بغداد ، مصابا في راسه ، بطلق ناري من حلفائه ، ولم يستطع من جاء بعده ـ وقد انتهى الى مطار بغداد سالما ـ للقيام باي عمل ، فتبدد كل امل للمحور ، في ان يكون عاملا له اثره في العراق ٠

وفي ٣٠ ايار زحفت مقدماتنا حتى مشارف بغداد ، وعلى الرغم من وهن قواتنا ، ومن وجود فرقة عراقية كاملة ببغداد ، الا ان اعصاب رشيد عالي وزملائه ، لم تستطع الصمود امام زحف جيوشنا ، فالتمسوا الفرار الى ايران ، وبصحبتهم وزيرا المانيا وايطاليا في بغداد ومفتى فلسطين ، وفي اليوم التالي عقدت الهدنة واعيد الوصى الى منصبه وشكلت حكومة عراقية جديدة ، وسيطرت قواتنا على جميع المناطق الهامة في العراق ٠

وهكذا حاق الفشل بالخطة الالمانية التي هدفت الى احداث انقلاب في العراق والاستيلاء على هذه الجبهة العريضة بثمن زهيد في اللحظة الاخيرة ، وكان لديهم في ذلك الوقت بكل تاكيد قوات تنتقل عن طريق الجو ، وتمهد لهم وسائل الاستيلاء على سوريا والعراق وايران بكل ما تملكه من آبار البترول الغنية ، وكان في استطاعة يد هتلر الممتدة ان تصل بعيدا الى الهند ، وان

تمر على اليابان ولكنه على اية حال قد رغب ـ كما عرفنا ـ ان يوجه سلاحه الجوي بكل قواه في طريق اخر ، ولا شك انه لم ينتهز هذه الفرصة طمعا في هدية اعلى بتكاليف اقل في انحاء الشرق الاوسط طولا وعرضا ٠

واضطررنا لكبح امال الالمان في سوريا ان نوالي الضغط على ويفل ، وقد رغب في الا نحمله تبعات حملة في سوريـ ، الا اذا اصبحت الحاجة ماسة الى ذلك ، وقد اجابه رؤساء اركان الحرب بان لا مندوحة له عن حشد اكبر عدد ممكن لغزو سوريا على الا تتأثر سلامة قواته المرابطة في صحراء الغربية ، وفي ٢١ ايار في الوقت الذي بدأ الالمان فيه يشنون هجومهم على كريت، كـان ويفل يبلغ تعليماته للجنرال ويتلاند ولسون بالاستعداد للزحف ٠

وبدأت الاغارة في ٨ حزيران بتعضيد من احرار الفرنسيين ، وقوبلـت بالمقاومة بادىء الامر ، ولم يكن من الواضح مدى ما ستحارب اليه فيشي ، وعلى الرغم من عدم وجود عنصير المفاجأة في زحفنا ، الا ان البعض قد ظن اننا سنلقى مقاومة رمزية ليس الا ، ولكـن عندمـا ادرك الفرنسيـون ضعف موقفنا قويت عزائمهم على القتال وربما لا نجد سببا اخر لعنف مقاومتهـم سوى الاحتفاظ بسلامة شرفهم العسكري ، وبدا لويفل بعد قتال دام اسبوعا ان عليه ان يرسل مؤازرة اخرى ، فاستطاع ان يعد فوجا اخر ومن بين قواته الوحدة التي استولت على بغداد فيما سبق ، واستولى الاستراليون علـى دمشق بعد ثلاثة ايام دار فيها قتال مرير وكان ذلك في ٢١ حزيران ، وقد عضدت زحفهم على المدينة عملية باسلة استوجبت الثمن غاليا هبطت فيها وحدة مـن الفدائيين الحادية عشرة خلف خطوط العدو من البحر ، واحس الجنرال رانتز بانه بذل ما في وسعه واستنفد طاقته ، وكان لا يزال حوالي اربعة وعشرين الف جندي يقاتلون معه ، ولكن امله في الاستمرار كان قد انهار فلم يبـق من قواته الجوية الا حوالي الخمس ، وفي الثامنة والنصف من صبـاح ١٢ تموز وصلت رسل من فيشي ترغب في الهدنة ، وقد استجبنا اليهم بالطبع ، وابرمنا اتفاقا ، انضمت سوريا على اثـره الى سيطـرة الحلفـاء ، وكانت خسائرنا حوالي ٤٦٠٠ بين قتيل وجريح ، بينما كانت خسائر الاعداء ٦٥٠٠ ، ولم يبق هناك غير اجراء واحد مثير ، فقد قامت السلطات الفرنسية بترحيل الاسرى الى فيشي ، ومعنى هذا انهم سينقلون بكـل تاكيـد الـى معسكرات المانيا ، وعندما عرفنا هذا الاجراء الغريب الذي عجز الفرنسيون عن تفسيره قمنا باعتقال الجنرال رانتز وكبار ضباطه كرهائن ، مما ادى الى احسن النتائج اذ عاد جنودنا في سلام ٠

وتحسنت اوضاعنا الاستراتيجيـــة في الشرق الاوسط نتيجة للعمليات الموفقة في سوريا والعراق فسد الطريق امام اية رغبة للعدو في التوغل شرق البحر المتوسط ، وامتد شمالا خط دفاعنا عن قناة السويس مسافة مائتيـن وخمسين ميلا • وزال القلق عن حدود تركيا الجنوبية ، واصبح في يقينهـا الان ان باستطاعة دولة صديقة ان تمد يد العون العاجل في اي وقت يلوح لها الخطر ، وقد دمرت معركة كريت مع ما دفعنا فيها من ثمن باهظ القوة الضاربة للعدو ، وسحقنا اخيرا الثورة العراقية ، وبقوات صغيرة تستدعي الشفقـة اعدنا سيطرتنا على منطقة شاسعة وحدد استيلاؤنا على سوريا وهجومنـا عليها الذي ارغمتنا عليه الضرورة الملحة رغبات العدو في الانطلاق باتجاه خليج البصرة والهند بصورة حاسمة ولو استجبنا لدواعي التريث والعقل ولم تحول وزارة الحرب كل مشروع الى عملية ظافرة ، ولو لم نفرض وجهة نظرنا على كافة القادة العسكريين في المنطقة ، لكنا في موقف الراضين عن الاضرار الجسيمة التي تكبدناها في كريت ، ولم نحقق الارباح العظيمة التي جنيناهـا من حربنا المجيدة هناك ولو تخاذل الجنرال ويفل تحت وطأة السهام الجسيمة التي القتها الحوادث على عاتقه ، وصمدت امامنا وجهة نظرة ، فان مـا اسفرت عنه الحرب وان مستقبل تركيا كان سيحدث فيها تغيرات رئيسيـة ، فاذا كانت هناك حسنات لتخلى الانسان عن كل ما ليس في وسعه ، وعن اقلاعه عن كل عمل لا يقتنع به شخصيا ، فلكل قاعـدة ـ في الحـرب وفي الحيـاة ـ شواذهـا •

ويجب الا ننسى ان ثورة العراق ، والانطلاق الى سوريا لم يكونـا غير احداث صغيرة من الاخطار المفاجئة في الشرق الاوسط التي عاش فـي غضونها الجنرال ويفل ، واحاطت بكل كيانه ، وعلى نفس النمط والمثال كان ميدان الشرق الاوسط بأكمله ليس سوى امر ثانوي بجانب مشاكلنا العالميـة التي كنا نبصرها في لندن ، حيث يقفز فيها الى مقدمة اهتمامنا خطر الغزو ، وحرب الغواصات ، والتهديد اليابانـي ، وقد انتصرنا علـى سائـر هـذه الاختبارات القاسية بدون ان ننسى ما منينا به من خسائر فادحة بفضل قوة وزارة الحرب والتفاهم بين اعضائها ، وصلات الاحترام المتبادل ، واستعراض وجهات النظر بين القادة العسكريين والسياسيين ، وبفضل جهازنا الحربي الذي كان يعمل في هدوء ورتابة ، وليس امامي الان ما اعرضـه في مجـال البحث سوى القتال في الصحراء العربية ، وكان موضوعها يستأثر بعظيـم

اهتمام مني ومن رؤساء الاركان ومع اننا لم ننل فيها اي انتصار الا اننــا فرضنا على رومل التوقف لمدة خمسة شهور اخرى ٠

***

وكانت مخابراتنا في ذلك الوقت قد نفذت الى مقر قيادة رومل وتولــى عميلنا ارسال ادق الاخبار عما يواجهه رومل من مصاعب شتى في موقفــه المتجمد الغريب وكنا ندرك تماما الثغرة الوحيدة التي كان يأمل القائد الالماني في الابقاء عليها ، كما كنا نقف على الاوامر الصارمة والتحذيرات الشديدة التي كانت تصله من القيادة الالمانية العليا ، منذرة اياه بالا تهرب المكاسب التي حازها حتى هذه الاونة في خضم اعتماده اكثر مما ينبغي علــى يمــن الطالــــع ٠

وكنا نمد ويفل بكافة المعلومات . وقد رغب بدافع شخصي بحت ، وفي غمار القتال الدائر في كريت ان يجرب مخالبه في رومل قبل ان تلحق به الفرقة الالمانية المدرعة التي تنشر الرعب ، وهي الفرقة الخامسة عشرة ، عابــرة طريق طرابلس الطويل وقبل ان يتاح له فتح ابواب بنغازي ، لتكون الطريــق القصير لوسائل تموينه ، واراد ان يشن هجوما حتى قبل ان تباشر الدبابات التي ارسلناها في عملية « النمر » اداء مهمتها ، وارادت قــوة صغيرة يتولــى قيادتها الجنرال غوت ان تتولى هي شن هذا الهجوم ولكنه اندحر تمامــا وفاتت الفرصة التي كانت متاحة لهزيمة رومل قبــل ان تلحق بــه التعزيزات اللازمــــة ٠

وعلى الرغم من اسراعنا في اتخاذ الاعدادات ، الا ان التأخيــر في تفريــغ واستصلاح وتجهيــز دبابات عمليــة النمــر للقتــال ، كان في غايــة القسوة واتضح بعد القيام بتفريــغ الشحنــة ان بعض الدبابات التي كانــت بطيئة من الناحية الميكانيكية لا تصلح ، وعاجلا ما سهلت الامور ، فقــد جمع رومل القسم الاكبر من فرقته المدرعة الخامسة عشرة ، وحشد قواتــه على الحدود بين كابوتزر وسيدي عمر ، ودار في احتماله قيامنا بهجوم عنيف للسيطرة على طبرق ، ولذلك فقد قرر الاستيلاء ثانية على حلفايا والابقاء عليها ليصبح هذا الهجوم صعبا للغاية وكانت الدفعة الثالثة من حرس جولد ستريم وكتيبة مدفعية الميدان ، ووحدتان من الدبابات تقوم بحماية هذا الممر المعروف في ٢٦ ايار بدا العدو تقدمه ، واستولى على مركز في الشمال ، يشرف على سائر النقط التي يرابط فيها الفوج ، وفي صباح اليوم التالي ، وبعد أن دوت

طلقات المدافع ، قام فوجان المانيان تؤازرهما على الاقل ستون دبابة بهجوم مجتاح ، جعل قواتنا على حافة الخطر ، وكانت الوحدات الاضافية بعيدة بحيث لا تملك المشاركة في القتال ، ولم نجد امامنا سبيلا سوى القيام بانقاذ قواتنا في هدوء ودون جلبة ، وقد قمنا بذلك فعلا ولكن الثمن كان باهظا ، فلم تبق من دباباتنا الا اثنتان صالحتان للعمل ، ووصل رومل الى ما يريد وبدا يدعم موقفه في حلفايا ٠ وقد كانت سيطرته على هذا الموقع ــ كما كان يتطلع ــ سبيلا بتعويق قدرتنا على العمل بعد ثلاثة اسابيع ٠

***

وظللنا نعد في هجوم حيوي حاسم سميناه « فاس المعركة » ولكن كان امامنا جانب مظلم ففي يوم ٣١ ايار ارسل الينا ويفل يخبرنا بالمصاعب الفنية الجمة التي تعترض طريقه في اعادة تجهيز الفرقة السابعة المدرعة ، وذكر اول موعد يسعه ان يبدأ فيه الهجوم هو ١٥ حزيران ، واكد انه يدرك تبعات التاجيل ، وقد تصل الى العدو امداد جوية اخرى ، وقد شن هجوما عارما على طبرق ، الا ان المعركة القادمة فيما يرى ستكون قتالا بين الدبابات ولهذا فعليه ان يمنح فرقته المدرعة كل ما يستطيع ، واكد لنا ان فرصة التأجيل والتريث تزيد من احتمالات النصر ٠

وفي هذه الاثناء كنت نافد الصبر يتجاذبني الرجاء والخوف من جراء هجومنا في الصحراء متعجلا لوقوعه ، متيقنا انه قد يحول الى لغتنا سير المعركة الافريقية كلها ، واستطاع الالمان استغلال ميناء بنغازي في سرعة ، مع اننا لم نوفق الى ذلك في بداية العام ، وعن طريق هذا الميناء وصلت اليهم كثير من المؤن والذخائر ، وقد عرفنا ــ فيما بعد ــ أن الالمان استطاعوا رصد جزء كبير من سلاحهم المدرع في خطوطهم الامامية وحشدوا حوالي مائتي دبابة في مقابل دباباتنا البالغة نحو من مائة وثمانين ٠

وفي صباح ١٥ حزيران بدأت عملية « فاس المعركة » وفي بداية الامر سارت الامور كما نحب غير انه في ١٧ حزيران اي في اليوم الثالث من المعركة اخذ كل شيء ينقلب على عقبة ، وأدركنا اننا منينا بالفشل في غارتنا ، فبدأت عمليات التقهقر المنظم ، تحت حماية من سلاح الطيران ، ولم يبد العدو اى محاولة لتعقبنا ، وربما يكون ذلك بسبب الاضرار التي انزلتها بسلاحه المدرع قاذفات قنابلنا ، وربما تكون هناك اسباب اخرى فقد علمنا فيما بعد ان اوامر رومل كانت تحرص على الدفاع وتوفير القوى لهجوم في الخريف ، ومعنى

ذلك ان القيام بمطاردتنا يتنافى مع خططه ، فضلا عما يتكبده من اضــرار فادحـــة ٠

ومع ان هذا القتال كان محدودا اذا قورن بالمعركة الواسعة المدى في البحر الابيض المتوسط في شتى اشتباكها ، فان ما اصبنا به من فشل كـان ضربة مؤلمة ، لان نجاحنا في الصحراء يعني تدمير جيش رومـل المغامـر ، والاستيلاء على طبرق وانقاذ حاميتها ، وسرعان ما انسحب العدو الـى ما بعد بنغازي بنفس الطريقة التي زحف بها ، وقد كلفنا هذا الهدف كثيرا فنحن لم ننس الاخطار التي صاحبت عملية « النمر » ، ومقامرتنا باشيــاء كثيرة ، ولم اكن بعد قد عرفت شيئا عما وقع في يوم ١٧ ٠ ولكن الاخبار كانت ستصلني حتما بعد قليل ، لذلك فقد ذهبت الى شارتويل ، الوصدة ومنذ مدة ، انشد هناك نوعا من العزلة ، واحيا وحيدا ، فجاءتني هنالك الانباء فمضيت اتجول في الوادي حزينا وحيدا ٠٠٠ عدة ساعات ٠

***

ولا شك في ان القارىء الذي تابعني ، قد تهيأت نفسه لتقبل القـــرار الذي انتهيت اليه في الثلث الاخير من شهر حزيران سنة ١٩٤١ ، فقد قر شعورنا في لندن بأن ويفل اصبح شخصية شائكة ، ومن الصائب ان يقال اننا ركبنا الجواد حتى استنفد قواه ، ولا شك ان اجتماع خمسة او ستة ميادين للقتال في تقارب مثير بما تزخر به من نصر او هزيمة ، تتغلب فيه الاخيرة دائمـا ، ثم وقوع ذلك كله على كاهل القائد العام فرد ، يؤلفان عبئا لم يسبق ان صادفه الا عدد قليل من القادة ، ولم اقنع بما قدمه ويفل تبريرا لفشله والذي عزاه الى قتالنا في كريت ، والى عدم امداده بعدد اخر من الدبابات ، وكان رؤساء اركان الحرب قد تخطوا اراءه فعلا في عملية العراق البسيطة الناجحة ، والتي ادت الى السيطرة النهائية على الحبانية ، والى ان نحصل على نجاح محلي مام ، ثم جاءت خطة « فأس المعركة » التي نفذها ويفل نظرا للاخطار الشديدة التي احاطت بعملية « النمر » ولم اكن راضيا عما استقبلت به قيادة الاوسط دبابات « النمر » من اجراءات مع ما اعترضها من مصاعب تغلبت عليهـــا لحسن الحظ ولكنني كنت معجبا من ناحية اخرى بروح المغامرة التي ابداهــا في هذه المعركة الصغيرة وعدم التفاته لما يهدد شخصه من اخطار حين طيرانه ذهابا وايابا ، فوق هذه المساحات الشاسعة ، التي تنشب في انحائها والمضطربة في مثل هذه المعارك الراهنة ولكنني كنت واثقا من عدم التوفيق ، في وضع خطته

العملية ، خصوصا حين فشلت في تحقيق اندفاع من ناحية طبرق ، في الوقت الذي حدث فيه الهجوم ليكون تمهيدا لذلك ليس اكثر ، وحركة مصاحبة في ذات الوقت ·

وفضلا عن ذلك كانت هناك الضربة التي سددها رومل لجناحهـــا في الصحراء فقضت على كل الخطط التي كنا على اهبة تنفيذها باليونان ، ودمرت كيانها بما تنطوي عليه من جوانب قائمة وانتصارات باهرة ، كانت تلوح لنا على اطراف المسرح البلقاني الكبير ، وتذكرت قولي السابق ؟ « ان رومـــل قد نزع اكاليل الغار عن رأس ويفل ومرغ بها في الرمال » وقد لا يكون ذلـــك مستساغا ، ولكنه على اية حال نتيجة لحزن ملم ، ولكن الحكم الصائب على كل ماحدث من الممكن ان يستمد دعائمه مما تشير اليه الوثائق المدونة فـــي أوانة ، ومما يكشف عنه المستقبل من ادلة اخرى ، والذي حدث انني انتهيت الـــى راي حاســـم بعـــد معركة « فاس المعركـــة » وهـــو ضرورة تغيير جوهري في القيـــادة ·

وكان الجنرال اوكنلك القائـــد العـــام في الهند ، ما زال يثير اعجابـــي بما فعله في نارفيـــك في خلال الحملة النرويجية ، فقد لمست فيه الميل الشديـــد للسلامة والتحسس بالنتائج ، وهما امران مفقودان في الحرب ، مع القناعـــة بكل ما يتوقع منه تحقيق الحد الادنى من الرغبات لكنني على اية حال كانت تثير أعجابي مواهبة الشخصية ، وذهنه المتالق واخلاقه الرفيعة ، وعندمـــا كان قائدا للمنطقة الجنوبية بعد نارفيك في انجلترا ، وصلتني كثير من الرسائل من جهات رسمية وغير رسمية نصف مابثة مـــن حيويـــة ونشـــاط في قيادتـــه الجديدة ، وقد استحسن الجميع توليه للقيادة العامة في الهند وقد وقفنا قبل هنيهة على مقدار حماسته لتسيير القوات الهندية للبصرة ، وضرورة القضاء على ثورة العراق وكنت اعتقد ان اوكنلك دم جديد سيثير الحيوية ويتحمل التبعات بشجاعة اذا تولى قيادة الشرق الاوسط كما ان ويفل سيصادف فـــي توليه قيادة الهند العظيمة فرصة لاستعادة انفاسه ، قبل ان تهجم الاخطـــار المتوقعة في كل حين ، ووجدت موافقة تامة لارائى هذه في الوزارة ، وبين رؤساء الاركان في لندن ولعل القارئ لا ينسى انني لا احرص قط على ان اتولـــى اى سلطات استبدادية وان ارائي كانت تتمشى دائما مع وجهات نظـــر الخبراء السياسيين ، واصدرت اوامري الجديدة في ٢١ حزيران ، فتلقاها ويفل فـــي هدوء ، وكان يهم برحلة الى الحبشة سرعان ما وضحت امامه مخاطرهـــا ، وقد كتب من ارخ حياته قائلا ان الجنرال عندما وصلتـــه برقيتـــي قال : ان

رئيس الوزراء على حق فالموقف هنا يحتاج الى يد جديدة وعين اخرى » ٠

***

وكان القلق ينتابني منذ اشهر لما وجدت عليه قيادة القاهرة من نقصان الكفاءة الواضح ، وادركت جيدا مدى الاعباء الثقيلة التي تتراكم على كاهل القائد العام المنهك ، وكان ويفل نفسه وغيره من القادة العامين قد عبروا عن احتياجهم في ١٨ ايار الى بعض المعاونين ، وقد اكد ذلك ايضا رفيقاه القائد العام الجوي والقائد البحري ، وكانت زيارة المستر ايدن تثير الارتياح في نفوس جميع القادة لاحساسهم بوجود شخصية ذات سلطة سياسية عليا معهم ، وعند عودته الى الوطن شعروا بفراغ كبير ٠

وكنت لم اسمع عن ولدي راندولف كثيرا في الايام الاخيرة وقد كان واحدا من الفدائيين الذين تفرق شملهم الان الى حد ما في الصحراء ، وفي ٧ حزيران وصلتني برقية منه عن طريق وزارة الخارجية ارسلها من القاهرة بعد اطلاع سفيرنا عليها السير مايلز لاميسون ، ويقول فيها :

« ارى ـ لننتصر في القتال ـ ضرورة وجود شخصية مدنية ذات كفاءة في الميدان توضح المعالم السياسية والاستراتيجية يوما بعد يوم ، فلم لاتبعث بأحد اعضاء وزارة الحرب هنا يرأس كل الجهود الحربية ، وكل احتياجه لا يتعدى ـ فضلا عن مجموعة صغيرة من الموظفين ـ الى رجلين قديرين ينسق احدهما شئون التموين ، ويقوم الاخر بالرقابة والدعاية ٠ ويرى هنا كثير من المفكرين ان الحاجة ملحة لتغيير جوهري ، وليس الى تبديل الافراد فحسب ، فالفرصة سانحة تماما لاجراء تعديل في الكيان كله ، ارجو أن تغفر اقلاقي لك ، فقد اضطررت اليه ليقيني بان الوضع هنا اصبح لا يحتمل وان العمل العاجل ضروري لاي نصر متوقع » ٠

ولا ريب في ان هذه الرسالة دعمت نواياي نحو العمل النهائي الحاسم ، وقد ارسلت اليه بعد اسبوعين : « لقد توافقت اراؤك القيمة والمرتبة في رسالتك الى مع ما كان يخالج نفسي من افكار منذ مدة غير قليلة » ، وعلى هدى من ذلك اتخذت طريقي ٠

وكان الكابتن اوليفر ليتلتون قد اشترك في الوزارة وزيرا للتجارة منذ تشرين اول سنة ١٩٤٠ وكنت اعرفه منذ صباه ، ففي غضون الحرب العالمية الاولى اشترك في وحدة قاذفي القنابل ، واصيب مرات عديدة ببعض الجراح ، واستحق عددا من الاوسمة ، وبعد ان ترك الخدمة العسكرية خاض غمار

الاعمال الحرة ، واصبح عضو مجلس الادارة المنتدب لشركة معدنية كبرى ، ولما كنت واثقا من مواهبه الخاصة فقد عملت على اشراكه في البرلمان واسهامه في الوزارة ، وقد استأهل تقديرا من جميع زملائه في حكومتنا القومية ، وكنت قد تعديت وجهة نظره في توزيع الملابس بالبطاقات ، ولكن لما وافق مجلس الوزراء ومجلس العموم على ذلك رضيت به ، ولا شك في ان ذلك جاء في اوانه ، لقد كان رجلا كفؤا للعمل بمهارة في كافة الميادين ، مما جعلني اثق في صلاحيته للمنصب المقترح الجديد ، كعضو في وزارة الحرب مقره الشرق الاوسط ولا شك في ان هذا العمل سيخفف كثيرا من العبء الواقع على القادة العسكريين ، وأيد كل زملائي من جميع الاحزاب هذا الرأى ، وعلى ذلك عين على ان تكون مهمته الاولى « المساهمة في حمل التبعات المنوطة بالقادة العسكريين واصدار التعليمات العاجلة على هدى من تفهم سياسة حكومة جلالته في شتى الشئون المتعلقة بمختلف الوزارات والدوائر التي كانت تصل قبل ذلك الى لندن للفصل فيها »

ولا شك في ان هذه التنظيمات الجديدة ، بما تتضمنه من نتائج ادارية ، جاءت ملائمة كل الملاءمة للتغيرات التي حدثت في قيادة الشرق الاوسط .

الفصل الثامن عشر

نيميسيس
الهـة الثأر السوفياتيـــه

تقول الاساطير ان نيميسيس الهة غاضبة ، تنــزل النقمة بكــل خـــط يتجاوز الحدود ، وتحد من غلواء كل مغرور ، وتثار من كل من يقترف جريمة نادرة الوقوع »

وعلينا هنا ان نوضح تماما ما تردت فيه الحكومة السوفييتية من اخطاء فاضحة ، وغرور مافون قدرت على اثره الموقف هي وجهازها الشيوعي الضخم، وان نكشف ما كان يسودها من جهل ابعدها عن ادراك حقيقة موقفها ٠

وكانت هذه الحكومة قد ابدت عدم اهتمامها بمصير الـــدول الغربية على الرغم من ان هذا لا يعني سوى تحطيم الجبهة الثانية التي قامت بعــد ذلك بقليل للمطالبة الملحة بها ، وظهر ان هذه الحكومة لم يدر في خاطرهـــا ان هتلر قد عقد العزم منذ شهور ستة على تدميرها ، واذا كانت مخابراتها قد اوصلت اليها انباء انتشار القوات الالمانية على مدى واسع في اتجاه الشرق ، وقد اخذ يتضاعف يوما بعد يوم ، فانها تكون قد تغافلت عن اتخاذ اجراءات حاسمة لمواجهته ، فهاهي المانيا تحت رضائها تجتاح البلقان باكمله ، وحكومة السوفييت تنكر الديمقراطيات الغربية وتستهين بها ، ولكن كان في استطاعتها ان تؤازر بريطانيا في تكتيل دول البلقان الاربع ، تركيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ويوغسلافيا في حلف واحد لمقاومة هتلر بالنسبة لان هذه الدول تعتبر ذات اهمية خاصة لامنها وسلامة حدودها ، ومع ذلك فقد رضيت بأن تنهار وان تجتاحها الفوضى والاضطراب ، وان تختفي واحدة بعد واحدة عدا تركيا —

من الوجود ، وقد تكون الحرب في مجملها مجموعة من الاخطاء ، ولكني اشك فيما اذا كانت هناك جريمة اخرى تعادل في شناعتها ما ارتكبه ستالين وقادته السوفييت من جرم عندما تغاضوا عن كافة امكانيات دول البلقان ولبثوا في حالة خمول وتراخ أو جهل وحاجة المزيد من الادراك ، ينتظرون الخطر الجامح الذي كان مسلطا على رقبة روسيا ، وكنا انذاك نعدهم فئة من الانانيين في تقديراتهم ، ولكنهم اكدوا لنا في تلك الفترة انهم سذج مغفلون كذلك وكان علينا ان نرى في ميدان المعركة كل ما اشتهر عن « روسيا الام » من شجاعة وقدرة على الحشد والاحتمال ، ولكن بالنظر الى الاستراتيجية والسياسة وتفهم الامور فقد بدا ستالين ورفاقه في هذه الفترة اغبى الناس في تاريخ الحرب العالمية الثانية ٠

وكانت عملية «بربروسا» الذي اصدر بها هتلر تعليماته في ١٨ تشرين اول سنة ١٩٤٠ ، تتضمن الخطة لحشد القوى بصورة عامة كما وضحت التبعات الاولى للجيوش التي حشدها ضد روسيا ، وكان كل عدد الوحدات الالمانية الموجودة في المانيا عند اصدار هذه التعليمات يزيد عن اربع وثلاثين فرقة ، وزيادة هذا العدد الى اكثر من اضعافه الثلاثة عمل هائل يدل على التخطيط والاعداد ، استنفذ الاشهر الاولى من سنة ١٩٤١ ، واحتاجت المغامرة البلقانية ، التي رضي هتلر ان يخوض غمارها ان يوجه في شهركانون ثاني وشباط حوالي خمس فرق ، من الشرق الى الجنوب ثلاث فرق منها مدرعات ، ولم يات شهر ايار حتى كانت القوات الالمانية في الشرق قد وصل تعداد فرقها الى سبع وثمانين ، بينما كان هناك خمس وعشرون فرقة تواجه الموقف في البلقان ، واذا ما نظرنا جيدا الى ما ينطوى عليه غزو روسيا من اخطار ، وما يلزمه من قوات ، فقد كان من خطل الراي تحويل الحشود لهذا العمل الخطير ، وسنعرف بعد قليل كيف ارغمت احداث البلقان ، ومقاومتنا الصامدة هناك ، ولا سيما ثورة يوغوسلافيا ، ارغم كل ذلك هتلر على ان يؤجل مغامرته الكبيرة خمسة اسابيع اخرى ، ولم يكن احد يعرف مدى اهمية هذا التاخير واثاره ، الا حين حل الشتاء ، وما صحبه من تغيير في اقدار الزحف الالماني على روسيا ، ومن الطبيعي ان يرى الانسان ان الفضل لهذا التأجيل في تجاه موسكو ، وقد تم خلال شهر ايار وبداية حزيران سحب اغلب الفرق الالمانية المدربة تدريبا جيدا من البلقان الى الجبهة الشرقية ، وكان الالمان في ابان هجومهم يملكون مائة وعشرين فرقة من بينها سبع عشرة فرقة مدرعة واثنتا عشرة فرقة الية ، وتبعت ست فرق رومانية اخرى مجموعة القوات

الجنوبية ، وكان هناك ست وعشرون فرقة اخرى تجمعت او هي على وشك التجمع كقوات احتياطية ولم يكد يطلع تموز حتى كان لدى القيادة الالمانية فرصة استخدام مائة وخمسين فرقة على اقل تقدير ، تسندها قوة السلاح الجوي الالماني الضاربة ، وتقدر بحوالي الفين وسبعمائة طائرة •

وكان يخالجني الشك حتى شهر اذار في تصميم هتلر على قتال روسيا ، ولم يدر بخاطري ان ذلك سيحدث قريبا جدا ، وكانت مخابراتنا قد امدتنا بمعلومات مفصلة عن تحركات الجيوش الالمانية الكبيرة في اتجاه دول البلقان ، وهو ما شهدته الشهور الثلاثة الاولى من عام ١٩٤١ ، وكان في مقدور جواسيسنا الانتقال بحرية في تلك البلاد نصف المحايدة ، وان يواصلوا اطلاعهم الدقيق على تحركات الجيوش الالمانية الهائلة في السكك الحديدية او في الطرق المعبدة الى الجنوب الشرقي ، لكن هذه التحركات كافة لم تكن تقطع الشك بأي محاولة لغزو روسيا ، وكان من السهل تفسيرها برغبة المانية في المحافظة التامة على مصالحها برومانيا ، وما تضمره نحو اليونان ، واوضاعها مع يوغوسلافيا والمجر ، أما التقريرات عن التحركات الواسعة التي تقع عبر المانيا تجاه الجبهة الروسية اساسية وهي التي تمتد من رومانيا حتى البلطيق ، فكانت اقل واصعب تفهما مما سبق ، وكان في تفكيري ان فتح المانيا لجبهة رئيسية اخرى مع روسيا في هذه الاونة ، وقبل ان تستقر الاوضاع في البلقان امر يثير الدهشة حقا لانه بعيد في غرابته •

ولم يحدث ما يشير الى انتقاص القوى التي تواجهنا بها المانيا عبر المانش ، فما يزال الهجوم الجوي الالماني على بلادنا في عنفوانه ، وكان مجرد غفلة روسيا السوفييتية ثم قبولها اخيرا لهذا التدفق الالماني على رومانيا وبلغاريا ، والبراهين التي بين ايدينا على مدى العون الضخم الذى تمد به روسيا المانيا ، والاشتراك الواضح في مصلحة الدولتين حين تسحق الامبراطورية البريطانية ويجتاح الشرق ، كل هذا يوحي لنا بأن هتلر وستالين يفكران في صفقة مشتركة على حسابنا ولن يقف احدهما موقف العداء من الآخر ، وها نحن الان قد ادركنا ان هذه الصفقة كانت من بين امال ستالين الواسعة التي طالما طافت باحلامه •

وكان يتفق معي في هذه المشاعر والتقديرات افراد لجنة للمخابرات ، وقد حملوا الى في ٧ نيسان ان اخبارا تجوب الان انحاء اوروبا عن خطة المانيا في اجتياح روسيا ، ولكنهم رأوا ان هذا الاحتمال مستبعد في الظروف الراهنة على الاقل ، لانه بالرغم من تدفق جيوش المانية ضخمة على الشرق ، واحتمال

قتال المانيا لروسيا في وقت اخر ، فان الوقت الحاضر غير ملائم لتخوض المانيا مع روسيا غمار معركة رئيسية . وقد رأوا ان الاحتمال المعقول ان يظل هدف المانيا الجوهري في عام ١٩٤١ هو انزال هزيمة ببريطانيا ، وفي ٢٣ ايار رأى اعضاء هذه اللجنة المشتركة ممن يمثلون القوات المسلحة الثلاثة ، ان شائعات الهجوم الالماني على روسيا قد ضعفت قليلا ، وان الشائع الان هو اعتزام البلدين توقيع معاهدة جديدة بينهما في اقرب فرصة ٠

وكان رؤساء اركان حزبنا اكثر معرفه من معاونيهم ، واشد تثبتا ، فقد ارسلوا تحذيرا الى قيادة الشرق الاوسط العامة في ٣١ ايار ، جاء فيه : « لدينا البراهين الدالة على ان الالمان يجمعون قوات هائلة وسلاحا جويا كبيرا ضد روسيا ، ومن المحتمل ان يطلبوا منها مهددين لها طلبات تضر بصالحنا . فاذا ابى الروس شنوا عليهم الهجوم »

وفي ٥ حزيران رأت لجنة المخابرات المشتركة ان الاعدادات العسكرية الالمانية في شرق اوربا واسعة النطاق ، وان شيئا حاسما سيحدث اكبر اهمية من اي اتفاق اقتصادي وربما تهدف المانيا الى ان تزيل من حدودها الشرقية اي خطر محتمل ان يكون مصدره القوات السوفييتية الهائلة العدد ، ولكن اللجنة حائرة تماما في تعيين الهدف الحقيقي وهل هو الحرب ام المعاهدة ؟ »

ولم اقتنع بهذا الاسلوب من التقارير العامة ، وملت الى ان اطلع بنفسي على مصادر هذه التكهنات ، فرغبت الى الرائد (الميجور) ويزموند مورتون ، بأن يجهز لي قصاصات مختاره من التقارير منذ بداية الصيف لسنة ١٩٤٠ ، وان يستمر في هذا العمل يوميا ، مما استطعت به استنباط وجهة نظر خاصة عن القضية قبل وقوع احداثها بزمن كاف ٠

وعندما اطلعت على تقرير المخابرات ، ارسله احد عيوننا الموثوقة جدا ، في يوم من الايام الاخيرة من شهر اذار سنة ١٩٤١ ، شعرت بكثير من الارتياح لدى قرائه ، وكان عن تحركات المدرعات الالمانية ، والتحركات المضادة لها على الخطوط الحديدية والواصلة بين بوخارست وكراكاو ، وقد اوضح هذا التقرير انه عقب توقيع الوزراء اليوغوسلافيين على الميثاق الثلاثي، فان ثلاث فرق مدرعة (بانزر) من بين خمس فرق كانت قد عبرت رومانيا جنوبا في اتجاه الحدود اليونانية واليوغسلافية قد اتجهت الى الشمال نحو كراكاو ثم عادت على التو دراجها بعد ثورة بلغراد ، ورجعت الفرق الثلاث الى رومانيا وليس من سبيل الى ان تسير هذه الاعداد الضخمة من القطارات

التي تصل الى ستين قطارا ثم تنقلب على عقبها فورا ، دون أن يقع علـــى ذلك عملاؤنا اليقظون في المنطقة ٠

واضاءت لي هذه المعلومات الطريق لتفهم الموقف ، فتوجه هذا العدد الضخم من المدرعات الى كراكاو وتحوله عن المسرح البلقاني في اشد الاوقات احتياجا له ، يعني بصورة واضحة ان هتلر قد بيت عزمه على الهجوم على روسيا في شهر ايار ، وهذا ما وثقت فيه غاية الثقة ٠ اما عودة هذه المدرعات فلا تعني سوى ان تأجيلا حدث لموعد الهجوم على روسيا من ايار الى حزيران ، واتجه تفكيري الى تلمس سبيل لاستثارة ستالين وانذاره بهذا الخطر المحدق ، محاولا ان يكون بيني وبينه من الصلات مـا بيني وبيـن الرئيس روزفلت ، وارسلت اليه رسالة مختصرة يحوطها الغموض ، املا ان يثير هذا الغموض وكونها اول رسالة ارسلها اليه بعد الرسالة الرسمية التي ابرقت اليه بها في ٢٥ حزيران سنة ١٩٤٠ اوصي فيها بقبول تعيين السير ستافورد كريبس سفيرًا لنـا في روسيا ، ان يثيـر هذا وذلك انتباهه للموقف وهـذا هـو نص رسالتـــي :

ــ « من رئيس الوزراء الى السير ستافورد كريبس ، ٣ ابريل ١٩٤١ »

ــ « مع هذا رسالة خاصة الى المستر ستالين ، بشرط ابلاغها اليـــه شخصيـــا ٠ »

ــ « لدى براهين وثيقة من مصدر لا يتطرق اليه الشك بأن الالمان عندما يتيقنون من وقوع يوغسلافيا في قبضتهم ــ اي بعد ٢٠ اذار ــ بدأوا يتحولون بثلاث فرق مدرعة من فرقهم الخمس من رومانيا الى جنوب بولنده ، وعندما فاجأتهم ثورة الصرب ، عادت الفرق على اعقابها ، ولا شك في ان فخامتكم ستقدرون هذه الحقائق الهامة » ٠

ولم يصلني رد من السفير الا في ١٢ نيسان عندما اخبرني انـه قبيـــل تسلمه رسالتي كان قد وجه خطابا خاصا الى فيشينسكي ، واوضـــح فيــه تخاذل الحكومة السوفييتية عن مواجهة اجتياح المانيا لدول البلقان ، وحـث الاتحاد السوفييتي بعبارات شديدة ، من اجل مصالحه الخاصة ان يحـول سياسته الى سياسة متازرة مع الدول التي لا تزال تحارب المحور في تلـك الجبهة ، واضاف السفير قائلا :

ــ « واذا كنت الان سابلغ ستالين عــن طريق مولوتوف برقيـة رئيس الوزراء ، التي يفهم منها نفس الفكرة ولكنها تعرضها بصورة اكثر اختصارا

وحزما ، فاني اخشى ان يكون تاثيرها الوحيد اضعافا للاثر الذي ابقتـــه رسالتي في نفس فيشنسكي ••• »

وقد احنقني هذا التصرف ، والتأخيــر الذي حــدث ، وكانت هـــذه هي الرسالة الوحيدة التي ارسلتها الى ستالين شخصيا قبل ان يشن الهجوم ، وكان الهدف من ايجازها ، والظروف الخاصة بها ، وصدورهـــا عـــن رئيس حكومة لتبلغ مباشرة وبصفة شخصية عن طريق السفير الى رئيس الحكومة الروسية ، كان الهدف من كل ذلك ان تقع موقعا خاصا من نفس ستالين وتثير انتباهه لما حوله ، وقد عرفت اخيرا ان السير ستافورد كريبس قد سلمها الى فيشنسكي في ١٩ نيسان ، وان هذا بدوره قد ابلغ السفير في يـــوم ٢٣ ، ان مضمون الرسالة قد بلغ الى ستالين •

وليس في استطاعتي ان اقرر جازما مدى ما كانت تفعله رسالتي لـــو سارت في الطريق الذي رسمته لها ، وما فيه من اختصار وشكليات ، فـــي مجرى الحوادث ، ولكنه ما زال يحز في نفسي الا تنفذ تعايماتي كما رسمتها ، فلو اتيح لى اتصال شخصي بستالين لاستطعت في الاعم الاغلب ان احول دون تدمير جزء كبير من سلاحه الجوي على الارض •

الان نحن نعرف ان تعليمات هتلر في ١٨ كانون اول قد عينت يوم ١٥ ايار موعدا لشن الهجوم على روسيا ، وان الغضب الذي اجتاحه بسبب ثـورة يوغوسلافيا قد اجلت هذا الموعد شهرا ، ثم عاد الموعد فتأجل ثانية الى يوم ٢٢ حزيران ، ولم تتطلب طبيعة التحركات الالمانيـــة في شمال الجبهة الشرقيـــة حتى منتصف شهر اذار اية وسائل لاخفائها وعلى كل فقد اقتضت الاوامـــر الصادرة من برلين في ١٣ مارس اغلاق البعثات الروسية العاملة في المانيـــا وارجاعها الى وطنها ، فلم يصبح من المحتمل ان يستمر الروس في المانيـــا بعد يوم ٢٥ اذار وفي خلال ذلك الوقت كانت مائـــة وعشرون فرقـــة المانيـــة من افضل الجند تنتشر على مدى الجبهة الروسية ، وتتوزع في ثلاثة تشكيلات ، وكانت المجموعة الجنوبية تحت قيادة رونشتادت ـ منهوكة القوى للعوامـــل التي سبق ان اوردتها ، ولم تكن فرقها المدرعة (البانزر) قد قدمت من اليونان ويوغوسلافيا الا منذ فترة قليلة ، وكانت على الرغم من ان الغزو قد تأجل الى ٢٢ حزيران في اسس الحاجة الى الراحة والاستصكحات ، بعد ما بذلته من جهد الي في البلقان •

وفي ١٣ نيسان وصل الى برلين شولنبرج من موسكو ، ولـــم يستدعـــه هتلـــر للقائـــه الا في يـــوم ١٨ من الشهـــر نفســـه ، واشبعه شتائم في روسيا

ولكـن شولنبـرج تمادى في تأكيـد الرأي الذي ابـداه في كافـة رسائلـه ، وذكـر ان روسيا قـد اكدت لمندوبينـا الاقتصاديين استعدادهـا اذا طلبت وعبر عن ثقتـه الشديدة في استعـداد ستاليـن للتنازل عـن اشيـاء جديدة في ظروف ملائمة تقـدم الينا خمسة ملاييـن طـن قمحـا في العـام « ورجـع شولنبـرج من اصرار هتلـر على القتال ، ويبدو ان تحذيـر سفير روسيـا في برليـن الـى موسكو في ٣٠ نيسان مصابا بخيبة الامـل من هذا اللقـاء ، فقـد ايقـن ديكانزوف من الموقف واستمـر شولنبـرج في موقف الذود عـن سياسة التفاهم الروسي ـ الالماني حتى النهاية ٠

وكان دايزاكر ، الرئيس الرسمي لوزارة الخارجية الالمانية ، من نـوع الموظفين المهرة الذين تجدهم في دوائر الحكومة في كل الدول ، ولم يكن دايزاكر سياسيا صاحب سلطات تنفيذية ، وهو في اعتبار التقاليد البريطانية لا يعـد من بين المسئولين عن سياسة الدول ، ومع ذلك اصدرت عليه محاكم الحـرب التي انشأها المنتصرون حكما بالسجن لمدة سبع سنوات ، وعلى الرغـم من معاملته كمجرم حرب الا انه قد قام بالنصح الحسن لرؤسائه ومن يمن طالعنا انهم لم يستمعوا اليه ، فقد لخص رأيه في هذه المقابلة بقوله « بودي ان اوجز رأيي عن العلاقة بين المانيا وروسيا ، فلو كانت كل مدينة روسية تسعى الـى تدميرها تساوي عندنا اغراق بارجة بريطانية ، فانني كنت حينئذ اؤيد فكرة الهجوم هذا الصيف على روسيا ، ولكنني متأكد اننا سننتصر على روسيا عسكريا فحسب ، اما اقتصاديا فسنبوء بالخسران ٠

وقد يكون من المثير حقا تسديد ضربة قاضية الى النظام الشيوعـي وقد يقال ايضا ان المنطق يقتضي نشـر سيطرتنا على هذه القـارة الاوروبية الاسيوية ، لنستطيع بعد ذلك حشد قوانا في الصراع ضد العالـم الانجلو ـ سكوني وتابعيه ، لكن السؤال الذي سيظل يتردد ، هل هجومنا على روسيـا سيعد خطوة في سبيل القضاء على انجلترا ٠ وسيمنح غزونا لروسيا طاقـــة معنوية جديدة لبريطانيا ، فسيفهمونه على ان الباعث اليه عدم ثقتنا فــي الانتصار عليهم ، ويعتبر قيامنا بهذا الغزو ليس اعترافا بأن الحرب ستمتـد فحسب بل عملا فعالا على امتداد زمنها بدلا من تقريب نهايته »

وفي ٧ ايار اخبر شولنبرج حكومته بأن ستالين قد تولى بنفسه رئاسـة الحكومة السوفييتية (مجلس مفوضي الشعب) بدلا من مولوتوف وكان هذا بالنسبة اليه يبعث الامل من جديد ، فاضاف الى ذلك قائلا « انني متأكد من ان ستالين بحكم منصبه الجديد سيكون عاملا فعالا في استمرار الصـلات الطيبـة بين

روسيا والمانيا والحرص عليها »

وردد نفس الفكرة ملحق المانيا البحري في موسكو ، كما جاء في البرقية التي ارسلها « ان ستالين هو مرتكز التعاون الالماني ـ السوفييتي » وتضاعفت البراهين على رغبة روسيا في خدمة المانيا ، فاعترفت الحكومة الروسية في ٣ ايار اعترافا رسميا بحكومة رشيد عالي في العراق الموالي لالمانيا ، وطرد المفوضان الديبلوماسيان لحكومتي بلجيكا والنرويج من موسكو في ٧ ايار ولقي الوزير اليوغسلافي نفس المصير تلمسا لرضاء المانيا ، وفي بداية شهر حزيران انهت روسيا عمل المفوضية اليونانية في بلادها وقد سجل الجنرال توماس ، رئيس قسم الاقتصاد في وزارة الحرب الالمانية في تقرير كتبه فيما بعد عن اقتصاد الرايخ الحربي ما يلي :

ـ استمر الروس في ارسال عونهم حتى مساء اليوم الذي بدأ منه الغزو ، وقد نقلنا بسرعة المطاط من الشرق الاقصى في الايام الاخيرة باستخدام القطارات السريعة »

ولم تصلنا معلومات كافية عن حقيقة الاوضاع في روسيا ، ولكن الغايات الالمانية كانت في غاية الوضوح ، وقد ارسلت برقية الى الجنرال سمطس في ١٦ ايار قلت فيها : « يبدو ان هتلر يعبىء قواته ضد روسيا ، فهناك تحركات مستمرة للحشود والفرق المدرعة وسلاح الطيران من البلقان شمالا ، ومن فرنسا والمانيا شرقا »

ولا شك في ان ستالين قد بذل الكثير في سبيل الابقاء على انطباعه النفسي الخاص نحو هتلر ، للدرجة التي استطاع شولنبرج ان يرسل الى وزارة الخارجية في ١٣ حزيران اي بعد مرور شهر باكمله على تحركات القوات الالمانية الضخمة وحشدها ، يرسل مايلي : « ابلغني مفوض الشعب مولوتوف منذ قليل محتوى البيان الذي ستذيعه وكالة تاس الليلة ، والذي ستنشره صحف موسكو في الغداة ، وهذا نصه :

« قبل ان يذهب سفير بريطانيا كريبس الى لندن ، وبعد عودته خاصة ، روجت كثير من الشائعات ، عن قتال يوشك ان ينشب بين روسيا والمانيا ، وقد روجت هذه الشائعات الصحف الانجليزية والاجنبية ...

وبالرغم مما في هذا من كذب سخيف ، فان المسئولين في موسكو راوا ان يؤكدوا ان هذه الترهات ليست سوى مناورات سيكلوجية طائشة ، يشنها اعداء الاتحاد السوفييتي والمانيا هادفين الى نشر الحرب واندلاعها » .

وبات في مقدور هتلر ان يحس بالرضا لنجاحه في اضفاء السرية التامة

على تحركاته ، وفي خداع الفريسة التي ما زالت تحيا تحت سيطرة الاوهام ٠

وخليق بنا ان لا ننسى هنا غفلة مولوتوف الى اخر لحظة ، فقد ارسل شولنبرج برقية في الساعة الواحدة والدقيقة السابعة عشرة من صباح ٢٢ حزيران ، الى وزارة الخارجية الالمانية جاء فيها : « في التاسعة والنصف من هذا المساء استدعاني مولوتوف ، وبعد ان حدثني عن حوادث اختراق طائراتنا مرارا للحدود الروسية قال : « هناك براهين عديدة على عدم رضاء الحكومة الالمانية عن الحكومة الروسية ، وقد تضافرت الانباء على ان القتال اصبح لا محالة منه بيننا وبين المانيا ، وليس في استطاعتنا ان نجد مبررا لهذا التغير من جانب المانيا ٠٠٠ ولذا سيكون شاكرا اذا ابلغته العوامل التي طورت الموقف الى هذا الحد في الصلات بين المانيا وروسيا »

وقد اجبته بأني لا املك التفسيرات للموقف ، لانني محتاج الى معلومات كافية ، كما وعدته بأن ابلغ رسالته الى برلين »

ولكن الموقف كان قد وصل الى غايته ، وفي الساعة الرابعة من صباح اليوم نفسه اى في يوم ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١ ، كان ريبنتروب يقدم اعلان الحرب الرسمي الى سفير روسيا في برلين ولدي الفجر كان هناك لقاء بين شولنبرج ومولوتوف في الكرملين كذلك ، وانصت جيدا الاخير الى الرسالة التي تلاها السفير ثم قال :

« اذن هو القتال ، لقد اغارت طائراتكم منذ هنيهة على عشر قرى مكشوفة ، فهل انت على يقين باننا نستأهل منكم ذلك ؟ »

وكان من الصعب علينا بعد البيان الذي اذاعته وكالة تاس ، وقد اوردته منذ قليل ، ان نقول شيئا بعد التحذيرات الكثيرة التي وجهها ايدن لسفير روسيا في لندن ، او الى ما قمت به بنفسي لاثير انتباه ستالين للخطر الذي يدهمه ، وكانت حكومة امريكا قد اطلعت روسيا على تفاصيل دقيقة لتطور الاوضاع ، ولكن ما فعلناه ذهب هباء ازاء المصطلحات النهائية التي حال بها ستالين بينه وبين رؤية الموقف الرهيب ، وعلى الرغم من ان التقديرات الالمانية ذكرت ان مائة وستا وثمانين فرقة روسية قد وقفت على الحدود ومن بينها مائة وتسع عشرة فرقة في مواجهة القوات الالمانية ، فان الواضح ان الحشود الروسية قد فوجئت تماما بالزحف الالماني ، ولم يجد الالمان اثرا لاية استعدادات دفاعية في المناطق المتقدمة ، وقد اسرعت الى الانهيار كل الوحدات الروسية التي حشدت على الحدود ، وكان من المحتم ان كارثة كتلك التي حاقت بالسلاح الجوي البولوني في اول ايلول سنة ١٩٣٩ ، ولكن

على مدى أوسع ، بالمطارات الروسية ، وفوجئت مئات الطائرات هناك عند الفجر وهي رابضة في ارض مطاراتها ، فتحطمت قبل ان تستطيع التحليق في الجو ، وهكذا كان دوى القذائف الالمانية عند الفجر أقوى من صوت الدعاية الروسية التي قامت في اثناء تلك الليلة بشن حملة واسعة ضد بريطانيا وامريكا وهكذا نرى ان الشريرين ليسوا دائما اذكياء . وان الطغاة ليسو دائما على صواب ·

وليس لي ان استمر في البحث دون الاشارة الى الاجراء الفظيع الذي قرر هتلر ان تتبعه السياسة الالمانية ضد اعدائه المحدثين ، والذي اتخذ تحت هول القتال المرير في المناطق المجدبة وبين غضب الشتاء ففي يوم ١٤ حزيران سنة ١٩٤١ عقد اجتماعا اصدر فيه توجيهات شفوية بشأن معاملة القوات الالمانية لجنود الجيش الروسي وافراد الشعب السوفييتي ، تلك المعاملة التي بلغت غاية القسوة والوحشية ، وقد ادلى الجنرال هولدر في محاكمات نورمبرج بالشهادة التالية :

« قبل بدء الهجوم على روسيا دعا الفوهور الى اجتماع خاص حضره جميع القادة والافراد الذين على علاقة بالقيادة العليا ، ليتناقش معهم بشأن الهجوم المنتظر على روسيا وقد نسيت موعد الاجتماع بالضبط ولكني لم انس ما قاله هتلر من ان القتال الذي سينشب مع روسيا يجب ان يكون مغايرا تماما للقتال الذي شن على الغرب ··· واضاف الفوهرر ان النزاع بين روسيا والمانيا هو نزاع روسي ، ولما كانت روسيا لم تشترك في معاهدة جنيف فان اسرى الحرب يجب ان يعاملوا معاملة خاصة غير التي تنص عليها المعاهدة ·· وذكر ايضا ان من يسموا بالمفوضين يجب الا يعتبروا من اسرى الحرب »

وكتب كايتل ما يلي :

ـ « كان هتلر يرى ان القتال سيكون حاسما بين مبدئين وانه نظرا لذلك فلا يجب ان نستخدم مع روسيا في هذا القتال الاساليب التي نقرها نحن الجنود ، التي يقر العرف القانوني الدولي بأنها الاساليب الوحيدة الصائبة »

وفي مساء يوم الجمعة ٢٠ حزيران ذهبت وحيدا بسيارتي الى تشيكرز ، وكنت اعرف ان الاجتياح الالماني لروسيا قد يبدأ بعد ايام او بعد ساعات ، وكانت قد انتويت توجيه رسالة من الاذاعة في مساء السبت ، خاصة بهذا الشأن ، فكان على طبعا ، ان اصوغ افكاري في كلمات دقيقة ، اختارها بكل عناية ، خصوصا وقد اعتبرت الحكومة الروسية فيما سبق كل ما يصدر

عنا من نصائح او تحذيرات ــ جهلا منها او تكبرا ــ ليس سوى محاولــة يائسة من قوم حاقت بهم الهزيمة لدفع الاخرين الى نفس المصير ، وعلـــى هدى من هذه الخواطر التي دارت بنفسي في السيارة ، رايت تأجيل الاذاعة الى مساء الاحد ، اذ يزداد الموقف وضوحا ، وهكذا مضى يوم السبت باعبائه العاديـــة ٠

وعندما صحوت صباح الاحد ٢٢ حزيران ، استمعت الى اخبار مشروع هتلر في هجومه على روسيا فانتقل اليقين الى واقع ، ولم يعد لدي اي تردد في اختيار الموقف الذي يجب علينا ان نلتزمه ، كمـا كنت على يقيـن ممـا سأذيعه ، ولا ينقصني في هذا السبيل الا اعداده ، وطلبت من الاذاعة ان تعلن عن اذاعة لي في تمام التاسعة مساء ولحق بي الجنرال ديل من لندن ، حاملا لي كل تفاصيل الموقف ، لقد كـان الهجوم الالماني على منطقـة عريضـة ، وفاجأوا قسما كبيرا من طائرات السلاح الجوي الروسي وهي رابضة فـــي اماكنها ، ويبدو ان الالمان يواصلون توغلهم في سرعة كبيرة وبمنتهى الغلظة والعنف ، واضاف رئيس اركان حرب الامبراطورية قوله وانـا واثق من ان الجيوش الروسية سيتم حصارها في مجموعات كبيرة »

وامضيت النهار في اعداد كلمتي ، ولم تكن لدى الفرصة لاستطلع اراء وزارة الحرب كما لم اجد ما يحتم هذا فقد كنت على ثقة من مشاركة الجميع لي بمشاعرهم ازاء هذه المسالة وزادني المستر ايـدن واللورد بيفـر بروك والسير ستافورد كريبس ، الذي كان قد ترك موسكو في ١٠ حزيران ، وقد قلت في غضون الخطاب الذي وجهته للاذاعة « لا تكاد النازية تختلف عن اسـوأ ملامح الشيوعية ، فالنازية مجدبة من كل اعتقاد ومن اي مبدأ ، اذا استثنينـا نزعة السيطرة العنصرية الغاشمة ، ان النظام النازي في عنفه ووحشيته يفوق كل ما يتصور من نظم همجية قاسية وانا اشد الناس كرها للشيوعية ، واكثرهم عداء لها ومقاومة في مدى الخمسة والعشرين عاما الماضية ، وبكل تأكيد لن اتنازل عن اية كلمة ضدها قلتها سابقا ، ولكن هذا كله يتوارى امام مانشهده اليوم ، ان الماضي يتوارى في لمحة بصر بكل ما ينطوي عليـه مـن جرائـم وحماقات ومآسي وكل الذي اشهده اليوم هو الجنود الروس ، وقد وقفـوا على عتبات بلادهم ، يحرسون الحقول التي قلب اباؤهم تربتها منذ فجـر التاريخ ، ويذودون عن البيوت التي تصلي فيها امهاتهم وزوجاتهم ، حيـث يضرع الجميع في مثل هذه الاوقات الى الله ، ان يحفظ لهن احباءهن ، ومن يتولى امورهن ، ويدافع عنهن ، ويحميهن ، واني لاشهد عشرة الاف قريـة

روسية ، ينتزع فيها القوت انتزاعا من الارض ومع ذلك ، مع هذه الحياة الجافة فما تزال هذه القرى تموج بأمواج انسانية اصيلة ، حيث تنطلق ضحكات العذارى ، ويتمادى الاطفال في لهوهم ، واشهد معدات القتال النازي تغير على هذه القرى في هجومها المجتاح وفي مقدمة المغيرين الضباط البروسيون يصلصلون ويجلجلون ، ويتأنقون في لباسهم العسكري ، والعملاء الماكرون الذين اجادوا وسائل اخضاع الشعوب وتعذيبها ، (واشهد كذلك الجموع المنهمرة من جنود الهون بكل ما عرف عنهم من بلاء وخشونة ووحشية وانقياد اعمى وهم ينطلقون في كتل زاحفة كالجراد المنتشر ، وارى القاذفات والطائرات المحاربة الالمانية وهي تذرع الفضاء جيئة وذهابا ، وعلى ظهورها اثار جراح احداثها السياط البريطانية ، وقد هزها الفرح لوقوعها على ما ترى انه فريسة سهلة الاصطياد ٠

« وخلف كل هذا الرجاء ، وكل هذه الرياح الهوجاء ، يوجد فريق من الرجال الاوغاد يضعون الخطط ، وينظمون ، ويثيرون هذه الجبال المتراكمة من الشر والحقد على الانسانية جمعاء ٠

« واني لاعلن قرار حكومة جلالته ، واني على يقين كبير بأن دول الدومينونات المستقلة ستجد في هذا القرار ما توافق عليه وتؤيده في الوقت الملائم ، وذلك لان الظروف تحتم علينا ان نتكلم مباشرة وبدون ارجاء ذلك الى يوم واحد سأعلن هذا القرار ، ولكن هل يخالجكم شك فيما سننهجه من سبل ؟ ٠٠

ان لنا هدفا واحدا واضحا ، وأملا لن نتوانى عن تحقيقه ، فنحن نصر ونصمم على ضرورة القضاء على هتلر وتدمير نظامه النازي ، ولن يحول بيننا وبين هذه الغاية شيء على الاطلاق ، فلن نتحدث او نتباحث مع هتلر او مع اى واحد من افراد عصابته ، بل سنقاتله في البر ، وسنقاتله في البحر ، وسنقاتله في السماء ، حتى نستطيع باذن الله ، انقاذ البسيطة منه ومن شبحه ونحرر الشعوب ومن قبضة استذلاله ، وكل رجل يقاتل هتلر وكل دولة تقاتل النازية ، سنمد اليها يد العون ، وكل من ينحاز الى جانب هتلر فهو عدونا اللدود ٠

هذا هو نهجنا ، وهذا هو قرارنا ٠ وعلى هدى من ذلك سنبذل لروسيا ولشعبها كل ما نستطيع من مساعدة ، وسنناشد كافة اصدقائنا وحلفائنا في شتى انحاء العالم ان يسيروا في نفس هذا السبيل ، كما ستسير فيه سياستنا بكل اخلاص واصرار ٠

« وليست هذه الحرب صراعا طبقيا ، وانما هي نضال مشترك بين الامبراطورية البريطانية وجامعة شعوبها ، دون تميز بالعنصر او الدين او الحزب ، وليس من حقي ان اعبر عن امريكا ، ولكن الذي استطيع قوله انه اذا كان هتلر يظن ان زحفه على روسيا سيؤدي الى خلاف في الراي او اضعاف في البذل ، في جانب الديمقراطيات العظيمة التي تصر اليوم على محقه والقضاء عليه فانه لبالغ الخطأ اذ ان العكس تماما هو الذي سيحدث ، فهذا الهجوم الجديد لن يؤدي الا الى مضاعفة الجهود المبذولة لانقاذ البشرية من وحشيته ، وستضاعف مواردنا وجهودنا وعزيمتنا ٠

ولا ارى الوقت مناسبا لتدعيم القيم الاخلاقية ورثاء حماقات الدول التي اعطت العدو كل فرصة لضربها واحدة بعد اخرى بينما كانت تستطيع بالتكتل والعمل الجماعي ان تنجو بنفسها وبالعالم كله ، من هذه الكارثة ، ولكن عندما اشرف منذ قليل الى ظمأ هتلر للدماء ، وشهواته البغيضة التي دفعت به الى مغامرة الهجوم على روسيا ، قلت ان هناك هدفا بعيدا من كل ذلك العنف ، فهو يتطلع بعد ان يحطم القوة الروسية الى ان يعود بقواته الرئيسية وجيشه الجرار وسلاحه الجوي من الشرق الى هذه الجزيرة التي يعلم ان عليه ان يسيطر عليها والا فسيعاقب على كل ما اقترف من اثام ، فهذا الغزو لروسيا ليس الا تمهيدا لهجوم كبير على بريطانيا ، وهو يتطلع بلا ريب الى الخلاص من مغامرته قبل هجوم الشتاء ، لينطلق الى بريطانية فيفرض سيطرته قبل ان يستطيع اسطول امريكا وقواتها التدخل ، انه يستطلع الى استخدام تلك الخطة التي انتهجها كثيرا في تدمير اعدائه واحدا واحدا وقد اصاب نجاحا الى اليوم في تنفيذها ، حتى تتهيأ له كل الظروف للقيام بعمليته الاخيرة التي بدونها تظل كافة انتصاراته لا معنى لها ، وهذه العملية هي محاولة السيطرة على نصف العالم الغربي ٠

ولذلك فان ما يواجه روسيا من اخطار يواجهنا نحن ايضا ويواجه امريكا كذلك ، كما ان قضية كل روسي يهب للدفاع عن ارضه وبيته هو قضية كل انسان حر في سائر ارجاء العالم ، وهي قضية الشعوب الحرة جميعا وعلينا الا ننسى عبر هذه المحن التي نقاسيها جميعا ، وان نبذل ـ جهودا مضاعفة ، وان نسدد متحدين ضربة قاصمة ما دامت فينا ارادة ، واحساس بالحياة ٠

انتهى الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني

مذكرات
تشرشل
٢
دار المعرفة للطباعة والنشر
Bibliotheca Alexandrina
01304430

ونستون تشرشل

مذكرات تشرشل

الجزء الثاني

منشورات مكتبة المنار بغداد

الحلف الكبير

الحلفـــاء الـــروس

كان دخول روسيا الحرب الى صفوفنا عملا رحبنا به غاية الترحاب. وان لم يكن نافعا لنا فورا . فقد كانت الجيوش الالمانية على هذا القدر من القوة ، بحيث كان في استطاعتها ان تحتفظ الى عدة شهور مقبلة بخطط غزوها لانكلترا في نفس الوقت الذي تتوغل فيه داخل الاراضي الروسية وقد اجمع العسكريون على ان الجيوش الروسية ستهزم وتدمر كليا . ولا شك أن سماح الحكومة السوفياتية لسلاحها الجوي بأن يؤخذ على حين غرة في مطاراته ، وتكاسلها عن اكمال اعداداتها العسكرية ، كانا سببا في النتيجة السيئة التي منيت بها . وقد احتملت الجيوش الروسية أضرارا مخيفة . وعلى الرغم من المقاومة البطولية ، والشروع في حرب عصابات لا هوادة فيها ولا شفقة في مؤخرة الجحافل الالمانية فقد جرى انسحاب عام على طول الجبهة الممتدة الفا ومئتي ميل من جنوب لينينغراد الى مسافة اربعمائة او خمسمائة ميل عمقا . ويعود الفضل في تحطيم جيوش هتلر الى اسباب عديدة : قوة الحكومة السوفياتية ، وصمود الشعب الروسي ، والطاقة البشرية الهائلة من الاحتياطي ، واتساع البلاد وقساوة الشتاء الروسي. لكن ايا من هذه الاسباب لم يظهر في عام ١٩٤١ .

ودون انكار للحقيقة التي سيثبتها التاريخ ، وهي ان المقاومة الروسية هي التي حطمت قوة الجيوش الالمانية واصابتها باصابات مميتة ، كما انزلت بالطاقات الحياتية للشعب الالماني ضربات قاصمة ، ارى من الحق ان اوضح ان روسيا بقيت تمثل لنا حتى بعد مرور سنة على دخولها الحرب الى جانبنا ، عبئا لا عونا . ومع ذلك فقد فرحنا بهذا العبء كل الفرح ، لان اشتراكها معنا يعني دخول شعب جبار الى المعركة في جانبنا ، وكنا نشعر بانه حتى ولو اضطرت الجيوش السوفياتية الى الانسحاب حتى جبال الاورال ، فانها ستواصل كفاحها ، وستكون اذا استمرت في الحرب عاملا حاسما كل الحسم .

وكانت الحكومة السوفياتية حتى الوقت الذي هاجم فيه هتلر بلادها لا تهتم الا بنفسها . فقد راقبت بجمود يشبه جمود الحجر ، سحق الجبهة الفرنسية عام ١٩٤٠ ، ومحاولاتنا اليائسة عام ١٩٤١ لخلق جبهة في البلقان ، كما انها قدمت مساعدات اقتصادية مهمة الى المانيا وساعدتها في نواحي كثيرة ، وها هي تشعر الآن بانها قد خدعت . وكانت سياستها الثابتة تقضي بأن تلجأ الى بريطانيا العظمى وامبراطوريتها لتحصل منها على اكبر مساعدة ممكنة ، ولم يتوان الروس عن مناشدة بريطانيا المكافحة والمنهوكة ، بعبارات ملحفة ، أن تبعث اليهم بالذخائر التي تحتاج اليها جيوشهم . كما طلبوا من الولايات المتحدة ، ان ترسل لهم اكبر كمية ممكنة من الذخائر التي كنا نحن نعتمد عليها . وراحوا يطالبون ، وهذا

هو الاهم ، وحتى في الصيف من عام ١٩٤١ ، بنزول قوات بريطانية في أوروبا دون اهتمام بالاخطار والثمن ، واقامة الجبهة الثانية . واخذ الشيوعيون البريطانيون الذين نفذوا حتى الآن قد قاموا بأسوأ ما لديهم داخل مصانعنا ، والذين كانـوا ينعتون حربنا « بالحرب الراسمالية الشيوعيون البريطانيون الذين كانوا حتى الآن قد قاموا بأسوأ ما لديهم الاعلانات التي ترفع شعارهم : « الجبهة الثانية ... الآن » .

ولم يكن الروس على علم قط ، حتى ولا الى حد صغير ، بطبيعة العمليات العسكرية اللازمة لانزال الجيش على ارض معادية محصنة تماما . وكان الاميركيون ايضا يجهلون تمام الجهل هذه المتاعب . فالحصول على التفوق البحري والجوي في مراكز الانزال والغزو امر لا بد منه ، يضاف الى ذلك وجود عامل هام ثالث هو ايصال اسطول ضخم من سفن الانزال المعدة لهبوط الدبابات في اعداد كبيرة لانجاح كل عملية غزو مهما كانت المقاومة عنيفة . وكنت قد بذلت غاية جهدي وما زلت ابذله لخلق مثل هذا الاسطول . لكن لم يكن باستطاعتنا تأمين قسم منه حتى ولو بشكل بسيط قبل صيف عام ١٩٤٣ . وفي هذا الوقت الذي وصلنا اليه في صيف عام ١٩٤١ ، لم نكن قد توصلنا للسيطرة الجوية على اي مكان من اوروبا عدا خليج كاليه ، حيث توجد اقوى الحصون الالمانية . اما سفن الانزال ، فكانت قيد الاعداد . ولم يكن قد تجهز عندنا حتى في بريطانيا الجيش الكبير المدرب الحسن التجهيز . ولم يكن لدينا امل في اقناع السوفيات ، في ذلك الوقت ، وقد اقترح ستالين ، في حديث لاحق معي ، انه اذا كنا نخشى عملية النزول ، فهو على استعداد لان يرسل ثلاثة او اربعة فرق روسية الى بريطانيا لتتولى عنا هذه العملية . ولم يكن في وسعي ، بسبب افتقارنا الى البواخر ووسائل النقل الاخرى ، ان الزمه بكلمته ، واحمله على تنفيذها . ولم نتلق ردا من الحكومة السوفياتية على الرسالة الصوتية التي وجهتها الى روسيا والعالم ، حين بدأ الهجوم الالماني عليها ، باستثناء ما علمته ان مقاطع من هذه الرسالة قد نشرت في جريدة « البرافدا » الرسمية . كما ان الحكومة الروسية طلبت ان نستعد لاستقبال بعثة عسكرية عزمت على ارسالها الينا . وكان الصمت في العالم الخارجي مثيرا للدهشة والاستغراب ، فقررت ان احطمه . وفهمت ان القادة الروس قد يشعرون بالخجل لما حدث منذ نشوب الحرب من مواقف بين السوفيات والحلفاء ، وتذكرت ما جرى بيني وبين الحكومة الثورية البلشفية قبل نحو من عشرين عاما ، لذلك وجهت رسالة في ٧ تموز الى ستالين اخبرته فيها عن عزمنا على تقديم كل مساعدة ممكنة الى الشعب الروسي . وقد جاءني الرد في التاسع عشر من تموز ، يقول فيه :

« .... ان موقف القوات السوفياتية في الجبهة لا يزال حرجا ، لكنه يبدو لي ان وضع الاتحاد السوفياتي ، وكذلك وضع بريطانيا العظمى سيتحسنان الى حد كبير اذا تمكنا من اقامة جبهة ضد هتلر في الغرب ، وفي شمال فرنسا ، وفي الشمال في المحيط القطبي الشمالي .

« ولا شك ان فتح جبهة جديدة شمالي فرنسا لمسيؤدي الى تحويل قوات هتلر عن الشرق ، كما يجعل من عملية غزو بريطانيا العظمى امرا مستحيلا .

« ولا ريب في انني اعلم تمام العلم ، المصاعب التي تنطوي عليها فتح مثل هذه الجبهة . ولكنني على الرغم من ذلك واثق من ضرورة تحقيقها ، لا من اجل قضيتنا المشتركة وحدها ، بل من اجل بريطانيا ايضاً .

« ولعله من الاسهل فتح جبهة جديدة في الشمال . فلن تحتاج بريطانيا هنا الا الى عمليات بحرية وجوية ، دون ان تضطر الى انزال قواتها او مدفعيتها ، لان قواتنا البحرية والجوية ، ستشارك في مثل هذه العملية . وسنرحب غاية الترحاب بارسال ما يقارب فرقة خفيفة او اكثر من المتطوعين النروجيين الى الجبهة ، حيث يمكننا استخدامهم في شمال النروج للبدء بثورة على الالمان » .

وظهر لي من الرسالة ان الضغط الروسي لفتح الجبهة الثانية قد بدأ مع بداية التراسل بيني وبين ستالين ، وهذا الضغط تلاه ضغط آخر في اتصالاته التالية مع تجاهله التام للحقائق العملية الطبيعية ، الا ما هو متعلق بأقصى الشمال .

وقد بذلت جهدي منذ البداية لمساعدة روسيا بالعتاد والذخيرة سواء بالموافقة على ارسال المساعدات الاميركية اليها ، او بالمساعدات البريطانية المباشرة . وارسلنا في مطلع شهر ايلول سربين من طائرات الهاريكين في تأمين للدفاع عن ميناء مورمانسك وللتعاون مع القوات الروسية هناك . وحاربت اسرابنا بشجاعة طيلة الاشهر الثلاثة التالية . وكنت اعلم ، اننا في بداية تحالفنا ، لا نستطيع ان نفعل الكثير ، وحاولت بالمجاملات ان اقيم علاقات شبيهة بتلك العلاقات السعيدة التي اقمتها مع الرئيس روزفلت ، لكنني ندر ان تلقيت كلمة رد لطيفة ، بل كنت اتلقى دائما الصد . وكثيرا ما ظلت برقياتي دون رد ، او ان ستالين كان يرد عليها بعد فترة طويلة .

وتكونت لدى الحكومة السوفياتية الفكرة ، بأنها تقدم الينا خدمة كبيرة ، لانها تقاتل في بلادها ، دفاعا عن ارواح ابنائها . وكلما ازدادت ضراوة الحرب ازدادت هذه الخدمة ، وازداد الدين الملقى على عاتقنا . وبالطبع لم تكن هذه الفكرة صحيحة او موزونة . وقد اضطررت مرات عديدة الى الاحتجاج بتعابير واضحة ، لا سيما على الاساءة في معاملة بحارتنا ، الذين كانوا يخاطرون بأرواحهم لينقلوا المؤن الى مورمانسك او اركانجل . وكثيرا ما اضطررت الى سماع كلمات التأنيب من الآخرين عندما يقولون : « لا تبال . فالالم هو الوسام الذي يعلق على كل من يتوجب عليه التعامل مع الكرملين » . وبالفعل كنت اتناسى الاساءات مقابل ما يتعرض له ستالين وشعبه الشجاع من ازمات شديدة ....

* * *

تمكن الالمان في الشهر الاول من التقدم في طريقهم عبر روسيا متوغلين مسافة ثلاثمائة ميل ، ولكن لم تأت نهاية شهر تموز ، حتى وقع نزاع رئيسي بين هتلر وبراوخيتش وهو القائد الاعلى للجيش الالماني . وكان راي براوخيتش يقضي بتحطيم مجموعة الجيوش التي يقودها تيموشنكو في جبهة موسكو التي تؤلف القوة الرئيسية للجيش السوفياتي . واضاف

انه اذا تم ذلك ، يصبح بالامكان احتلال موسكو المركز الحساس لروسيا عسكريا وسياسيا وصناعيا . الا أن هتلر عارضه في الرأي اشد المعارضة. فهو يريد بالاضافة الى كسب الارض ان يدمر الجيوش الروسية على اوسع جبهات ممكنة . فهو يريد احتلال لينغراد في الشمال ، وحوض الدونتز الصناعي في الجنوب ، وشبه جزيرة القرم ومداخل القفقاس الغنية بالنفط . اما موسكو فسيصل دورها بعد ذلك .

واصدر هتلر اوامره المخالفة لآراء قادة جيشه . ونقلت الامدادات من الوسط الى المجيوش في الشمال . كما طلب اليها ان تضاعف من جهدها لاحتلال لينغراد . وطلب الى الجيوش الوسطى ان تأخذ جانب الدفاع ، وان ترسل مجموعة من المدرعات « البانزر » جنوبا لتطويق الروس ، الذين كان رونشتات يطاردهم عبر نهر الدنيبر . ونجح هتلر في عمله هذا ، اذ لم يحل شهر ايلول ، حتى كان جيب كبير من القوات الروسية قد تكون حول « كييف » . وهناك قتل او اسر حوالي نصف مليون جندي في قتالهم اليائس الذي استمر طيلة ذلك الشهر . لكن الالمان لم يتمكنوا من تحقيق مثل هذا النجاح في الشمال . وقد طوقت لينغراد ، لكنها لم تسقط . وصدرت الاوامر الى القوات المحاصرة للينغراد بارسال قوات متحركة وقسم ضخم من قواتها الجوية لدعم هجوم جديد على موسكو . كما عادت المدرعات التي كانت قد مضت لمساعدة فون رونشتادت في الجنوب للمشاركة في هذا الهجوم .

وظهر الآن وجه آخر للمعركة . فبالرغم من الخسائر الضخمة التي تكبدها الروس الا أن مقاومتهم بقيت صلبة وعنيدة . فجنودهم يقاتلون حتى الموت ، فيزدادون خبرة ومهارة . وأخذ الانصار وراء جبهات الالمان يندفعون وينزلون الخراب بمواصلاتهم في حرب لا رحمة فيها ، وبدأت الطرق تنهار تحت وطأة شاحنات النقل الثقيلة ، واصبح السير على هذه الطرقات بعد هطول الامطار امرا مستحيلا . وأخذت آثار الجهد والاعياء تظهر بوضوح . ولم يبق هناك الا شهران تقريبا . ويأت فصل الشتاء الروسي المخيف . فهل ستسقط موسكو قبل حلول الشتاء ؟ واذا سقطت هل يكفي سقوطها ؟ وبالرغم من ان الفوهرر لا يزال يعيش على نشوة الانتصار في كييف ، الا أن القادة الالمان بدأوا يشعرون ان مخاوفهم السابقة لها ما يبررها تماما . ولكن مع زوال اشهر الخريف ، واستمرار التدهور في الموقف الحرج ظل السوفيات على مطالبهم التي كانت تزداد شدة والحافا .

***

رجع اللورد بيفربروك من الولايات المتحدة ، بعد ان اصبح الآن المطالب الاول في وزارة الحرب بضرورة ارسال المساعدات الى روسيا . وعندما نذكر أن كل ما نرسله الى روسيا يقلل من حاجات بريطانيا الضرورية ندرك تمام الادراك ، الحاجة الى شخص كاللورد بيفربروك ليتولى الدفاع عن وجوب ارسال ما تطلبه روسيا . وأحسست انه حال عودة بيفربروك وافريل هاريمان من واشنطن ، يصبح في امكاننا

استعراض جميع احتمالات الذخائر ، فان عليهما ان يسافرا الى موسكو ويعرضا كل ما يمكننا الاستغناء عنه . وهكذا جمعنا كل ما نقدر عليه ، ووافقنا على ارسال المساعدات التي ستصل الينا من اميركا ، والتي كنا في اشد الحاجة اليها ، وذلك لنساعد المقاومة السوفياتية ، ورغبت الوزارة في ضرورة عرض القضية على ستالين وان هاريمان سيمثل الرئيس خير تمثيل في هذه المحادثات .

ولخصت الوضع في رسالة بعثت بها الى ستالين ، وجاءني الرد الذي يقول فيه ستالين :

« ان الاستقرار النسبي في الجبهة ، الذي تمكنا من ايجاده منذ ثلاثة اسابيع قد تبدل في الاسبوع الاخير لان العدو نقل نحواً من اربع وثلاثين فرقة مشاة الى الجبهة الشرقية بالاضافة الى عدد ضخم من الدبابات والطائرات . ويعتبر الالمان ان ليس هناك من خطر في الغرب لذلك فهم سينقلون جميع قواتهم الى الشرق دون تردد ، لاقتناعهم بعدم وجود جبهة ثانية في الغرب . وقد صمم الالمان على وجوب تحطيم اعدائهم مبتدئين بالروس ثم الانكليز .

« وكانت النتيجة ان فقدنا اكثر من نصف اوكرانيا ، واصبح العدو على ابواب لينينغراد .... واعتقد ان السبيل الوحيد للخلاص من هذا المأزق هو في اقامة جبهة ثانية في مكان ما ، في البلقان او فرنسا ، بحيث تجتذب نحواً من ثلاثين الى اربعين فرقة المانية ، وان ترسلوا لنا نحواً من ثلاثين الف طن من الالمنيوم بالاضافة الى مساعدة شهرية لا تقل عن اربعمائة طائرة وخمسمائة دبابة متوسطة وصغيرة .... » .

وقال لي السفير السوفياتي في احدى مقابلاته مؤكدا ان روسيا تتحمل وحيدة وطأة الهجوم الالماني الكاسح . واضاف كيف يمكن للبريطانيين ان يأملوا في كسب الحرب اذا هزمت روسيا ؟ وقد اجبت السفير بقولي : « تذكر اننا قبل اربعة اشهر ، لم نكن متأكدين من انكم لن تدخلوا الحرب الى جانب الالمان ، بل كنا شبه واثقين انكم ستدخلوها ضدنا . ومع ذلك كنا واثقين من اننا سنكسب هذه الحرب في النهاية » .

ثم تلقيت برقية اخرى من ستالين ، يقول فيها :

« ليس عندي اي شك في ان الحكومة البريطانية ترغب صادقة في ان ترى الاتحاد السوفياتي منتصرا . فاذا وجدت بريطانيا ان في فتح جبهة اخرى في الغرب ، امرا مستحيلا في الوقت الحاضر ، فهناك طريقة اخرى للتعاون العسكري .

« فأنا اعتقد ان بريطانيا العظمى تتمكن دون اي مجازفة ان تنزل في اركانجل ، ٢٥ الى ٣٠ فرقة ، او ان تنقلها عبر ايران الى المناطق الجنوبية من الاتحاد السوفياتي . ويمكن عندئذ اقامة تعاون عسكري بين القوات البريطانية والسوفياتية داخل الاراضي السوفياتية . وسيؤدي ترتيب من هذا النوع الى عون كبير ، كما يكون في الوقت نفسه ضربة كبيرة تلحق بهتلر .... » .

ولم اصدق نفسي ، وانا اقرأ رد رئيس الحكومة السوفياتية ، وهو يكتب مثل هذه السخافات بالرغم مما لديه من آراء خبراءه العسكريين . وبدا لي انه من العبث مناقشته وهو لا يفكر تفكيرا واقعيا ، فبعثت اليه برد بسيط حسب برقيته ....

* * *

وانتهت محادثات بيفربروك ـ هاريمان في لندن ، وغادرت بعثة التموين الانكليزية ـ الاميركية يوم ٢٢ ايلول ميناء سكابافلو الى اركانجل عبر المحيط المتجمد الشمالي . وكان استقبالها باردا جدا كما كانت المحادثات التي تلتها غير ودية . فالاعتقاد السائد عند الروس ان ما يعانون منه ، هو بسببنا .

وبانتهاء فصل الخريف استأنفت الجيوش الالمانية الوسطى زحفها على موسكو ، ثم تحرك جيشاها مباشرة نحو العاصمة من الجنوب الغربي . وفي الثامن من تشرين الاول احتل الالمان اوريل وكالينين الواقعة على طريق موسكو ـ لينينغراد ، فاضطر الماريشال تيموشنكو ، ازاء هذا الخطر ونتيجة للزحف الرئيسي من الوسط ، الى التراجع بقواته الى خط يبعد اربعين ميلا غربي موسكو ، حيث تمكن من الصمود والقتال من جديد . واصبح الوضع الروسي خطرا كل الخطورة ، فقد انتقلت الحكومة السوفياتية ، والسلك الدبلوماسي ، والمعامل التي تمكنوا من نقلها الى مدينة كيوبيشيف الواقعة على بعد خمسمائة ميل الى الشرق . واعلن ستالين في ١٩ تشرين الاول حالة الحصار والطوارىء ، واصدر الامر اليومي : « سندافع عن موسكو حتى آخر رجل » . وقد نفذت اوامره بكل اخلاص ، فبالرغم من تقدم مدرعات غودريان من اوريل الى تولا ، وعلى الرغم من حصار موسكو في جهاتها الثلاث ، وعلى الرغم من تعرضها للغارات الجوية ، فقد تصلبت المقاومة الروسية بشدة ، وتمكنت من كبح الزحف الالماني .

اجتماعي مــع روزفلت

في منتصف شهر تموز وصل الى بريطانيا المستر هاري هوبكنز آتيا في مهمته الثانية من الرئيس . وكان بحثه الاول يتعلق بالوضع الجديد الذي نشأ عن هجوم هتلر على روسيا . وانتقل بعد ذلك الى بحث تقرير وضعه قائد اميركي كنا قد منحناه بعض التسهيلات للاطلاع على كل شيء وقد القى هذا في تقريره ظلالا من الشك على قدرتنا في الصمود تجاه الغزو الالماني ، مما سبب قلقا بارزا للرئيس . ثم انتقل الى موضوع آخر ، هو ما يشعر به الرئيس من شك في حكمة محاولتنا الدفاع عن مصر والشرق الاوسط . فقد كان يخشى انه في محاولتنا الحفاظ على كل شيء سنضيع كل شيء . واخيرا بحث المستر هوبكنز في امكان ترتيب اجتماع عاجل بيني وبين الرئيس روزفلت .

وقد قال هوبكنز ان المسؤولين في اميركا ، وهم الذين يتخذون القرارات في الشؤون العسكرية ، يرون أن الوضع في الشرق الاوسط لا يمكن التورط في الدفاع عنه ، كما ان بريطانيا تقوم بتضحيات لا فائدة منها للحفاظ على هذا الوضع ، وهم يرون أن معركة الاطلنطي يجب ان تكون المعركة الفاصلة في الحرب ، كما أن جميع القوى يجب ان تركز عليها . ثم قال ان الرئيس بالرغم من ذلك يميل الى مساعدة الكفاح في الشرق الاوسط . ثم رتب الجنرال ستيني ، وهو الذي رافق المستر هوبكنز ، بعد ذلك مشاكل بريطانية على الشكل التالي : الدفاع عن المملكة المتحدة والطرق البحرية المؤدية الى اوستراليا ونيوزيلنده ، ثم الدفاع عن الطرق البحرية بشكل عام ، ثم الدفاع عن الشرق الاوسط .

وقد طلبت من رؤساء اركاننا ابداء وجهات نظرهم . فادلى لورد البحر الاول بالاسباب التي تجعله يعتقد بامكان بريطانيا تحطيم اي جيش يعد للغزو . ثم تحدث رئيس اركان السلاح الجوي عن مدى قوتنا الجوية اذا ما قارناها بالسلاح الجوي الالماني ، او بما كانت عليه في ايلول الماضي ، ثم اكد امكانياتنا على تدمير موانىء العدو . وتحدث رئيس اركان حرب القوات الامبراطورية ، فقال ان قوة الجيش تزيد عما كانت عليه في شهر ايلول الماضي بشكل هائل . ثم تدخلت لاشرح الاجراءات التي اتخذناها للدفاع عن مطاراتنا . واوضحت لهم بحال لجأ العدو الى حرب الغازات ، فستكون وبالا عليه ، اذ اننا سنستهدف جميع تحشداته الواقعة على السواحل وضربها على الفور ، وسننقل حرب الغازات الى بلاده . وطلبت الى ديل ان يتحدث عن الشرق الاوسط ، فقدم براهين اكيدة للاسباب التي تحملنا على البقاء هناك كأمر ضروري لا بد منه .

وقد شعرت في نهاية النقاش بأن اصدقاءنا الاميركيين قد اقتنعوا بوجهة نظرنا وبالبيانات التي قدمناها ، وقد تأثروا جدا بما بدا منا من تضامن واجماع .

لكن ثقتنا التي كنا نتحدث عنها في مسألة الدفاع الداخلي لم تشمل الشرق الاقصى في حال اعلان اليابان الحرب علينا . وقد اقلقت هذه المخاوف ايضا السير جون ديل . وكنت اعتقد بأنه يفكر بسنغافورة اكثر مما يفكر بالقاهرة . وكانت هذه القضية تدعو الى الاسف حقا فالوضع يشبه موقف الرجل الذي يخير بين ان يقتل اما ولده او ابنته . اما انا فكنت اشعر انه مهما حدث في الملايو ، فانه لا يضاهي في الاهمية ما يمكن ان يحصل اذا ما خسرنا مصر او قناة السويس او الشرق الاوسط . وما كنت لاقبل قط ، بفكرة التخلي عن الدفاع عن مصر ، ولو اضطررت للتضحية بالملايو كلها . وكان زملائي في وزارة الحرب يشاطرونني هذا الراي ايضا .

* * *

وفي احد الايام زارني هوبكنز في داوننغ ستريت وقال لي ان الرئيس يود لو نجتمع في مكان ناء ومنعزل . فأجبته بالموافقة ، وسرعان ما اعددنا كل شيء واخترنا مكان الاجتماع في خليج بلاسنتيا في جزيرة نيوفوندلند ، في التاسع من آب ، كما صدرت الاوامر الى احدث بوارجنا « برنس اف وايلز » لتكون على استعداد . وكنت متشوقا للاجتماع بالرئيس روزفلت اذ ان هذا الاجتماع يعني ترابطا اوثق بين بريطانيا والولايات المتحدة ، مما يبعث في نفوس اعدائنا القلق ، ويجعل اليابان تفكر كثيرا قبل ان تزيد من تهديدها .

ووصلنا الى موعد الاجتماع في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت في ٩ آب وبعد تبادل المجاملات البحرية المألوفة ، ذهبت لاقدم تحيتي للرئيس روزفلت الذي استقبلني بكل اجلال ، ووقف متكئا على ذراع ولده ايليوت ، حين عزفت الموسيقى العسكرية السلامين البريطاني والاميركي . وبعد ان سلمته رسالة من الملك ، قدمت اليه افراد الحاشية التي رافقتني وبدات المحادثات بيني وبين الرئيس واستمرت بلا انقطاع طيلة الايام الباقية من زيارتنا على شكل مؤتمرات عامة او اجتماعات خاصة لم يحضرها الا نحن الاثنين . وقال لي الرئيس روزفلت في احد اجتماعاتنا ، انه يقترح اصدار بيان مشترك يشرح بعض المبادىء البارزة التي يجب ان توجه سياساتنا في نفس الطريق . ورغبة مني في تنفيذ هذا الاقتراح الهام ، فقد قدمت اليه ملخصا لهذا البيان ، وبعد الكثير من النقاش والاتصالات معوزارة الحربية في لندن ، اصدرنا الوثيقة التالية :

« بيان مشترك من الرئيس ورئيس الوزراء »

١٢ آب ١٩٤١

« لما كان رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، والمستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ممثلا حكومة جلالته في المملكة المتحدة ، قد اجتمعا ، فقد رايا انه من الافضل اعلان بعض المبادىء المشتركة في السياسات القومية لبلادهما ، والتي يعلقان عليها الكثير من الآمال لايجاد مستقبل افضل للعالم .

« اولا : ان كلا من البلدين لا ترغبان في توسع اقليمي او غير اقليمي .

« ثانيا : انهما لا ترغبان في رؤية مثل هذه التبدلات الاقليمية التي لا تتفق مع رغبات الشعوب .

« ثالثا : تحترم الدولتان حق جميع الشعوب في ان تختار شكل الحكم الذي تريده تلك الشعوب ، كما انهما تريدان ارجاع حقوق السيادة والحكم الذاتي الى اولئك الذين فقدوها بالقوة .

« رابعا : ستحاول الدولتان ، تمشيا مع تعهداتهما ، تمكين جميع الدول الكبيرة والصغيرة ، المنتصرة والمهزومة ، من الوصول على قدم المساواة ، الى مستوى تجارة العالم ومواده الاولية ، التي تحتاج اليها لرفاهيتها الاقتصادية .

« خامسا : ترغب الدولتان في تحقيق التعاون بين جميع الشعوب في المجالات الاقتصادية لتأمين المستوى العمالي الجيد، والتقدم الاقتصادي والضمانة الاجتماعية للجميع .

« سادسا : تأمل الدولتان بعد ان تتمكن من سحق الطغيان النازي ، في ان تجدا سلاما مستقرا ، يضمن وسائل العيش لكل الشعوب داخل حدود بلادها .

« سابعا : يجب ان يضمن هذا السلام المطلوب حرية المرور في البحار والمحيطات دون معارضة ، لجميع الدول .

« ثامنا : تعتقد الدولتان انه يجب على شعوب العالم ان تترك سياسة القوة، فالسلام في المستقبل لا يمكن الاحتفاظ به اذا بقيت الشعوب التي تهدد بالعدوان في خارج حدودها تستخدم جميع انواع الاسلحة لهذه الغاية ، فهما تعتقدان ، انه الى ان يتم انشاء جهاز اوسع للسلامة العامة ، فان مسالة نزع السلاح من مثل هذه الشعوب أمر ضروري . وستساعدان وتشجعان ايضا كل الطرق الممكنة التي تخفف عن عاتق الشعوب المحبة للسلام اعباء التسلح » .

وقد ظهرت الاهمية الكبرى لهذه الوثيقة التي اسميت فيما بعد « بشرعة الاطلنطي » ، فالحقيقة المذهلة كانت في ان دولة كالولايات المتحدة المحايدة قد اشتركت مع دولة محاربة في اصداره . ولا شك في ان كلمة « سحق الطغيان النازي » ، كانت تحديا واضحا في الامكان اعتباره بمثابة عمل حربي .

واستمرت الاجتماعات بين قوادنا العسكريين والبحريين وتم الوصول الى اتفاقات كثيرة فيما بينهم . وكان الخطر في الشرق الاقصى مجسدا امامنا باستمرار . وكانت الحكومتان البريطانية والاميركية منذ عدة اشهر قد اتفقتا على سياسة موحدة تجاه اليابان ، وحين اتم اليابانيون احتلالهم

العسكري للهند الصينية ، اصبحت قواتهم في وضع تتمكن به من توجيه الضربة الينا في الملايو ، والى الاميركيين في الفلبين ، والى الهولنديين في جزر الهند الشرقية . وطلب الرئيس روزفلت من الحكومة اليابانية كخطوة اولى نحو تسوية عامة ، اعلان حياد الهند الصينية ، وبالتالي سحب القوات اليابانية منها ، كما اصدر امره بتجميد جميع الارصدة اليابانية في الولايات المتحدة ، ونتج عن هذا توقف كافة العلاقات التجارية مع اليابان . ثم قامت الحكومة البريطانية بعمل مشابه بعد يومين . ثم قام الهولنديون بالعمل نفسه . وكان انضمام هولندا الى هذه الاجراءات ، يعني حرمان اليابان من جميع امداداتها البترولية دفعة واحدة .

ايـران والصحراء

ترتب على مسألة ارسال التموينات والذخائر الى روسيا وما تعترضها من المصاعب الهائلة في البحر المتجمد الشمالي ، بالاضافة الى الاحتمالات الاستراتيجية المقبلة ، ترتب على كل هذا حاجة ملحة الى فتح اقصى ما يمكن من مواصلات مع روسيا عن طريق ايران .. وبالرغم من شعوري بالقلق من الاقدام على فتح جبهة جديدة في الشرق الاوسط ، الا ان الحاجة اليها كانت قوية . فآبار الزيت الايرانية تعتبر عاملا حربيا رئيسيا ، فعلينا ان نكون على استعداد لاحتلالها في حال هزمت روسيا . بالاضافة الى الخطر الماثل على الهند . وقد ادى اخماد الثورة في العراق ، والاحتلال الانكليزي ــ الفرنسي لسوريا ، وقد حصلا في آخر لحظة ادت الى احباط خطة هتلر الشرقية . اما اذا انهار الروس ، فقد يعود الى محاولته من جديد . وكانت هناك بعثة المانية في طهران من الموظفين ، وكان من الواضح ان الايرانيين لن يطردوهم من البلاد ، فترتب علينا ان نلجأ الى القوة لطردهم . وقام المسيو مايسكي بزيارة المستر ايدن في زارة الخارجية ، حيث اتفقا على ارسال مذكرة مشتركة الى طهران ، وهكذا وجهت الحكومتان البريطانية والسوفياتية هذه المذكرة الى ايران والتي استقبلت استقبالا غير ودي ، فتحدد يوم ٢٥ آب كموعد لدخول القوات البريطانية والروسية الى ايران .

وانتهت العملية خلال اربعة ايام ، واحتل لواء من المشاة الانكليز مصفاة النفط في « عبدان » . بعد ان فاجأت القوات الايرانية بالهجوم ، ولكنها هربت بالشاحنات ، ودار القتال في الشوارع . وضبطت بعض القطع البحرية الايرانية الصغيرة ، كما احتلت قواتنا البرية ميناء « خرمشهر » ، بينما اتجهت قوة اخرى الى الشمال باتجاه الاهواز . وبينما كانت قواتنا تقترب من الاهواز ، جاءت اوامر الشاه تطلب وقف اطلاق النار ، كما اصدر القائد الايراني أوامره الى قواته بالعودة الى ثكناتها . ووضعنا يدنا على حقول الزيت في الشمال ، وأمنا الخطر ، وكانت خسائرنا طفيفة للغاية ....

وتم الاتفاق مع الروس بسهولة على جميع الخطوات والاجراءات وكانت الشروط الرئيسية التي فرضت على الحكومة الايرانية ، تقضي بوقف العمليات الحربية ، وطرد الالمان من البلاد واعلانها الحياد في الحرب والسماح للحلفاء باستخدام المواصلات الايرانية لنقل التموينات الحربية الى روسيا . وتنازل الشاه عن عرشه لولده الاكبر الموهوب الذي اعاد الملكية الدستورية . وسافر والده بعد ايام قليلة الى منفاه المريح وتوفي في جوهانسبورغ عام ١٩٤٤ . ثم انسحبت معظم قواتنا تاركة فصائل صغيرة لحماية طرق المواصلات .

واصبح هدفنا الاول توسيع الموانيء ، وتطوير المواصلات النهرية ، وشق الطرق والسكك الحديدية ، لخلق طريق لتموين روسيا وبدأ الجيش البريطاني عام ١٩٤١ هذا المشروع ، وتمكنا بواسطته من ان ارسال اكثر من خمسة ملايين طن من المؤن الى روسيا . وهكذا انتهى اختبار قصير ومثمر ، لاستخدام القوة الضخمة ضد دولة قديمة ضعيفة ، اما بريطانيا وروسيا فكانتا تقاتلان دفاعا عن حياتهما وقد سرنا جدا ان استقلال ايران قد تمت المحافظة عليه في انتصارنا .

* * *

كان الجنرال اوكنلك القائد الرسمي في الشرق الاوسط حين بدات علاقتي به فاتضح لي ان خلافات خطيرة في الآراء والقيم تكمن بيننا . فهو يقترح الدفاع عن قبرص بأسرع وقت ممكن وبفرقة على الاقل . كما كان يؤيد فكرة استعادة برقة ، ولكنه لم يكن واثقا من ان في امكان طبرق الصمود لما بعد شهر ايلول . وقد قال ان تركيب الدبابات الاميركية الجديدة وتسليحها ادخلا بعض التغيرات في العمليات التكتيكية ، وان وقتا سينقضي قبل الانتهاء من الدراسات الخاصة بها . ووافق على انه في نهاية شهر تموز سيكون لديه نحو من خمسمائة دبابة اميركية من النوع الثقيل والسريع لكن اي عملية تتطلب ٥٠٪ من مجموع الدبابات يحتفظ بها كاحتياط نصفها تحت التصليح والنصف الباقي للاستعاضة بها عن الدبابات المصابة ....

وسببت لي آراءه كثيرا من الخيبة ، وحيرتني ايضا قراراته . ونجحت اخيرا ، بعد كثير من الاصرار ، في نقل الفرقة البريطانية الخمسين الى مصر . وكنت شديد الحساسية بالنسبة للاشاعات المعادية والقائلة بأن سياسة بريطانيا تقوم على خوض الحرب بقوات غير قواتها ، وانها تتجنب سفك دماء الانكليز في الحروب . وكانت خسائر البريطانيين في الشرق الاوسط كله ، بما فيه اليونان وكريت ، اكبر بكثير من خسائر جميع القوات الاخرى مجتمعة ، الا ان الاشاعات المألوفة ، اوحت بانطباعات خاطئة عن هذه الحقائق . فالفرق الهندية مثلا ، الذي كان ثلثها مؤلفا مع جميع مدفعيتها من البريطانيين ، لكنها لم تكن تدعى بالفرق البريطانية ـ الهندية . كما ان الفرق المدرعة التي خاضت ميادين القتال ووطأتها ، كلها بريطانية ، لكنها لم تكن تحمل اسم الفرق البريطانية . وكنت متشوقا لوصول الفرقة البريطانية الخمسين ، باعتبارها سلاحا هاما ، لمواجهة هذه الاشاعات المهينة لنا . وكان قرار الجنرال اوكنلك باختيار الفرقة المذكورة وارسالها الى قبرص ، انتقاء يعوزه المنطق ، اذ بذلك سيتمكن الاعداء من الحصول على مادة جديدة يستخدمونها للاستهانة بنا .

وادى التصميم الآخر ، الذي اعتبرته اخطر من الجنرال اوكنلك ، الى تأجيل كل عمل حربي ضد رومل في الصحراء الغربية ، لمدة اشهر عديدة . والسبب في هذا العمل الذي قام به ويفل في ١٥ حزيران ان عملية « فأس المعركة » ، في الحقيقة الواقعة ، وهي انه بالرغم مما لحق بنا من ضرر ، وبالرغم من تراجعنا الى مواقعنا الاصلية ، فان الالمان لم

يتمكنوا مطلقا من التقدم طيلة هذه المدة الطويلة كلها . وكانت مواصلاتهم التي تهددها طبرق ، غير كافية لتمكينهم من الحصول على تعزيزات من السلاح المدرع ، ومن الذخائر ليتمكن رومل من القيام باكثر من الصمود بفضل عزيمته وشهرته . وكان من الضروري في هذه الحال ان يبقى معرضا للاشتباكات مع الجيش البريطاني الذي كان متفوقا عليه في سهولة مواصلاته البرية والحديدية والبحرية ، والذي كان يتلقى باستمرار النجدات والتعزيزات على نطاق اوسع في الرجال والمواد الحربية .

وتأكد لي ، ان المبالغة في القلق على جناحنا الشمالي ، هو نتيجة طبيعية لسوء الفهم والتقدير . وتتطلب المحافظة على هذا الجناح حرصا شديدا . لكن الوضع اصبح الآن احسن مما كان عليه في حزيران . فقد سيطرنا على سوريا ، واخمدنا ثورة العراق ، وقواتنا اصبحت الآن صامدة في جميع المراكز المهمة في الصحراء . كما ان الصراع بين المانيا وروسيا قد بعث بالثقة مرة اخرى الى تركيا ، وما دامت الحرب مستمرة بينهما ، وما دامت نتيجة المعركة معلقة في كفة القدر ، فلا يعقل ، ان تطلب المانيا من تركيا مرور جيوشها في اراضيها . وهكذا اضحى الوضع العام يتطلب القيام باجراء حاسم في الصحراء الغربية .

واحسست بتصلب في موقف الجنرال اوكنلك تجاه هذا الموضوع ، وهو تصلب لا يخدم الاهداف التي نطلبها جميعا ، وليس في مصلحتها . فاضطررت لاستدعائه الى لندن ، وكانت زيارته نافعة من عدة نواح ، فقد انسجم مع اعضاء وزارة الحرب ، رؤساء الاركان ، ووزارة الحربية . وامضى عطلة نهاية الاسبوع معي في تشيكرز . ولما زادت معرفتي بهذا الضابط اللامع ، ولما اصبح هو على معرفة بالحلقة العالية في جهاز بريطانيا الحربي ، ورأى كيف يسير هذا الجهاز ، نشأت الثقة بيننا . ولم يكن في وسعنا من الناحية الثانية اقناعه بالرجوع عن هذا التسويف الطويل في الاعداد لهجوم دقيق التفاصيل يبدؤه في تشرين الثاني ، الذي تقرر تسميته بالهجوم الصليبي ، فهو سيكون اكبر عملية قمنا بها حتى الآن . ولا ريب في انه تغلب على جميع مستشاري العسكريين بالحجج التي اوردها . اما أنا فلم اقتنع برايه . ولكن كفاءاته وقوة عرضه وشخصيته الآسرة ، كلها كانت عوامل توحي لي بأنه خير قائد يتولى هذا العمل . وهكذا قبلت بموعد تشرين الثاني الذي حدده للبدء في الهجوم ، واتجهت بكل نشاطي لانجاحه . وهكذا اسهمنا في تحمل مسؤولية جميع القرارات التي اتخذها ، ومع ذلك يجب ان اسجل اعتقادي هنا ، بأن الاربعة الاشهر والنصف التي قضاها الجنرال اوكنلك في تأجيل الاشتباك مع العدو في الصحراء الغربية ، كانت خطأ وكارثة في نفس الوقت .

والآن بعد ان علمنا تماما ما كانت تفكر فيه القيادة العليا الالمانية بالنسبة الى وضع رومل . فقد كانت هذه القيادة معجبة به كثيرا وبجراته وبالانتصارات المذهلة التي حققها ، ولكنها في نفس الوقت كانت تشعر بأن وضعه خطير للغاية . وقد منعته من القيام بأية مغامرات جديدة الى أن يتم تعزيز قواته بقوات جديدة . ومن المحتمل ، انه يستطيع ان « يبلفنا » ، وان يبقى في موقفه هذا لغاية وصول المساعدات التي ستعمل القيادة على ارسالها اليه ، فخط مواصلاته يمتد مسافة الف ميل الى

طرابلس ، كما ان بنغازي مناسبة كقاعدة قريبة لجزء من تموينانه ونجداته ، ولكن النقل البحري الى هذين المرفأين ، يتعرض لجزية باهظة التكاليف . والقوات البريطانية المتفوقة عليه عددا ما زالت تزداد كل يوم ، اما التفوق الالماني في الدبابات فيقتصر على النوعية فقط والالمان اضعف في الجو وهم يفتقرون الى ذخائر المدافع . كما ان طبرق ما برحت تهدد رومل في المؤخرة ، وقد يندفع منها هجوم في اية لحظة يقطع عليه طرق مواصلاته . ولكنهم سيبقوا في امان ما دمنا نقف مكتوفي الايدي .

واستغل الطرفان فرصة الصيف لتعزيز قواتهما . وكانت تعبئة مالطة بالاجهزة والمؤن امرا حيويا بالنسبة الينا . وأدى سقوط كريت الى حرماننا من قاعدة للوقود ، تستطيع ان تضمن لاسطولنا المركز القريب لتمكين قوتنا البحرية الحامية من العمل . وازدادت احتمالات القيام بهجوم منقول بالبحر على مالطة من ايطاليا وصقلية . وكانت قواعد العدو الجوية في كريت وبرقة تهدد قوافلنا البحرية من الاسكندرية الى مالطة وتمكنت قافلتان مهمتان من شق طريقهما بالقوة وبنجاح . وكان مرور كل منهما عملية بحرية قاسية . فاستطعنا في تشرين الاول من اغراق ٦٠٪ من تموينات رومل وهي في طريقها . لكنني كنت راغبا بصورة خاصة في خلق قوة بحرية تعمل بصورة دائمة من قاعدة مالطة ، فأقمنا في شهر تشرين الاول قوة ضاربة في مالطة اسميناها القوة « ك » وضمت الطرادين اورورا وبنيلوبي والمدمرتين لانس ولايفلي . وقد لعبت دورا هاما في المعركة الجديدة التي تقرر البدء بها .

* * *

كانت مهمة اوكنلك اولا اعادة احتلال برقة وتحطيم سلاح العدو المدرع اثناء هذه العملية ، ثم احتلال طرابلس . وقد عهد الى الجنرال كاننغهام بمهمة قيادة الجيش الثامن الذي تألف مؤخرا والذي يضم الفيلقين الثالث عشر والثلاثين ، ويشتمل بالاضافة الى حامية طبرق على نحو من ست فرق ، وثلاثة الوية احتياط و ٧٢٤ دبابة . كما اشتمل سلاح الطيران في الصحراء الغربية على ١٠٧٢ طائرة حديثة صالحة للقتال وعشرة اسراب لتعمل من قواعدها في مالطة . وعلى بعد سبعين ميلا من مؤخرة رومل ، كانت حامية طبرق ، المتكونة من خمس مجموعات الوية ولواء مدرع . وكانت القلعة همه الوحيد والتي منعته من التوغل في الاراضي المصرية . وكان هدف القيادة العليا الالمانية تصفية قاعدة طبرق ، فاتخذت جميع الاستعدادات الممكنة للبدء في الهجوم يوم ٢٣ تشرين الثاني . اما جيش رومل فيتألف من الفيلق الالماني القوي المؤلف من الفرقتين المدرعتين الخامسة عشرة والحادية والعشرين ، وفرقة المشاة التسعين ، وسبع فرق ايطالية بينها فرقة مدرعة واحدة ، و ٥٥٨ دبابة بعضها متوسط وبعضها ثقيل واكثرها من الدبابات الالمانية المجهزة بمدافع اضخم من مدافع دباباتنا . اما قوته الجوية فكانت تتألف عند بدء الهجوم من ١٢٠ طائرة المانية ومائتي طائرة ايطالية .

وسارت الامور سيرا حسنا في الايام الثلاثة الاولى ، وتمكنت الفرقة البريطانية المدرعة السابعة من احتلال « سيدي رزق » ، لكن الفيلق الالماني

الذي كان قد ركز سلاحه المدرع هاجمها بقوة ، فنشبت معركة ضارية داخل المطار وحوله ، وتحولت جميع القوات المدرعة الى هذه المنطقة ، لتشتبك في معارك متأرجحة تحت وطأة نيران المدفعية المتنافسة ، وتمكن السلاح الالماني المدرع من الكسب ، بالرغم من قيادة الزعيم جوك كامبل البطولية والرائعة ، فقد تغلب العدو ومنينا بخسائر افدح من خسائرهم . فتمكن الالمان من استعادة « سيدي رزق » ، وخسرت قواتنا ثلثي سلاحها المدرع ، وصدر الامر اليها بالانسحاب عشرين ميلا لاعادة تنظيم صفوفها .

ووقعت مسرحية تذكرنا بطواف « جيب » ستيوارت حول ماكيلان في عام ١٨٦٢ اثناء الحرب الاهلية الاميركية . ولكن في هذه المرة كانت قوة مدرعة هي التي قامت بهذه الخطة ، وهي في حد ذاتها جيش قائم بنفسه ، كان تدميره سيعرض جيش المحور في افريقيا لاشد الاخطار . فقد قرر روميل ان يتسلم زمام المبادرة التكتيكية ، وان يشق طريقه شرقا ، الى الحدود بمدرعاته ، آملا بهذا ان يبعث في صفوف قيادتنا الفوضى والخوف ليرغمها على التخلي عن الهجوم . ولعله كان يفكر بما واتاه من حظ حسن اثناء اندفاعه المدرع في معركة الصحراء السابقة في ١٥ تموز . هذا الاندفاع الذي ادى الى تراجعنا في ذلك الوقت العصيب وسيظهر في سياق القصة التي ساوردها مدى النجاح الذي اصابه .

بعد ان وصل روميل الى الحدود المصرية جزأ قوته الى عدد من الارتال اتجه بعضها شمالا والبعض الآخر جنوبا ، ومضى بعضها داخل الاراضي المصرية مسافة ٢٠ ميلا ، واحدث اضطرابا في مؤخرتنا ، واسر عددا كبيرا من الرجال ، لكنه لم يستطع السيطرة على الفرقة الهندية الرابعة التي واصلت مطاردتها بوحدات تم تنظيمها على عجل . هذا بالاضافة الى سلاحنا الجوي الذي واصل تعقب ارتاله وضربها من الجو . وعانت قوات روميل التي لا يعززها غطاء جوي الآلام التي طالما عانتها قواتنا واحتملتها في الماضي عندما كانت المانيا هي المسيطرة على اجواء المعارك . واتجهت مدرعات العدو شمالا ، لتختبىء من الطائرات في « البردية » ثم عادت الى « سيدي رزق » . وهكذا فشلت ضربة روميل الجريئة ، ويعود الفضل في ذلك الى رجل واحد ، وهو القائد اوكنلك .

وقد ادت الضربات القاصمة التي نزلت بنا ، وحالات الفوضى التي نجمت عنها ، الى قيام الجنرال كاننغهام باقتراح وقف هجومنا ، معتبرا استمرار الهجوم سيؤدي الى ابادة دباباتنا كما يعرض سلامة مصر كلها للخطر . وكان اقتراحه يعني الاعتراف بالهزيمة وفشل العملية كلها . وهنا تدخل الجنرال اوكنلك شخصيا بناء لطلب كاننغهام ، وبالرغم من تفهمه لجميع الاخطار فقد اصدر امره الى الجنرال كاننغهام بمواصلة الهجوم ... وهكذا تمكن اوكنلك بعمله الشخصي من انقاذ الوضع وبرهن على ما يتمتع به من مزايا القائد البارز .

* * *

وفي هذه الاثناء كان فريبرغ ونيوزيلنديوه ، يؤيدهم لواء من دبابات الجيش الاول يواصلون الضغط على « سيدي رزق » ، حيث تمكنوا من

احتلالها بعد يومين من القتال الضاري العنيف ، وفي نفس الوقت استأنفت حامية طبرق ، محاولاتها لفك الحصار ، وتمكنت ليلة السادس والعشرين من تشرين من الاتصال مع القوة المنقذة ، فدخلت بعض الوحدات الى طبرق المحاصرة . فعاد روملمن البردية ، وشق طريقه الى سيدي رزق ، على الرغم من هجوم فرقتنا المدرعة السابعة بمائة وعشرين دبابة . واسترجع روملمرة اخرى سيدي رزق ، وأرغم اللواء النيوزيلندي على التراجع بعد ان كبده خسائر فادحة .

وعاد اوكنلك شخصيا في كانون الاول الى القيادة وقضى عشرة ايام مع الجنرال ريتشي . الا انه لم يتسلم القيادة شخصيا لكنه ظل يشرف على اعمال مساعده . ولم يبد لي ان هذا الاجراء سليم بالنسبة الى الرجلين ، لكن قوة الجيش الثامن اصبحت متفوقة الآن ، وفي العاشر من كانون الاول ، كان في وسع القائد العام ان يبعث الينا قائلا : « بدأ العدو بالتراجع تراجعا كاملا نحو الغرب .... واعتقد انه يمكنني القول بأن الحصار على طبرق قد رفع . ونحن نواصل المطاردة بمساعدة سلاح الجو الملكي » . ونحن نعلم الآن من سجلات الالمان ان خسائر العدو في المعركة بلغت ثلاثة وثلاثين الف رجل وثلاثمائة دبابة . اما خسائرنا فلم تتجاوز نصف هذا الرقم . لكن قوتنا البحرية في شرق البحر الابيض المتوسط ، دمرت تقريبا بسلسلة متلاحقة من الكوارث ، فقد وصلت الغواصات الى الميدان ، واصيبت حاملة طائراتنا « آرك رويال » بطوربيد من غواصة المانية ، بينما كانت عائدة الى جبل طارق . وفشلت جميع المحاولات لانقاذها ، وغرقت البارجة التي لعبت دورا بارزا في كثير من معاركنا البحرية . وبعد اسبوعين اصيبت « برهام » بثلاثة طوربيدات وغرقت وعلى متنها نحو من خمسمائة رجل . وفي ليلة الثامن عشر من كانون الاول اقتربت غواصة ايطالية من ميناء الاسكندرية ، واطلقت ثلاثة طوربيدات حية ، يدير كلا منها رجلان ، واخترقت الطوربيدات مدخل الميناء حين كان الباب مفتوحا لمرور البواخر . فوضع الرجال قنابل موقوتة ما لبثت ان انفجرت صباح اليوم التالي واصيبت البارجتان « الملكة اليزابيث » و « فاليانت » باضرار بالغة ، كما ان القوة « ك » ، اصيبت هي ايضا بضربة قاصمة ، ففي اليوم الذي وقعت فيه كارثة الاسكندرية ، وصلت الانباء الى مالطة ، بأن قافلة للعدو كانت في طريقها الى طرابلس ، فخرجت ثلاثة طرادات واربع مدمرات فورا لمطاردة القافلة . وعندما اقتربت سفننا الحربية من طرابلس ، سقطت في حقل من الالغام ، فدمر طرادان الا انهما تمكنا من الابحار . اما الطراد الثالث ، فقد التقطته الالغام الممغنطة وأغرقته . ولم ينج من بحارته السبعمائة الا رجل واحد اسره العدو ، بعد ان نجا مع قبطانه وثلاثة عشر رجلا آخر على عوامة من الطراد ، لكن العوامة غرقت برفاقه جميعهم . ولم يبق من اسطول البحر المتوسط الشرقي الا ثلاثة طرادات من سرب الاميرال فيان وبضع مدمرات .

وفي الخامس من كانون الاول ، وبعد ان وجد هتلر ما تعرض له روملمن اخطار ، اصدر امرا ، بنقل فيلق جوي كامل من روسيا الى صقلية وشمال افريقيا . وبدأ الجنرال كيسلرنغ الذي تولى القيادة

الجوية هجومه الجوي على جزيرة مالطة ولم يكن في وسع الجزيرة ان تفعل شيئا سوى الدفاع عن حياتها . ولم تحل نهاية العام حتى كانت المانيا المسيطرة على الطرق البحرية الى طرابلس ، مما مكن روميل ، من اعادة تجميع قواته وتنظيمها بعد الهزيمة التي اصابته .

لكن جميع هذه الاحداث اصبحت الآن هزيلة تحت وطأة الاحداث العالمية ...

بـيرل هاربور

كنت مساء الاحد في السابع من كانون الاول عام ١٩٤١ ، مع السفير وينانت وافريل هاريمان في تشيكرز نستمع الى نشرة اخبار الساعة التاسعة ، وكانت الانباء تتحدث عن القتال في الجبهة الروسية وعلى الجبهة الليبية ، ثم تلتها اخبار عن هجوم ياباني على البواخر الاميركية في جزر الهوايا وغارات اخرى على السفن البريطانية في جزر الهند الشرقية الهولندية . ولم يخطر ببالي اي شيء ، الا ان افريل هاريمان قال شيئا عن هجمات يابانية على الاميركيين ، فتفتحت آذاننا ، وكان الخادم قد سمع ما قيل ، فجاء الى الغرفة يقول : « هذا صحيح . لقد سمعنا نحن ايضا ما حدث ، لقد هاجم اليابانيون الاميركان » . وخيم علينا الصمت ، وكنت قد اعلنت في حفلة غداء رسمية ان بريطانيا ستضطر الى اعلان الحرب على اليابان « بعد ساعة واحدة » اذا قامت بمهاجمة الولايات المتحدة . ونهضت من مكاني وذهبت الى المكتب ، وطلبت ان يسجلوا لي مكالمة هاتفية مع الرئيس . وبعد دقيقتين او ثلاث ، جاءتني المخابرة الهاتفية . فقلت : « يا سيدي الرئيس ، ما القصة حول اليابان ؟ » فقال : « انها صحيحة . لقد هاجموا بير لهاربور وها قد اصبحنا معكم الآن » . واعطيت السماعة الى وينانت . ودار حديث قصير ، وسمعت السفير يقول : « حسنا ... حسنا » ، وعدنا الى القاعة ، وحاولنا ان نعود انفسنا على هذا الحادث العالمي الكبير الذي كان مباغتا ، بحيث ادهش الجميع .

وطلبت الى مكتبي الاتصال برئيس المجلس في الحال لدعوة البرلمان الى جلسة في اليوم التالي . واتصلت بوزارة الخارجية طالبا اليها ، ان تعد فورا ، أعلان الحرب على اليابان ، على ان يصبح كل شيء جاهزا حين انعقاد الجلسة ، كما طلبت دعوة جميع اعضاء وزارة الحرب لابلاغهم ، ورؤساء اركان الحرب والقوات المسلحة ، الذين كنت اعتقد ان الانباء لا بد ان تكون قد وصلتهم .

وقد لا يستاء اي اميركي اذا قلت ان دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانبنا ، كان مصدر سعادة كبرى لي . فالولايات المتحدة اصبحت في الحرب ، وقد غرقت فيها حتى راسها ، وستبقى فيها حتى الموت . وهكذا فقد ربحنا اخيرا ! ! اجل ، لقد ربحنا بعد دنكرك ، وبعد سقوط فرنسا ، وبعد وهران ، وبعد خطر الغزو .

نعم لقد ربحنا الحرب ، وستبقى انكلترا وستعيش جامعة الشعوب البريطانية ، والامبراطورية . اما كم ستطول هذه الحرب وكيف ستنتهي ، فلم يكن في امكان اي انسان ان يعرف ، ولم اكن اكترث لذلك في هذه اللحظة . فالمهم بأننا لن نزول من الوجود ، ولن ينتهي تاريخنا ، ولن

نموت كأفراد ايضا . وهتلر وموسوليني قد عرف مصيرهما . امـا اليابانيون فسيسحقون سحقا ، فالامبراطورية البريطانية ، والاتحاد السوفياتي ، والولايات المتحدة جميعها مرتبطة الآن بكل ما لديها من قوة ، وهي حسب معلوماتي ، اقوى بضعفين او ثلاثة اضعاف من اعدائها . وليس هناك من شك في ان القتال سيطول وستكون هناك انتكاسات وخسائر خطيرة في الشرق ، الا انها لن تكون الا مجرد مرحلة عابرة . وسنتمكن عن طريق اتحادنا ان نسحق كل قوة عدوة في العالم . وربما ستقع كوارث ندفع ثمنها غاليا ، لكن النهاية لا شك فيها ....

وحاول بعض السخفاء ، التقليل من القوة الاميركية . فقالوا ان الاميركيين ناعمون ولن يتحدوا قط وسيتحركون كالحمقى من بعيد ، لانهم لا يحتملون سفك الدماء . وعادت الى ذاكرتي كلمة قالها لي ادوارد غراي ، قبل نحو من ثلاثين عاما وشبه الولايات المتحدة بمرجل هائل ، فاذا ما اشعلت النار تحته ، فليس هناك من حد للقوة التي يطلقها ومضيت الى فراشي تلك الليلة ونمت وانا اشعر بالرضى والخلاص .

❋ ❋ ❋

وعندما استيقظت من النوم ، قررت السفر لمقابلة روزفلت . بعد أن اخذت موافقة جميع الوزراء وموافقة جلالة الملك ايضا . وقد خولتني وزارة الحرب ، اعلان الحرب على اليابان ، بعـد ان اتخذت جميع الاجراءات المرعية . ولما كنت مسؤولا عن وزارة الخارجية اثناء غياب ايدن فقد بعثت بالرسالة التالية الى السفير الياباني .

وزارة الخارجية ، ٨ كانون الاول

« سيدي

« في ليلة السابع من شهر كانون الاول ، علمت حكومة جلالته في المملكة المتحدة ، ان القوات اليابانية حاولت ، دون اي تحذير سابق في شكل اعلان بالحرب او انذارا مشروطا باعلان الحرب . حاولت النزول على شاطىء الملايو وضربت بالمدفعية سنغافورة وهونغ كونغ .

« وبما ان هذه الاعمال العدوانية التي لم يسبقها استفزاز ، والتي كانت بمثابة تحد مباشر للقانون الدولي وللمادة الاولى من ميثاق لاهاي الثالث المتعلق ببدء الاعمال الحربية ، والذي وقعته كل من اليابان والمملكة المتحدة ، فان التعليمات قد ارسلت الى سفير جلالته في طوكيو بابلاغ الحكومة اليابانية الامبراطورية ، باسم حكومة جلالته في المملكة المتحدة ، بأن تعتبر حالة الحرب قد نشأت بين بلدينا .

لي الشرف ، يا سيدي ، مع مزيد الاحترام

ان اكون خادمكم المطيع

ونستون تشرشل » .

ولم يرض اسلوبي المجامل هذا بعض الناس ، ولكن حتى لو اردت ان تقتل شخصا ، فليس من مانع يمنعك من ان تكون مهذبا معه .

❋ ❋ ❋

وبعد مدة سمعنا تفاصيل الهجوم على بيرل هاربور فقد كانت الخطة اليابانية حتى مطلع عام ١٩٤١ تقضي بأن يشتبك الاسطول الياباني الرئيسي في معركة واسعة في مياه الفلبين ، وذلك عندما يحاول الاميركيون ، كما هو متوقع ، فتح طريقهم عبر الباسفيك ، لانقاذ حاميتهم . لكن فكرة الاغارة على بيرل هاربور بصورة مفاجئة ، تكونت في ذهن الاميرال ياماماتو ، القائد الاعلى الياباني . وتمت الاعدادات لهذه الضربة الغادرة قبل اعلان الحرب ، وذلك في منتهى السرية والتكتم ، وفي ٢٢ تشرين الثاني رست ست حاملات تدعمها البوارج والطرادات ، في ميناء لم تألف الوقوف فيه في جزر كوريل ، شمال اليابان . وحدد يوم الاحد في السابع من كانون الاول كموعد لبدء الهجوم ، وابحرت السفن المهاجمة في ٢٦ تشرين الثاني تحت قيادة الاميرال ناغومو الى الشمال من هاواي ، متخفين في الضباب الى ان اقتربت من هدفها دون ان يشعر بها احد ، وعند الفجر ، شن الهجوم من موقع على بعد (٢٧٥) ميلا الى الشمال من بيرل هاربور . واشتركت ثلاثمائة وستون طائرة ، تضم قاذفات من مختلف الانواع ، تحرسها المقاتلات . وكانت بوارج اسطول الباسفيك هي الهدف الاساسي للهجوم . وكانت ترسو هناك اربع وتسعون سفينة حربية من سفن الاسطول الاميركي . ولم تكن موجودة لحسن الحظ حاملات الطائرات . وانتهت المعركة في العاشرة صباحا وانسحب العدو تاركا وراءه اسطولا محطما ، تلتهمه الحرائق والدخان وروح الثأر . واستشهد نحو من الفي اميركي كما جرح نحو من الفين آخرين . وانتقلت السيادة على المحيط الهادي الى ايدي اليابانيين ، واختل الميزان الاستراتيجي العالمي .

وكان الاميرال هارت قائد الاسطول الاميركي المتواضع في آسيا ، قد بدأ سلسلة مباحثات مع السلطات البحرية البريطانية والهولندية القريبة ، ثم قام بتوزيع قواته باتجاه الجنوب حيث قرر ان يجمع قوة ضاربة في المياه الهولندية بالاشتراك مع حلفائه المنتظرين . ولم يكن لديه الا طراد ثقيل واحد ، وطرادان خفيفان واثنتا عشرة مدمرة وبعض السفن المعاونة . اما قوته الكبيرة فكانت في غواصاته ، البالغ عددها ثمانية وعشرين غواصة . فعندما التقط الاميرال هارت في الساعة الثالثة من صباح ٨ كانون الاول رسالة الانباء المذهلة عن وقوع الهجوم على بيرل هاربور ، فأسرع الى تحذير جميع من يعنيهم الامر ، بأن العمليات الحربية قد بدأت ، دون ان ينتظر تأكيد النبأ من واشنطن . وقامت طائرات الانقضاض اليابانية ، بتوجيه ضربتها عند الفجر ، واستمرت الغارات الجوية طيلة الايام التالية بشكل متزايد ، فدمرت القاعدة البحرية في كافيتي ، وقام اليابانيون بأول انزال لقواتهم في شمال جزيرة لوزون في صباح اليوم نفسه . وتوالت الكوارث بسرعة . وتحطمت معظم الطائرات الاميركية على الارض . وكانت سفن الاميرال هارت قد تفرقت جنوبا قبل بضعة ايام ، ولم تبق الا الغواصات ، لتقارع العدو في السيطرة على

البحار . ونزلت قوة يابانية في خليج لينغابن مهددة مانيلا نفسها ، ومنذ هذا التاريخ ، توالت الاحداث على النحو الدائر في الملايو ، الا ان الدفاع اخذ يطول . وهكذا نجحت خطط اليابان الموضوعة منذ امد بعيد .

وذهل هتلر واركان حربه من المفاجأة . وقد روى يودل اثناء محاكمته كيف ان هتلر « وصل عند منتصف الليل الى بروسيا الشرقية لينقل هذه الانباء الي والى الماريشال كايتل . وكان مندهشا حقا منها » . لكنه اصدر اوامره صباح ٨ كانون الاول الى الاسطول الالماني بمهاجمة البواخر الاميركية حيثما وجدت وذلك قبل ثلاثة ايام من اعلان المانيا الحرب على الولايات المتحدة .

* * *

وذهل هتلر واركان حربه من المفاجأة . وقد روى يودل اثناء الوضع البحري . لقد فقدنا السيطرة على كل البحار باستثناء الاطلنطي . واصبحت اوستراليا ونيوزيلندة ، وبقية الجزر الحيوية الاخرى معرضة للهجوم . ولم يبق في يدنا الا سلاح مهم واحد . فقد وصلت البارجة « الامير ويلز » والبارجة « ريبالس » الى سنغافورة . وقد بعثنا بهاتين البارجتين لتمارس بواسطتهما ذلك التهديد الغامض ، الذي تفرضه البوارج الكبرى على الحسابات البحرية العادية . فقد ترتب عليهما ان تمضيا الى البحر وتختفيا بين الجزر التي لا حصر لها. وخيل الي ان احسن طريق لهما هو في عبور المحيط الهادي والانضمام الى ما تبقى من الاسطول الاميركي ، فهذه الحركة ستكون دلالة كريمة في مثل هذا الوقت ، فتوثق الروابط بين دولتينا . وكنا قد وافقنا على طلب وزارة البحرية الاميركية لسحب بوارجها الكبرى من الاطلنطي . وهكذا يمكن في خلال اشهر قليلة ، ايجاد اسطول على ساحل اميركا الغربي يستطيع ان يخوض معركة بحرية حاسمة اذا لزم الامر . وسيكون وجوده خير درع يقي اخواننا في اوستراليا . وقد استهوتنا جميعنا هذه الفكرة . ولكن لما كان الاوان قد فات تلك الليلة ، فقد قررنا الانتظار حتى الصباح لنرى ما سنفعله بالامير ويلز وريبالس .

ولكن لم تمض ساعتان حتى اصبحت البارجتان في قعر البحر .

وما ان استيقظت في الصباح ، سمعت جرس الهاتف على مقربة من سريري . كان لورد البحر الاول ، هو المتحدث ، وبدا لي صوته غريبا . فقال : « يا رئيس الوزراء ، يؤسفني ان اخبرك ان الطائرات اليابانية قد اغرقت الامير ويلز وريبالس . لقد غرق توم فيليب » . فقلت صارخا : « هل انت متأكد ؟ » فقال : « نعم يا سيدي » . واعدت سماعة الهاتف وسيطرت على عقلي ما تنطوي عليه هذه الكارثة الجديدة من اهوال ، فلا يوجد في المحيطين الهندي او الهادي اية سفن حربية بريطانية او اميركية كبيرة عدا تلك التي نجت من بيرل هاربور والتي اسرعت باللجوء الى كاليفورنيا . واصبحت اليابان المسيطرة على هذه البحار ، وغدونا نحن ضعفاء عراة .

سقوط سنغافورة

على الرغم مما حدث فقد بدت في مخيلتي حقيقتان ، اولاهما ان حلفنا الاعظم سيكسب الحرب في النهاية وعلى المدى البعيد ، وثانيتهما ان سلسلة من الكوارث ستكون بانتظارنا اثناء الهجوم الياباني الساحق . وكان ممكنا لاي انسان ان يشعر بشيء من الراحة بان حياتنا كشعب وكامبراطورية ، لم تعد في خطر . لكن الشعور بزوال الخطر الفتاك قد حمل كل ناقد على التحرر من الاشارة الى الاخطاء التي ارتكبت ، هذا بالاضافة الى الكثيرين الذين احسوا ان واجبهم يدعوهم الى تحسين اساليبنا في ادارة الحرب ، وبالتالي تقصير امدها . وقد انزعجت كثيرا للهزائم التي حلت بنا ، ولم يكن احد يعرف اكثر مني بأن هذه الهزائم ليست الا البداية ، فقد ادى تصرف الحكومة الاوسترالية ، وانتقادات الصحف الواسعة الاطلاع وغير المتحيزة ، ونقد اكثرية النواب باستمرار بمناوراتهم البرلمانية ، الى بعث شعور من الضيق والحيرة في نفسي ، وكنت اتصور ان هناك رأيا عاما مذهولا يبرز في تظاهرة ضدي من كل جانب .

ولكني كنت من الجهة الثانية اثق كل الوثوق من مناعة مركزي . فقد كان في امكاني الاعتماد على حسن نية الشعب بالنسبة لما قمت به من خدمات للمحافظة عليه عام ١٩٤٠ . ولم اكن اقلل من اهمية هذا الاخلاص العميق الذي يحثني دوما الى الامام . وقد ابدت لي وزارة الحرب ورؤساء الاركان كل ولاء واخلاص ، بالاضافة الى اني كنت شديد الثقة بنفسي . وقد اوضحت كلما سنحت لي الفرصة ، الى من حولي بأني لا ارضى على حد اي شيء من سلطتي او مسؤوليتي . وكانت الصحف تقترح دائما بأن ابقى رئيسا للوزارة واتنازل عن قيادة الحرب لاشخاص آخرين . ولكني قررت أن لا اتنازل عن هذه القيادة لاي كان ، وان ابقى متحملا المسؤولية بنفسي ، كذلك ان اطلب الاقتراع على الثقة في مجلس العموم . وقد تذكرت المثل الفرنسي القائل : « الهدوء هو الطريق المؤدي الى السيطرة على النفوس » .

وكان من الواجب ان انبه المجلس والبلاد للمصائب المرتقبة ، وليس ثمة من خطأ اجسم في القيادة من التطمينات الكاذبة التي لا تلبث ان تنهار . ففي امكان شعبنا ان يجابه كل الاخطار والكوارث بصبر ونشاط ، الا انه يرفض الخديعة خاصة حين يعلم ان المسؤولين عن القيادة ينعمون في نعيم الجنون . واحسست ان من الواجب تخفيف المصائب ووقعها الاليم ، وذلك بشرح الموقف الراهن في عبارات حالكة مظلمة . وكان من الممكن ان يتم ذلك في هذا الوقت بالذات دون ان يؤثر ذلك على الوضع العسكري ، او التقليل من هذه الثقة بالنصر النهائي ، التي يشعر بها كل انسان اليوم . وبالرغم من الارهاق الشديد الذي كان يصبني كل يوم ،

فاني لم اشعر بالندم على تلك الساعات الطوال التي كنت امضيتها يوميا في اعداد خطاب من عشرة آلاف كلمة اعددته ليتناول مختلف النواحي .

وبينما كانت السنة النار تلتهم قدمي من جراء الحرب الغير مواتية في الصحراء ، استطعت ان اعد بياني وتقديري للوضع بكامله .

وكانت آمالي في التغلب على رومل قد زالت قبل ان اغادر البيت الابيض ، فالمكاسب التي حققها اوكلنك في سيدي وزق والغزالة ، لم تكن حاسمة ، وادى انتعاش العدو في الجو خلال اشهر كانون ، وزوال سيطرتنا على البحر الابيض لعدة شهور ، ادى كل هذا الى حرمان اوكلنك من الاستمتاع بالنصر الذي كافح لاحرازه والذي طال انتظاره له . وكانت المكانة التي اضفاها علينا عند وضع الخطط للانزال الاميركي الانكليزي المشترك في شمال افريقيا الفرنسية قد خفتت وتأجلت العملية لمدة شهور طويلة اخرى .

وكان من الصعب ان يحل بنا ما هو اسوأ . ويحول عامل المساحة بيني وبين تقديم بيانات شاملة للكارثة العسكرية التي قدر لها ان تنزل بنا للمرة الثانية في نفس المكان ، وبعد مضي سنة من الكارثة الاولى ، والتي قدر لها ان تحطم الحملة البريطانية في الصحراء لعام ١٩٤٢ كلها . ويكفي القول ان رومل قد قام يوم ٢١ كانون الثاني بهجوم استكشافي من مراكزه في العقيلة ، ساندته ثلاثة ارتال يقدر مجموعها بثلاثة آلاف رجل تدعمهم الدبابات ، وشقت طريقها خلال الثغرات التي تركتها قواتنا الامامية التي كانت تفتقر الى السلاح المدرع ، والتي صدر اليها الامر بالانسحاب فورا . وهكذا تمكن رومل من استعادة الجزء الاكبر من برقة ، بفضل دهائه ومكره ، مثبتا تفوقه علينا في حرب الصحراء . وقد تراجعنا مسافة ٣٠٠ ميل بعد ان قضي على كل آمالنا ، وضاعت منا بنغازي وجميع المستودعات التي كان الجنرال اوكلنك قد اعدها للهجوم الكبير الذي كان يأمل المباشرة به في منتصف شهر شباط . وعاد الجنرال ريتشي بقواته المندحرة الى طبرق والغزالة ، حيث استمرت المطاردة بيننا وبين الاعداء حتى نهاية شهر ايار ، عندما تمكن من توجيه ضربته الثانية من جديد .

* * *

لا شك ان اعظم كارثة واكبر استسلام في تاريخ بريطانيا ، كان سقوط سنغافورة . وكنت عازما على اجراء تحقيق في الاسباب والظروف التي ادت الى هذه الكارثة المريعة ، الا اني قررت انه من المستحيل اجراء هذه التحقيقات سيما والحرب لا تزال دائرة . فليس في امكاننا الاستغناء عن الرجال او الوقت او الطاقات الكامنة . واجلت الموضوع لما بعد الحرب ، الا ان الحكومة لم تباشر به ، خاصة بعد مرور السنين وموت الكثير من الشهود . لذلك فاني لن احاول في هذه الصفحات الحكم على سلوك الافراد ، الا اني سأسرد على القارىء جميع الحقائق والوقائع كما اعتقدت بها ، وسأترك له ان يكون حكمه بنفسه .

ومما هو جدير بالمناقشة ، ان نقول ما اذا لم يكن من الاجدى لو تركزت قواتنا كلها على الدفاع عن سنغافورة ، وان نحاول صد الهجوم

الياباني الساحق من شبه جزيرة الملايو بواسطة قواتنا الخفيفة المتحركة . وكانت خطة القادة ، ان نباشر معركتنا في جوهور محاولين تأخير العدو في الوصول اليها قدر المستطاع . وتكون الدفاع عن البر الماليزي من التراجع بصورة مستمرة تسانده عمليات في المؤخرة . لكن الظروف والافضليات كانت بجانب العدو الذي قام بدرس طبيعة الارض واحوالها قبل مباشرة هجومه ، حتى وقبل نشوب الحرب ، واعد خططا محكمة دقيقة ، كما ارسل جواسيسه الى المنطقة قبيل هجومه الغادر . ومن جملة اعداداته كانت قوات الاحتياط المكون من الدراجات يستخدمها راكبو الدراجات اليابانيون . كما حشد العدو قوات ضخمة احتياطه ، لم يحتج لها اثناء المعركة . بالاضافة الى جميع القوات المهاجمة التي كانت متمرسة على حرب الادغال الرهيبة .

وكان التفوق الياباني في الجو وهو ما كنا نفتقر اليه ، عاملا اساسيا هاما في القتال ، الا ان قادتنا لم يكونوا مسؤولين عنه بتاتا . وهكذا فالقوة التي عهدنا اليها مهمة الدفاع عن سنغافورة قد استبسلت في الدفاع والقتال بشكل بطولي لا مثيل له ، الا انها حين وصلت ميدان المعركة الحقيقي كانت معظم قوتها قد استنفدت اثناء وصولها ، وقبل هجوم الجيش الياباني المنظم .

وظهر لي الآن بأن الجنرال ويفل الذي اصبح قائدا اعلى للحلفاء في تلك المناطق الشرقية ، كان يشك في مقدرتنا على الدفاع عن سنغافورة لمدة طويلة . وكنت اعتمد كثيرا على امكانية صمود الجزيرة وقلعتها للحصار الياباني مهما طال زمنه ، هذا اذا دعمنا الجبهة بالمدافع الثقيلة . وكنت في الوقت نفسه اراقب بتشاؤم تدهور قوة جيشنا اثناء انسحابه في شبه جزيرة الملايو ، دون ان اقوم بأي اجراء حاسم للتدخل . ومن ناحية ثانية كان هناك عامل كسب الوقت .

الا ان ويفل ابرق الينا قائلا : « كانت خططنا مقتصرة على صد الهجمات على سنغافورة الآتية من البحر والوقوف على ارض جوهور والى الشمال منها ، ولم نقم حتى وقت قريب ببناء خطوط دفاعية في الجانب الشمالي من الجزيرة ، لتحول دون مرور الاعداء من مضيق جوهور . ومع ان الخطط قد رسمت لنسف الجسور ، كما ان مدافع القلعة الثقيلة تصلح لاطلاق القنابل في جميع الاتجاهات ، لكن اتجاه سير القنابل يجعلها غير مجدية امام الاسلحة المضادة للمدفعية . ولن نتمكن من ضمان سيطرتنا على مدفعية الاعداء بحال فرضت الحصار عليها ... » .

واصبت بالدهشة حين قرأت البرقية ، اذ وجدت انه لم يكن ثمة من حصون دفاعية تحمي الجزيرة من ناحية البر ، وتحمي المدينة والقاعدة البحرية . بالاضافة الى ان ايا من القادة لم يقم ببناء حصون دفاعية متينة ، حتى ان احدا من هؤلاء القادة لم يذكر ان حصونا كهذه غير موجودة .

وقد تكونت عندي فكرة ، بفضل ما لمسته من الحرب وما قرأته عنها ، بأن خلق نقطة دفاع قوية لا يتطلب سوى بضعة اسابيع لا اكثر . كما يمكن حصر جبهة العدو وتضييق الخناق عليها بواسطة زرع الالغام

وغير ذلك من العوائق العديدة . ولكن لم يخطر لي انه ليس ثمة من دائرة من الحصون الدائمة تحمي مؤخرة القلعة الاستراتيجية . ولم اتمكن من فهم كيفية حدوث ذلك مطلقا . والظاهر ان ايا من القادة او من الخبراء في الوطن كان يدرك هذه الحاجة الماسة . واذا كان هناك من ادركها فانه لم يلمح لي بأهميتها ، حتى هؤلاء الذين قرأوا برقياتي ورسائلي المتعددة حول الاعتقاد الخاطيء بوجوب الاستعداد لحصار طويل منظم . وكنت في السابق قد قرأت شيئا عن معركة بليفنا عام ١٨٧٧ ، ولم تكن المدافع الرشاشة قد اخترعت بعد ، الا ان الاتراك قد اخترعوا اساليب جديدة في الدفاع ضد الهجوم الروسي . كما درست بدقة معركة فردان عام ١٩١٧ حين تمكن الجيش المتمركز في قلاعه المحصنة المتفرقة من التغلب على اخذ الجيوش الهاجمة المنظمة . وكنت قد عزمت على ارغام العدو على استعمال مدفعيته بشكل كبير لنسف مراكزنا المحصنة المنيعة في سنغافورة ، الا ان احلامي كلها قد ضاعت حين تمثل امامي منظر الجزيرة العارية والجنود المرهقين يتراجعون اليها .

اني لا اكتب هذه الكلمات لكي ادافع عن نفسي . لقد كان من واجبي ان اعرف ، كما انه كان من واجب مستشاري ان يعرفوا ايضا ، وبالتالي ان يطلعوني على الحقيقة كلها ، فكان علي انا ان اسألهم . ولعل السبب في اني لم اسألهم هذا السؤال من بين الوف الاسئلة التي كنت اطرحها عليهم ، هو اني لم اكن اتصور ان سنغافورة لا تملك وسائل الدفاع البرية ، كما لم اكن اتصور ان تنزل بارجة من البوارج الى البحر دون ان يكون لها قعر . وقد اطلعت على جميع الاعذار التي قدمت لتبرير هذا الخطأ الشنيع ، ومن جملتها انشغال القوات في عمليات التدريب وتجهيز الخطوط الدفاعية في شمالي الملايو ، وقلة الايدي العاملة بين المدنيين ، وتوفيرات ما قبل الحرب ، واشراف وزارة الحربية . وقد قيل ان دور الجيش كان في الدفاع عن القاعدة البحرية الموجودة على الساحل الشمالي من الجزيرة ، لذا فقد غدا من واجبه ان يحارب امام الساحل لا عليه .

وكان علي ، والحالة هذه ، ان احاول اصلاح الاهمال الحاصل قدر الامكان ، لكن عندما افقت من نومي في صباح يوم ٢١ من الشهر الحالي ، وجدت امامي هذه البرقية المتشائمة التي وصلتني من الجنرال ويفل .

« وصل الآن الضابط الذي ارسلته الى سنغافورة ليجهز خطوط الدفاع عن الجزيرة . والآن تتخذ الاستعدادات الدفاعية عن القسم الشمالي من الجزيرة . ان الدفاع عنها يحتاج الى قوات تفوق القوات اللازمة للدفاع عن جوهور . لقد اصدرت الامر الى القائد العام برسيفال بوجوب خوض المعركة في جوهور ، وان يضع الخطط اللازمة لاطالة امد القتال عن الجزيرة في حال سقوط جوهور ، وبهذه المناسبة الفت نظرك الى انه من المستحيل الاحتفاظ بالجزيرة بعد سقوط جوهور ، اذ المدافع المتمركزة في القلعة تصلح لصد الهجوم من جهة البحر فقط ، ومعظم المدافع لا تطلق نيرانها الا باتجاه البحر . كما ان قسما من الحامية قد ارسل الى جوهور ولا اعتقد ان القسم الباقي يستطيع الصمود لوحده . آسف لهذه الصورة القاتمة التي وصفتها لك ، ولكنها الحقيقة المجردة . فالحصون المشيدة في سنغافورة لا تصلح الا للدفاع البحري ، ولا ازال

آمل في ان تصمد جوهور لحين وصول القافلة التالية ... »

نتيجة للبرقية التي وردتني ، فقد قررت على الفور تبديل الخطط من جذورها والاستعاضة عنها بخطط جديدة ، تتناسب مع الاوضاع الحالية . فأعددت مذكرة سريعة الى رؤساء اركان الحرب وسلمتها الى الجنرال ايسماي ليقدمها لهم في الاجتماع . هذا هو نصها :

« نظرا للبرقية السيئة التي وردتني من الجنرال ويفل ، ارى من الضروري علينا ان ندرس الوضع من جديد في اجتماع تعقده لجنة الدفاع في هذه الليلة .

« لقد ارتكبنا نفس الخطأ الذي كنت اخشى ان نرتكبه . فقد تقسمت قواتنا التي كان في امكانها ان تشكل جبهة قوية في جوهور ، او على الاقل على حدود سنغافورة المائية . اما من جهة البر فلم ينشأ اي خط دفاعي على طول الجزيرة . ولم يشكل الاسطول خطوطا دفاعية ضد تحركات الالتفاف المعادية من الساحل الغربي من شبه الجزيرة . وقد قال الجنرال ويفل ان الدفاع عن سنغافورة يستلزم قوات اكبر من التي يستلزمها للفوز في معركة جوهور . اما بالنسبة لمعركة جوهور فقد اوشكنا ان نخسرها ايضا ...

« اما رسالته فلا توحي بأي امل في امكانية الدفاع لمدة طويلة . ومن الواضح ان ثمن هذا الدفاع الطويل سيكون في الامدادات التي ستصلنا ، واذا كان الجنرال يشك في امكانية صمودنا لبضعة اسابيع فالسؤال الآن : اليس من الاجدى ان ننسف الارصفة والمدفعية ثم ننسحب من سنغافورة ، ونحاول ان نجمع قوانا ونركزها في بورما وابقاء الطريق اليها مفتوحا ؟

« اظن ان موضوعا كهذا يجب مواجهته بشكل صريح وان ينقل الى الجنرال ويفل بهذا الشكل الصريح . وما هي قيمة سنغافورة للعدو بالنسبة لبقية الموانىء في جنوبي غربي الباسيفيك بحال قمنا بعمليات التخريب بشكل دقيق ؟ لكن خسارة بورما من الناحية الثانية تعني ضربة قاصمة . انها تعني عزلنا عن الصين ، التي تأكد لنا ان جنودها أكفأ من غيرهم في مقارعة اليابانيين . وربما نخسر اذا ترددنا في اتخاذ القرارات الحازمة مهما كانت هذه القرارات مخيفة ، وخسارتنا ستكون بورما بالاضافة الى سنغافورة . وبالطبع فان كل شيء يتوقف على المدة التي نستطيع فيها الدفاع عن الجزيرة ، وامكانية استمرار الدفاع لبضعة اسابيع لذلك فاني ارى من العبث اضاعة كل امداداتنا وطائراتنا .

« ومع ذلك علينا ان نفكر ان سقوط سنغافورة بالاضافة الى سقوط كوريجيدور سيهز الهند هزة كبرى ، ولن ينقذها الا قوات ضخمة تصل الى بورما لتقوم باعمال ناجحة .

« اخيرا ارجو ان تدرسوا هذه الامور كلها في هذا الصباح ... » .

ولم يتوصل رؤساء الاركان الى حل حاسم ، وعندما اجتمعت لجنة الدفاع في المساء ، سيطر على الجو تردد مشابه ، تجاه الالتزام باتخاذ مثل هذا الاجراء الحاسم . وبقيت المسؤولية المباشرة الاولى متوقفة على الجنرال ويفل لوحده لكونه القائد الاعلى للحلفاء . وقد رأيت شخصيا ان المسألة صعبة كثيرا ، حتى اني لم الح في ضرورة تنفيذ خطتي الجديدة ، وهذا ما كنت افعله بالتأكيد لو كنت قد عزفت على ذلك . ولم يكن احد منا ينتظر انهيار الدفاع ، الذي حدث فعلا خلال ثلاثة اسابيع . وعلى كل حال ، لقد كان بالامكان قضاء يوما او اثنين آخرين في تفكير أكثر .

* * *

اما السير ايرل بيج وهو مندوب اوستراليا ، فلم يحضر اجتماع رؤساء الاركان ، كذلك لم ادعه لحضور اجتماع لجنة الدفاع . لكنه اطلع على نسخة من المذكرة التي ارسلتها الى رؤساء الاركان . وقد اتصل بحكومته على الفور ، ولم نلبث ان استلمنا رسالة من المستر كيرتن رئيس وزراء اوستراليا ، أوجز قسما منها :

« .... اعلمنا المستر بيج ان لجنة الدفاع تدرس امكانية الجلاء عن الملايو وسنغافورة . وفي امكاني القول انه بالنسبة للتأكيدات السالفة والتي كنا قد تلقيناها منكم ، لذلك فان الجلاء عن سنغافورة سيؤخذ هنا وفي عدة اماكن اخرى بانه عذر لا يمكن التغاضي عنه على الاطلاق .... لقد فهمنا ان سنغافورة ستكون قلعة لا يمكن الوصول اليها ، وهي على كل حال باستطاعتها الصمود لفترة طويلة ريثما يصل اليها الاسطول الرئيسي .

« ومن الواجب حتى لو اضطر الامر ، تحويل الامدادات الى جزر الهند الهولندية لا الى بورما . كما ان اي اجراء مغاير سيسبب الكثير من السخط والنقمة وربما يدفع بالهند الهولندية الى اللجوء للصلح المنفرد .

« وتثبيتا منا للوعود التي قطعناها على انفسنا بارسال الامدادات الضخمة ، فقد نفذنا ذلك بكل دقة وامانة . ونحن نأمل بأن لا تحطموا الاهداف كلها بهذا الجلاء .... » .

وعلينا ان نبحث عن عذر كاف لهذه الحالة العقلية التي تخبطت فيها اوستراليا نتيجة للوهم المخيف من جهاز الحرب الياباني . فقد ضاعت قيادة المحيط الهندي ، وكانت افضل ثلاث فرق عسكرية اوسترالية موجودة في مصر ، اما الرابعة وفي سنغافورة . وقد وجدوا ان سنغافورة مهددة بخطر داهم ، وخافوا من غزو مفاجيء لاوستراليا بالذات . وتقع مدنهم الكبرى التي يقطنها نصف مجموع سكان القاهرة

على شاطيء المحيط . واخذوا الآن يواجهون احتمال هجرة جماعية الى الداخل ، واستعدادا لحرب العصابات دون ان يكون عندهم مؤن كافية ومستودعات للذخيرة . والمساعدة من الوطن الاب ، غير محتملة وليس بالمستطاع اعادة فرض السيطرة الاميركية في المياه الاقليمية الاوسترالية الا بعد فترة طويلة وبصورة تدريجية . ولم اكن لاصدق بان اليابانيين سيقطعوا مسافة ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيطات ليغزوا اوستراليا ، بينما تقبع امامهم وعلى مسافة قريبة فريسة سهلة مغرية في جزر الهند الهولندية والملايو . ولكن الحكومة الاوسترالية كانت تنظر الى الموضوع من زاوية اخرى ، بالاضافة الى عدة مخاوف اخرى كانت تضغط عليها . وبقيت المشاحنات الحزبية موجودة في اوستراليا حتى بما يتعلق بهذه المشاكل المعقدة . ولم تكن الحكومة العمالية تملك في البرلمان اكثر من عضوين اثنين . وكانت الحكومة تعارض في مشروع الخدمة الاجبارية حتى في الدفاع المدني . ومع ان المعارضة مقبولة في مجلس الحرب ، الا انه لم تقم في البلاد حكومة شديدة .

واخيرا تم الاتفاق بعد كثير من المشاحنات على بذل كل المساعي الممكنة لتعزيز سنغافورة والذود عنها . واستمر انزال بقية افراد الفرقة البريطانية الثامنة عشرة . وكانت قيمة هذه التعزيزات اقل مما يوحي به عددها .وكان على الرجال ان يقذفوا بأنفسهم في ميدان معركة خاسرة . وعقدت الآمال الكبيرة على طائراتنا المقاتلة من نوع « هاريكين » التي ارسلناها الى ميدان المعركة ، والتي تضاهي من حيث النوعية الطائرات اليابانية . وقد تمكنا في الايام الاولى من انزال الخسائر بها ، لكن جهل طيارينا الواصلين حديثا لطبيعة الاجواء وتفوق اليابانيين الكبير في العدد جعلا خسائرنا ضخمة . وراح الجنود اليابانيون يتدفقون على الساحل بسرعة ، فقرر الجنرال برسيفال الانسحاب والتراجع الى الجزيرة . وقد خسرنا قسما كبيرا من لواء واحد في المراحل الاولى .

اما في الوطن فلم تكن نعقد الكثير من الآمال الكاذبة على احتمال الدفاع لمدة طويلة . ولم تكن المدافع الكبيرة التي تطلق قذائفها في الاتجاه الشمالي ذات فائدة بالنسبة الى ذخيرتها المحدودة ، خاصة وان انطلاق قذائفها كان ينصب على اراض تغطيها الادغال . وقد فقد من رجال الحامية حوالي خمسة وثمانين الفا . ولم يعد هناك من خطوط دفاعية ثابتة على طول الجبهة المعرضة للهجوم الكاسح . وضعفت روح الرجال المعنوية نتيجة للتراجع والقتال الشاق . وكان وراءهم مدينة سنغافورة التي يسكنها حوالي مليون انسان بالاضافة الى حشد هائل من اللاجئين .

* * *

وجاءت الاخبار يوم الثامن من شهر شباط بأن العدو يحشد قوات ضخمة في المزارع الممتدة من الشمال الغربي من الجزيرة ، وقد تعرضت مواقعنا لقصف المدفعية . وفي المساء بدأ الهجوم حين عبرت القوات العدوة مضيق جوهور في زوارق مدرعة ، حيث نشب قتال ضار ، الا ان القوات الاوسترالية كانت ضعيفة جدا فتمكنت قوات العدو من النزول في عدة مواقع . واتضح لنا ان كل شيء قد انتهى في سنغافورة ، ووجدت

انه من الخطأ الاستمرار في مذبحة هائلة لا لزوم لها ، اذ ان الامل في النصر اصبح معدوما .

وهكذا في يوم الاحد الواقع في الخامس عشر من شهر شباط عام ١٩٤٢ ، حان وقت الاستسلام وتوقفت الاعمال الحربية في تمام الساعة الثامنة والنصف مساء ...

انتصار اميركا البحري

لم يكد شهر آذار ينتهي حتى اتمت اليابان المرحلة الاولى من خطتها الحربية التي تكللت بالنجاح ، وقد وقعت احداث كبيرة الآن اثرت على سير الحرب كلها . فقد سيطرت اليابان على هونغ كونغ وسيام والملايو ومنطقة الجزر الضخمة التي تتألف منها الهند الشرقية كلها . كما توغلت قوات اليابان داخل اراضي بورما . بينما بقيت القوات الاميركية تقاتل بشدة في الفليبين لكن دون اي امل .

وكانت اليابان قد وصلت الى قمة مجدها ، فالاعتزاز بالنصر العسكري ، والثقة في القيادة ، زادا من الاعتقاد بأن دول الغرب لا تتمتع بالقوة الكافية للقتال حتى النهاية . واخذت الجيوش الامبراطورية مراكزها على الحدود التي رسمت لها قبل الحرب لتكون اول المتقدمين . وكان باستطاعة اليابانيين في هذه المنطقة الزاخرة بالموارد والثروات التي لا حصر لها ، ان يثبتوا اقدامهم ويزيدوا من قوتهم وجبروتهم . وكانت خطتهم المرسومة منذ أمد طويل تقضي بفترة من التوقف للاستراحة وصد اي هجوم اميركي مضاد . ولكن خيل للقادة اليابانيين ان ساعة تقرير مصيرهم قد ازفت وعليهم ان يكون على اتم الاستعداد لها . وبدا لهم ان مشكلتهم العسكرية تقضي باختيار احد الامرين : اما تنظيم صفوفهم بشكل جديد ، او الاستمرار في التقدم الى الامام لضمان الدفاع عن الاراضي المحتلة .

وبعد المشاورات ، تقرر اعتماد فكرة التقدم والاستيلاء على جزر الاليوشان الغربية وجزيرة ميدواي وساموا وفيجي وكالدونيا الجديدة ، وميناء بورسي جنوبي غينيا الجديدة . وكانت هذه السيطرة تهدد ميناء (بيرل هاربور) الذي ما زال القاعدة الرئيسية لاميركا .

وكانت الخطط اليابانية تبدو في منتهى الجرأة والعبقرية وخاصة عند تنفيذها . ولكنها بدأت بقياسات غير صحيحة للقوى الدولية . ولم تتمكن القيادة اليابانية من تفهم القوى الحقيقية الكامنة لدى الولايات المتحدة . وكانت تظن حتى هذه اللحظة بأن النصر سيكون حليف المانيا في اوروبا . وشعرت بالرغبة العارمة بقيادة قارة آسيا نحو انتصارات وفتوحات عديدة ، لتحقق امجادها واطماعها .

ولم يكن في وسع اي انسان ان يتأكد من ان المانيا لن تقوى على هزيمة روسيا او ارغامها على التراجع الى ما وراء الاورال ، ثم تعود بعد ذلك الى بريطانيا وتحتلها ، او تزحف عبر القفقاس وايران لتلتقي مع الجيوش اليابانية في الهند . ولاعادة التوازن العسكري كان على اميركا ان

تحقق نصرا بحريا حاسما يضمن لها التفوق في المحيط الهادي ، ولو لم يضمن لها الاشراف التام على هذا المحيط . ولكن لقد قدر لنا ان نفوز ونحقق هذا النصر . وكنت متأكدا بأن الاسطول الاميركي سيستعيد سيطرته التامة على المحيط الهادي ، خلال شهر ايار ، بفضل اي مساعدة يمكن لنا تقديمها في هذا الشهر .

* * *

وقد باشرت اليابان سياسة التوسع هذا في نهاية شهر نيسان عام ١٩٤٢ . وقد اعدت الخطط للاستيلاء على مرفأ مورسبي وتولاغي في جزر سليمان الجنوبية المقابلة لجزر (كوادلكنال) الكبرى . وكان احتلال مرفأ مورسبي يعني اكمال المرحلة الاولى من سيطرة اليابان على غينيا الجديدة ، كما يؤمن لها ضمانة ثابتة لقاعدتها البحرية راباول في جزيرة بريطانيا الجديدة . ومن هناك تستطيع تطويق أوستراليا .

ووصلت الاخبار بسرعة الى المخابرات الاميركية عن الحشود اليابانية في هذه المياه . فقد شوهدت القوات اليابانية البحرية تتجمع في راباول وهي آتية من قاعدتهم الرئيسية في تروك في جزر كاولين . واضحى الزحف باتجاه الجنوب امرا محتما . وكان من المنتظر ابتداء العمليات العسكرية يوم الثالث من شهر ايار . وكانت حاملات الطائرات الاميركية قد توزعت لتقوم بالمهام المسندة اليها ، ومن بينها الهجوم الكاسح الذي قام به الجنرال دوليتل من الجو على مدينة طوكيو بالذات يوم الثامن عشر من نيسان .

اما الاميرال نيميتز فقد احس بخطر في الجنوب ، فقام ليجمع قوة ضخمة في بحر المرجان . وكان الرير اميرال فليتشر قد وصل الى هناك مع قوة مؤلفة من حاملة طائرات وثلاث طرادات ثقيلة ، كما وصلت قوة اخرى تتألف من حاملة الطائرات ليكسينغتون وطرادين آخرين تحت قيادة الاميرال فيتش التي وصلت من (بيرل هاربور) كما انضمت الى هذه القوات اسراب اخرى من مختلف الطرادات وحاملات الطائرات .

وكان الاميرال فليتشر يتزود بالوقود على بعد ٤٠٠ ميل جنوبي كوادلكنال عندما علم ان العدو قد نزل في تولاغي ليقيم هناك قاعدة بحرية له ، بعد ان انسحبت الحامية الاوسترالية الصغيرة المتمركزة هناك . وقرر الاميرال فليتشر ان يبدأ هجومه على هذه الجزيرة بالحال . لكن حاملات الطائرات المعادية كانت تشغل بال القائد فليتشر الذي لم يكن يعرف اية معلومات دقيقة عنها . وقد وصلته الانباء ان هناك حاملتين واربعة طرادات يابانية موجودة الآن الى الشمال من جزر لويزياد . ولم تكن هذه القوة هي الوحيدة ، بل كانت قوة بسيطة تقوم بالحراسة . وتوجه فليتشر على الفور لينقض باقصى ما لديه من قوة ، ولم يمض الوقت حتى شوهدت احدى الحاملات الخفيفة تحترق وتستقر في قاع المحيط بينما انسحبت بقية السفن .

* * *

وبذلك كشف فليتشر عن مكانه للعدو ، مما جعله عرضة لاخطار شديدة . وكان من المنتظر ان يتلقى هجوما صاعقا بين لحظة واخرى بينما لم يكن في امكانه اعادة تسليح قوته الا عند العصر . وكان من حسن حظه ان الطقس الرديء أخذ يسوء باستمرار ، ولم يكن العدو يملك اجهزة للرادار . وكانت قوة العدو ، في الحقيقة ، قريبة جدا منه وعلى مرمى المدافع من ناحية الشرق . وبعد الظهر بدأ العدو هجومه ، الا ان الطائرات المحلقة لم تتميز طريقها واهدافها نتيجة لسوء الطقس ، فاضطرت الى العودة . وبينما هي في طريقها الى الحاملات مرت فوق قوة فليتشر فظهرت على شاشات الرادار ، وسرعان ما انطلقت الطائرات الاميركية لتقطع عليها طريق العودة ، وتسقط عددا منها في معركة حامية جرت في الظلام ، ولم يعد الى الحاملات من الطائرات المغيرة العدوة الا بضع طائرات من اصل ٢٧ قاذفة قنابل .

وفي صبيحة اليوم التالي تفرق الفريقان تحت جناح الليل الفائت . وفي هذه المرة ساعدت الاحوال الجوية سفن العدو فاختفت بين السحب المنخفضة ، بينما ظلت سفن فليتشر وسط اشعة الشمس ... وبدأت عملية جديدة من البحث والاستكشاف . واستطاعت بعد فترة طائرة عاملة من « ليكسنغتون » من اكتشاف مخبأ العدو كما التقطت رسالة لاسلكية صادرة من العدو تفيد انهم اكتشفوا ايضا مكان حاملات الطائرات الاميركية ، وبذلك اصبحت المعركة محتمة بين فريقين متعادلين من حيث القوة .

وفي تمام الساعة التاسعة صباحا انطلقت اثنتين وثمانون طائرة اميركية ، كما انطلقت تسع وستون طائرة يابانية ، والتحمت القوتان في معركة ضارية استمرت بضع ساعات . وقد وجدت الطائرات الاميركية بعض المتاعب من السحب الكثيفة المنخفضة ، بينما اختفت احدى الحاملتين اليابانيتين تحت ستار من الامطار الشديدة ، وتركز الهجوم على الحاملة اليابانية الثانية فاصيبت بعدة قنابل ، واشتعلت فيها النيران وبالرغم من الاضرار التي لحقتها فقد استطاعت ان تنجو وتصل الى قاعدتها لاصلاحها . وقد اسفرت النتيجة عن سقوط ثلاث وثلاثين طائرة اميركية مقابل ثلاث واربعين يابانية . كما اصيبت حاملة الطائرات الاميركية « ليكسنغتون » اصابات مباشرة ، مما اضطر رجال الى نسفها واغراقها .

وكان من جراء ذلك ان أجل اليابانيون تقدمهم نحو مرفأ مورسبي بالرغم من ان الطريق كان مفتوحا امامهم . اما الجانب الاميركي فقد كان هدفه الاحتفاظ بقوة الحاملات الاميركية . كما تأكد للاميرال نيميتس ان هناك احداثا على جانب كبير من الاهمية منتظر حصولها في الشمال ، مما يتطلب منه اعادة استجماع قوته . وقد اكتفى في الوقت الحاضر من توقف اليابانيين من التقدم نحو بحر المرجان ، واستدعى جميع حاملات طائراته الى بيرل هاربور .

وكان تأثير هذه المعركة لا يتناسب مع خطورة الناحية التكتيكية التي علقت عليها ، ولكن من الناحية الاستراتيجية فقد كانت النتائج مرضية باعتبار ان هذا النصر كان اول نصر تحققه القوات الاميركية على اليابان .

❊ ❊ ❊

كان الاميرال ياماتو يهيىء نفسه لمعركة جديدة ليختبر قوة اميركا في وسط الباسيفيك ، وذلك حين يتقدم لاحتلال جزر ميداوي ومطارها الكبير الذي يتمكن بواسطته من الوصول الى بيرل هاربور والذي يقع على بعد ١٠٠٠ ميل نحو الشرق . فقد قرر الاميرال ان يرسل في نفس الوقت قوات لتحتل مراكز ذات اهمية كبرى في جزر اليوشان الغربية ، وكان بذلك يأمل أن يجتذب الاسطول الاميركي نحو الشمال لصد الهجوم على جزر اليوشان . حينئذ يلقي الاميرال ياماتو بجميع قواته الرئيسية على جزر ميداوي .

الا ان القائد الاميركي نيميتس كان يقظا ومستعدا . وكانت مخابراته النشيطة تطلعه باستمرار على جميع التفاصيل حتى عن موعد الهجوم الياباني . وبالرغم من ان غزو ميداوي قد يكون ستارا لاخفاء حقيقة التقدم نحو جزر اليوشان ، ومن ثم التقدم منها نحو القارة الاميركية فان ميداوي كانت بالنسبة له الخطر الاكبر والاكثر حقيقة ، لذلك لم يتردد عن تركيز قوته في ذلك المكان .

وبدأت القوات اليابانية تحركها في نهاية شهر ايار . وكانت القوة الاولى تتجه نحو اليوشان لتحويل الانتباه اليها ، ولاجتذاب بقية الاسطول الاميركي الى ذلك الاتجاه . وكان من المفروض ان تنزل القوات اليابانية في جزر آتو وكيسكا واداك والتي تقع الى الغرب . كما يقوم ناغومو مساعد الاميرال ياماتو بقوة مؤلفة من اربع حاملات بضرب جزيرة ميداوي، وبعد ذلك تأتي قوات الانزال لتحتل جزيرة ميداوي يوم الخامس من حزيران . اما الاميرال ياماتو فيعود مع اسطوله الى الغرب بحيث يبقى في مأمن مــن الطائرات الاميركية ويظل متأهبا للعودة ليضرب القوات الاميركية حين تقوم بهجومها المضاد .

وامتلأ مطار ميدواي بقاذفات القنابل الاميركية ، وصدرت الاوامر لتكون القوات باسرها على اهبة الاستعداد بانتظار الحصول على ادق المعلومات المبكرة عن اقتراب العدو . وبالفعل استمرت عمليات مراقبة العدو من الجو منذ الثلاثين من ايار . وفي يوم ٣ حزيران شوهدت احدى عشرة سفينة حربية معادية . وسرعان ما بدأ الهجوم الاميركي الخاطف على السفن المعادية ، الا ان النتيجة لم تسفر عن اي نتيجة سوى اصابة احدى ناقلات الزيت ، لكن الاميرال فليتشر تأكد الآن حقيقة مقاصد العدو . وقد علم من مخابراته أن العدو سيهاجم ميداوي من ناحية الشمال الغربي ، فحول حاملات طائراته الى الشمال من ميدواي لتبقى على اتم الاستعداد لمهاجمة جناح الاميرال ناغومو عندما يبرز وحيثما يظهر .

واشرق يوم الرابع من حزيران واضحا ، وفي الصباح الباكر ارسلت دورية من ميدواي اشارة طالما انتظرناها معلنة اقتراب حاملات الطائرات اليابانية . وشوهدت طائرات عديدة في طريقها الى ميدواي ، كما شوهدت البوارج تواكب حاملات الطائرات . وبدأ الهجوم الياباني بقوة وعنف ، وقد قوبل بنفس العنف ايضا مما اضطر الطائرات المهاجمة الى العودة وقد فقدت نصفها تقريبا . وقد حصلت اضرار جسيمة وسقط الكثير من الضحايا ، لكن المطار ظل صالحا . وسمح الوقت لهجوم معاكس على

اسطول ناغومو ، وكان تفوقه الكبير في الطائرات المقاتلة سببا في تكبيد الاميركيين خسائر باهظة ، وجاءت نتيجة الهجوم الباسل الذي بنيت عليه الآمال الكبار مخيبة ، لكن الارتباك الذي احدثه الهجوم لدى اليابانيين كان مذهلا للقائد الياباني ، فأبعده عن التفكير الصحيح ، لا سيما بعد ان الح عليه طياروه بوجوب اعادة الهجوم مرة اخرى على ميدواي . وكان قد ابقى عددا كافيا من الطائرات لمواجهة الحاملات الاميركية اذا ما ظهرت عليه فجأة ، ولكن بحثه عنها لم يؤد الى اية نتيجة ، فقرر ان يقسم التشكيلات التي اعدها ويزيد من تسليحها ويقوم بهجوم آخر على ميدواي . وقد اضطر الى اخلاء اسطح حاملاته لاستقبال الطائرات العائدة ، وهكذا عرض نفسه لخطر هائل فقد فاجأته الطائرات الاميركية بقوة وعنف بينما كانت حاملاته خالية من الطائرات المقاتلة .

❋ ❋ ❋

كان وضع الاميرال فليتشر والاميرال سبنسر ممتاز جدا ، فبامكانهما الآن التدخل في اللحظة المناسبة . وبدأت الطائرات تشن هجومها الصاعق، وكان الطقس قرب الحاملات المعادية غائما فتعذرت الرؤيا واصابة الهدف . ولم تتمكن معظم الطائرات من العثور على اهدافها عدا قلة مؤلفة من احدى واربعين طائرة من قاذفات الطوربيد ، وحتى هذه اصيبت بخيبة امل فظيعة من عنف المقاومة التي صادفتها ، ولم يعد من هذه الطائرات سوى ستة فقط . وفي هذه اللحظة وصلت سبعة وثلاثون طائرة من الحاملة « الانتربرايز » و « اليوركتاون » وانقضت على سفينة القيادة اليابانية وامطرتها بوابل من القنابل ، وبعد قليل توزعت الطائرات المهاجمة لتلقي بباقي حمولتها فوق البوارج الثلاث المرافقة وسرعان ما اشتعلت الحرائق الهائلة في الحاملات والبوارج اليابانية . ولم يعد بامكان القائد الاميرال ناغومو الا ان ينقل قيادته الى طراد مرافق وان يراقب الحرائق والنيران تأكل ثلاثة ارباع اسطوله .

وكان على القادة المنتصرين ان يستعدوا لمواجهة اخطار اخرى فربما يهاجم الاميرال الاكبر باسطوله الضخم جزيرة ميداوي . والآن بعد هذه المعركة ، فقد اصيبت الطائرات الاميركية بخسائر فادحة ، لكن الاميرال الاكبر ياماتو بعد ان اصدر اوامره بضرب جزيرة ميدواي عاد فألغى القرار وآثر الانسحاب التام ، وربما كان ذلك بعد ان علم بالخسارة المؤلمة التي احاقت باقوى قطع اسطوله الضخم .

❋ ❋ ❋

وهكذا تحطمت اسطورة تفوق اليابان في المحيط الهادي بضربة واحدة من الاسطول الاميركي ، هذا التفوق الذي احبط جميع ما حاولناه في الشرق الاقصى لمدة ستة اشهر . ومنذ هذه اللحظة تحولت جميع انظارنا وتفكيرنا الى الهجوم بدلا من الدفاع . ولم نعد نفكر في اين سيكون الهجوم الياباني القادم ، بل اصبحنا نفكر اين هو المكان الافضل لنوجه نحن ضربتنا الى العدو .....

الجبهـــة الثانيـــة

في الثامن من شهر نيسان جاء الى لندن هاري هوبكنز والجنرال مارشال يحملان معهما مذكرة شاملة قامت باعدادها رئاسة اركان الحرب الاميركية المشتركة ، عن العمليات الحربية في غرب اوروبا . وفي هذه المذكرة قال اصدقاؤنا ان افضل مكان لتوجيه الضربة الرئيسية الاولى هو في غرب اوروبا ، وذلك بهجوم اميركي بريطاني ضخم . وقد ذكرت المذكرة وصفا دقيقا للاعدادات الهائلة المتوجب اتخاذها وتجهيزها للقيام بمثل هذا الهجوم . وقد ذكرت المذكرة ايضا ان الهجوم لا يمكن القيام به قبل سنة ، وذلك لتجهيز المتطلبات الهائلة لهذا الهجوم .

وبدأ الجنرال مارشال مباحثاته مع رؤساء الاركان البريطان . وقد سررت جدا لاهتمام اميركا وتصميمها على هزيمة هتلر في اوروبا كخطوة اولى لكسب الحرب ، فقد كانت خطة هزيمة هتلر تحتل المرتبة الاولى في تفكيري وتفكير جميع قادتنا العسكريين . لكن ايا من قادتنا لم يضع خطة لعبور المانش بجيش انكلو اميركي ضخم والنزول على الشواطىء الفرنسية قبل اواخر صيف عام ١٩٤٣ . اما المشروع الاميركي الجديد فيقضي بانزال قوات لا بأس بها في خريف عام ١٩٤٢ . وكنا نحن على استعداد لبحث اي مشروع من هذا القبيل خاصة اذا استهدف توزيع قوة المانيا ، فبذلك نكون قد خففنا الضغط الالماني الهائل على روسيا من جهة وقدمنا لها مساعدة عظيمة من جهة اخرى .

وبعد ان اجتمعت لجنتا الدفاع ، تم الاتفاق على عبور القناة في عملية اسميناها « عملية الطراد » وذلك في عام ١٩٤٣ . وقد رافق هذه الخطة اقتراحا قدمته ووافق عليه الجميع وهو القيام باحتلال قهري لافريقيا الشمالية ، ثم التوجه الى الغرب نحو طرابلس وتونس .

وبعد ان انتهى البحث كله عاد الوفد الى بلاده ليبلغ الرئيس روزفلت نتائج هذا المؤتمر .

وفي شهر ايار جاءنا زوار آخرون . فقد جاء مولوتوف ليبحث معنا في امكانية اقامة حلف انكليزي ـ روسي ، كذلك ليفهم وجهة نظرنا في مسألة فتح جبهة ثانية مع العدو . وقد تم التوصل الى تفاهم حول الحلف ، وجرى البحث في مسألة الجبهة الثانية .

وقد لاحظت مدى الشكوك المتأصلة في نفوس ضيوفنا الروس ، خاصة تجاه الاجانب . فقد طلبوا حال وصولهم مفاتيح جميع غرف النوم المخصصة لهم . وقد بحث رجالنا عن المفاتيح طويلا حتى عثروا عليها . وراح الضيوف يوصدون الابواب على انفسهم بصورة دائمة . وعندما كان

الخدام يدخلون الى هذه الغرف لتنظيفها ، كانوا يلاحظون المسدسات تحت وسائد الاسرة . وقد احضر اعضاء البعثة ضباط امن لحراستهم كما احضروا معهم امراتين روسيتين للعناية بملابسهم وتنظيف غرفهم .

***

اما في الصحراء البعيدة ، فقد كان الجنرال اوكنلك يشعر بالعجز عن الامساك بزمام المبادرة ، الا انه كان ينتظر بثقة وهدوء هجوم العدو . وكان الجنرال ريتشي ، قائد الجيش الثامن قد جهز مواقع دفاعية قوية ممتدة من الغزالة الى بئر هاشم تتألف من ابراج محصنة تحصينا قويا . وامام هذه الابراج تمتد خطوط طويلة من الالغام ، اما وراء هذه الخطوط فكان سلاحنا المدرع يقف في الاحتياط .

وقد بدأت جميع معارك الصحراء ما عدا معركة العلمين بعملية التفاف سريعة تقوم بها القوات المدرعة حول الاجنحة الصحراوية . اما رومل فقد بدأ بالهجوم ليلة ٢٦ — ٢٧ من آذار بجميع ما لديه من سلاح مدرع ، وكان يأمل بالاشتباك مع سلاحنا المدرع ويدمره ، ثم يحتل طبرق في اليوم التالي . لكنه لم ينجح في خطته هذه ، وارسل الينا الجنرال أوكنلك يوم العاشر من حزيران ، بعد قتال مخيف جرى بين الاثنين ، ارسل الينا بتقرير عن خسائر الجانبين . وقد كانت الارقام مرضية ، الا ان ما جاء في التقرير حول الرجال قد اذهلني . فقد جاء فيه ان الخسائر بالرجال كانت عشرة آلاف رجل بينهم ثمانية آلاف يظن انهم وقعوا في الاسر . فقد كان الفرق الهائل بين عدد القتلى وعدد الاسرى يظهر بوضوح ان شيئا هاما قد حدث ..

وفي الثالث عشر من حزيران بدأت معركة عنيفة للسيطرة على سلسلة الصخور الواقعة ما بين « العدم » و « جسر الفرسان » . وقد اسفرت هذه المعركة عن سيطرة العدو التامة على الميدان ، بعد ان تقلصت قواتنا الى حد كبير ، فاضطررنا الى التخلي عن « جسر الفرسان » ، الذي كان مركز المواصلات في تلك المنطقة .

وقد ظهر لي ان القائد العام اوكنلك يتعرض لضغط شديد وارتباك واضح نتيجة للمسؤوليات الجمة الملقاة على عاتقه . وكان ينظر الى المعركة ، التي يتوقف عليها كل شيء ضمن حدود عمله ، كجزء من مسؤولياته ليس الا . وكان هناك الخطر الآت من الشمال الذي وجد ان من الافضل الاهتمام به بشكل بارز ، مع اننا لم نكن ننظر اليه بهذا الشكل الهام .

وبناء على تقديراته ، فقد اتخذ قرارا يقضي بتسليم زمام الامور في المعركة الحاسمة الى الجنرال ريتشي ، وفي نفس الوقت جعله تحت الاشراف الدقيق المباشر ، مواصلا ارسال التعليمات اليه . والظاهر انه لم يقتنع الا بعد فوات الاوان بأن الواجب يقضي بأن يتولى هو شخصيا ادارة دفة المعركة .

***

وفي ليل العشرين من حزيران جاءت الانباء المحزنة ، فقد سقطت طبرق ، وساء الوضع بشكل كبير بحيث اصبح الاحتمال في حدوث غارات جوية عنيفة على الاسكندرية امرا مؤكدا .

لقد كانت هذه الضربة من اقسى الضربات التي مرت بنا منذ ابتدا الحرب . ولم يكن تأثيرها يقتصر على النتائج العسكرية فقط ، بل كان تأثيرها في سمعة الجيش البريطاني كله . ففي معركة سنغافورة وقع خمسة وثمانون ألف رجل في الاسر لعدد اقل منهم من اليابانيين . والآن في طبرق وقع خمسة وعشرون ألف رجل من خيرة رجالنا في قبضة عدد من الاعداء يبلغ عددهم نصف عدد رجالنا . فاذا كان هذا هو نموذج الروح المعنوية لدى جيش الصحراء ، فليس بالامكان بعد ذلك تقدير مدى الكوارث التي ستلحق بنا في شمالي افريقيا .

وما ان بلغت هذه الاخبار المؤسفة مسامع اصدقاءنا في اميركا ، حتى ارسلوا الينا على الفور ست بواخر محملة بثلاثمائة دبابة من نوع شيرمان ومائة مدفع من النوع الذي يدور تلقائيا ، وشحنت على الفور الى قناة السويس .

الجيش الثامن يتأهب

ادى سقوط طبرق ، دونما عناء طويل ، الى قلب خطط المحور باكملها . وقد كانت الخطة المرسومة حتى الآن تقضي بأن يتوقف رومل قرب الحدود المصرية ، بينما تقوم قوات تصل بالجو والبحر باحتلال مالطة . لكن رومل اقترح بعد ان سقطت طبرق ، بوجوب تحطيم ما تبقى من قوات بريطانية صغيرة قرب الحدود ، وبذلك يتمكن من فتح الطريق الى مصر . وقد ايدت اقتراحه هذا في استئناف المطاردة حتى مصر ، عدة عوامل منها طبعا معنويات رجاله العالية ، والكميات الهائلة التي غنموها اثناء معركة طبرق ، من ذخيرة وعتاد . وهكذا الح في الموافقة على مطلبه ، وارسل هتلر الى موسوليني على الفور رسالة يقول فيها :

« لقد شاءت الظروف ان تقدم لنا فرصة لن تتكرر مرة اخرى في مسرح الحرب ذاته ... فقد انهزم الجيش البريطاني الثامن وتحطم شر تحطيم . وما زالت التجهيزات في المرفأ في طبرق سليمة . وها قد اصبح لديك الآن ، يا دوتشي ، قاعدة اخرى ذات اهمية عظيمة ، فقد قام الانكليز بامداد خط حديدي يصل الى مصر . فاذا لم نسعى في هذه اللحظة لمطاردة الجيش البريطاني حتى آخر رجل يتبقى منه ، فسيتكرر ما حدث عندما حرم الانكليز من ثمار نصرهم الذي احرزوه ، فلم يصلوا الى طرابلس ، فتوقفوا وارسلوا بقواتهم الى اليونان ...

« ان آلهة الحرب تزور المحاربين مرة واحدة ، فاذا هم لم يمسكوا بها ، فلن يتمكنوا من ذلك مرة اخرى » .

ولم يكن موسوليني بحاجة الى من يقنعه . فقد اعجبته فكرة الاستيلاء على مصر ، وخول رومل باحتلال الممر الضيق الواقع بين العلمين ومنخفض القطارة ونظم رومل بسرعة قوات المطاردة ، وفي ٢٤ حزيران اجتاز الحدود الى مصر دون ان يجد اي مقاومة تذكر ، فقد كانت خطتنا تقضي بالانسحاب الى مرسى مطروح وقد غطت طائراتنا الباسلة انسحابنا هذا بشكل رائع . ولم يكن مركزنا هنا قويا . وكانت تنظيماتنا الدفاعية القوية قد اقيمت حول المدينة المذكورة نفسها ولكن الى الجنوب منها .

وجاء الى الجبهة الامامية في مرسى مطروح الجنرال اوكنلك ، وقرر ان ياخذ بنفسه قيادة العمليات العسكرية عوضا عن الجنرال ريتشي . وكان من واجبه ان يقوم بمثل هذه المبادرة منذ ان طلبت منه ذلك في الماضي . وبعد ان درس الموقف ، قرر انه لا يمكن الصمود كثيرا في مرسى مطروح ، وكانت في نفس الوقت ، الاستعدادات تجري بسرعة لتجهيز المواقع في منطقة العلمين التي تبعد ١٢٠ ميلا الى الوراء . وقد اتخذت

جميع الترتيبات التي تضمن وقف تقدم العدو في هذه النقطة ، كما عهد الى الفرق النيوزيلاندية التي وصلت من سوريا للقيام بعمليات حربية متفرقة في المنطقة الصخرية الواقعة بين العلمين ومرسي مطروح . واستطاع العدو في ليل السادس والعشرين من اختراق جبهة لواء المشاة الهندي التاسع والعشرين ، في منطقة كانت خالية من حقول الالغام ، حيث تقدم من هذه الثغرة في صباح اليوم التالي ، وقام بعملية تطويق حول مؤخرة القوات النيوزيلاندية التي اضحت مطوقة من جهاتها الثلاث . ونشب قتال عنيف استمر طوال النهار ، وقد اصيب قائد الفرقة الجنرال فريبرغ بجراح خطيرة ، وكان معاونه انجلز يتمتع بجراة متناهية فقرر اختراق الطوق المضروب حولهم ، وهكذا وبعد منتصف الليل تقدم اللواء النيوزيلاندي الرابع باتجاه الشرق وقد انتشرت افواجه ، وفتحوا نيرانهم الحامية وفوجيء الالمان بهذا الهجوم المباغت ونشبت معارك عنيفة بالسلاح الابيض كان النصر فيها حليف الفرقة النيوزيلاندية الباسلة ، وقامت بقية الفرقة بهجوم ضخم باتجاه الجنوب في دفعات دائرية ، وتمكنت من النجاة من الطوق المضروب حولها ، وعادت لتلتقي مع بقية الفرق في العلمين .

ومن ثم تمكنوا من انقاذ بقية الجيش الثامن ، وأعيد تنظيم جميع القوات ، وحاول الجنرال اوكنلك في هذه اللحظة استعادة المبادرة التكتيكية ، فقام بعدة هجمات موفقة على قوات رومل التي اصبحت منتشرة الى اقصى حد ممكن ، وقد بلغ بها الجهد حده ، ولم يكن قد بقي لديه سوى اثنتي عشرة دبابة صالحة للعمل ، بينما اخذ تفوق سلاح الطائرات البريطاني يبدو بشكل ظاهر ، فأبرق رومل الى القيادة العليا ، بأنه سيوقف الهجوم ويأخذ جانب الدفاع حتى يستطيع اعادة تنظيم قواته المشتتة . وكان حتى هذه اللحظة واثقا من قدرته على احتلال مصر ، وكان هتلر وموسوليني يشاطرانه هذا الرأي . وبالفعل اصدر هتلر اوامره بتأجيل الهجوم المقرر على مالطة حتى يتم احتلال مصر .

وضغطت هجمات اوكنلك الموفقة على قوات رومل ضغطا متزايدا الى حد انه بدأ يفكر بالانسحاب الى الحدود ، وقد أخذ يشكو من قلة الامدادات ومن افتقاره الى الرجال والدبابات والمدفعية ، ومن كثرة نشاط السلاح الجوي البريطاني . واستمرت المعارك حتى نهاية شهر تموز ، وصمد الجيش الثامن في وجه رومل وحافظ على مصر بكل امانة .

وفي هذه المرحلة ، التي كانت اضعف ما مر بي من مراحل سياسية وعسكرية ، طلبت الى الولايات المتحدة ان تقرر بشكل حازم قرارا كان من شأنه ان يسيطر على مجرى الحرب طوال العامين المقبلين . وكان هذا القرار هو التخلي عن جميع الخطط لاجتياز المانش في عام ١٩٤٢ واحتلال افريقيا الشمالية الفرنسية في الخريف المقبل وذلك بواسطة حملة بريطانية اميركية مشتركة .

زيارتي للقاهرة وموسكو

كانت التقارير التي تصلني من الخارج تشير الى وجوب سفري الى الشرق الاوسط لانهاء مسألة القيادة في الشرق الاوسط ، لكي اسوي هذه القضية بشكل حاسم . وكان من المقرر ان اتوجه اولا الى جبل طارق ثم تاكورادي واجتاز اواسط افريقيا الى القاهرة . وقد وصل في هذه الآونة الى لندن طيار اميركي شاب يدعى الكابتن فاندر كلوت ، الذي جاء بطائرته « الفدائي » من الولايات المتحدة . وكانت هذه الطائرة قادرة على اجتياز الرحلة المنوي القيام بها بسرعة كبيرة . وقد قال الكابتن فاندر كلوت انه يستطيع الطيران من جبل طارق الى القاهرة في رحلة واحدة تستغرق يومين فقط بدلا من الرحلة الاولى التي ستستغرق خمسة ايام . وهكذا تقرر اعتماد الطائرة المذكورة للقيام بهذه الرحلة ، فاستأذنت جلالة الملك الذي وافق على رحلتي هذه ، واستدعيت مجلس الوزراء وابلغتهم قراري هذا .

وكان اهم ما يشغلنا هو ان نعرف راي الحكومة السوفياتية في مسألة تغيير خطة عبور المانش في عام ١٩٤٢ وتأجيلها لما بعد هذا التاريخ ، فأرسلت اقتراحا الى ستالين بأن امضي الى زيارته في موسكو للبحث معه في هذا الشأن . وقد وصلني منه الرد في اليوم التالي ، بأنه مستعد للاجتماع بي في موسكو في الوقت الذي أحدده انا .

* * *

وفي القاهرة ، حيث اصبحت متابعا للاحداث عن كثب ، اصبح بامكاني دراسة وضع القيادة العامة بشكل اكثر واقعية . فقد لمست أن حراجة الوضع تتطلب تبديلات جوهرية في القيادة العامة ، كما تتطلب بعض التضحيات الهامة . وهكذا وبعد أن أجريت الكثير من الاستشارات مع كبار القادة والمستشارين ابرقت الى لندن بالبرقية التالية :

« .... لقد توصلت اخيرا الى قرار يقضي بوجوب اجراء تبديلات جذرية سريعة في القيادة العامة . لهذا اقترح ان تنقسم القيادة في منطقة الشرق الاوسط الحالية الى قسمين مستقلين هما :

أ ــ قيادة الشرق الادنى التي تشمل مصر وفلسطين وسوريا وتكون القاهرة مقرهما .

ب ـ قيادة الشرق الاوسط التي تشمل ايران والعراق على ان يكون مركزهما البصرة او بغداد .

« وتضم القيادة الاولى الجيشين الثامن والتاسع ، وتضم القيادة الثانية الجيش العاشر .

« يعرض على الجنرال اوكنلك القيادة العامة في الشرق الاوسط ، ويتولى الجنرال الكساندر القيادة في الشرق الادنى .

« ويتولى بدلا من الجنرال الكساندر قيادة عملية « المشعل » الجنرال مونتغمري الذي يتمتع بكفاءات عظيمة تخوله تلك القيادة الهامة .

« اخيرا يتولى الجنرال غوت قيادة الجيش الثامن تحت امرة الكساندر .

« ان هذه الاقتراحات تشكل تبديلات جوهرية تفرضها حراجة الوضع واهميته الشديدة . وقد وافقني الجميع على هذه المقترحات ، لذلك اكون ممتنا لزملائي الوزراء اذا وافقوني على هذه المقترحات . ولا ريب في ان هذه التبديلات ستخلق في نفوس الجيش حافزا جديدا ، ومن ثم تعيد اليه الثقة بقيادته ، هذه الثقة التي باستطاعتي القول بكل اسف انها اصبحت مفقودة في الوضع الحاضر . ولا اعتقد ان وزارة الحرب ستخفق في فهم ما يعنيه الانتصار على رومل في الصحراء وما سيتركه هذا الانتصار من اثر على موقف الفرنسيين في شمال افريقيا ، عندما نباشر في عملية « المشعل » .

ووافقت وزارة الحرب على اقتراحاتي كلها ، الا انها لم توافق على لقب الجنرال اوكنلك كقائد عام بينما هو يتولى القيادة في ايران والعراق ، مما يخلق بعض الارتباك . وقد وافقت على ما ارتأته الوزارة واخذت بنصيحتها .

ولكن شاءت الاقدار ان تبدل بعض الخطط التي اعددتها ، فقد قتل الجنرال غوت اثناء سفره الى القاهرة بعد ان اسقط الاعداء طائرته . فاضطررت على الفور الى تعيين الجنرال مونتغمري في قيادة الجيش الثامن بدلا منه ، وهو القادر على مقارعة رومل في الصحراء .

* * *

وفي تمام الساعة العاشرة من مساء العاشر من شهر آب تناولنا العشاء في دار السفارة في القاهرة . وفي صبيحة اليوم التالي بدانا رحلتنا التالية الى موسكو . وقد رافقني في هذه الرحلة رئيس الاركان والجنرال ويفل الذي كان ملما باللغة الروسية ومارشال الجوتيدر، والسير الكساندر كادوغان وسافر معنا افريل هاريمان الذي وصل من اميركا بناء لطلب مني سبق ووجهته الى الرئيس . وهكذا سافرنا جميعا في طائرة واحدة . وكانت اولى محطاتنا طهران . وقد دعاني جلالة الشاه الى الغداء الخاص في قصره الفخم . وفي اليوم التالي غادرنا طهران متجهين الى موسكو . وما ان وصلناها حتى وجدنا على المطار موكبا رسميا باستقبالنا يراسه

مولوتوف ومجموعة من الجنرالات الروس ورجال السلك الدبلوماسي . وكان هناك عدد من المصورين والصحفيين . وكان حراس الشرف على اشد ما يكونون من الاناقة والابهة ، ومضينا بعد ان عزفت اناشيد الدول الثلاث الكبرى التي ستقرر نهاية هتلر . ثم القيت كلمة قصيرة ، كما تحدث افريل هاريمان ممثلا الولايات المتحدة . وبعد ذلك اقلني مولوتوف بسيارته الى المكان المعد لاقامتي والذي يبعد ثمانية اميال عن موسكو . اما هاريمان فقد قرر ان يقيم في دار السفارة الاميركية . وبينما كنت في السيارة انزلت زجاج النافذة لاستنشق بعض الهواء ، وكم ادهشني سمك الزجاج الذي يزيد عن البوصتين . وقد لاحظ المترجم شدة دهشتي فقال لي « ان الوزير يقول بأن هذا اكثر تحفظا وحكمة .... » .

* * *

وقد وضع تحت تصرفي ضابط شاب ، مهيب الطلعة جميل الشكل ، واعتقد انه ينحدر من سلالة الاسر النبيلة في عهد القياصرة ، فقد كان مثالا للدماثة والتهذيب وحسن العناية . كما كان الخدم ماهرون جدا في ملابسهم البيضاء وابتساماتهم المشرقة ، وهم بانتظار اي اشارة تصدر مني ليلبوا جميع ما اطلبه . ومدت طاولة الطعام الكبيرة ، وعليها جميع ما تشتهيه النفس . ثم قادوني الى غرفة نوم تضم حماما واسعا سحرني بنظافته وروعته ، وتقت الى حمام ساخن بعد عناء الرحلة الشاقة ، وسرعان ما تجهز كل شيء لي علي الفور . وبعد ان اخذت حماما دافئا ، ارتديت ملابسي ونزلت الى غرفة الطعام وانضممت الى الرفاق وتناولنا طعاما يفوق ما يمكن لاجهزتنا الهضمية استيعابه . ولم يعد امامنا الا وقت قصير للانتقال الى موسكو . وكنت قد اخبرت مولوتوف بأني مستعد لمقابلة ستالين في هذه الليلة ، واقترح انه يكون الاجتماع في الساعة السابعة .

ووصلت الى الكرملين ، واجتمعت لاول مرة مع الزعيم الثوري الكبير ، والسياسي المحنك . وقد استغرق هذا الاجتماع اربع ساعات كاملة . وقد كانت الساعتان الاوليان مليئتين بالفتور والجفاف . وقد بدأت على الفور بالتحدث عن الجبهة الثانية ، وقد اكدت برغبتي في الحديث بكل صراحة ، وطلبت ان يبادلني ستالين نفس الصراحة . وما كنت لاحضر الى هنا لولا شعوري بأنه سيتمكن من البحث في الامور بواقعية . فعندما جاء مولوتوف الى لندن كنت قد اخبرته باننا نبذل محاولة لتحويل الضغط الالماني الى فرنسا . وقد افهمته اني لا استطيع ان اعده بشيء في عام ١٩٤٢ ، وقد اعطيته رسالة خاصة بهذا الموضوع . وقد جرت دراسات عديدة مع اميركا لهذه المشكلة ووصلنا الى الاستنتاج باننا غير قادرين على القيام بأي عملية رئيسية في شهر ايلول ، وهو الشهر الاخير الذي يمكن الاعتماد على طقسه للقيام بعملية من هذا النوع . ولكن الدولتين ، كما يعرف ستالين تمام المعرفة ، تستعدان للقيام بعملية ضخمة في عام ١٩٤٣ . لذلك فمن المنتظر ان يصل الى انكلترا في ربيع عام ١٩٤٣ حوالي مليون جندي اميركي ليؤلفوا حملة ضخمة تضم ٢٧ فرقة اميركية و ٢١ فرقة بريطانية . وسيكون نصف هذه الحملة تقريبا مجهزا بالسلاح

المدرع . ولم يصل لغاية الآن سوى فرقتان ونصف ، ومن المنتظر وصول البقية خلال اشهر تشرين وكانون .

وقد قلت له ان هذه الخطة لن تحقق لروسيا اي مساعدة خلال عام ١٩٤٢ ، ولكن عندما ينتهي الاعداد لهذه الخطة خلال عام ١٩٤٣ فسيكون للعدو جيشا اضخم واقوى في الغرب مما لديهم الآن . وما ان وصلت الى هذا الحد من الحديث حتى بان العبوس على وجه ستالين ، ولكنه لم يقاطعني . وقلت له ان هناك اسبابا تمنعنا من القيام بهجوم على الساحل الفرنسي في عام ١٩٤٢ . اذ انه ليس لدينا في الوقت الحاضر وسائل ومعدات خاصة للانزال والهجوم على ساحل محصن ، والموجود الآن لا يكفي لاكثر من ست فرق لا غير . واذا نجح الهجوم ، فسيكون بامكاننا ارسال فرقا اخرى ، ولكن حاجتنا الى وسائل الانزال ، هو السبب الوحيد الذي يحدد تحركاتنا ، وهذه الحاجة هي التي تدعونا الآن للاكثار من اعداد لوازم الانزال في بريطانيا والولايات المتحدة . وفي استطاعتنا ان ننقل في العام القادم ثماني فرق او عشرة مقابل فرقة واحدة ننقلها الآن .

وبدا لي ستالين بوجهه العابس وكأنه غير مقتنع بجميع ما قلته له ، ثم سألني هل من المستحيل مهاجمة اي جزء من الساحل الفرنسي ؟ فعرضت عليه خريطة تبين له مدى الصعوبات التي نواجهها اذا اردنا اقامة غطاء جوي فوق قوات الغزو الا فوق مضائق دوفر . ولاحظت كذلك انه لم يفهم ، ثم وجه بضعة اسئلة اخرى عن امكانية الطائرات المحاربة ، وهل لا تستطيع تلك الطائرات ان تذهب وتعود طوال الوقت ؟ واوضحت له انها اذا بامكانها ذلك فهي لن تتمكن بهذا المدى ان تقاتل ، واضفت انه من المفروض ان يبقى الغطاء الجوي موجودا بصورة مستديمة لكي ينجح . ثم قال انه ليس هناك في فرنسا اي فرق المانية ذات قوة ، ولكني اكدت له بصورة قاطعة ان في فرنسا الآن خمسة وعشرين فرقة المانية من بينها تسع فرق من النوع الممتاز . ولكن ستالين هز رأسه مشككا . عند ذلك قلت له انني احضرت معي الجنرال ويفل ورئيس الاركان ليبحثوا مثل هذه الامور مع اركان الحرب الروس ، اذ ان هناك حدا يقف عنده الساسة ، ومن ثم يتركوه للرجال العسكريين .

واجاب ستالين ، الذي بدا عابسا اكثر ، انه قد فهم اننا عاجزون عن خلق جبهة ثانية بقوات كبيرة ، واننا لسنا على استعداد حتى لانزال ست فرق . فأكدت له ما فهمه . فقد كان باستطاعتنا انزال ست فرق ولكن انزالها لن يفيدنا بل على العكس فالضرر من انزالها سيكون اكبر من الفائدة ، اذ ان هذا سيؤثر تأثيرا مباشرا على العملية الكبيرة التي نعد للقيام بها في العام القادم . فالحرب ليست عمليات جنونية ، ومن الجنون ان يقذف المرء بنفسه في كارثة لا نتيجة من وراءها او نفع . ثم قلت له انني اخشى ان تكون هذه الكلمات قد خيبت آماله ، فاذا كانت مسألة ارسال ١٥٠ الى ٢٠٠ الف جندي ستساعده باجتذاب القوات الالمانية من الجبهة الروسية ، فاننا لن نتوانى لحظة واحدة عن القيام بهذه الخطوة مهما كلفتنا من خسائر ، اما اذا كانت هذه الخطوة لن تؤدي الى اي اجتذاب للقوات الالمانية فمن الخطأ ان نحاول التفكير فيها .

وقال ستالين ، الذي بان القلق عليه ، ان نظرته الى الحرب تختلف تماما عن نظرتنا . فالرجل الذي لا يغامر لا يستطيع ان يربح الحرب . فلماذا هذا الرعب من الالمان ؟ انه لا يفهم له اي سبب . وقد علمته التجارب ان الجيوش يجب ان تدمى في الحروب ، فاذا لم تتعرض تلك الجيوش للدماء ، فلن نتمكن من معرفة قيمتها . وقد سألته بعد ذلك هل تساءل لماذا لم يقم هتلر بغزو انكلترا عام ١٩٤٠ حين كان في اوج قوته ، بينما لم يكن لدينا سوى عشرين الف جندي مدرب ومائتي مدفع وخمسين دبابة . الا انه لم يغامر بالهجوم ، لان هتلر كان يخشى هذه العملية فليس من السهل اجتياز قناة المانش . ورد ستالين بقوله ان ما قلته لا يعتبر مثلا يشبه به . اذ أن نزول القوات الالمانية ستقابله مقاومة من الشعب البريطاني ، اما في فرنسا فسيقابل نزول الانكليز فيها باذرع مفتوحه من الشعب الفرنسي . وهنا قلت له ان ما يقوله يؤيد فكرة عدم المغامرة بالغزو ، اذ أنه لو فشلت العملية واضطررنا للانسحاب ، فهذا يعني تعريض الشعب الفرنسي كله لبطش هتلر وانتقامه .

وابتسم ستالين ابتسامة مصطنعة وقال اننا اذا كنا في الوقت الحاضر عاجزين عن القيام بهذه العملية في فرنسا ، فليس من حقه ان يطالب بها او يلح عليها ، ولكنه يعتقد ان من واجبه القول بأنه لا يوافقني على آرائي .

* * *

وقدمت له خريطة جنوب شرقي اوروبا والبحر الابيض المتوسط وشمال افريقيا ، وسألته ما هي الجبهة الثانية ؟ هل هي مسألة انزال على الساحل المقابل لانكلترا ؟ وهل لا يمكن ان تتطور الى عملية اضخم قد تصبح اكثر نفعا للقضية المشتركة ؟ ووجدت انه من الافضل لو تقدمت به نحو الجنوب في بضع خطوات . وقلت اننا لو تمكنا مثلا ، من ايقاف تقدم العدو في خليج كاليه ، حين نحشد قوات بريطانية ضخمة هناك واستطعنا في نفس الوقت من الهجوم مثلا في اللوار او الجيروند او الشلدت ، فان هذا سيكون محتملا جدا . فهناك بالطبع صورة شاملة للعملية الضخمة في العام المقبل . وقال لي ستالين ان لا تكون هذه الخطة عملية ، واجبته بان من الصعب جدا انزال مليون جندي مع معداتهم ، ولكن علينا ان نحاول وان ننجح في محاولتنا .

ثم انتقلنا بعد ذلك الى مسألة الاغارة على المانيا ، وقد اتفقنا تماما حول كل ما دار في هذا الشأن . واكد ستالين ضرورة تحطيم معنويات الشعب الالماني ، وقال انه يعقد آمالا كبيرة على عمليات الاغارة الجوية لانها تترك اكبر الاثر في المانيا .

وبعد هذه الاحاديث التي خففت من حدة غضبه وتوتره قال ستالين انه يفهم من كل حديثنا اننا في الوقت الحاضر لن ننفذ اي عملية من العمليات التي سبق وخططنا لها في الماضي سوى الاستمرار في الاغارة على المانيا وقصفها من الجو . وقررت عندئذ ان اذيقه اولا الطعم المر ، ثم امهد له الجو المناسب للمشروع الذي اتيت لعرضه عليه . ولذلك لم

احاول ان اخفف من حدة غضبه وقلت انه من الضرورة بمكان ان يخيم على الجو طابع الصراحة خاصة بين الاصدقاء الذين يشتركون في نفس المخاطر .

***

وجاء الوقت لاعرض على ستالين مشروع عملية المشعل فقلت اني سأعود بالحديث مرة اخرى الى موضوع الجبهة الثانية في عام ١٩٤٢ ، وهو الموضوع الذي اتيت الى موسكو لابحثه معك بالذات . فانا لا اظن ان فرنسا هي المكان الوحيد الصالح لهذه العملية او هذه الجبهة . فهناك اماكن اخرى ، وقد قررنا نحن الاميركيون خطة اخرى فوضني الرئيس الاميركي بأن ابوح بها اليك شخصيا طالبا ان تبقى سرا من الاسرار الضخمة . وهنا قطب ستالين حاجبيه وقال انه يأمل ايضا ان لا تذكر الصحف البريطانية شيئا عن هذه الخطة .

وبدات بحث موضوع عملية « المشعل » . وقد وجدت ان ستالين قد بدا مهتما بحديثي . وكان اول سؤال ساله هو عما سيحدث في اسبانيا وفي فرنسا ، وقال بأن العملية تبدو صحيحة من الناحية العسكرية ، ولكنه يشك بتأثيرها السياسي على فرنسا ، ثم سأل عن الموعد المحدد لتنفيذ هذه العملية ، فاجبته انه لن يتأخر عن آخر تشرين الاول .

ثم رحت اشرح له بعض المزايا العسكرية المترتبة على تحرير البحر الابيض المتوسط ، حيث نستطيع فتح جبهة اضافية فيه . وقلت له ان علينا ان نكسب المعركة في مصر خلال شهر ايلول ، وفي شمال افريقيا خلال شهر تشرين الاول ، مع الحد من توسع العدو في فرنسا . فاذا استطعنا احتلال شمال افريقيا كلها في نهاية العام ، كان باستطاعتنا تهديد اوروبا الهتلرية وستصبح هذه العملية موافقة لعملية عام ١٩٤٣ .

ولكي اوضح له النقطة التي تطرقت اليها رسمت له صورة تمساح ثم شرحت له مشيرا الى الصورة ، عزمنا على ضرب التمساح في بطنه الناعم ، وفي نفس الوقت نجدع له انفه الصلب . وكان ستالين على اشد ما يكون من الاهتمام ، وما لبث ان تمنى لنا النجاح في مشروعنا هذا .

وقد اكدت له تصميمنا على تخفيف الاعباء عن كاهل روسيا ، فاذا ما حاولنا ذلك في شمال فرنسا فسنصاب بنكسة شديدة ، اما اذا حاولنا هذه العملية في شمال افريقيا فلدينا هناك فرصة اكبر للنجاح ، ثم يمكننا بعد ذلك ان نساعد اوروبا كلها . واذا ظفرنا في معركة شمال افريقيا فسيضطر هتلر الى استعادة قواته الجوية ، والا فسندمر له جميع حلفاءه وعلى رأسهم حليفته ايطاليا ، وننزل في بلادها . ولا شك ان هذه العملية ستترك اثرا كبيرا في تركيا وفي الاجزاء الجنوبية من اوروبا ، وكل ما اخافه هو ان نضطر الى الاستعجال في هذا المشروع . واذا ظفرنا بشمال افريقيا خلال هذا العام كان باستطاعتنا مهاجمة هتلر بعنف في العام المقبل . وكان هذا الموضوع بداية التحول في مجرى حديثنا .

وراح ستالين يقول ما اسماه بالمصاعب السياسية . ففي فرنسا سيسساء فهم الاستيلاء على اماكن عملية « المشعل » من قبل اميركا وبريطانيا ثم ماذا سنعمل بديغول ؟ فقلت له اننا لن نطلب من ديغول شيئا في هذه المرحلة . ومن المنتظر ان يحارب فرنسيو فيشي الديغوليين بدلا من الاميركيين .

وتبين لي ان ستالين ادرك اخيرا المنافع الاستراتيجية من عملية « المشعل » وما لبث ان اضاف بعض الاسباب التي تدعو الى القيام بهذه العملية ، فهي ستصيب رومل في مؤخرته ، وستخيف اسبانيا ، وستحرض على القتال بين الفرنسيين والالمان في فرنسا ، كذلك ستعرض ايطاليا وتكشفها لوطأة الحرب وعنفها .

وقلت انا مضيفا سببا آخرا هو تقصير الطريق البحري عبر البحر الابيض المتوسط . وكان ما يشغل بال ستالين ان يعرف ما اذا كنا نستطيع ان نعبر جبل طارق ، فقلت لـه ان كل شيء سيسير حسب الخطة المرسومة . ثم اخبرته عن التغييرات التي اجريتها في مصر واكدت له عزمنا على خوض معركة هائلة . ثم قلت اننا نريد ان نعيد الحيوية والنشاط في فرنسا بعد ان هوت الى الحضيض . وقد علمت فرنسا ما حدث في مدغشقر وسوريا . ولا شك في ان وصول الاميركيين سيؤدي الى وقوف الشعب الفرنسي كله الى جانب الحلفاء . كما ان فرانكو سيشعر بالخوف ، وربما طلب الالمان من الفرنسيين اعطاءهم الاسطول الفرنسي وطولون ، وهذا سيؤدي حتما الى اثارة العداوة بين فيشي وهتلر .

وهنا تحدثت عن امكانية وضع سلاح جوي بريطاني اميركي مشترك ضمن الجناح الجنوبي للجيوش الروسية ، وذلك لمساعدته في الدفاع عن بحر قزوين والقفقاس ، وللمشاركة في القتال بشكل عام هناك . وبدا ستالين ممتنا جدا لهذه الفكرة ، وقد صرح بذلك .

وقد استغرق هذا الاجتماع حتى هذه اللحظة اربع ساعات متتالية . وعندما غادرت الكرملين في طريقي الى المنزل المخصص لسكني امليت برقية الى وزارة الحرب واخرى الى الرئيس روزفلت ، ثم وصلت الى البيت وانا اشعر ان جبلا من الجليد قد تحطم ، وان مشاركة انسانية قد بدأت .

موسكو وعلاقات الصداقة

نهضت في صباح اليوم التالي ، في جناحي الفخم ، وكان اليوم الخميس ١٣ آب ، وهو « يوم بلنهايم » بالنسبة لي . وكنت قد جهزت نفسي للقيام بزيارة لمولوتوف في الكرملين ، لكي اشرح له بطريقة اكثر وضوحا وبتفاصيل اوسع نوعية العمليات الحربية التي نفكر بالقيام بها . واشرت له بطريقة مفصلة ما تنطوي عليه عملية « المشعل » من مكاسب ومعان سياسية . وكان منتبها الي اشد الانتباه ، وقد اقترحت عليه ان اقابل ستالين مرة اخرى في تمام العاشرة مساء . ولكن في ساعة متأخرة من الليل تلقيت اشارة عن تمديد الموعد الى الحادية عشرة ، كما طلب مني ان احضر هاريمان معي باعتبار الحديث سيتناول المواضيع نفسها التي تعرضنا اليها بالامس . وقد وافقت على طلبه وقلت له بأني سأحضر معي ايضا كادوغان وبروك وويفل وتيدر .

وقبل ان اغادر مكتب هذا الرجل الدبلوماسي القاسي والدمث في نفس الوقت ، نظرت اليه وقلت له : « لا شك ان ستالين سيرتكب خطأ عظيما اذا استمر في معاملتنا بهذه الخشونة ، خاصة بعد ان تجشمنا عناء السفر الطويل وقطعنا مسافة هائلة لكي نقابله ونجتمع به » . واجابني مولوتوف بقوله : « ان ستالين رجل حكيم جدا . وتأكد ، انه مهما زادت حدة نقاشه ، فانه يفهم كل شيء. ولكن على اي حال سأخبره ما قلت لي» .

ورجعت الى المنزل في الوقت المناسب لتناول الغذاء ، وكان الجو في الخارج رائعا جدا . وكان اشبه بالطقس الذي نحبه كثيرا في انكلترا . واعتقدت ان الفرصة مواتية لكي نستكشف تلك المنطقة . فالدار الذي كنت اقطنها ، عبارة عن بيت ريفي جميل واسع حديث التصميم يقع في سهول واسعة وجنائن كبيرة من شجر الشربين،مساحتها حوالي ٢٠ دونما. وتضم هذه الغابة الجميلة ممرات رائعة ، وكان من الجميل ان يستلقي المرء في طقس آب الجميل على تلك الحشائش او على اوراق الصنوبر المتساقطة . وفي الحديقة الكثير من الينابيع ، بالاضافة الى البرك التي تضم عددا من الاسماك الملونة المختلفة الانواع ، وكان بعضها اليفا لدرجة انه كان يأتي ليتناول فتات الخبز من ايدينا . . . .

* * *

وفي الساعة الحادية عشرة مساء ، سارعنا الى الكرملين ، حيث وجدنا ان ستالين ومولوتوف كانا باستقبالنا وحدهما ، ومعهما مترجمهما الخاص وبدانا على الفور مناقشة لم تكن ممتعة على الاطلاق . وقد قلت

له ان عليه ان يفهم باننا قد قررنا الخطة التي شرحتها له والتي سننفذها تماما ، لذلك فاللوم لا فائدة منه . واحتدم النقاش فيما بيننا وطال لمدة ساعتين ، وقد صدرت عنه بضعة كلمات غير مناسبة ، كقوله اننا نخاف من مقارعة الالمان ومقاتلتهم ، واننا لو جربنا حربهم كما جربها الروس لظهر لنا انه لا مبرر لخوفنا منهم . او كقوله باننا نقضنا عهدنا بما يتعلق باحدى العمليات السابقة التي خططنا لها ، كما اننا اخفقنا في ايصال المؤن اليهم والتي وعدناهم بها ، واننا لم نرسل لهم سوى الفضلات التي لا لزوم لها ، بعد ان اخذنا ما كنا نحتاجه منها . وكان من الواضح ان اتهاماته كانت موجهة الى الولايات المتحدة بقدر ما كانت موجهة الى بريطانيا .

وقد رفضت جميع ما الصق بنا من تهم ، وان كنت لم استعمل الفاظا مسيئة او مثيرة . وافترض انه لم يكن قد اعتاد من الآخرين ان يكذبوه او يعارضوه بهذا الشكل الذي كذبته به ، لكنه لم يغضب ابدا . وعاد وكرر نظريته في انه بامكاننا ارسال ست فرق او ثماني فرق في شبه جزيرة شربورج ، طالما ان زمام المبادرة الجوية كان في يدنا . وقال انه يشعر لو ان الجيش البريطاني قد حارب الالمان مثل ما حاربهم الروس ، لما شعر بأي خوف منهم . وقد اظهر الروس وسلاح الطيران الانكليزي ان في الامكان التغلب على الالمان ، وفي امكان المشاة البريطانيين ان يبرهنوا ايضا ذلك اذا ما سنحت لهم فرصة محاربة الالمان .

وقاطعته قائلا اني اتساهل بالملاحظات التي نوه عنها اعترافا مني بشجاعة الروس ، ولكن طلب النزول في شربورج ، يتجاهل وجود المانش . واخيرا قال ستالين انه لا يمكننا الاستمرار في النقاش ، وان عليه ان يتقبل ما قررناه . وفجأة دعانا الى العشاء في اليوم التالي في الساعة الثامنة مساء .

ولم ارفض دعوته ، ولكني اخبرته اني مسافر في صباح اليوم التالي اي في الخامس عشر من شهر آب . وظهر لي انه انزعج من سفري المفاجيء وسألني اذا كان بامكاني البقاء لمدة اطول ، فاجبته أنه باستطاعتي البقاء مدة اطول اذا كان هناك من جدوى لبقائي ، ووافقت على كل حال بأن ابقى لمدة يوم آخر . وذكرت له بأني لا اشعر في موقفه بروح الزمالة وقد قطعت كل هذه المسافة الطويلة لكي اقيم معه علاقات متينة . وقد بذلنا كل ما في وسعنا لكي نساعد روسيا ، وسنستمر في ذلك بالتأكيد . وكنا قد تركنا منفردين لنواجه ايطاليا والمانيا لمدة سنة كاملة . اما الآن ، وبعد ان تحالفت دولنا العظمى الثلاث ، فقد اصبحنا ضامنين النصر بكل تأكيد ، ولكن على شرط ان لا نتفرق او نضعف تجاه الظروف . وقد بلغ بي الحماس الى حد كبير وانا اقول ذلك ، لدرجة ان ستالين قبل ان يسمع ما قاله المترجم ، اجاب انه قد اعجب تماما بنغمة حديثي . ومنذ هذه اللحظة بدا الجو اقل توترا .

ومضى يقص علي ويسهب في الكلام عن مدافع روسية للخنادق : تطلق الصواريخ ، فأكد لي مدى تأثيرها المدمر ، وعرض ان يطلع عليها خبراؤنا العسكريون اذا هم رغبوا في الانتظار ، واكد لي انه سيزودنا بجميع المعلومات المتعلقة بها ، ثم اضاف انه يتوقع ان يحصل على شيء

مقابل ذلك . وقال وهل لن نعقد اتفاقا لتبادل المعلومات التي تتعلق بالمخترعات الحديثة ؟ فأجبته عن استعدادنا لتزويده بكل شيء دون مقابل او دون مساومة ما عدا تلك الاختراعات التي اذا حملتها الطائرات فوق خطوط الاعداء ثم اسقطت ، ادى ذلك الى ان يحصل العدو عليها فيجعل من ضربنا لالمانيا مسألة صعبة جدا ، وقد وافق ستالين على ذلك بالحال . كما وافق على وجوب اجتماع خبراؤه العسكريون مع خبرائنا ، وذلك بعد الظهر في الساعة الثالثة . وقلت له انهم سيحتاجون الى مدة اربع ساعات على الاقل لبحث مختلف المواضيع العسكرية .

واخيرا عدت وسألته عن القفقاس ، وهل اعتمد الدفاع عن هذه السلسلة الضخمة من الجبال ، وما هي الفرق التي اعدها للدفاع عنها ؟ وعلى الفور طلب نموذجا لتلك الجبال ، ثم اوضح لي بصراحة ومعرفة ظاهرة شدة تحصين هذه الجبال وضآلتها الطبيعية ، واضاف ان خمسا وعشرين فرقة كافية للدفاع عن تلك السلسلة من الجبال ، وهي موجودة الآن هناك . ثم ذكر ان جميع الممرات الجبلية ستكون تحت اشرافه وحمايته العسكرية ؟ واضاف انها جميعا محصنة تماما . وقال ان الاعداء لم يصلوا بعد الى الخط الروسي الاول الواقع الى الشمال من سلسلة الجبال المذكورة . وذكر ان مدة شهرين من الدفاع تكفي ثم لا تلبث الثلوج ان تكسو تلك الجبال ، فيصبح امر اجتيازها شيئا مستحيلا . واكد عن مقدرته على الصمود ، ثم تحدث عن قوة الاسطول الذي احتشد في باطوم للدفاع عن البحر الاسود .

وكان الحديث ممتعا وسهلا في مختلف المواضيع التي تطرأنا اليها ، وعندما سأله هاريمان عن المشاريع المعدة لنقل الطائرات عبر سوريا ، الامر الذي لم يقبل به الروس الا بعد الحاح كثير من الولايات المتحدة ، قال ستالين بصراحة « ان الحروب لا تربح بالمشاريع » .

واخيرا استأذنا بالانصراف ، فادى ستالين التحية ثم مد يده الي وهو يغادر القاعة ، فامسكتها وضغطت عليها .

* * *

وارسلت بالبرقية التالية الى وزارة الحرب :

« تساءلنا جميعا عن هذا التحول عن الاساس الطيب الذي توصلنا اليه في الليلة الماضية . واظن ان من الارجح ان يكون مجلس المفوضية « اي مجلس وزرائه » لم يرض بتلك الانباء التي حملتها بنفس الروح الطيبة التي تقبلها هو . وقد يكون لهؤلاء المفوضين سلطة اكبر مما نعتقد وان تكون معرفتهم اقل من معرفته . ومن المحتمل ايضا ان يكون قد اراد ان يسجل اقواله لاهداف مقبلة ولنفعه هذه الاهداف ، او ربما يكون قد صرح بهذه الانفعالات لمصلحته الشخصية ويقول كادوغان انه وقف موقفا متصلبا مماثلا بعد ابتداء مقابلته مع المستر ايدن في عيد الميلاد ، اما هاريمان فيؤكد ان هذه الطريقة قد اتبعها ايضا في بداية بعثة بيفربروك .

« واني لارى رأيا مدروسا بان ستالين في قرارة نفسه مقتنع تماما باننا على حق ، وانا واثق من سلامة تفكيره وسرعة بته للامور العسكرية ، مما يجعله يؤيد تأييدا تاما عملية المشعل . ولا اظن ان من المستحيل عليه ان يحاول اصلاح موقفه . وبناء لهذا الامل فانا لا ازال صامدا . على كل حال ، انا متأكد من ان الطريقة التي اتبعتها هي الطريقة المناسبة . ولم يخامرني الريب في اي وقت من انهم قد لا يمضون في القتال ، فأنا على ثقة تامة من ان ستالين مؤمن تمام الايمان بانه سينتصر . . . » .

وحضرنا في تلك الليلة حفلة رسمية في الكرملين ، حضرها حوالي اربعون شخصا ، بينهم عدد من القادة العسكريين واعضاء مكتب الحزب السياسي ، وبعض كبار الموظفين . وقام ستالين ومولوتوف بدور المضيف بطريقة ودية جدا . وهذه الحفلات تكون طويلة عادة ، حيث تتبادل فيها الانخاب والخطب القصيرة . وقد سمعت قصصا سخيفة عن تحول الحفلات السوفياتية الى حفلات للسكر والعربدة . ولا شك ان هذه الروايات كاذبة تماما . فالماريشال وزملائه كانوا يشربون من اقداح صغيرة ولا يأخذون منها كل مرة الا رشفة صغيرة .

وقد تحدث معي ستالين اثناء الحفل بطريقة كلها حيوية ، وقال « قبل عدة سنوات عندما زارنا المستر لويد جورج والليدي استور ، وقد اقترحت الليدي استور ان ندعو المستر جورج لزيارة موسكو ، وقد اجبتها لماذا ندعوه ؟ لقد تزعم حركة التدخل ضد الاتحاد السوفياتي . فقالت الليدي : كلا ان هذا غير صحيح ، فان تشرشل هو الذي ضلله . فقلت : ولكن على كل حال فهو رئيس الحكومة ، وكان ينتمي الى حزب اليسار ، اذن فهو المسؤول ونحن نفضل العدو الصريح على الصديق المدع المزيف . فقالت الليدي استور ، ان تشرشل قد انتهى على كل حال ، فاجبتها باني لست واثقا من هذا ، فاذا حدثت ازمة كبرى ، فسيلتفت الشعب البريطاني كله الى حصان الحرب العجوز » . وهنا قاطعته بقولي « ان ما قلته هو حق . فقد كنت نشيطا جدا في مسألة التدخل ، ولا اريد منك ان تظن العكس » . فابتسم ستالين ابتسامة خفيفة ثم عدت وسألته « وهل سامحتني » ؟ فرد قائلا : « ان هذه الامور اصبحت في الماضي البعيد ، والماضي شيء يتعلق بالله » .

وقلت له في حديث آخر : لقد قال لي اللورد بيفر بروك انك اثناء بعثته لموسكو عام ١٩٤١ سألته : ماذا قصد تشرشل في البرلمان عندما قال انه وجه تحذيرات عديدة لي عن الغزو الالماني المنتظر ؟ وبالطبع كنت اشير الى البرقية التي ارسلتها اليك في نيسان عام ١٩٤١ ، وهنا اخرجت نسخة البرقية وقراها له المترجم ، ثم قال : « اني اذكرها تماما ، ولم اكن بحاجة الى من يحذرني ، فقد كنت متأكدا بان الحرب ستقع ، ولكن اعتقدت ان باستطاعتي كسب ستة اشهر اخرى لاواصل استعداداتي العسكرية » . ولم اسأله حرصا على علاقتنا المشتركة ، ماذا كان يحدث لو اصابنا الانهيار في الوقت الذي كان يقدم هو لهتلر مثل هذا الوقت الثمين ؟

* * *

وقررنا ان نسافر صباح السادس عشر من آب . ومضيت في الساعة السابعة من الليلة التي سبقت السفر لوداع ستالين . ودار بيننا حديث ها م ونافع . وسألته بصورة خاصة ، عما اذا كان قادرا على الحفاظ على ممرات القفقاس الجبلية ، والحيلولة دون تقدم الالمان الى بحر قزوين والاستيلاء على حقول النفط في باكو ، وكل ما يعنيه هذا الاحتلال ثم الزحف نحو الجنوب الى تركيا او ايران . فنشر خريطته امامي ، وقال بثقة مطلقة : « سنوقف زحفهم . ولن يعبروا الجبال » ، ثم اضاف : « هناك شائعات عن ان الاتراك سيهاجموننا في تركستان . فاذا فعلوا فانا قادر على معالجة امرهم ايضا » . وقلت له أن لا خطر هناك من مثل هذا الهجوم فهم يريدون ان يبقوا بعيدين عن الحرب وهم بالطبع لن يقعوا في خصام مع انكلترا .

واقترب حديثنا الذي استمر لمدة ساعة من نهايته ، ونهضت اودعه . وبدا الارتباك فجأة على ستالين ، وقال بلهجة اكثر ودا مما سبق له استعمالها معي : « انك ستسافر عند الفجر ، فلم لا نذهب الآن الى منزلي ونتناول بعض اقداح الشراب معا ؟ » . فقلت أنني اوافق . وسرعان ما تقدمني عبر ممرات وغرف كثيرة الى ان خرجنا الى طريق هادىء داخل الكرملين ، وبعد مائتي ياردة ، وصلنا الى الشقة التي يقيم فيها . واراني الغرف الاربع التي يعيش فيها ، وكانت متوسطة الحجم ، بسيطة ، مرتبة ، تضم غرفة نوم ومكتبا وغرفة طعام وحماما . وظهرت خادم عجوز للغاية ، وفتاة جميلة حمراء الشعر ، قبلت والدها باحترام ، ونظر الي ، وقد غمز بعينه وكأنه يقول : « اترى ، ان لنا نحن البلاشفة ايضا حياتنا العائلية » وشرعت ابنة ستالين في اعداد المائدة ، ثم جاءت الخادم تحمل عددا من الاطباق . وكان ستالين اثناء ذلك يفتح زجاجات الشراب . ثم قال : « لم لا نستدعي مولوتوف ؟ انه قلق على البلاغ الرسمي الذي سنصدره ، فلماذا لا نقر البلاغ . وهناك ميزة في مولوتوف : انه يستطيع الشراب » . ووصل مولوتوف فورا ، وجلسنا مع المترجمين ، فكنا خمسة وكان الرائد بيرس قد عاش عشرين سنة في موسكو ، واصبحت له علاقات طيبة بالماريشال ، الذي تحدث اليه حديثا خاصا ، لم استطع الاشتراك فيه .

وجلسنا على المائدة ، حتى الثانية والنصف صباحا . وكنا نتناول الطعام قطعة من هنا وقطعة من هناك على الطريقة الروسية المتبعة من الاطباق المختارة ، ونرشف من مختلف انواع الخمور الممتازة . وبدا مولوتوف في ارق اوضاعه : وكان ستالين يداعبه بكلمات قاسية ليستفزه .

وتحدثنا عن القوافل الى روسيا . وهنا لاحظ ستالين ملاحظة خشنة وقاسية عن قافلة قطبية دمرت بكاملها في شهر حزيران .

وقال المترجم بافلوف مترددا : « يقول المستر ستالين ... اليس لدى الاسطول البريطاني اي احساس بالمجد والفخار ؟ او لا يفهمهما ؟ » . فرددت عليه قائلا : « يجب ان تفهم مني ان ما عملناه كان صحيحا . فانا افهم الكثير عن الاسطول والحرب البحرية » . وهنا قال ستالين : « وهل تعني انني لا افهم شيئا عن البحر ؟ » . فقلت : « ان روسيا حيوان بري

اما بريطانيا فخيوان بحري » . وسكت ستالين ، ثم استأنف مرحه . ونقلت الحديث الى مولوتوف وقلت : « هل يعرف الماريشال ان وزير خارجيته قرر اثناء زيارته الاخيرة لواشنطن ان يزور نيويورك وحيدا دون حاشية او رفاق ، وان السبب في تأخره لم يكن بسبب عطل في الطائرة ، بل لانه كان « يتنزه » كما يشتهي في نيويورك » .

وعلى الرغم من ان اي شيء قد يقال على سبيل المزاح ، اثناء العشاء في روسيا ، فقد بدا مولوتوف منزعجا من ملاحظتي . ولكن وجه ستالين أشرق بالمرح وقال :

« ولكنه لم يذهب الى نيويورك ، بل ذهب الى شيكاغو ، حيث يقطن قطاع الطرق من أمثاله » .

ومضى الحديث سهلا ، بعد استعادتنا للعلاقات الطيبة . وتحدثت عن نزول القوات البريطانية في النروج بمساعدة الروس ، فاوضحت له اننا اذا استطعنا احتلال رأس الشمال في الشتاء ، وقضينا على الالمان هناك ، فان طريق القوافل سيصبح مفتوحا على مصراعيه . وكانت هذه الفكرة من احب الفكر الي . ولاح لي انها قد استهوت ستالين ايضا ، وبعد ان تحدثنا عن الوسائل والسبل ، اتفقنا على وجوب القيام بهذه العملية اذا استطعنا .

* * *

وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، ولم يكن كادوغان قد جاء حاملا مسودة البلاغ الرسمي .

وقلت اسأله : « قل لي هل كانت الجهود التي احتملتها في هذه الحرب شخصيا ، بمثل الشدة التي احتملتها في تنفيذ سياسة المزارع الجماعية ؟ » . وظهر الماريشال فوراً بكثير من الحيوية :

وقال « لا ، طبعا لا . لقد كانت سياسة المزارع الجماعية كفاحا مخيفا » .

وقلت : « هذا ما اظنه ، فانك لم تجد الامر سهلا ؛ اذ ان المشكلة لم تكن مع بضعة الوف من الارستقراطيين او كبار الملاكين بل مع ملايين من الرجال الصغار » .

وقال وهو يمد يديه : « عشرة ملايين . كان شيئا مخيفا . لقد استغرق العمل اربع سنوات . ولكن هذه العملية كانت ضرورة ملحة لروسيا اذا كنا نريد تجنب المجاعات من آن لآخر . كنا في حاجة الى فلاحة الارض بالمحاريث الآلية . وكان علينا ان نحول زراعتنا الى عمل آلي ، واذا سلمنا المحاريث الآلية الى المزارعين ، فانها تتلف في غضون بضعة اشهر . فالمزارع الجماعية ذات المشاغل الخاصة للاصلاح ، هي التي تستطيع وحدها ان تعمل بالمحاريث الآلية . وقد عانينا ابلغ المشاق في ايضاح ذلك للفلاحين . كان النقاش معهم مستحيلا . فبعد ان توضح

للفلاح كل ما تريد ايضاحه ، يقول لك ان عليه ان يذهب الى بيته لاستشارة زوجته ، واستشارة من يرعى له ماشيته . وكان هذا الاصلاح الاخير جديدا بالنسبة الي .

وبعد ان يتحدث اليهما ، يعود عادة بالجواب ، بانه لا يريد المزارع الجماعية وانه يؤثر البقاء بدون المحاريث الآلية » .

— وهل هذه هي ما تسمونها بالكولخوز ؟

فقال بعد تردد قصير : « اجل ، لقد كان العمل فيها شاقا وسيئا . ولكنه كان ضروريا على كل حال » .

وقلت اسأله : « وماذا حدث ؟ »

— « آه حسنا . لقد وافق الكثيرون منهم على الانضمام الينا . ولقد اعطينا بعضهم اراضي ليفلحوها في مقاطعة تومسك او مقاطعة اركوتسك ، او في اقصى الشمال . ولكن معظمهم لم ينالوا اية شعبية ، وقد مسحهم عمالهم مسحا .

وتوقفنا عن الحديث وقفة طويلة . ثم مضى يقول : ونحن لم نعمل على زيادة الانتاج الغذائي فحسب بنسبة ضخمة ، بل وحسنا من جودة القمح الناتج تحسينا كبيرا . وها نحن ننتج القمح السوفياتي الموحد من اقصى البلاد الى اقصاها ، بينما كان المزارعون في الماضي ينتجون مختلف الانواع التي تتفاوت في الجودة. واذا خالف المزارعون هذه القاعدة عاملناهم بصرامة ، وهذا يعني زيادة كبيرة اخرى في الانتاج الغذائي .

وانني ادون هذه الذكريات كما تتوارد الى خاطري ، وكل ما اتخيله من انطباع الآن ، هو ان هناك ملايين من الرجال والنساء ، قد ازيلوا من الوجود او انتزعوا من ارضهم الى الابد . وسيأتي جيل جديد حتما لا يعرف شيئا عن تعاستهم وآلامهم ، ولكنه يعرف ان طعامه قد ازداد ، فيبارك اسم ستالين ، ويتغنى بحمده والثناء عليه . ولم اكرر على مسامعه قول بيرك المأثور : « اذا لم اتمكن من القيام بالاصلاح بدون ظلم او اجحاف ، عدلت عن الاصلاح » . ففي الوقت الذي تلتهب فيه الحرب الكونية حولنا جميعا ، كان من العبث ان يتحدث الانسان عن الاخلاق ، وان يجهر بحديثه .

* * *

ووصل كادوغان حوالي الساعة الواحدة صباحا ، يحمل مسودة البلاغ الرسمي ، وبدانا فورا في وضعه في الصيغة الرسمية النهائية . وجيء الى المائدة بحلوف صغير طهي بطريقة رائعة . ولم يكن ستالين قد اكل شيئا حتى تلك اللحظة ، اما الآن فقد شارفت الساعة على الواحدة والنصف صباحا ، وهو الموعد المقرر لعشائه . ودعا كادوغان لمشاركته ، وعندما اعتذر الصديق ، نزل مضيفنا على الضحية وحده . وبعد ان انتهى من ذلك ، مضى فجأة الى الغرفة المجاورة ، حيث استلم التقارير عن جميع جبهات القتال ، وكانت تصله دائما بعد الثانية صباحا . وانقضى

اكثر من ثلث ساعة قبل ان يعود ، وكنا في اثناء ذلك قد اتفقنا على البلاغ الرسمي . واخيرا قلت انني مضطر الآن للذهاب ، وكانت الساعة الثانية والنصف صباحا . وكان علي ان اقضي نصف ساعة في الطريق الى الدار ، ومثلها في العودة الى المطار . وشعرت بصداع شديد ، كان بالنسبة الي امرا غير مألوف . وكان علي ان اجتمع بالجنرال اندرز . وطلبت من مولوتوف ان لا يأتي لوداعي عند الفجر ، فقد كان متعبا كما يبدو . وتطلع الي بنظرة تنطوي على اللوم وكأنه يريد ان يقول : وهل تعتقد حقا انني سأتأخر عن المجيء !

وطرنا في الخامسة والنصف صباحا . ونمت نومة مريحة في الطائرة لم افق منها الا عندما وصلنا نهاية بحر قزوين وبدأنا نصعد جبال البروز . ولم اذهب في طهران الى دار المفوضية بل الى الظلال الباردة الهادئة في مقرها الصيفي فوق المدينة . ورأيت في انتظاري حشدا من البرقيات . وكنت قد فكرت في ان اعقد مؤتمرا في اليوم التالي في بغداد لجميع رجالنا المسؤولين في ايران والعراق ، ولكنني تأكدت انني لا استطيع احتمال حر بغداد في شهر آب وقررت تحويل الاتجاه الى القاهرة . وتعشيت مع رجال المفوضية تلك الليلة في حديقة الدار الرائعة ، ونسيت جميع متاعبي في نومة مريحة حتى الصباح .

الاستعدادات للمعركة

قمت في التاسع عشر من شهر آب برحلة الى جبهة الصحراء . مضيت مع اليكساندر في سيارته خارجين من القاهرة ، عبر الصحراء الى البحر في ابو صير . وقال لي اليكساندر ان الجميع كانوا يهتفون لي . ومع اقتراب ساعات المساء ، كنا نقترب من مقر قيادة مونتغمري في برج العرب . وفي هذا المكان بالذات رسمت امواج الضوء ، صورة القافلة المشهورة على الكثبان الرملية . وقدم لي الجنرال عربته التي قسمها الى مكتب وغرفة نوم . وبعد هذه الرحلة الطويلة مضينا جميعنا فاستحممنا . وقال مونتغمري ، ونحن نجفف اجسادنا من الماء : « ان جميع الجيوش تستحم الآن في هذه الساعة على طول الساحل » . واشار بيده الى الغرب . وعلى بعد الف باردة منا كان نحو من الف رجل من رجالنا يتريضون على الشاطىء . وعلى الرغم من انني كنت اعرف الرد فقد سألت : « لماذا تكلف وزارة الحربية نفسها عناء ارسال سراويل بيضاء للاستحمام للجنود ؟ يجب عليها ان توفر ذلك » . حقا لقد كان جميع الجنود سمر الاجساد لوحتهم الشمس في كل مكان في جسدهم باستثناء ما تغطيه سراويلهم القصيرة .

كم تبدلت الاوضاع ! عندما تقدمنا الى ام درمان قبل اربعة واربعين عاما ، كانت النظرية السائدة ان على الانسان ان يقي جلده من شمس افريقيا مهما كان الثمن . وكانت الاوامر في هذا الصدد صارمة للغاية . وكنا نلصق حشايا خاصة في ظهر « ستراتنا » الخاكية . وكان من الجنح العسكرية ان يخرج الجندي او الضابط بدون قبعة من القش او الفلين في اوقات الفراغ . وكانوا ينصحوننا بارتداء ملابس داخلية ثخينة جريا على ما الفه العرب بفضل تجاربهم منذ الوف السنين . ولكن ها هم الجنود البيض الآن ، وفي منتصف القرن العشرين ، يمضون الى اعمالهم اليومية دون قبعات ، وعراة تقريبا الا من قطعة نسيج صغيرة تستر جزءا من اجسادهم . ويبدو ان هذا الوضع لا يسبب لهم اذى . وعلى الرغم من ان عملية التحول من اللون الابيض الى اللون البرونزي قد استغرقت عدة اسابيع وتمريننا تدريجيا ، الا ان حوادث ضربات الشمس وضربات الحرارة نادرة تماما ، واني لاستغرب تماما كيف يشرح الاطباء هذه الظواهر .

وبعد ان ارتدينا ملابسنا للعشاء ، اجتمعنا في عربة خرائط مونتغمري وعرض علينا الجنرال وصفا دقيقا للوضع : مبديا انه في غضون بضعة ايام تمكن من السيطرة سيطرة كاملة على زمام المشكلة وتفهمها . وقد توقع بدقة موعد هجوم رومل المقبل ، واوضح خططه لمواجهة هذا الهجوم .

وقد برهنت الايام على صحة توقعه وسلامة استنتاجاته . ثم شرح لنا خططه لتسلم زمام المبادرة والهجوم بنفسه ، ولكنه يحتاج الى ستة اسابيع على كل حال ، ليصبح الجيش الثامن في وضع منظم وعلى اتم اهبة . وقد قرر اعادة تشكيل الفرق على اسس وحدات تكتيكية متكاملة، وعلينا ان ننتظر حتى تكون الفرق الجديدة قد اتخذت مواقعها في الصحراء، وحتى تكون دبابات شيرمان قد وصلت الى الميدان ، وحينئذ ستكون هنالك ثلاثة فيالق يتولى قيادة كل منها ضابط مجرب، يثق فيه هو واليكساندر. وسيستخدم المدفعية بشكل لم يكن في الامكان استخدامها فيه قبل الآن في الصحراء . وتحدث عن نهاية ايلول كموعد للهجوم . وشعرت بخيبة أمل من هذا الموعد ، ولكن كل شيء كان متوقفا على روميل . فقد دلت المعلومات التي تلقيناها ، على ان هجومه اصبح متوقعا في كل لحظة. وكانت المعلومات قد وصلت الي بالفعل ، وهي تشير الى أنه سيحاول حركة التفاف واسعة حول جناحنا الصحراوي ، للوصول الى القاهرة ، وان معركة مناورة يجب ان تدور لمهاجمة مواصلاته .

وفكرت في هذا الوقت طويلا بهزيمة نابوليون في عام ١٨١٤ . فقد توقف هو ايضا ليضرب مواصلات الحلفاء ، ولكن الحلفاء زحفوا راسا الى باريس المكشوفة تقريبا . وخيل الي ان من اشد الامور ضرورة : الدفاع عن القاهرة ، وان يشترك في هذا الدفاع كل رجل قادر من الجنود الذين لا يحتاج اليهم الجيش الثامن . وبهذه الطريقة وحدها يستطيع جيش الميدان ان يحصل على حرية المناورة الكاملة ، ويصبح قادرا على المخاطرة بالسماح لجناحه بان يتعرض للالتفاف قبل ان يبدأ الهجوم . وسرني غاية السرور اننا كنا متفقين جميعا على هذا الرأي . وعلى الرغم من انني كنت تواقا لنبدأ الهجوم في اقرب فرصة ممكنة ، الا انني رحبت باحتمال قيام روميل بهجومه علينا قبل ان نشن نحن حملتنا . ولكن الدنيا الوقت الكافي لتنظيم الدفاع عن القاهرة ؟ فالدلائل كلها تشير الى ان القائد الجريء الذي يواجهنا على بعد اثني عشر ميلا فقط ، سيوجه ضربته الهائلة قبل نهاية شهر آب . وقال مونتغمري انه قد يحاول في اي يوم المغامرة لتحقيق تفوقه المستمر في الجبهة . واذا تأخر في هجومه اسبوعين او ثلاثة اسابيع فذلك في مصلحتنا حتما .

* * *

وخرجنا في العشرين من آب ، لنرى الميدان المنتظر ، والقوات الباسلة التي ينتظر منها ان تصمد فيه . واخذوني الى النقطة الرابعة الهامة الواقعة الى الجنوب الشرقي من جرف الرويسات . ورأيت في هذه الأرض الصحراوية الوعرة بتغضناتها والتواءاتها ، القسم الاكبر من سلاحنا المدرع ، وقد اختفى وانتشر باساليب التعمية العسكرية ، على الرغم من حشده من ناحية تكتيكية . واجتمعت هنا الى الزعيم الشاب روبرتس ، الذي كان يتولى آنذاك قيادة جميع قواتنا المدرعة في هذا الموقع . كانت جميع دباباتنا الممتازة تحت قيادته. واوضح لي مونتغمري توزيع مدفعيتنا من مختلف الانواع والاشكال . فكل شق في الصحراء كان يخفي بطاريات مخيفة ، ومغطاة بوسائل التعمية . وسينطلق ثلاثمائة او اربعمائة مدفع

على الدبابات الالمانية المهاجمة قبل ان تقذف بدباباتنا الى الميدان .

وعلى الرغم من عدم السماح بتجمعات الجنود بسبب عمليات العدو الاستطلاعية المستمرة ، فقد رأيت في ذلك اليوم عددا كبيرا من الجنود حيوني بالهتافات والاشارات . وقمت بتفتيش كتيبتي « الهوسار » الرابعة ، او اكبر عدد امكن جمعه من رجالها على مقربة من مقبرة الميدان ، حيث دفن الكثيرون من زملائهم قبل ايام . وكانت جميع هذه المناظر مؤثرة : ولكن معها ، نما معي احساس بقوة الجيش المنبعثة . وكان كل انسان يجمع على ان تبدلا كبيرا قد طرأ منذ تولي مونتغمري القيادة . وكان بوسعي ان احس وان المس هذا الشعور من الراحة والسرور الذي يغمر الجميع .

وكان من المقرر ان نتناول الغداء مع بيرنارد فريبرغ . وعادت بي الذاكرة الى زيارة مماثلة قمت بها له في الفلاندرز في مركز الميدان في وادي سكارب ، قبل نحو من ربع قرن ، عندما كان لا يزال يتولى قيادة لواء واحد . وقد عرض علي آنذاك بابتهاج ، ان يسير بي على مراكزه الامامية . ولكن ، لما كنت اعرفه ، واعرف خط الجبهة ، فقد اعتذرت عن مرافقته . اما الآن ، فقد اختلف الوضع تماما ، اذ كنت متشوقا اشد التشوق لرؤية احد مراكز المراقبة الامامية التي يقوم عليها هؤلاء الجنود النيوزيلنديون الرائعون والتي تبعد نحوا من خمسة اميال الى الامام . وكان موقف اليكساندر ينطوي على عدم المعارضة في الحملة وعلى الرغبة في الاشتراك فيها . ولكن بيرنارد فريبرغ ، رفض باصرار تحمل المسؤولية ، ومثل هذه القضايا لا تصدر الاوامر فيها عادة ، حتى من السلطات العليا .

ومضينا بدلا من ذلك ، الى خيمته الخانقة التي يستخدمها كمطعم ، حيث تناولنا غداء احسن بكثير من ذلك الذي تناولته معه في سكارب . كان الوقت ظهرا من يوم من ايام شهر آب في الصحراء . وكان الطبق الاول في الوجبة حساء غاليا من المحار النيوزيلندي المحفوظ ، لم استسغ طعمه ، وان تظاهرت بابتلاعه . وسرعان ما انضم الينا مونتغمري الذي كان قد تركنا قبل مدة . ومضى فريبرغ الى الخارج لتحيته ، وليبلغه ان مكانه محفوظ على المائدة ، واننا ننتظره على الغداء . ولكن « مونتي » وكان هذا هو الاسم الذي اطلق عليه ، كان قد اتخذ قاعدة لنفسه بان لا يقبل دعوة من اي من مرؤوسيه . ولهذا فقد ظل في الخارج في سيارته ، يأكل شريحة ، ويشرب عصير الليمون . وكان نابوليون يتبع مثل هذه القاعدة حرصا على النظام العسكري . وكان من شعاراته المعروفة ، ان الانسان يجب ان يكون قاسيا حتى على الكبار . ولكنه في الوقت نفسه ، كان سيتناول حتما دجاجة مشوية ، تقدم اليه في عربته . اما مارلبرو ، فكان يدخل حتما ويشرب النبيذ الطيب مع ضباطه ويتناول الغداء معهم . وهذا ما كان سيفعله كروموبل حتما ايضا . فقد تختلف الاساليب ، ولكن النتائج تكون طيبة في جميع الحالات تقريبا .

وقضينا طيلة بعد ظهر اليوم مع الجيش ، وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما غدنا الى القافلة والى امواج الشاطىء الجميل . وقد احسست بارتفاع في معنوياتي الى الحد الذي تناسيت فيه كل متاعب

النهار ، وظللت حتى ساعة متأخرة من الليل اتحدث . وقبل ان يمضي مونتغمري الى فراشه في الساعة العاشرة ، جريا على مألوف عادته طلب لي ان اكتب له شيئا في دفتر يومياته الشخصي . وقد كتبت له في هذه المرة ، وفي مرات اخرى لاحقة طيلة الحرب . وهذا ما كتبته هذه المرة :

« ارجو ان تكون الذكرى السنوية لبلنهايم التي ترمز الى بداية القيادة الجديدة ، فاتحة خير لقائد الجيش الثامن ورجاله ، وان تأتي لهم كلهم بالشهرة وبالحظ اللذين يستحقونهما » .

وزرت في الثاني والعشرين من آب كهوف طرة قرب القاهرة حيث كانت تجري عمليات اصلاحية واسعة النطاق . فمن هذه الكهوف قطعت الاحجار التي بنيت منها الاهرامات قبل الوف السنين . وقد بدت الآن جميلة الشكل ، وبدا لي ان العمل يسير سيرا نشيطا ودقيقا في المنطقة ، وان جماهير غفيرة من العمال الفنيين تشتغل ليلا ونهارا في عمليات الاصلاح اللازمة . ولكن كانت لدي ارقامي وحقائقي ، وظللت غير راض عن سير العمل . فالنطاق الذي يسير فيه ضيق . ولعل العيب الوحيد هو ان الفراعنة لم يبنوا اهرامات اكثر عددا واضخم حجما . وكان علي ان اقوم بمسؤوليات اخرى ، فقد قضيت بقية النهار اطير من مطار الى آخر ، افتش المؤسسات واخطب في الجنود . ورأيت في احد المطارات نحوا من الفين الى ثلاثة آلاف طيار جمعوا فيه لكي اتحدث اليهم . وزرت ايضا جميع الالوية واحدا اثر آخر ، كما زرت فرقة الجبليين التي كانت قد نزلت الى البر في ذلك اليوم . وعدنا الى السفارة في ساعة متأخرة من المساء .

وتركزت جميع افكاري ، طيلة الايام الاخيرة من الزيارة ، على المعركة المنتظرة . فقد يشرع رومل في هجومه في اية لحظة بقوة هائلة ومدمرة من السلاح المدرع ، ومن المحتمل ان يصل الى الاهرامات دون ان يلقي اي دفاع حقيقي باستثناء قناة واحدة ، ثم يصل الى نهر النيل الذي يجري عند نهاية المرج الذي تقوم فيه دار السفارة . وابتسم طفل الليدي لامبسون ، من عربته القابعة تحت ظلال اشجار النخيل ، وتطلعت عبر النهر ، الى الآفاق المستوية القائمة وراءه . كل شيء هادىء وهين ، ولكنني اقترحت على الام ان تمضي بطفلها عن القاهرة ، لان الطقس فيها شديد الحرارة والرطوبة في آن واحد ولا يصلح للاطفال . وقلت لها : « لم لا تبعثين بالطفل الى لبنان ليستنشق هواءه العليل البارد ؟ » ولكنها لم تستمع الى نصيحتي ، وليس في وسع انسان ان يقول انها لم تحكم على سلامة الوضع العسكري حكما صائبا .

واقمت بالاتفاق مع الجنرال اليكساندر ورئيس اركان الامبراطورية ، سلسلة من الاجراءات المتطرفة للدفاع عن القاهرة وعن الخطوط المائية المتجهة شمالا . واقمنا جحورا للبنادق ومراكز للمدافع الرشاشة ، ولغمنا الجسور ، ونصبنا الاسلاك الشائكة على مداخلها ، واطلقنا مياه السدود على الجبهة العريضة الواسعة . وسلمنا لجميع الموظفين البريطانيين في القاهرة وهم يعدون الالوف من ضباط الاركان ، والكتبة الذين يرتدون الملابس العسكرية ، بنادق ، واصدرنا اليهم الاوامر بان يتخذوا مواقعهم

عند وقوع طارىء عند خط النهر المحصن . ولم تكن الفرقة الجبلية الحادية والخمسون قد اعتبرت حتى الآن « جديرة بالصحراء » . فعهدنا الى هؤلاء الجنود المتازين بالدفاع عن جبهة النيل الجديدة . وكان الموقع قويا للغاية بسبب قلة الطرق الجسرية التي تعبر منطقة الاقنية او المنطقة التي يغمرها الفيضان في الدلتا . وبدا لنا من الممكن وقف هجوم مدرع على هذه الطرق الجسرية. وكان الدفاع عن القاهرة من اختصاص الجنرال البريطاني الذي يتولى قيادة الجيش المصري ، الذي اصطفت جميع وحداته ايضا للاشتراك في الدفاع . وخيل الي ان من الافضل على كل حال ، ان يعهد بالمسؤولية ، اذا وقع اي طارىء الى الجنرال متيلاند ويلسون ــ جمبو ــ الذي كان قد عين لقيادة العراق ــ ايران ، والذي كانت قيادته لا تزال في هذه الاسابيع الحرجة في طور التشكيل في القاهرة . واصدرت اليه توجيها طالبا اليه الاطلاع على جميع تفاصيل خطة الدفاع ، وان يتولى المسؤولية في اللحظة التي يبلغه فيها الجنرال اليكساندر ان القاهرة اضحت في خطر .

وتحتم علي ان اعود الى الوطن ، عشية يوم المعركة ، لاعود الى ادارة شؤون تتناول آفاقا اوسع ، وان كانت لا تقل حسما عن المعركة المرتقبة . وكنت قد حصلت على موافقة وزاراة الحرب على التوجيه الذي قررت اصداره الى الجنرال اليكساندر ، فقد غدا السلطة العليا التي اتعامل معها في الشرق الاوسط ، وكان مونتغمري وجيشه الثامن يعملان تحت قيادته. وكذلك كان متيلاند ويلسون والدفاع عن القاهرة اذا نشأت الضرورة لهذا الدفاع . وكان « اليكس » ، كما كنت ادعوه منذ امد طويل ، قد انتقل بقيادته الشخصية الى الصحراء على مقربة من الاهرامات ، وكان بهدوئه ومرحه وتفهمه لكل شيء ، يوحي بالثقة المطلقة الهادئة لكل انسان .

* * *

واقلعنا من مطار الصحراء في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة من مساء الثالث والعشرين من آب ، ونمت نوم الانسان العادل الذي يشعر براحة ضميره حتى بعد طلوع النهار في الصباح التالي . وعندما تركت سريري الى غرفة قيادة الطائرة « الفدائي » ، كنا نقترب من جبل طارق . وبدا لنا الهبوط شيئا خطرا ، فقد كان ضباب الصباح يلف كل شيء . ولم يكن في وسع الانسان ان يرى لمسافة مائة ياردة الى الامام ، ولم نكن نطير على ارتفاع يزيد عن ثلاثين قدما فوق البحر . وسألت فاندر كلوت ، ان كان كل شيء يسير على ما يرام ، واعربت له عن املي في ان لا يصطدم بصخرة جبل طارق . ولم تكن ردوده مطمئنة بصورة خاصة ولكنه كان واثقا من الخطة التي اتبعها في عدم الطيران على ارتفاع عال ، وهو ما كنت اوثره . وظللنا على هذا الحال اربع دقائق اخرى او خمسا . وفجاة رأيتنا ندخل هواء صافيا جليا وامامنا تبدو هاوية جبل طارق العظيمة مطلة على البرزخ ، وعلى قطعة الارض المحايدة التي تصل القلعة باسبانيا ، وبالجبل المسمى « ملكة العرش الاسباني » . ولقد تمكن فاندر كلوت من ان يكون دقيقا للغاية بعد طيران ثلاث ساعات او اربع عبر الضباب . ومررنا على بعد بضع مئات من الياردات من الصخور دون ان نضطر الى

تغيير اتجاهنا ، وهبطنا هبوطا صحيحا ودقيقا . ومع ذلك فما زلت اظن انه كان من الخير لو ارتفعنا عاليا وطفنا فوق المطار ساعة او ساعتين ، فقد كان معنا ما يكفينا من الوقود ولم تكن على عجلة من امرنا . لكن قائد الطائرة حقق عملا رائعا . وقضينا الصباح مع الحاكم ، ثم طرنا نحو الوطن بعد الظهر ، بعد ان قمنا بدورة واسعة عبر خليج بسكاي عندما حل الظلام .

* * *

وعندما بدأت بعثتي الى القاهرة وموسكو ، لم يكن الاختيار قد وقع على من سيتولى عملية « المشعل » . وكنت قد اقترحت في الحادي والثلاثين من تموز ، انه اذا اختير الجنرال مارشال لتولي القيادة العليا لعملية اجتياز المانش في عام ١٩٤٣ ، فان من الواجب تعيين الجنرال ايزنهاور نائبا له ، وان يكون سابقا له في المجيء الى لندن ، ليعمل في الاعداد لعملية « المشعل » التي يجب ان يعهد اليه بقيادتها ، وان يكون الجنرال اليكساندر نائبا له . وقد اتجهت الفكرة لتنفيذ هذا الراي ، وقبل ان اغادر القاهرة الى موسكو كان الرئيس روزفلت قد بعث الي بموافقته على اقتراحي . ومع ذلك فقد ظل امامنا الكثير لنقره قبل أن نصل في خططنا الى مراحلها الاخيرة ، وجاءني الجنرالان ايزنهاور وكلارك في اليوم التالي لوصولي الى لندن ، لتناول الغداء معي ، ولبحث اوضاع العملية .

وكنت في هذا الوقت على احسن ما اكون من علاقات ودية ووثيقة مع هذين القائدين الاميركيين . وكنت منذ وصولهما الى لندن في شهر حزيران ، قد اعددت لهما غداء اسبوعيا في داوننغ ستريت رقم ١٠ ، في ايام الثلاثاء . ونجحت هذه الاجتماعات تمام النجاح . وكنت على الغالب وحيدا معهما ، وكنا نتحدث عن جميع قضايانا ، ونجول في بحثها وكأننا نمت الى بلد واحد . وكثيرا ما عقدنا سلسلة من المحادثات غير الرسمية في قاعة الطعام ، تبدأ في العاشرة مساء وتمتد الى ساعات متأخرة . وكثيرا ما جاء الجنرالان الاميركيان لقضاء ليلة او عطلة نهاية الاسبوع في تشيكرز . ولم نكن نتحدث في هذه المناسبات الا عن مختلف الشؤون العامة ، واني لواثق من ان هذه الاتصالات الوثيقة كانت ضرورية لادارة دفة الحرب ، ولم يكن بوسعي ان اقبض على ناصية الموقف بكامله بدونها .

وعقدنا اجتماعا لرؤساء اركان الحرب في الثاني والعشرين من ايلول ، برئاستي ، وحضره ايزنهاور ، وقد اتخذنا فيه القرار النهائي ، وحددنا موعد البدء بعملية « المشعل » في الثامن من تشرين الثاني .

* * *

وكان رومل في غضون ذلك كله قد قام بمحاولة جدية ، ثبت فيما بعد ، أنها الاخيرة للوصول الى القاهرة . والى ان انتهت هذه المحاولة ، ظلت افكاري معلقة بالصحراء ، و « بتجربة القوة » الدائرة فيها . وكانت لي ثقة كاملة ، بقادتنا الجدد ، كما كنت متأكدا من ان تفوقنا العددي في الجنود والمدرعات والسلاح الجوي ، هو اليوم اكثر منه في اي وقت مضى .

ولكن بعد المفاجآت المزعجة التي وقعت في العامين الماضيين كان من الصعب علينا ان نستبعد القلق كل الاستبعاد . ولما كنت قد زرت مؤخرا نفس الارض التي سيدور فوقها القتال ، وكانت صورة الصحراء بصخورها المتعرجة واخاديدها ، وبطارياتنا المدفعية ودباباتنا وقواتنا المخبوءة فيها استعدادا لقفزة مضادة ، لا تزال ماثلة في ذهني ، فانني كنت ارقب المعركة الضارية بافكاري تمام المراقبة . ولا ريب في ان اية نكسة جديدة لن تكون منطوية في حد ذاتها على معاني الكارثة فحسب بل ستؤدي ايضا الى تحطيم سمعة بريطانيا والتأثير على المحادثات التي كنا نجريها آنذاك مع حلفائنا الاميركيين . اما اذا صد رومل من الناحية الثانية فان الثقة النامية، والشعور المتزايد بـأن التيار يوشك على ان ينقلب الى مصلحتنا ، سيساعدان على الوصول بمختلف القضايا الاخرى الى مرحلة الاتفاق .

وقد وعد الجنرال اليكساندر ، بان يبعث الي بكلمة (زيب) ، وهي اسم يطلق على الملابس التي كنت ارتديها ، ليبلغني بدء المعركة . وبعثت اليه أسأله في الثامن والعشرين من آب : « ما رأيك في احتمال وقوع « زيب » ، عند اكتمال القمر في هذا الشهر ؟ ان المخابرات العسكرية لا تعتقد بان الهجوم الالماني اصبح قريبا للغاية . اطيب تمنياتي » ، فجاءني رده يقول : « ان « زيب » تعادل كل يوم قيمتها من المال ، وتزداد الاحتمالات بعدم وقوعها حتى الثاني من ايلول ، عندما تصبح غير متوقعة » وتلقيت في الثلاثين من ايلول برقية بكلمة واحدة هي « زيب » ، فابرقت الى روزفلت وستالين اقول : « بدأ رومل هجومه الذي كنا نستعد له . قد تدور الآن معركة مهمة » .

وكانت خطة رومل ، كما توقعها مونتغمري بالضبط ، وهي ان يمر بسلاحه المدرع عبر نطاق الالغام الضعيف الدفاع في الطرف الجنوبي من الجبهة البريطانية ، وان يتجه بعد ذلك شمالا ليلتف حول مواقعنا في الجناح والمؤخرة . وكانت النقطة الحرجة والحساسة لنجاح هذه المناورة تقوم في احتلال روابي العلم ــ حلفا ، ولهذا فقد وزع مونتغمري قواته بحيث يضمن قبل كل شيء عدم وقوع هذه الروابي في ايدي العدو .

واخترقت الفرقتان المدرعتان الالمانيتان ، ليلة الثلاثين من آب ، حقول الالغام ، واتجهتا في الصباح الى منخفض الرجيل . وانسحبت فرقتنا المدرعة السابعة ببطء واستمرار امامهما الى ان اتخذت مواقعها في الجناح الشرقي . وحاولت فرقتان ايطاليتان مدرعتان وفرقة آلية اخرى، اختراق حقول الالغام الى الشمال من الفرقتين الالمانيتين ، ولكنهما لم تحققا نجاحا يذكر ، فقد كانت الحقول اعمق مما توقعته وسرعان ما وجدت نفسها تحت وطأة نيران مدفعية شديدة من الفرقة النيوزيلندية . لكن الفرقة الالمانية الخفيفة التسعين نجحت في الاختراق لتشكل «مفصلة» من الاندفاع المدرع نحو الشمال . وشن الالمان في الوقت نفسه في الطرف الثاني من الجبهة هجمات مانعة على الفرقة الهندية الخامسة والفرقة الاوسترالية التاسعة ، فصدت بعد قتال عنيف . وكان على المدرعات الالمانية ــ الايطالية ، بعد اجتياز منخفض الرجيل ، ان تتقدم اما شمالا باتجاه روابي العلم ــ حلفا ، او شمالا بشرق نحو الحمام . وكان مونتغمري يرجو ان لا تتجه الى الحمام ، فقد آثر ان يخوض المعركة في الارض التي

اختارها وهي الروابي . وكنا قد تمكنا من ايصال خريطة زائفة ، الى رومل ، تظهر سهولة الاندفاع الى الروابي وصعوبة الاتجاه الى الحمام . وقد اعترف الجنرال فون توما الذي اسر بعد شهرين ، بأن هذه الخريطة المضللة نجحت في تحقيق هدفها . وهكذا اتخذت المعركة الآن ، الشكل الذي اراده مونتغمري .

وصدت قواتنا في الحادي والثلاثين اندفاعا نحو الشمال ، ومضت مدرعات العدو الى الهدوء تلك الليلة تحت نيران مستمرة تنصب عليها من المدفعية ومن قصف الطائرات . وتقدمت في الصباح التالي الى قلب الخط البريطاني، حيث كانت الفرقة العاشرة المدرعة في انتظار لقائها . وكان الرمل في المنطقة اكثف مما كان متوقعا ، والمقاومة اعنف مما انتظروه واستؤنف الهجوم بعد الظهر ، ولكنه فشل . ووجد رومل نفسه في مأزق. فقد اصاب الاعياء حلفاءه الايطاليين . ولم يكن في وسعه ان يأمل في تعزيز وحداته المدرعة الامامية ، وكانت الاشتباكات العنيفة قد استنفدت ما لديه من وقود . ولا ريب في انه سمع ايضا باغراق ثلاث ناقلات اخرى للزيت في البحر المتوسط . وهكذا تحولت مدرعاته في الثاني من ايلول الى موقف الدفاع ، واخذت تنتظر الهجوم الذي سيقع عليها .

ولم يقبل مونتغمري الدعوة ، ولم يجد رومل مناصا له من الانسحاب . وبدات الحركة في الثالث من ايلول ، في الوقت الذي اندفعت الفرقة البريطانية السابعة لمضايقته من الجناح ، ملحقة بالعدو خسائر فادحة في سياراته غير المدرعة . وبدأ الهجوم البريطاني المضاد تلك الليلة ، لا على سلاح العدو المدرع : بل على فرقته الخفيفة التسعين وفرقة تريستا الآلية . وقدر مونتغمري انه اذا استطاع تحطيم هاتين الفرقتين اغلق الفجوة التي احدثها العدو في حقول الالغام قبل ان تنسحب منها المدرعات الالمانية الى الوراء . وقد قامت الفرقة النيوزيلندية بهجمات قوية صمد لها العدو ، وتمكن الفيلق الالماني من النجاة . وتوقف مونتغمري الآن عن متابعة المطاردة . وقد قرر تسلم زمام المبادرة ، عندما تصبح الفرصة مواتية ، ولم تكن قد اضحت كذلك حتى الآن . واقتنع بصد آخر هجوم قام به رومل باتجاه مصر ، ملحقا به خسائر فادحة . وقد تمكن الجيش الثامن وسلاح الصحراء الجوي من انزال ضربة قاصمة بالعدو دون ان يمنياهما بخسائر كبيرة ، ومن خلق ازمة حادة له في طرق مواصلاته . وقد عرفنا من الوثائق التي صادرناها فيما بعد ان رومل وجد نفسه في ضائقة شاقة ، فأخذ يلحف مطالبا بالعون والمساعدة . وعرفنا ايضا انه كان في هذه الاثناء انسانا متعبا كثير الشكوى والتحبب والالم . وقد بانت نتائج معركة العلم — حلفا ، بعد شهرين .

❋ ❋ ❋

وعلى الرغم من سير جميع الاستعدادات للعمليتين العظيمتين في طرفي البحر الابيض المتوسط سيرا حثيثا ، فان فترة الانتظار كانت مشحونة بالقلق الزائد وان كان مخيفا . وكانت الحلقة الداخلية التي تعرف كل شيء تشعر بالقلق الشديد مما قد يحدث . اما الذين لا يعرفون ، فقد ازعجهم الهدوء المسيطر ، وضايقهم اننا لا نقوم بأي عمل .

وقد مضى علي الآن ثمانية وعشرون شهرا في قيادة شؤون البلاد ، منينا ابانها بسلسلة متواصلة من الهزائم العسكرية . وقد احتملنا هزيمة فرنسا وانهيارها ، والهجوم الجوي على بريطانيا ، وقد نجونا من الغزو ، وما زلنا نحتفظ بمصر ، كما اننا ما زلنا احياء نقف موقف التحدي ، وهذا كل شيء . اما من الناحية الاخرى ، فقد منينا بسلسلة متلاحقة من الكوارث . فهناك الخيبة المرة في داكار ، وهناك خسارة كل ما كسبناه من الايطاليين في الصحراء ، ومأساة اليونان ، وضياع كريت ، ونكسات الحرب مع اليابان ، وضياع هونغكونغ ، واحتلال الهند الهولندية ، وكارثة سنغافورة ، وغزو اليابانيين لبورما ، وهزيمة اوكنلك في الصحراء ، واستسلام طبرق ، والفشل في دييب .... كلها حلقات مؤلمة في سلسلة من النوازل والفشل ، لا مثيل لها في تاريخنا . لكن الحقيقة القائلة باننا لم نعد وحيدين ، وان اعظم دولتين في العالم ، اصبحتا حليفتين لنا ، تحاربان بيأس الى جانبنا ، اضفت علينا بعض الثقة بالنصر النهائي . ولكن هذه الثقة ، ادت بعد ارتفاع الاخطار المميتة ، الى انطلاق الانتقادات وحريتها ، اوليس من الغريب ان تتعرض الطبيعة الكلية لادارة الحرب ونظامها ، وهما في عهدتي ، الى مثل هذا التساؤل والتحدي ؟

ومن البارز حقا ، انني في هذه المرحلة من الجمود الغريب ، لم اصرف من السلطان ، ولم اواجه بطلبات لتبديل اساليبي وهي طلبات كان من المعروف حتما انني لن اقبلها . ولو صرفت من الخدمة في مثل هذا الوقت ، لخرجت من الميدان بأعباء من الكوارث احملها على كتفي ، ولعزي الحصاد الذي سيجني ، الى اختفائي من المسرح . فقد اوشك منظر الحرب كلها دون شك على تحول كلي . فمنذ اليوم اخذ النجاح المتزايد ، الذي لا يعكره من آن الى آخر ، الا حلول نكسة بسيطة ، يصبح من نصيبنا . وعلى الرغم من ان الكفاح سيكون طويلا وشاقا ، ويتطلب اعظم الجهد منا جميعا ، فقد وصلنا الى قمة المضيق ، واخذ طريقنا الى النصر ، يضحي مضمونا ومؤكدا ، ومصحوبا بالاحداث المفرحة . ولم احرم من حقي في الاشتراك في هذه المرحلة الجديدة من الحرب بفضل وحدة وزارة الحرب وقوتهـا ، وبفضل الثقـة التـي اولانيها زملائي السياسيون والعسكريون ، ونتيجة ولاء البرلمان الثابت وحسن نية الشعب التي لم يطرأ عليها وهن او ضعف . ويظهر هذا كله ، مدى ما يمني به الانسان في شؤونه من حظ حسن ، وان من واجبه ان لا يهتم بشيء سوى اداء واجبه باقصى ما يستطيع من عزم .

ووجدت بعض التسلية في غضون ذلك ، في دراسة الاقتراحات التي كانت وزارة الخارجية تقوم بدراستها بالتشاور مع وزارة الخارجية الاميركية حول مستقبل الحكومة العالمية بعد الحرب. وقام وزير الخارجية في شهر تشرين الاول ، بتوزيع وثيقة مهمة على اعضاء وزارة الحرب ، حول هذا الموضوع ، اسماها « مشروع الدول الاربع » ، نصت على ان يتولى الادارة العليا العالمية مجلس يضم بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وروسيا والصين . ويسرني انني وجدت في نفسي القوة لاضمن هذه المذكرة التي بعثت بها الى وزير الخارجية في الحادي والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٤٢ ، آرائي في هذا الموضوع اذ قلت :

« ١ ــ على الرغم من ضغط الاحداث ، فسأحاول كتابة رد . ويبدو ان من البساطة بمكان عظيم اختيار هذه الدول الاربع الكبرى . ولكن ليس في وسعنا على اي حال ان نحدد نوع روسيا التي يتحتم علينا مواجهتها او الطلبات التي ستتقدم بها . وقد يصبح هذا ممكنا بعد وقت قصير . اما بالنسبة الى الصين فانني لا استطيع اعتبار حكومة شونكينغ ممثلة لدولة عالمية عظمى . ومن المؤكد انه سيكون هناك تصويت من جانب الولايات المتحدة ، يؤيد اية محاولة لتصفية الامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار .

« ٢ ــ ويجب ان اعترف بان افكاري تتركز بصورة رئيسية في اوروبا ، وفي بعث امجادها بوصفها القارة الام لجميع الشعوب والحضارات الحديثة . ولا ريب في انه سيكون من الكوارث التي لا حد لها اذا سيطرت البربرية الروسية على حضارات الدول الاوروبية الغربية واستقلالها . ولما كان من الصعب ان يحدد الانسان الآن الموقف ، فان الاسرة الاوروبية قد تعمل بصورة متحدة في ظل مجلس اوروبي . واني لاتطلع الى ولايات متحدة اوروبية ، تخفف فيها القيود بين مختلف الدول ، وتزول القيود المفروضة على التنقل والسفر . واني لآمل في ان ارى الاقتصاد الاوروبي يدرس ككل لا في اجزاء . واني لارجو ان ارى مجلسا يضم عشر وحدات مثلا ، كان يشمل الدول العظمى السابقة مع عدد من الاتحادات التعاونية (كونفيدراسيونات) كاتحاد اسكنديناڤيا والدانوب والبلقان وما شابهها ، وان يكون لهذا المجلس شرطة دولية تتولى مهمة الحفاظ على بروسيا منزوعة السلاح . وعلينا بالطبع ان نتعاون مع اميركا في مختلف السبل والاتجاهات ، واعظمها ، ولكن اوروبا هي اهم ما يشغلنا ، ونحن بالطبع لا نود في ان نرى الروس والصينيين يحولون بيننا وبين العمل ، عندما يكون السويديون والنروجيون والدانماركيون والهولنديون والبلجيكيون والفرنسيون والاسبان والبولنديون والتشيكيون والاتراك ، يواجهون مشاكل ملتهبة ملحة ، ويكونون في حاجة الى مساعدتنا ، لاسماع اصواتهم عاليا . ومن السهل ان يتوسع الانسان في بحث هذه النظريات ، ولكن من سوء الحظ ، ان الحرب تتطلب منا الآن ان نوجه اليها اقصى اهتمامك واهتمامي » .

وهكذا اقتربنا من الذروة العسكرية الكبرى التي كان يتوقف على نتيجتها كل شيء .

معركـة العلمـين

مضت اعدادات التخطيط والتدريب بلا توقف ، في الاسابيع التي تلت التبدلات التي وقعت في القيادة ، في كل من القاهرة والجبهة . وقد تعزز الجيش الثامن بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخه . ووصلت الى مصر الفرقتان الحادية والخمسون والرابعة والاربعون قادمتين من الوطن ، وغدتا اهلا لحرب الصحراء . وارتفعت قوتنا في السلاح المدرع الى سبعة الوية تشتمل على اكثر من ألف دبابة ، اكثر من نصفها من طراز غرانت وشيرمان الاميركيين ، وغدا تفوقنا في الكم مضاعفا ، بينما غدونا متعادلين في الكيف ، وحشدت ، لاول مرة في الصحراء الغربية ، قوة مدفعية ضخمة وحسنة التدريب لتأييد الهجوم المتوقع في كل لحظة .

واصبح السلاح الجوي في الشرق الاوسط تابعا لمفاهيم القيادة العليا البرية واحتياجاتها العسكرية ، دون ان نضطر ، بسبب وجود شخص عظيم كماريشال الجو تيدر على رأسه ، الى اتخاذ سابقات متسرعة تمليها الاوقات الحرجة . فقد كانت العلاقات بين القيادة الجوية والجنرالات الجدد ، على احسن ما يرام . وغدا لسلاح الجو الصحراوي الذي يقوده ماريشال الجو كوننغهام ، قوة تربو على الخمسمائة والخمسين طائرة . وكان ثمة مجموعتان بالاضافة الى الطائرات العاملة من مالطة ، تضم نحوا من ستمائة وخمسين طائرة ، مهمتها تدمير موانىء العدو وطرق تموينه عبر البحر المتوسط والصحراء . واذا اضفنا الى المجموع مائة طائرة اميركية من المقاتلات والقاذفات المتوسطة ، تبين ان مجموع الطائرات العاملة غدا الفا ومائتي طائرة .

وابلغنا اليكساندر في مختلف البرقيات ان الرابع والعشرين من تشرين الاول قد اختير موعدا لعملية « الخطوة السريعة » وهو الاسم الذي اطلقناه على الهجوم ، وقال الجنرال في احدى برقياته : « ولما لم يكن هناك جناح مكشوف ، فان المعركة ستدور بحيث نخرق ثقبا في جبهة العدو . وسيمر الفيلق العاشر الذي يضم دباباتنا والذي سيؤلف رأس رمح هجومنا عبر الثقب ويتقدم في وضح النهار . ولن يكون هذا الفيلق تام السلاح والعتاد قبل الاول من تشرين الاول . وسيحتاج بعد ذلك الى نحو شهر من التدريب على الدور الذي سيقوم به » . ومضى الجنرال يقول : « وارى ان من الضروري ان يشن الهجوم الاقتحامي الرئيسي في فترة القمر البدر . وستكون العملية رئيسية وضخمة للغاية ، مما قد يستغرق بعض الوقت ، لا سيما وان خرق ثغرة مناسبة في خطوط العدو تمر منها كافة قواتنا المدرعة قد يستغرق اكثر من ساعات النهار ، لتصبح العملية حاسمة للغاية ... » .

ومضت الاسابيع واقترب الموعد . وكان السلاح الجوي قد بدأ معركته ، مهاجما قوات العدو ومطاراته ومواصلاته . وكان يولي عناية خاصة في غاراته للقوافل المعادية . واغرقنا في شهر ايلول ثلاثين في المائة من بواخر المحور التي تنقل المؤن الى افريقيا الشمالية بواسطة الغارات الجوية . وارتفع هذا الرقم في شهر تشرين الاول الى نحو اربعين في المائة. اما خسارة ناقلات الزيت فبلغت ستا وستين في المائة . ودمرنا في أشهر الخريف الاربعة ما يربو على مائتي الف طن من حمولة بواخر المحور . وكانت هذه الضربات قاصمة للغاية لجيش رومل . واخيرا وصلت الكلمة المنتظرة . فقد ابرق الينا الجنرال اليكساندر يقول : « زيب » .

وانطلق نحو من الف مدفع ليلة البدر التم في الثالث والعشرين من تشرين الاول تطلق حممها على مدافع العدو مدة عشرين دقيقة ، ثم استدارت على مواقع مشاته تقصفها بحممها . وتحت ستار هذه النار الهائلة التي يعززها قصف ضخم من الجو ، تقدم الفيلق الثلاثون بقيادة الجنرال ليز والفيلق الثالث عشر بقيادة الجنرال لومسدن لاستغلال النجاح . وأحرزت الوحدات المتقدمة انتصارات قوية ، تحت ستار النار الحامية وكانت عند الفجر قد شقت طرقا داخلية لها في صفوف العدو بعد ان قام المهندسون بتطهير الالغام وراء القوات الامامية . ولكننا لم نتمكن من اختراق حقول الالغام على عمقها اختراقا كاملا ، ولم يكن هناك امل مبكر في ان تتمكن مدرعاتنا من ا ختراق جبهة العدو . وشقت الفرقة الافريقية الجنوبية طريقها في الجنوب الى الامام لحماية الجناح الجنوبي للاندفاع ، بينما شنت الفرقة الهندية الرابعة هجمات من هضاب الرويسات وتمكنت الفرقة المدرعة السابعة والفرقة الرابعة والاربعون من الفيلق الثالث عشر من اختراق خطوط العدو الدفاعية المواجهة لهما . وقد حقق هذا الاندفاع غرضه باقناع العدو بالاحتفاظ بفرقتيه المدرعتين ثلاثة ايام وراء هذا الجزء من الجبهة ، بينما كانت المعركة الرئيسية تتطور في الشمال .

ومع ذلك لم نتمكن حتى الآن من فتح فجوة في جهاز العدو العميق من حقول الالغام والخطوط الدفاعية. وعقد مونتغمري في الساعات المبكرة جدا من صباح الخامس والعشرين من شهر آب مؤتمراً شهده كبار قادته العسكريين ، واصدر امره في غضونه الى سلاحه المدرع بالاستمرار في ضغطه قبيل الفجر وفقا لتعليماته الاصلية . وتم كسب أراض جديدة في خلال النهار بعد قتال مرير ، ولكن التضريس الطبيعي الذي يعرف برابية « الكلى » اضحى محور الصراع العنيف مع الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة والفرقة الايطالية المدرعة « اريتي » اللتين قامتا بسلسلة من الهجمات المضادة . ولم يقم مونتغمري بتشديد الضغط مسافة ابعد من جبهة الفيلق الثالث عشر ، ليبقي على الفرقة المدرعة السابعة سليمة لذروة المعركة .

ووقعت ارتباكات خطيرة في قيادة العدو في هذه الآونة ، فقد نقل رومل الى المستشفى في المانيا في نهاية شهر ايلول ، وخلفه في القيادة العامة الجنرال شتوم . واصيب شتوم بعد اربع وعشرين ساعة من بداية المعركة بنوبة قلبية مفاجئة قضى نحبه فيها ، وغادر رومل مستشفاه بطلب هتلر فاستعاد قيادته في الخامس والعشرين .

واستمر القتال العنيد طيلة السادس والعشرين من تشرين الاول ، على طول الفجوة العميقة التي تم شقها في خط العدو ، ولا سيما في جوار « رابية الكلى » . وانطلقت قوة العدو الجوية التي كانت هادئة في اليومين الماضيين من عقالها ، لتتحدى بشكل حاسم تفوقنا الجوي . ودارت عدة معارك جوية كانت تنتهي دائما في مصلحتنا . وقد افلحت جهود الفيلق الثالث عشر في تأخير حركة السلاح الالماني المدرع وان لم تفلح في منعه من الانتقال الى ما غدا يؤلف الآن القطاع الفاصل في الجبهة . لكن سلاحنا الجوي صب على هذه الحركة الجديدة حممه الشديدة .

وقامت الفرقة الاوسترالية التاسعة بقيادة الجنرال مورسهيد في هذه اللحظة باندفاع مثمر ، فقد اتجهت الى الشمال من الفجوة باتجاه البحر . وسارع مونتغمري الى استغلال هذا النجاح البارز ، فأمر القوات النيوزيلندية بالتوقف عن اندفاعها نحو الغرب ، واصدر امره الى الاوستراليين بمواصلة التقدم نحو الشمال . وهدد هذا الاندفاع مؤخرة قسم من فرقة المشاة الألمانية في الجناح الشمالي . وشعر في الوقت نفسه ان قوة هجومه الرئيسي بدأت تضغط وسط حقول الالغام ومراكز المدفعية القوية المضادة للدبابات . ولهذا فقد اعاد جمع قواته واحتياطيه لهجوم جديد نابض بالحيوية .

ونشب قتال ضار طيلة السابع والعشرين والثامن والعشرين في سبيل احتلال رابية الكلى ، امام هجمات الفرقتين المدرعتين الالمانيتين الخامسة عشرة والحادية والعشرين اللتين وصلتا من القطاع الجنوبي . وبعث الجنرال اليكساندر يصف القتال بالعبارات التالية :

« في السابع والعشرين من تشرين الاول بدأ هجوم مدرع مضاد كبير ، على النمط القديم . وقد هاجمنا الالمان خمس مرات بكل ما يتوافر لديهم من دبابات المانية وايطالية ، ولكنهم لم يحققوا اي مكسب ، وانما منوا بخسائر بالغة ، لا تتناسب مع خسائرنا ، اذ كنا نحن نحارب في موقف الدفاع ، ولم نمن الا بخسائر طفيفة . وقام العدو بهجوم آخر في الثامن والعشرين ، بعد عمليات استكشاف طويلة ودقيقة ، استغرقت طيلة ساعات النهار الباكر ، للعثور على المراكز الضعيفة وتحديد مواقع مدافعنا المضادة للدبابات . وقد جاء الهجوم بعد الظهر بشكل مركز ، بينما كانت شمس المغيب وراءهم . وكانت عمليات الاستطلاع هذه المرة اقل نجاحا منها في الايام السالفة ، ذلك لانه كان في وسع دباباتنا ومدافعنا المضادة للدبابات ان تشترك مع العدو من مدى أبعد . وعندما حاول العدو تركيز قواته للقيام بالهجوم النهائي ، تدخل السلاح الجوي الملكي ثانية على نطاق واسع مدمر . وألقت قاذفاتنا في غضون ساعتين ونصف الساعة ، نحوا من ثمانين طنا من القنابل على منطقة احتشاده التي كانت تتسع ثلاثة اميال طولا في ميلين عرضا ، وفشل هجوم العدو ، قبل ان يستكمل تشكيله . وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي حاول فيها العدو تسلم زمام المبادرة » .

وقد اغرقنا في هذه الايام الثلاثة الواقعة بين السادس والعشرين والثامن والعشرين من تشرين الاول ثلاث ناقلات عدوة للنفط ذات اهمية حيوية بقنابلنا التي قذفتها الطائرات ، فحققنا ثمرة جنية للعمليات الجوية التي كانت جزءاً لا يتجزأ من المعركة البرية .

***

واعد مونتغمري الآن خططه ومواقعه لعملية الاقتحام الحاسمة التي اطلقنا عليها اسم « الهجوم الاكبر » . ونحى عن الجبهة الفرقة النيوزيلندية الثانية والفرقة البريطانية المدرعة الاولى ، وكانت الاخيرة في حاجة ماسة الى اعادة التنظيم بعد بلائها الرائع في صد السلاح الالماني المدرع في روابي « الكلى » . وجمعت الفرقة البريطانية المدرعة السابعة والفرقة الحادية والخمسون ولواء من الفرقة الرابعة والاربعين الى بعضها وادمجت في قوة احتياطية واحدة . وتقرر ان يتولى النيوزيلنديون طليعة الاقتحام ومعهم لواءا المشاة البريطانيان (١٥١) و (١٥٢) واللواء البريطاني التاسع المدرع .

وكان الاندفاع الاوسترالي الرائع الى الامام الذي تحقق بعد قتال ضار وعنيف هو الذي احال المعركة كلها الى صالحنا . وبدأت في الساعة الواحدة من صباح الثاني من تشرين الثاني عملية « الهجوم الأكبر » . وتمكنت الالوية البريطانية الملحقة بالفرقة النيوزيلندية ، تحت ستار قوي من المدفعية من اختراق المنطقة المحصنة وانطلق اللواء المدرع التاسع في زحفه ، ولكنه واجه خطا دفاعيا جديدا قويا بمدافعه المضادة للدبابات يمتد على طول طريق الرحمن . ونشبت معركة طويلة مني فيها اللواء بخسائر فادحة ولكنه تمكن من الاحتفاظ بالرواق مفتوحاً ، وتحركت الفرقة البريطانية المدرعة الاولى لتندفع منه . وهنا وقع الصدام الاخير بين السلاحين المدرعين في المعركة . فقد هاجمت جميع الدبابات المتبقية عند العدو نتوءنا من جانبيه ، ولكنها صدت . وهنا حلت مرحلة القرار الاخير ؛ ولكن تقارير طائراتنا الاستطلاعية دلت على انه في الثالث من تشرين الثاني ، وعلى الرغم من بدء تراجع العدو ، كانت قوات مؤخرته للتغطية على طريق الرحمن صامدة في وجه الزحف الرئيسي لسلاحنا المدرع ، مانعة اياه من التقدم . ووصل امر من هتلر ، يحظر اي تراجع ، لكن النتيجة لم تعد في ايد ي الالمان . وكان علينا ان نفتح ثقباً ثانيا في الجبهة . وشن اللواء الهندي الخامس في الساعات المبكرة من صباح الرابع من تشرين الثاني هجوماً سريعا تنقلة السيارات على بعد خمسة اميال الى الجنوب من تل العقاقير ، حقق نجاحا بارزا ومنقطع النظير . وهكذا كسبنا المعركة واصبحت الطريق مفتوحة امام سلاحنا المدرع لمطاردة العدو عبر الصحراء الغربية .

وبدأ رومل تراجعه الكامل السريع ، لكن وسائل النقل لم تكن متوافرة لديه لحمل كل ما لديه من قوات ، كما ان الوقود كان ينقصه ، وعلى الرغم من ان الالمان كانوا قد قاتلوا ببسالة ، فانهم كانوا يعطون لانفسهم الافضلية على حلفائهم الايطاليين في السيارات . وترك الالوف من ست فرق ايطالية شاردين في الصحراء دون غذاء او ماء ، ودون اي امل ، سوى ان تقوم قوات الحلفاء بجمعهم للزج بهم في معسكرات الاسر .

وامتلأت ارض المعركة بحشد كبير من الدبابات المدمرة او الخربة والمدافع والسيارات . وتقول سجلات الالمان ، انه لم يبق من مجموع ٢٤٠ دبابة صالحة للاستعمال ، كانت متوافرة لدى الفرق الالمانية عند بداية المعركة الا عشرون وثلاثون دبابة في الخامس من تشرين الثاني . وكان السلاح الجوي الالماني ، قد تخلى عن محاولة الحصول على التفوق الجوي ، واصبح في امكان سلاحنا الآن ، ان يعمل بحرية وانطلاق ، لا يعيقه عائق ، مهاجما العدو بكل موارده وهو يتراجع في ارتاله العظيمة من الرجال والسيارات باتجاه الغرب . وقد اثنى رومل نفسه ثناء عاطرا على الدور البارز الذي لعبه السلاح الجوي الملكي في المعركة . وهكذا هزم جيش رومل هزيمة حاسمة ، وغدا مساعده الجنرال فون توما ، مع تسعة جنرالات من الايطاليين اسرى في ايدينا .

وبدت لنا آمال مشرقة في تحويل الكارثة التي لحقت بالعدو الى عملية ابادة . واتجه الهجوم النيوزيلندي الى الفرقة ، ولكن عندما وصل النيوزيلنديون الى هناك في الخامس من تشرين الثاني ، كان العدو قد انسحب منها . وظل هناك امل بقطع طريق تراجع العدو في مرسى مطروح التـي استهدفتها الفرقتان البريطانيتان المدرعتان الاولى والسابعـة بهجومهما . وعندما هبط ليل السادس من تشرين الثاني ، كانت الفرقتان تقتربان من هدفهما بينما كان العدو ، لا يزال يحاول الهروب من الفخ الذي يكاد يطبق عليه . وفجأة سقط المطر ، ونضبت كميات الوقود عند قواتنا الامامية . فتوقفت عمليات مطاردتنا طيلة السابع من تشرين الثاني . وادى هذا التوقف الذي استمر اربعا وعشرين ساعة الى الحيلولة دون اكمال عملية التطويق . لكن اربع فرق المانية وثماني فرق ايطالية قد توقفت عن الوجود كتشكيلات مقاتلة ، واسر نحو من ثلاثين الف جندي كما وضعت قواتنا يدها على كميات كبيرة من المعدات الحربية من مختلف الانواع . وقد سجل رومل رايه في الدور الذي لعبته مدفعيتنا في هزيمته فقال : « وقد اظهرت المدفعية البريطانية مرة ثانية تفوقها المشهور . ولعل ابرز ما فيها قدرتها على الحركة ، وسرعتها على التكيف وفقا لمتطلبات قوات الهجوم » .

❋ ❋ ❋

وقد اختلفت معركة العلمين عن سائر المعارك الاخرى في الصحراء . كانت الجبهة محدودة ، وقوية التحصين ، وتضم قوات كبيرة . ولم يكن هناك جناح يمكن الالتفاف حوله . وكان على الفريق الاقوى ، والذي يود الهجوم ، ان يحقق اختراقا في الجبهة . وتكاد معركة العلمين تذكرنا بمعارك الحرب الكونية الاولى في الجبهة الغربية . وقد تكررت في مصر ، المظاهر التي سبق لنا ان رأيناها ، ونفس المحاولات لتجربة القوى واختبارها التي شهدناها في معركة كمبريه في نهاية عام ١٩١٧ ، وفي المعارك الكثيرة التي جرت في عام ١٩١٨ واهم هذه المظاهر ، تمتع المهاجمين بطرق مواصلات قصيرة وطيبة ، واستخدام المدفعية في اكبر تركيز ممكن ، والقصف الطبلي ، وتغلغل الدبابات في هجومها الى الامام .

وكان الجنرال مونتغمري ورئيسه الجنرال اليكساندر ، قد اتقنا إتقانا كاملا هذا النوع من الحروب بفضل التجربة والدراسة والتفكير العميق . وكان مونتغمري في حد ذاته مدفعيا عظيما . وكان يؤمن ، كما قال برنارد شو عن نابليون ، ان المدافع تقتل الرجال . وسنراه دائما يحاول ان يجمع نحوا من ثلاثمائة او اربعمائة مدفع الى بعضها ، وان يجعلها تعمل عملا مشتركا ، تحت قيادة واحدة ، مركزة ، بدلا من اشتباكات البطاريات ، وهي العمليات التي لا مناص منها والتي ترافق اندفاعات السلاح المدرع في المجالات الصحراوية . وبالطبع كان كل شيء في المعركة على نطاق اضيق واصغر بكثير من معارك فرنسا والفلاندرز . وقد خسرنا اكثر من ثلاثة عشر الفا وخمسماية رجل في العلمين في اثني عشر يوما ، ولكننا خسرنا ستين الفا في اليوم الاول وحده من معركة السوم . وقد ازدادت القوة النارية الدفاعية من الناحية الثانية عما كانت عليه في الحرب الماضية . وفي تلك الايام كان المفروض ان تكون القوات المحتشدة للهجوم ضعفين او ثلاثة اضعاف القوات المدافعة لا في عدد المدافع فحسب ، بل في عدد الرجال ايضا ، لتتمكن من اختراق الجبهة المحصنة وتحطيمها رغم المدافعين عنها . ولم يكن لدينا مثل هذا التفوق في العلمين . وكانت جبهة العدو تتألف لا من سلسلة من الخطوط المتعاقبة من المراكز الحصينة ومواقع المدافع الرشاشة فحسب ، بل من منطقة عميقة للغاية بكاملها تضم جهازا دفاعيا شاملا . وامام هذه المنطقة يقوم درع هائل من حقول الالغام لم يعرف تاريخ الحروب له مثيلا من قبل في قوته وكثافته . ولهذه الاسباب كلها فان معركة العلمين ستحتل دائما صفحة مجيدة في التاريخ العسكري البريطاني .

وهناك سبب آخر لخلود هذه المعركة ، وهو انها ترمز في الحقيقة الى انقلاب في « محور الحظ » . وقد يقال ، وهذا القول صحيح ، اننا « قبل العلمين لم نحرز اي انتصار ، ولكننا بعد العلمين لم نمن بأية هزيمة » .

المشعل يضـــاء

كانت الحزازات التي يحملها الرئيس روزفلت ضد الجنرال ديغول ، واتصالاته التي يجريها عن طريق الاميرال ليهي مع حكومة فيشي ، وذكرياتنا عن تسرب الاخبار عن عزمنا على مهاجمة الاسطول في داكار قبل عامين ، قد حملتنا على اتخاذ قرار بعدم الافضاء للفرنسيين بأي شيء عن عملية « المشعل » . ولم احاول مناقشة هذا التصميم . ومع ذلك فقد كنت مدركا تمام الادراك لعلاقاتنا نحن البريطانيين بديغول ، كما كنت احس بالاساءة البالغة التي سيشعر بها من تعمدنا استثناءه من الاشتراك في المشروع . وقررت أن ابلغه قبل ان تنزل الضربة ، وكوسيلة للتخفيف من الاساءة التي ستلحق به وبحركته ، قررت ان اعهد اليه بالوصاية على مدغشقر . وكانت جميع الحقائق الموجودة امامنا في شهور الاعداد ، وكل ما جمعناه من معلومات منذ ذلك الوقت ، يبرر الرأي القائل بأن ادخال ديغول في المشروع ، سيكون من ناحية ردود الفعل الضارة التي ستصدر عن الفرنسيين في افريقيا الشمالية .

ولكن الحاجة الى ايجاد شخصية فرنسية بارزة ، كانت واضحة : وبدا لأعين البريطانيين والاميركيين ان لا شخص اصلح لهذه المهمة من الجنرال جيرو ، القائد الفرنسي ذي الرتبة العالية الذي تناقلت الاساطير قصة فراره المسرحي الغريب من السجن في المانيا . وكنت قد قابلت جيرو في ميتز عام ١٩٣٧ عندما زرت خط مماجينو ، اذ كان يتولى قيادة القطاع الاكبر فيه . وكان قد حدثني عن مغامراته في الحرب الكونية الاولى كأسير فار وراء الخطوط الالمانية . ولما كنت بدوري اسيرا فارا في حرب البوير ، فقد كان هناك ما يجمعنا . وكان قد اعاد الآن كقائد جيش بعض مغامرات الصبى بطريقة اكثر اثارة . وشرع الاميركيون في محادثات سرية مع الجنرال ، ووضعت الخطط لنقله من الريفييرا الى جبل طارق في اللحظة الحاسمة . وركزت آمال كثيرة على « دبوس الملك » ، وهو الاسم الذي اطلقناه عليه في برقياتنا الرمزية ، وقد نقل جيرو ووالده بسلام وامان على الرغم من المخاطر البحرية التي تعرض لها .

* * *

وكان اسطولنا الجبار في غضون ذلك يقترب من مسرح المعركة . وكان على معظم القوافل التي ابحرت من الموانىء البريطانية ان تمر بخليج بسكاي وان تقطع جميع طرق الغواصات . وكنا في حاجة الى قوات حراسة ضخمة ، كما كان علينا ان نخفي حشد بواخرنا التي بدأت تجتمع منذ اوائل شهر تشرين الاول في كلايد وغيرها من الموانىء الغربية ، وكذلك

ابحار بواخرنا . وقد نجحنا في ذلك اتم نجاح . وخيل للالمان وفقا لمعلومات دوائر مخابراتهم ، ان داكار ، هي هدفنا من جديد . واحتشدت نحو اربعين غواصة المانية وايطالية حوالي نهاية الشهر الى الجنوب والشرق من جزر الازور . وهاجمت قافلة كبيرة كانت في طريق العود الى سيراليون ، واغرقت ثلاث عشرة باخرة . وكان في وسعنا ان نحتمل مثل هذه الخسارة في مثل هذه الظروف . وغادرت أولى قوافل « المشعل » في الثاني والعشرين من تشرين الاول ، ولم يحل السادس والعشرون من الشهر ، حتى كانت جميع بواخر نقل الجنود السريعة في طريقها بينما كانت القوات الاميركية مبحرة الى الدار البيضاء من الولايات المتحدة . وهكذا اشتركت نحو من ٦٥٠ باخرة في العملية كلها . وقد قطعت خليج بسكاي او المحيط الاطلنطي دون ان تبصر بها الغواصات او الطائرات الالمانية .

واشغلنا في العملية كل ما لدينا من قوات بحرية . فتولت طراداتنا في الشمال مراقبة مضيق الدانمارك ومداخل بحر الشمال لتحول دون تدخل سفن العدو الحربية في سير الحملة . وقامت طرادات اخرى بحراسة الطريق الاميركي قرب جزر الازور ، وقامت القاذفات الانكليزية والاميركية بمهاجمة قواعد الغواصات على طول الساحل الفرنسي على الاطلنطي . وبدات سفن الطليعة تدخل البحر الابيض المتوسط ليلة الخامس — السادس من تشرين الثاني ، دون ان يلاحظها العدو . ولم يشاهد العدو القافلة المتجهة الى ميناء الجزائر الا في السابع من الشهر ، اي قبل اربع وعشرين ساعة فقط من موعد وصولها الى هدفها ، فهوجمت احدى بواخرها .

وطار ايزنهاور في الخامس من تشرين الثاني في رحلة خطرة فوصل الى جبل طارق . وكنت قد عهدت بالقلعة الى قيادته ليجعل منها مقره المؤقت بوصفه القائد العام لهذا المشروع الضخم الاول ، الذي تقوم به قوات بريطانية واميركية . وحشد في القاعدة القوات الجوية الضخمة اللازمة للقيام بعملية « المشعل » . وامتلأ البرزخ بالطائرات ، ووقف اربعة عشر سربا على استعداد لساعة الصفر . وكان هذا النشاط يتم بالطبع على مرأى من المراقبين الالمان ، وكان جماع املنا يتركز في ان يحسب الالمان ان القصد من هذه القوات الجوية تعزيز مالطة . وقد بذلنا كل ما وسعنا لحملهم على هذا الاعتقاد . ويبدو انهم قد اعتقدوا ذلك .

وتحدث الجنرال ايزنهاور في مذكراته بشكل واضح عن التجارب القلقة التي مر بها ليلة السابع — الثامن من تشرين الثاني وفي غضون الايام القليلة التالية . وكان الجنرال رائعا دائما في احتمال الجهود التي من هذا الطراز . وكانت ضخامة العملية التي تقوم بها ، وعدم الاطمئنان الى الطقس الذي قد يحطم كل شيء ، والانباء الصغيرة التي تصل الينا ، والتعقيدات الكبيرة عن موقف فرنسا ، والخطر الماثل من اسبانيا ، كلها امور اذا اضيفت الى القتال الفعلي كانت كافية لتجعل الامر شاقا على القائد الذي يتحمل مسؤوليات ضخمة ومباشرة .

وهنا ظهر الجنرال جيرو في الميدان . فقد جاء وقد سيطرت عليه فكرة ، بأنه سيعين قائدا اعلى في افريقيا الشمالية وان جميع الجيوش

البريطانية والاميركية التي لم يكن يعرف شيئا سابقا عن قوتها ، ستوضع كلها تحت قيادته . وكان هو يحث حثا قويا على القيام بانزال في فرنسا بدلا من افريقيا او بالاضافة اليها ، وكان يبدو له لمدة طويلة ان هذه الصورة تملك شيئا من الواقع . وطالت المناقشات اكثر من ثمان واربعين ساعة ، بينه وبين الجنرال ايزنهاور ، قبل ان يقتنع هذا الفرنسي الشجاع بنطاق الاحداث . وكنا قد علقنا الكثير من الآمال على « دبوس الملك » ، ولكن يبدو انه كان اقل الناس انخداعا ، بالنفوذ الذي يملكه على الحكام الفرنسيين والجنرالات ، وجماعات الضباط في شمال افريقيا .

* * *

وقد وقع الآن تعقيد غريب ، ولكنه جاء مؤاتيا تمام المؤاتاة في هذه اللحظة . فقد عاد الاميرال دارلان بعد ان اكمل جولة تفتيشية في شمال افريقيا الى فرنسا . وكان ولده قد اصيب بشلل الاطفال ، ونقل الى المستشفى في مدينة الجزائر . وادت خطورة حالته الى ان يعود الاميرال طائرا الى الجزائر في الخامس من تشرين الثاني . وهكذا كان دارلان في الجزائر عشية هبوط القوات الانكليزية ــ الاميركية ، وكان هذا مجرد صدفة غريبة ورهيبة . وكان المستر روبرت ميرفي ، الممثل الاميركي السياسي في افريقيا الشمالية يأمل في ان يتمكن دارلان من مغادرة البلاد قبل بدء الهجوم على سواحلها . ولكن هذا الذي اشغله مرض ولده ، تأخر يوما ثانيا ، مقيما في دارة احد الموظفين الفرنسيين ، وهو الاميرال فينارد .

وكان الجنرال جوان القائد العسكري الفرنسي في الجزائر ، هو الرجل الذي تركزت عليه آمالنا في الاسابيع الاخيرة . وكانت علاقاته بالمستر مورفي وثيقة ، وان كان المبعوث الاميركي لم ينقل الموعد الحقيقي للغزو . وقام مورفي بعيد منتصف ليلة السابع من تشرين الثاني ، لينقل اليه ان الساعة الحاسمة قد ازفت . وعلى الرغم من ارتباطات الجنرال جوان الوثيقة بنا ، وعلى الرغم من اخلاصه للمشروع ، فقد بوغت بهذه الانباء ، وكان قد ركز آماله في ان يتولى القيادة كاملة في الجزائر ، بوصفه الشخصية العسكرية الكبرى في البلاد ، لكن وجود الاميرال دارلان في المنطقة الآن ، يعرض سلطته للتحدي . وكان يعرف ان تحت تصرفه عددا لا يعدو المئات من الشبان الفرنسيين المتحمسين ، لكنه كان يعرف ايضا ان الاشراف على الادارتين العسكرية والسياسية قد انتقل من يديه الى يدي الوزير الاميرال دارلان . ولا ريب في ان القوات العسكرية والهيئات الادارية لن تطيعه الآن . وسأل مورفي ، لماذا لم يبلغوه مسبقا بساعة الصفر . كانت الاسباب واضحة ، وكانت الحقيقة لا تغير شيئا من سلطاته وصلاحياته . فدارلان موجود في المنطقة ، وهو المسيطر على كل ولاء لفرنسة فيشي . وقرر مورفي وجوان ان يطلبا الى دارلان هاتفيا ، المجيء اليهما فورا . واوقظ دارلان من نومه في الساعة الثانية صباحا ، تلبية لهذا الهاتف المستعجل من الجنرال جوان . وعندما نقل الى الاميرال نبأ الضربة التي ستقع بعد لحظات ، احمر وجهه وقال : « لقد كنت اعرف منذ زمن بعيد ان البريطانيين سخفاء ، ولكنني كنت اعتقد دائما ان الاميركان اكثر

منهم ذكاء . وها انا قد بدأت اعتقد انكم ترتكبون من الاخطاء بقدر ما يرتكبون » .

وكان دارلان الذي اشتهر امر عدائه لبريطانيا منذ امد بعيد، قد ارتبط بالمحور ارتباطا وثيقا . وكان في ايار عام ١٩٤١ ، قد وافق على منح الالمان تسهيلات في داكار ، وعلى السماح للمؤن بالمرور الى جيوش رومل عبر تونس . ولكن الجنرال ويغان كان قد اوقف هذه العملية التي تنطوي على الخيانة ، اذ كان قائدا عاما في شمال افريقيا . وافلح في اقناع بيتان برفض هذا الطلب الالماني . ولما كان هتلر في ذلك الوقت مغرقا في الاعداد للحملة الروسية المرتقبة ، فانه لم يضغط على بيتان في هذه القضية على الرغم من نصيحة قواده البحريين . ونحي ويغان في تشرين الثاني من العام نفسه عن القيادة لان الالمان كانوا يعتبرونه انسانا غير موثوق . وعلى الرغم من اننا لم نسمع شيئا جديدا عن خطط المحور لاستخدام داكار ضدنا ، فان الموانىء التونسية فتحت فيما بعد لسفن المحور ، ولعبت دورا بارزا في تأمين العتاد والمؤن لجيوش رومل في صيف عام ١٩٤٢ . وقد تبدلت الاوضاع الآن ، وتبدل معها موقف دارلان ، ولكن مهما تكن الافكار التي ساورته في مساعدة الاحتلال الانكليزي ـ الاميركي لشمال افريقيا ، فقد كان لا يزال مرتبطا ببيتان مظهرا وحقيقة . وكان يعرف انه اذا انضم الى الحلفاء ، فانه سيصبح مسؤولا شخصيا عن قيام المانيا بغزو مناطق فرنسا غير المحتلة . وكان جل ما يستطيع عمله والحالة هذه هو ان يطلب الى بيتان برقيا تخويله صلاحية العمل . وكان هذا هو السبيل الوحيد امامه بالنسبة الى الحالة المخيفة التي وجد نفسه متورطا فيها من جراء سلسلة متلاحقة من الاحداث التي تنكب فيها جانب الضمير .

وبدأت بعيد الساعة الواحدة من صباح الثامن من تشرين الثاني حركات انزال بريطانية واميركية في عدد من النقاط الى الشرق من مدينة الجزائر وغربها تحت اشراف الرير ـ اميرال بورو من الاسطول الملكي البريطاني . واتخذت العناية الكافية للغاية لتوجيه قطع الانزال الى السواحل التي اختيرت لاتمام العملية . ونجحت في الغرب طلائع اللواء البريطاني الحادي عشر نجاحا كاملا . اما الى الشرق ، فقد ادت تيارات مدية غير متوقعة الى انحراف بعض قطع الانزال التي تنقل الاميركيين عدة اميال عن مواقعها المعينة ، مما ادى الى وقوع شيء من الارتباك والتاخر . وقد حققنا لحسن الحظ عامل المباغتة : ولذا كانت المقاومة على الشاطىء معدومة تقريبا . وسرعان ما تحققت السيطرة الكاملة . وشاهدت طائرة من سلاح الاسطول اشارات ودية من الارض ، فهبطت في مطار بليده ، وتمكنت بالتعاون مع القائد الفرنسي المحلي من الحفاظ على المطار حتى وصلت قوات الحلفاء قادمة من الشواطىء .

ودار اعنف قتال في ميناء الجزائر نفسها . فقد حاولت المدمرتان البريطانيتان بروك ومالكولم ، ان تقتحما مدخل الميناء وان تنزلا قوات اميركية على الحاجز المائي لتتولى السيطرة على الميناء ، وتحتل بطارياته الساحلية ، وتحول دون اغراق السفن الفرنسية نفسها او تخريبها . وقد ادى هذا العمل الى تعرض المدمرتين لنيران البطاريات الفرنسية الساحلية ،

وانتهى الى كارثة مخيفة ، اذ سرعان ما شلت حركة مالكولم ، بينما دخلت بروك الميناء بعد المحاولة الرابعة وانزلت الجنود الذين تحملهم . وسرعان ما اصيبت باصرار بالغة وهي تحاول الانسحاب وغرقت . اما الجنود الذين نزلوا الى البر فقد وقعوا في فخ ، وارغموا على الاستسلام .

وبعث دارلان في الساعة الخامسة مساء برقية الى رئيسه قال فيها : « دخلت القوات الاميركية المدينة ، على الرغم من عملياتنا الاعاقية . وقد خولت الجنرال جون القائد العام ، التفاوض لتسليم مدينة الجزائر وحدها » . وتم تنفيذ استسلام مدينة الجزائر اعتبارا من السابعة مساء . ومنذ تلك اللحظة اصبح الاميرال دارلان في قبضة الاميركان واستأنف الجنرال جوان قيادته تحت اشراف الحلفاء .

وكانت المقاومة اعنف في وهران ، فقد اشتبكت الوحدات الفرنسية النظامية التي سبق لها ان حاربت البريطانيين في سوريا ، ورجال القيادة البحرية الذين ما زالوا يحملون ذكريات مؤلمة عن هجومنا على الاسطول الفرنسي في عام ١٩٤٠ ، مع « قوة طوارىء » اميركية . وتفرق فوج من المظليين الاميركيين كان قد غادر انكلترا لتسلم المطارات فوق اسبانيا في طقس عاصف . وتمكنت الطلائع من المضي في طريقها ، ولكن عمليات ملاحتها الجوية كانت خاطئة ، وهبطت على بعد بضعة اميال من هدفها .

وحاولت سفينتان حربيتان بريطانيتان صغيرتان ، انزال عدد من الجنود الاميركيين في ميناء وهران ، وكان الهدف ، كما في الجزائر ، منع الفرنسيين من تخريب مؤسسات الميناء ، وتدمير السفن وتحويل القاعدة في اقرب وقت ، الى قاعدة بحرية للحلفاء . وواجهت سفينتان بحريتان بريطانيتان من سفن الشواطىء ، كنا قد اخذناهما من الاميركيين بموجب قانون الاعارة والتأجير ، ويتولى قيادتهما القبطان بيترز ، نيرانا قتالة من مدى قريب ، فدمرتا ، وقتل معهما معظم من كان على ظهرهما من رجال . اما القبطان بيترز فقد نجا من الموت باعجوبة ليلقى مصيره بعد بضعة ايام في كارثة طائرة وهو في طريق العودة الى انكلترا ، وقد منح بعد موته وسام صليب فكتوريا ووسام الخدمة المتازة الاميركي . ونشطت عند الفجر المدمرات الفرنسية والغواصات في خليج وهران ، ولكنها اما ان تكون قد اغرقت او قضي عليها . وقامت الوحدات البحرية البريطانية وبينها البارجة رودني بقصف البطاريات الفرنسية الساحلية ، واستمر القتال حتى صباح العاشر من تشرين الثاني عندما شن الاميركان هجومهم النهائي على المدينة . ولم تحل الظهيرة ، حتى كان الفرنسيون يستسلمون .

ووصلت « قوة العمليات الغربية » الى الساحل المراكشي قبيل فجر الثامن من تشرين الثاني . وكان الهجوم الرئيسي على مقربة من الدار البيضاء ، مع هجمات جناحية الى الشمال والجنوب من الميناء ، وكان الطقس حسنا ولكنه معتم ، بينما كانت الامواج على الشاطىء اقل عنفا مما كان متوقعا . وساءت اوضاع الامواج بعد ذلك ، ولكن بعد ان كانت قواتنا قد اقامت لها مواطىء قدم ثابتة على الشاطىء . واستمر القتال العنيف مدة من الزمن . ودار اشتباك عنيف في البحر . ففي ميناء الدار البيضاء البارجة جان بارت التي لم يكن قد كمل بناؤها بعد ، ولكنها كانت قادرة على استخدام مدافعها الاربعة من عيار خمس عشرة بوصة . وسرعان

ما اشتبكت في مبارزة مع البارجة الاميركية مساشوسيت ، بينما اقلعت المدمرات الفرنسية يدعمها الطراد بريموغييه لمقاومة حركة النزول . والتقت هذه الوحدات وجها لوجه بالاسطول الاميركي كله . ودمرت سبع سفن فرنسية وثلاث غواصات ، ومني الفرنسيون بخسارة اكثر من الف رجل . واشعلت النيران بطن البارجة جان بارت وجنحت الى الشاطىء ، واستسلم نوغيس المقيم الفرنسي العام في صباح الحادي عشر من تشرين الثاني ، اثر امر تلقاه من دارلان . وبعث ببرقية الى فيشي يقول فيها : « لقد خسرت كل ما كان لدي من سفن القتال والطائرات بعد ثلاثة ايام من القتال العنيف » .

وكان ميرسييه ، قبطان الطراد بريموغييه ، يتمنى للحلفاء النصر ، ولكنه مع ذلك قتل على جسر طراده وهو ينفذ اوامره . ولا ريب في ان من حقنا ان نشكر الاقدار لانها لم تضعنا في مثل هذه المواقف الحرجة من الولاء المتضارب .

* * *

وبدأت نتف من الانباء ، من هنا وهناك ، تصل الى مقر قيادة الجنرال ايزنهاور في جبل طارق ، الذي اخذ يواجه الآن وضعا سياسيا خطيرا . فقد كان متفقا مع الجنرال جيرو على ان يعهد اليه بقيادة اية قوات فرنسية يمكن ان تنضم الى قضية الحلفاء . وفجأة ، وبصورة عرضية ظهر في وسط المسرح الآن ، رجل يستطيع ان يقرر بالفعل ، اذا كان بعض هذه القوات سينضم الى الحلفاء فعلا ، وبصورة نظامية ، وهو الاميرال دارلان . ولم يكن الامل بالتفاف هذه القوات حول جيرو قد وضع في موضع التجربة والاختبار بعد ، وان كانت الدلائل الاولى غير مشجعة على الاطلاق . ولهذا فقد طار الجنرال جيرو في صباح التاسع من تشرين الثاني الى الجزائر ، وطار بعده بقليل الجنرال كلارك النائب الشخصي للجنرال ايزنهاور . وكان استقبال كبار القادة العسكريين الفرنسيين في الجزائر لجيرو ، فاترا بل وباردا كالثلج . وكانت فئات المقاومة المحلية التي نظمها العملاء البريطان والاميركان قد انهارت واختفت . ولم يصل كلارك في اجتماعه الاول بدارلان الى اي اتفاق . وكان من الواضح ، ان اي رجل مسؤول ذي مكانة لن يقبل بجيرو قائدا فرنسيا اعلى . واجتمع كلارك في اليوم التالي مرة ثانية بالاميرال ، وتحدث الى ايزنهاور على « الراديو » بأن الاتفاق مع دارلان هو الحل الوحيد ، وان الوقت اضيق من ان يسمح بمناقشات برقية من لندن وواشنطن . ولم يكن جيرو حاضرا هذا الحديث ، اما دارلان فقد تردد ، على اساس الافتقار الى التعليمات من فيشي . واعطاه كلارك مهلة نصف ساعة لاتخاذ قراره النهائي . ووافق الاميرال بعد لاي على ان يصدر امره « بوقف اطلاق النار » بصورة عامة في جميع انحاء افريقيا الشمالية . وتولى السلطة الكاملة «باسم الماريشال» في جميع انحاء الممتلكات الفرنسية في افريقيا الشمالية . واصدر اوامره الى جميع الموظفين بالبقاء في مناصبهم .

* * *

واصدر دارلان امره الى الاميرال استيفا ، المقيم الفرنسي العام في تونس بالانضمام الى الحلفاء . وكان هذا تابعا امينا ومخلصا لفيشي . وقد تابع تطور الاحداث بمزيج من الفزع والاضطراب والحيرة . ولما كان اقرب الى العدو من دارلان او نوغيس اذ ان الاعداء يرابطون في صقلية وعلى حدودها الشرقية ، فقد كان وضعه اسوأ من وضعهما . وكان كبار مساعديه لا يقلون عنه حيرة وارتباكا ، وترددا في اتخاذ القرار . وفي التاسع من تشرين الثاني قامت وحدات من السلاح الجوي الالماني باحتلال مطار العوينة المهم . ووصلت في نفس اليوم قوات المانية وايطالية الى البلاد . ووجد استيفا نفسه في وضع متردد يائس بين قوات المحور القادمة من الشرق من طرابلس وقوات الحلفاء التي تحت الخطي قادمة من الغرب ، فقرر ان يظل على ولائه لفيشي ، اما الجنرال الفرنسي باريه ، الذي وجد نفسه في البداية في نفس الموقف من الارتباك والحيرة ، فقد قرر في النهاية ان يتحرك مع القسم الاكبر من الحامية الفرنسية غربا وان يضع نفسه تحت تصرف الجنرال جيرو واوامره . اما في بنزرت فقد استسلمت ثلاث زوارق طوربيد وتسع غواصات فرنسية الى المحور .

اما في الاسكندرية ، حيث كان الاسطول الفرنسي ، فقد نزعت منه اسلحته منذ عام ١٩٤٠ ، فلم تؤد المحادثات التي دارت مع الاميرال غوديفروي الى اية نتيجة ، اذ ظل على اخلاصه لفيشي ورفض الاعتراف بسلطة دارلان . وكان من رأيه ، ان الحلفاء اذا لم يحتلوا تونس ، فلن يكون في وسعهم الادعاء بأن في وسعهم تحرير فرنسا . وهكذا ظلت سفنه عاطلة عن العمل ، الى ان تمكنا اخيرا ، وبعد وقت طويل من احتلال تونس . وفي داكار قبل الحاكم الفيشي الجنرال بواسون اوامر دارلان ، بوقف المقاومة في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ، ولكن وحدات الاسطول الفرنسي هناك ، رفضت الانضمام الى الحلفاء . ولم تنضم البارجة ريشيليو والطرادات الثلاثة الى قضية الحلفاء الا بعد ان تم احتلال الشمال الافريقي بكامله .

* * *

واحدث النزول البريطاني ــ الانكليزي في افريقيا الشمالية ، نتيجة فورية في فرنسا . وكان الالمان منذ كانون الاول عام ١٩٤٠ قد اعدوا خطة تفصيلية كاملة لاحتلال ما تبقى من فرنسا . وقد نفذت هذه الخطة الآن . وكان هدف هتلر الاول الاستيلاء على الوحدات الرئيسية للاسطول الفرنسي الموجودة في طولون ، وكان الجنرال ايزنهاور ، تواقا بدوره لان يضع يده على هذه الغنيمة العظيمة ، ولكن في الوقت الذي كان يتفاوض فيه مع دارلان ، وكان هذا يبعث بدوره الرسائل الى فيشي ، كان الالمان يزحفون بسرعة نحو ساحل البحر المتوسط ، ويحتلون ما تبقى من فرنسا . وادى هذا التطور ، الى تسهيل مهمة دارلان وتبسيط وضعه . فقد اصبح في وسعه ان يقول ، وان يصدقه جميع الموظفين والقادة العسكريين ان المارشال بيتان لم يعد مطلق السراح والحرية .. واصابت الحركة الالمانية دارلان بهزة عصبية . فقد غدا مصير الاسطول الفرنسي مرة ثانية تماما كما حدث في عام ١٩٤٠ في كفة القدر . وكان الاميرال الشخص

الوحيد الذي يستطيع انقاذه . فسارع الى العمل بشكل حاسم . وابرق بعد ظهر الحادي عشر من تشرين الثاني الى فرنسا يقول ان على اسطول طولون أن يخرج الى عرض البحر ، اذا كان في خطر الوقوع عاجلا في ايدي الالمان .

واراد الاميرال دوفان وزير بحرية فيشي الوقوف الى جانب دارلان ، ولكنه كان عاجزا عن القيام بأي عمل في وجه لافال ، وازاء موقف القادة الفرنسيين في طولون . وكان الاميرال دي لابورد ، القائد العام لاسطول فرنسا في البحر الابيض المتوسط ، معاديا للبريطانيين بصورة تنطوي على التعصب . وعندما سمع بنزول الحلفاء في شمال افريقيا ، اراد ان يخرج الى البحر وان يهاجم قوافل الحلفاء . وقد رفض اطاعة نداءات دارلان بالمجيء الى افريقيا ، وعندما وصل الالمان الى قطاع القاعدة البحرية الفرنسية ، تم الوصول الى اتفاق لاقامة قاعدة حرة حول الميناء ، يتولى الجنود الفرنسيون حراستها . وجرت محاولات لوضع الميناء في حالة دفاعية قوية ، ولكن الالمان طلبوا في الثامن عشر من تشرين الثاني انسحاب جميع الجنود الفرنسيين من المنطقة ، واستقال الاميرال دوفان في اليوم التالـي .

وقرر الالمان الآن القيام بعمل حاسم ضد الاسطول . وجرت العملية في السابع والعشرين من تشرين الثاني . ولكن شجاعة واخلاص عدد من الضباط بينهم الاميرال لابورد نفسه ، جعلت من الممكن القيام بعملية تخريب جماعية للاسطول ، تمهيدا لاغراقه . وبالفعل ، غرقت بارجة وطرادان ـ بارجتان وسبعة طرادات وتسع وعشرون مدمرة وزورق طوربيد وست عشرة غواصة بالاضافة الى مجموعة اخرى من السفن الحربية بلغ مجموعها كلها ثلاثا وسبعين .

* * *

وقتل الاميرال دارلان بعد نحو من شهر . فبعد ظهر الرابع والعشرين من كانون الاول كان يقود سيارته من دارته الى مكتبه في القصر الصيفي . وفي مدخل المكتب اطلق شاب في العشرين من عمره يدعى بونييه دي لا شابيل النار على الاميرال ، فأصابه اصابة بالغة قضى نحبه متأثرا منها بعد نحو من ساعة وهو على مائدة العمليات في مستشفى قريب . وكان القاتل الشاب يقنع نفسه منذ وقت طويل ، متأثرا بحالة عقلية معينة بأنه منقذ فرنسا من الزعامة الشريرة . وقد حوكم امام محكمة عسكرية بأمر من جيرو ، وكم كانت دهشته عظيمة ، عندما وجد حكم الاعدام ينفذ فيه رميا بالرصاص بعيد فجر السادس والعشرين من كانون الاول .

وقد دفع عدد اقل من الرجال ، ثمنا أغلى من الثمن الذي دفعه دارلان لاخطائه في التقدير ولافتقاره الى الخلق . فلقد كان شخصية محترفة ، وقوية . وقد كرس حياته كلها لبعث الاسطول الفرنسي ، وسما به الى مركز لم يره منذ ايام الملوك الفرنسيين . ولم يحظ بولاء الضباط البحريين فحسب بل بولاء جميع العاملين في سلك البحرية . وكان عليه

طبقا لوعوده المتكررة ان يأمر جميع اساطيل فرنسا في عام ١٩٤٠ بالاتجاه الى بريطانيا او الولايات المتحدة او الموانىء الافريقية او اي مكان آخر خارج نطاق السيطرة الالمانية . ولم تكن هناك اية معاهدة تلزمه بذلك باستثناء التأكيدات التي كان قد قطعها على نفسه بمحض اختياره . وكان هذا قراره وتصميمه الى ان ولاه الماريشال بيتان وزارة البحرية في ذلك اليوم البشع ، يوم ٢٠ حزيران عام ١٩٤٠ . ومن المحتمل ان يكون قد تأثر بعد ذلك بدوافع ذات طابع اداري ، فكرس ولاءه لحكومة الماريشال بيتان . وتوقف عن ان يكون بحارا واصبح سياسيا ، فاستبدل المجال ، الذي يعرفه اكمل معرفة واعمها بمجال آخر لا يسترشد فيه الا بالضغائن التي يحملها على بريطانيا والتي تعود في تاريخها كما ذكرت سابقا الى ايام معركة الطرف الاغر ، التي قتل فيها احد اجداده .

واظهر في مركزه الجديد انه رجل تصميم وحزم ، ولا يفهم تماما القيم الاخلاقية والمعنوية لما يفعله . وكان الطموح هو الحافز على الاخطاء التي ارتكبها . ولم يكن افقه كاميرال يتسع الى ابعد من الاسطول ، كما ان افقه كوزير لم يتسع الى ابعد من منافعه الشخصية والمحلية . وظل يمثل طيلة عام ونصف قوة عظمى في فرنسا المحطمة . وفي الوقت الذي هبطنا فيه على الارض الافريقية الشمالية . كان ولا شك الوارث الذي لا ينازع للماريشال العجوز . وها هو فجأة يتعرض لسيل دافق من الاحداث المذهلة التي سقطت عليه .

وقد تحدثت عن المتاعب التي مر بها . فجميع المناطق الفرنسية في شمال افريقيا وغربها اخذت تتطلع اليه ، وقد منحه غزو هتلر لفرنسة فيشي السلطة المطلقة كما منحه الحق ايضا ، في اتخاذ قرار جديد حاسم . وقد أتى للحلفاء الانكليز والاميركان الآن بكل ما يحتاجون اليه تماما ، واعني به صوت فرنسا ، الذي يطيعه حتما جميع ضباط فرنسا وموظفيها في هذا المسرح الواسع الذي انغمس الآن في الحرب . وقد وجه ضربته الأخيرة لمصلحتنا ، وليس من حق اولئك الذين افادوا فائدة كبيرة من انضمامه الى صفوفنا ان يسيئوا الى ذكراه . وفي وسع قاض صارم ومنصف ان يقول ، ان واجبه كان يحتم عليه ان يرفض كل حديث مع الحلفاء الذين اساءوا اليهم في الماضي ، وان يتحداهم ليفعلوا ما يشاءون به . ولكن من حقنا ان نفرح جميعا لانه اتخذ النهج المعاكس . وقد كلفه هذا حياته ، ولكنه كان قد استنفد اكبر قسط من هذه الحياة ولم يبق له منها الكثير . وقد اتضح في هذا الوقت انه كان مخطئا في انه لم يأمر الاسطول الفرنسي بالابحار الى الموانىء الحليفة او المحايدة في حزيران عام ١٩٤٠ ولكنه كان على صواب كل الصواب في قراره المخيف الثاني . ولعل اكثر ما حز في نفسه من الم انه فشل في اجتذاب اسطول طولون . وقد اعلن دائما ان هذا الاسطول يجب ان لا يقع في ايدي الالمان . ولم يفشل في الوفاء بهذا التعهد امام التاريخ . فلروحه الرحمة ، ولنشكر الله ، أن الاقدار لم تشأ لنا ان نواجه الامتحان العصيب الذي واجهه والذي تحطم تحت وطأته .

عودة الى الماضي

عادت الى مخيلتي احداث الماضي القريب ، هذه الاحداث التي لا بد لي من ذكرها في هذا الفصل ، لكي ابقي القارىء مطلعا على جميع جوانب هذه القصة المأساة عن الحرب العالمية الثانية . وهذه الاحداث تتعلق برحلتي الاولى الى واشنطن واجتماعي بالرئيس روزفلت ، فقد سافرت على ظهر البارجة الجديدة « الدوق اوف يورك » مع فريق يتألف من اللورد بيفر بروك ممثلا وزارة الحربية ، والاميرال باوند ، اللورد الاول للاميرالية ، وبورتال ماريشال الجو ورئيس اركان حرب سلاح الطيران ، والفيلد مارشال دايل الذي خلفه الآن الجنرال بروك في مهمة رئاسة اركان حرب الامبراطورية . كذلك رافقني اللورد موران الذي اصبح في عام ١٩٤١ مستشاري الطبي بصورة دائمة ، وكانت هذه اول رحلة يرافقني فيها ، واصبح بعد ذلك ملازما لي في جميع رحلاتي ، ولا شك في اني مدين بحياتي لعنايته الفائقة بصحتي . وبالرغم من انني كنت لا انجح في اقناعه بالالتفات الى نصائحي التي اسديها له حين يمرض هو ، وبالرغم من انه لم يكن يثق بطاعتي المطلقة لارشاداته الطبية ، الا اننا اصبحنا صديقين حميمين . على كل حال ، لقد استطعنا ان نتغلب على جميع ما اصابنا من علل .

وكنا آملين في ان نجتاز المسافة خلال سبعة ايام بنسبة عشرين عقدة في الساعة، بعد ان نقوم بتعرجات وانحناءات لكي نتجنب الغواصات. وقد كانت تعليمات السير تقضي بأن نتوجه من المضيق الايرلندي الى خليج بسكاي . وكان الجو سيئا جدا ، فقد كان البحر هائجا والعواصف شديدة . كما امتلأت السماء بالغيوم المتلبدة . وكان علينا ان نجتاز طريق ذهاب الغواصات وايابها المتد بين موانىء فرنسا الغربية ، واماكن الصيد في الاطلنطي . وقد كان عددها كبيرا الى الحد الذي حمل الاميرالية الى ان تصدر الامر الى قبطان بارجتنا بأن يواصل السير بحراسة المدمرات المرافقة وان لا يسير امامها ، لكن المدمرات لا تتمكن من قطع اكثر من ست عقد في الساعة ، خاصة في هذه البحار القاسية والجو العاصف . وهكذا اجتزنا الدورة حول ساحل جنوب ايرلندة في اكثر من ٤٨ ساعة ، كما مررنا على مسافة اربعماية ميل من بريست . وقد حالت الغيوم الكثيفة بين الطائرات وبين مرافقتنا عدا طائرة واحدة استطاعت ان ترافقنا . وعندما صعدت الى الجسر ، رايت زرقة السماء التي لم نكن نرحب بها . ولم يحدث شيئا على كل حال ، وسارت الامور على طبيعتها . وبقيت البارجة الكبيرة تمخر عباب البحر بحراسة المدمرات ، ولكن كاد صبرنا ان يفرغ من هذا البطء في السير . وفي الليلة التالية اقتربنا من نهر الغواصات . وقال الاميرال باوند ، الذي اتخذ قرارا لنفسه يقضي بوجوب

تحطيم احدى غواصات العدو قبل ان تتمكن من نسفنا باحدى طوربيداتها.
وكان الليل مظلما حالك السواد ، وبذلك استطعنا ان نتجاوز مدمراتنا الحارسة ، واسرعنا وحدنا باقصى سرعة ممكنة في هذا الجو المدلهم . وقد اعترض اللورد بيفر بروك على هذا وقال انه كان من الافضل لو قمنا بسفرنا في غواصة بدلا من البارجة .

وكان باستطاعة موظفي « الرموز » ان يلتقطوا بواسطة اللاسلكي عددا من الرسائل . وكان في استطاعتنا ايضا ان نرد على بعضها الى حد ما . وحين انضمت الينا بعض الوحدات الاخرى والتي قدمت من جزر الازور ، كان في وسعها ان تستقبل باشارات المورس الواضحة رسالات بالرموز ، ثم لا تلبث ان تبتعد عنا مسافة مئة ميل ، ثم نعود لنرسل رسائلنا دون ان تكشف مكاننا ، ومع كل هذا فنحن لا زلنا في قلب الحرب ، وكان هناك الكثيرين من الذين يهوون اللاسلكي ....

كانت الحرب قائمة ومشتعلة على جميع الجبهات . فاليابان هاجمت هونغ كونغ في نفس الوقت الذي قامت بهجومها الغادر على بيرل هاربور . ولم يكن عندي ادنى شك في مصيرها نتيجة للضغط الهائل الذي تقوم به القوات اليابانية . وكنت قد مانعت قبل سنة تقريبا تعزيز حاميتها ، اذ ان فقدانها هو شيء مؤكد ، وكنت ارى ان الافضل تخفيض الحامية الى عدد رمزي ، ولكنني سمحت للآخرين في التغلب علـى رأيي فارسلنا بالتعزيزات الى الجزيرة ، وها هي الآن تواجه مهمة لا تقوى على احتمالها ، وقد صمدت اسبوعا كاملا ، كما انخرط في سلاح المقاومة كل من يقوى على كل السلاح في مقاومة شبه يائسة . وقد فاق احتمال الرجال المدنيين البريطانيين صلابة الحامية العسكرية . الا ان هذه الصلابة استنفدت يوم عيد الميلاد ، واصبح الاستسلام لا بد منه . وسرعان ما جابهتنا كوارث اخرى في الملايو ، اذا رافقت عمليات الانزال اليابانية في الجزيرة غارات عنيفة على مطاراتنا واصابت قوتنا الجوية الضعيفة بالشلل ، وقد دمرت مطاراتنا الشمالية واضحت غير صالحة للاستعمال . ولم ينته الشهر الحالي ، حتى كانت قواتنا التي شاركت بعدة معارك عنيفة قد اصبحت على بعد ١٥٠ ميلا من اماكنها الاصلية التي كانت فيها عندما قامت بهجومها الاول ، بينما انزل اليابانيون ثلاث فرق كاملة من ضمنها فرقة الحرس الامبراطوري . وفاقت الطائرات اليابانية التي ملأت السماء كل ما كنا نتوقعه من خسارة ، وقد دافعنا بشدة بالرغم من خسائرنا الهائلة .

* * *

كان كل فرد من افراد فريقنا يعمل دون كلل ، وكانت البارجة « الدوق اوف يورك » تواصل سيرها باتجاه الغرب ، وتركزت جميع افكارنا على الاخطار الجديدة التي تهددنا بالاضافة الى ما تخلفه هذه الاخطار من مشاكل يترتب علينا حلها . واخذنا نتطلع بلهفة شديدة مع كثير من القلق الى اول مقابلة سنجريها كحلفاء مع الرئيس الاميركي ومستشاريه السياسيين والعسكريين . وكنا نعلم قبل ان نغادر الوطن ان الهجوم المخادع على بيرل هاربور قد استفز الشعب الاميركي بأسره . وظهر لنا من التقارير الرسمية ومن مقتطفات الصحف الاميركية ، ان

غضبة الشعب الاميركي ستنصب على راس اليابان . وكنا نخشى ان لا تفهم النسبة الحقيقية للحرب ، وكنا نشعر بخطر مائل من ان الولايات المتحدة ستستأنف الحرب ضد اليابان في المحيط الهادي ، وتتركنا وحدنا لنقاتل المانيا وايطاليا في قارات اوروبا وافريقيا والشرق الاوسط .

واتجهت معركة الاطلنطي الاولى بشكل ظاهر الى جانبنا ومصلحتنا . ولم نك نشك في مقدرتنا على الابقاء على خطوطنا البحرية مفتوحة . وكنا على ثقة من ان هتلر سيهزم اذا ما حاول غزونا في جزيرتنا . وقد شجعتنا شدة المقاومة الروسية . وكان تفاؤلنا كبيرا وفي محله نتيجة لحملة ليبيا ، كما ان جميع خططنا المقبلة يتوقف عليها الاستمرار بسيل التموينات الاميركية على اختلاف انواعها ووصولها الينا ، كتلك المؤن التي هي الآن بطريقها عبر الاطلنطي . وكنا قبل كل شيء نعتمد اعتماداً كليا على الطائرات والدبابات وعلى ما تزودنا به احواض السفن الاميركية من بواخر تجارية . وكان الرئيس روزفلت حتى اليوم ، بكونه شخصا غير محارب ، على استعداد لارسال كميات كبيرة من الاسلحة والذخيرة للقوات الاميركية المسلحة الينا ، علما ان قواته العسكرية لم تكن قد شاركت في الحرب فعليا بعد . لكن هذه العمليات ستصبح معقدة في المستقبل بعد أن اعلنت الولايات المتحدة الاميركية الحرب على المانيا وأيطاليا واليابان . وبذلك ستكون الافضلية في السلاح من نصيب بلاده وحاجاتها . وكنا بعد محاولة هتلر لغزو روسيا ، قد ضحينا بالكثير من المؤن والذخائر التي كانت مصانعنا تنتجها لمعاونة الجيوش السوفياتية في دفاعها ، وقد ارسلت كذلك الولايات المتحدة الى روسيا كميات ضخمة من المؤن كان المفروض ان ترسل الينا. ولكننا وافقنا على ارسالها لروسيا بسبب اعجابنا الشديد بالمقاومة الشديدة التي ابداها الروس في دفاعهم عن بلادهم بوجه الغزاة الالمان .

ولكن كان من الصعب علينا ان نؤخر تزويد قواتنا بالسلاح اللازم لها ، وخاصة جيشنا الباسل الذي كان يخوض معارك ضارية في ليبيا ، والذي كان بحاجة ماسة الى السلاح والعتاد . وكان علينا ان نفترض ان مبدأ (الافضلية لاميركا) سيكون المبدأ الاساسي الذي ستتمسك حليفتنا به . وكنا نخاف من مضي وقت طويل قبل ان تبدأ القوات الاميركية في العمل بشكل واسع ، وان نتعرض نحن في هذا الوقت الطويل من التجهيز والاعداد الى العسر والضيق . وسيحدث هذا في وقت يفرض علينا مواجهة عدو رهيب في الملايو والمحيط الهندي وبورما والهند . ومن الظاهر ان توزيع المؤن يتطلب عناية فائقة ، لا سيما وانه سيصادف متاعب كثيرة ودقيقة في الوقت نفسه . وكان قد وصلنا نبأ يقول ان برامج الاعارة والتأجير وارسال المعدات سيتوقف في الوقت الحاضر ريثما يتم تعديلها . ومن حسن الطالع ان انتاج الذخائر والطائرات في معاملنا قد تضاعف ووصل الى المستوى المطلوب وسيصل في وقت قريب الى مستوى اضخم . ولكن في الوقت الذي كنا نبحر فيه في بارجتنا ، كنا نرى الازمات الكثيرة ماثلة أمام اعيننا وخاصة منع بعض الادوات واللوازم الضرورية التي تؤثر على كل انتاجنا . وكان اللورد بيفر بروك متفائلا ، كعادته في أوقات الازمات ، فاعلن ان امكانات الولايات المتحدة هائلة جدا وهي لا تعد ولا تحصى ، وان طاقات الشعب الاميركي بعد ان تحول الى الجهاد ستكون

اكثر مما يتصوره العقل . وهو يظن بأن الاميركيين انفسهم لا يدركوا مدى قوتهم في ميدان الانتاج . وسيتفوق المجهود الاميركي على جميع ما هناك من ارقام قياسية ، وسيكون كافيا للجميع . ولا ريب في ان اللورد بيفر بروك كان مصيبا في حكمه .

الا ان جميع هذه الاعتبارات تقلصت امام المشكلة الاستراتيجية الرئيسية . فهل سيكون باستطاعتنا اقناع الرئيس روزفلت ورؤساء اركان القوات المسلحة ان هزيمة اليابان لا تؤدي الى هزيمة هتلر ، بينما تؤدي هزيمة هتلر الى هزيمة اليابان وذلك خلال وقت قصير ؟ وقد امضينا الساعات الطوال في دراسة هذه المشكلة الخطيرة . واعد رئيس الاركان والجنرال دايل وهوليس وضباطه مذكرات عديدة تتعلق بهذا الموضوع ، كما اكدوا جميعهم بأن الحرب لا يمكن ان تتجزأ . وسيبدو لنا عما قريب ان جميع ما كنا نخشاه لم يكن له اي مبرر على الاطلاق .

* * *

وكانت هذه الرحلة ، بما فرضته علي من تخفيف اعباء الاعمال العادية ، دون جلسات وزارية نعقدها ولا اشخاص اجتمع بهم ، من استعراض احداث الحرب بصورة كاملة كما كنت اراها وأشعر بها . وتذكرت ما قاله نابليون عن قدرته على تركيز التفكير على المواضيع مدة طويلة دون ان يشعر بتعب او يحس باعياء . وحاولت ان افعل هذا بواسطة عرض افكاري ، خطيا واملائها . ورغبة مني في تهيئة نفسي لمقابلة الرئيس ، وللمحادثات مع الاميركيين ، وللتأكد من وجود رئيسي الاركان باوند وبورتال معي بالاضافة الى الجنرال ديل ، ومن التثبت من الحقائق في الوقت المناسب بواسطة الجنرال هوليس وموظفي السكرتارية ، فاعددت ثلاث مذكرات ، عن مجرى الحرب في المستقبل كما ارى وجوب سيرها . وقد استغرق العمل في كل مذكرة اربع ساعات او خمسا ، يوميا لمدة ثلاثة ايام على التوالي . ولما كانت الصورة كلها مرتسمة في ذهني ، فان اعداد هذه المذكرات تم بكل سهولة وان كان ببطء . وعندما كنت انتهي من كل وثيقة بعد ان اعود الى تدقيقها كنت ابعث بها الى زملائي المحترفين كتعبير عن آرائي الخاصة . وكانوا بدورهم يعدون مذكرات من جانبهم لمؤتمرات الاركان المشتركة . وقد سرني حين وجدت ان الانسجام قائما بين المذكرات التي اعددتها وبين مذكرات القادة العسكريين، على الرغم من ان آرائي تبحث النواحي العامة وآرائهم تبحث النواحي الفنية ، وذلك بالنسبة الى المبادىء والقيم . ولم تقع اية خلافات ادت الى قيام مناقشات ، ولم تتطلب الا بعض الحقائق تصحيحا لها . وهكذا على الرغم من ان ايا منا لم يتقيد بصورة متزمتة او دقيقة ، فقد وصلنا جميعا نحمل مجموعة من العقائد ذات طابع انشائي كنا كلنا على اتفاق بصددها .

وتضمنت المذكرة الاولى الاسباب التي تحملنا على ان نجعل هدف حملاتنا في عام ١٩٤٢ في المسرح الاوروبي احتلال جميع سواحل افريقيا والشرق الادنى من داكار الى الحدود التركية ، بقوات بريطانية وامريكية : وتناولت المذكرة الثانية الاجراءات التي يجب اتخاذها لاعادة السيطرة على

المحيط الهادي ، وحددت ايار عام ١٩٤٢ ، كالشهر الذي يمكن فيه تحقيق هذه الغاية . وأسهبت في الحديث بصورة خاصة عن ضرورة مضاعفة عدد حاملات الطائرات ، والاسراع في انتاجها بأعداد وافرة ، وحددت المذكرة الثالثة كهدف نهائي تحرير اوروبا بانزال جيوش بريطانية واميركية ضخمة، في اية منطقة يعتقد انها خير مكان لمثل هذا الانزال في المناطق التي تحتلها المانيا ، وحددت عام ١٩٤٣ ، كموعد لتوجيه هذه الضربة العظيمة .

وقد رويت قصص عدة ، في كتب ومقالات ، عن كراهيتي العميقة لعمليات واسعة النطاق في القارة ، حتى بات من المهم ان أروي الحقيقة وأؤكدها . فقد كنت اعتبر دائما ان الهجوم الحاسم على البلاد التي تحتلها المانيا في اوروبا وعلى نطاق واسع هو السبيل الوحيد لكسب الحرب وكنت ارى اختيار صيف عام ١٩٤٣ ، كهدف للقيام بهذا الهجوم . وكنت منذ نهاية عام ١٩٤١ ، اقدر ان هذه العملية المرتقبة ، تحتاج الى اربعين فرقة مدرعة ، والى نحو من مليون جندي من القوات الاخرى وذلك في المرحلة البدائية . وعندما الاحظ عدد الكتب التي صدرت والتي تفترض بصورة خاطئة انني لم اكن أؤيد غزو القارة ، ارى ان الفت نظر القارىء الى هذه الوثائق الصحيحة والرسمية ، التي كتبتها في هذا الوقت والتي سنعود الى الحديث عنها فيما بعد .

وقد قدمت هذه المذكرات الثلاث الى الرئيس قبل عيد الميلاد واوضحت له انها بالرغم من تعبيرها عن آرائي الشخصية ، الا انها لا تتعدى نطاق الاتصالات الرسمية التي جرت بين ضباط اركاننا . وكنت قد وضعتها في شكل وثائق مقدمة الى لجنة رؤساء اركان الحرب البريطانيين . وقلت له ايضا ، انني لم ارغب في اطلاعه عليها فحسب ، بل رأيت ان من المهم ان يعرف شيئا مما يدور في رأسي ، ومما اريد ان افعله ، ومما ستحاول بريطانيا العظمى من ناحيتها أن تنفذه . وقد قرأها الرئيس فور تسلمه لها وسألني في اليوم التالي اذا كان في امكانه الحصول على نسخ منها . وبالطبع وافقت على ذلك بمنتهى السرور .

وشعرت بأن الرئيس كان يفكر في نفس الخطوط التي كنت افكر فيها بالنسبة الى الاعمال في الشمال الافريقي الفرنسي . وها نحن قد غدونا الآن حلفاء ، ويجب ان نعمل بالاشتراك وعلى نطاق واسع. واصبحت واثقا من انني والرئيس سنجد مجالا فسيحا للاتفاق ، وان الارض ممهدة تمام التمهيد لذلك . وهكذا غدوت متفائلا ، وحصلت كما سيرى القارىء على موافقة الرئيس النهائية على القيام بحملة اطلقنا عليها اسم « عملية المشعل » في افريقيا الشمالية ، وقد قدر لها ان تكون اول هجوم برمائي عظيم نقوم به بالاشتراك معا .

وبينما من الحيوي جدا ان نضع الخطط للمستقبل ، ومن المحتمل احيانا أن نتكهن بنتائجه من بعض النواحي ، الا ان من المتعذر تحديد الاوقات المعينة لمثل هذه الاحداث العظيمة التي قد تتعطل او تتأخر نتيجة عمل العدو او ضرباته المقابلة . ولقد حققنا جميع الاهداف التي وضعتها في المذكرات الثلاث عن طريق القوات البريطانية والاميركية . ولكن آمالي بأن يتمكن الجنرال اوكنلك من تطهير ليبيا قبل شباط عام ١٩٤٢ ، قد منيت بالفشل . فقد مر بسلسلة من الانتكاسات الباعثة على الالم ، والتي

سأشرحها عما قريب . وشجع هذا الانتصار هتلر ، فقرر القيام بمجهود واسع النطاق لاحتلال تونس ، وسرعان ما بعث بنحو من مائة الف جندي من قواته الجديدة عبر ايطاليا والبحر الابيض المتوسط . وهكذا تحتم على الجيوش البريطانية والاميركية ان تخوض حملات اطول واضخم في افريقيا الشمالية مما تصورت في البداية . وهكذا فرض تأخر لا يقل عن اربعة شهور على البرنامج الموضوع ، ولم تتمكن قواتنا الحليفة من تحقيق السيطرة على جميع ساحل افريقيا الشمالية من تونس الى مصر ، حتى شهر ايار من عام ١٩٤٣ ، ولهذا لم يكن في الامكان تحقيق المشروع الاعظم لعبور قناة المانش وتحرير فرنسا . وهو المشروع الذي كنت اعمل لتحقيقه واتطلع اليه بفارغ الشوق ، في ذلك الصيف ، وتقرر تأجيله تبعا لذلك عاما كاملا ، أي حتى صيف عام ١٩٤٤ .

وقد اقنعتني المعلومات التي حصلنا عليها بعد الحرب ، والتفكير الطويل فيها ، بأننا كنا سعداء الحظ جدا ، لخيبة الامل التي لحقت بنا بالنسبة لتوقيت خططنا . فتأجيل عام كامل في موعد الغزو قد انقذنا مما كنا سنتعرض له من مخاطر هائلة ، ومن كارثة محتملة تهز العالم بأسره بأصدائها . ولو كان هتلر حكيما لو فر على نفسه الخسائر التي مني بها في شمال افريقيا ولواجهنا في عام ١٩٤٣ في فرنسا ، بضعف القوات التي واجهنا بها في عام ١٩٤٤ ، وقبل ان تكون الجيوش الاميركية التي تم اعدادها حديثا ، قد وصلت الى ما وصلت اليه من نضوج وتفوق ، وقبل ان تكون تلك الاساطيل الضخمة من سفن الانزال والموانىء العائمة قد تم صنعها . وانا واثق الآن ، بأن عملية « المشعل » لو انتهت كما خططت لها ان تنتهي في عام ١٩٤٢ ، أو حتى لو لم نحاولها مطلقا ، وقمنا بمحاولتنا لعبور المانش في عام ١٩٤٣ ، لمنينا بهزيمة قاتلة من الطراز الاول كان في امكانها ان تترك اثرا لا يقدر على نتيجة الحرب كلها . وقد ازداد ادراكي لهذه الحقيقة طيلة عام ١٩٤٣ ، وتقبلت كشيء لا مناص منه ، تأجيل عملية « السيد الاكبر » ، على الرغم من تفهمي تمام التفهم لما كان يحس به حلفاؤنا السوفيات من غضب وسخط .

* * *

وكان من المقرر ان نمخر عباب البوتوماك ، ونصل الى البيت الابيض ولكن صبرنا كان قد نفد بعد عشرة ايام في البحر ، وكنا تواقين الى انهاء رحلتنا . ولهذا اتخذنا العدة للطيران من « هامبتون رودز » ، وهبطنا بعد تخييم الظلام في الثاني والعشرين من كانون الاول في مطار واشنطن . كان الرئيس ينتظرنا هناك في سيارته . وقبضت على يده القوية اهزها براحة وسرور . وسرعان ما وصلنا الى البيت الابيض الذي غدا بيتنا في كل ناحية من النواحي طيلة الاسابيع الثلاثة التالية ، وهنا رحبت بنا السيدة روزفلت التي لم تترك وسيلة الا اتبعتها لتضمن لنا الراحة .

وعلي ان اعترف هنا ان عقلي كان مشغولا للغاية في هذه الفترة بدوامة الاحداث ، وبالمهام الشخصية التي كان علي ان انفذها ، حتى ان ذاكرتي لم تع على الرغم من ايقاظها الا ذكريات غامضة عن تلك الايام . لقد كان المظهر البارز بالطبع اتصالاتي بالرئيس . فقد كنا نرى بعضنا عدة

ساعات كل يوم ، وكنا نتناول الغداء معا وثالثنا هاري هوبكنز . ولم تكن احاديثنا تتعدى حدود العمل ، وتوصلنا الى الكثير من الاتفاق على عدد من النقاط ، صغيرها وكبيرها . امـا فرصة العشاء فكانت مناسبة اجتماعية ، ولكنها ودودة ايضا ومقتصرة على عدد صغير من الناس . كان الرئيس يقوم باعداد اقداح الكوكتيل الاولية بنفسه ، وكنت اقوده بمقعده من غرفة الجلوس الى المصعد . كدليل على الاحترام ، واتصور السير وولتر رالي ، وهو ينشر عباءته امام الملكة اليزابيث ، وتكون في نفسي حب قوي جارف نما مع سنوات الزمالة الطويلة لهذا السياسي القوي ، الذي فرض ارادته اكثر من عشر سنوات على المسرح الاميركي ، والذي كان فؤاده يستجيب للكثير من الحوافز التي كانت تستثيرني . ولما كنا نحن الاثنين بحكم العادة او الضرورة مرغمين على القيام بمعظم اعمالنا ونحن في الفراش ، فقد كان يأتي لزيارتي في غرفتي عندما يشعر بالميل الى ذلك ويشجعني على زيارته في غرفته . وكانت غرفة هوبكنز امام غرفتي التي انا مقيم فيها والى جانبها غرفة الخرائط التي اعدت لي بسرعة . وقد اهتم الرئيس بالغ الاهتمام بهذه الغرفة التي اتقن الكابتن بيم اعدادها . وكان يحب ان يأتي وان يدرس بعناية الخرائط الكبيرة لجميع مسارح الحرب التي سرعان ما اصبحت تغطي جميع الجدران والتي تبدو عليها جميع حركات الجيوش والاساطيل بوضوح ودقة وجلاء . ولم يمض طويل وقت حتى كان الرئيس قد أعد لنفسه غرفة خرائط من الطراز الاول .

ومرت الايام وكنا نحسبها بالساعات . وسرعان ما ادركت ان علي بعد عيد الميلاد مباشرة ان اخطب في كونغرس الولايات المتحدة ، وبعد ايام اخرى في برلمان كندا في اوتاوه . وتفرض مثل هذه المناسبات الكثير من الاعباء على حياتي وقواي ، وكانت بالاضافة الى ما نعقده من مشاورات يومية ، وما اقوم به من اعباء عادية ، ولا ادري كيف مررت بكل هذه الامور .

واقتصر عيد ميلادنا على احتفالات بسيطة ، فقد اقيمت شجرة عيد الميلاد التقليدية في حديقة البيت الابيض ، والقيت انا والرئيس خطابين قصيرين من الشرفة على الجماهير الكبيرة التي احتشدت في الظلام . ومضيت مع الرئيس الى الكنيسة يوم الميلاد ، وشعرت بالهدوء الروحي في الصلاة البسيطة ، وتمتعت بالاشتراك في انشاد الاناشيد المعتادة ، ونشيد « آه يا بلدة بيت لحم الصغيرة » الذي لم اكن قد سمعته من قبل ، ولا ريب انه كان ثمة الكثير من المناعة لحماية ايمان كل من يعتقد بالملكوت الروحي في العالم .

* * *

واديت واجب القاء الخطاب في مجلس « كونغرس » الولايات المتحدة بمزيد من الاثارة القلبية . وكانت المناسبة مهمة بالنسبة الى ما آمنت بانه التحالف الغالب للشعوب الناطقة بالانكليزية . ولم يسبق لي قبل ذلك اليوم ان القيت خطابا في برلمان اجنبي . ولكن بالنسبة الي ، والى ما ادعيه من دم اميركي يسري في عروقي عن طريق الجد الخامس لامي الذي كان ملازما في جيش جورج واشنطن ، فقد شعرت بشيء من الحق في ان اتكلم

الى ممثلي الجمهورية العظيمة حول موضوع قضيتنا المشتركة ولا ريب في انه كان من الغريب ان تسير الامور على هذا النحو ، واحسست مرة ثانية ، بانه قد يكون لي العذر ، في انني استخدمت ، رغم عدم جدارتي ، في خطة مقررة .

وقضيت طيلة يوم عيد الميلاد اعد خطابي . ورجا لي الرئيس حظا طيبا عندما مضيت في السادس والعشرين من كانون الاول في رعاية رئيسي مجلسي الشيوخ والنواب من البيت الابيض الى دار الكابيتول . وبدا لي ان هناك حشودا كبيرة من الناس على جانبي الطريق ولكن اجراءات الامن التي تفوق في دقتها في اميركا ، ما الفناه في بريطانيا ، ابقت هؤلاء الناس بعيدين عن الطريق بينما كانت تحيط بسيارتي سيارتان او ثلاث ملأى برجال الشرطة المسلحين احسن تسليح وهم في ملابسهم العادية . وعندما خرجت من السيارة اردت ان امشي الى جماهير الهاتفين لاحييهم تحية الاخوة ، ولكن حراسي رفضوا السماح لي بذلك . وعندما دخلنا الى القاعة ، كان المنظر عظيما ومؤثرا ، وكانت القاعة نصف الدائرية ، التي اراها عبر مجموعات من مكبرات الصوت ، مكتظة بالناس .

وعلي ان اعترف ، بانني لم اشعر باي ارتباك ، وكنت واثقا من نفسي هذه المرة ، اكثر من مرات عدة ، ظهرت فيها امام مجلس العموم . واستقبل الحاضرون ما قلته بمنتهى اللطف والعناية . وقد تلقيت من المستمعين ما كنت اتوقعه من هتاف وضحك ، تماما في النقاط التي كنت اريد هذا الهتاف او الضحك فيها . وكان أعلى رد فعل منهم ، عندما كنت اتحدث عن الهجوم الياباني فقلت : « ترى اي نوع من الناس يعتقدون اننا منه ؟ » وتفجرت من جميع انحاء الجمعية الجليلة جميع مشاعر القوة والعزيمة المتمثلة في الامة الاميركية . فهل من يشك في أن كل شيء سيسير سيرا مرضيا ؟ وعندما انتهيت خرج معي رئيسا المجلسين الى المكان الذي كانت تقف فيه الجماهير محيطة بالبناء ، لاحييها تحية قلبية ، وسرعان ما اقبل رجال دائرة المخابرات في سياراتهم فطوقوني وعادوا بي الى البيت الابيض ، حيث كان الرئيس ، وقد اصغى الى خطابي كله ، فهنأني على نجاحي .

* * *

وسافرت بالقطار ليلة ٢٨ ــ ٢٩ كانون الاول الى اوتاوه لاحل ضيفا على الحاكم العام اللورد اثلون . وشهدت في التاسع والعشرين اجتماعا لوزارة الحرب الكندية . وبعد قليل قدمني المستر مكنزي كينغ رئيس الوزراء الى زعماء المعارضة من حزب المحافظين وتركني معهم . ورأيت هؤلاء السادة يلتهبون ولاء وتصميما ، ولكنهم يشعرون ببعض الالم ، لان الحظ لم يشأ ان يشرفهم بشن الحرب هم انفسهم ، وشاء ان يحملهم الى ان يصغوا الى الكثير من العواطف التي يعبر عنها خصومهم الاحرار الآن بعد ان كانوا هم الذين رفعوا لواءها طيلة حياتهم .

وتحدثت في الثلاثين من كانون الاول الى البرلمان الكندي . وكان اعداد هذين الخطابين اللذين القيتهما عبر الاطلنطي ، واللذين اذيعا على العالم قاطبة ، في غمرة كل ما كان علي من عمل تنفيذي لم يتوقف لحظة

واحدة ، امرا مجهدا كل الاجهاد . وليس الالقاء بالعبء الثقيل على السياسي المخضرم ، ولكن الاختيار ، وانتقاء ما يجب ان يقال ، وما يجب ان لا يقال في مثل هذا الجو المكهرب ، عملية شاقة . وقد بذلت طاقتي . ولعل اكثر نقطة لاقت نجاحا في خطابي الكندي ، كانت تلك المتعلقة بحكومة فيشي التي كانت كندا لا تزال تحتفظ معها بعلاقات دبلوماسية فقد قلت :

« لقد كان من واجبهم في عام ١٩٤٠ ، وكان من مصلحتهم ان يذهبوا الى شمال افريقيا ، حيث يظلون على رأس الامبراطورية الفرنسية . وكان بامكانهم ان يحتفظوا في افريقيا ، بمساعدتنا ، بقوة بحرية متفوقة . وكان في وسعهم أن ينالوا اعتراف الولايات المتحدة وان يستخلصوا جميع الذهب الذي كان مودعا لهم وراء البحار . ولو فعلوا هذا آنذاك ، لكان من المحتمل اخراج ايطاليا من الحرب قبل نهاية عام ١٩٤٠ ، ولكان في وسع فرنسا ان تحتل مكانها في مجالس الحلفاء وفي مؤتمر الصلح بين المنتصرين . ولكن قادتهم العسكريين ضللوهم . وعندما حذرتهم بأن بريطانيا ستقاتل وحدها على الرغم من ما قد يفعلونه ، قال قادتهم العسكريون لرئيس وزرائهم ولمجلس وزرائهم المنقسم على نفسه : « بعد ثلاثة اسابيع ستقطع رقبة انكلترا وكأنها دجاجة » . ولكن اية دجاجة قطع راسها ! واية رقبة ! » .

كان هذا رائعا ، واستشهدت لاعود الى الماضي بالاغنية التي وضعها السير هاري لودر عن الحرب الماضية والتي مطلعها :

« لو تطلعنا جميعا الى تاريخ الماضي لامكننا ان نقرر اين نقف » .

وكنت قد كتبت في اوراقي عند الاشارة اليه عبارة « ذلك الكاتب الساخر العظيم » . وهنا داهمتني فكرة « الشاعر الموسيقار » . وكانت فكرة رائعة . ولا ريب انه يسمعني وسيسر بهذا التعبير ، وكم سرني انني وجدت الكلمة المناسبة حقا ، لهذا الشاعر الذي استطاع بأناشيده الملهمة وحياته الباسلة ان يقدم خدمات لا تعد ولا تحصى لشعبه الاسكوتلندي ولامبراطوريته البريطانية .

وكنت محظوظا في توقيت خطبتي في واشنطن وأوتاوه . فقد جاءنا في الوقت الذي كان في امكاننا جميعا ان نحتفل فيه بانشاء الحلف الاعظم ، بكل ما لديه من احتمالات القوة الهائلة ، وقبل ان يسقط علينا ذلك الجلمود الكبير من الدمار على ايدي الهجوم الياباني الذي أعد اعدادا رائعا منذ مدة طويلة . وبينما كنت اتحدث بلهجة الواثق المطمئن ، كنت اكاد احس بالسياط المتوقعة ستنهال عما قريب على اجسادنا العارية . وكان علينا جميعا ، بريطانيا وهولنده ، والولايات المتحدة ، ان ندفع جزيات مخيفة في المحيطين الهندي والهادي ، وفي جميع الجزر والاراضي الآسيوية التي تتدفق عليها موجاتهما . فامامنا فترة غير محدودة من الكوارث العسكرية ، وعلينا ان نتحمل اشهرا طويلة من الظلام والاجهاد والهزيمة ، قبل ان يطلع علينا الضوء من جديد . وعندما عدت بالقطار الى واشنطن عشية رأس السنة ، طلب الي أن امضي الى العربة الملأى بكبار رجال الصحافة في الولايات المتحدة . ولم اكن مغرقا في الخيال عندما تمنيت لهم عاما جديدا ميدا وانا اقول : « لنشرب نخب عام ١٩٤٢ ، عام التعب

والجهد ، والكفاح والخطر ، والخطو البعيد في طريق النصر ، فليأخذ الله بيدنا جميعا فيه ، لنخلص منه بشرفنا وسلامتنا » .

* * *

كان المشروع الاول الذي قدمه الرئيس روزفلت الي فور وصولي من [illegible] ، وضع بلاغ جليل الشأن ، توقعه جميع الدول المشتبكة في حرب مع المانيا وايطاليا او اليابان . وقد اعدت مع الرئيس الاساليب التي اتبعناها في صياغة شرعة الاطلنطي ، فأعددنا مسودات البيان ، ثم دمجناها مع بعضها . وقد كنا على اتفاق كامل من ناحية المبدأ والعاطفة حتى وفي اللغة ايضا . وسرعان ما بوغتت وزارة الحرب ، ودهشت من النطاق الذي اعددنا فيه الحلف الاعظم . وتبودلت الرسائل بسرعة ، واثيرت بعض النقاط والمصاعب بصدد الحكومات والسلطات التي يجب ان توقع هذا الاعلان ، وترتيبها . وقد تنازلنا بسرور عن مكان الصدارة الى الولايات المتحدة . وعندما عدت الى البيت الابيض من كندا ، كان كل شيء قد أعد لتوقيع ميثاق الامم المتحدة . وتبودلت البرقيات بين واشنطن ولندن وموسكو ، ولكن كل شيء قد تقرر الآن . وقد بذل الرئيس كل ما لديه من جهد لاقناع لتفينوف ، السفير السوفياتي ، الذي عاد الى الظهور بعد تبدل الاحداث ، لقبول عبارة « الحرية الدينية » ، وقد دعي لتناول الغداء معنا في غرفة الرئيس خصيصا لهذه الغاية . ولكن كان هذا الرجل بعد التجارب الشاقة التي مر بها في بلاده ان يكون حريصا كل الحرص . ودار حديث طويل بينه وبين الرئيس عن الروح وعن عذاب جهنم . ولعل الوصف الذي تلاه الرئيس علينا في مناسبات عدة عما دار بينه وبين السفير الروسي كان مؤثرا كل التأثير . وقد وعدت المستر روزفلت في احدى هذه المناسبات باني سأوصي بتعيينه رئيسا لاساقفة كنتربري في حالة فشله في انتخابات الرئاسة المقبلة . لكنني على اي حال لم اقدم مثل هذه التوصية لا الى الملك ولا الى مجلس الوزراء ، لان الرئيس كسب معركة الانتخابات في عام ١٩٤٤ . ونقل لتفينوف ، وهو يرتعد فرقا قضية « الحرية الدينية » الى ستالين ، فقبلها كأمر واقع ، واضافت وزارة الحرب البريطانية عبارة « الضمان الاجتماعي » . وهي عبارة وافقت عليها بوصفي واضع اول قانون ضد البطالة . وتم الاتفاق بعد اسبوع من تبادل البرقيات مع جميع انحاء العالم على « الحلف الأعظم » .

ونقل الرئيس في مقعده المتحرك الي في صباح الاول من كانون الثاني وخرجت من الحمام ووافقت على المسودة . وليس في وسع البيان وحده ان يكسب المعارك ولكنه اوضح من نحن ، ولماذا نحارب . وفي ساعة متأخرة من ذلك اليوم وقع روزفلت وانا ولتفينوف وسونغ ممثلا الصين هذه الوثيقة الجليلة في مكتبة الرئيس عهد الى وزارة الخارجية الاميركية بأن تجمع تواقيع الاثنين والعشرين دولة الباقية . وارى ان نسجل هنا الصيغة النهائية للوثيقة :

« اعلان مشترك من الولايات المتحدة الاميركية والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلندة ، واتحاد الجمهوريات السوفياتية

الاشتراكية ، والصين ، واوستراليا ، وبلجيكا ، وكوستاريكا ، وكوبا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وجمهورية الدومنيكان ، السلفادور ، واليونـان ، وغواتيمالا ، وهايتي ، وهندوراس ، والهند ، ولكسمبورغ ، وهولنده ، وجنوب افريقيا ، ويوغوسلافيا ، تعلن الحكومة الموقعة ادناه ، والمذكورة اعلاه . . .

« انها لما كانت قد اسهمت في برنامج مشترك للاهداف والمبادىء التي تضمنها البيان المشترك الصادر عن رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، ورئيس وزراء المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلنده والمؤرخ في الرابع عشر من آب عام ١٩٤١ ، والمعروف بشرعة الاطلنطي .

« واقتناعا منها بأن النصر النهائي على اعدائها ، ضروري للدفاع عن الحياة والحرية والاستقلال والحرية الدينية ، والحفاظ على الحقوق الانسانية والعدالة في بلادها وفي غيرها من البلدان ، ونتيجة لاشتراكها الآن في صراع مشترك ضد قوى الوحشية التي تحاول استبعاد العالم ، تعلن :

« ١ ـ تتعهد كل حكومة باستخدام جميع مواردها العسكرية والاقتصادية ضد اعضاء الميثاق الثلاثي ، والدول المنضمة اليه والتي تشتبك هذه الحكومة في حرب معها .

« ٢ ـ تتعهد كل حكومة بالتعاون مع الدول الموقعة على هذه الوثيقة، وبأن لا تعقد هدنة منفردة او صلحا منفردا مع العدو .

« يمكن للدول الاخرى ان تنضم الى هذا الاعلان شريطة ان تكون هذه الدول مسهمة اسهاما ماديا ، في الكفاح للانتصار على الهتلرية » .

وقد يرى مؤرخو المستقبل ان اهم نتيجة وصل اليها مؤتمرنا الاول في واشنطن ، الذي اطلق عليه اسم « اركاديا » ، واخلدها اثرا ، هي اقامة ما اشتهر اسمها « بلجنة رؤساء اركان الحرب المشتركة » . وقد تقرر ان يكون مقرها في واشنطن . ولما كان وجود رؤساء اركان الحرب البريطان ، على مقربة من حكومتهم ضروريا ، فقد رؤي ان يمثلهم في واشنطن عدد من كبار الضباط يجعلون من العاصمة الاميركية مستقرا لهم . وكان هؤلاء الممثلون على اتصال يومي ، بل بين كل ساعة واخرى بلندن ، وكان في وسعهم ان يعربوا عن آراء رؤساء اركان الحرب البريطان ويوضحوها الى زملائهم الاميركان ، حول اية مشكلة تتعلق بالحرب ، وفي كل وقت من اوقات النهار او الليل وكانت المؤتمرات المألوفة التي عقدت في اماكن مختلفة من العالم كالدار البيضاء وواشنطن وكويبك وطهران والقاهرة ومالطة والقرم ، قد جمعت بين الرؤساء انفسهم مدات تطول احيانا الى حدود الاسبوعين . وكان نحو من تسع وثمانين جلسة من مجموع المائتي جلسة رسمية التي عقدتها لجنة رؤساء اركا نالحرب المشتركة طيلة الحرب ، قد عقدت اثناء هذه المؤتمرات وفي هذه الجلسات اتخذت معظم القرارات الهامة .

وكان الاجراء المعتاد ان تعقد كل لجنة من لجان رؤساء اركان الحرب للدولتين اجتماعا على انفراد في الصباح . ثم يجتمع الفريقان اثناء

النهار ، فيصبحان لجنة واحدة ، وقد تعودان الى الاجتماع بصورة مشتركة في المساء . ويدرس المجتمعون ، سير الحرب العامة ، ويقدمون توصيات متفق عليها الى الرئيس والي . وفي غضون ذلك استمرت اتصالاتنا المباشرة ، نحن الاثنين ، طبعا أما عن طريق الهاتف او البرق ، وكنا بدورنا ندرس في جلسات تمهيدية ، ثم تصدر الاوامر على ضوء ذلك الى قادة الميدان . ومهما كان الخلاف حادا في وجهات النظر في لجنة رؤساء اركان الحرب المشتركة ، ومهما كان النقاش صريحا وحاميا ، فان الولاء المخلص للقضية المشتركة كان يتغلب على المصالح الشخصية او حتى القومية . وعندما تصل القرارات الى رئيسي الحكومتين فيوافقان عليها ، فان الجميع يسيرون في تنفيذها باخلاص مطلق ولا سيما اولئك الذين جاءت القرارات مخالفة لوجهات نظرهم الاولى . ولم يحدث قط ان فشلنا في الوصول الى اتفاق فعال على العمل ، او الى ارسال تعليمات واضحة الى القادة في كل ميدان . وكل قائد منفذ كان يعرف ان هذه الاوامر التي يتلقاها ، تحمل معها مفاهيم الحكومتين المشتركة وسلطة خبرائهما . ولم يحدث قط ان اقيم بين اي حلفاء جهاز حربي عملي كجهازنا ، وانني لمسرور أن الجهاز مستمر فعلا أن لم يكن شكلا حتى يومنا هذا .

ولم يكن الروس ممثلين في لجنة رؤساء اركان الحرب المشتركة . لقد كانت جبهتهم بعيدة وحيدة مستقلة ، ولم تكن هناك حاجة ولا سبيل لاندماج بين أركان الحرب . وكان يكفي أن نعرف الاتجاه العام لحركاتهم وموعدها ، وان يعرفوا هم اتجاه حركاتنا وموعدها . وقد حافظنا من هذه الناحية على أكبر قدر من الاتصال الوثيق بهم بقدر ما سمحوا هم لنا به . وكان رؤساء اركان الحرب للدول الثلاث ، يجتمعون حول مائدة واحدة في المؤتمرات المشتركة التي عقدناها في طهران ويالطة وبوتسدام .

مؤتمر كازابلانكا

بما ان اقرار عملية « المشعل » قد وضع حدا لكل امل في القيام بعملية عسكرية رئيسية لعبور قناة المانش في فرنسا المحتلة عام ١٩٤٣ ، وهو ما ايدته الدوائر العليا ، واقتنع به الرأي العام العسكري الامريكي كافة .

ولما كنت غير ميال لتأييد هذا الراي ، لاني كنت لا أزال آمل في ان تسقط دويلات الشمال الافريقي (الفرنسي) بما فيها تونس ، بعد قتال لا يتعدى بضعة اشهر ، وفي مثل هذه الحالة قد يصبح غزو فرنسا المحتلة شيئا محتملا في شهر تموز او شهر آب عام ١٩٤٣ .

لهذا فقد كنت أود ان ارى اعداد القوة العسكرية الامريكية في بريطانيا يسير جنبا الى جنب مع عملية « المشعل » وذلك طبق امكانياتنا الملاحية . وكانت مستلزمات الحرب تقتضينا ان نخوضها بكل قوتنا ، حتى نرغم العدو على اتخاذ موقف الاهبة والاستعداد لتلقي الضربات التي تنهال عليه منا . وسوف تقرر الاحداث وحدها ما اذا كان من حظنا ان نعبر القناة ، او اننا سنتابع السير وراء طبيعة قواتنا في البحر المتوسط ، او نقوم بالعمليتين في وقت واحد .

وكان من الضروري لمصلحة العمليات الحربية في جملتها — ولا سيما لمساعدة روسيا وعونها — ان تدخل جيوش بريطانيا وامريكا من الغرب أو من الشرق في السنة القادمة .

وكان هناك خطر من الا نتمكن من القيام بأي عمل من العملين في السنة نفسها ، فحتى لو سارت حملتنا — لاحتلال الجزائر وتونس — سيرا مرضيا وسريعا فاننا سنجد انفسنا مضطرين للموافقة على احتلال سردينيا او صقلية ، او كليهما وان نؤجل عبور المانش حتى عام ١٩٤٤ ، وقد يعني هذا اضاعة عام كامل على الحلفاء الغربيين ، مع وجود نتائج قد تكون قاضية لا بالنسبة على وجودنا ، بل الى النصر الحاسم ، ولم نكن على استعداد لان نخسر خمسمائة الف او ستمائة الف طن من الحمولة الملاحية في كل شهر الى ما لا نهاية ، وكان امل المانيا الوحيد ان ترانا في حال من التوقف والجمود .

وكان رؤساء اركان الحرب البريطانيون يدرسون جميع هذه الخطط حتى قبل ان نعرف نتائج معركة العلمين ، او ما سوف يحدث لحملة « المشعل » وقبل أن تظهر نتائج المعركة الرهيبة الدائرة من أجل احتلال مداخل القوقاز ، وكان واضعو الخطط الحربية مشغولين معهم ايضا ، وكانت تقاريرهم في رأيي سلبية وكنا على جانبي المحيط الاطلنطي ندنو من مرحلة جمود مشتركة .

وكانت القيادة البريطانية تؤيد الاتجاه الى البحر الابيض المتوسط والقيام بهجوم على سردينيا وصقلية مستهدفا ايطاليا ، اما خبراء الولايات المتحدة فقد فقدوا كل امل في عبور القناة في عام ١٩٤٣ ، الا انهم في الوقت نفسه كانوا غير راغبين في اقحام انفسهم « في منطقة البحر الابيض » في مشروعات قد تحول بينهم وبين تحقيق مشروعهم العظيم في عام ١٩٤٤ .

هذا وقد كتبت في شهر تشرين الثاني اقول : (يبدو لي أن مخاوف الامريكيين جميعها ستتضاعف بالنسبة لمخاوف البريطانيين ، وهي مخاوف يسهم فيها كل فرع من فروع قواتنا المسلحة اسهاما فعالا) .

وسيقال دون شك ، أن سير الاحداث قد برهن على أن نظرتي الى الآمال المترتبة على الاحتمالات في الشمال الافريقي كانت مغرقة في التفاؤل ، وأن القيادة الامريكية كانت على حق في الاعتقاد بأن قرار « المشعل » الذي اتخذناه في شهر تموز ، قد أغلق الطريق على احتمال نجاح عبور القناة في عام ١٩٤٣ ، وبالفعل كان هذا ما حدث تماما .

ولم يكن من المتوقع في هذا الوقت أن يبذل هتلر مجهودا كبيرا في تعزيز الجناح التونسي ، حيث ارسل ما يزيد على مائة الف من خيرة جنوده بطريق الجو والبحر ، وذلك على الرغم من الخسائر الفادحة التي منى بها ، وكان هذا العمل من جانبه خطأ استراتيجيا جسيما ، وكانت خطوته هذه سببا في تأخير انتصارنا في افريقيا عدة اشهر ، ولو انه حافظ على القوات التي تم أسرها في شهر ايار لكان بامكانه ان يعزز بها جبهته المتدهورة في روسيا ، او يحشد جزءا منها في نورماندي تؤخرنا عن الزحف حتى لو قررنا النزول في عام ١٩٤٣ .
وليس هناك الآن من يشك في أن القرار الذي اتخذناه بالانتظار حتى عام ١٩٤٤ كان قرارا حازما .

واني لاشعر بارتياح لانني لم أخدع ستالين أو اضلله ، فقد بذلت كل ما وسعني من جهد ، ومن جهة اخرى ، فلو اننا غزونا البر الاوروبي من البحر الابيض المتوسط في المرحلة المقبلة ، واصبحت الجيوش الانجليزية الامريكية في حالة اتصال كامل مع العدو ، فانني كنت راضيا بما سيفرضه القضاء والقدر .

وقد قدر لنا أن نصاب بنكسة وتوقف في الشمال الافريقي ، وعلى الرغم من اننا كنا نتمتع بعنصر المباداة والمباغتة ، الا أن اعداد قوتنا كان بطيئا بسبب قيود الملاحة الشديدة التي فرضت علينا ، وكانت عمليات التفريغ تتعرض لغارات جوية عنيفة في مينائي الجزائر وعنابه ، كما كنا نفتقر الى وسائل النقل البري ايضا ، وكان الخط الحديدي الوحيد على الساحل الذي يمتد الى مسافة خمسمائة ميل في وضع سيء للغاية ، اذ يمتد فوق مئات الجسور الكبيرة والصغيرة التي يمكن تدميرها ونسفها هذا وقد بدأت مقاومة عنيفة من الطراز الاول عندما وصلت اعداد كبيرة من جنود المانيا الى تونس بطريق الجو ، وكان عدد الجنود الفرنسيين الذين انضموا الآن الى جانبنا لا يقل عن مائة

الف ، وكان معظمهم من جنود المستعمرات ، وهم محاربون ممتازون ولكنهم يفتقرون الى العتاد الجيد والتنظيم والادارة .

هذا وقد دفع الجنرال ايزنهاور الى الامام بكل ما تحت أمرته من وحدات امريكية ، ودفعنا نحن بكل ما لدينا من قوة ، وقد تمكن لواء بريطاني من المشاة في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني «بمعونة بعض رجال الفرقة الامريكية المدرعة الاولى » من الوصول الى الجديدة ، التي تقع على بعد اثني عشر ميلا من تونس ، وكان هذا ذروة معركة الشتاء .

وحل الآن فصل الامطار ، واخذت السماء تمطر مدرارا ، حتى اصبحت مطاراتنا المؤقتة غير صالحة لهبوط الطائرات اطلاقا ، وكان سلاح الجو الالماني على الرغم من ضآلة عدده يعمل من مطارات صالحة لجميع الاجواء .

وفي اليوم الاول من شهر كانون الاول قام الالمان بهجوم مضاد ، احبطوا به الهجوم الذي كنا نعد له العدة ، مما اضطرنا في خلال بضعة ايام الى التراجع نحو المجاز ، ولم يكن في الامكان ايصال المؤن الى القوات الامامية عن طريق البحر الا على نطاق ضيق ، وكان من الصعب مدها بحاجاتها ، ولم يكن في امكاننا أن نشن هجوما من جديد حتى الثاني والعشرين من شهر كانون الاول حيث بدأنا الهجوم الذي لقي نجاحا أوليا ، الا انه عند الفجر ، توالى نزول الامطار واستمرت ثلاثة أيام حتى تعطلت مطاراتنا وغدت غير صالحة للعمل ، كما أن السيارات لم يكن في وسعها ان تتحرك الا على طرق سيئة .

ولهذا قرر الجنرال ايزنهاور في مؤتمر عقده عشية عيد الميلاد ، التخلي عن خطته لاحتلال تونس ، وأن يحاول حماية مطاراته الامامية في المنطقة التي احتلها ، حتى يحين موعد شن الهجوم من جديد ، هذا وقد استمر الالمان في تعزيز قواتهم في تونس ، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي عانوا منها بحرا ، ولم تحل نهاية شهر كانون الاول حتى كانت قواتهم قد بلغت خمسين الفا .

وكان الجيش الثامن في اثناء ذلك قد قطع مسافة هائلة ، وكان رومل قد تمكن من سحب قواته المحطمة من العلمين ، وظل الضغط مستمرا على قوات مؤخرته الا أن المحاولة التي بذلتها قواتنا للوصول قبله الى الجنوب من بنغازي قد منيت بالفشل ، وبذلك تيسر لرومل ان يستريح بعض الوقت في العقيلة ، في حين اضطر مونتغمري بعد تقدمه الطويل الى مواجهة نفس المصاعب في النقل والتموين التي عاني منها أسلافه . وفي الثالث عشر من كانون الاول ، تمكنت الفرقة النيوزيلندية الثانية من زحزحة رومل عن مواقعه ، حتى اصبح طريقه مهددا بالانقطاع بسبب الحركة الالتفافية الواسعة التي قامت بها الفرقة المذكورة ، بعد أن مني بخسائر فادحة انزلها به سلاحنا الجوي حيث واصل هجماته على طرق المواصلات الساحلية ، ولم يكن في استطاعة مونتغمري أن يتابع المطاردة في أول الامر الا بالقوات الخفيفة ، وكان

الجيش الثامن قد قطع مسافة الف ومائتي ميل منذ معركة العلمين ، واحتلت قواته « سرته » مع مطاردها يوم عيد الميلاد ، ثم تقدمت الى مركز رومل الرئيسي في البويرات في نهاية العام .

هذا وقد اعدت لجنة رؤساء اجهزة القيادة في هذه الاثناء مذكرتين ارسلتهما الى وزارة الحرب ، أوضحت فيهما آراءهما المدروسة المتعلقة بالاستراتيجية المقبلة ، واكدت في النتائج التي توصلت اليها وجود خلافات كثيرة في وجهات النظر بين اعضائها وبين زملائهم الامريكيين ، وكانت هذه الخلافات منصبة على الافضلية . اكثر منها في موضوع المبدأ ، وكان راي رؤساء أركان الحرب البريطانيين أن أفضل سياسة هي متابعة عملية «المشعل» بحماس ونشاط ، والاستعداد التام لعبور القناة في عام ١٩٤٣ ، ان أمكن ، في حين كان من رأي رؤساء أركان الحرب الامريكيين بذل غاية الجهد في محاولة عبور القناة والصمود في شمالي افريقيا ، وهكذا غدت القضية معقدة ، ولم يكن في الامكان حلها الا باجتماع أعقده مع الرئيس ، ولذا قررنا بعد نقاش طويل أن نجتمع في الدار البيضاء لبحث الموضوع والبت فيه ، وذهبت الى هناك في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٣ ، وكانت رحلتي مشوبة ببعض القلق ، وكان المسئولون عن طائرتنا « الفدائي » قد أعدوا مدفأة غازية لتوليد الحرارة ، وكانت قوتها شديدة ، وقد أفقت من نومي في الساعة الثانية صباحا وكنا فوق الاطلنطي على بعد خمسمائة ميل من أقرب نقطة برية ، واحسست بالحرارة تحرق أصابع قدمي وخيل الي انها ستبلغ حد الاحتراق بعد قليل وتشعل النار في الفراش ، ولهذا فقد أيقظت بيتر بورتال ، الذي كان نائما في مقعده ووجهت نظره الى الجهة المنبعثة منها الحرارة ، وهبطنا معا الى المكان الذي تحفظ فيه القنابل في الطائرات ، حيث كانت الطائرة من قاذفات القنابل ، فوجدت رجلين يعملان في جد ونشاط للابقاء على جهاز الحرارة الغازي مشتعلا ، وقد خيل الي ان هذه العملية خطرة من جميع نواحيها ، لما يمكن ان يسببه الجو البترولي بسبب اشتداد الحرارة من احتمال الانفجار ، وقد وافقني بورتال على رأيي ، ولذلك فقد فضلت ان نتجمد من البرد على أن نحترق ، وأمرت في الحال باطفاء أجهزة التدفئة ، وعدنا الى الراحة ونحن نرتجف من شدة البرد الثلجي حيث كنا على ارتفاع ثمانية آلاف قدم في الجو وهو الارتفاع الذي تحتم علينا ان نطير عليه لنكون فوق السحاب ، وأود أن اعترف بأن هذه الفترة كانت من الفترات السيئة التي مرت بي .

وعندما وصلنا الى الدار البيضاء ، وجدنا استعدادات طيبة في انتظارنا حيث وجدنا هناك فندقا كبيرا به عدد كبير من الغرف تكفي لنزول جميع الضباط البريطانيين والامريكيين ، وقاعات كبيرة للمؤتمرات ، وكان يوجد بجوار هذا الفندق عدد من البيوت المريحة خصصت لاقامة الرئيس واقامتي واقامة الجنرال جيرول ، والجنرال ديغول اذا قرر الحضور ، وأحيطت المنطقة كلها بالاسلاك الشائكة وتولى الجنود الامريكيون حراستها ، وكنت قد وصلت الى الدار البيضاء قبل وصول الرئيس بيومين مع أركان حربي ، وكنت أسير

في بعض الاحيان مع باوند وغيره من رؤساء أركان الحرب على الصخور وعلى الشاطىء حيث كانت الامواج الرائعة تتكسر على الصخور مرغية مزبدة ، مما يجعل النزول الى البر معجزة من المعجزات ، ولم يمر علينا يوم هادىء مطلقا ، حيث كان ارتفاع الامواج يبلغ خمسة عشر قدما وكان تكسرها فوق الصخور يتخذ شكلا مخيفا ، مما سبب انقلاب عدة قطع من سفن الانزال وعدة زوارق بما عليها من الرجال ، وفي هذه الاثناء جاء ولدي راندولف من الجبهة التونسية ، حيث كان هناك الكثير مما يتحتم علينا ان نفكر فيه ، كما كان رؤساء أركان الحرب يجتمعون ويتشاورون ساعات كل يوم .

وقد وصل الرئيس بعد ظهر اليوم الرابع عشر من الشهر ، كان لقاء حار بيننا ، وكان اشد ما أبهجني أن أرى زميلي العظيم هنا على هذه الارض المحتلة أو المحررة ، التي تمكنا معا من الاحتفاظ بها ، على الرغم من نصيحة مستشاريه العسكريين ووصل الجنرال ايزنهاور في اليوم التالي بعد طيران محفوف بالخطر ، وكان تواقا لمعرفة ما ستقرره القيادة المشتركة ، وأن يظل على اتصال بهم ، وكانت صلاحيتهم دائما فوق صلاحيته ، وبعد يوم او يومين ، وصل الكساندر ، وقدم الي والى الرئيس تقريرا عن سير تقدم الجيش الثامن ، وقد أثر القائد البريطاني اشد التأثير على الرئيس ، اذ استهوته شخصيته والانباء التي حملها ، والتي ذكر فيها ان الجيش الثامن سيستولي على طرابلس في المستقبل القريب جدا ، وأوضح لنا أن مونتغمري الذي كان يتولى قيادة فيلقين قويين ، انتزع جميع المعدات من أحدهما وسلمها الى الفيلق الثاني ، لاعتقاده بأنه على جانب كبير من القوة لارغام رومل على التراجع غربا عبر طرابلس الى خط ماريث القائم على الحدود ، والذي يؤلف حاجزا مانعا بالفعل ، وقد أثلجت هذه الانباء أفئدة الجميع وفاضت مشاعرهم بالسرور .

وبعد عشرة ايام من الدرس المتواصل للقضايا الاساسية توصل رؤساء أركان الحرب للقيادة المشتركة الى الاتفاق ، وكنت أنا والرئيس على اتصال يومي بهم وعلى علم بما يتم الاتفاق عليه لاقراره ، وقد اتفق على أن نحشد كل ما نستطيع من قوات لاحتلال تونس سواء بواسطة جيش الصحراء وكل ما يمكن للبريطانيين أن يزجوا به من الجنود في المعركة ، او بواسطة جيش ايزنهاور أو بهما معا ، وأن يكونالكسندر نائبا لايزنهاور وقائدا فعليا لجميع العمليات الحربية ، ووصلنا الى اتفاق أيضا على الخطوة التالية وهي الهجوم على صقلية أو سردينيا ، وكان من رأيي أن تكون صقلية الهدف التالي وأيدني في ذلك رؤساء أركان الحرب بالقيادة المشتركة ، أما واضعو الخطط المشتركة من الناحية الاخرى ومعهم اللورد مونتباتن فكان من رأيهم أن نهاجم سردينيا أولا ، لان في امكاننا أن نقوم بهذا العمل قبل ثلاثة اشهر من الوقت المحدد للعملية التالية ، وقد تمكن مونتباتن من اقناع هوبكنز والآخرين برأيه ، ولكني تشبثت بوجهة نظري وأصررت على الهجوم على صقلية وأيدني في ذلك جميع رؤساء أركان الحرب ، وهكذا أذعن واضعو الخطط لرأيي الا انهم قالوا انه لا يمكن البدء في هذه العملية قبل الثلاثين من شهر آب ، وهنا تدخلت شخصيا في هذه المرحلة ،

ودرست معهم جميع الارقام . ثم أصدرت مع الرئيس أوامرنا بأن يكون يوم الغزو خلال فترة البدر في شهر تموز أو ان أمكن خلال هذه الفترة من شهر حزيران ، وبالفعل بدأت عملية الهبوط من الجو ليلة التاسع من تموز ، كما بدأ النزول من البحر في صباح العاشر من الشهر نفسه .

وفي اثناء ذلك اثير موضوع ديغول ، فقد أزال مصرع دارلان على الرغم من وحشيته عقبة من طريق الحلفاء ، اذ حررهم من مشكلة التعاون معه ، وقد انتقلت سلطاته بيسر الى المنظمة التي تم تكوينها بالاتفاق مع الامريكيين خلال شهري تشرين الثاني - كانون الاول ، وملأ جيرو الفراغ الذي خلفه دارلان ، واصبح الطريق ممهدا أمام القوات الفرنسية في شمالي افريقيا وغربيها ، للانضمام الى حركة فرنسا الحرة التي يتزعمها ديغول ، لكي يجتمع شمل الفرنسيين في العالم بعيدا عن السيطرة الالمانية ، وكنت شديد الرغبة في ذاك الآن لدعوة ديغول الى الحضور ، وقد وافقني الرئيس على رأيي هذا ، وطلبت من المستر روزفلت أن يبرق اليه داعيا اياه للحضور ، ولكن الجنرال رفض تلبية الدعوة عدة مرات ، وهنا طلبت من ايدن أن يضغط عليه بشدة حتى ولو اضطر الى تهديده بأنه في حالة اصراره على عدم الحضور ، فاننا سنجد انفسنا مضطرين الى وجوب استبداله بآخر على راس حركة التحرير الفرنسية في لندن ، وقد وصل أخيرا في الثاني والعشرين من كانون الثاني ، وفي الحال هيىء له المنزل المجاور لبيت الجنرال جيرو ، ولما كان غير راغب في زيارة جيرو فقد انقضت عدة ساعات قبل أن نتمكن من اقناعه بالاجتماع به ، وبعد ذلك اجتمعت بديغول في جو عاصف فأوضحت له بأنه اذا استمر على وضع العراقيل في طريقنا فاننا لن نتردد على قطع كل علاقتنا به ، وقد ظل صامدا في موقفه ، وخرج من حجرتي الى الحديقة شامخا بأنفه ، الا أن رجالنا تمكنوا أخيرا من اقناعه بالتحدث الى جيرو ، وقد استغرق الاجتماع ساعتين أو ثلاثا ، واتفقا فيما بينهما على كل شيء ، وتوجه بعد ظهر ذلك اليوم لمقابلة الرئيس ، وقد سررت جدا لان الرجلين تفاهما تماما بصورة لم نكن نتوقعها ، وقد استهوت الرئيس تلك « النظرة الروحية في عين الرجل » الا أنه لم يكن في وسعنا أن نصل بهما الى اتفاق .

وسيجد القارىء في صفحات هذا الكتاب ، بعض البيانات القاسية عن ديغول مستمدة من أحداث الساعة ووقائعها ، ولا ريب أنني لقيت من الرجل مشكلات مستمرة ، اذ اثار لي الكثير من المتاعب والخلافات ، ولكن علاقتنا ظلت باقية تحت سيطرة عنصر قوي ، فلم يكن في وسعي أن أعتبره ممثلا لفرنسا الاسيرة والخائفة ولا حتى لفرنسا التي كان من حقها أن تقرر لنفسها حرية المستقبل الذي تريده ، وكنت أعرف انه لا ينطوي على اي شعور بالصداقة لانجلترا ، الا انني كنت أرى فيه دائما تلك الروح وذلك المفهوم الذي ستحملهما فرنسا أبد الآبدين عبر صفحات التاريخ ، وكنت احب فيه هذا المظهر المتعجرف واعجب به وان كنت اتضايق منه فهو هنا لاجىء ومنفى من بلاده لصدور حكم الاعدام ضده ، وكان في وضع يعتمد فيه كل الاعتماد

على نوايا الحكومة البريطانية الطيبة ، وعلى نوايا الحكومة الامريكية ايضا في الوقت الحاضر ، وقد احتل الالمان بلاده ، وليس له موطىء قدم حقيقي في اي مكان ، ومع ذلك فهو يتحدى كل انسان ، وكان يبدو لي حتى في أسوأ حالاته وتصرفاته معبرا عن شخصية فرنسا ، تلك البلاد العظيمة بكل كبريائها وعظمتها وطموحها ، وكان يقال استهزاء به وسخرية منه انه يعتبر نفسه ممثلا حيا لجان دارك ، التي قيل ان احد أجداده قد عمل معها ، ولكني لم أكن أرى في مثل هذا القول موضعا للغرابة ، كما كان يقال انه يحاول التشبه بكليمنصو ، ولكن هذا كان أكثر منه حكمة وأوسع خبرة في الشئون السياسية ، ولكن الرجلين كانا من الفرنسيين الذين لا يخنعون ولا يستكينون .

وهناك نقطة أخرى تستحق الذكر ، فقد بعثت الي وزارة الحرب تقريرا بما يلي :

« لقد اقترحنا اعداد بيان عن اعمال المؤتمر ، لاذاعته عن طريق الصحافة في الوقت المناسب ، ويسرني أن اعرف رأي وزارة الحرب في أن يتضمن هذا البيان اعلانا من جانب الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية يؤكد عزمها على المضي في الحرب قدما ودون هوادة الى أن تستسلم المانيا واليابان استسلاما مطلقا بلا قيد أو شرط ، واذا حذفنا ايطاليا فقد يشجعها هذا الاغفال على الخروج من الحرب ، وقد حبذ الرئيس الفكرة ، ولا ريب انها تستثير أصدقائنا في كل مكان » .

ويهمني أن يلاحظ القارىء ، أن استخدام الرئيس لعبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » عند اجتماعه التالي برجال الصحافة ، قد أثار قضايا سيتكرر ظهورها في هذه القصة ، وستكون موضع الجدل والنقاش لمدة طويلة ، فهناك مدرسة فكرية في كل من انجلترا وأمريكا ، قالت ان هذه العبارة ، قد أطالت أمد الحرب ، وكانت عاملا مساعدا للديكتاتوريين ، في الدفع بشعوبهم وجيوشهم الى حالة اليأس والقنوط ، لكنني لم أوافق هذه المدرسة الفكرية على رأيها ، لاسباب سأعرضها في سياق هذه القصة ، ولما كانت الذاكرة تخون المرء احيانا فمن الخير كل الخير أن أسرد الحقائق كماوردت في سجلاتي ووثائقي .

هذا وقد دونت وزارة الحرب في سجلاتها ، ان هذا الموضوع اثير في الجلسة التي عقدتها ظهر اليوم العشرين من كانون الثاني ، وقد اتجه النقاش لا الى عبارة الاستسلام بلا قيد ولا شرط من ناحية المبدأ ، بل الى استثناء ايطاليا منه وقد بعث الينا المستر اتلي والمستر ايدن في الحادي والعشرين من الشهر بالرسالة التالية :

« استقر رأي الوزارة على أن سيئات استثناء ايطاليا أكثر من حسناته ، نظرا لما قد يثيره هذا الاستثناء من مخاوف حتمية في تركيا والبلقان وغيرهما ، يضاف الى ذلك عدم الاقتناع بأن أثر الاستثناء سيكون نافعا ومجديا لايطاليا ، فمعرفة الشعب الايطالي بكل ما سيلقاه من قسوة وشدة سيكون أكثر تأثيرا على معنوياته من مثل هذا الاستثناء » .

ولهذا فان وزارة الحرب لم تعرب عن عدم موافقتها على عبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » المقترح تضمينها في بياننا المشترك الذي كنا في سبيل اعداده ويتضح من هذا جليا أن رغبة وزارة الحرب كانت في عدم استثناء ايطاليا من هذا الشرط ، ولا اذكر كما لا تشير وثائقي الى أنه قد دار الحديث بيني وبين الرئيس حول هذا الموضوع بعد أن وصلتني رسالة وزارة الحرب ، ومن المحتمل أن يكون ضغط العمل ، ولا سيما بحث العلاقات بين جيرو وديغول ، واجتماعاتنا بهما قد صرفنا عن هذا الموضوع ، وقد كان مستشارونا ورؤساء أركان الحرب في هذه الاثناء يشرفون على اعداد البيان المشترك الذي جاء وثيقة رسمية أعدت بعناية فائقة ، حيث نالت موافقتنا أنا والرئيس بعد أن قمنا بدراستها ، ومن المحتمل ، أنه بسبب عدم رغبتي في تطبيق « الاستسلام بلا قيد او شرط » على ايطاليا ، انني لم اثر هذا الموضوع من جديد مع الرئيس ، وجاء البيان خاليا من أي ذكر لعبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » ولما عرضته على وزارة الحرب ، وافقت عليه في صيغته النهائية .

ولذلك فقد دهشت جدا ، عندما سمعت الرئيس يتحدث بعد ذلك في مؤتمره الصحفي في الرابع والعشرين من كانون الثاني ، ويقول اننا سنفرض « الاستسلام دون قيد او شرط » على جميع أعدائنا ، حيث كان من المفروض أن البلاغ الذي اتفقنا عليه قد نسخ ما قبله من احاديث ، وقد دهش أيضا الجنرال اسماي لانه كان يعرف ما يدور بخلدي ، والذي شهد جميع المحادثات التي دارت بين رؤساء أركان الحرب عندما تم اعداد البلاغ ، ولذلك فانه عندما القيت خطابي بعد الرئيس « في المؤتمر الصحفي » كان لزاما علي أن أؤيده تمام التأييد ، وأن أوافق على كل كلمة قالها ، لان كل خلاف بيننا حتى ولو كان غير مقصود ، سيؤثر في مثل هذه الظروف تأثيرا سيئا وضارا بمجهودنا الحربي ، وهكذا فقد تحملت نصيبي من المسئولية بالاشتراك مع وزارة الحرب البريطانية .

وقد اتضح أن ما ذكره الرئيس لهوبكنز في هذا الصدد كان باتا ، فقد قال « لقد عانينا الكثير من المشقة في الجمع بين هذين الجنرالين الفرنسيين ، حتى بدا لي أن الجمع بينهما لم يكن اقل صعوبة من الجمع بين جرانت ولي « في الحرب الاهلية الامريكية » وفجأة وجدت أمامي المؤتمر الصحفي ، ولم يكن في وسعي أنا وونستون ان نستعد له ، وسرعان ما طافت بخاطري هذه الفكرة ، وهي أن جرانت قد طلب اليه فيما مضى « الاستسلام بلا قيد او شرط » وفجأة ودون ما ارادة وجدت نفسي انطق بهذه العبارة .

وقد تكون ذكريات الحرب جلية وواضحة ، ولكن يجب الا يركن المرء اليها دون تثبت او تحقيق ، ولا سيما اذا كانت تتعلق بتسلسل الاحداث ولا ريب في أنه قد صدرت عني عدة بيانات خاطئة عن حادثة « الاستسلام بلا قيد او شرط » ذلك لانني كنت اقول ما يجول بخاطري واعتقده في تلك اللحظة دون الرجوع الى السجلات والوثائق ،

ولم اكن انا الوحيد الذي خانته ذاكرته ، ذلك لان المستر أرنست بيفن أفضى ببيان مزعج في الحادي والعشرين من شهر تموز عام ١٩٤٩ في مجلس العموم ، تحدث فيه عن المتاعب التي واجهته في اعادة بناء المانيا بعد الحرب بسبب سياسة « الاستسلام بلا قيد او شرط » لانه « كما قال » لم يستشر هو ولا وزارة الحرب فيها عند اعلانها ، وقد رددت عليه ببيان في الحال لا يقل عن بيانه بعداً عن الدقة ولكن في حسن النية ، فأعلنت انني سمعت هذا الكلام لاول مرة على لسان الرئيس في المؤتمر الصحفي الذي عقد في الدار البيضاء ، وعندما عدت الى البيت في ذلك اليوم ، ورجعت الى وثائقي ، رايت الحقائق التي سردتها هنا ، وتذكرت في الحال قصة ذلك الاستاذ الذي اجتمع اليه طلابه المخلصون عندما داهمته المنية ، يطلبون منه نصيحته الاخيرة لهم فقال : « تحققوا من الاقوال التي تقتبسونها » .

وعلى الرغم من اعجاب الناس بعبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » في حينها الا أنها اعتبرت بعد ذلك لدى الكثير من الاوساط ، كواحدة من الاخطاء العظيمة التي وقعت فيها السياسة الانجليزية ـ الامريكية ، وأحرى بنا أن نتناولها بالبحث الآن ، فقد قيل أنها كانت سبباً في اطالة أمد الحرب ، وانا لا أعتقد في صحة هذا القول ، وكان السبب الرئيسي « في معارضتي المستمرة في اصدار بيان آخر يتضمن شروطنا للسلام وهو ما كان يلح علينا في اصداره » هو ما كنت أعتقده بأن أي بيان يتضمن الشروط الحقيقية والتي تصر عليها دول الحلفاء الثلاث الكبرى والتي يفرضها الراي العام علينا ، ستكون قاسية جداً . ولا يمكن أن نمحو من الاذهان عبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » خصوصاً لدى الالمان ، واني لاذكر عدة محاولات جرت لوضع مسودة شروط السلام التي يمكن أن يرضى عنها المحتلون لالمانيا ، وقد بدت هذه الشروط لي مزعجة وقاسية عندما دونت على الورق ، وفاقت في الحقيقة وفي قسوتها كل ما عمل حتى الآن ، حتى أن مجرد نشرها كان كفيلاً بأن يستثير المقاومة الالمانية .

وقد أوضحت في عدة بيانات عامة أفضيت بها ، ما انتويت انا والرئيس عمله فعلاً .

وقلت في مجلس العموم في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٤٤ ما يلي :

« ان اصطلاح عبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » لا تعني مطلقاً أن الشعب الالماني سيتعرض للاستعباد او الدمار ، وان ما تعنيه فعلاً هو أن الحلفاء لن يكونوا ملزمين بأي شيء تجاه الالمان في لحظة الاستسلام ، أو مقيدين بأي حلف أو التزام « والاستسلام بلا قيد ولا شرط » يعني أن المنتصرين سيكونون مطلقي الايدي . ولكنه لا يعني اطلاقاً أن من حقهم أن يسلكوا سلوكاً وحشياً ، أو أن يمحوا اسم المانيا من خريطة أوروبا ، واننا سنحكم ضميرنا ازاء موقفنا من الحضارة والمدنية ، ولن نلتزم بشيء تجاه الالمان نتيجة لاي عملية من عمليات المساومة ، وهذا هو معنى « الاستسلام بلا قيد او شرط » وبهذا التفسير زال كل سوء فهم لدى الالمان عن هذا التعبير » .

وكان لزاما علينا ان نختتم مباحثاتنا ، فعقدنا آخر جلسة رسمية اخيرة مع رؤساء أركان الحرب في الثالث والعشرين من كانون الثاني ، عندما قدموا الينا تقريرهم الاخير عن مشروع « ادارة دفة الحرب في عام ١٩٤٣ » ويمكن تلخيص هذا التقرير على النحو التالي :

« يجب ان تظل المهمة الاولى الملقاة على عاتق الامم المتحدة اولا القضاء على الغواصات ، وثانيا مد القوات السوفيتية بأكبر كمية من المؤن التي يكون في وسعنا نقلها الى روسيا ، وأن نستهدف من العمليات الحربية في الجبهة الاوروبية هزم المانيا في عام ١٩٤٣ ، بأقصى ما يمكن للامم المتحدة أن تحشده من قوات ضدها .

وستكون الخطوط الرئيسية للهجوم على النحو التالي :

« في البحر الابيض المتوسط »

أ — أن نستهدف من احتلال صقلية ما يلي :

١ — تأمين سلامة خطوط المواصلات في البحر الابيض المتوسط .

٢ — تخفيف الضغط الالماني عن الجبهة الروسية .

٣ — تشديد الضغط على ايطاليا .

ب — بذل الجهود الممكنة الفعالة لدى تركيا حتى تكون حقيقة لنا .

« استمرار العمليات في المحيط الهادي والشرق الاقصى بقصد الضغط على اليابان ، الى أن نبدأ الهجوم الكاسح عليها فور هزيمة المانيا ، على أن تظل هذه العمليات في حدود النطاق الذي يشير به رؤساء أركان القيادة المشتركة ، انه لن يؤثر على قدرة الأمم المتحدة عندما تحين الفرصة المناسبة لايقاع الهزيمة بألمانيا في عام ١٩٤٣ .

واخيرا عقدنا مؤتمرا صحفيا صباح الرابع والعشرين من كانون الثاني حيث حضره ديغول وجيرو وجلسا في صف واحد معي ومع الرئيس روزفلت بعد أن أرغمناهما على أن يتصافحا أمام الجمهور وأمام حشد ضخم من رجال الصحافة والمصورين ، وقد تصافحا بالفعل ، وليس في وسع الانسان ان ينظر الى هذا الحادث حتى في مثل هذه الايام المليئة بالمآسي دون أن يضحك ، هذا وقد ظل وجودي أنا والرئيس روزفلت في الدار البيضاء سرا من الاسرار التي حوفظ عليها بكل دقة وعناية ، حتى أن رجال الصحافة عندما رأونا امامهم لم يصدقوا عيونهم ، كما لم يصدقوا آذانهم عندما سمعوا أننا كنا هنا منذ أسبوعين .

وبعد هذا الزواج الاكراهي بين ديغول وجيرو — وهو الاسم الذي أطلقته الصحافة الامريكية على هذا الحادث — والذي عانينا الكثير من المتاعب في سبيل تحقيقه ، القى الرئيس خطابه أمام رجال الصحافة وقد أيدته في كل كلمة قالها .

ولما استعد الرئيس لمغادرة المدينة ، قلت له ليس في وسعك أن ترحل ، بعد أن قطعت كل هذه المسافة الطويلة لتصل الى شمالي افريقيا ، دون أن ترى مدينة مراكش ، وطلبت منه أن نقضي فيها

يومين ، لنرى معا مغيب الشمس على ثلوج جبال الاطلس ، كما الححت على هاري هوبكنز ايضا بقبول هذا الاقتراح وكان هناك منزل رائع للغاية ، لم أكن أعرف عنه شيئا ، حيث كان نائب القنصل الامريكي المستر كنيث بيندار ، قد استأجره من سيدة أمريكية تدعى تيلور ، وكان واسعا يصلح لايوائي أنا والرئيس ، فضلا عما كان يحتويه من غرف خارجية لايواء أفراد حاشيتنا ، وهكذا تقرر أن نمضي جميعا الى مراكش ، وركبت أنا والرئيس سيارة واحدة قطعنا بها مسافة مائة وخمسين ميلا من الطريق الصحراوي بين الدار البيضاء ومراكش ، وكانت خضرة الربيع قد بدأت في الظهور ، قبل أن نصل الى هذه الواحة المشهورة ، وكنت دائما أصف مراكش بأنها « باريس الصحراء » حيث تؤمها القوافل من جميع انحاء افريقيا الوسطى منذ قرون طويلة ، لتدفع الجزيات الباهظة لقبائل الجبال قبل وصولها اليها ، حيث يستمتعون بمباهج الحياة في المدينة ، ومن بينها قراءة الطالع ، وسحر الافاعي ، والمطاعم والمشارب ، وكان لكل هذه المباهج في مراكش شهرة مدوية منذ أقدم العصور .

وأمضيت مع الرئيس في السيارة زهاء خمس ساعات قطعناها في أحاديث مهمة تخللها بعض النكات ، في حين انتشر الوف الجنود من الامريكيين على طول الطريق لحمايتنا من أي خطر ، كما ظلت الطائرات تحوم فوقنا بلا انقطاع حتى وصلنا في المساء الى المنزل ، حيث أقام لنا المستر بيندار وليمة عشاء كبيرة ، وصعدت مع الرئيس الى برج المنزل ، بعد ان حملوه في مقعده ، وجلسنا نستمتع برؤية مغيب الشمس وراء ثلوج جبال الاطلس ، ومعنا خمسة عشر أو ستة عشر شخصا وهم الذين حضروا معنا مأدبة العشاء ، وكان يعمنا السرور والبهجة وأنشدنا جميعا أعذب الاناشيد ، وغنيت بمفردي ، في حين اشترك الرئيس مع فرقة « الكورس » ولما اراد الرئيس أن يغني أغنية على انفراد منعه أحد رجال حاشيته .

ولما كان على الرئيس أن يغادر مراكش فجر اليوم الخامس والعشرين في رحلته الجوية الطويلة عن طريق لاغوس وداكار فالبرازيل ، ومنها الى واشنطن ، فقد افترقنا بعد ان ودعنا بعضنا بعضا ليلة السفر ، ولكنه جاء في الصباح ، وهو في طريقه الى الطائرة ، ليكرر الوداع ، وكنت لا أزال في الفراش ، ولما كنت لا أسمح بأن يمضي وحيدا الى المطار ، فقد قفزت من الفراش ووضعت علي وشاحي ، ومضيت بهذه الصورة غير الرسمية الى المطار ، ولما وصلت الى الطائرة ، رأيته يجلس في مقعده مرتاحا ، فأعجبت بما يبدو عليه من شجاعة على الرغم مما يعانيه من عاهة جسدية ، وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالقلق من المخاطر التي سيخوض غمرتها في طريق عودته ، ولو اننا كنا متعودين على هذه الرحلات الجوية في اثناء الحرب ، الا انني ظللت اعتبرها من المغامرات الخطرة دائما ، ولكن من حسن الحظ أن كل شيء سار على ما يرام ، ثم عدت الى المنزل بعد أن ودعته حيث قضيت يومين آخرين كنت فيهما على اتصال مستمر مع وزارة الحرب للتشاور حول حركاتي المقبلة .

تركيا ـ ستالينغراد ـ تونس

وقد طرأ على الوضع الاستراتيجي للحرب في البحر المتوسط ، تحول اساسي بسبب احتلال قوات الحلفاء للشمال الافريقي واستيلائها على قاعدة ثابتة على شاطئه الجنوبي ، أمكنها أن تجعل منها قاعدة امامية للحركة ضد العدو في أوروبا ، ولما كنت أنا والرئيس نبحث منذ أمد طويل عن فتح طريق جديد لامداد روسيا ، وتوجيه ضربة الى جناح المانيا الجنوبي ، ولما كانت تركيا هي مفتاح جميع هذه الخطط ، فقد استهدفنا منذ عدة اشهر ، ان نقنع تركيا بدخول الحرب الى جانبنا ، وكان هذا هو املنا الجديد الآن لما لها من أهمية ومظهر بارز كل البروز لنجاح خططنا .

ولما كان ستالين متفقا معي ومع الرئيس على هذا الموضوع ، فقد صممت على أن اعالجه بنفسي ، في اجتماع أعقده مع الرئيس اينونو على الارض التركية ولما كانت هناك أيضا مشاغل عدة تنتظرني في القاهرة ، كما أملت في أن أزور الجيش الثامن في طريق عودتي الى الوطن ، على أن تكون زيارتي له في طرابلس التي كاد يحتلها في ذلك الوقت ، ثم أقوم بزيارة الجزائر أيضا ، حيث كانت هناك مشكلات كثيرة في وسعي أن أحلها في مكانها ، ولهذا فقد أبرقت من الدار البيضاء الى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية اقترح عليهما أن أطير من مراكش الى القاهرة لاقضي بها يومين أو ثلاثة ثم اتصل اتصالا مباشرا بالاتراك .

وقدردت وزارة الحربية بأنها تعتقد أن الاتصال المباشر بتركيا ما زال سابقا لاوانه ، وطلبت مني العودة مباشرة الى لندن ، لاقدم تقريرا الى البرلمان عن اجتماعي بالرئيس روزفلت ، ولكن بعد تبادل عدة برقيات وافقت الوزارة على خطتي ، وبعد أن تناولنا العشاء في منزل السيد بندار في مراكش ، امتطينا الطائرة « الفدائي » مساء السادس والعشرين ، وقد نمت نوما عميقا ولما استيقظت عند الفجر وجدت نفسي أجلس في مقعد مساعد الطيار بجانب قائد الطائرة فاندر كلوت ، أرقب معه للمرة الثانية شروق الفجر على مياه النيل ، ولم نكن في هذه المرة مضطرين الى الهبوط بعيدا في اتجاه الجنوب ، لان انتصارنا في العلمين كان قد جرف اعداءنا مسافة الف وخمسمائة ميل الى الغرب ، ونزلنا في المطار الذي يبعد عشرة أميال عن الاهرام ، حيث كان في انتظارنا السفير اللورد كليرن ورجال القيادة العامة في القاهرة ، واتجهنا فورا الى السفارة ، حيث وجدت السير الكساندر كادوجان الوكيل الدائم لوزارة الخارجية الذي أوفدته وزارة الحربية الى القاهرة تلبية لطلبي ، وكان في وسعنا أن نقارن الآن بين اوضاعنا

الحالية ، وبين ما كنا عليه في شهر آب عام ١٩٤٢ ، وأن نشعر باحساس من الرضا والراحة .

وعندما وصلتني الرسائل التي تشير الى ان الرئيس التركي عصمت اينونو قد اعرب عن سروره لفكرة الاجتماع المقترح ، واتخذت الترتيبات لاعداده في « اضنه » على الشاطىء على مقربة من الحدود التركية ـ السورية ، على أن يتم في الثلاثين من كانون الثاني ، توجهت في طائرة « الفدائي » لمقابلة الزعماء الاتراك وقد قطعنا المسافة في اربع ساعات ، ونحن نطير فوق البحر الابيض المتوسط بالقرب من سواحل فلسطين وسورية ، ومعنا طائرة اخرى استقلها كاذوجان والجنرالات بيروك والكساندر وويلسون وغيرهم من القادة والضباط ، وقد لقينا بعض المشقة في اثناء الهبوط في ذلك المطار التركي الصغير ، وما كدنا ننتهي من مراسم الحفاوة والاستقبال ، حتى ظهرت مجموعة من الدبابات المطلية بالميناء تزحف قادمة من الجبال ، تحمل الرئيس التركي وجميع اعضاء حكومته والماريشال شاقماق ، وقد استقبلونا بمنتهى الحفاوة والحماس ، واعدت لنا جملة عربات في القطار لنزولنا واستراحتنا لعدم وجود مكان آخر قريب نستريح فيه ، وقد قضينا ليلتين فيه ، حيث كانت تدور محادثات يومية طويلة مع الاتراك ، واحاديث ودية في اثناء وجبات الطعام مع الرئيس اينونو .

وقد دارت معظم المحادثات حول موضوعين ، اولهما ، بناء عالم ما بعد الحرب واقامة منظمة دولية ، وثانيهما ، مستقبل العلاقات بين تركيا وروسيا ، وأرى أن أسرد هنا بعض الملاحظات التي تلوتها على مسامع القادة الاتراك وفقا لسجلاتي الخاصة ، فقد ذكرت لهم انني اجتمعت بستالين ومولوتوف ، وأن الرجلين يرغبان في اقامة ارتباط سلمي وودي مع المملكة المتحدة والولايات المتحدة ، حيث في وسع الدولتين الغربيتين أن تقدما الكثير من العون في الحقل الاقتصادي لروسيا ، ومساعداتهما لها في تعويض ما لحق بها من خسائر بالغة ، ولو انني ليس في وسعي أن اتكهن بما سيقع بعد عشرين عاما ، الا اننا عقدنا معاهدة مدتها عشرون عاما مع روسيا ، لاعتقادي بأن روسيا ستركز جهودها في السنوات العشر القادمة على اعادة البناء والانشاء ، ولو انه من المحتمل ان تقع فيها تبديلات أساسية بسبب أن الشيوعية نفسها قد تعرضت للتعديل ، وأني لاومن بأن علينا أن نعيش في علاقات طيبة مع روسيا .

واذا واصلت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة العمل متعاونتين واحتفظتا بقوة جوية متفوقة ، ففي وسعهما ان تضمنا بقاء فترة طويلة من الاستقرار ، ولا ريب فان روسيا ستستفيد من هذا الوضع ، لان لديها مناطق شاسعة متخلفة تفتقر الى التطوير ولا سيما في سيبيريا .

وقد لاحظ رئيس الوزارة التركية بأنني اعربت عن رأيي في أن روسيا قد تصبح من الدول الاستعمارية ، ولما كانت مثل هذه الملاحظة جديرة بأن تحمل تركيا على التحفظ والحيطة والحذر ، فقد اجبت بأن منظمة عالمية ستقوم وستكون مسئولة عن الحفاظ على السلم

والسلامة ، وستكون أقوى من عصبة الامم السابقة ، واضفت بأنني لا اخشى شيئا من الشيوعية ، فقال رئيس الوزارة التركية ، انه يتطلع الى شيء أكثر واقعية ، فأوروبا ملأى بالسلاف والشيوعين ، ومن المتوقع أن تتحول جميع الدول المهزومة الى البلشفية والسلافية اذا هزمت المانيا ، وقد رددت عليه بأن الامور لا تسير دائما الى الاسوأ ، كما يتوقع الجميع ، وحتى اذا سارت الامور على هذا النحو ، فمن الخير لتركيا ان تكون أقوى مما هي عليه الآن ، وأن تكون أوثق ارتباطا بالمملكة المتحدة والولايات المتحدة ، واذا قدر لروسيا ان تهاجم تركيا دون أي سبب أو مبرر ، فان المنظمة العالمية التي تحدثت عنها ستستخدم بأسرها للدفاع عن تركيا ، وستكون الضمانات بعد الحرب الراهنة أقوى وأشد من تلك التي كانت قائمة قبل الحرب ، لا بالنسبة الى تركيا فحسب ، ولكن بالنسبة الى أوروبا بأسرها ، وفضلا عن ذلك فلن أكون صديقا لروسيا اذا حاولت تقليد المانيا ، واذا ما حذت حذوها فان علينا أن نحشد ضدها أكبر عدد ممكن من الدول ولن أتردد عن قول هذا لستالين نفسه .

وفي الوقت الذي كانت هذه المحادثات السياسية ذات الطابع العام قائمة على قدم وساق ، فانه كانت هناك مباحثات عسكرية أخرى يقوم بها رئيس أركان حرب الامبراطورية وغيره من القادة العسكريين البارزين ، وكانت النقطتان الاساسيتان في هذه المباحثات هما ، أولا — تزويد القوات التركية بما تحتاج اليه من عتاد قبل أن تتخذ تركيا اية خطوة سياسية بعدها ، ثانيا — اعداد الخطط لتعزيزها بالوحدات البريطانية في حالة دخولها الحرب ، وقد تم صياغة نتائج هذه المباحثات في اتفاق عسكري امكننا الوصول اليه .

وكان القصد من محادثاتي مع تركيا ، تمهيد الطريق أمامها للاشتراك في الحرب في خريف عام ١٩٤٣ ، ولكن هذا لم يحدث ، حتى بعد انهيار ايطاليا وبعد زحف الروس على الالمان من البحر الاسود ، بسبب بعض الاحداث السيئة التي وقعت في بحر ايجة في زمن لاحق من ذلك العام ، وهي ما سأتحدث عنها في مكان آخر من هذا الكتاب .

وبعد ذلك طرت عائدا الى القاهرة بعد وقفة قصيرة في قبرص ، ثم تابعت سيري الى طرابلس ، وكان الجيش الثامن قد احتلها في الوقت المحدود وهو الثالث والعشرون من كانون الثاني ، وعندما دخلت قواتنا المدينة وجدت ميناءها محطمة تماما ، كما سد مدخلها بالسفن الغارقة ، في حين بثت في المنافذ المؤدية اليها مئات الالغام ، وهو ما كنا نتوقعه في مثل هذه الحالة ، ولذلك فانه لم تدخل أولى سفن التموين الى الميناء الا في الثاني من شهر شباط ، بعد تطهيرها من الالغام ، وبعد مضي أسبوع ، كانت البواخر تنزل ما حمولته الفا طن في اليوم تقريبا ، وعلى الرغم من انه ما زال أمام الجيش الثامن مسافات طويلة يتحتم عليه اجتيازها ، الا أن تموينه في أثناء الزحف الذي امتد الفا وخمسمائة ميل بعد العلمين ، والذي توجه فتح ميناء طرابلس بسرعة أمام سفن التموين وهو عمل اداري رائع ، يرجع الفضل فيه الى الجنرال ليند

ستيل الموجود في القاهرة والجنرال روبرتسون الذي كـان يرافق الجيش الثامن ، ولم تحل نهاية الشهر ، حتى انضمت الى الجيش الثامن قوة فرنسية قوامها « ٢٥٠٠ » جندي مـن القوات المختلفة التابعة لفرنسا الحرة ، بقيادة الجنرال ليكليرك ، بعد أن قطعت مسافة الف وخمسمائة ميل عبر الصحراء ، قادمة من افريقيا الاستوائية الفرنسية ، ووضع ليكليرك نفسه دون تحفظ تحت تصرف مونتغمري ، وقدر له ولقواته أن يلعبا دورا هاما في المراحل المتبقية من الحملة التونسية .

وعندما اجتاز الجيش الثامن الحدود الى تونس في الرابع من شباط ، بعد أن تم الاستيلاء على امبراطورية ايطاليا الافريقية فقد أصبح منذ هذه اللحظة طبقا للقرارات التي اتخذت في مؤتمر الدار البيضاء تحت قيادة الجنرال ايزنهاور مع تولي الجنرال اليكساندر بوصفه نائبا له في القيادة التنفيذية للعمليات البرية ولعل القارىء يذكر التوجيه الذي كنت قد بعثت به الى اليكساندر عشية مغادرتي القاهرة قبل نحو من ستة أشهر ، وقد بعث الي الآن بالرد التالي :

سيدي :

« لقـد نفذت الاوامر التي أصدرتها الي في العاشر مـن آب عام ١٩٤٢ ، وقد تم القضاء على جميع أعداء جلالته ، ومـا كانوا يضعونه مـن عوائق في مصر وبرقة وليبيا وطرابلس ، وهأنا الآن في انتظار أوامر جديدة منك » .

وبعد أن قضينا يومين ، أقلعت من طرابلس لزيارة ايزنهاور وصحبه في الجزائر ، وكان التوتر هنا شديدا ، فاغتيال دارلان ، كان لا يزال يفرض الكثير من الاحتياطات لحماية جميع الشخصيات البارزة ، ونظرا لما أبدته وزارة الحرب من قلق عن سلامتي واظهارها رغبتها في أن أعود الى الوطن في أسرع وقت ممكن ـ وطبعا كان في هذا الكثير مـن المجاملة ـ فقد طرنا ليلة الاحد السابع مـن شباط عام ١٩٤٣ عائدين راسا وبسلام الى الوطن ، وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي طرت فيها في طائرة « الفدائي » لانها سقطت فيما بعد ، وقتل كل من كان فيها ، ولو أنهم كانوا غير معروفين لي .

وكان أول واجب علي بعد عودتي الى الوطن ، هو ان افضي ببيان مسهب أمام مجلس العموم ، عن مؤتمر الدار البيضاء ، وعن رحلتي في البحر الابيض المتوسط ، وعن الوضع بصورة عامة ، وقد استغرق القاء الخطاب الذي أعددته في الحادي عشر من شباط اكثر من ساعتين ، ويبدو أنه كان يلوح علي الأعياء من رحلتي ، حيث قد أصبت ببرد في أثنائها ولم تمض بضعة أيام حتى كنت طريح الفراش ، أعاني من زكام شديد مصحوب بالتهاب في الحنجرة ، وفي مساء السادس عشر من الشهر وقد كنت وحيدا مع زوجتي ، ارتفعت حرارتي ارتفاعا مفاجئا ، وقرر اللورد موران الذي كان يتولى علاجي في ذلك الوقت انني مصاب بالتهاب في الجزء الأسفل من الرئة وقد وصف لي الدواء

المسمى (ا م. اند بي) وفي اليوم التالي عملت لـي اشعة اثبتت صحة تشخيصه واستدعى الدكتور جيوفري مارشال طبيب مستشفى « جاي » للاشتراك في المشاورة الطبية ، وكنت على الرغم مـن سوء حالتي ، ا تبع الاحداث وكانت تصلني الاخبار وانا في الفراش ساعة بعد ساعة ، فأقوم بتصريفها كالمعتاد ، وعندما شعرت بنقص ملحوظ في عدد الاوراق التي تصل الي لابداء رأيي فيها ، احتججت على ذلك ، فأكد لي الاطباء وقد انضمت اليهم زوجتي ، وجوب انصرافي عن العمل كلية ، ولكنني ما كنت لاوافقهم على ذلك ، لولا انهم ابلغوني اني اعاني من ذات الرئة ، فقلت لهم « ولكن في وسعكم علاجها ، الستم واثقين من علاجكم الجديد ؟ » فقال الدكتور مارشال ، انه يطلق على ذات الرئة اسم « صديقة الرجل العجوز » وعندما سألته عن السبب ، قال « لانها تمضي بالرجال الطاعنين في السن من هذه الحياة بهدوء » وقد رددت عليه ردا مناسبا ، ولكننا اتفقنا على أن تصل الي الاوراق المهمة والمباشرة فقط ، وان انصرف الى مطالعة احدى الروايات ، وقد اخترت روايات « مون فلاندرز » التي كنت قد سمعت الكثير عنها ، دون أن يتوافر لدي الوقت لقراءتها والحكم عليها ، وهكذا قضيت اسبوعا ثانيا اعاني فيه من وطأة الحمى والالم ، وهكذا لم يتيسر لي كتابة مذكراتي في المدة من ١٩ الى ٢٥ من شباط ، وقد ابرق الي الرئيس روزفلت والجنرال سمطس وغيرهما من الاصدقاء الذين علموا نبأ مرضي ، طالبين أن أطيع أوامر الاطباء وفعلا قد نفذت أوامر الاطباء ، وعندما انتهيت من قراءة الرواية التي كنت اقرؤها ، اعطيتها للدكتور مارشال ليقرأها ، وفي الوقت نفسه كان قد تم شفائي .

هذا وقد بعث الي ستالين في هذه الفترة ، شريطا سينمائيا عن انتصار ستالينغراد ، وقد صور تصويرا رائعا كل ما دار من قتال بائس . وأرى أن الوقت قد حان للحديث بايجاز واختصار عن ذلك الكفاح الحاسم الرائع الذي خاضته الجيوش الروسية .

وكان قد اشتد زحف الالمان في اتجاه القوقاز في أثناء صيف عام ١٩٤٢ وخريفه ومضت الامور في البداية وفق الخطة المرسومة ، وان كانت لم تتم بالسرعة الكبيرة التي كان يأملها الالمان ، وقد تمكنت مجموعة الجيوش الالمانية الجنوبية من اخراج الروس من منحنى حوض نهر الدون الاسفل ، هذا وقد انقسمت مجموعة الجيوش الالمانية بعـد ذلك مجموعتين ، الاولى ويقودها ليست ، والثانية يقودها بوك ، وفي الثالث والعشرين من تموز عهد هتلر الى كل من المجموعتين بالمهمة الموكولة اليها ، حيث كان علـى المجموعة الاولى أن تحتل الساحل الشرقي للبحر الاسود بكامله وذلـك بالاضافة الـى حقول البترول القريبة ، وأن تتقدم المجموعة الثانية بعـد اقامة جناح دفاعي علـى حوض الدون متجهة الى ستالينغراد ، وأن تحطم قوات العدو المتجمعة فيها وتحتلها ، كما قرر هتلر أن تقوم القوات العاملة في جبهة موسكو بالضغط عليها ، في حين تحتل قوات جبهة ليننغراد المدينة في مستهل شهر ايلول .

كما زحف جيش الصاعقة بقيادة الجنرال فون كلايست والمؤلف

من ١٥ فرقة مدرعة على القوقاز ، وذلك بعد ان عبر نهر الدون وقطع مسافة كبيرة دون أن يلقى اية مقاومة تذكر ، وقد وصل الجيش الزاحف الى حقول البترول في ميكوب ، ولكنه فشل في الوصول الى حقول غرزوني ، اما حقول باكو ذات الاهمية الكبيرة فكانت لا زال تبعد ثلثمائة ميل ، كما أن القادة الالمان لم يستطيعوا احتلال ساحل البحر الاسود باكمله تنفيذا لاوامر هتلر ، حيث صمد الروس في كل مكان بعد تعزيزها بقوات جديدة وصلت بسرعة عن طريق السكة الحديدية على ساحل بحر قزوين الغربي في حين لحق الضعف والاعياء بكلايست بسبب تحويل القوات الى جبهة ستالينغراد ، بعد أن ظل يكافح ويجالد وسط جبال القوقاز حتى شهر تشرين الثاني عندما داهمه الشتاء ، وكان قد استنفد قواه كلها .

اما المجموعة الثانية ، فقد عانت من مرارة الفشل ، وكان سحر اسم ستالينغراد يستهوي هتلر ، لانها كانت احدى مراكز الصناعة الهامة فضلا عن انها كانت نقطة دفاع قوية في الجناح الدفاعي ضد اندفاع قوات هتلر الرئيسية في اتجاه القوقاز ، وأصبحت ستالينغراد عبارة عن مغناطيس يجذب اليه كل ما لدى الجيش الالماني والقوة الجوية من عزم ومجهود ، هذا وقد اخذت المقاومة تشتد يوما بعد يوم ، حتى ان الالمان لم يتمكنوا من الوصول الى ضواحيها الا في الخامس عشر من ايلول بعد معارك ضارية في المنطقة الواقعة بين نهري الدون والفولجا ، كما استمرت هجماتهم طيلة الشهر التالي التي تحقق بسببها بعض التقدم مقابل خسائر فادحة ، ومع هذا فلم تستطع اية قوة من التغلب على الروس الذين كانوا يقاتلون بحماس واخلاص وسط خرائب مدينتهم ، ولذلك فان الجنرالات الالمان بدأوا يشعرون بالقلق ويحسون بالفزع والانزعاج ، لانه بعد أن مضت ثلاثة أشهر من القتال كانت لا تزال الاهداف الرئيسية للحملة وهي « القوقاز وستالينغراد ولينينغراد » في أيدي الروس ، بينما كانت خسارتهم فادحة وكان تعويضها متعذرا ، وكان هتلر بدلا من أن يرسل وحدات جديدة لتعوض الخسائر التي منيت بها الفرق العاملة هناك ، يشكل فرقا جديدة تفتقر الى التدريب ، وكانت سلامة التقدير العسكري تتطلب في ذلك الوقت وقف الزحف ولكن الرجل المغامر لا يصغي الى صوت العقل ، ولذلك فقد اضطر هولدر رئيس اركان حربه الى أن يعارضه معارضة شديدة وذلك في نهاية شهر ايلول ، فكان جزاؤه الطرد من منصبه ، واستمر هتلر يدفع بجيوشه الى الامام .

وفي منتصف شهر تشرين الاول ساء وضع الجيوش الالمانية سوءا ظاهرا ، حيث كانت المجموعة الثانية منتشرة على جبهة تمتد سبعمائة ميل ، وكان الجيش السادس الذي يقوده الجنرال باولوس قد انهدت قواه وغدا منهوكا ومتعبا وكانت لا تحمي جناحاه الا قوات ضعيفة من جيوش حليفة مشكوك في صلاحيتها ، وكان فصل الشتاء قد اقترب ، وأصبح هجوم الروس المضاد متوقعا في كل لحظة واذا لم يكن في الامكان الاحتفاظ بجهة الدون ، فان سلامة الجيوش العاملة في القوقاز ستغدو مهددة الى أقصى حدود التهديد ، ومع هذا فان هتلر كان يرفض البحث

في اي اقتراح يقضي بالانسحاب ، وفي التاسع عشر من تشرين الثاني شرع الروس في هجومهم التطويقي الذي أعدوا له ببسالة منذ عهد طويل ، مستهدفين شمالي ستالينغراد وجنوبيها ، لتحطيم الجناحين الالمانيين الضعيفين ، والتقى طرفا « الكماشة » الروسية بعد اربعة أيام وبذلك وقع الجيش الالماني السادس في الفخ بين الدون والفولغا ، ولما حاول الجنرال باولوس خرق الحصار المضروب حوله ، أصدر اليه هتلر أمرا بالصمود مكانه ، وبمضي الايام أخذ الضغط يشتد على الجيش المحاصر ، واخذت شقة الارض التي يحتلها تضيق شيئا فشيئا وفي الثاني عشر من كانون الاول حيث كان الطقس باردا جدا قام الالمان بمحاولة يائسة لتحطيم الحصار الروسي وانقاذ رفاقهم المحصورين ولكن المحاولة منيت بالفشل ، وعلى الرغم من أن باولوس وجيشه قد صمدا بعد ذلك التاريخ مدة سبعة أسابيع ، الا أن مصيرهما قد تقرر بعد تلك المحاولة الفاشلة .

وقد بذلت محاولات جبارة لتموين جيش باولوس من الجو ، ومع هذا فلم يصل اليه الا قليل من المؤن بعد خسائر جوية فادحة ، وقد اشتد البرد الى حد مخيف ، ونفدت المواد الغذائية والذخائر ، وزاد انتشار وباء التيفود بين الجنود الذي كان سببا كبيرا في متاعب الجيش وشقائه ، ومع هذا فقد رفض الجنرال باولوس في الثامن من كانون الثاني انذارا نهائيا روسيا بالاستسلام ولذلك فان الروس قد شرعوا في اليوم التالي بالهجوم العنيف من الغرب وقاتل الالمان ببسالة ومع ذلك فلم يستطيعوا احتلال خمسة أميال الا في بحر عدة ايام .

واخيرا بدات القوات الالمانية تتحطم ، ولم يحل السابع عشر من كانون الثاني حتى كان الروس قد غدوا على بعد عشرة اميال من ستالينغراد نفسها ، ثم قذف باولوس في المعركة بكل رجل قادر على حمل السلاح ، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح ، واندفع الروس في الثاني والعشرين من جديد ، مما اضطر الالمان الى التراجع الى ضواحي المدينة التي حاولوا احتلالها ، وهكذا اصبحت بقايا جيش عظيم محصورة في مستطيل طوله ثمانية اميال وعرضه أربعة ، وصمد الباقون تحت وطأة نيران المدفعية الحامية والغارات الجوية المستمرة في قتال يدور في الشوارع وقد ازدادت حالتهم سوءا ، حتى انه عندما واصل الروس ضغطهم عليهم ، بدأت هذه الوحدات المنهوكة تستسلم بالجملة ، واسر باولوس ورجال أركان حربه وأبرق الماريشال فوردلوف في الثاني من شباط يقول ان المقاومة قد توقفت وان عدد الاسرى بلغ تسعين الف رجل ، وكانوا هم كل ما تبقى من جيش كان تعداده احدى وعشرين فرقة المانية وفرقة واحدة رومانية ، وهكذا انتهت محاولة هتلر لاحتلال روسيا عنوة ، وتحطيم الشيوعية ليحل محلها نوع من الحكم لا يقل عنها غرابة في الطغيان الجماعي ، وسجل ربيع عام ١٩٤٣ ، نقطة التحول في الحرب على الجبهة الشرقية ، وكان المد الروسي المتزايد حتى قبل معركة ستالينغراد نفسها ، قد دفع بالالمان الى الوراء على طول الجبهة ، وتم سحب الجيش الالماني بمهارة ونجاح من القوقاز ، ولكن الروس واصلوا الضغط على العدو ، واخرجوه من حوض الدون الى ما وراء حوض الدونتز ، وهو خط البداية في الهجوم الذي شرع فيه هتلر في الصيف

الماضي ، كما خسر الالمان الاراضي التي كانوا احتلوها في الشمال ، واصبحوا على بعد يزيد على المائتين وخمسين ميلا من موسكو ، كما تحطم الحصار المضروب على لينينغراد ، ومنى الالمان واتباعهم بخسائر ضخمة في الرجال والمعدات ، كما انهم فقدوا تفوقهم على الروس برا ، وكان عليهم ان يحسبوا الآن حسابا للقوة الجوية البريطانية المتزايدة والعاملة من بريطانيا وافريقيا في وقت واحد .

الا ان النصر لم يدخل البهجة والسرور على نفس ستالين ، ولو انه حضر مؤتمر الدار البيضاء ، لامكن الحلفاء الثلاثة ان يضعوا خطة مشتركة معا ، وبما انه لم يحضر فقد اتفقنا على ابلاغ قراراتنا اليه بوساطة البرقيات ، وعندما عدت الى الوطن ، بعثت اليه بموافقة الرئيس على الايضاحات الاضافية عن خططنا ، وأكدت له فيها اننا سنحرر تونس في شهر نيسان ثم نستولي على صقلية ، كما اننا سنزحف بجيوشنا لعبور المانش في شهر آب او ايلول ، وقد رد علي بقوله اني لا أرى بي حاجة الى القول بأن تأخير احتلال تونس الى شهر نيسان بدلا من شباط قد خيب الآمال الى حد كبير ، كما انه طالب بفتح الجبهة الثانية (غزو فرنسا) في موعد اقرب من شهر آب ، حتى لا نعطي للعدو اية راحة ، ولانه يرى ان توجيه الضربة اليه من الغرب في الربيع او في مستهل الصيف هي من الاهمية بمكان عظيم .

كما ابرق الي في الخامس عشر من آذار يقول « مع ادراكي تمام الادراك ما لصقلية من اهمية الا انه لا يمكن الاستعاضة بها عن الجبهة الثانية في فرنسا ، وارى من واجبي تحذيركم تحذيرا شديدا ما سيترتب عليه من اخطار على قضيتنا المشتركة اذا تأخر فتح الجبهة الثانية في فرنسا ، وهو يثير القلق الشديد في نفسي وأجدني عاجزا عن السكوت عليه » .

وكان من الواضح ، ان اقصى عون فعال يمكن لنا ان نقدمه الى الروس هو الاسراع في تطهير شمالي افريقيا من قوات المحور ، وتوسيع نطاق الحرب الجوية على المانيا ، الا انه على الرغم من ان زحفنا من الشرق قد فاق في سرعته ما كنا نتوقعه ، فقد ظل وضع الحلفاء باعثا على القلق ، وكان قد أعيد تسليح مالطة ومدها بالمؤن ولذلك فقد قفزت من جديد الى مسرح النشاط والعمليات ، وكانت قواتنا البحرية والجوية التي تعمل من قواعدها الجديدة في الجزائر وبرقة ، تجوب مناطق واسعة وتحمي طرق الحلفاء البحرية ، وتنزل بتمريناث العدو ونجداته افدح الخسائر ، وبالاضافة الى فرض الحصار على تونس ، حيث كان السلاح الجوي الالماني لا يزال قويا ، فقد اخذت طائراتنا تصل الى موانىء ايطاليا ، وبدأت باليرمو ونابولي وسبيزيا تحس بوطأة الغارات الجوية مع زيادتها يوما بعد يوم وذلك بالاضافة الى الغارات التي كانت تشنها قاذفاتنا العاملة من وطننا على المدن الواقعة في شمالي ايطاليا ، كما ان الاسطول الايطالي لم يحاول أن يتدخل ، لما كانت تعانيه ايطاليا من أزمة في الوقود ، بالاضافة الى وجود الاسطول البريطاني وقد انقضت عدة أيام ، خلت فيها جزيرة صقلية من الوقود اللازم للبواخر التي تتولى حراسة نقل المؤن والعتاد الى تونس .

لكن كل هذه المظاهر ، لم تكن كافية لاخفاء الحقيقة الواقعة ، وهي اننا قد استنفذنا كل ما لدينا من جهد في اثناء المحاولة الفاشلة التي قمنا بها في شهر كانون الاول لاحتلال تونس ، وعلى الرغم من أن هتلر كان عاجزا عن حماية الممر القصير الذي يصل تونس بجزيرة صقلية ، الا انه امر باعداد جيش جديد لمواجهة « الهجومين المتوقعين في كل لحظة من الشرق والغرب ، وفي ذلك الوقت عهد الى رومل بقيادة جميع قوات المحور ، فحشد فرقتين المانيتين مدرعتين شرقي فايد ليقذف بالفيلق الامريكي المواجه الى الوراء ، وليحول بينه وبين الهجوم على جناحه ومؤخرته ، عندما يشترك في معركة حامية مع الجيش الثامن ، الذي كان يواصل ضغطه من الشرق ، وبدأ الهجوم الالماني في الرابع من شباط ، وكانت قيادتنا قد اخطأت التقدير ، اذ حسبت ان الهجوم الرئيسي سيأتي من ناحية « فندق » لا من ناحية فايد ، ولهذا فقد تفرقت الفرقة الامريكية المدرعة الاولى التي يتولى قيادتها الجنرال اندرسون ، فلم يحل السابع عشر من شباط حتى كانت « القصرين وقربانه وسبيطله في أيدي الالمان ، واندفع رومل بعد ذلك في اتجاه الشمال ، في قتال عنيف ، ولم يحل ظهر الثاني والعشرين من شباط حتى كان رومل قد بدأ يتراجع تراجعا منظما ، وعاد خطنا الدفاعي الى ما كان عليه في السابق، ولكن رومل لم ينته بعد ، اذ لم تمض اربعة أيام حتى عاد يشن سلسلة من الهجمات القوية على جبهة الجيش الخامس البريطاني ، الا أنه صد دون أن يحقق أي مكاسب ذات قيمة ، اما الى الشمال فقد كسب عدة اميال من الارض ، واضطرت قواتنا عند الساحل الى التراجع مسافة عشرين ميلا الى الوراء ، ثم صمدت في مواقعها الجديدة .

وتولى الجنرال اليكساندر في الاسبوع الاخير من شهر شباط قيادة الجبهة كلها ، وتولى مريشال الجوتيدر في الوقت نفسه طبقا لقرارات الدار البيضاء قيادة القوات الجوية الحليفة ، وكانت معركة تونس قد بلغت الآن قمتها ، وشن رومل في السادس من آذار اربع هجمات رئيسية على الجيش الثامن الزاحف ، مستخدما كل ما لديه من دبابات « ثلاث فرق مدرعة » ، ولكن هذه الهجمات صدت كلها بخسائر فادحة ، ولا ريب في أن هذه الهزائم كانت اعظم ما مني به رومل من نكسات في الحرب الافريقية كلها ، كما كانت في الوقت نفسه آخر ما قام به من عمل عسكري هناك ، فقد نقل عليلا الى المانيا ليخلفه أرنيم في قيادته .

وواصل الجيش الثامن زحفه الى الامام ، ليطبق على مواقع العدو الرئيسية في خط ماريت وهو خط محصن ومنظم كان الفرنسيون قد أقاموه على طول عشرين ميلا قبل الحرب لمنع الايطاليين من الهجوم على تونس ، وها هم اولاء الايطاليون يملئون هذا الخط ويحصنونه ضد البريطانيين ، وكنا في حاجة الى اسبوعين لاعداد العدة للهجوم على مثل هذه الخطوط الدفاعية المحصنة ، ووجهنا ضربتنا في الاسبوع الثالث من شهر آذار ، واحطنا بجناح العدو وفي السابع من نيسان وبعد قتال عنيف ، اتصلت دورية من الفرقة الهندية الرابعة بدورية من الفيلق الامريكي الثاني وتبادلا التحية ، وهكذا فقد اتصل الجيشان

اللذان بدآ المعركة وبعد كل منهما عن الآخر ميلا على اقل تقدير ، كما هاجمت طائراتنا من قاذفات اللهب والطائرات الامريكية « دور هوك » قافلة جوية للعدو يربو عددها على المائة طائرة ، على مقربة من رأس بون ، فتفرقت شذر مذر ودمر اكثر من خمسة عشر طائرة منها ، وفي الثاني والعشرين من نيسان اشتعلت النيران في ثلاثين طائرة اخرى بينها عدد كبير من ناقلات الزيت ، وكانت هذه الضربة قاضية بالنسبة لعناد هتلر واصراره على الاحتفاظ بموقع لا يستطيع البقاء فيه ولم تجرؤ اية طائرات للعدو بعد هذا التاريخ على الطيران في اثناء النهار ، وكانت قد حملت اكثر من اربعين الف رجل واكثر من اربعة عشر الف طن من المؤن الى افريقيا .

وفي السادس من ايار ، شن اليكساندر هجومه العظيم ، وبذلت طائرات الحلفاء مجهودا هائلا ، فقامت بأكثر من ألفين وخمسمائة غارة في اليوم الواحد ، وكان سلاح المحور الجوي قد ضعف تدريجيا ، ولم يكن في وسعه ان يقوم في هذه الازمة بأكثر من ستين غارة في اليوم ، ولذلك فقد اقتربت الأزمة من نهايتها ، بعد ان احكمنا الحصار بحرا وجوا ، والذي كان سببا في ايقاف حركات العدو منذ مدة طويلة ، كما أن مجهوده الجوي آخذ في التوقف ، وقد تمكن الفيلق البريطاني التاسع من خرق جبهة العدو ، كما عبرت الفرقتان المدرعتان وسط قوات المشاة المعادية الطريق الموصل الى ماسييكوت والواقعة في منتصف الطريق الى تونس ، وواصلت في اليوم الثاني ضغطها حتى تمكنت الفرقة المدرعة السابعة من دخول مدينة تونس في السابع من ايار ، ثم انطلقت شمالا للاتصال بالقوات الامريكية الزاحفة شرقا ، وبعد ان انهارت المقاومة الالمانية امام الجبهة الامريكية الرئيسية كما وصلت الفرقة الامريكية التاسعة الى بنزرت ، وهكذا تم تطويق ثلاث فرق ألمانية بوساطة قوات الحلفاء فاضطرت الى الاستسلام في التاسع من ايار .

وقد زحفت الفرقة المدرعة السادسة تتبعها الفرقة البريطانية الرابعة والفرقة المدرعة الاولى الى يمينها شرقا بعد ان عبرت مدينة تونس ، ولكن هذه القوات توقفت أمام مقاومة تم تنظيمها بسرعة على بعد بضعة اميال الى الشرق من المدينة ، الا أن دباباتنا تمكنت من الزحف على الطريق الساحلي حتى وصلت الى الحمامات على الساحل الشرقي في مساء العاشر من ايار ، كما تقدمت في الوقت نفسه الفرقة الرابعة فالتفت حول شبه جزيرة رأس بون دون أن تلقى اية مقاومة ، وهكذا سقطت قوات العدو في الفخ .

وبعث الينا الجنرال اليكساندر في الحادي عشر من ايار ، يقول : « أتوقع ان تنتهي كل مقاومة منظمة للعدو في خلال الثماني والاربعين ساعة القادمة ، وان تتم تصفية جميع قوات المحور بصورة نهائية في بحر يومين أو ثلاثة ، واعتقد ان عدد الاسرى حتى الآن قد تجاوز المائة ألف ، وان كان هذا الرقم لم يتأيد بصورة رسمية بعد .

وكان الاميرال كاتنجهام قد اعد العدة لمواجهة انهيار العدو النهائي فأصدر أوامره الى جميع قواتنا البحرية بحماية مضايق

تونس والحيلولة دون اية محاولة قد يقوم بها العدو للجلاء عن تونس كما فعلنا في دنكرك ، كما اصدر اليها أوامره ايضا في الثامن من ايار « بأن يغرقوا ويحرقوا ويدمروا والا يتركوا شيئا للعدو يمر » وقد حاولت بعض الزوارق الفرار ولكنها وقعت جميعها في ايدينا واغرقناها وقد تم اغلاق جميع الطرق في الثامن عشر من ايار واستسلم العدو استسلاما كاملا وابرق اليكساندر ظهر الثالث عشر من ايار يقول :

سيدي :

« من واجبي ابلاغك بأن حملة تونس قد انتهت ، وتوقفت جميع مقاومة العدو ، وأصبحنا سادة الساحل الشمالي الافريقي كله » .

وليس في وسع اي انسان ان يشك في عظمة انتصار تونس ، انه يقف جنبا الى جنب مع ستالينغراد ، فقد أسرنا نحوا من ربع مليون جندي من جنود الاعداء ، ومني العدو بخسائر فادحة في الارواح ، كما اغرقنا ما لا يقل عن ثلث سفن مؤنه ، وهكذا تطهرت افريقية من أعدائنا وتم انقاذ قارة واحدة على الاقل ، ولهذا فقد شعرنا في لندن لاول مرة منذ نشوب الحرب بارتفاع صادق في المعنويات ، كما أستقبل البرلمان والوزراء بالحماس وسجل شكره البالغ مع اصدق عبارات التقدير للقادة العسكريين وكنت قد اصدرت الاوامر بأن تقرع جميع اجراس الكنائس في طول البلاد وعرضها ، ويؤسفني انني لم اسمع رنينها ، اذ كنت في ذلك الوقت أؤدي عملا آخر مهما في الطرف الثاني من المحيط الاطلسي .

ايطاليا تخرج من الحرب

لقد اخرتني اسباب مهمة جدا عن السفر الى واشنطن بعد ان انتصرنا في افريقية ، وسألت نفسي ، ماذا سنفعل بعد ذلك ، وهل سنكتفي بجني ثمار نصرنا في شمال افريقية ، أو نعمل كل ما في امكاننا لاخراج ايطاليا من الحرب ؟ وادخال تركيا الى جانبنا ؟ وهذه اسئلة كانت على جانب كبير من الاهمية والخطورة ، وعزمت على أن أبحث كل هذه المسائل مع الرئيس روزفلت ، مع مسألة تنسيق الخطط في المسرح الهندي ، وذلك لحسم الخلافات الخطيرة الخفية لاننا اذا لم نقم بحلها فورا فستؤدي الى المتاعب ، والى اضعاف عملنا في المدة المتبقية من العام ، وهذا هو السبب الذي دعاني لان أعقد مؤتمرا مع الرئيس .

ولما كنت لا زلت مريضا ، فقد قرر الاطباء أن أسافر بحرا بدلا من الطائرة ولهذا فقد غادرت لندن مع جميع اعضاء الوفد المرافق على البارجة « الملكة ماري » وكانت قد أعدت بصورة وافية لحاجتنا ، وهيئت غرف خاصة لجميع الاعضاء على السطح الرئيسي للبارجة مجهزة بالمكاتب والخرائط وبها قاعات فسيحة للاجتماعات ، ولذا فقد بدأنا نعمل في الحال ودون توقف ، لمدة اسبوعين وتناولنا بالبحث كل ناحية من نواحي الحرب مع رؤساء اركان الحرب وعدد آخر من ضباط أركانهم ، بحضور اللورد ليثرز وكبار موظفي وزارة النقل البحري والجنرال اسماي وموظفي مكتبي كوزير للدفاع ، وكذلك قادة الفيالق الهندية وهم الماريشال ويفل والاميرال سومرفيل وماريشال الجو الاعلى بيرس ، وكان سبب وجود هؤلاء جميعا هو تنسيق العمل مع اصدقائنا الامريكيين للقيام بعمليات سريعة من الهند ولمعرفة آرائهم فيما سيطلب اليهم من العمل .

وفي أثناء رحلتنا كانت اللجنة المشتركة لاركان العمليات الحربية والمخابرات تعقد اجتماعات مستمرة ، على حين كان رؤساء أركان الحرب يجتمعون مرة او مرتين في كل يوم ، وكنت انقل آرائي اليهم كل صباح على شكل ملاحظات وتوجيهات مكتوبة ، كما كنت أتحدث اليهم دائما بعد الظهر او في المساء ، واستمرت هذه الابحاث والمناقشات طيلة ايام الرحلة ، وقد وصلنا الى قرارات خطيرة مدروسة بعناية ، كما اتفقنا اتفاقا تاما على العمليات التي يجب أن تتم في أوروبا ، ولما كنا قد قررنا في مؤتمر الدار البيضاء الهجوم على صقلية ، واتخذت الاستعدادات لتنفيذ هذا القرار ، ولما كان رؤساء اركان الحرب البريطانيين يرون الهجوم على البر الايطالي لاحتلال

راس جسر في مقدمة الحذاء الايطالي يتبعه هجوم آخر على الكعب كمقدمة للزحف على كل من باري ونابولي ، فقد اعدوا مذكرة بذلك لتسليمها الى رؤساء الحرب الامريكيين بمجرد وصولنا الى واشنطن لتكون أساسا للمحادثات .

هذا وقد خشينا الا يتم الاتفاق مع أصدقائنا الامريكيين حول الجبهة الثانية في الهند ، وكنا قد أعددنا الكثير من الخطط على الورق ولكنه لم يتوافر لنا الوقت لاظهارها بصفة عملية .

ولما كان الرئيس روزفلت وأفراد حاشيته يؤملون في القوة العسكرية التي تستطيع الصين اعدادها اذا أتيح لها الحصول على الاسلحة والمعدات الكافية وكانوا يخشون من انهيارها اذا لم تصلها هذه المعدات ولما كانت لم ترق لي فكرة اعادة احتلال بورما عن طريق الزحف عن طرق اسام غير المعبدة ، وكنت لا أحبذ احتلال الادغال ، وكان تفكيري متجها الى القوات الجوية والبحرية والبرية والمواقع الهامة ، ورأيت انه من الضروري الا يشعر اصدقاؤنا بأننا غير راغبين في اقتحام المصاعب ولكي يقتنعوا اننا على استعداد لتلبية طلباتهم — فقد وافقتهم على آرائهم .

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر اليوم الثاني عشر من ايار اجتمعنا والرئيس وجميع رؤساء الاركان البريطانيين والامريكيين في مكتب الرئيس لاستعراض الاوضاع بصورة عامة ووضع أسس العمل لاجتماعاتنا ومؤتمراتنا ، وقد طلب الي الرئيس أن ابدأ الحديث ، وكانت خلاصة الافكار التي سردتها على النحو التالي :

« علينا الا ننسى أن هناك ١٨٥ فرقة المانية في الجبهة الروسية ، وقد حطمنا الجيش الالماني في افريقيا ، وعن قريب سنصير غير مشتبكين معهم في اية جبهة او ميدان ، ولا ريب ان المجهود الروسي عظيم ، واننا في وضع المدين لهم ، ولعل خير طريقة لتخفيف الضغط على الجبهة الروسية في عام ١٩٤٣ هو ان تخرج ايطاليا سواء بالرضا او بالاكراه من الحرب ، وبذلك نرغم المانيا على ارسال قوات ضخمة للمحافظة على البلقان ، ويوجد لنا جيش كبير وقوة جوية كبيرة من المقاتلات في بريطانيا ، ولدينا ايضا خيرة الجنود وأحسنهم تدريبا في البحر الابيض المتوسط ، كما ان للبريطانيين وحدهم ثلاث عشرة فرقة في شمالي افريقية ، واذا افترضنا اننا انتهينا من صقلية في شهر آب ، فماذا تعمل هذه القوات في الفترة الواقعة بين هذا التاريخ وبين عام ١٩٤٣ ، والتي قد تمتد سبعة أشهر أو ثمانية لكي نبدأ عملية عبور القناة ؟ ليس في وسعنا أن نترك هذه القوات بدون عمل ، ولا شك في ان هذه الفترة الطويلة ستترك اثرا سيئا تحمل وحدها أعباء لا يمكن تصورها » .

وقد وافقني الرئيس روزفلت ، على انه يحبذ الاشتباك مع المانيا لتخفيف العبء عن روسيا ، وأعرب عن رأيه في أن خير طريقة لارغام المانيا على القتال هي أن نشرع في عملية عبور القناة ، وقد قلت للرئيس بأننا سبق ان اتفقنا على الا نشرع في مثل هذه العملية قبل

عام ١٩٤٤ ، ولذلك فانه من اللازم الآن ان نستخدم جيوشنا في الهجوم على ايطاليا ، حتى اذا انهارت ، فاننا سنحتل الموانيء والمطارات الضرورية للقيام بعمليات مقبلة في البلقان وجنوب شرقي أوروبا ، ويكون في وسعنا أن نقيم حكومة ايطالية تتولى الاشراف على البلاد ، تحت توجيه واشراف الحلفاء ، وطلبت من اعضاء اللجنة المشتركة لرؤساء أركان الحرب ومستشاريهم أن يدرسوا هذه الخطط دراسة وافية وأن يمحصوها .

وقد ظهر ان هناك اختلافات في وجهات النظر لا يمكن تذليلها بسهولة او التغلب عليها ، وادى تسرب بعض الاخبار من كبار القادة العسكريين الامريكيين في هذه الفترة الى الشيوخ الديموقراطيين والجمهوريين الى مناقشتها في مجلس الشيوخ ، ولكنه مع الصبر والاناة أمكن تذليل هذه الخلافات وحلها تدريجيا ومما ساعد على ذلك وجودي مع الرئيس حيث كنت أقيم في البيت الابيض وكنا نرى بعضنا بعضا في كل ساعة من ساعات النهار ، وكنا دائما متفقين في الآراء ، وهكذا حلت تلك الازمة المستعصية .

كما أسفرت الاتفاقات التي تمت بين الاركان على غزو صقلية ، وقد شعرت بقلق عظيم لان لجنة الاركان لم تتخذ توصيات محدودة بأن يتبع احتلال صقلية غزو البر الايطالي ، وكنت اعرف ان آراء أركان الحرب الامريكيين تتجه الى جزيرة سردينيا ، لانهم كانوا يرون ان هذه الجزيرة يجب ان تكون الهدف الباقي للقوات الكبيرة المحتشدة في البحر الابيض المتوسط في المدة الباقية من عام ١٩٤٣ . وكنت أرى هذا الاتجاه غير سليم لاسباب عسكرية وسياسية ، لان الروس يحاربون في جبهة شاسعة ودمهم يسيل انهارا في هذه المعركة الجبارة ، ولا يصح لنا أن نبقى مليونا ونصف مليون من خيرة جنودنا بالاضافة الى القوات الجوية والبحرية الهائلة بدون عمل مدة سنة تقريبا .

واتضح لي ان الرئيس غير مستعد للضغط على مستشاريه بقبول فكرة غزو ايطاليا بصورة محدودة ، ولما كان هذا الهدف الرئيسي هو الذي حملني على قطع المحيط الى واشنطن ، فقد رأيت نفسي عاجزا عن الوقوف بهذه القضية عند هذا الحد ، وقال لي هوبكنز انك اذا أردت أن تقبل وجهة نظرك ، فعليك أن تستمر مواصلا الالحاح لمدة اسبوع آخر ، ولما كانت النتيجة غير مضمونة تماما ، فقد أحسست بخيبة أمل ، وطلبت الى الرئيس في الخامس والعشرين من ايار بصفة شخصية ان يسمح للجنرال مارشال بالمجيء معي الى الجزائر ، بعد ان أوضحت للمؤتمر بأني أشعر ببعض الحرج في بحث هذه القضايا مع الجنرال ايزنهاور دون أن يشترك معنا في الحديث ممثل امريكي كبير ، اذ ربما تفسر موافقة ايزنهاور على رأيي في واشنطن انها كانت بسبب الضغط عليه ، ولما علمت بأن الجنرال مارشال سيرافقني في رحلتي شعرت بالارتياح .

وفي صباح اليوم التالي غادرت واشنطن بطائرة ركب معي فيها

الجنرال مارشال ورئيس اركان حرب الامبراطورية وايسماي وبقية أعضاء الوفد البريطاني ، وقد دارت بيننا محادثات كثيرة اثناء هذه الرحلة الجوية الطويلة وكانت مثمرة ، ولما اقتربنا من جبل طارق بحثنا عن طائرات الحراسة فلم نجد لها أثرا وهبطنا مطار جبل طارق في المساء وكان في استقبالنا الحاكم ، وبالنسبة لان الوقت كان متأخرا فلم يعد في امكاننا مواصلة الطيران الى الجزائر في تلك الليلة ، وقد استضافنا الحاكم في الديرالذي يقيم فيه ، ولم نترك جبل طارق الا بعد ظهر اليوم التالي وقد أتيحت لنا الفرصة للطواف بالجنرال مارشال في جميع انحاء الصخرة وزرنا مشروع تقطير المياه الجديد كما زرنا مواقع بعض المدافع وبعض المستشفيات والثكنات ، وهبطنا الى المكان المفضل عند الحاكم ، وهو الشرفة الصخرية الجديدة التي حفرت داخل الصخر الى عمق بعيد ، وقد نصبت فيه المدافع التي تسيطر على البرزخ الذي يصل الصخرة بالبر وعلى الارض الحرام بين بريطانيا واسبانيا ، وقد ثبت لي انه مهما كانت الاخطار التي قد تتعرض لها صخرة جبل طارق ، فانها لن تخشى ابدا هجوما يشن عليها من البر الاسباني .

هذا وقد احاطت بنا أثناء ركوبنا الطائرة الى الجزائر ، اثنتا عشرة طائرة مقاتلة لحراستنا ، ووصلنا في المساء الى الجزائر ، حيث كان الجنرال ايزنهاور وبيدل سميث والاميرال اندرو كاتنجهام والجنرال اليكساندر وعدد من الاصدقاء في انتظارنا ، وذهبنا فورا الى منزل الاميرال كاتنجهام المجاور لمنزل الجنرال ايزنهاور ، التي وضعها تحت تصرفي مدة اقامتي في الجزائر ، وقد شعرت بالسعادة طوال الثمانية ايام التي قضيتها في الجزائر وتونس ، وابرقت الى ايدن طالبا اليه المجيء والانضمام الينا ، ليشرف بنفسه على اعداد الترتيبات اللازمة للمقابلة التي مهدنا لها بين جيرو وديغول وللقيام ببعض المهام الاخرى .

ولما كانت تحدوني الرغبة في الحصول على قرار بغزو ايطاليا ، قبل مغادرتي لافريقية في حالة الانتهاء من احتلال صقلية ، فقد نقلت انا وبروك آراءنا الى الجنرال اليكساندر والاميرال اندرو كاتنجهام وماريشال الجو تيدر والجنرال مونتغمري فيما بعد ، وقد وافقت جميع هذه الشخصيات على آرائنا ، ورأوا في احتلال ايطاليا الثمرة الطبيعية لتلك الانتصارات التي بدأت بمعركة العلمين وكان أملنا ان نحصل على موافقة حليفتنا العظمى ، لاني لاحظت من جانب ايزنهاور بعض التحفظ بعد أن استمع الي جميع حججنا ، كما أن مارشال قد ظل صامتا حتى اللحظة الاخيرة .

ولما كانت لدينا قوات تبلغ ثلاثة اضعاف القوات الامريكية ، كما كانت لدينا اربعة اضعاف قواتهم البحرية ومثل هذه النسبة من الطائرات ، كما كنا قد خسرنا منذ معركة العلمين وحدها دون اية اشارة الى الخسائر السابقة في البحر الابيض المتوسط ثمانية اضعاف ما خسرته أمريكا من الرجال وثلاثة أضعاف ما خسرته من السفن ؛ فقد كانت ظروف الاجتماع مواتية للبريطانيين ، فضلا عما لاقته هذه

الحقائق الواضحة مما تستحقه من عناية واعتبار لدى القادة الامريكيين الذين لم يكونوا يجهلون تفوقنا عليهم في المنطقة في كل شيء ، كما كان تقبلنا للجنرال ايزنهاور كقائد أعلى ، فقد اقتنع الامريكيون بصواب رأينا .

وعقدنا اول اجتماع لنا في منزل الجنرال ايزنهاور في الجزائر في مساء التاسع والعشرين من ايار ، وترأس الجنرال ايزنهاور الجلسة بوصفه مضيفنا يساعده فيها كل من مارشال وبيدل سميث ، وأخذت مقعدي أمامه ومعي بروك واليكساندر وكاتنجهام وتيدر وايسماي وآخرين ، وقال مارشال ان رؤساء أركان الحرب الامريكيين يرون أنه ليس من الحكمة اتخاذ قرار بشأن غزو ايطاليا حتى تتبين نتيجة الهجوم على صقلية ، وينجلي الوضع في روسيا تمام الجلاء والطريقة المنطقية هي أن نعد قوتين منفصلتين في مكانين متفرقين ولكل منهما قيادته الخاصة ، وسيجري تدريب احدى هاتين القوتين على القيام بعملية حربية ضد جزيرتي سردينيا وكورسيكا بينما تدرب الثانية على القيام بعمل حربي في البر الايطالي ، وهنا قال ايزنهاور انه اذا انتهت عملية صقلية بسهولة فانه سيكون راغبا في مهاجمة ايطاليا نفسها ووافقه اليكساندر على رأيه .

وهنا قال رئيس أركان حرب القوات الامبراطورية ، ان معركة هائلة ستنشب عما قريب بين الروس والالمان ، وان علينا ان نبذل كل ما في وسعنا لمساعدة روسيا ، وان نحمل الالمان على تجزئة قواتهم وتوزيعها ، بعد ان انتشروا في مساحات شاسعة ولا يمكنهم تخفيضها لا في روسيا ولا في فرنسا ، ولعل المكان الصالح لتجزئة هذه القوات هو ايطاليا ، واذا أمكننا ان نخرج ايطاليا من الحرب فستجد المانيا نفسها مضطرة الى استبدال الفرق الايطالية الست والعشرين الموجودة في البلقان بقوات المانية كما ستجبر على تعزيز ممر برنو والريفييرا والحدود الاسبانية والايطالية ، وان توزيع هذه القوات هو ما نرمي اليه لتأمين عبور القناة .

وأعلن ايزنهاور انه اذا نجحت عملية صقلية في بحر أسبوع ، فانه سيعبر فورا مضايق سينا ويقيم رأس جسر له في البر الايطالي ، واعربت له عن وجهة نظري الشخصية في أن عملية صقلية ستنتهي في الخامس من آب ، فاذا تحقق ذلك فسنهاجم فورا ايطاليا ، على شرط ألا تكون المانيا قد بعثت بعدد كبير من فرقها الى هناك نظرا لاحتمال قيام رد فعل تركي في مصلحتنا .

وعندئذ أوضح بروك عدد ما لدينا من قوات في البحر الابيض المتوسط بعد أن حذف سبع فرق يجب ان تعود الى بريطانيا لتشترك في عملية اجتياز القناة وفرقتين لتغطية التزامات بريطانيا العسكرية لتركيا ، وان ما سيتبقى في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط سبع وعشرون فرقة حليفة ، وقال ان من المؤسف الا نتمكن بمثل هذه القوات الضخمة من عمل شيء في الفترة ما بين آب وايلول من هذا

العام ، وعلى ذلك فقد اتضحت لي رغبة جميع القادة العسكريين في ان نمضي سريعا وبأجرأ ما يكون من خطط .

واجتمعنا ثانية بعد ظهر الحادي والثلاثين من ايار ، بعد ان وصل المستر ايدن وابديت رايي في ان نتجه الى غزو جنوب ايطاليا ولربما تكون طوالع المعركة تقتضينا اتخاذ سبيل معاكس . ولم يخالفني الجنرال مارشال في هـذا الراي ، الا انه قال ان من الخير تأجيل القرار الى ما بعد البدء في عملية صقلية ، واضاف انه من الضروري ان نعرف شيئا عن رد الفعل الالماني لنستطيع ان نقرر ما اذا كان الالمان سيقاومون مقاومة حقيقية في جنوب ايطاليا ، او سينسحبون الى نهر البو وهل في وسعهم ان يعتمدوا علـى الايطاليين ، وان نعرف امداداتهم التي اتخذوها في سردينيا وكورسيكا والبلقان ، والتعديلات التي ستطرأ على أوضاعهم في الجبهة الشرقية ، وكان هو والجنرال ايزنهاور ورجال رياسة الاركان المشتركة يدركون تمامـا ، حقيقـة مشاعري في صدد غزو ايطاليا ، وابدوا رغبتهم في ان يتركوا اختيار الهدف التالي الى ما بعد صقلية .

وقد قلت ان رغبتي الوحيدة ، هي ان أرى ايطاليا قد ازيحت من طريقنا ، وان اشهد روما في قبضتنا ، واني لا احتمل ان ارى هذا الجيش الضخم عاطلا عن العمل في الوقت الذي نستطيع ان نقحمه في معركة لضرب ايطاليا واخراجها من الحرب ، واكدت لهم ان برلماننا وشعبنا سيفرغ صبرهما اذا تعطل الجيش عن العمل .

ويجدر بي هنا ان أوضح بعض الامور التي كانت موضوعا لسوء التفاهم والخلاف ، فقد طلب مني المستر ايدن ان أبين الوضع الذي ستكون غليه تركيا اذا خرجت ايطاليا من الحرب ، وهل هذا سيمهد الطريق لادخالها في الحرب الى جانبنا عندما تصل قواتنا الى منطقة البلقان ، وعلى الرغم من انني كنت متفقا مع ايدن على سياستنا الحربية فقد خشيت ان يؤدي تحوير العبارة الى تضليل اصدقائنا الامريكيين ، فقد قال انه ليس من الضروري ان نبعث الى البلقان الآن بجيش طالما ان الاتراك سيبدأون العمل في اللحظة التي نستطيع فيها ان نشكل تهديدا مباشرا للبلقان .

وهنا طلبت الى الجنرال اليكساندر ان يبدي رايه ، فقال ان تأمين راس جسر على البر الايطالي يجب ان يكون جزءا من خطتنا في الوقت الذي تجري فيه عملية صقلية ، ولو ان راس الجسر في ايطاليا ربما لا يكون منيعا كل المناعة مما يتطلب اي تعديل في خطتنا وعملياتنا لاحتلال قبرص ، وعلينا ان نواصل الحركة دون توقف بعد ان يبدأ هجومنا على صقلية ، وقد يصبح التقدم اكثر صعوبة كلما تحركنا شمالا في البر الايطالي ، الا ان هذا لا يمكن ان يحول بيننا وبين المضي الى ابعد ما نستطيع كجزء من عملية صقلية ، وكثيرا ما تقع في الحروب امور لا يكاد الانسان يصدقها فقبل بضعة اشهر ، ما كان ليصدق ان ما حدث لرومل وفيلقه الافريقي بالفعل ، قد يحدث مطلقا كما كان من الصعب ان يصدق ان ثلثمائة الف الماني سينهارون في اسبوع

واحد ، وقد تم القضاء على قوات العدو الجوية حتى انه اصبح في وسعنا أن نقيم عرضا عسكريا لكل قواتنا العاملة في شمالي افريقيا دون ان نخشى خطرا من طائرات العدو .

وفي الحال انبرى كاتنجهام لتأييده ، وقال ان علينا في حالة نجاح العملية في صقلية ، ان نعبر المضايق فورا دون أي تأخير ، واختتم الجنرال ايزنهاور الاجتماع بقوله ، ان واجبه يدعوه الى الحصول على المعلومات الكافية في صدد المراحل المبكرة من غزو صقلية ، وان يبعث بها الى رياسة اركان القيادة المشتركة في وقت مبكر ، لتقرير الخطة التي يجب علينا ان نتبعها دون توقف او انقطاع ، وانه سيشفعها بالتوصيات التي يراها على أساس الاوضاع الراهنة ، وأعرب عن أمله في ان يتمكن القادة الثلاثة المسئولون أي اليكساندر وكاتنجهام وتيدر من أن يوضحوا له بصفة رسمية آراءهم في جميع هذه الخطط .

وبعد ان امضينا يومين في بعض الاماكن الجميلة في شمالي افريقيا ، قام الجنرال مارشال بزيارة قصيرة لبعض القوات الأمريكية ، ثم رافقني ومعنا الجنرال اليكساندر في زيارة جميع القادة العسكريين وبعض الوحدات وقد أحسسنا بشعور النصر يملأ الجو ، بعد أن تم تطهير شمالي افريقية من قوات العدو ، وأصبح في حوزتنا ما يربو على ربع المليون أسير .

وقد شعرت بأننا حققنا تقدما كبيرا في محادثاتنا وان الجميع اصبحوا يؤيدون فكرة الهجوم على ايطاليا ، ولهذا فعندما عقدنا اجتماعنا الختامي في الثالث من حزيران لخصت النتائج التي توصلنا اليها واثنيت بالغ الثناء على الجنرال ايزنهاور .

وبعد انتهاء هذا الاجتماع عدت انا وايدن طائرين الى الوطن عن طريق جبل طارق ، ولما كانت الصحافة تنقل انباء وجودي في شمال افريقية بصورة كاملة ، فقد نبه ذلك الالمان ، وقد ادى هذا الى مأساة سببت لي الكثير من الالم ، فعندما كانت الطائرة التجارية العادية على وشك مغادرة مطار لشبونه تقدم منها رجل ضخم الجثة وفي فمه سيجارا ، على انه سيسافر عليها ، ولكن ظهر انه من الجواسيس الالمان ، حيث ابرق الى مرجعه يقول اني موجود في تلك الطائرة ، وعلى الرغم من ان هذه الطائرات التجارية كانت تسافر بانتظام في الاشهر الماضية بين انجلترا والبرتغال دون ان تتعرض لها الطائرات الالمانية ، الا ان طائرة حربية المانية ، تلقت الامر فورا بقطع الطريق على طائرة الركاب المذكورة ، فهاجمتها واسقطتها ، وقضى ثلاثة عشر راكبا نحبهم وبينهم الممثل البريطاني المشهور ليسلي هوارد ، ومن الصعب على الانسان ان يفهم كيف يمكن ان يتصور عاقل ان رجلا مثلي ، تحت تصرفه كل ما لدى بريطانيا العظمى من موارد عظيمة ، يمكن ان يحجز مقعدا في طائرة ركاب عادية غير مسلحة ، ولا حراسة لها ، تطير من لشبونه الى الوطن في وضح النهار ، ولكننا كنا قد قمنا في الليل بدورة واسعة من جبل طارق فوق المحيط ووصلنا إلى الوطن دون أي حادث الا انني أصبت بما يشبه الصاعقة عندما علمت بما اوقعه القدر الاعمى بالآخرين .

الجزء الرابع

النصر والمأساة

١٩٤٢ - ١٩٤٥

« لقد فشل النصر الساحق الذي حققه الحلف الاعظم حتى الآن ، في ان يأتي للعالم القلق بالامن والسلام »

سقوط موسوليني

الآن وبسبب دخول الولايات المتحدة في الحرب بعد هجوم اليابان على بيرل هاربور ، قد اصبح انتصار الحرية امرا مؤكدا ، وفعلا قد وصلنا الى نقطة التحول في الحرب الكونية الثانية ولم يأت شهر ايار حتى كانت جميع القوات الالمانية والايطالية في القارة الافريقية قد ابيدت او اسرت ، كما اوقفت انتصارات الامريكيين منذ عام في بحر المرجان وجزيرة مايدواي ، التوسع الياباني في المحيط الهادي ، كما اتضح لهتلر ان عليه ان يدفع الثمن غاليا للغلطة الكبرى التي ارتكبها في محاولة احتلال روسيا عن طريق الغزو ، وعما قريب سيجد الشعب الالماني نفسه وحيدا في اوروبا ، وكان في وسعنا ان نرى الميزان ينقلب الى مصلحتنا في نيسان عام ١٩٤٣ ، حيث كانت قوافل الغواصات المعادية تضطر الى البقاء تحت سطح البحر وكانت مطاردتها تستمر وتتواصل ، بينما تقوم وحداتنا الحارسة من بحرية وجوية بحماية القوافل ، والصمود للغواصات المهاجمة ، وتوافر لدينا الآن القوة الكافية لتشكيل مجموعات مستقلة من السفن التي تمثل دور فرق الفرسان ، وكان هذا كل املي ، ولما كان الالمان قد انزلوا الى البحر مائتين وخمسا وثلاثين غواصة وهو اكبر عدد دفعوا به حتى الآن ، وكان بحارتها تنقصهم الخبرة ، فلم تكن هجماتهم تصيب اهدافها بدقة ، ولهذا فقد هبطت خسائرنا الى ثلثمائة الف طن ، كما اغرقوا لنا اربعين غواصة في شهر ايار وحده كما ان خسائرنا في شهر حزيران هبطت الى اقل رقم شهدناه منذ دخلت الولايات المتحدة الحرب واخذت القوافل تجتاز طريقها بأمان .

كما اصبح في وسع جيوشنا ، ان تعبر البحر لمهاجمة هتلر في اوروبا ، وذلك بسبب زوال قوة المحور من الشمال الافريقي ، كما اعيد فتح طريق القوافل المباشرة الى مصر والهند واستراليا ، في حماية قواتنا البحرية والجوية على طول الطريق من جبل طارق الى السويس ، وبذلك لم تعد قوافلنا تدور حول راس الرجاء الصالح وهي الطريق التي كلفتنا غاليا من الوقت والجهد والحمولة ، وادى ذلك الى توفير خمسة واربعين يوما بالنسبة الى كل قافلة تسافر الى الشرق الاوسط .

ولما كانت الهزيمة التي نزلت بغواصاتنا قد اثرت على جميع الاحداث مما جعل الباقي منها يتفرق في مساحات شاسعة ونائية في جنوب الاطلنطي والمحيط الهندي ، واصبحت وسائل دفاعنا اقل قوة ، هذا وقد استمرت عملياتنا الجوية الهجومية في خليج بسكاي في الازدياد والقوة يوما بعد آخر ، حيث أغرقنا للعدو سبعا وثلاثين غواصة في شهر تموز وحده ، كما اغرقنا في الاشهر الثلاثة الاخيرة من العام ثلاثا وخمسين غواصة ، بينما كانت خسارتنا في هذه المدة نفسها اكثر من سبع

واربعين باخرة تجارية ، وقد بذلت غواصاتنا في اشهر الخريف العاصفة جهود المستميت ولكن جهودها ذهبت هباء ، وفشلت في استعادة التفوق في شمالي الاطلنطي .

هذا وقد اعلن الاميرال دونتس الالماني ، ان عام ١٩٤٤ سيكون عاما ناجحا برغم ما فيه من صعوبات ومشقات وقال اننا سنحطم طريق تموين بريطانيا بسلاح جديد من الغواصات ، وكان لهذه الثقة بعض ما يبررها ، فقد كانت المانيا تبذل مجهودا هائلا ، لبناء طراز جديد من الغواصات يستطيع التحرك بسرعة اكبر تحت الماء وقطع مسافات طويلة ، وفي الوقت نفسه سحبت معظم غواصاتها القديمة لكي يتم تجهيزها بسلاح « شنوركل » الجديد ، وقد مكنها هذا الابتكار الجديد من اعادة تعبئة بطارياتها في الوقت الذي تكون فيه تحت الماء ، وهكذا امكنها ان تتجنب اكتشاف الطائرات لها ، واصبح من الواضح ان الغاية من الغواصات المجهزة بهذا الجهاز الجديد ، هي مقاومة عبور القناة الانجليزية عندما تصبح قوات الحلفاء متاهبة لغزو اوروبا .

اما مسالة غزو صقلية فقد كان من راي الجنرال ايزنهاور ان الهجوم عليها يجب ان يتم اذا كانت الغاية منه تطهير الطريق البحري في البحر الابيض المتوسط ، اما اذا كان غرضنا غزو ايطاليا فيجب احتلال جزيرتي سردينيا وكورسيكا لان هاتين الجزيرتين تقعان بالقرب من راس الحذاء الايطالي ، وعلى الرغم مما في هذه النظرية العسكرية من وجاهة فاني لم أكن موافقا عليها ، ولكن القوى السياسية تلعب دورها .

وبذلك اعددنا العدة لغزو صقلية ، وابتدانا عمليات النزول فيها مسترشدين بالتجارب التي مرت بنا في شمال افريقية ، واشتركت فيها ثلاثة آلاف سفينة وقطعة انزال كانت تحمل مائة وستين الف رجل واربعة عشر الف سيارة وستمائة دبابة والفا وثمانمائة مدفع ، وقد سارت الامور سيرا مرضيا ، نتيجة لحسن التعاون بين اركان القيادة المشتركة ، وكنت لاسباب سياسية قد تخليت عن قيادة الحملة في شمال افريقية واسنادها للولايات المتحدة ، اما الآن فقد دخلنا مرحلة جديدة هي غزو صقلية وقد تقرر ان يتخذ القرار النهائي لغزو ايطاليا على ضوء ما يسفر عنه القتال في صقلية ، فقد شعرت انه من الضروري ان يكون البريطانيون متساوين مع حلفائهم في تحمل اعباء القيادة ، وقد وافق حلفاؤنا الامريكيون على ذلك ، وسلمونا القيادة الفعلية للقتال ، وتقرر ان يتولى اليكساندر مجموعة الجيوش الخامسة عشرة التي تضم الجيش الامريكي السابع الذي يقوده الجنرال باتون ، والجيش البريطاني الثامن الذي يقوده مونتغمري ، وتولى قائد القوات الجوية تيدر قيادة قوات الحلفاء الجوية كما تولى الجنرال كاتنجهام قيادة قوات الحلفاء البحرية . وكان الجنرال ايزنهاور هو القائد العام للقوات كلها ، وبدات الغارات الجوية العنيفة على الجزيرة في الثالث من تموز لتعطيل مطاراتها ومطارات سردينيا ايضا ، مما اضطر مقاتلات العدو الى الدفاع واضطر قاذفاته البعيدة المدى الى الانسحاب الى قواعد جديدة في البر الايطالي ، وعندما اقتربت قوافلنا من الجزيرة كنا قد ضمنا السيطرة الجوية على المنطقة ، ولم تحاول بوارج المحور وطائراته

ان تعرقل الحملة ، وتمكنا عن طريق التمويه ، ان نجعل العدو في حالة من الشك ، ولم يتمكن من معرفة الهدف الحقيقي من هجومنا حتى اللحظة الاخيرة ، لان حركاتنا البحرية واستعداداتنا العسكرية كانت في مصر مشيرة الى ان حملتنا ستستهدف اليونان وكنا قد حددنا اليوم العاشر من تموز لبدء الغزو وفي صباح التاسع من تموز تحركت الاساطيل الجبارة من الشرق والغرب الى جنوب مالطة استعدادا لابحارها الى شواطىء صقلية ، وفي الوقت المحدود اتجهت كلها الى ميدان الهجوم وكانت هذه العملية هي اضخم عملية جرت في التاريخ حتى الآن ، الا ان الرياح اشتد هبوبها بعد الظهر حتى بلغت حدا من العنف جعل النزول الى البر امرا خطرا ولا سيما على الشواطىء الغربية ، ولما كنا نود تأجيل النزول عند الضرورة ، وكان الوقت قد مضى على امكان التأجيل ، فقد شعرنا بالقلق بالنسبة لقوافل الانزال الصغيرة التي كانت تصطرع مع البحر ، وقد تفرق بعضها ، كما لقيت قواتنا الجوية الهابطة اسوأ حظ حيث قذفت الطائرات الامريكية بأكثر من ثلث رجال لواء المظلات الاول ، قبل الاوان ، مما ادى الى غرقهم في البحر ، اما الثلثان الباقيان فقد نزلا فوق القسم الجنوبي من صقلية ، وتمكن ثمانية ضباط وخمسة وستون جنديا من احتلال الجسر وصمدوا فيه الى ان وصلتهم النجدة بعد اثنتي عشرة ساعة ، وكانت عمليات النزول من البحر تحت ستار من الحماية الجوية المستمرة ناجحة كل النجاح ، وتمكنا من الاستيلاء على اثني عشر مطارا ، وبدأ العدو بعد ان آفاق من ذهول المفاجأة يقاتل بشدة ، وبعد ثمانية وثلاثين يوما من القتال ابرق الجنرال اليكسباندر يقول : « في الساعة الواحدة من صباح اليوم السابع عشر من تموز عام ١٩٤٣ طرد آخر جندي الماني من جزيرة صقلية واصبحت الجزيرة كلها في ايدينا » .

وفي التاسع عشر من تموز قامت قوة ضخمة من قاذفات القنابل الامريكية بالاغارة على مطار روما ، وعلى ارصفة السكة الحديدية فيها فأوقعت اضرارا فادحة وكان اثرها النفسي مؤلما ، واصبح انهيار ايطاليا السريع امرا محتملا ، لكن الامريكيين اصروا على عدم القيام بأي عمل جدي في البحر الابيض المتوسط قد يؤدي الى التأثير على العمليات الحربية الاخرى ، وكان هذا التحفظ سببا في خلق الكثير من المتاعب عندما بدأ نزولنا في ساليرنو ، وبينما كانت المناقشات الحادة دائرة بيننا ، تبدل الموقف فجأة كليا بسبب سقوط موسوليني .

وكان على الدوتشي ان يتحمل الآن اعباء الكوارث العسكرية التي قاد بلاده اليها بعد هذه السنوات الطويلة من الحكم ، حيث كانت سلطته مطلقة ، ولم يكن في وسعه ان يلقى اللوم على الملكية او النظام البرلماني او الحزب الفاشي او اركان الحرب ، اما وقد انتشرت الآن بين الطبقات العليمة ببواطن الامور في ايطاليا ، الآراء بأن المحور قد خسر الحرب ، فان اللوم قد اتجه الى ذلك الرجل الذي قذف ببلاده بتهوره الى جانب الفريق الخاسر .

هذا وكان قد اجرى بعض التنقلات بين قادته العسكريين ومستشاريه السياسيين ، فعين في شهر شباط الجنرال امبروزيو

خلفا للجنرال كافاليرو في رياسة أركان الحرب ، وكان امبروزيو مع صديقه الدوق اكوروني وزير البلاط المستشارين الشخصيين للملك ، وكانا منذ اشهر يأملان في قلب حكم الدوتشي ووضع نهاية للعهد الفاشي ، ولكن موسوليني كان لا يزال مسيطرا على مسرح العمليات الاوروبي وكأنه عامل اساسي فيه ، وقد شعر بالاسى عندما طلب اليه قائده الجديد سحب الفرق الايطالية فورا من البلقان ، لانه كان يعتقد ان وجود هذه القوات يقيم شيئا من التوازن في وجه السيطرة الالمانية على أوروبا ، ولم يـدرك موسوليني ان الهزائم في الخارج وانحلال الروح المعنوية في الداخل قد افقداه وضع الحليف بالنسبة الى هتلر ، وكان لا يزال يتعلق بأهداب السلطة وحلمها ، ولهذا فقد عارض في طلب امبروزيو الملح ، وكان يخشى من احتمال قيامه بعمل شخصي متطرف .

ولما كان الملك الدستوري الحذر ، على اتصال مستمر منذ شهر شباط ، بالماريشال بادوليو الذي كان قد اقيل من منصبه بعد الكارثة اليونانية عام ١٩٤٠ ووجد فيه الملك اخيرا انه الشخص الذي يستطيع ان يعهد اليه بادارة شئون الدولة ، فقد تم وضع الترتيبات اللازمة لذلك ، وتقرر اعتقال موسوليني في السادس والعشرين من تموز ، ووافق امبروزيو على ايجاد العملاء الذين يتولون اعتقاله ، وقد استعان الجنرال بغباء ، بعناصر من الحرس الفاشي القديم الذين كانوا يبحثون عن امكانية تجديد شباب الحزب ، ورأوا دعوة أكبر هيئة للحزب وهي المجلس الفاشي الاعلى الذي لـم يجتمع منـذ عام ١٩٣٩ ، الوسيلة لمواجهة الدوتشي بانذار نهائي ، وقاموا في الثالث عشر من تموز بزيارة موسوليني واقنعوه بدعوة المجلس الاعلى الى اجتماع رسمي يعقد في الرابع والعشرين من شهر تموز .

الا ان موسوليني غادر روما في التاسع عشر من تموز يرافقه الجنرال امبروزيو بطريق الجو لمقابلة هتلر في منزل له في فيلتربيه على مقربة من ريميني ، وقد أطال الفوهرر الحديث عن وجوب بذل مجهود اضخم واكبر ، وقـال ان السلاح السري الجديد سيصبح جاهـزا للاستعمال ضد بريطانيا في الشتاء القادم ، وأضاف أن واجبنا الدفاع عن ايطاليا « وان تصبح صقلية بالنسبة للعدو كما كانت ستالينغراد بالنسبة الينا » .

وحث امبروزيو رئيسه على ان يقول لهتلر بصراحة ان ايطاليا لا تستطيع المضي في الحرب ، ولكن الديكتاتور الايطالي لم يفه بشيء ، ودخل موظف ايطالي ثائر قاعة الاجتماع اثناء حديث هتلر عن الوضع يقول ان روما تتعرض في هذه اللحظة لغارة جوية عنيفة من الاعداء ، وقد وعد هتلر بارسال امدادات اخرى الى صقلية ، وعاد موسوليني الى روما لا يحمل شيئا جديدا ، وعندما اقترب بطائرته شاهد سحبا عالية من الدخان الاسود تتصاعد من مئات العربات المحترقة في محطة قطارات ليتوريو ، وفي الحال ذهب لزيارة الملك فرآه « عابسا وشديد العصبية » وقال الملك ان الموقف خطير ، وليس في وسعنا ان نستمر لمدة اطول ، بعد ان اصبحت صقلية الآن في ايدي الأعداء ورد موسوليني بأنه يأمل في اخراج ايطاليا من المحور في الخامس عشر من ايلول .

وفي هذا الوقت وصل الى روما دينوغراندي الفاشي المخضرم ؛ ووزير الخارجية السابق ، والذي عارض في اعلان بلاده الحرب على بريطانيا ، وزار زعيمه القديم في الثاني والعشرين من تموز ، وابلغه صراحة ، بأنه يعتزم التقدم باقتراح لتأليف حكومة انقاذ وطني ، واعادة الملك الى صلاحياته كقائد اعلى للقوات المسلحة . ولما اجتمع المجلس في الساعة الخامسة من مساء اليوم الرابع والعشرين من تموز ، اقترح غراندي ، دعوة الملك الى تولي زمام السلطة والخروج من عزلته ، وتحمل مسئولياته والقى الخطاب الذي وصفه موسوليني بأنه خطاب عنيف من رجل وجد اخيرا متنفسا لحقده العميق الدفين ، وسارع تشيانو صهر موسوليني الى تأييد غراندي واتضح للجميع ان هناك فتنة سياسية توشك ان تقع ، وعندئذ طلب الحاضرون الاقتراع حول هذا الاقتراح ، وفعلا بدأت عملية الاقتراع ، وقد كتب موسوليني يقول : « كان في وسع كل انسان ان يعرف موقف كل عضو من الاعضاء حتى قبل الاقتراع ، فقد كانت هناك جماعة من الخونة تفاوضت مع التاج وهناك ايضا فريق من الجهلة الذين لم يكونوا يدركون خطورة الاقتراع ولكنهم ادلوا بأصواتهم على كل حال » وقد وافق تسعة عشر عضوا على اقتراح غراندي بينما عارضه سبعة ، وامتنع عضوان عن التصويت ، وللذلك فقد قال موسوليني : « لقد اثرتم ازمة ضد العهد فليكن ما اردتم » وانتهى الاجتماع .

وفي اثناء ذلك ، كان قد اعد امر اعتقال موسوليني في هدوء وصمت حيث كان قد بعث الدوق اكواروون وزير البلاد بتعليماته الى امبروزيو الذي اوعز الى وكلائه الموثوق بهم في الامن العام بتنفيذ الخطة .

وقضى موسوليني صباح الاحد الخامس والعشرين من تموز في مكتبة ، وقام بزيارة بعض الاحياء التي عانت من الغارة الجوية الاخيرة ، وطلب مقابلة الملك فسمح له بهذه المقابلة في الساعة الخامسة مساء ، وعندما وصل الى المكان الذي يقيم فيه الملك ، راى في كل مكان تعزيزات جديدة من رجال الكاربينيري ، وكان الملك في ملابس الماريشالية يقف في مدخل الدار ، ودخل الرجلان الى غرفة الجلوس وقال الملك : « لم يعد هناك اي جدوى يا عزيزي الدوتشي فقد تمزقت ايطاليا شر ممزق ، وانهارت معنوية الجيش والجنود لا يريدون ان يمضوا في القتال ، وقد اصبحت الآن في هذه اللحظة الرجل الذي يكرهه الايطاليون جميعا ، وانا اعتقد ان الرجل الذي يصلح الآن لتولي المسئولية هو الماريشال بادوليو » فرد موسوليني قائلا : انك تتخذ قرارا خطيرا ، لان قيام الازمة في هذه اللحظة سيحمل الشعب على الاعتقاد بأن السلام اصبح متوقعاً ، طالما ان الرجل الذي اعلن الحرب قد طرد من منصبه ، وستعتبر الازمة نصرا للحلفاء ولا سيما ستالين وعلى كل حال اتمنى حظا حسنا للرجل الذي سيتحمل المسئولية .

وعهد الملك في ذلك المساء الى بادوليو بتاليف حكومة من القادة العسكريين وكبار الموظفين ، واذاع الماريشال في المساء الانباء الى العالم ، وبعد يومين نقل الدوتشي بأمر من الماريشال بادوليو الى السجن في جزيرة بونزا .

وهكذا انتهى عهد موسوليني الديكتاتوري في ايطاليا والذي دام واحدا وعشرين عاما ، ارتفعت فيه ايطاليا من مهاوي الخطر البلشفي الذي كان يهددها عام ١٩٢٩ الى مركز في اوروبا لم تكن ايطاليا قد بلغته من قبل ، وكان موسوليني قد بعث في حياتها القومية حافزا جديدا ، وبنى لها امبراطوريتها الافريقية ، وشيد لها الكثير من الاعمال العامة المهمة ، وكان قد تغلب بعزيمته وحدها عام ١٩٣٥ على عصبة الامم ، وعلى خمسين دولة تتزعمها دولة واحدة وأكمل احتلاله للحبشة ، وكان نجاحه وانتصاره يلقى التأييد لدى عدد كبير من الايطاليين ، الا أن غلطته الكبرى كانت في اعلانه الحرب على فرنسا وعلى بريطانيا العظمى بعد انتصار هتلر في عام ١٩٤٠ ، ولو لم يرتكب هذا الخطأ لحافظ على ايطاليا في موقف الدولة التي تحقق التوازن والتي ينشد ودها الفريقان وهكذا مضى قدما في طريق الدمار .

وفي هذه اللحظة اقترف هتلر غلطة كبرى في ميدان الاستراتيجية والتوجيه الحربي ، فقد كان عليه بعدما تبين له من احتمال انسحاب ايطاليا من صفه وبعد التقدم الكبير الذي حققته روسيا ، والاستعدادات الواضحة التي تقوم بها بريطانيا والولايات المتحدة لعبور القناة ، ان يعمد الى تركيز جيشه القوي وتنميته كقوة احتياطية مركزية ، وكان في وسعه بهذه الطريقة ان يستخدم المزايا الرفيعة للقيادة الالمانية وقواتها المسلحة ، وأن يستفيد في الوقت نفسه من الوضع المركزي الذي يحتله ، الا انه حاول الاحتفاظ بكل ما كسبه ، فوزع قوات هائلة في البلقان وايطاليا ، ولو احتفظ بقوة احتياطية مركزية قوامها ثلاثون أو اربعون فرقة من خيرة الجنود واقدرهم على الحركة ، لتمكن من ان يوجه ضربته الى أي من خصومه الذين يتقدمون نحو بلاده ، وان يخوض معركة فاصلة له كل الامل في كسبها والفوز فيها ، وكان في وسعه مثلا ان يقاتل البريطانيين والامريكيين في اليوم الاربعين او الخمسين من نزولهم في نورماندي في العام التالي بقوات جديدة متفوقة وكانت الغلطة التي ارتكبها في توزيع قواته ، هي العامل الذي مكننا من تنفيذ الهجوم الرئيسي المباشر في اوضاع تتيح لنا آمالا فسيحة وتحقق لنا نصرا عظيما .

ولما عاد هتلر من اجتماعه الاخير بموسوليني ، كان واثقا من ان الابقاء على ايطاليا في الحرب لا يمكن ان يتم الا عن طريق تطهير الحزب الفاشي وتشديد الضغط الالماني على القادة الفاشيست ، ولكن في الخامس والعشرين من تموز بدأت تصل الى مقر قيادة هتلر تقارير مزعجة من روما واتضح في المساء ان موسوليني اما ان يكون قد استقال او اقيل ، وان الملك اختار بادوليو ليخلفه في الحكم ، وتبين اخيرا ان القيام بأية عملية ضد الحكومة الايطالية الجديدة يتطلب سحب عدد

من الفرق من الجبهة الشرقية ، في الوقت الذي يحتمل فيه أن تقوم روسيا بهجوم في اية لحظة ، ووضعت الخطط لانقاذ موسوليني واحتلال روما ، ودعم الفاشية الايطالية كما وضعت خطة اخرى لمواجهة احتمال توقيع بادوليو الهدنة مع الحلفاء ، وذلك بالاستيلاء على الاسطول الايطالي واحتلال الموانىء والمواقع المهمة في ايطاليا كلها ، والسيطرة على الحاميات الايطالية الموجودة في البلقان .

وفي السادس والعشرين من تموز ، حث هتلر مستشاريه على ان يعملوا فورا لا يتغلب عليه الانجليز والامريكيون ويضيعوا على الالمان ثمرة انتصاراتهم وقال : انه يجب أن نعيد الحزب الفاشي الى الحكم ، والا فاننا سنتعرض لخطر ضياع ايطاليا نهائيا وانتقالها الى جانب الانجلو سكسونيين .

موانـىء مركبـة

بالنسبة لما طرأ على الموقف من تحسن مرموق في توجيه العمليات الحربية ضد صقلية للتغلب عليها واحتلالها ، خصوصا بعد ان تطورت الاوضاع في ايطاليا على النحو الذي ذكرناه في الفصل السابق ، فقد ازداد لدي الشعور بالحاجة الى الاجتماع بالرئيس روزفلت لعقـد مؤتمر للبحث في هذه التطورات ، ولما كان الرئيس يرى ان يكون مكان عقد المؤتمر في مدينة « كويبك » بكندا ، وقد رحب المستر مكنزي كينج رئيس وزراء كندا بذلك فقد استقر الراي على عقد المؤتمر بها ، وقد اشترط الرئيس الا تدعى كندا للاشتراك فيه ، حتى لا يكون ذلك حافزا للبرازيل وغيرها من الدول الامريكية على المطالبة بالاشتراك فيه وكذلك استراليا وغيرها من دول الممتلكات المستقلة .

وفي الرابع مـن آب ابحرنا على الباخرة « الملكة ماري » حيث كان معي اكثر من مائتي شخص بالاضافة الى خمسين جنديا مـن البحرية الملكية ، ولما كانت الموضوعات التي سنبحثها في المؤتمر تشمل الحملة في البحر الابيض المتوسط التي كانت قد بلغت ذروتها ، وكذلك الاعداد لعملية عبور القناة عام ١٩٤٤ وادارة دفة الحرب بصورة عامة في المحيط الهندي ، واسهامنا في الصراع ضد اليابان ، ولما كنا سنبحث ايضا في مختلف الشئون المتعلقة بالعمليتين الحربيتين في الهند والشرق الاقصى ، فقد صحبت معي ثلاثة من ضباط الازكان الذين اوفدهم الجنرال مورجان ، وكذلك مدير العمليات الحربية في قيادة الجنرال ويفل ، واخذت معي أيضا ضابطا شابا هو الزعيم وينجيت الذي كان قد أبرز كفاية ملحوظة في قيادة القوات غير النظامية في الحبشة وفي معارك الادغال في بورما ، وقد شرع يشرح لي نظريته في طريقة التغلب على اليابانيين في حرب الادغال عن طريق انزال جماعات من الجو وراء خطوط العدو لتهديدها ، وقد استهوتني هذه الفكرة كثيرا ورغبت في ان يقوم بنقلها الى رؤساء اركان الحرب ايضا .

ولـما كنت أعرف أن الرئيس روزفلت يرحب بمقابلة الشباب الباسل فقد أخذت معي ايضا قائد الجناح جاي جيبسون الذي كان قد عاد قبل قليل من حملته الرائعة التي دمر فيها سدي الموهن والايدر في المانيا ، وهما السدان اللذان يزودان حوض الروهر الصناعي بالقوة الكهربائية ، كما جاءت معي زوجتي وابنتي ماري التي عملت كمرافق عسكري لي .

وفي اثناء الرحلة كنت ادرس مع رؤساء اركان الحرب مختلف النواحي المتعلقة بالمشكلات التي سنبحثها مع اصدقائنا الامريكيين ، وفي صباح ذات يوم ، جاءني الزعيم ماكلين مع ضابطين آخرين مـن

اركان حرب الجنرال مورجان ، وفتحوا أمامي خريطة كبيرة واخذوا يوضحون عليها في سرد دقيق مقنع الخطة التي اعدت لعملية عبور القناة والهبوط في فرنسا ، وكانت هذه المرة الاولى التي استمع فيها الى خطة كاملة بجميع دقائقها وتفاصيلها المتعلقة بالارقام وحمولة السفن والمبنية على اساس دراسة طويلة اعدها ضباط يمثلون البلدين .

وقد ضاق مجال الاختيار وانحصر في موقعين ، اما نورماندي او خليج كاليه ، وكان الاخير يضمن لنا احسن تغطية جوية ممكنة ، ولكن كانت خطوط العدو الدفاعية في هذه المنطقة امنع منها في أي مكان آخر ، ولما كان الجنرال مورجان ومستشاروه يؤيدون فكرة غزو الساحل النورماندي ، وهي الفكرة التي كان يحملها مونتباتن منذ البداية ، فليس هناك شك في أن هذا القرار كان سليما ، لان نورماندي كانت هي المكان الافضل بالنسبة لان الخطوط الدفاعية فيها ليست من المناعة الى الحد الذي هي عليه في خليج كاليه ، كما ان الشواطىء كانت مناسبة وصالحة لنزول القوات الغازية الكبيرة فيها ، ولانها ايضا كانت بعيدة الى حد ما عن قوة العدو الرئيسية وفي وسعنا ان نعزل ميناء شربورج ونستولي عليه بسرعة ، اما بريست ففي وسعنا ان نلتفت حولها وان نحتلها فيما بعد .

ولما كنت افكر منذ عهد بعيد في موضوع سفن الانزال وفي معدات انزال الدبابات وذلك ببناء ارصفة عائمة فوق سطح البحر ، وكان العمل قد مضى قدما في اعداد كل هذه المعدات ، على اثر مذكرة وجهتها الى اللورد لويس مونتباتن قائد العمليات المشتركة ، وذلك في الثلاثين من ايار عام ١٩٤٢ ، وقد قلت فيها :

« يجب ان تقوم هذه الارصفة مع التيار ، وعلينا ان نتغلب على مشكلة المرسى ، ومن الواجب ان يكون في البواخر السنة جانبية وجسور متحركة هي من الطول بحيث تستطيع الوصول الى مراسي الارصفة العائمة ، أرجو أن تجدوا لي افضل حل لهذه المشكلة ، وارجو الا تناقشوا القضية فان المتاعب نفسها هي التي ستتولى النقاش » .

واتجه الراي فيما بعد الى خلق مناطق صناعية من الماء المحصن من التيارات الهوائية وذلك بوساطة حواجز للماء توضع على سفن خاصة وتنقل الى المكان المعين بقوتها الذاتية ثم يجري اغراقها وفقا للخطة الموضوعة في المكان المحدود ، وقد اقترح هذه الفكرة الكومندر هيوز هاليث في حزيران عام ١٩٤٣ ، وقد وضع مخطط شامل لبناء ميناءين صناعيين كاملين يمكن سحبهما واعدادهما للعمل بعد بضعة ايام من بدء عملية الانزال الاصلية ، كما أنه في وسع قطع الانزال ان ترسو عليها وان تفرغ حمولتها .

وقد اقتنعت الآن بالفوائد العظيمة التي يمكن ان نحصل عليها من استخدام هذه الموانىء والتي تضمن هبوط جيوش كبيرة تعدادها مليون من الجنود وقد تزاد الى المليونين مع كل ما تحتاج اليه من معدات حديثة واجهزة وذلك عند مهاجمة قطاع الهافر ـ همبورج ، وبناء على ذلك فقد وضع مصممو المشروع ورؤساء اركان الحرب البريطانيين

ثلاثة افتراضات ، وافقت عليها تمام الموافقة كما وافق عليها اصدقاؤنا الامريكيون ، وكما قبلها الروس ايضا وهي :

١ ـ يجب ان يكون هناك هبوط ملحوظ في قوة الطائرات الالمانية المقاتلة في شمالي اوروبا الغربي قبل ان يبدأ الهجوم .

٢ ـ يجب الا يكون هناك في شمالي فرنسا عند شن الهجوم اكثر من اثنتي عشرة فرقة المانية متحركة ، وأن يتمكن الالمان في بحر الشهرين التاليين من اعداد إكثر من خمس عشرة فرقة اخرى .

٣ ـ يجب تذليل مشكلة تموين قوات ضخمة في وجه التيارات المائية الشديدة في قناة المانش لفترة طويلة ، ولضمان هذه النتيجة يجب علينا أن نتمكن من بناء ميناءين كبيرين على الاقل .

ولما كنت راضيا عن تمكني من تقديم هذا العرض الشامل الى الرئيس مدعما بتأييدي الكامل فسيقتنع به اصدقاؤنا الامريكيون ، ولذلك فقد عملت على حشد اعظم الخبراء في هذه الشئون من كل من لندن وواشنطن في « كويبك » لوضع الحلول لمختلف المشكلات الفنية .

كما دارت لي احاديث اخرى مع رؤساء اركان الحرب حول مختلف القضايا المتعلقة بحرص الهند والشرق الاقصى ، واستعراض كل ما يتعلق بالقيادة العليا البريطانية المواجهة لليابان ، وبدأ لي ان سير العمليات الحربية على نطاق واسع ضد اليابان يتطلب ايجاد قيادة عليا للحلفاء مستقلة كل الاستقلال ، وقد وافقني رؤساء اركان الحرب على رأيي ، وأعدوا مذكرة بشأنها لكي يبحثوها مع زملائهم الامريكيين في « كويبك » وقررت ان اقترح أسم الاميرال مونتباتن لتولي القيادة العليا على الرئيس في اول فرصة ممكنة ، ولما عرضت الامر على الرئيس وافق عليه .

هذا وقد وصلنا الى هاليفاكس في التاسع من شهر آب ومنها انتقلنا الى القطار الذي اوصلنا الى « كويبك » وفي السابع عشر من آب وصل الرئيس ومعه هاري هوبكنز ، كما جاء ايدن وبراندن براكن طائرين من انجلترا واثناء اجتماعاتنا ، توارد الينا الانباء عن مساعي ايطاليا لعقد الصلح .

وقررنا أن نبدأ في بحث عملية « السيد الاكبر » اي عبور القناة على ضوء المخططات التي اعدها الجنرال مورجان والتي بحثها رؤساء اركان الحرب وهي تتلخص فيما يلي :

« تكون هذه العملية ، اول مجهود تقوم به القوات البرية والجوية البريطانية والامريكية ضد المحور في اوروبا وذلك في اليوم الاول من ايار عام ١٩٤٤ .

توزيع الموارد المتيسرة بين عملية « السيد الاكبر » والعمليات الاخرى في البحر المتوسط بالقوات التي خصصت لها في المؤتمر السابق الذي عقدناه في واشنطن في شهر ايار الماضي ، الا اذا قررت رياسة اركان الحرب المشتركة خلاف ذلك .

ولما كانت الولايات المتحدة قد حصلت على القيادة العليا في شمالي افريقية فقد اتفقت مع الرئيس على ان يتولى الجنرال بروك رئيس

اركان حرب القوات البريطانية قيادة عملية « السيد الاكبر » ولما كان من المقرر ان تبدأ هذه العملية بقوات بريطانية وامريكية متساوية ، ولما كان مقر القيادة في بريطانيا نفسها ، فقد كان هذا الترتيب هو الافضل .

اما بالنسبة الى الشرق الاقصى ، فقد كان الخلاف الرئيسي ، بين رؤساء اركان الحرب البريطانيين والامريكيين ، منصبا على ان بريطانيا كانت تطالب بمركز لائق في الحرب ضد اليابان ، منذ اللحظة الاولى التي تتم فيها هزيمة المانيا وكنت أحث اصدقائي في لجنة رؤساء اركان الحرب على ان يطالبوا بهذه النقطة اذ ان كل ما كنت اخشاه في هذه المرحلة من الحرب ، ان يقول الناقدون الامريكيون « ان انجلترا قد اخذت منا اقصى ما نستطيعه لمساعدتها على هزيمة هتلر ، وستقف في منأى عن الحرب ضد اليابان تاركة ايانا وحدنا في المعركة » ولكننا ازلنا هذه الفكرة تماما عندما اجتمعنا في « كويبك » وعلى الرغم من عدم اتخاذ قرار في صدد العمليات الفعلية التي ستتخذ ، الا أننا قررنا ان نركز جهودنا الرئيسية في عمليات هجومية تستهدف « اقامة اتصال بري مع الصين وتحسين الطرق الجوية والمحافظة عليها » .

كما استقر الرأي على ان نعمل على الوصول الى هزيمة اليابان في بحر اثني عشر شهرا من انهيار المانيا .

اما بالنسبة للحرب في البحر الابيض المتوسط . فقد عقد ايزنهاور في العاشر من آب مؤتمرا عسكريا لقادته العسكريين ، ليتشاوروا في كيفية نقل الحملة الى ايطاليا .

ولما كان لالمانيا ست عشرة فرقة في شمالي ايطاليا تحت قيادة رومل وفرقتان بالقرب من روما ، واربعة اخرى في الجنوب تحت قيادة كيسلرنج ، كما ان في امكانها تعزيز هذه الفرق بعشرين فرقة اخرى كان قد تم سحبها من روسيا لاعادة تنظيمها في فرنسا .

ولما لم يكن في وسعنا حتى في مدة طويلة ان نجمع مثل هذا العدد من الفرق ولو ان لنا الآن السيطرة على الجو والبحر ، وكان الهجوم الذي تركزت عليه الافكار الآن يعتبر مغامرة خطرة وجريئة ، وذلك بقصد الاستيلاء على ميناءي نابولي وتورنتو ليمكن استخدامهما .

ولما كان هدفنا الاول احتلال المطارات وخصوصا القريب منها من روما وكذلك المطارات الموجودة في فوجيا لصلاحيتها للقاذفات الثقيلة وكذلك المطارات الكائنة في مونتيكو وفينو ، فقد قرر الجنرال ايزنهاور ، ان يبدأ الهجوم في اول شهر ايلول من جهة مضايق مسينا وانزال بعض القوات في كالابريا بقصد احتلال نابولي ، وانزال فيلق آخر من البريطانيين والامريكيين على شواطىء خليج ساليرنو المتازة ، حيث كان هذا الخليج هو الحد الاقصى الذي كان في استطاعة طائراتنا المقاتلة العاملة من مطار صقلية ان تحميه توطئة لزحف قواتنا شمالا لاحتلال نابولي .

ولما كانت رياسة اركان حرب القيادة المشتركة قد طلبت الى انا والرئيس ان نخول لايزنهاور احلال موضوع سردينيا وكورسيكا المرتبة الثانية من ناحية الاولوية ، وكان هذا هو ما سعيت اليه منذ زمن بعيد ، فقد وافقنا كما وافقنا على ان تنزل الطائرات فرقا من الجنود لاحتلال المطارات الواقعة في جنوبي روما .

غــزو ايطاليــا

انتهى مؤتمر « كويبك » في الرابع والعشرين مـن شهر آب ، وطار زملاؤنا كل الى مقره في مختلف الجهات ، وقررت أن أقضي بضعة ايام من الراحة في مزرعة للماشية يملكها العقيد كلارك على بعد خمسة وسبعين ميلا من كويبك وتقـع وسط الجبال بجوار بحيرة الجليد الكبرى ، ولاعد في الوقت نفسه الخطاب الذي تقرر أن أذيعه في الحادي والثلاثين من آب ، وفي هـذه المدة شهدت اجتماعا للوزارة الكندية وحدثت أعضاءها بكل ما لا يعرفونه عن المؤتمر وسير الحرب ، وقد أتيح لي شرف تأدية اليمين كعضو في المجلس الخاص التابع للوزارة الكندية وعدنا الى كويبك في التاسع والعشرين من آب وقد شهدت اجتماعا آخر للوزارة الكندية ، وفي اليوم الحادي والثلاثين أذعت حديثي الى الشعب الكندي والى العالم المتحالف معنا ، قبل سفري الى واشنطن ، ولما عدت الى البيت الابيض تحدثت الى الرئيس في مختلف الشئون وجاء الاميرال باوند ايضا ليبحث معنا احدى النقط البحرية . وقد وجه اليه الرئيس عدة اسئلة عن سير الحرب بصفة عامة ، وقد آلمني ان أراه وهو الموثوق به ، قد فقد ما يمتاز به من دقة في سرد الحقائق التي كانت اعظم مزاياه ، وقد تبين أن ذلك راجع الى اصابته بنوبة مفاجئة سببت له شللا في جانبه الايمن ، والتي بسببها قدم استقالته وقد قبلتها في الحال ، وابرقت الى الاميرالية معينـا نائب الاميرال سيفريت ليتولى القيادة بدلا منه .

ولما كانت الاحداث تتوالى سراعا في ايطاليا ، اثناء محادثاتنا في كويبك وكنت أتابع مع الرئيس سير مفاوضات الهدنة السرية مـع حكومة بادوليو ، فقد تعمدت اطالة مدة اقامتي في الولايات المتحدة ، لاظل على اتصال وثيق بأصدقائنا الامريكيين في هذه اللحظة الدقيقة ، وفي يوم وصولي الى واشنطن جاءتنا أول أنباء رسمية بموافقة بادوليو على الاستسلام للحلفاء .

وفي الثالث مـن ايلـول وقـع الجنـرال كاستيلانو الشروط العسكرية لاستسلام ايطاليا وذلك في غابة زيتون علـى مقربة مـن سيراقوزه ، وفي فجر اليوم التالي عبر الجيش الثامن مضايق مسينا ونزل في ايطاليا .

هذا وقد اوفدنا الجنرال الامريكي تيلور في السابع مـن ايلول في مهمـة سرية ليرتب مـع رياسة أركـان الجيش الايطالي تسليمنا المطارات الواقعة حول العاصمة ليلة التاسع من ايلول ، الا انـه في ذلك الوقت طلب الجنرال كاستيلانو حماية الحلفاء لايطاليا ، بسبب

وجود قوات كبيرة من الالمان مسيطرة على المطارات الايطالية ، ولان الجيش الايطالي كـان في وضع معنوي سيىء ويفتقر الـى العتـاد والذخائر ، مما كان له أسوأ الأثر ، وحينئذ طلب الجنرال تيلور مقابلة الماريشـال الايطالي ، وكان كل شيء في ذلك الوقت معلقا في كفة القدر لان القادة الايطاليين كانوا يخشون أن يؤدي اعلان الاستسلام الـى احتلال الالمان الفوري لروما ، والى نهاية حكومة بادوليو ، فلما قابله في صباح اليوم الثامن مـن ايلول ، رجاه في تأجيل اذاعـة شروط الهدنة لان المطارات اصبحت في أيدي الالمان ، ولذلك فقد ابرق الجنرال تيلور الـى القيادة العليا في الجزائر بأنـه لا يستطيع ضمان سلامة مطارات روما ، ولذا فقد تقرر العدول عن عمليات الهبوط من الجو في هذه المطارات .

الا ان الجنرال ايزنهاور صمم على اعلان شروط الهدنة في الحال ورفض طلب بادوليو ، متبعا اياها بالبيان الـذي اصدره الماريشال بادوليو بعد ساعة واحدة من روما ، وهكذا تم استسلام ايطاليا .

ولكن القوات الالمانية بدات في تطويق روما ، وتحصن بادوليو والاسرة المالكة في مقر وزارة الحربية ، ومنها نقلوا في خمس سيارات الى ميناء بسكارا على بحر الادرياتيك ، وكان في انتظارهم طرادان ، ابحرت عليهما العائلة المالكة وبادوليو وأعضاء حكومته وكبار الموظفين الى ميناء برنديزي فوصلوا اليها صباح يوم ١٠ ايلول ، حيث شرعوا في اقامة حكومة ايطالية معادية للفاشية في المناطق التي يحتلها الحلفاء .

وبعد مغادرة الفارين روما ، وصل اليها الماريشال كافيليا بطل معركة فيتوريو فينيتو في الحرب الاولى ، وحمل على عاتقه مفاوضة القوات الالمانية التي تحاصر روما ، ووقع معها هدنة عسكرية ، وبذلك اصبحت الفرق الالمانية لها كامل الحرية في التجول داخل المدينة .

وبعـد ذلـك غادرت القـوات الرئيسية للاسطـول الايطالـي ميناءي جنوا وسبيزيا في رحلة بحرية الى مالطة لتستسلم للحلفاء ، وذلك تنفيذا لتعليمات الحلفاء ، وقد تعرضت هذه القوات أثناء سيرها على مقربة من ساحل كورسيكا الغربي لهاجمة الطائرات الالمانية ، فأصيبت بارجة القيادة « روما » وانفجرت وغرق كل من عليها بما فيهم القائد العام للاسطول الايطالي الاميرال برجاميني ، كما اصيبت البارجة « ايطاليا » بأضرار جسيمة ايضا ، وواصلت بقية قطع الاسطول سيرها تاركة بعض القطع الصغيرة لانقاذ الناجين ، وقـد استقبلها الاسطول البريطاني في عرض البحر ورافقها الى مالطة ، كما غادرت ايضا مجموعة اخرى من الاسطول الايطالي ميناء تورينتو في التاسع مـن ايلول فوصلت الى مالطة صباح الحادي عشر مـن ايلول وقد ابـرق الاميرال كاتنجهام الى الاميرالية يقول « ان اسطول البوارج الايطالية يرسو الآن تحت حماية مدافع قلعة مالطة » .

وهكذا سارت الامور بالنسبة للحلفاء سيرا مرضيا ، فقطع الجيش الثامن مضايق مسينا ولم يلق اية مقاومة واحتل ريجيو ، ثم بدأ زحفه

على طرق كالابريا الجبلية الضيقة ، وابرق الينا الجنرال اليكساندر في السادس من ايلول يقول : « ان الالمان يقاتلون في آخر معركتهم ويخربون ويحرقون المدن ، وفي هـذا الوقت كانت وحدات الحلفاء البحرية من مختلف الاشكال تقطع المضيق بين صقلية والبر الايطالي تنقل الرجال والعتاد ، ولم يتعد القتال بعض المناوشات البسيطة .

وتلقيت من الجنرال اليكساندر ليلة الثامن من سبتمبر ، رسالة تبشرني ببدء الهجوم عندما كنت أغادر كويبك عائدا الى الوطن ، وقد بعثت اليه بالرد التالي : « آمل ان تكون مراقبا لكل ما يدور في المعركة التي يتوقف عليها كل شيء الآن ، كما يجب الا نضن بأي شيء على معركة نابولي الحاسمة » وكان رده مطمئنا وسريعا ، ويقول : « شكرا جزيلا على عرضك المساعدة ، واننا نبذل كل شيء لنجعل من هذه العملية عملية ناجحة وسيتقرر مصيرها في الايام القليلة القادمة » وقد شعرت بشيء من الارتياح عندما علمت بأن الاميرال كاتنجهام لم يتردد في المجازفة ببوارجه والدنو بها من الساحل لمساعدة الجيش حيث بعث بالبارجتين « دورسبايت » و « فاليانت » للاشتباك في المعركة ، وقد اصيبت لسوء الحظ البارجة « دورسبايت » بعـد ظهر السادس عشر مـن ايلول بنوع جديد من القنابل المنزلقة التي لم نكن حتى الآن قـد سمعنا عنها .

وبينما كنا لا نزال في عرض المحيط نشق طريقنا بالتواء ، عائدين الى الوطن وجهت قواتنا ضربة حاسمة الى ميناء تورنتو ، مما أمن لبوارج الاسطول الملكي الدخول بجراة في هذا الميناء ، كما أمن نزول قواتنا البرية على شاطىء ساليرنو دون ان تلقى اية مقاومة ، ولـم تتعد خسارتنا طرادا واحدا اصيب بلغم فغرق في البحر ، ولا زلت احتفظ بالعلم البريطاني الذي رفعه اليكساندر على تورنتو والذي كان اول اعلام الحلفاء التي خفقت فوق القارة الاوروبية .

ومضت معركة ساليرنو في طريقها ، وبعد قتال مرير عانينا فيه مخاوف ومخاطر كثيرة ، فشل الالمان في قذفنا الى البحر ، وادرك كسلرنج انه فاشل لا محالة ، وركز جناحه الايمن على التلال القائمة وراء ساليرنو ، ليؤمن سحب قواته الى الوراء ، وسرعان ما زحف الجيش الثامن بقيادة مونتغمري فاتصل بالجيش الخامس الذي كان قد لحق به التعب والانهاك ، وتقدم الفيلق البريطاني العاشر والى يمينه الفيلق الامريكي السادس ، دافعين امامهما قوات العدو المتراجعة حول فيزوف ، فعبرا آثار مدينتي بومبي وهيراقليوم ودخلا نابولي في اليوم الاول من نوفمبر ، وبذلك تم لنا الانتصار .

جمود في البحر المتوسط

١

وبعد عودتي من هاليفاكس بأيام قليلة ، ارسلت برقية الى الجنرال ايزنهاور ، احدد فيها نسبة المجهود الذي يجب ان نكرس لمشروعاتنا المختلفة ولا سيما فيما يتعلق منها بالمراكز الحساسة ، أقول :

١ ــ لما كنت الح على ضرورة العمل في اتجاهات مختلفة ، فمن الضروري ان أعرض عليك « الاوليات » التي احددها في فكري لهذه الاهداف المرغوب فيها بصورة عامة .

٢ ــ علينا ان نكرس اربعة اخماس جهودنا في اعداد قوتنا في ايطاليا لانهاء السيطرة عليها ، وان نكرس تسعة اعشار مجهودنا للاطمئنان على مصير كورسيكا التي سننتهي منها قريبا الى الادرياتيك ، امـا العشر الباقي فيجب ان يركز على رودس ، ويتوقف هذا كلـه بالطبع ، على العوامل المحدودة لمجهودنا ، واعني بها قطع الانزال ، وسفن الهجوم مع الوحدات البحرية الخفيفة .

٣ ــ ابعث اليك بهذا على اعتبار انه توجيه اولي يدلك على مـا افكر فيه ، لاني لا اريد منك ان تشعر باني احاول الضغط على جميع الاتجاهات دون فهم القيود والمغارم التي تعاني منها .

وقد رد ايزنهاور في اليوم التالي بالبرقية التالية :

« اننا ندرس ما لدينا من موارد بعناية ، لنعطي للشرق الاوسط كل ما يحتاج اليه من عون في هذا المشروع ، واعتقد انه في وسعنا ان نضمن أقل ما نحتاج اليه من متطلبات في هذه المنطقة .

وعندما يستطيع مونتغمري ان يتقدم بقواته الـى الامام ، لدعم ميمنة الجيش الخامس ، فان الامور ستسير بسرعة في جبهة نابولي ، اما الآن فنحن في وضع يشبه كل وضع يسود بعد المراحل المبكرة لاية عملية مشتركة ، اذا تمددت قواتنا من ناحية ادارية وتكتيكية ، ونحن نعمل بجهد لتحسين الموقف ، وسنتلقى انباء طيبة قبل مضي وقت طويل » .

ولكن هذا الرد لم يشر اشارة واضحة للنقاط التي اثرتها في رسالتي ، والتي اعتبرها أهم جزء فيها ، وهي المتعلقة بتوزيع قواتنا لواجهة المشروعات الفرعية وهي مشروعات كثيرة .

وقد ادى استسلام ايطاليا ، الى اتاحة الفرصة لكسب جزر بحر ايجه التي كنا ننظر منذ أمد بعيد اليها كأهداف نتطلع الى احتلالها حيث كانت قلاع رودس ولينوس وكوس محصنة وتحتل مرتبة عالية

بين اهدافنا ، وكانت رودس تعتبر مفتاحا لهذه المجموعة بالنظر الى مطاراتها الجيدة التي نستطيع منها ان نحمي الجزر الاخرى التي قد حتلها لاستكمال سيطرتنا البحرية على هذه المياه يضاف الى هذا ان القوات الجوية البريطانية العاملة في مصر وبرقة تستطيع ان تقوم حماية مصر ، بطريقة افضل ، اذا تقدم بعضها الى مطارات رودس واحتلتها ، ولا ريب انه بعد ان سيطرنا على جزر بحر ايجه ، اعتبرنا هذا العمل حاسما بالنسبة الى تركيا ، التي تأثرت تأثيرا عميقا بانهيار ايطاليا ، واذا تمكنا من استخدام بحر ايجه ومضايق الدردنيل ، فقد يصبح طريقنا البحري قصيرا الى روسيا ، ولن نعود في حاجة الى القوافل القطبية الكثيرة الخطورة والباهظة التكاليف ، أو الى طريق التموين الشاق الطويل عبر الخليج العربي .

ولما شعر الالمان بالخطر الشديد المخيف الذي توقعوه منا على جناحهم الجنوبي الشرقي ، حث ممثلو الجيش والبحرية في مؤتمر عقد في مقر قيادة الفوهرر في الرابع والعشرين من أيلول — زعيمهم على وجوب الجلاء عن كريت وبعض جزر بحر ايجه ، قبل ان يفوت الاوان ، وأشاروا الى القوات الامامية التي تركزت في شرق البحر الابيض المتوسط استعدادا للهجوم وأكدوا ضرورة تجنب فقد القوات والمواد الحربية التي قد تلعب دورا مهما حاسما في الدفاع عن القارة ، ولكن هتلر رفض الانصياع الى هذه الآراء ، واصر على عدم الجلاء عن كريت وجزر الدوديكانيز بوجه خاص ، لما يترتب عليه من آثار سياسية وقال : « ان موقف حلفائنا في الجنوب الشرقي وموقف تركيا ، تقررهما الثقة في قوتنا ، ولا ريب ان التخلي عن هذه الجزر سيخلق اثرا سيئا للغاية » وقد برهنت الاحداث على صحة حكمه في النضال دفاعا عن جزر بحر ايجه فقد احرز مكاسب ضخمة بأقل ما يمكن من التكاليف بالنسبة للوضع الاستراتيجي الرئيسي ، فلقد كان مخطئا في البلقان ، ولكنه كان مصيبا في بحر ايجه .

الا انه في هذه الاثناء تحسنت اوضاعنا ولم تحل نهاية شهر ايلول حتى كنا نحتل جزر كوس وليروس وساموس ، ووضعنا فيها حاميات الا انه لم يكن في وسعنا بالنسبة لقلة البواخر ان نؤمن ارسال اسلحة ثقيلة وسيارات الى هذه الجزر ، وكانت جزيرة كوس مهمة للغاية من الناحية الاستراتيجية لانها كانت تضم مطارا تستطيع طائراتنا المحاربة ان تعمل منه وسرعان ما اعددناه للخدمة وانزلنا الى الجزيرة اربعة وعشرين مدفعا للدفاع عن المطار ، واصبحت الجزيرة طبعا اول هدف للهجوم المضاد من العدو ، وفي صباح الثالث من تشرين الاول هبط المظليون الالمان في المطار وتغلبوا على السرية الوحيدة التي كانت تدافع عنها . وتم عزل بقية سرايا الفوج في شمال الجزيرة بحركة انزال بحرية قام بها العدو ، ولم يتمكن اسطولنا من وقفها وسقطت الجزيرة في أيدي العدو .

وابرق الى ويلسون في الثاني والعشرين من ايلول ، يحدد اقل ما يحتاج اليه من مطالب للقيام بمحاولة جديدة ضد رودس ، وقد قرر استخدام الفرقة الهندية العاشرة وجزءا من لواء مدرع وكان

في حاجة الى بعض القوات الحارسة والى بعض قوات الانزال التي تقصف بمدافعها مواقع الانزال ، وثلاث بواخر لانزال الدبابات ولحمل السيارات وسفينة مستشفى ، وعدد من طائرات النقل لحمل فوج من المظليين ، وقد أزعجني عجزنا على دعم هذه العمليات ، فأبرقت الى الجنرال ايزنهاور طالبا عونه ، وقد استطاعت المساعدات التي أرسلها لينا أن تحرز نجاحا مذهلا .

ولما كان الالمان قد استعادوا زمام المبادرة الآن ، حيث نقلوا عددا كبيرا من طائراتهم الى بحر ايجه لاحباط الخطة التي كنت حزمت أمري عليها فقد عرضت القضية على الرئيس روزفلت في السابع من تشرين الاول ، ولكنني تألمت أشد التألم عندما تلقيت منه برقية تكاد تشبه الرفض، وتركتني هذه البرقية في وضع حرج ، أواجه الضربة المتوقعة التي لم يعد منها مناص ، وقد بعثت الى الرئيس روزفلت بالبرقية التالية :

« لا أريد أن ارغم ايزنهاور على تحويل قواته مما يترتب عليه تحديد امكانياته في تطوير العملية الايطالية ، تطويرا ناجحا ومبكرا يضمن لها الحصول على خط دفاعي امين الى الشمال من روما .

وانني اعارض في اي تحويل للقوى ، قد يؤدي الى ما يرى ايزنهاور الى تهديد وضع سلامته الراهنة في ايطاليا ، وهو وضع يجري اعداده بمنتهى البطء على ضوء الاعتبارات المترتبة على قوة خصمه ، الذي يتمتع بتفوق ملحوظ في القوات البرية والفرق المدرعة .

واني لارى ايضا ضرورة عدم القيام بأي تحويل للقوى او المعدات يؤدي الى التأثير على خططنا لعملية « السيد الاكبر » اي « غزو اوروبا » ويوافقني على رأيي رؤساء اركان الحرب الامريكيون وقد بعثت بصورة هذه البرقية الى ايزنهاور » .

وبعد ذلك قررت ان اطير الى تونس حيث يجتمع الآن كافة القواد العسكريين العاملين في مؤتمر حربي .

ولكن رد الرئيس روزفلت قضى على كل ما تبقى لدي من آمال ، فقد أعرب عن رأيه في ان حضوري هذا المؤتمر ، سيكون غير مناسب ، ولهذا فقد الغيت الرحلة ، وفي الوقت نفسه ، وصلت الانباء تقول ان هتلر قرر تعزيز جيشه في ايطاليا وان يخوض معركة رئيسية الى الجنوب من روما ، وكانت هذه المعلومات كافية لقلب الميزان ضد ارسال النجدات اللازمة للهجوم على رودس ، الا انني ظللت مقتنعا بأنه كان في وسعنا ادخال احتلال رودس ضمن الاطار العسكري لمخططنا ولكني على كل حال أذعنت .

ولما لم يكن في وسعي — وما زالت أمامنا قضايا خطيرة للغاية معلقة في كفة الاقدار — أن أغامر بأي تصدع في علاقاتي الشخصية بالرئيس روزفلت .

ولما كان احتلال روما لم يتم الا بعد ثمانية اشهر ، وقد استخدمنا من البواخر عددا يساوي عشرين ضعفا لما كنا في حاجة اليه لاحتلال

رودس في خلال اسبوعين ، طيلة الخريف والشتاء لنقل قواعد القاذفات الثقيلة من امريكا وبريطانيا الى ايطاليا ، فقد ظلت رودس شوكة في جانبنا ، ولما رأت تركيا هذا الجمود غير العادي من جانب الحلفاء على مقربة من سواحلها غدت أقل استجابة لنا وحرمت علينا استخدام مطاراتها .

ولما نفذت القيادة الامريكية وجهة نظرها ، تحتم على البريطانيين ان يدفعوا الثمن ، على الرغم من اننا جاهدنا للحفاظ على مواقعنا في ليروس ، الا ان مصير قوتنا هناك اصبح محتوما ، وسارعت حامية ساموس المؤلفة من لواء كنت الملكي الثاني ، الى ليروس في المراحل الاخيرة ، ولكن المعركة كانت قد انتهت وسقطت النجدة بدورها فريسة للعدو ، لانها كانت تفتقر الى العون الجوي ، وهكذا سقط هذا اللواء من جنودنا في قبضة العدو ، وانتهت في الوقت الحاضر جميع آمالنا في بحر ايجه ، وحاولنا فورا ان نجلي جميع حامياتنا الصغيرة من ناموس وغيرها من الجزر ، وان ننقذ الناجين من ليروس ، فتمكنا من انقاذ نحو ألف جندي بريطاني ويوناني مع عدد من الاسرى الايطاليين والالمانيين ولكن خسائرنا البحرية كانت بالغة ، فقد غرقت لنا ست مدمرات ، وغواصتان ، كما أصيبت أربع طرادات وأربع مدمرات بأضرار وقد اشترك معنا في هذه المحنة الاسطول اليوناني الذي لعب دورا عظيما طيلة مراحل القتال .

اما عملية « السيد الاكبر » اي « غزو اوروبا » فقد كان لي فيها فضل كبير حيث زودت ايزنهاور بأربع فرق بريطانية من مصر من خيرة الجنود واحسنهم تدريبا ، بالاضافة الى الفرق التي كان من المقرر ان نزوده بها في البداية كما جهزناها بموارد رئيسية لم تكن تتوقعها ، وبدونها كان من المحتمل ان تحل كارثة شاملة بالحملة كلها .

وفي هذا الوقت غير هتلر رأيه بالنسبة لاستراتيجية ايطاليا عملا بنصيحة كسلرنج واصدر أوامره الى قواته بالقتال في جنوب ايطاليا وقد اختار خطا يحاذي نهر سانجور على جانب الادرياتيك عابرا سلسلة جبال ايطاليا الى مصب نهر كاراجليانو الى الغرب ، وهكذا تبدل الوضع في ايطاليا تبدلا كبيرا في غير صالحنا لان هتلر عزز هذه القوات بقوات كبيرة أخرى ، وكان الحلفاء على النقيض من ذلك ولم تتمكن الفرق الاضافية الاربع التي بعثت بها من سد الثغرة ، مما أدى الى اطالة الحرب في ايطاليا ، ومع هذا فلم يحل هذا كله دون ان نبدأ عملية « السيد الاكبر » بنجاح في السادس من حزيران وبقوات كافية .

القوافل القطبية

انتهى عام ١٩٤٢ بعمل جريء قامت به المدمرات البريطانية التي ترافق احدى القوافل الى شمال روسيا في المياه القطبية ، مما ادى الى ازمة في القيادة العليا الالمانية ، وطرد الاميرال ريدر من الاشراف على الشئون البحرية كما قامت قافلتان اخريان مؤلفتان من اثنتين واربعين سفينة برحلات خطرة بين شهر تشرين الثاني وشهر آذار ، اي في الاشهر التي يكون فيها الجو مظلما في القطب الشمالي ، وقد وصلت منها اربعون سفينة ، ولما انتهت فترة الظلام وابتدأ الضوء يسطع اصبح من السهل على العدو ان يهاجم القوافل ، وكان قد تركز ما تبقى من الاسطول الالماني بما فيه البارجة تيربيتز في المياه النرويجية ، فأخذ يؤلف خطرا كبيرا ومستمرا يهدد معظم الطريق ، كما كانت معركة الاطلنطي مع الغواصات تتجه نحو ازمة عنيفة ، وكان العبء على مدمراتنا اكثر مما تطيق وتحتمل ، ولذلك فقد اقترحت الاميرالية في شهر نيسان وقف ارسال المؤن الى روسيا من هذا الطريق حتى يعود الظلام في الخريف .

وبعد ذوبان الثلوج في الربيع ، اخذ الفريقان يجمعان شمل قواتهما استعدادا للكفاح الرهيب ، وكان الروس قد أصبحوا الآن متفوقين في البر والجو وتمكنت المدفعية الروسية من تحطيم دبابات « النمر » الجديدة التي كانوا قد علقوا عليها الكثير من الآمال في النجاح ، كما انهالت الضربات الروسية اثناء المعارك الثلاث في كورسك وأوريل وخاركوف ، مما سبب خسائر فادحة لالمانيا .

ولم يأت شهر ايلول ، حتى كان الالمان يتراجعون على طول جبهتهم الغربية من منطقة موسكو حتى البحر الاسود ، كما لم يستطيعوا الصمود على نهر الدينيبر ، وخصوصا بعد ان قطع الطريق على الحامية الالمانية القوية في شبه جزيرة القرم ، وسقطت كييف في السادس من تشرين الثاني ، ولم يحل شهر كانون الاول حتى كانت الجيوش الالمانية في أواسط روسيا وجنوبيها قد ارغمت على التراجع الى الوراء مسافة مائتي ميل وفشلت في الاحتفاظ بخط نهر الدينيبر .

ولما كانت روسيا في حاجة ماسة الى امدادها بما تحتاج اليه جيوشها من عتاد وذخيرة فقد استدعى مولوتوف سفيرنا في موسكو وطلب اليه سرعة استئناف ارسال القوافل ، واشار الى ان الاسطول الايطالي في البحر الابيض قد زال من الوجود ، وأكد ان السكة الحديدية الايرانية لا تستطيع ان تحمل ما فيه الكفاية وقال ان الحكومة الروسية تصر تبعا لذلك على استئناف ارسال القوافل بسرعة فائقة .

وعندما اجتمعنا في لندن في التاسع والعشرين لدراسة جميع هذه الموضوعات عرضت امامنا حقيقة مناسبة ، فقد تمكنت غواصاتنا من مهاجمة البارجة تيربيتز وعطلتها عن العمل ، كما ان البارجة لوتزار كانت قد ارتحلت الى البلطيق وهكذا فقد تحسن الوضع بالنسبة لنا في المياه القطبية لفترة بضعة شهور على الاقل ، ولهذا بعث الى ستالين بالرسالة التالية :

« يسرني غاية السرور ان ابلغك اننا نعد العدة لابحار مجموعة من اربع قوافل الى شمال روسيا في اشهر تشرين الثاني وكانون الاول وكانون الثاني وشباط على ان تتألف كل منها من خمس وثلاثين سفينة بعضها امريكي والبعض الآخر بريطاني » .

وقد اصدرت اوامري في الحال باتخاذ الاجراءات اللازمة لارسال هذه القوافل الاربع ولو ان ما كان لدينا من بحارة اقل مما كنا نحتاج اليه ، ولماكان البحارة يشكون من سوء معاملة روسيا لهم ، فقد طلبت الى ستالين ان يعالج هذه الاوضاع لانه كان لا يسمح لهم بالنزول الا في زورق روسي وبحضور موظف سوفيتي كما كان لا يسمح لاي واحد بالانتقال من سفينة حربية بريطانية الى سفينة تجارية بريطانية الا بعد اعلام السلطات السوفييتية وينطبق هذا الاجراء على الاميرال البريطاني .

وقد رد علي ستالين يقول : ان السلطات السوفييتية قد منحت رجال القوات المسلحة البريطانية والبحارة البريطانيين امتيازات وتسهيلات كثيرة وان ليس لدي اعتراض على أن تتولى السلطات البريطانية نفسها اعمال الرقابة على البريد الشخصي لهذه القوات في الموانىء الشمالية على شرط المعاملة بالمثل .

وعلى اثر ذلك اعدت الترتيبات اللازمة لاستئناف سير القوافل ، وقد بدات القافلة الاولى في شهر تشرين الثاني وتبعتها الثانية في شهر كانون الاول وبلغ مجموعهما اثنتان وسبعون سفينة وصلت كلها بسلام .

هذا وقد قدر للقافلة المتجهة الى شمال روسيا في شهر كانون الاول ان تشتبك في معركة بحرية ناجحة مع البارجة الكبيرة شارنهورست في مياه النرويج وكانت ترافقها خمس مدمرات ، وكانت قوة الحراسة على القافلة تتألف من اربع عشرة مدمرة وثلاثة طرادات ، وقد اصيب في هذه المعركة كل من شارنهورست والطراد البريطاني نورفولك ، وبعد ذلك توقف الالمان وانسحبوا جنوبا .

وعندما علمنا في نيسان عام ١٩٤٤ ان البارجة تيربيتز قد تم اصلاحها واخذت تتحرك في البلطيق هاجمتها طائراتنا من الحاملتين « فيكتوريوس » و « فيريوس » بالقنابل الثقيلة ، كما اخذت طائراتنا التي تقوم بمهاجمتها من قاعدة في شمال روسيا بتوجيه الضربة الخاسمة اليها فأغرقتها واغرقت نصف بحارتها البالغ عددهم ١٩٠٠ رجل دون ان تصاب الا طائرة واحدة بأضرار ، وبذلك اصبح في

ميسور البوارج البريطانية الثقيلة ان تنطلق الآن حرة الى الشرق الاقصى .

وقد خسرنا طيلة الحرب احدى وتسعين باخرة تجارية في الطريق القطبي تبلغ ٨ر٧٪ من مجموع السفن المرسلة الى روسيا و ٨ر٣٪ من البواخر الفارغة العائدة كما خسر الاسطول التجاري ٨٢٩ شخصا من رجاله ، بينما دفع الاسطول الملكي ثمنا اغلى ، حيث غرق طرادان وسبع عشرة سفينة حربية اخرى وغرق معها ١٨٤٠ جنديا وضابطا .

طهـران ـ الافتتـاح

عندما عدت الى الوطن من مؤتمر كويبك ، فكرت في اجتماع يضم رؤساء الحكومات الثلاث ، لما له من إهمية كبرى بالنسبة لعملية عبور القناة ودخولنا اوروبا في عـام ١٩٤٤ ، واختيار قائد اعلـى لهذه العملية ، ولما كنت قد اتفقت مع الرئيس في مؤتمر كويبك على ان يتولى امريكي قيادة العملية ، فقد اتفقنا على اختيار الجنرال مارشال لتولي هذه القيادة ، وقد كان من المقرر ان تكون القوات البريطانية معادلة للقوات الامريكية في مستهل عملية « السيد الاكبر » وأن يكون العدد الموجود منها في ايطاليا ضعف عدد القوات الامريكية ، كما يكون عددها ثلاثة اضعاف القوة الامريكية في البحر الابيض ، ولما كنت اشعر بأهمية الاجتماع مع الروس بعد ان اتحدت آراؤنا تجاه المشاكل البارزة المتعلقة « بالسيد الاكبر » وبموضوع القيادات العليا ــ كنت ارغب في ان تمر الاجراءات في ثلاث مراحل ، اولها ــ اتفاق انجليزي ــ امريكي واسع النطاق في القاهرة ، وثانيها ــ اجتماع ذروة لرؤساء حكومات دول الحلفاء الرئيسية الثلاث في طهران ، وثالثها ــ عند العودة الى القاهرة ، وقد وافق روزفلت على المجيء الى القاهرة اولا على ان يأتي اليها ايضا مولوتوف ووزير خارجية الصين .

وقد ابحرت في الثاني عشر من تشرين الثاني من ميناء بليموث مع اركان حربي في رحلة قدر لها ان تبعدني عن انجلترا اكثر من شهرين ، ووصلت الى الاسكندرية في اليوم الحادي والعشرين من الشهر ومنها طرت الى القاهرة في اليوم نفسه واقمت في منزل مجاور للاهرامات حيث وجدت ان الجنرال شيانج كاي شك والسيدة قرينته قد وصلا من قبل ، وفي صباح اليوم التالي وصل الرئيس روزفلت وتقرر ان يكون فندق « مينا هاوس » مقرا عاما للمؤتمر ، وأيضا لاجتماع رؤساء اركان الحرب البريطانيين والامريكيين .

وعقد رؤساء اركان حربنا المشتركون جلسة في الرابع والعشرين من تشرين الثاني برياسة الرئيس روزفلت ، لم يشترك فيها الوفد الصيني لبحث العمليات الحربية في البحر المتوسط وأوروبا ، واستهل الرئيس الاجتماع بالتحدث عن الاثر الذي قد تتركه علي عملية « السيد الاكبر » اية عملية اخرى قد نقوم بها اثناء ذلك في البحر الابيض المتوسط بما في ذلك مشكلة دخول تركيا الحرب الى جانبنا ، وقلت انني اعتقد أن برنامجنا يجب ان يستهدف محاولة احتلال روما في تشرين الثاني ورودس في شهر شباط ، وان نستأنف ارسال المؤن الى اليوغوسلافيين ، وأن نعيد فتح بحر ايجه على ضوء نتيجة محاولة جديدة نقوم بها مع تركيا وان نمضي في جميع استعداداتنا « للسيد الاكبر » بمنتهى السرعة .

وكان المستر ايدن قد وصل من لندن وانضم الينا ، فتحدث عن الفوائد التي سنجنيها من دخول تركيا الحرب ، حيث سيضطر البلغاريون الى تركيز قواتهم على الحدود ، وعلى سحب قواتهم التي تقدر بعشر فرق من يوغوسلافيا واليونان ، مما يحتم على الالمان احلال قوات المانية بدلها كما سيصبح في امكاننا مهاجمة آبار الزيت في بلويستي ، كما ستقطع تركيا معدن الكروم عن المانيا ، كما ان هناك فوائد اخرى ، وهو ان دخول تركيا الحرب ، قد يؤدي الى تعجيل التفسخ بين المانيا والدول التابعة لها ، ولكن الوفد التركي لم يتأثر بجميع هذه الحجج والبراهين ، فقد ذكر اعضاؤه ان منح القواعد في الاناضول للحلفاء سيكون بمثابة تدخل في الحرب ، مما يستفز الالمان على الانتقام من استامبول وانقره وازمير ، ورفض الاتراك قبول وجهة نظرنا ولكنهم وعدوا بعرض وجهة النظر البريطانية على حكومتهم .

وكانت عملية « السيد الاكبر » قد وضعت مخططاتها بتفصيل دقيق واسهاب ، لكي تبدأ في شهر ايار او حزيران او تموز على الاكثر من عام ١٩٤٤ كما ان هناك الجيش الانجليزي ـ الامريكي الضخم الذي يعمل الآن في ايطاليا والذي يجب علينا ان نمده بقوات جديدة لكي يتقدم شمالاً ليحتل المطارات الواقعة في شمال العاصمة والتي نستطيع أن نشن منها غاراتنا الجوية على المانيا واذا قدر لهذه العمليات ان تلقى مقاومة من العدو فانها ستجتذب قوات المانية ضخمة مما سيعطي للايطاليين الفرصة للخروج بأنفسهم من المأزق .

كما لم أكن أعارض في هذا الوقت في عملية انزال قوات في جنوب فرنسا على ساحل الريفييرا ، على أن تستهدف العملية مرسيليا وطولون ، ثم تزحف القوات البريطانية والامريكية شمالا على طول حوض الرون ، كعملية مساعدة لعملية الغزو الرئيسي عبر القناة ، فاذا قرر الالمان المقاومة في هذه الجبهة فسنرغمهم على سحب عدد كبير من فرقهم من الجبهة الروسية .

أما بالنسبة الى حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي ، فالقوة الجوية المحتشدة للدفاع عن مصر يمكنها ان تؤدي واجبات اخرى اذا اعتمدت على قواعد امامية ، ولو تمكنا من احتلال رودس لامكننا ان نسيطر سيطرة كلية على بحر ايجه ، ولوجدنا اتصالا بحريا مباشرا مع تركيا ، واذا تمكنا من جهة اخرى من اقناع تركيا بالدخول في الحرب ، او مد حيادها على الاقل الى اقصى حد ممكن واقراضنا المطارات التي شيدناها لها امكننا ان نسيطر على بحر ايجه وفي مثل هذه الحالة لا يصبح احتلال رودس امرا ضروريا ، ولامكننا ايضا ان نسيطر على البحر الاسود بغواصاتنا وقواتنا البحرية الخفيفة وان نمد ذراعنا اليمنى الى روسيا ناقلين اليها المؤن التي تحتاج اليها جيوشها بطرق اقل تكاليف واكثر سرعة بدلا من طريقي القطب الشمالي والخليج الفارسي .

ولما كنا على موعد مع الماريشال ستالين على الاجتماع به في طهران فقد طرنا اليها انا والرئيس ومستشارونا ، وعقدنا الجلسة الاولى

في دار السفارة السوفييتية في اليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني ، وكان مولوتوف والماريشال فورشيلوف هما اللذان يرافقان ستالين ، وبحثنا جميع الخطط الحربية سواء في روسيا او أوروبا واتفقنا على ما يجب عمله ، وبعد العشاء ، انتحيت بستالين واقترحت عليه ان نتحدث بعض الوقت عما سيقع بعد ان نكسب الحرب ، وقد انضم الينا ايدن ، فقال ستالين ، دعونا ندرس اولا أسوأ ما يمكن ان يحدث ، فقد خيل اليه ان الفرصة ستتاح لالمانيا لكي تعود الى ما كانت عليه ، وستتمكن من شن حرب جديدة في وقت قصير ، وكان يخشى بعث الروح الوطنية الالمانية ولما سألته عن الوقت الذي يقدره لذلك قال : « في بحر خمسة عشر عاما او عشرين عاما » وكان من رأيه ان ندرس القيود الواجب علينا ان نفرضها على طاقة المانيا الصناعية ، فالالمان شعب قدير دائب على العمل ومجد وكثير الموارد وفي استطاعته ان يستعيد قوته بسرعة وسهولة ، فقلت ان من الواجب فرض بعض أجراءات للاشراف عليها ، واني اؤيد وجوب حرمانهم من الطيران المدني والحربي ومن نظام الاركان العامة . فقال ستالين يسألني : وهل تستطيع ان تمنع صانعي الساعات ومعامل الاثاث من صنع اجزاء القنابل ؟ : فقلت على العموم يجب علينا ان نؤمن سلامة العالم لخمسين سنة قادمة عن طريق نزع سلاح المانيا ومنعها من التسلح والاشراف على مصانعها ، وخطر الطيران عليها ، وكل هذا يتوقف على استمرار صداقة بريطانيا وأمريكا وروسيا .

وكان تعليق ستالين : « ان كل ما ذكرته حسن نافع ولكنه غير كاف » .

هذا وقد عقد الرئيس بعد ظهر اليوم التالي اجتماعا آخر مع ستالين ومولوتوف بحثت فيه عدة قضايا هامة ، بينها بصفة خاصة مشروع المستر روزفلت لحكم عالم ما بعد الحرب ، وكان من رأيه ان هذا الحكم يجب ان يعهد به الى « رجال الشرطة الاربعة » وهم الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والصين ، ولم تكن استجابة ستالين مؤيدة ، اذ قال ان شعوب أوروبا الصغيرة لن ترحب « برجال الشرطة الاربعة » وهو لا يعتقد بأن الصين ستكون قوية جدا عندما تنتهي الحرب ، وانها حتى لو كانت قوية فان الدول الاوروبية سترفض قبول الصين كدولة تفرض عليها ارادتها وتنفذ رغباتها واقترح ستالين ايضا كحل آخر ان تكون هناك لجنة لاوروبا واخرى للشرق الاقصى ، وان تضم اللجنة الاوروبية بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة ودولة اوروبية اخرى .

وبعد ذلك عقدنا اجتماعنا الثاني ، وذكرت ستالين بالشروط الثلاثة التي يتوقف عليها نجاح عملية « السيد الاكبر » وأول هذه الشروط وجوب تخفيض قوة المانيا من الطائرات المحاربة في شمال غربي اوروبا في الفترة الواقعة التي تبدأ من اليوم حتى الهجوم تخفيضا مرضيا ، وثاني هذه الشروط ان الاحتياطي الالماني في فرنسا والبلاد المنخفضة يجب الا يكون اكثر من اثنتي عشرة فرقة كاملة ، والشرط

الثالث ان يعجز الالمان طيلة الستين يوما الاولى بعد بدء العملية عن نقل اكثر من خمس عشرة فرقة من الفرق للدرجة الاولى من الجبهات الاخرى ، ولتحقيق هذه الشروط يجب علينا ان نرغم الالمان على الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من قواتهم في ايطاليا وبوغوسلافيا واذا دخلت تركيا الحرب فسيكون ذلك عونا اضافيا ، ولذلك يجب علينا ان نواصل الاشتباك مع العدو وفي الجبهة التي نستطيع الآن محاربته فيها ، واذا تمكنا من مقاتلتهم طيلة أشهر الشتاء في البحر الابيض المتوسط ، فان هذا سيسهم اعظم الاسهام في خلق الاوضاع التي تحتاج اليها لنجاح عملية « السيد الاكبر » .

وسأل ستالين : ماذا سيحدث لو كانت لدى الالمان ثلاث عشرة فرقة او اربع عشرة فرقة متحركة في فرنسا واكثر من خمس عشرة فرقة متوافرة في جبهات اخرى ، فهل يعني هذا العدول عن عملية « السيد الاكبر » فقلت له : « لا . . لا بالطبع لا . . » .

وقبل ان نفترق وجه الي ستالين سؤالا آخر قائلا : ــ هل تعتقد ان لدى اركان الحرب البريطانيين اعتقادا جازما بنجاح العملية ؟ قلت ، اعتقد ذلك بشرط ان تتوافر الشروط الثلاثة عندما تبدأ العملية ، وعند ذلك سيكون واجبنا المقدس ، ان نتدفق عبر القناة ضد الالمان وان ندفع بكل ما لدينا من قوة وبعد ذلك افترقنا .

مؤتمـــر طهـــران

ولما كنت قد بلغت التاسعة والستين من عمري في الثلاثين من تشرين الثاني وكان هذا اليوم زاخرا بالذكريات وكان لدي كثير من الاعمال الهامة ، فقد قضيته في تصريفها ، وبالنظر الى ان الرئيس كان دائما على اتصال فردي بستالين وقد تجنب في الوقت نفسه الاجتماع بي على انفراد منذ تركنا القاهرة ، فقد قررت أن أعمل على الاجتماع بستالين اجتماعا شخصيا مباشرا ، وكانت قد تكونت لديه فكرة خاطئة عن أني وأركان الحرب البريطانيين نريد وقف عمليــة « السيد الاكبر » اذا استطعنا ، لاننا نريد غزو البلقان بدلا من فرنسا « ورأيت من واجبي ان انزع هذا الفهم الخاطىء من ذهن ستالين » .

وبما ان الموعد الحقيقي لعملية « السيد الاكبر » يتوقف على تحركات عدد قليل من قطع الانزال والتي ليست لنا بها حاجة لاية عملية تجري في البلقان ، ولما كان الرئيس قد تعهد بالنيابة عنا ، بالقيام بعملية ضد اليابانيين في خليج البنغال ، ولو انه الغى هذا التعهد لتوفر لنا العدد الكافي من القطع لانزال فرقتين في وقت واحد وتنفيذ العملية كما هو مقرر في ايار ، وهو الموعد المحدود الذي كنت قد اتفقت مع الرئيس على بدء الغزو فيه ، وقد تمكنت أيضا بعد عودتنا للقاهرة من اقناع الرئيس بالعدول عن مشروع البنغال وصممت على ان يعرف ستالين الحقائق الاساسية اللازمة واننا قد اتفقنا انا والرئيس على ان يكون شهر ايار هو موعد عملية « السيد الاكبر » على ان يبلغه الرئيس روزفلت ذلك بنفسه كرغبته .

وعندما أعلن ستالين تصريحه الخطير قبل يومين بأن روسيا ستدخل الحرب ضد اليابان بعد استسلام هتلر ، أقترحت فورا على الامريكيين ان يعدوا قطعا كثيرة للقيام بالعمليات التي يطلب الينا القيام بها في المحيط الهندي للمساعدة في عملية « السيد الاكبر » وفي مثـل هذه الحالة ستتوافر القطع اللازمة لجميع العمليات .

وليس ثمـة مـا يدعو الى الاعتقاد بأننـي متراخ في موضوع « السيد الأكبر » فقد أردت ان احصل على ما أحتاج اليه في البحر المتوسط ، وكان من الواجب أن نسوي الامور بين رؤساء أركان الحرب وكنت آمل أن يتم ذلك في القاهرة قبل مجيئنا الى طهران ، ولكن سوء الطالع ان تشيانج كاي شك كان هناك وان المشكلات الصينية احتلت اكثر من نصف وقتنا ومع ذلك فاني على ثقة من ان قطع الانزال ستتوافر لجميع العمليات .

أما الاعدادات لعملية « السيد الاكبر » فستكون في نهاية شهر

ايار او حزيران على النحو التالي : ست عشرة فرقة بريطانية مع القوات اللازمة لادارة الفيالق وقوات قطع الانزال والمدافع المضادة للطائرات وهو ما يربو على نصف مليون جندي بالاضافة الى قوات الاسطول الملكي اللازمة لعملية النقل ولحماية الجيش . هذا بخلاف قوات السلاح الجوي العاملة في الوطن والمؤلفة من نحو اربعة آلاف طائرة ، كما بدىء في نقل القوات الامريكية الى انجلترا بمعدل مائة وخمسين الف جندي شهريا ، وكان لهزيمة الغواصات في الاطلنطي الفضل الاكبر في تسهيل عملية النقل هذه ، هذا وقد كنت أؤيد القيام بالهجوم على جنوبي فرنسا في نفس الوقت الذي تقوم فيه عملية « السيد الاكبر » حتى نرغم العدو على ابقاء قواته في ايطاليا .

وهنا قال ستالين انه يود ان يوجه نظري الى ان الجيش الاحمر يعتمد كل الاعتماد على نجاح غزونا لشمالي فرنسا ، واذا لم تبدأ العمليات في شهر ايار عام ١٩٤٤ ، فسيعتقد الجيش الاحمر انه لن تقع اية عمليات طيلة هذا العام . كما انه اذا لم يتغير الوضع في المسرح الاوروبي في عام ١٩٤٤ ، فسيكون من الصعب جدا على الروس ان يواصلوا القتال لانهم تعبوا من الحرب وهذا هو السبب الذي دعاه لان يعرف ما اذا كانت عملية « السيد الاكبر » ستتحقق في الموعد المقرر أم لا ، لكي يتخذ ما يراه للحيلولة دون انتشار حالة التذمر والتمرد في الجيش ، وقد أكدت له ان العملية ستتم حتما بشرط الا يقابلنا العدو في فرنسا بقوات اكبر مما يستطيع البريطانيون والامريكيون انزالها ، لانه اذا تيسر للالمان ان يواجهوا جيوشنا بثلاثين او اربعين فرقة فانني اعتقد ان قواتنا لن تكون قادرة على الصمود امامها . فقال ستالين انه لو تمكن من ان يعرف بأن الغزو سيقع في شهر ايار او حزيران ، فانه سيعد العدة لتوجيه ضربات الى المانيا في هذا الموعد ، وفي هذه الحالة لن تتوافر لالمانيا القوات اللازمة لجبهة فرنسا ، فرددت عليه بانني لا أستطيع ان اكشف عن الموعد دون موافقة الرئيس .

وعليه فقد توجهنا أنا وستالين لمقابلته ، وقد أبلغه الرئيس اننا اتفقنا على شن حملة « السيد الاكبر » في شهر ايار ، وقد أثلج هذا الخبر الماريشال ستالين ، وقال من سيتولى قيادة عملية « السيد الاكبر » ؟ فقلت له ان الرئيس لم يستقر على رأي بعد ، ولكني واثق من انه سيكون الجنرال مارشال ، فسر سرورا عظيما لهذا النبأ .

ولما كنا جميعا متفقين واستقر رأينا على جميع العمليات ، فقد شعرت باحساس قوي من التضامن والزمالة الطيبة .

وتراءى لي ان جميع السحب قد انقشعت ، وبالفعل فان ثقة ستالين بالرئيس ، اقيمت على اساس من الاحترام وحسن النية كما انها لم تصب بوهن طيلة المدة التي قضيناها في العمل المشترك .

وبلغت محادثاتنا الطويلة الشاقة في طهران نهايتها في الاول من شهر كانون الاول وتقرر أن يبدأ الغزو عبر القناة في شهر ايار بشرط

ان تكون التيارات البحرية ملائمة وكذلك احوال القمر ، كما تقرر ان يعزز بهجوم روسي قوي في الوقت نفسه .

وكان علينا ان نجدد بذل جهودنا القوية لحمل تركيا على الدخول في الحرب الى جانبنا لما تنطوي عليه هذه الخطوة من اهمية في بحر ايجه والبحر الاسود ، ولكن هذه الجهود كلها منيت بالفشل .

هذا وقد اصبحت النواحي السياسية اقرب الى الخيال ، وكان من الواضح انها تعتمد على نتائج المعارك العظيمة التي كان من المقرر ان تدور وعلى اوضاع كل من الحلفاء بعد تحقيق النصر ، ولم يكن من المناسب في طهران بالنسبة للديمقراطيات الغربية ان تقيم خططها على اسس من الشكوك في موقف روسيا ساعة النصر ، وعند زوال جميع الاخطار ، ولما كان ستالين قد وعد بدخول الحرب ضد اليابان فور الانتهاء من هزيمة هتلر ، وكان امل الغد يتركز في الاسراع بنهاية الحرب ، فقد تقرر اقامة جهاز عالمي يحول دون نشوب حرب اخرى ، ويقوم على اساس القوة المشتركة للدول العظمى الثلاث .

وبالطبع لم تكن الطريقة التي سيعامل بها المنتصرون المانيا موضوع بحث نهائي في هذه المرحلة ، وانما كانت موضع عرض تمهيدي لمشكلة سياسية واسعة النطاق ، لاننا كنا لا نزال في كفاح رهيب ضد القوة النازية الجبارة وكانت تشغلنا اهوال الحرب واخطارها ومختلف عواطف الزمالة بين الحلفاء ، والعقاب للعدو المشترك ، وكانت مشروعات الرئيس تقضي بتجزئة المانيا الى خمس دول مستقلة ذاتيا ، والى مقاطعتين تظلان تحت اشراف الامم المتحدة اكثر قبولا لدى ستالين من اقتراحي الذي يقضي بعزل بروسيا وتأليف اتحاد تعاوني دانوبي او اتحاد لجنوب المانيا مع آخر لحوض الدانوب .

لاننا كنا جميعا نخشى خشية كبيرة من وجود المانيا موحدة ، ولما كان لبروسيا تاريخها العظيم الخاص بها ، فقد كان من الممكن في رايي ان نعقد معها صلحا شريفا حازما ، وان نجد في الوقت نفسه ما كان يدعى في الماضي بالامبراطورية النمساوية المجرية ، التي كثيرا ما قيل عنها انها « اذا لم توجد فمن الواجب ان تخترع » وذلك ضمانا لقيام منطقة واسعة الارجاء يسودها السلام والصداقة .

ومع هذا فما ان انتهت الحرب ، حتى وقعت تغييرات عظيمة ملأى بالكوارث فالحدود البولندية ، لا توجد الا في عالم الخيال ، وها هي ذي بولنده ، تقع مرتعدة الاوصال في قبضة الشيوعية الروسية ، وقد قسمت المانيا حقا تقسيما مخيفا ، حيث قسمت الى مناطق محتلة عسكريا ، مما لا يسع الانسان الا القول بأن هذه المأساة لا يمكنها ان تستمر .

القيــادة العليــا

عدت من طهران الى القاهرة في اليوم الثاني من كانون الاول ، كما وصل الرئيس في المساء . وقد استأنفنا مباحثاتنا الودية حول اوضاع الحرب بصفة عامة ، كما استعرضنا نتائج مباحثاتنا مع ستالين ، كما قرر رؤساء اركان الحرب ان يستمروا في محادثاتهم المشتركة والتي تتناول جميع العمليات التي اتفقنا على القيام بها ، وكان الاميرال مونتباتن قد عاد الى الهند ، بعد ان قدم مشروعه المعدل عن العملية البرية المائية على جزر اندمان ، والتي ستشترك فيها جميع القطع ذات القيمة الحيوية ، التي بعثنا بها اليه من البحر الابيض المتوسط ، كما أردت أيضا ان اقوم بمحاولة اخيرة للحصول على تأييد الامريكيين للعملية البديلة ضد جزيرة رودس .

ولذلك فقد اجتمعت أنا والمستر ايدن بالرئيس في اليوم التالي وبحثنا في نقط الخلاف القائمة بيننا بالنسبة للوعد الذي قطعه الرئيس للجنرال تشاينج كاي شيك قبل مؤتمر طهران ، بشن هجوم مبكر عبر خليج البنغال ، لان هذا الهجوم كان كافيا للقضاء على كل أمل وخطة لاحتلال رودس ، والتي يتوقف عليها الى حد كبير دخول تركيا الحرب الى جانبنا ، وعندما أثار رؤساء اركان حربنا هذا الموضوع في المؤتمر العسكري رفض رؤساء اركان الحرب الامريكيون البحث فيه نسبة لان الرئيس قد اتخذ قراره فيه ولا مجال للاختيار .

ولما عقدنا اول اجتماع لنا في الرابع من كانون الاول بعد عودتنا من طهران قال الرئيس انه يود ان يسافر في اليوم السادس من الشهر ، وطلب الى المختصين اعداد جميع التقارير لموافقة الفريقين نهائيا عليها ، قبل مساء الخامس من الشهر .

ولما كان لا يزال أمامنا قضايا على جانب كبير من الاهمية وتحتاج الى الحل بالاضافة الى الحادثين الحاسمين اللذين وقعا في الايام القليلة الماضية ، أولهما : ان ستالين أعلن ان السوفييت سيعلنون الحرب على اليابان في الوقت الذي تتحقق فيه هزيمة المانيا ، وهذا يضمن لنا قواعد افضل بكثير من تلك التي يمكن لنا الحصول عليها في الصين ، كما يحتم علينا تركيز جهودنا لننتهي من عملية « السيد الاكبر » في أسرع وقت ممكن حتى ننتهي من امر المانيا ، فقد رأيت انه من الواجب على اركان الحرب ان يدرسوا ، كيفية تأثير هذا على العمليات في المحيط الهادي وجنوب شرقي آسيا .

اما الحادث الثاني : البالغ الاهمية ، فهو قرارنا بعبور القناة في شهر ايار ، والذي كنت أود من ناحيتي ان يكون الموعد شهر تموز ،

وهذه المهمة تفوق غيرها من المهام الاخرى شأنا وخطورة ، حيث اننا سنقذف في القريب العاجل الى أتون المعركة بمليون امريكي وخمسمائة او ستمائة الف بريطاني ولكي نعطي للعملية اقصى ما يمكن من الآمال في النجاح ، فقد رأيت أن يكون نزولنا في الريفييرا ، « وقد اطلقنا عليها أسم عملية السندان » على اقوى نطاق ممكن ، كما رأيت انه من الضروري ان تتخذ كل الخطوات الممكنة للعمل في اي مكان آخر لنحول بين الالمان وبين تركيز قوات كبيرة ضد رؤوس جسورنا .

ولذلك فقد تم الاتفاق بيني . وبين الرئيس على النقاط التالية :

١ — يجب الا نقوم بأي عمل يعرقل عملية « السيد الاكبر » .

٢ — يجب الا نقوم بأي عمل يعرقل عملية « السندان » .

٣ — ان نتخذ جميع السبل لكي نوفر قطعا للانزال تعمل في شرق المتوسط في حالة دخول تركيا الحرب .

٤ — يجب ابلاغ الاميرال مونتباتن بأن يبذل جهده في خليج البنغال بالقوات التي سبق لنا تخصيصها له .

وقد اقترحت ، تعليقا على النقطة الرابعة ، بأنه قد يصبح من الضروري سحب بعض القوات والموارد من مونتباتن لتقوية عمليتي « السيد الاكبر » و « السندان » ولكن الرئيس قال انه لا يستطيع الموافقة على اقتراحي ، واضاف قائلا اننا ملزمون ادبيا بمساعدة الصين وانه تبعا لذلك ، ليس على استعداد للعدول عنها الا اذا كان السبب قويا وواضحا . وقلت للرئيس بأن هـذا السبب القوي ، قائم في مغامرتنا العظيمة التي سنقوم بها في فرنسا ، هي لا تزال تقوم على اساس ثلاث فرق ، على حين اننا أنزلنا في صقلية في اليوم الاول تسع فرق . وعلى هذا يتبين ان اهمية هذه العملية الرئيسية ما زالت تقوم حتى وقتنا هذا على اسس ضيقة .

كما عاودت الحديث عن هجوم الريفييرا ، وبينت وجهة نظري بأنه يجب ان يقوم على اساس قوة هجومية لا تقل عن فرقتين ، لان هذا يؤمن لنا القيام بعملية التفاف في ايطاليا ، واحتلال رودس اذا تقرر دخول تركيا الحرب فورا ، وأشرت في الوقت نفسه الى ان عمليات جنوب شرق آسيا يجب ان تقرر على ضوء علاقتها بالاهمية البالغة لعملية « السيد الاكبر » وقلت انني مندهش من الطلب الذي وجه الى الاميرال مونتباتن لاحتلال جزر اندمان ، وانه على ضوء وعد ستالين بأن تدخل روسيا في العمليات الحربية ، تكون عمليات جنوب شرق آسيا قد فقدت الكثير من قيمتها ، ومع هذا فقد أبدى الرئيس رغبته في عدم موافقتي على العدول عن هذه العملية ، كما طلبنا الى رؤساء الاركان البحث في التفاصيل .

وفي اليوم الخامس من كانون الاول اجتمعنا سويا وقرأ الرئيس التقرير الذي أعدته هيئة اركان القيادة المشتركة عن العمليات في المسرح الاوروبي ووافقنا عليه .

كما انه بعد ان تشاور الرئيس مع مستشاريه بالنسبة لمشروع جزر اندمان قرر التخلي عنها وارسال برقية للجنرال تشيانج كاي شيك يبلغه فيها بالعدول عن مشروع جزر اندمان وهكذا فقد انتهت الازمة .

ولما كان من اهم اهداف اجتماعنا في القاهرة ، استئناف المحادثات مع القادة الاتراك ، وكنت قد ارسلت الى الرئيس اينونو برقية من طهران اقترحت فيها عليه ان يجتمع بنا في القاهرة ، كما كان قد تم الاتفاق على ان يحضر فيشنسكي الاجتماعات ، ووصل الوفد التركي الى القاهرة في الرابع من كانون الاول واجتمعنا سويا في الليلة التالية بالرئيس اينونو الذي ابدى تحفظا شديدا تجاه الجهاز الحربي الالماني ، الا انني شددت الضغط عليه هذه المرة ، واكدت له ان انسحاب ايطاليا من الحرب زاد من فوائد دخول تركيا فيها وقلل من الاخطار التي ستتعرض لها ، ولذلك فقد ابدى الرئيس التركي رغبته في عرض الموضوع على البرلمان التركي وسافر مع بقية اعضاء الوفد في الحال ، وفي هذه الاثناء قررنا ان يجتمع الخبراء البريطانيون لتنفيذ المرحلة الاولى من اقامة قوة للحلفاء في تركيا الا انه لم يكد يحل عيد الميلاد حتى كنت قد اصبحت ميالا الى ابقاء تركيا على الحياد .

هذا وقد ابلغني الرئيس في اليوم السابق لسفره من القاهرة انه لا يستغني عن الجنرال مارشال في واشنطن ، وانه يقترح تسمية ايزنهاور قائدا لعملية « السيد الاكبر » بدلا منه ، وازاء هذا الاصرار فقد تولى ايزنهاور قيادة الغزو .

وبعد ذلك غادر الرئيس القاهرة في اليوم السابع من كانون الاول ، كما غادرتها ايضا في اليوم الحادي عشر بالطائرة الى تونس لقضاء ليلة هناك في ضيافة الجنرال ايزنهاور ، ثم اغادرها في اليوم التالي الى مقر قيادتي اليكساندر ومونتغمري في ايطاليا الا انني شعرت في اليوم التالي لوصولي الى تونس بأعراض الحمى وبظواهر تشير الى عودة ذات الرئة ، فلم اواصل رحلتي الى ايطاليا وبقيت ملازما الفراش في تونس ، واستعملت العقار الجديد « أم. اند. بي » الذي كان له اثر السحر في تخفيف حدة المرض وبذلك لم اتخل في اية لحظة عن ادارة دفة الامور .

ولما كانت مهمتي العاجلة بوصفي وزيرا لدفاع بريطانيا ومسئولا امام وزارة الحربية ، ان اقترح تعيين قائد بريطاني لجبهة البحر المتوسط ، فقد تقرر اسناد هذا المنصب الى الجنرال ولسون ، كما تقرر ان يتولى اليكساندر قيادة الحملة الايطالية جميعها ، كما كان يفعل في ايام الجنرال ايزنهاور ، وتقرر ايضا ان يكون الجنرال ويفرز الامريكي نائبا للجنرال ولسون في البحر المتوسط ، وان يكون قائد القوات الجوية تيدر ، نائبا للجنرال ايزنهاور في قيادة عملية « السيد الاكبر » وان يتولى مونتغمري القيادة الفعلية لقوات الغزو عبر القناة ، الى ان يتمكن القائد الاعلى من نقل مقر قيادته الى فرنسا وتولى القيادة الفعلية بنفسه ، وقد تمت هذه الترتيبات بالاتفاق بيني وبين الرئيس وبموافقة وزارة الحرب .

ولما كنت اشعر بأننا قد وصلنا الى احدى ذرا الحرب ، وكانت عملية اعداد « السيد الاكبر » من اهم الاحداث والواجبات في التاريخ ولما كان من اهم عناصر النجاح في العمليات الحربية وجود الانسجام التام في المجهود الحربي عن طريق التناسق بين عمليتي الغزو من ايطاليا وعبور القناة ، حتى يؤدي كل جزء من اجزاء القوة المقاتلة دوره الكامل طول الوقت ، وكنت واثقا من ان شن الحملة في ايطاليا في النصف الاول من عام ١٩٤٤ ستكون خير معوان للعملية الضخمة في عبور القناة ، وهي العملية التي تتركز عليها جميع العيون ، فقد كان من الواجب بحث كل مادة ضرورية لهذه العملية ، وكان علينا ان نعمل على استخلاص عشرين قطعة انزال من هذه العملية لغيرها ، وقد بدت لي هذه العملية في منتهى البساطة ، فجميع البواخر التي نملكها ستستخدم لتنقل الى انجلترا كل ما يمكن للولايات المتحدة اعداده من الرجال والعتاد ، وفي وسع القوات الضخمة التي لم نستطع نقلها بطريق البحر ان تحتل ايطاليا بسهولة ، وان تصل فورا لتعمل في جبهة المانيا الداخلية او ان نجتذب قوات المانية ضخمة من الجبهة التي كنا سنهاجمها عبر القناة في الايام الاخيرة من شهر ايار او اوائل شهر حزيران .

هذا وقد ادت فترة الجمود التي اضطرت اليها قواتنا بسبب المقاومة الالمانية العنيفة على طول الجبهة الممتدة ثمانين ميلا من البحر الى البحر الى تفكير الجنرال ايزنهاور في القيام بهجوم جناحي بري بحري بفرقة واحدة الى الجنوب من نهر التيبر على روما ، في الوقت الذي تشرع فيه جيوشه بهجوم عام على طول الجبهة ، وأدى توقف جيوشنا الى شعور كل واحد بأن الحاجة العسكرية تتطلب نزول اكثر من فرقة واحدة . وكنت بالطبع أؤيد دائما فكرة العملية التي أسميها « مخلب القط » وقد لاقت هذه الفكرة تأييدا كبيرا من جانب المحترفين ، واضحى ايزنهاور ملتزما بها من ناحية المبدأ ، كما كان اليكساندر الذي يتولى قيادة الجيوش في ايطاليا يرى ان هذه العملية صحيحة وضرورية ، كما كنت على ثقة من ان رؤساء اركان الحرب البريطانيين سيؤيدون هذه الخطة ، وقد أبرقوا الي في الثاني والعشرين من كانون الاول بعد ان عرفوا وجهة نظري هذه يقولون ، اننا على اتفاق تام معك بأن هذا الركون الراهن لا يمكن ان يستمر والحل كما تقول ، يقوم في استخدام قواتنا البرية والبحرية لتضرب مؤخرة العدو وجناحه وتمهد الطريق لزحف سريع على روما وان هذه الخطة الجديدة ستعني العدول عن احتلال رودس ، كما اقترحوا اثارة المسألة مع رياسة اركان الحرب المشتركة على اساس العمل على ضوء هذا المخطط فورا .

ولذلك فقد عقد في صباح يوم عيد الميلاد مؤتمرا في قرطاجنة ، شهده ايزنهاور واليكساندر وبيدل سميث والجنرال ولسون وتيدر والاميرال جون كاتنجهام وغيرهم من كبار القادة ، وقد اتفقنا جميعا على ان نطلب ما لا يقل عن فرقتين .

وعندما انتهت مباحثاتنا ، أرسلت البرقية التالية الى الرئيس

كما بعثت بأخرى مماثلة الى الوطن ، وقد حرصت كل الحرص على بيان الحقائق بصراحة :

« ولما كنا قد احتفظنا بست وخمسين قطعة من قطع الانزال في البحر الابيض المتوسط ، هذه المدة الطويلة ، فمن غير المعقول ان ننقلها الآن في الاسبوع الذي نستطيع فيه ان نسدي خدمة حاسمة ، وهل هناك شيء اكثر خطرا من أن نترك المعركة الايطالية في حالة جمود مستمر طيلة ثلاثة اشهر اخرى ؟ وليس في وسعنا ان نتقدم الى الامام مخلفين وراءنا عملا لم نكمل الا نصفه ، ولهذا فقد اتضح للحاضرين ان الواجب يتطلب النزول الى انزيو بفرقتين على الاقل ، حوالي العشرين من كانون الثاني ، وقد صدرت الاوامر الى الجنرال اليكساندر لاعداد العدة اللازمة لهذا النزول ، واذا لم ننتهز هذه الفرصة فعلينا ان نتوقع فشل حملة البحر المتوسط في عام ١٩٤٤ ، ولهذا فانني آمل بان توافق على تأجيل عودة الست والخمسين قطعة من قطع الانزال مدة ثلاثة اسابيع ، وان توعز الى جميع السلطات المختصة بأن تتيقن ان عملية « السيد الاكبر » لن تتأثر بهذا الاجراء » .

وقد تلقيت في اليوم الثامن والعشرين من كانون الثاني ، برقية من المستر روزفلت بالموافقة على تأجيل قطع الانزال ، على شرط ان تظل عملية « السيد الاكبر » هي العملية المسيطرة ، وان تنفذ في الموعد الذي اتفق عليه في القاهرة وطهران ، وكان هذا مبعث سروري الممزوج بالدهشة وقد ابرقت الى الرئيس ، اشكره على هذا القرار الرائع الذي يعيد الى صفوفنا الوحدة الشاملة ازاء هذا المشروع العظيم .

وكانت برقية الرئيس اشبه ما تكون بالمعجزة ، وعرفت انـي لست مدينا بها الى حسن نية الرئيس وحده ، بل الى عقل الجنرال مارشال الموزون ، وقد قامت هيئة اركان الحرب في الوطن ولا سيما في الامبراطورية بجهود عظيمة لتحقيق مشروع « مخلب القط » وبعث الى اليكساندر في اليوم نفسه بخطته ، وبعد ان تشاور مع الجنرال مـارك كلارك والجنرال بريان روبرتسون ، قـرر استخدام فرقتين احداهما امريكية والاخرى بريطانية ، كما تقرر توزيع السلاح المدرع وقوات المظلات والفدائيين على اساس المناصفة ، وعهد بالعملية كلها الى قيادة قائد فيلق امريكي ، وبات من المحقق ان تبدأ العملية في العشرين من كانون الثاني ، على ان يقوم اليكساندر بهجوم كبير على كاسينو قبل الموعد بعشرة ايام لاجتذاب الاحتياطي الالماني من المؤخرة ، على ان يتلو ذلك الزحف العظيم المباشر من الامام بوساطة الجيوش الامامية ، وأصبح كل شيء يسير سيرا مرضيا يدعو الى الارتياح ، ولهذا فقد قررت العودة الى الوطن في الرابع عشر من كانون الثاني .

محنــة اليونــان

لما كانت يوغسلافيا منذ احتلها هتلر في نيسان عام ١٩٤١ أصبحت مسرحا لاحداث مخيفة ، وكان الملك بطرس قد لجأ الى انجلترا ومعه عدد من وزراء الامير بول وغيرهم من رجال الحكومة ، حيث بدأت حـرب العصابات العنيفة بقيادة الجنرال ميخائيلوفيتش الذي التف حوله من تبقى من الطبقة المختارة في يوغسلافيا ولما كان الالمان يتأثرون من اعمال العصابات بقتل مجموعات من الاهالي يتردد عددهم بين اربعمائة وخمسمائة شخص ، مما جعل ميخائيلوفيتش ينكمش كما اضطر بعض قادته الى اجراء مصالحات محلية مع القوات الالمانية والايطالية لكي يبقوا احرارا في بعض المناطق الجبلية على الا يقوموا بأية حركة ضد العدو .

ولم يمر وقت طويل حتى قامت حركة الانصار بقيادة الماريشال تيتو ، فأخذ يحرض الاهالي على القيام بالاضرابات السياسية في ساحل المانيا تنفيذا لسياسة الكومنترن ، وتكونت عصابات كثيرة منهم تحت قيادته ممن لا يرهبون القتل في سبيل وطنهم ، وكانوا يتسلحون بالاسلحة التي يغنمونها من ضحاياهم الالمان، وما كانت الاعمال الارهابية التي يقوم بها الالمان باعدام الرهائن لتحول بينهم وبين اعمالهم ، حيث انزلوا بالالمان خسائر كبيرة واصبحوا سادة مسيطرين على مناطق واسعة ، واشتبكوا في معارك عنيفة مع انصار ميخائيلوفيتش الذين كانوا يساومون الالمان على سلامتهم ، والذين كانوا يزودون الالمان بالمعلومات عن حركتهم .

وقد كنت اتابع هذه الاحداث باهتمام ، وكانت طائراتنا تلقي ببعض المؤن القليلة لهؤلاء الثوار ، لانه لم يكن في مقدورنا ان نقدم اية معونة فعلية لهم ، الا ان قيادتنا في الشرق الاوسط كانت مسئولة عن عمليات هذا المسرح وكانت تحتفظ بجهاز من العملاء وضباط الارتباط من اتباع ميخائيلوفيتش الذي كان يمثل في هـذا الوقت الحكومة اليوغوسلافية في القاهرة كما كان يمثل حركة مقاومة الالمان .

وفي شهر ايار عام ١٩٤٣ ، قررنا ايفاد جماعة صغيرة من الضباط البريطانيين وصف الضباط لعمل اتصال مع هؤلاء الانصار اليوغسلافيين على الرغم من الصراع القاسي الذي كان دائرا في ذلك الوقت بينهم وبين انصار تيتو الذي كان يشن حربه كشيوعي لا ضد الالمان فقط ولكن ضـد الملكية الصربية ايضا والتـي يمثلها ميخائيلوفيتش وانصاره (الشيتنيك) وقد هبط الرئيس الكابتن ديكن وهـو احـد عمداء جامعة اكسفورد بالمظلة ليكون ممثلا لنا عند تيتو ، كمـا تبعته بعثات بريطانية اخرى وفي شهر حزيران ، بعث الينا رؤساء اركان الحرب يقولون : استنادا على المعلومات التي توافرت لديهم والتي كانت تبعث

بها البعثات البريطانية من يوغسلافيا ان الشيتنيك اصبحوا متفاهمين مع المحور في مقاطعتي الهرسك والجبل الاسود .

ولما كان يهمني هذا الحصول على نتائج المقاومة المحلية للمحور في يوغسلافيا فقد طلبت معلومات وافية عنها ، وعقدت جلسة لرؤساء أركان الحرب في داونتج ستريت في الثالث والعشرين من حزيران وأكدت في اثناء الحديث الاهمية الكبيرة التي أعلقها ، على بذل كل عون ممكن للحركة اليوغسلافية المناهضة للمحور ، والتـي كانت ترهق المحور بثلاث وثلاثين فرقة في هذه المنطقة ، وكانت هذه القضية من الاهمية بمكان عظيم ، حتى انني طلبت الى اللجنة ان تزيد عدد الطائرات لامداد الثوار بما يلزمهم ولمساعدتهم .

كما قررنا قبل أن اسافر الى كويبك ، ان امهد الطريق لعمل آخر في البلقان وذلك بتعيين ضابط كبير يتولى رياسة بعثة كبيرة لكي تعمل مع الانصار في الميدان ، ولكي يبعث الي بتوصياته مباشرة عما يراه لمساعدة الانصار ، ولما كان المستر فيتزروي ماكلين عضو البرلمان رجلا جريئا ومغامرا ، فقد قررت ان يتولى رياسة هذه البعثة ، ولمـا هبط هـو ورجاله بالمظلات في يوغسلافيا في شهر ايلول عام ١٩٤٣ ، وجدوا ان الوضع هناك قد اكتسب طابعا ثوريا ، وفي هذه الاثناء كانت أنباء استسلام ايطاليا قد وصلت الى يوغسلافيا ، عن طريق اذاعة البيانات الرسمية ، وعلى الرغم من اننا لم نبعث بأية تعليمات ، فان تيتو كان قد قام بخطوات جريئة ومثمرة ، فلم تمض اسابيع قليلة حتى كان قـد نزع السلاح مـن ست فرق ايطالية ، وقـد تمكن اليوغسلافيون من تسليح ثمانين الف رجل بهذه المعدات الايطالية واحتلوا معظم سواحل الادرياتيك ، وبذلك توافرت لنـا الفرصة الطيبة لتقوية وضعنا في الادرياتيك بالنسبة للجبهة الايطالية ، واخذ جيش الانصار الذي تزايد عدده الى مائتي الف رجل يقاتل على طريقة حرب العصابات ويشتبك في عمليات واسعة النطاق ضد الالمان الذين واصلوا بدورهم اعمالهم الانتقامية العنيفة بشدة متزايدة .

وفي هذا الوقت دب النزاع بين تيتو وميخائيلوفيتش وانصاره المتخاذلين ، مما دعا قوة تيتو العسكرية النامية بشكل متزايد ان تثير قضية الوضع النهائي للملكية اليوغسلافية ولحكومة المنفى ، وقـد بذلت محاولات مخلصة في كل من لندن ويوغسلافيا للوصول الى تسوية عملية بين الفريقين وكنت أؤمل أن يستخدم الروس وساطتهم في هذه القضية وخصوصا بعد المحاولة التي قام بها ايدن في موسكو في تشرين الاول عام ١٩٤٣ ولكن الروس لم يظهروا اية رغبة في هذا الشأن ، ولذا فقد فقدت الامل في الوصول الى تسوية عملية بين الفريقين المتنازعين ، كما أبرقت الى الرئيس روزفلت اقول : ان القتال يتخذ شكلا مخيفا ، ويقوم الالمان بأعمال ثأرية دموية ويعدمون الرهائن بالجملة ، ونحن نأمل في تهدئة الخلافات اليونانية قريبا ، اما الخصومة بين تيتو وبين جماعة ميخائيلوفيتش فعميقة الجذور .

وفي نهاية تشرين الثاني عقد تيتو مؤتمرا سياسيا اعلن فيه قيام حكومة مؤقتة لها وحدها السلطة في تمثيل الشعب اليوغسلافي ؛ كما جرد

الحكومة الملكية في القاهرة من جميع حقوقها ومنع الملك من العودة الى البلاد الا بعد تحريرها ، ولما كان ميخائيلوفيتش قد اصبح شخصية غير مرغوب فيها ، وكان لزاما علينا ان نحافظ على اتصالنا العسكري بتيتو ، فقد تحتم علينا اقناع الملك باقالة ميخائيلوفيتش من منصبه كوزير للحربية كما سحبنا نحن في اول كانون الاول تأييدنا الرسمي لميخائيلوفيتش واستدعينا البعثات البريطانية التي كانت تعمل في المناطق التي يشرف عليها .

هذا وقد بحثنا القضية اليوغسلافية في مؤتمر طهران ، وعلى الرغم من ان دول الحلفاء الثلاث قررت تقديم أقصى ما يمكن من العون للانصار فان دور يوغسلافيا في الحرب لم يكن امرا يستحق اهتمام ستالين .

* * *

عندما عدت من طهران الى القاهرة ، قابلت الملك بطرس وابلغته عما أعرفه عن قوة حركة الانصار واهميتها كما ابلغته أنه قد أصبح من الضروري فصل ميخائيلوفيتش من الوزارة ، وكان امل الملك الوحيد هو العودة الى بلاده والوصول الى ترتيب مؤقت مع تيتو قبل ان يشدد الانصار قبضتهم على البلاد ، وقد أبدى الروس استعدادهم للعمل في سبيل الوصول الى حل وسط ، هذا وقد ابرق المستر ستيفنسون سفير بريطانيا لدى الحكومة الملكية اليوغسلافية الى وزارة الخارجية يقول : « يجب ان تقوم سياستنا على ثلاثة عوامل جديدة ، اولها أن الانصار هم الذين سيتولون حكم يوغسلافيا ، ثانيها ، ان هؤلاء الانصار لهم اهمية عسكرية قصوى بالنسبة لنا بحيث يتحتم علينا دعمهم الى أقصى حد ، ثالثها ، ان من المشكوك فيه ان نستمر في اعتبار الملكية عنصر توحيد في يوغسلافيا » وقد وافق وزير الخارجية على هذا الراي ، ولكن الصراع السياسي حول القضايا اليوغسلافية ظل مستمرا شهرين آخرين في اوساط حكومة المنفى في لندن .

اما في اليونان فقد ادى انسحاب الحلفاء منها في نيسان عام ١٩٤١ الى احتلالها بدولتي المحور ، كما ادى انهيار الجيش وانسحاب الملك وحكومته الى المنفى ، الى بعث الخلافات الحادة في السياسة اليونانية كما كانت الانتقادات القاسية توجه الى الملكية في داخل الوطن وفي الدوائر اليونانية في الخارج ، لانها سمحت بدكتاتورية الجنرال منكساس هذا بالاضافة الى المجاعة الشديدة التي حلت بالبلاد في الشتاء والتي لم يخفف من حدتها الا المعونات التي بعثت بها جمعية الصليب الاحمر ، وأدت المجاعة التي غمرت جميع البلاد الى تطوع اعداد كبيرة في حركات المقاومة وقد تسلحوا بالاسلحة التي كانت اخفيت في الجبال عند استسلام الجيش ، وأعلنت الهيئة التي اطلقت على نفسها اسم جبهة التحرير الوطني والتي تألفت في خريف عام ١٩٤١ ، عن قيام جيش التحرير الوطني في نيسان عام ١٩٤٢ وفي الوقت نفسه التف بقايا رجال الجيش اليوناني التي كانت في جبال أبيروس وجبال المنطقة الشمالية الغربية حول شخص يدعى العقيد نابوليون زيرفاس ، وانضم اليه بعض الاهالي من سكان الجبلين ، وكان القادة الشيوعيون هم الذين يسيطرون على جبهة التحرير الوطني وجيشها ، اما انصار زيرفاس

كانوا جمهوريين في عواطفهم ، ولكنهم مع مضي الزمن انقلبوا الى خصوم الشيوعية وحدها ، ولم يكن اي منهما يبدي شعور العطف للحكومة الملكية في لندن او يحاول الاتصال بها .

ولما كنا قد قررنا مهاجمة خط الامداد الالماني الممتد عبر اليونان الى بيريه ، وهي القاعدة المهمة في الطريق الالماني الى شمال افريقية وذلك في اثناء قيامنا بمعركة العلمين ، فقد انزلنا اول بعثة بريطانية بالمظلات بقيادة المقدم مايزر ، فاتصلت في الحال بالعصابات اليونانية وتم نسف جسر رئيسي على الطريق الحديدي الاساسي المؤدي الى اثينا ، كما قام العملاء اليونان بأعمال تدميرية جريئة ضد ملاحة المحور في بيريه ، وعززنا البعثات البريطانية في الصيف التالي بقوات جديدة ، اشتركت مع العصابات اليونانية في نسف جسر آخر على السكة الحديدية الرئيسية الموصلة الى اثينا مما اضطر القيادة الالمانية الى ارسال فرقتين الى اليونان كان من المقرر ارسالهما الى صقلية ، وكانت هذه العمليات آخر اسهام حربي قامت به العصابات اليونانية .

كما بدأت العناصر الثلاثة المختلفة ، وهي جيش التحرير الوطني « ايلاس » الذي يبلغ تعداده عشرين الفا ، والذي يسيطر عليه الشيوعيون وعصابات زيرفاس التي سميت (ايديس) والتي يبلغ عددها خمسة آلاف ، والسياسيون الملكيون المجتمعون اما في القاهرة او لندن حول الملك جورج الثاني ، بعد ان تبينت ان النصر اصبح شبه مضمون للحلفاء ، بدأت تتصارع فيما بينها لنيل السيطرة السياسية ، وعندما استسلم الايطاليون في شهر ايلول عام ١٩٤٣ تمكنت (ايلاس) من الاستيلاء على ما كان لديهم من الاسلحة والمعدات ، وبذلك حققت لنفسها التفوق العسكري .

ولما كان من المحتمل جلاء الجيش الالماني من البلقان بعد ان وصلت الجيوش السوفييتية الى حدود رومانيا ، واصبح في الامكان عودة الحكومة الملكية الى البلاد بمساعدة بريطانيا ، فقد قرر زعماء جبهة التحرير الوطني القيام بانقلاب شيوعي .

وكان هذا العمل يعد تحديا مباشرا لسلطة الحكومة الملكية في المستقبل ونذيرا بنشوب ثورة في القوات اليونانية المسلحة في الشرق الاوسط وفي دوائر الحكومة اليونانية في الخارج ، كما قامت جماعة من ضباط الجيش والبحرية والطيران بزيارة رئيس الوزراء المسيو تسوديروس في القاهرة يوم واحد وثلاثين من ايار وطالبته بالاستقالة ، كما اعلن اللواء اليوناني الاول العصيان على ضباطه .

وفي هذه الاثناء وصل الملك الى القاهرة ، في الثاني عشر من نيسان واصدر بيانا ، اعلن فيه عزمه على تأليف حكومة تمثل الشعب ويكون معظم اعضائها من اليونانيين الموجودين في اليونان ، واتخذت الخطوات السرية لنقل عدد من الممثلين من ارض اليونان وبينهم المسيو باباندريو زعيم الحزب الديموقراطي الاشتراكي ، وقد تولى رئاسة الوزارة ، وفي شهر ايار عقد مؤتمر يمثل جميع الاحزاب في احد مصايف جبل لبنان وشهده زعماء اليونان ، اتفق فيه على اقامة حكومة في القاهرة تمثل فيها جميع الاحزاب تحت رئاسة باباندريو .

احتلال انزيو

بعد ان استسلمت ايطاليا في شهر ايلول عام ١٩٤٣ ، [illegible]
لجنة من الساسة الذين نحاهم موسوليني عن السلطة [illegible]
ممثلي الهيئات التي تعارض الحكم الفاشي ، لمقاومة الالمان [illegible]
روما ، وفي هذا الوقت كان موسوليني قد اعتقل في جزيرة [illegible]
نقل منها فيما بعد الى لامادالينا الواقعة على مقربة من [illegible]
وخوفا من ان يقوم الالمان بحركة خاطفة أمر بادوليو بنقل موسوليني
الى قرية جبلية صغيرة تقع على قمة عالية في ابروزي [illegible]
الا انه في صباح اليوم الثاني عشر من ايلول هبطت [illegible]
رجال المظلات الالمانيين من طائرة انزلاق على [illegible]
اعتقل فيه موسوليني واركبوه طائرة المانية تولت [illegible]
حيث عقد اجتماعا مع هتلر ، وبحثا معا في طريقة [illegible]
الايطالية في المناطق التي لا تزال القوات الالمانية تحتلها ، واعلن الدوتشي
في الخامس عشر من أيلول تأليف حزب فاشي جمهوري جديد ليتولى
اقامة حكومة في الشمال الايطالي ، عرفت باسم حكومة جمهورية [illegible]
وذلك بعد ان اتخذ له مقر قيادة على شواطىء بحيرة جاردا .

وكان من نتائج استسلام ايطاليا المباغت ان وقعت جيوشها في
البلقان في كمين بين قوات عصابات المقاومة المحلية وبين الالمان [illegible]
للانتقام حيث ابيدت الحامية الموجودة في كورفو والبالغ عددها [illegible]
آلاف تقريبا ، وكذلك ابيدت القوات الموجودة في جزيرة [illegible]
الا ان الحاميات الموجودة في بحر ايجه تمكنت من الفرار في [illegible]
صغيرة الى مصر ، كما انضمت وحدات من الايطاليين في البانيا وعلى
الساحل الدماسي وفي داخل يوغسلافيا الى جماعة الانصار ، حيث قام
تيتو بتشكيل الجزء الاكبر من فرقتين ايطاليتين من فرق « غاريبالدي »
في الجبل الاسود وكان مجموع ما خسرته الجيوش الايطالية في البلقان
وبحر ايجه ما يقرب من اربعين الف جندي .

كما غرقت ايطاليا في اهوال الحرب الاهلية ، واخذ ضباط الجيش
الايطالي وجنوده المقيمون في المناطق الشمالية التي يحتلها الالمان
ينظمون وحدات من الانصار للعمل ضد الالمان وضد مواطنيهم الذين
ما زالوا على ولائهم للدوتشي ، واخذ هؤلاء الانصار يتصلون بجيوش
الحلفاء في جنوب روما ومع حكومة بادوليو ، بغية تنظيم المقاومة
الايطالية للاحتلال الالماني ، وكانت المساعدات التي يبذلونها [illegible]
الذين داهمتهم الهدنة وهم في معسكرات الاسر في شمال ايطاليا [illegible]

جملة الاعمال المهمة التي كانوا يتولونها ، وبسبب هذه المساعدة تمكن عشرة آلاف اسير من مجموع الاسرى البالغ عددهم ثمانين الفا من الهرب من معسكرات الاعتقال .

ولما رأى موسوليني ان « جمهورية سالو » اخذت تتداعى قدم الى المحاكمة في القلعة القديمة في فيرونا في نهاية عام ١٩٤٣ ، جميع قادة العهد الفاشي القديم الذين كانوا قد اقترعوا ضده والذين امكن اعتقالهم في المناطق الايطالية التي يحتلها الالمان ، وقد حكم عليهم جميعا بالاعدام بما فيهم الكونت تشايفو زوج ابنته ايدا ، وقد نفذ فيهم حكم الاعدام في شهر كانون الثاني عام ١٩٤٤ .

اما من ناحيتنا فقد اخذنا نعد العدة لعملية « الحصباء » وهو الاسم الرمزي الذي اطلقناه على عملية «انزيو» وذلك في اوائل كانون الثاني واشتبكت قوات الجيش الخامس في قتال عنيف مع القوات الالمانية لاختراق خط جوستاف الذي كانت كاسينو مركزه الاساسي ، وهو خط دفاعي حصين ، تتخلله مراكز مراقبة على قمم الجبال ، كان العدو يسيطر بنيران مدافعه منها على جميع الوديان وما يقع فيها من حركات ، مما ارغم قواتنا على الارتداد .

وفي هذه الاثناء سارت قوافلنا المتجهة الى انزيو في عرض البحر تحت حماية الطائرات التي قامت بغارات على مطارات العدو وبالاخص على مطار بيروجيا قاعدة طائرات الاستطلاع الالمانية ، وكنت ارقب بقلق بالغ نتيجة هذه العملية المهمة ، حتى جاءتني الانباء ، بأن الفيلق السادس الذي يتألف من الفرقة الامريكية الثالثة والفرقة البريطانية الاولى بقيادة الجنرال الامريكي لوكاس ، قد نزل الى البر في شواطىء انزيو في صباح الثاني والعشرين من الشهر واستغرقت عمليات جس النبض في اتجاه شيشتيرنا وكامبوليوني طيلة يومي ٢٢ و ٢٣ كانون الثاني، كما نزل ايضا جماعتان من الفدائيين البريطانيين والامريكيين مع حشد هائل من المعدات والاسلحة على الشاطىء ، ولكن الفرصة التي بذلنا كل هذه المجهودات الهائلة في سبيل الحصول عليها قد ضاعت بسبب ما قام به الجنرال كيسلرنجمن رد سريع وهجوم شامل على قواتنا ، وقد وصلتني انباء خطيرة من الجنرال اليكساندر بأنه هو والجنرال كلارك غير راضيين عن سرعة التقدم ، ولكن هجماتنا استمرت على مواقع العدو في كاسينو ، ولم يضعف الخطر الذي يهدد جناح كيسلرنج من عزيمته على مقاومة هجماتنا ، وتصميمه على الاحتفاظ بمواقعه تنفيذا للامر الصادر اليه من هتلر ، والذي قال فيه :

« يجب الاحتفاظ بخط جوستاف بأي ثمن ، بالنظر الى النتائج السياسية التي يمكن ان تنجم عنه ، وان الفوهرر يتوقع كفاحا شديدا في سبيل كل شبر من الارض » .

ولو اننا حققنا تقدما مرضيا في البداية حيث اجتزنا نهر أبيدو المار ببلدة كاسينو ، ثم هجمنا نحو الجنوب في اتجاه جبل الدير الا ان الالمان صمدوا صمودا عنيدا ولم يأت اول شباط حتى كانت قوة هجومنا قد

ضعفت وجئنا بفيلق نيوزيلندي يضم ثلاث فرق من جبهة الادرياتيك وبدانا في الخامس عشر من شباط هجومنا الرئيسي الثاني بقصف الدير نفسه ، وقد ظهر ان هذا الجبل عائق دفاعي مهم جدا ولم تكن النتيجة مجدية ، كما عهد الى الفرقة الهندية الرابعة التي حلت محل الامريكيين بالهجوم ، وقاموا فعلا بمحاولات يائسة في ليلتين متتاليتين لاحتلال أكمة بين المواقع التي يوجدون فيها وبين الجبل الذي يقوم عليه الدير ولكنها منيت بالفشل ، وفي ليلة الثامن عشر من شباط قاموا بمحاولة ثالثة ودار بينها وبين العدو قتال عنيف قتل فيه جميع رجالنا الذين توصلوا الى الالمان وخسرت قواتنا خسائر بالغة مما اضطرها الى التوقف ، وهكذا فشل الهجوم المباشر على كاسينو .

وقد قال الجنرال ويلسون في تقريره « أغلق المحيط ، واصبحت قواتنا في داخله عاجزة عن التقدم » فعلى الرغم من ان الجنرال لوكاس قد حصل على المباغتة التي كنا نريدها الا انه فشل في استغلالها والاستفادة منها ، وكان هذا مثبطا للعزائم عندنا وفي الولايات المتحدة ، وقد كنا في الظاهر لا نزال اقوى من الالمان في قوتنا المحاربة ، ولكن السهولة التي كانوا ينقلون بها قطعهم من مكان الى آخر والسرعة التي كانوا يسدون فيها الثغرات الخطرة التي في جبهتهم الجنوبية كانتا ظاهرتين مؤثرتين كل التأثير ، ووضح ان كل هذا يبين لنا حقائق ليست في مصلحة عملية « السيد الاكبر » .

كما بدات المحاولة الرئيسية المنتظرة للقذف بنا الى البحر ، عندما استخدم العدو اكثر من اربع فرق يدعمها نحو اربعمائة وخمسين مدفعا في هجوم مباشر من كامبوليوني نحو الجنوب تنفيذا لامر هتلر باخلاء الشاطىء في بحر ثلاثة ايام ، ولكن الخط الذي كان حتى الآن يفرض العراقيل شاء في اللحظة الاخيرة ان يولينا بعنايته ، فقبل ان تنتهي الايام الثلاثة المقررة توقف الهجوم الالماني ، وفي الحال قمنا بهجوم عام تؤيدنا نيران شديدة من مدفعيتنا وغارات طائراتنا ودار قتال عنيف بلغت خسائر الفريقين فيه حدا هائلا ولكننا كسبنا المعركة .

وفي اوائل شهر آذار توقف الفريقان عن الحركة بسبب رداءة الطقس بعد ان فشلنا في اختراق جبهة الالمان الرئيسية في كاسينو كما فشل الالمان في القذف بنا الى البحر على انزيو .

ولو ان انزيو لم تعد مصدر قلق لنا ، الا أن الحملة في ايطاليا في مجموعها ابطأت في سيرها ، وكنا نأمل ان نتمكن من طرد الالمان الى الشمال من روما ، كما نتمكن من القيام بعملية انزال قوات ومعدات على شاطىء الريفيرا الفرنسي لتكون عونا لنا في عملية الغزو عبر القناة الا انه قد تبين ان علينا ان نسير بالجملة في ايطاليا شوطا بعيدا قبل ان نبدأ في عملية غزو القناة .

ولما كانت الحاجة ملحة تتطلب انهاء فترة الجمود التي تسود جبهة

كاسترو ، فسرعان ما بدات الاستعدادات لمعركة كاسينو الثالثة ، ولكن رداءة الطقس حالت دون بدء الهجوم حتى الخامس عشر من آذار ، حيث بدانا الهجوم بالقاء اكثر من الف طن من قنابل الطائرات والف ومائتي طن من قذائف المدافع حتى يتيسر لمشاتنا التقدم ، وعندما هبط الظلام كان الجزء الاكبر من البلدة قد اصبح في ايدينا ، ولكن المعركة استمرت في خرائب كاسينو حتى الثالث والعشرين من الشهر وهي تتردد بين مد وجزر من الهجمات والهجمات المضادة ، ولكننا على كل حال افلحنا في تثبيت راس جسر على نهر رابيدو ، مما كان له كبير الاهمية في الاندفاع الذي قمنا به في شهر كانون الثاني الماضي ، عبر الحوض الادنى لنهر كاريجيليانو ، وعندما جاء دور المعركة الحاسمة الظافرة فيما بعد ، تمكنا من احتلال انزيو ، وقد دل هذا العمل الذي قامت به جيوشنا في ايطاليا ولا سيما في ضربة انزيو ، على اننا سننجح في عملية « السيد الاكبر » .

عملية السيد الاكبر

لما كنت شديد الرغبة في اشراك الولايات المتحدة معنا في هجوم مباشر عبر القناة على جبهة الالمان البحرية في فرنسا ، ولما كنت ايضا غير مقتنع بأن هذه الخطة كانت الوحيدة التي تضمن الفوز في الحرب ، وكنت اعرف انها مغامرة محفوفة بالاخطار وكثيرة المتاعب ، وكانت الاثمان الغالية التي دفعناها من الارواح البشرية والدماء في اثناء الحرب العظمى الاولى ، لا تزال منقوشة في ذاكرتي ، وكنت لا ازال اعرف ان الحصون المبنية من الاسمنت المسلح والفولاذ والمسلحة بالقوة النارية الحديثة والتي يدافع عنها رجال مدربون اكمل تدريب ، لا يمكن التغلب عليها الا بعنصر المباغتة. فقد ظل الجنرال مورجان واركان حربه من القوات الحليفة المشتركة يعملون طوال اشهر الصيف عام ١٩٤٣ في اعداد الخطة ، وكان من رأي الجنرال ايزنهاور والجنرال مونتغمري ان يكون الهجوم بقوة كبيرة وعلى جبهة اوسع ليكسبا بسرعة رأس جسر ذا حجم كاف لتعزيز القوات التي تنزل الى البر ، وكان من المهم ايضا الاستيلاء على ارصفة شربورج ، وطالبا ان يكون الهجوم بخمس فرق بدلا من ثلاث ، وقد تقرر اخذ قطع الانزال اللازمة لفرقة واحدة من الفرقتين الاضافيتين من عملية « السندان » اما البواخر اللازمة للفرقة الثانية فيمكن ايجادها من تأجيل عملية السيد الاكبر حتى فترة القمر في حزيران .

وقد اخذت جميع الفرق تجري تدريباتها النهائية ، وبالطبع لم يمر هذا النشاط عرضا ، فقد كان لنا غاية في ان يلاحظ المراقبون الاعداء ذلك من خليج كاليه ، كما كنا في هذه الفترة نجري عملية استطلاع جوي مستمرة لنكون على علم بما يدور في القناة ، كما كانت تقوم بعض الجماعات برحلات عدة في زوارق صغيرة لسبر بعض الاغوار على الشاطىء ومعرفة العقبات الجديدة واختبار طبيعة الساحل وذلك في جنح الظلام .

ولما كان اختيار يوم الغزو وساعته امرا دقيقا ومعقدا ، كما ان جميع الشروط المرغوب فيها ما كانت لتتوافر الا ثلاثة ايام في كل شهر قمري ، وكانت الايام الثلاثة التي حددها الجنرال ايزنهاور هي الخامس والسادس والسابع من حزيران فقد اتفق على ان يكون اليوم الخامس من حزيران هو بدء الغزو ، واذا لم يكن الطقس ملائما في اي من هذه الايام الثلاثة فان العملية كلها ستتأجل شهرا كاملا انتظارا للقمر .

ولما كان حشد القوات المهاجمة والتي كان يبلغ تعدادها (١٧٦) الف جندي وعشرين الف سيارة وعدة الوف من اطنان الذخائر ، التي تقرر نقلها في اليومين الاولين مهمة كبيرة للغاية ، فقد بدا نقل الجنود من جميع

مراكزهم في انحاء بريطانيا الى المقاطعات الجنوبية كما جمعت فرق الجو الثلاث وهي التي تقرر هبوطها في نورماندي قبل بدء الهجوم البحري في اماكن قريبة من المطارات التي ستستقل الطائرات منها .

ولما كان من غير المعقول ، ان تظل جميع هذه التحركات في البر والبحر خافية عن عيون العدو واهتمامه ، وكانت هناك اهداف مغرية لطائرات العدو فقد اتخذنا الاحتياطات اللازمة كافة لمواجهة ذلك ، وأعددنا اكثر من سبعة آلاف مدفع مضاد للطائرات والصواريخ واكثر من ألف منطاد لحماية هذه الحشود الهائلة من الرجال والسيارات .

وقبل ثلاثة اسابيع من ابتداء الغزو ، عقدنا مؤتمرا ثانيا في لندن ، في مقر قيادة مونتغمري شهده الملك والمارشال سمطس ورؤساء اركان الحرب البريطانيين وقواد الحملة وعدد كبير من اركانهم ، وكان قد أعد خريطة كبيرة لنورماندي وشواطئها ومداخلها ، ليتمكن كبار الضباط الذين يشرحون خطة العملية والطرق الموصلة للاماكن التي يشيرون اليها ، وانتهت الجلسة بعد أن ألقى الملك والجنرال مونتغمري وضباط الاركان خطاباتهم .

هذا وقد لاحظنا ان العدو يعد نجدات من القوات البحرية الخفيفة في شربورج والهافر كما أبدى نشاطا كبيرا في عمليات زرع الالغام في القناة، وعندما حل يوم الغزو وهو الخامس من حزيران ، منعنا جميع الأشخاص الذين تقرر أشتراكهم في الحملة من مغادرة بواخرهم او معسكراتهم او نقاط تجمعهم على الساحل ، كما احتجز البريد بأنواعه ، وأخذنا ندرس التقارير عن حالة الطقس ، وقد عرفنا ان الطقس سيكون سيئا للغاية ، وهذا امر كبير الاهمية بالنسبة لغارات الطائرات التي ستمهد للانزال ، وطال امد التأجيل الى ما بعد السابع واصبح من غير الممكن الحصول على الجمع بين القمر والمد قبل مضي نحو اسبوعين . وكانت في هذه الاثناء قد صدرت التعليمات الى جميع الجنود بالاستعداد ، ولكن لما كان من الواضح انه ليس في وسعنا الاحتفاظ بهم على ظهر هذه البواخر الصغيرة الى أمد غير محدود ، كما انه كان في مثل هذه الحالة لا يمكن ان تحول دون تسرب الانباء ووصولها الى العدو في حالة حدوث تأجيل طويل وعليه فقد اصدر الجنرال ايزنهاور امرا بتأجيل العملية وعادت جميع البواخر والسفن المحملة بالجنود والعتاد الى مكان تجمعها الاصلي .

ولكن خبراء الارصاد الجوية عادوا واكدوا وجود تحسن مؤقت محدود . وكان على ايزنهاور ان يواجه الخيار الخطير بين امرين . اما تقبل الاخطار او تأجيل الهجوم مدة اسبوعين على الاقل ، ولكنه على ضوء نصائح قادته قرر بجرأة وحكمة كما اثبتت الايام. ان يمضي قدما في العملية وتقرر ان يقع الغزو في اليوم السادس من حزيران ، وبعد ان تتابعت الاحداث تبين لنا ان هذا القرار قد برته الاحداث وكان سببا في ان قبضنا على ناصية المباغتة مع ما تنطوي عليه من فوائد ، وكان من حسن حظنا ان ضباط الارصاد الجوية الالمان ، كانوا قد ابلغوا قيادتهم العليا ان الغزو الخامس والسادس من حزيران في حكم المستحيل بسبب رداءة

الطقس التي قد تستمر عدة ايام ، وعلى ذلك فقد مضت العملية الكبيرة في طريقها بدقة متناهية . وتقدم اعظم اسطول غزو في التاريخ متجها الى ساحل فرنسا تتقدمه كاسحات الالغام وتحرسه من جميع جهاته القوات البحرية الجوية الحليفة .

وكانت شبكة الدفاع حول جميع شواطئنا محكما وتعمل في منتهى الدقة والنشاط كما كان اسطول الوطن يقظا ومتربصا لاية حركة قد تقوم بها السفن الحربية الالمانية ، كما كانت الدوريات الجوية تراقب شواطىء العدو من النرويج حتى القناة ، وفوق المداخل الغربية وخليج بسكاي ، وفي هذه الاثناء جاءتني انباء مثيرة عن احتلال قواتنا لروما .

الاستيلاء على رومـــا

لقد توقف زحف الحلفاء في ايطاليا لمدة شهرين بسبب ما لاقته قواتنا من صعاب في جبهتي انزيو وكاسينو ، في أثناء القتال الذي دار هناك وقد تحتم علينا ان نعيد تنظيمها ، وان ننقل الجزء الاكبر من الجيش الثامن ومن ناحية الادرياتيك لكي يتأهب الجيشان للهجوم القادم . وفي هذه الاثناء كان الجنرال ويلسون يستخدم كل ما لديه من قوات جوية ليعرقل حركات العدو ، ويلحق به افدح الخسائر ، كما اشتركت قوات الحلفاء الجوية في مهاجمة مواصلات العدو البرية املا في قطعها . لكي ترغم القوات الالمانية على الانسحاب بسبب افتقارها الى المؤن ، وكذلك تحطيم الجسور والقناطر وغيرها من الاماكن الحساسة لتوقف سير القطارات الى الشمال من روما ولكن العملية فشلت . وتمكن العدو من المحافظة على طرق امداده ، باستخدام الملاحة الداخلية ونقل شحناته بالسيارات بدلا من القطارات ، ولكنه عجز عن جمع كميات كبيرة من المؤن والذخائر تكفي قواته للاستمرار في القتال لمدة طويلة ، وظهر الضعف في صفوفه في اثناء القتال العنيف الذي نشب في الايام الاخيرة من شهر ايار . مما حقق لنا الاتصال بجيوشنا المنفصلة ، كما تحقق لنا الاستيلاء على روما في اسرع مما كنا نتوقع . كما مني سلاح الجو الالماني بخسائر فادحة.

وقد كان الجيش الخامس بقيادة الجنرال كلارك يضم في هذا الوقت سبع فرق بينها اربع فرق فرنسية ويحتل الجبهة الممتدة من البحر الى نهر ليري ، كما كانت جبهة الجيش الثامن الذي يقوده الجنرال ليز . مكملة الخط عبر كاسينو الى الجبال والذي يضم اثنتي عشرة فرقة وقد تجمع للحلفاء بذلك ثمان وعشرون فرقة ، مقابل ثلاثة وعشرين فرقة للالمان . وكانت خطواتنا التضليلية تذهل كيسلرنج مما دعاه الى توزيع قواته على مساحة شاسعة ، وبذلك لم يكن لديه في الجبهة الممتدة بين كاسينو والبحر ، حيث تقرر ان توجه ضربتنا اليها اربع فرق ، وقد بدأ الهجوم في مساء اليوم الحادي عشر من ايار ، عندما أطلقت مدافعنا البالغ عددها الفي مدفع قذائفها على العدو وعززها في الصباح قصف جوي شديد قامت به طائراتنا وبذلك تم لنا في اليوم الثامن عشر من ايار التغلب على العدو وتطهير كاسينو بصورة نهائية .

كما كانت هناك ست فرق يقودها الجنرال الامريكي تروسكوت قد احتشدت في رأس شاطىء انزيو اندفعت في هجومها مع الجيش الثامن ، ولم يمض يومان حتى اتصلت بالفيلق الأمريكي الثاني .

وبذلك تحطمت المقاومة الالمانية في مساء اليوم الثاني من حزيران ،

وفي اليوم الرابع من حزيران دخلت طلائع الفرقة الثامنة والثمانين الى ساحة البندقية في قلب العاصمة (روما) .

وفي اليوم السادس من حزيران عام ١٩٤٤ ، أعلنت في مجلس العموم تحرير مدينة روما على أيدي جيوش الحلفاء تحت قيادة الجنرال اليكساندر كما بعثت الى ستالين أعلمه بذلك وبسير عملية « السيد الاكبر » نحو غايتها ، وقد رد علي يقول :

« تلقيت رسالتك عن النجاح الذي حققتموه في بداية عملية « السيد الاكبر » مما بعث السرور الى نفوسنا والامل في انتصارات اخرى ، هذا وسيبدأ حوالي منتصف هذا الشهر هجوم الصيف بالنسبة للقوات السوفييتية كما اتفقنا في مؤتمر طهران ، على أن تتطور العمليات الهجومية خلال شهر تموز الى هجوم عام تشنه الجيوش السوفييتية في جميع انحاء الجبهة » .

وبعد ايام أبرق الي ستالين يقول :

« لقد اصبح واضحا ان النزول الذي خطط له على نطاق واسع ، قد نجح نجاحا كاملا ، ولا استطيع انا وزملائي الا الاعتراف بأن تاريخ الحرب لا يعرف عملية اخرى مماثلة من حيث تطوراتها وتصوراتها الواسعة وتنفيذها العبقري .

ومن المعروف جيدا أن نابليون قد فشل فشلا معيبا في اجتيازه القناة بالقوة ، وهتلر المجنون الذي ظل يتبجح عامين كاملين بأنه سيعبر المانش ، لم يستطع ان يحزم امره حتى على مجرد الاشارة بأنه سيحاول تنفيذ وعيده ولم يتمكن سوى حلفائنا من ان يحققوا بشرف الخطة العظيمة في عبور المانش ، ولا ريب في ان التاريخ سيسجل هذا العمل على انه عمل من أعظم الاعمال » .

وابلغنا الجنرال مونتغمري في العاشر من حزيران بأنه قد اصبح ثابت الاقدام على الشاطىء بحيث يستطيع تقبل الزيارات ، فقمت ومعي الجنرال سمطس وبروك لزيارته على ظهر احدى المدمرات كما استقل الجنرال مارشال والاميرال كينج وضباط أركان حربهما مدمرة اخرى ليكونوا معنا في هذه الزيارة ، ونزلنا الى البر واخذت السيارة تطوف بنا المنطقة المحدودة التي يحتلها في نورماندي وعدنا بعد ذلك على المدمرة « كيلفن » .

وبعد عودتي ، بعثت بالرسالة التالية الى الرئيس شرحت له فيها جميع القضايا ومن بينها بالطبع الزيارة التي ينوي الجنرال ديغول القيام بها لفرنسا والتي أعددت لها العدة دون استشارة الرئيس ، قلت له فيها :

« لقد قضيت يوما ممتعا على الشاطىء الفرنسي وفي الداخل ، وهناك كتلة ضخمة من البواخر تنتشر على مسافة تتعدى الخمسين ميلا على

طول الشاطىء ، وتقوم الموانىء الاصطناعية بحماية هذه البواخر . وفي وسعي ان اقول ان كل عنصر من هذه الموانىء كان ناجحا في حد ذاته ، وسنصبح عما قريب عاملا مهما في تأمين الملاذ الامين ضد الطقس السيء ، ويبدو أن قوة سلاحنا الجوي وقوة وسائلنا في مقاومة الغواصات قد ضمنت لنا حدا كبيرا من الحماية وبعد ان قمنا بواجبات كثيرة منهكة اطلقنا نيران مدافعنا من مدمراتنا على الرغم من اننا كنا على بعد ستة آلاف ياردة ولكن العدو لم يكرمنا برد تحيتنا » .

تحرير باريس

ولنبين الآن مما توضح لنا ما كانت عليه اوضاع وخطط العدو ، فقد كان الماريشال روتشنادت يتولى قيادة (جدار الاطلنطي) وتحت امرته ستون فرقة تتولى العمل في القطاع الممتد من الاراضي المنخفضة حتى خليج بسكاي ، ومن مارسيليا الى نهاية الساحل الفرنسي الجنوبي ، وكان رومل يتولى القطاع الساحلي الممتد من هولندا الى اللوار وكان جيشه الخامس عشر المؤلف من تسع عشرة فرقة على حين كان جيشه السابع المؤلف من تسع فرق مشاة وفرقة مدرعة في نورمانديا نفسها ، اما الفرق العشر المدرعة الموجودة في الجبهة الغربية كلها فكانت منتشرة من بلجيكا الى بوردو ، ومن الغريب ان الالمان وقد اصبحوا في مركز المدافع فقد ارتكبوا الاخطاء التي ارتكبها الفرنسيون عام ١٩٤٠ عندما وزعوا اقوى سلاح يمكن لهم الاعتماد عليه في الهجوم المضاد .

ومن الغريب ان هذا الهجوم الضخم جاء مباغتا للعدو ، ففي صباح الخامس من حزيران كان رومل عد غادر مقر قيادته لزيارة هتلر في بحتسجادن عندما حلت الضربة بقطاعه وكان رونشتادت يعتقد بأن ضربتنا الرئيسية ستوجه من مضايق دوفر ، ولكن يظهر ان هتلر واركان حربه كانوا قد ابلغوا تقارير تشير الى ان نورماندیا ستكون ميدان المعركة الرئيسي ، وظلت تساوره الشكوك حتى بعد نزولنا ، واضاع يوما كاملا قبل ان يقرر ارسال اقرب فرقتين مدرعتين الى الجبهة لتعزيزها لانه كان في رأيه ان عملية الانزال في نورماندیا لم تكن الا مجرد عملية اولية وفرعية ، ولم يرسل القوات الاحتياطية من الجيش الخامس المرابط في خليج كاليه جنوبا لتشترك في المعركة الا بعد أن انقضى ستة اسابيع على يوم الغزو .

ومع ذلك فقد قاتلت جيوش العدو بعناد واصرار ولم يكن من السهل التغلب عليها ، ولكن على الرغم من جميع الصعوبات التي لاقيناها، فقد حققنا تقدما طيبا باستثناء فشلنا في احتلال كاين ، التي كانت ذات اهمية عظيمة بالنسبة لنا ، ولان مونتغمري كان قد قرر ان يقيم بوساطة القوات الامريكية فيها نقطة ارتكاز يساريه ضخمة تدور منها المعارك ولان ارضها كانت تصلح لاقامة اماكن لهبوط الطائرات فيها ، كما كانت هذه البلدة مهمة ايضا بالنسبة للالمان ، لان اختراق الجبهة فيها يجبر جيشهم السابع بأكمله على الانسحاب في اتجاه جنوبي شرق اللوار ويفتح ثغرة بينه وبين الجيش الخامس عشر من الشمال ، كما يتفتح الطريق في الوقت نفسه الى باريس .

وقد تمكن الحلفاء في الحادي عشر من حزيران من اقامة جبهة متصلة واندفع الامريكيون شرقا وغربا تؤيدهم الطائرات المقاتلة ، وبعد

قتال عنيف توقفوا عند ابواب الخطوط الدفاعية لمدينة شربورج في الثاني والعشرين من حزيران .

وفي هذه الاثناء وقعت احداث اخرى وراء الميدان اثرت على مستقبل المعركة تأثيرا حاسما ، ففي ليلة الثالث عشر من حزيران سقطت على لندن اولى القنابل الطائرة ، وكانت هذه القنابل تنطلق من سواحل فرنسا الشمالية من اماكن بعيدة عن جيوشنا النازلة الى البر ، ولو كنا احتللنا هذه الاماكن في وقت مبكر لارحنا السكان المدنيين في لندن من تعرضهم لهذه الغارات الجوية الفظيعة .

وفي اليوم التاسع عشر من حزيران عقد هتلر مؤتمرا في مارجيفال على مقربة من سواسون ، شهده رونشتادت وروميل ، وبين له القائدان وجوب سحب الجيش السابع بانتظام قبل ان يتعرض للدمار الى نهر السين حيث يستطيع ان يخوض بالاشتراك مع الجيش الخامس عشر معركة حاسمة ومتحركة ولكن هتلر لم يذعن لرأيهما ، وأصر كما سبق ان اصر في روسيا وايطاليا على وجوب القتال عن كل شبر من الارض .

هذا وقد تم لنا في الستة الايام الاولى من بدء الهجوم تثبيت اقدامنا وأنزلنا (٣٢٦) ألف رجل و (٥٤) ألف سيارة و (١٠٤) آلاف طن من العتاد والذخائر ، كما أقمنا جهازا هائلا للتموين ، كما أعددنا ميناء « بورت آن باسان » ليكون الميناء الرئيسي للامداد بالبترول في المنطقة كلها وفي هذه الاثناء هبت عواصف شديدة استمرت اربعة ايام فحالت دون نزول اية قوات او معدات جديدة الى الساحل كما الحقت اضرارا كبيرة بحواجز الماء ، وأفلتت قطع عائمة كثيرة . فاصطدمت بحواجز المياه وبالسفن الراسية في مرافئها وتحطم الميناء الموجود في المنطقة الامريكية وقد تسببت في تعطيل تقدمنا في الميدان ، واقام البريطانيون في الاسبوع الاخير من حزيران رأس جسر لهم في جنوب كاين ولكن المحاولات التي بذلت لتوسيعه جنوبا وشرقا منيت بالفشل .

وفي السابع عشر من شهر تموز ، وقع حادث مهم للغاية ، حيث اصيب روميل بجراح بالغة من جراء هجوم طائراتنا المحاربة من ارتفاع منخفض على سيارته ولكنه بعد أن شفي من جراحه لقي حتفه فيما بعد بأمر من هتلر ، كما نحي رونشتادت عن قيادة الجبهة الغربية كلها ليخلفه فيها فون كلوجه ، وهو قائد أظهر تفوقا عظيما في الجبهة الروسية كما وقعت في العشرين من تموز محاولة اخرى فاشلة لاغتيال هتلر ، بوساطة قنبلة زمنية وضعها الكولونيل فون شتوفنبرج ، وقد قتل عدد من الضباط الذين كانوا حاضرين ولكن الفوهرر برغم الصدمة الشديدة والجراح التي أصيب بها نهض هاتفا «من يقول ان الله لا يرعاني بحمايته» .

وفي الثامن عشر من تموز هجم الجيش البريطاني بثلاثة فيالق تقدمها قصف جوي هائل ، حال بين سلاح المانيا الجوي وبين التدخل في المعركة وتقدمنا الى الشرق من كاين ، الى ان حالت الغيوم الملبدة في السماء بين طائراتنا وبين الحركة الفعالة ، مما سبب تأخرا في عملية الاقتحام في القطاع الامريكي لمدة اسبوع .

وفي هذه الآونة صدرت الاوامر بالغاء الحظر الذي كانت القيادة العليا الألمانية قد فرضته على جيشها الخامس عشر والتي كانت محتفظة به وراء نهر السين ، كما توجهت فرق جديدة لتعزيز الجيش السابع الذي لحق به الاجهاد ، وقد تمكنت طائراتنا من عرقلة نقل هذه الفرق بالسكة الحديد .

وحانت اخيرا لحظة الهجوم الامريكي العظيم بقيادة الجنرال برادلي ففي الخامس والعشرين من تموز ، اندفع الفيلق السابع جنوبا من سان لو وانضم اليه الفيلق الثامن المرابط الى ميمنته في اليوم التالي ، تؤيدهما قاذفات القنابل الامريكية ، كما اندفعت القوات المدرعة تجرف في طريقها كل شيء مستهدفة نقطة كوتانس ، ذات المركز الحساس ، فقطعت طريق النجاة بالنسبة للالمان على طول ساحل نورماندیا الغربي ، واصبحت جميع مراكز الالمان الدفاعية الى الغرب من نهر فير في حالة من الشلل والاضطراب ومضى الزحف مندفعا للامام ، وتم احتلال افرانسن في الحادي والثلاثين من تموز ، وتلتها الزاوية البحرية التي فتحت الطريق الى شبه جزيرة بريتاني وقام الكنديون في الوقت نفسه بهجوم من كاين جنوبا في اتجاه طريق ناليز ولكنه لقي مقاومة فعالة من اربع فرق مدرعة .

وفي هذا الوقت تم تشكيل الجيش الامريكي الثالث بقيادة الجنرال باتون وشرع يعمل في ميدان القتال ، وقد اوفد هذا الجيش فرقتين مدرعتين وثلاث فرق من المشاة الى الجنوب والغرب ، لتطهير جزيرة بريتاني ، بمساعدة حركة المقاومة الفرنسية التي كانت تضم ثلاثين ألف رجل ، وقد تم الاستيلاء على شبه جزيرة بريتاني .

وبعد ان تم تطهير بريتاني ، شرعت بقية جيش باتون في الزحف شرقا في الخطاف الطويل « الذي سيصل بها الى الثغرة الواقعة بين باريس واللوار وهبوطا مع السين في اتجاه روان » ودخلت قواتنا بلدة لافال في السادس من آب وفي السابع منه بلدة ليمانز ، ولكن الصعوبة الكبرى كانت من تموين الامريكيين الزاحفين في مساحات طويلة شاسعة وكان من الواجب في هذه اللحظة نقل كل شيء الى شواطىء الانزال الاساسية ومنها الى الطرف الغربي من نورماندیا عبر افرانش حتى تصل المؤن الى الجبهة ، وهكذا اصبحت افرانش بمثابة عنق الزجاجة، وقد حانت فرصة مغرية للالمان ليشنوا عليها هجوما مضادا واستحوذت الفكرة على خيال هتلر ، فأصدر أوامره بأن تقوم القوات بالهجوم على مورثان ، لتشق طريقها منها الى افرانشن . ولتقطع بذلك طرق مواصلات باتون ، واجمع القادة الالمان على استنكار هذا الهجوم الجديد ، لادراكهم ان معركة نورماندیا قد انتهت بفقدها ، ولكن هتلر اصر على رأيه وفي السابع من آب شنت خمس فرق مدرعة وفرقتان من المشاة هجوما عنيفا على مورثان من ناحية حتى وصلتها ثلاث فرق اخرى لمساعدتها وصد العدو . ومضت قوات الحلفاء تندفع في طريقها مهاجمة الالمان المكتظين في الجيب الضيق الطويل ، وتمكنت بفعل المدافع من ان تنزل بها خسارة هائلة ، وصمد الالمان بعناد واصرار محاولين انقاذ ما يمكن انقاذه بوساطة قواتهم المدرعة ،

وتحول المنظر الى مذبحة وانطبق الفكان في العشرين من آب وقد تمكن شطر كبير من قوات العدو من الخلاص من الطوق والنجاة ، الا ان ما لا يقل عن ثمان فرق المانية قد تمت ابادتها في هذه المعركة .

كما تمكن الجيش الامريكي الثالث من تطهير بريتاني والاسهام في نصر فاليه الرائع ، بدفعه ثلاثة فيالق في اتجاه الشرق والشمال الشرقي من ليمانز ، وقد وصلت في السابع عشر من آب الى اورليان وشارادودرو . ثم اندفعت في اتجاه شمالي غربي للقاء القوات البريطانية الزاحفة على روان .

وكان ايزنهاور الذي تولى القيادة العليا الآن عازما على تجنب خوض معركة لاحتلال باريس ، ولما كانت ستالينغراد ووارسو قد برهنتا على ما في الهجمات الجيبية من مفازع ومخاوف ومن انتشار روح الوطنية بين المدافعين ، فقد قرر تطويق العاصمة وارغام الحامية التي بها اما على الاستسلام او الهرب ، وحانت في العشرين من آب ساعة العمل ، وكان الجنرال باتون قد عبر نهر السين على مقربة من سانت ووصل جناحه الايمن الى فونتيبنلو ، واعلنت الحركة السرية الفرنسية الثورة واضرب رجال الشرطة وسيطر الوطنيون الفرنسيون على مراكز قيادة الشرطة ووصل احد ضباط المقاومة الفرنسية الى مركز قيادة باتون حاملا تقارير هامة وقد نقلت هذه التقارير الى الجنرال ايزنهاور في ليمانز ، كما التحقت الفرقة الفرنسية المدرعة الثالثة بقيادة الجنرال ليكليرك والتي كانت قد هبطت الى البر في نورماندیا في اول آب بجيش الجنرال باتون . وادت دورا مهما في التقدم ووصل ديغول في اليوم نفسه فأكد له القائد الاعلى للحلفاء ، انه عندما يحين الوقت وطبقا للاتفاقات السابقة ، ستكون قوات ليكليرك اول القوات التي تدخل باريس ، وما ان وصلت الى ايزنهاور انباء عن وقوع قتال في شوارع العاصمة حتى قرر ان يعمل فورا وأصدر امره الى ليكليرك بالزحف على باريس .

وفي الرابع والعشرين من آب تحرك الاندفاع الرئيسي بقيادة العقيد بيلوني من اورليان في اتجاه باريس ، ووصلت طليعة الدبابات في تلك الليلة بوابة اورليان ، ودخلت الى الساحة القائمة في مدخل دار الامانة ، وفي صباح اليوم التالي ، كانت قوات بيلوني المدرعة تحتل ضفتي السين وعند الظهر تم تطويق مقر قيادة الجنرال الالماني فون شوليتز في « قصر موريس » وجيء بفون شوليتز امام ليكليرك ، وتم التوقيع على شروط تسليم حامية المدينة ، ودخل ديغول في السادس والعشرين من آب العاصمة سيرا على قدميه الى الشانزليزيه ومنها الى ساحة الكونكورد حيث استقل ورفاقه السيارات صاعدين الى نوتردام ، وبعد فترة قصيرة جرى الاحتفال الرسمي بتحرير باريس وفقا للخطة الموضوعة .

وفي الثلاثين من آب عبرت قواتنا نهر السين من عدة جهات وكانت خسائر العدو هائلة ، فقد بلغت اربعمائة الف رجل واكثر

من نصفهم وقعوا في الاسر ، والفا وثلثمائة دبابة وعشرين الف سيارة والفا وخمسمائة مدفع ميدان ، وقد مزق الجيش الالماني السابع وجميع الفرق التي ارسلت لنجدته وكتب الجنرال ايزنهاور في تقريره الرسمي يقول : « لـولا التضحيات العظيمة التي قدمتها الجيوش الانجليزية والكندية في معارك كاين وفاليه الوحشية ، لمـا كـان في امكاننا ان نحقق الزحف الرائع بوساطة قوات الحلفاء الاخرى في المناطق الثانية » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ايطاليا والنزول في الريفييرا

لما كان تحرير نورماندیا من الاحداث العظيمة في الحملة الاوروبية لعام ١٩٤٤ ، ولكنه لم يكن الا احدى الضربات الموجهة الى المانيا النازية ، وكان الروس في الشرق يتدفقون على بولندا والبلقان ، على حين كانت جيوش اليكساندر في الجنوب « اي في ايطاليا » تضغط في اتجاه نهر البو ، فقد كان من المحتم الآن اتخاذ القرارات في صدد حركتنا المقبلة في البحر الابيض المتوسط ، وانه لمما أسجله مع المزيد من الاسف ، ان هذه القرارات تسببت في اول خلافات مهمة في الخطط الاستراتيجية العليا بيننا وبين حلفائنا الامريكيين .

من ذلك اننا كنا قد وعدنا بتنفيذ عملية « السيد الاكبر » وكانت مهمتنا الاولى هي انجاح تلك العملية ، ولما كنا لا نزال نحتفظ بقوات قوية في البحر الابيض المتوسط ، فقد صممنا على ان تحتل هذه القوات روما ، التي كنا نحتاج الى مطاراتها لقصف المانيا الجنوبية ، وان نتقدم في شبه الجزيرة الى خط بيزا ـ ريميني ، وان نرغم هناك اكبر عدد من قوات العدو على البقاء ، كما كنا قد اتفقنا على عملية ثالثة وهي عملية النزول في جنوب فرنسا ، وكان الخلاف يكاد ينشب على هذه العملية بالذات ، لان الامريكيين كانوا قد اصروا على وجوب القيام بهجوم حقيقي تشنه عشر فرق على الاقل ، وقد ايدهم ستالين في هذا الراي ، وقد اضطررت لقبول هذا الراي لكي امنع تحويل هذه القوات الى بورما .

وهكذا فقد كان سقوط روما شرطا اساسيا للقيام بعملية « السندان » وايضا في الوقت نفسه تبدا عملية « السيد الاكبر » والى ان يتحقق ذلك لم يكن في وسع اليكساندر الاستغناء عن أي جزء من قواته .

ومع هذا فقد اخذنا عددا من احسن فرقنا في ايطاليا للاشتراك في عملية « السيد الاكبر » الرئيسية ، قبل انتهاء عام ١٩٤٣ ، ولهذا فقد لحق الضعف بقوة الجنرال اليكساندر ، على حين تقوى كيسلرنج ، حيث بعث الالمان بنجدات الى ايطاليا فاوقفت احتلال انزيو ، كما اخرت دخولنا روما حتى قبيل يوم الغزو في نورماندیا ، وادى هذا القتال غير الحاد الى اشغال عدد مهم من قوات العدو الاحتياطية كان في الامكان نقلها الى فرنسا ، مما ساعد عملية السيد الاكبر في مراحلها الحرجة المبكرة ، ومهما يكن ، فان تقدمنا في البحر الابيض المتوسط قد اضطرب الى حد كبير ، ولهذا فقد بعث الجنرال ولسون في الحادي والعشرين من آذار يقول : « ان عملية (السندان) لا يمكن القيام بها قبل نهاية تموز ، ثم عاد فأجل الموعد الى منتصف شهر

آب ، واعلن ان خير طريقة لمساعدة عملية « السيد الاكبر » تقوم على التخلي عن مهاجمة الريفييرا والتركيز على ايطاليا .

وعندما سقطت روما في الرابع من حزيران ، تحتم علينا اعادة النظر في المشكلة قبل ان تبدأ عملية « السندان » .

وكان من راي الجنرال ايزنهاور تقوية الهجوم على شمال غربي اوروبا بجميع الوسائل والامكانيات المتيسرة ، ووافق رؤساء اركان الحرب الامريكيون ايزنهاور على خطته . كما ايدهم الرئيس روزفلت وقال ان التقدم تجاه ممر بوبليانا قد يشغل عددا من الفرق الالمانية ولكنه لا يؤدي الى سحب اي منها من فرنسا وحث على ضرورة القيام بعملية السندان على حساب جيوشنا في ايطاليا ، الا ان رؤساء الاركان البريطانيين اتخذوا موقفا مغايرا تماما ، وكانوا يفضلون ان يرسلوا قوات من ايطاليا بطريق البحر الى ايزنهاور بدلا من النزول في الريفييرا ، كما اعلنوا ان القيام بعملية « السندان » ستؤثر على القوات الباقية لدى الجنرال اليكساندر ، بحيث لا يمكنه القيام بأي نشاط جديد .

ولما لم يكن في الامكان التوفيق بين هذه الآراء التي يتمسك بها كل من الفريقين ، فقد ابرقت الى الرئيس في الثامن والعشرين من حزيران اقول : « ان هذه الازمة بين رؤساء اركان حربنا كفيلة بأن تؤدي الى اخطر النتائج ، وغايتنا الاولى هي مساعدة الجنرال ايزنهاور بأسرع ما يمكن ، ولكننا لا نعتقد ان تحقيق هذه الغاية ينطوي بحكم الضرورة على تدمير جميع الجهود العظيمة التي قمنا بها في البحر الابيض المتوسط تدميرا كاملا ، واني لارجو رجاء حارا ان تدرس هذه القضية بنفسك دراسة تفصيلية كما ارجو ان تتذكر حديثك معي في طهران عن موضوع ايستريا » .

وكان رد المستر روزفلت مقتضبا وجافا ، فقد كان مصمما على استقلال عملية « السيد الاكبر » الى اقصى حدود الاستقلال ، وتحقيق تقدم في ايطاليا مع القيام بهجوم مبكر على جنوب فرنسا ، وقد ايد ستالين نفسه عملية « السندان » وقال ان العمليات الاخرى في البحر الابيض المتوسط ليست بذات اهمية ، ولذا فقد اعلن روزفلت انه لا يستطيع ان يتخلى عن هذه العملية ، واضاف يقول :

« ان اهتمامي واماني يتركزان على هزيمة الالمان امام ايزنهاور وانا واثق بانه ستتوافر لنا في ايطاليا حتى بعد سحب القوات اللازمة بعملية « السندان » الموارد الكافية لمطاردة كيسلرنج الى الشمال من خط بيرزا ــ ريميني ، والضغط الشديد على جيشه لارغامه على الاحتفاظ بقواته الراهنة هناك ، كما انني لا استطيع ان اقتنع بأن الالمان سيدفعون الثمن بزج عشر فرق اضافية بقصد الاحتفاظ بشمال ايطاليا كما يقدر الجنرال ويلسون .

كما انه في وسعنا ان نسحب فورا كما يؤكد الجنرال ويلسون خمس فرق : ثلاث منها امريكية وفرقتان فرنسيتان من القوات العاملة في ايطاليا حاليا لتقوم بعملية « السندان » ، وستؤيد من الاحدى

والعشرين فرقة الباقية بالاضافة الى عدد من الالوية المتفرقة للجنرال اليكساندر تفوقه البري .

ولكن اعتراضات المستر روزفلت على النزول في شبه جزيرة ايستريا والاندفاع نحو فيينا عن طريق ممر بوبليانا ، قد اقامت الدليل على تزمت الخطط العسكرية الامريكية وعدم مرونتها من ناحية وعلى شكوكه فيما سماه بحملة « في البلقان » من ناحية اخرى ، وادعى ان اليكساندر وسمطس ، اللذان يؤيدان وجهة نظري « لعدة اسباب طبيعية وانسانية للغاية » يميلان الى تجاهل اعتبارين حيويين للغاية اولهما ان العملية تمس « الاستراتيجية العظمى » وثانيهما ، انها قد تطول الى حد كبير ، واننا قد لا نستطيع توزيع اكثر من ست فرق من فرقنا ، وكتب يقول : « لا استطيع الموافقة على استخدام القوات الامريكية ضد ايستريا وفي طريق البلقان ، كما لا استطيع ان ارى الفرنسيين يوافقون على استخدام قواتهم في مثل هذه الخطة ، كما لا استطيع ايضا ان اصمد لاعتبارات سياسية لاية « صدمة » قد تصيبنا في عملية « السيد الاكبر » ولا سيما اذا عرف ، اننا قد حولنا قوات ضخمة الى حد ما الى البلقان .

لكنني على كل حال قررت الاذعان مؤقتا ، واصدرت امري في الثاني من تموز الى الجنرال ويلسون ، باعداد العدة لشن هجوم على جنوب فرنسا في الخامس عشر من شهر آب ، وقد بدأت الاعدادات فورا ، وهنا يجب على القارىء ان يعلم اننا بدلنا اسم عملية «السندان» « بعملية التنين » مخافة ان يكون العدو قد فهم معنى الكلمة الاولى .

وعندما وقع تبدل ملحوظ في ميادين القتال في نورمانديا في اوائل شهر آب ، وكانت هناك تطورات كبيرة متوقعة ، فقد قمت في السابع من الشهر بزيارة الجنرال ايزنهاور في مقر قيادته على مقربة من بورتسماوث وبسطت له آخر امل لي في وقف الهجوم على جنوب فرنسا .

لكنني لم استطع زحزحته عن موقفه او التأثير عليه ، وقد تلقيت في اليوم التالي برقية من الرئيس يقول فيها : « لقد تبينت بعد الدرس أن علينا ان نشن عملية « التنين » طبقا لمخططنا السابق في اسرع وقت ممكن ، ولي كل الثقة في نجاح العملية ، لانها ستكون عونا كبيرا لايزنهاور في طرد الالمان من فرنسا .

ولذلك قررت في الحال ان اذهب الى ايطاليا ، لارى القادة والجنود ، كما كنت شديد الرغبة للقاء تيتو ، الذي كان في امكانه ان يأتي بسهولة الى ايطاليا من جزيرة فيز ، التي كنا نتولى حمايته فيها ، كما كان في وسع المسيو باباندريو رئيس وزراء اليونان وبعض زملائه الآخرين أن يفدوا من القاهرة ، لكي نضع معهم الخطط لمساعدتهم في العودة الى اثينا ، عندما يبارحها الالمان ، ولما وصلت الى نابولي بعد ظهر الحادي عشر من آب اوضح لي الجنرال ويلسون ان الترتيبات قد اتخذت لعقد مؤتمر في الغد بين تيتو وسوباجيك رئيس وزراء حكومة

الملك بطرس الجديدة في لندن ، وكان الرجلان قد وصلا الى نابولي فعلا .

هذا وقد اجتمعت بالماريشال تيتو في المكان الذي انزل فيه في غرفة كبيرة تملأ جدرانها خرائط جبهات القتال وبعد ان تحدثنا طويلا ، اشرت الى شبه جزيرة ايستريا على الخريطة ، فأيد الماريشال مشروعنا بمهاجمتها ووعد بتقديم كل عون ، واتفقنا على بذل كل جهد ممكن لتقوية يوغوسلافيا حربيا ، وعلى راب الصدع بينه وبين الملك بطرس .

وبعد ذلك طرت الى جزيرة كورسيكا في اليوم الرابع عشر من آب ، لمشاهدة عملية انزال القوات في الريفييرا ، وأرى لزاما علي ان ادون هنا باختصار كل ما حدث :

فقد تم تأليف الجيش السابع بقيادة الجنرال باتسن للقيام بالهجوم وكان يضم سبع فرق فرنسية وثلاث فرق امريكية مع فرقة اخرى من البريطانيين والامريكيين الذين نقلوا بالطائرات ، تؤيدها نحو ست بوارج وواحد وعشرين طرادا ومائة مدمرة ، وكان تفوقنا الجوي كبيرا ، كما كان هناك نحو خمسة وعشرين الف فرنسي مسلح من قوات المقاومة في جنوب فرنسا على استعداد للثورة ، وبدأ الهجوم في صباح الخامس عشر من آب بين كان وهايير ، وكانت الخسائر طفيفة نسبيا ، ولم يأت اليوم الثامن والعشرون من آب حتى كان الامريكيون قد تجاوزوا فالانس وجرينوبل ، ولم يبذل العدو اية مقاومة جدية لوقف الزحف ، وكانت قوة الحلفاء الجوية تنزل بالالمان افدح الخسائر وتحطم مواصلاتهم ، على حين كانت مطاردة ايزنهاور لهم من نورماندیا مستمرة ولا سيما بعد أن وصلت قوات الحلفاء الى نهر السين عند فونتنبلو في العشرين من آب ، وبعد خمسة ايام كانت قواتنا قد تجاوزت تروييه ، وكانت العناصر الباقية من الجيش الالماني التاسع عشر قد اخذت تتراجع تاركة وراءها نحو خمسين الف اسير في ايدينا ، كما تم احتلال ليون في اليوم الثالث من ايلول ، وبيزانسون في الثامن منه ، كما حررت قوات المقاومة ديجون ، وبذا قد تلاقت قوات « السيد الاكبر » و « التنين » في اليوم الثامن من ايلول في بلدة سوميرنون ، وقد تم في المثلث الواقع في جنوب فرنسا الغربي عزل بقايا الجيش الالماني الاول وعددها عشرون الف جندي استسلموا بدون مقاومة ، الا اننا دفعنا في مقابل ذلك ثمنا باهظا للغاية .

هذا وقد بعثت الى الرئيس من نابولي البرقية التالية لانبئه عن حقيقة الموقف بشكل لا لبس فيه :

« ان احاديثك الي في طهران عن ايستريا لا تغيب عن بالي قط ، واني لواثق من أن وصول جيش قوي الى تريستا وايستريا في مدى اربعة اسابيع او خمسة سيكون له اثر بالغ الاهمية ، ولا ريب في ان جماعة تيتو سيكونون في انتظارنا في ايستريا ، وليس في وسعي ان اتصور ماذا سيكون عليه موقف المجر اذ ذاك . ولكننا سنكون على الاقل في وضع يمكننا من استغلال الاوضاع العظيمة » .

وبعد عودتي للوطن تلقيت الرد التالي من الرئيس روزفلت :

« انني اشاطرك الثقة في ان قوات الحلفاء في ايطاليا كافية لاداء المهمة الملقاة عليها ، وان قائد المعركة سيواصل الضغط بقوة وعزم مستهدفا تحطيم قوات العدو .. اما بالنسبة الى استخدام قواتنا الموجودة في ايطاليا في المستقبل ، فهذه مسألة يمكننا بحثها فورا ، وبالنظر الى اوضاع الفوضى التي تسود الالمان في جنوب فرنسا ، فاني آمل ان تتصل قواتنا في الشمال والجنوب في وقت اسرع مما كان منتظرا في السابق .

وسنرى ان هذين الاملين لم يتحققا لان الجيش الذي انزلناه في الريفييرا والذي كلفنا انزاله هذا الثمن الباهظ بالنسبة الى عملياتنا في ايطاليا ، وصل متأخرا للغاية ، وبذلك لم يستطع ان يقدم العون لصراع ايزنهاور الرئيسي في الشمال ، وفي الوقت نفسه مني جيش اليكساندر بالفشل بعد ان كاد ينجح ، مما سبب تأخير تحرير ايطاليا ثمانية اشهر ، كما حيل بيننا وبين زحف جناحنا الايمن في اتجاه فيينا ، وباستثناء ما حققناه في اليونان ، فان قدرتنا العسكرية على تحرير جنوب اوروبا الشرقي قد ضاعت وتلاشت .

ولما كان كيسلرنج قد تلقى نجدات جديدة حتى اصبح عدد القوات الالمانية العاملة تحت امرته ثمانية وعشرين فرقة كما تمكن من تجميع فرقتين جاء بهما من قطاعين هادئين وشرع في هجمات مضادة ، اذا اضيفت الى مشكلات تموينا فوق الممرات الجبلية ووعورة الارض ، فقد اثمرت في وقف زحفنا ، الا انه على الرغم من الخسائر الفادحة التي منينا بها فقد تحقق لنا بعدها الظفر ، وبدأ المستقبل زاهيا مشرقا ، لان جيوش الحلفاء في ايطاليا ظلت تواصل الضغط لكي تحول بين العدو وبين وصول المساعدات اليه ، ولكنه بعد منتصف شهر تشرين الثاني استحال علينا القيام بأي هجوم رئيسي ، ولم تستطع جيوشنا تحقيق النصر الذي تستحقه والذي كادت تحصل عليه في الخريف الا عندما حل الربيع الجديد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انتصارات الروس

كان النضال الروسي يفوق في نطاقه الى حد كبير جميع العمليات العسكرية التي سردتها في الفصول السابقة ، ولما كان العدو قد مني بنكسات متتالية في مطلع شتاء عام ١٩٤٣ ، فقد صمموا على الا يتيحوا له فرصة للاستراحة ، حتى انهم في منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٤ شنوا عليه هجوما في جبهة طولها مائة وعشرون ميلا تمتد من بحيرة ايلمان الى لينينغراد وتمكنوا من اختراق الخطوط الدفاعية التي اقامها العدو امام المدينة والى الجنوب من هذه الجبهة ، كما انهم صدوه في نهاية شهر شباط الى شواطىء بحيرة بيبوس ، بعد ان تحررت لينينغراد نهائيا ، وقد اصبح الروس بهذا الانتصار يقفون على حدود دول البلطيق كما ارغموا الالمان ايضا على التراجع من غرب كييف الى حدود بولندا ، كما واصلوا طيلة شهر آذار ضغطهم على طول الجبهة ، حتى ارغموا العدو على التراجع من جومر الى البحر الاسود ، ولم يتوقف هجوم الروس حتى تم دحر الالمان وتحطيم الجيش السابع عشر واسترداد ساستبول .

وقد اثارت هذه الانتصارات العظيمة قضايا ذات اهمية بالغة وخصوصا بعد ان اطل الجيش الاحمر الآن على اواسط اوروبا وشرقها كما اثارت كثيرا من التساؤلات ، عن مصير بولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليونان ايضا التي ضحينا من اجلها بالكثير وعملنا المستحيل لمساعدتها وهل ستدخل تركيا الحرب الى جانبنا ؟ وهل ستحاط يوغسلافيا بالفيضان الروسي ؟ ولما كانت اوروبا قد بدات تتطور بعد الحرب ، فقد أصبح من الضروري اعداد ترتيب سياسي سريع بالنسبة لها مع السوفييت .

لذلك فقد قام السفير السوفييتي في لندن بزيارة وزارة الخارجية في الثامن عشر من ايار للبحث في الاقتراح الذي كان المستر ايدن قدمه للسوفييت وذكر فيه أن في وسع الاتحاد السوفييتي ان يعتبر المشكلات الرومانية مؤقتا من القضايا الخاصة به ، على ان يترك مشكلات اليونان لنا لنعالجها ، ولما كان الروس على استعداد لقبول هذا الاقتراح ، فقد ارادوا ان يعرفوا اذا كنا قد استشرنا الولايات المتحدة بخصوصه فاذا اتضح اننا استشرناها فليس لديهم مانع من الموافقة عليه ، ولذلك نقد بعثت في الحادي والثلاثين من ايار ببرقية الى المستر روزفلت قلت فيها :

« آمل في ان تتمكن من ان تمنح هذا الاقتراح بركتك : ونحن بالطبع لا نريد تقسيم البلقان الى مناطق نفوذ ، وعند الموافقة عليه ، يجب ان توضح تماما ، انه لا ينطبق الا على اوضاع الحرب ، والا يؤثر على حقوق الدول العظمى الثلاث ومسئولياتها ، التي ستمارسها فرادى في اية تسوية سلمية بالنسبة الى اوروبا كلها ، كما أن هذا الترتيب لا يؤثر

على كل حال ، على التعاون الراهن القائم بيننا وبينكم ، في تخطيط سياسة الحلفاء تجاه هذه الدول وتنفيذها ، ونحن نشعر ان هذا الترتيب المقترح ، سيكون وسيلة نافعة في الحيلولة دون اي خلاف في السياسة بيننا وبينهم في البلقان » .

وقد أثار هذا الاقتراح اعصاب المستر هل وزير الخارجية الامريكية لانه كان يوافق على ايجاد مناطق نفوذ لاي كان ولا حتى قبول فكرتها ، ولذلك فقد أبرق الرئيس الي في الحادي عشر من حزيران يقول :

« نحن نقر باختصار ، بأن من حق الحكومة العسكرية المسئولة في اي ارض أن تتخذ القرارات التي تتطلبها التطورات العسكرية ، ولكننا على يقين من ان مثل هذا الاتفاق المقترح ، سيقوي الميل الطبيعي لتوسيع هذه القرارات لتشمل آفاقا اخرى غير عسكرية ، كما انه سيؤدي حتما الى اشتداد الخلاف بينكم وبين الروس، بسبب تقسيم منطقة البلقان الى مناطق نفوذ ، على الرغم من التصميم المعلن لان يكون هذا في نطاق المسائل العسكرية فقط ، كما اننا نعتقد ان المحاولات يجب أن تبذل عوضا عن ذلك ، لاقامة جهاز استشاري يتولى ازالة سوء التفاهم ، والحد من الاتجاه الى تنمية مناطق النفوذ الخاصة » .

وقد ازعجتني هذه الرسالة، فبعثت الى الرئيس في اليوم نفسه اقول : « ان العمل سيقف تماما اذا تحتم على كل انسان أن يستشير الآخر في كل موضوع أو اجراء قبل اتخاذه ، فالاحداث في البلقان ستسبق في سرعتها دائما الاوضاع المتغيرة في المنطقة ، ويجب أن يكون هناك من يملك سلطة التخطيط والعمل ، اما قيام لجنة استشارية فسيكون بمثابة عائق ، نتخطاه دائما في حالات الطوارىء ، عن طريق الاتصال المباشر بيني وبينك او بين كل منا وبين ستالين .

ولننظر الآن الى ما وقع في عيد الفصح ، لقد تمكنا من السيطرة على الوضع بالنسبة لتمرد القوات اليونانية طبقا لآرائك الشخصية ، لانني كنت قادرا على اصدار الاوامر الدائمة الى القواد العسكريين الذين كانوا في البداية يؤيدون فكرة الصلح والتفاهم ، ويعارضون في استخدام القوة ، او حتى في مجرد التهديد باستخدامها ، وقد تحسن الوضع في اليونان تحسنا كبيرا ، كما ان الروس على استعداد للسماح لنا بتولي الشئون اليونانية ، وهذا يعني ان في امكان جيوش اليونان الوطنية نفسها ان تسيطر على جبهة التحرير الوطنية وعلى كل ما تبينته من النوايا السيئة ، واذا كان من المحتم علينا في مثل هذه المصاعب ان نستشير دولا اخرى ، وان يجري تبادل البرقيات بشكل ثلاثي او رباعي ، فان النتيجة الوحيدة لمثل هذه الحالة ان تسود حالة الفوضى والعجز .

ويبدو لي أنه بالنظر الى اعتزام الروس القيام بغزو رومانيا بقوات كبيرة والى رغبتهم في مساعدتها على استعادة جزء من ترانسلفانيا من المجر ، على شرط ان يبدي الرومانيون اخلاصا لمجهودها ، وهو ما قد

يفعلونه ، فان من الخير أن نحذو حذو السوفييت ، ولا سيما ، انه لا يوجد لنا او لكم اية قوات هناك ، وان في وسعهم تحقيق ما يريدون هناك على اي حال ، ولهذا فاني اقترح بأن توافق على تجربة الترتيبات التي حددتها في رسالتي في الحادي والثلاثين من ايار لمدة ثلاثة اشهر ، على ان تعود الدول العظمى الثلاث الى اعادة النظر فيها بعد انتهاء هذه المدة » .

وقد وافق الرئيس على هذا الاقتراح في الثالث عشر من حزيران ، ولكنه أضاف يقول ، انه يجب علينا ان نحرص اشد الحرص على ان نوضح بكل جلاء اننا لا نقيم في عملنا هذا مناطق للنفوذ ، وقد وافقته على رأيه وبعثت اليه بالرد التالي :

« انني شاكر لكم اجزل الشكر ، وقد طلبت الى وزير الخارجية ان ينقل هذه المعلومات الى مولوتوف ، وان يوضح له ان السبب الذي حملنا على تحديد فترة الاشهر الثلاثة ، هو رغبتنا في الا يكون هناك اي مجال للتفكير بأننا نعني اقامة مناطق نفوذ لما بعد الحرب » .

وقد أبلغت هذا لوزارة الحرب ، واتفق على ان يقوم وزير الخارجية بابلاغ الحكومة السوفييتية موافقتنا على هذا الاقتسام العام للمسئولية ، وتم تنفيذ ذلك في التاسع عشر من حزيران ، لكن الرئيس لم يكن مرتاحا للطريقة التي عملنا بموجبها ، فقد تلقيت منه رسالة يقول فيها :

« لقد أزعجنا ، ان يقوم رجالك بالتحدث الينا في هذا الموضوع بعد ان تم الاتفاق عليه مع الروس » .

ولما كانت رسالته هذه تفيض بالالم وفيها معنى التأنيب فقد ارسلت اليه الرد التالي :

« ان روسيا هي الدولة الوحيدة التي تستطيع ان تفعل شيئا في رومانيا كما يقع العبء اليوناني من الناحية الاخرى على كاهلنا ، وقد حملنا هذا العبء منذ ان خسرنا نحوا من اربعين الف رجل في محاولة غير مجدية لمساعدة اليونان في عام ١٩٤١ ، بالاضافة الى أنكم قد سمحتم لنا بأن نعمل ما نريد مع تركيا ، ومع ذلك فقد كنا نستشيركم دائما في القضايا السياسية ، واعتقد اننا كنا على اتفاق بصدد الاتجاه الذي نسير فيه ، وقد يكون من السهل على ان انزلق من ناحية المبادىء العامة الى اليسار ، وهو ما غدا مألوفا الآن في السياسة الخارجية ، وان أسمح للامور بأن تسوء ، فيجد ملك اليونان نفسه مضطرا للنزول عن العرش وتفرض جبهة التحرير الوطني حكما من الارهاب في البلاد ، مرغمة القرويين وغيرهم من ابناء الطبقات الاخرى على تأليف أفواج للسلامة والامن تحت اشراف الالمان لمنع البلاد من الوقوع في الفوضى . والطريقة الوحيدة التي تمكنني من الحيلولة دون ذلك هي اقناع الروس بان يوقفوا دعمهم لجبهة التحرير ودفعهم للامام بكل ما لديهم من قوة . كما قمت ايضا بالاجراءات اللازمة لاحقق وحدة يوغسلافيا ، بالجمع بين قوات تيتو وقوات الصربيين مع جميع من يؤيد الحكومة الملكية التي اعترفنا بها معا ، وكنا نطلعك في كل مرحلة على الطريقة التي حملنا بها هذه

الاعباء الثقيلة التي نتحملها الآن وحدنا ، وليس أسهل هنا أيضا من القذف بالملك وحكومته الى الذئاب تنهشهما ، ومن السماح للحرب الاهلية بأن تندلع في البلاد ، مما يثلج صدور الالمان ، وانني اجاهد لاستخلص النظام من الفوضى في كل من البلدين ، ولاركز كل الجهود على مقارعة العدو المشترك ، كما انني أواصل اطلاعك على كل ما أعمله ، وكل أملي في ان انال ثقتك ومساعدتك في الميادين كلها » .

وجاء هذا الرد من الرئيس روزفلت لكي يضع حدا لهذا الجدل بين الاصدقاء :

« يبدو لي ان كلا منا قام متهاونا بعمل من جانب واحد في اتجاه نتفق معا الآن على انه نافع ومفيد ، ومن المهم ان نكون متفقين دائما في جميع القضايا التي تتعلق بمجهودنا الحربي » .

وقد رددت عليه اقول : « في وسعك ان تثق في انني سأتطلع دائما الى الاتفاق معك حول جميع الامور قبل العمل وفي اثناء القيام به وبعده » .

ومع ذلك فقد ظلت المتاعب تترى ، فعندما ادرك ستالين الشكوك الامريكية في الموقف ، أصر على استشارتهم مباشرة ، ولم نتمكن في النهاية من الوصول الى اتفاق اخير حول تقسيم المسئوليات في البلقان ، كما بعث الروس في أوائل شهر آب بطريق التهريب بعثة من ايطاليا الى جيش التحرير الوطني (ايلاس) المنبثق من جبهة التحرير الوطني والذي يعمل في شمالي اليونان ، وعلى ضوء تردد الحكومة الامريكية وسوء نية الروس ، تخلينا عن محاولتنا للوصول الى تفاهم كلي ، الى أن التقيت بستالين في موسكو ، بعد مضي شهرين ، وتمت في اثنائها امور كثيرة في الجبهة الشرقية .

ففي فنلندا اقتحمت جيوش سوفييتية خط مانرهايم وأعادت فتح السكة الحديدية بين لينينغراد ومورمانسك ، وأجبروا الفنلنديين قبل نهاية شهر آب على طلب الهدنة ، وبدأ هجومهم الرئيسي على الجبهة الالمانية في الثالث والعشرين من حزيران ، ولم تحل نهاية تموز حتى كانت الجيوش الروسية قد وصلت الى نهر النيمن بين جوردنو وكوفينو ، أما الخسائر الالمانية فكانت ماحقة ، اذ زال من الوجود نحو من خمس وعشرين فرقة المانية ، كما تم تطويق عدد مماثل في كورلاند ، وفي السابع عشر من تموز ، مر في شوارع موسكو سبعة وخمسون الف اسير الماني الى جهة لا يعلمها الا الله .

كما انه وقع في الثالث والعشرين من آب انقلاب عسكري في بوخارست أعده الملك الشاب ميخائيل وقد اخلصت الجيوش الرومانية أشد الاخلاص لملكها ، اذ لم تمض ثلاثة أيام حتى كان قد تم نزع سلاح القوات الالمانية التي لم تنسحب في اتجاه الحدود الشمالية وجلا الالمان عن بوخارست في الأول من ايلول ، ولما دخلت الجيوش الروسية رومانيا اكتسحت البلاد بأكملها واستسلمت الحكومة الرومانية ، وكذلك تم

اخضاع بلغاريا ، كما انتشرت الجيوش الروسية غربا ، فزحفت من وادي الدانوب مخترقة ترانسلفانيا وجبال الالب في اتجاه الحدود المجرية على حين كان جناحها الايسر قد اصطف على حدود يوغسلافيا للزحف غربا في اتجاه فيينا .

أما في بولندا فقد وقعت مأساة تتطلب منها شرحا أوفى : ففي نهاية شهر تموز ، وقفت الجيوش الروسية امام نهر الفستولا ، وكانت جميع الدلائل تشير الى انه لن يمضي وقت طويل حتى تكون بولندا بأسرها في ايدي الروس ، وتحتم على قادة جيش المقاومة السرية البولندية وهم الذين يدينون بالولاء لحكومة بولندا التي في لندن ، ان يقرروا موعد القيام بثورة عامة ضد الالمان للاسراع في تحرير بلادهم ، وقد خولت حكومة لندن القائد العام الجنرال بور ــ كوموريسكي تحديد موعد الثورة واعلانها ، وبدات الفرصة مواتية فعلا ، عندما حملت الانباء في العشرين من تموز قصة المؤامرة على هتلر ، وقد تبعها بسرعة اختراق الحلفاء لجبهة نورماندیا ، كما عبر الروس نهر الفستولا في اليوم نفسه واندفعت دورياتهم الامامية في اتجاه وارسو ، ولم يبق اي شك في ان الالمان باتوا على وشك الانهيار العام .

ولذلك فقد قرر الجنرال بور تبعا لذلك القيام بثورة عامة وتحرير العاصمة وكان لديه اربعون الف رجل ، وتألفت في الوقت نفسه لجنة شيوعية لتحرير الوطن في شرقي بولندا ، وفي التاسع والعشرين من شهر تموز ، وجه الحزب الشيوعي البولندي نداء من اذاعة موسكو الى أهالي وارسو ، يطلب اليهم ان يشتبكوا مع الالمان الآن ، وكانت الدبابات الروسية قد اخترقت خطوط الالمان الدفاعية الى الشرق من العاصمة ، كما اصبحت الجيوش الروسية على بعد عشرة اميال من المدينة ، فلم يمض اكثر من خمس عشرة دقيقة على نشوب الثورة حتى كانت المدينة كلها قد اشتبكت في معركة ضارية ، وهكذا بدات معركة المدينة .

ولما وصلت الانباء الى لندن في اليوم التالي ، اخذنا ننتظر بلهفة وقلق المزيد منها ، وقد سكتت الاذاعة السوفييتية وتوقف النشاط الجوي الروسي عندما شرع الالمان في الرابع من آب يهجمون من المراكز المنيعة داخل العاصمة ومن ضواحيها وأصبح الثائرون يواجهون الآن خمس فرق المانية حشدت في المنطقة بصورة عاجلة ، كما جيء بفرقة هيرمان جورنج ايضا من ايطاليا وبفرقتين من رجال الحرس فيما بعد .

فأبرقت الى ستالين اقول :

« تلبية لنداء عاجل من الجيش السري البولندي ، قررنا ان ننزل ــ اذا ساعدتنا الاحوال الجوية ــ نحو ستين طنا من المعدات والذخائر في الاحياء الغربية الجنوبية من وارسو ، حيث يقال : ان الثورة البولندية تشتبك مع الالمان في قتال عنيف ، وهم يطلبون في الوقت نفسه المساعدة الروسية التي تبدو قريبة منهم .

وقد تلقيت من ستالين ردا جافا يقول فيه :

« تسلمت رسالتك ، وأعتقد ان المعلومات التي نقلها اليك البولنديون مبالغ فيها كل المبالغة ، ولا توحي بالثقة مطلقا ، لانه ليس لديهم مدافع ولا دبابات ولا طائرات ، ولا أستطيع ان اتصور كيف يمكن لهذه الفصائل ان تستولي على وارسو التي حشد الالمان للدفاع عنها اربع فرق من فرق الدبابات بينها فرقة هيرمان جورنج ؟ »

هذا وقد استدعى فيشنسكي ليلة السادس عشر من آب سفير الولايات المتحدة في موسكو لزيارته ، وأوضح له ، انه رغبة منه في تجنب أي احتمال لسوء الفهم ، يود ان يتلو على مسامعه البيان المذهل التالي :

« لا تستطيع الحكومة السوفييتية بالطبع ان تعترض على قيام الطائرات الانجليزية او الامريكية بالقاء السلاح على مقاطعة وارسو اذ ان هذا الامر يهم الانجليز والامريكيين وحدهم ، ولكن الحكومة السوفييتية تعارض مصرة في هبوط الطائرات الامريكية او الانجليزية بعد القائها الاسلحة على وارسو في الاراضي السوفييتية وذلك لان الحكومة السوفييتية لا تريد ان ترتبط بصورة مباشرة او غير مباشرة « بمغامرة وارسو » .

وبعد مضي اربعة ايام بعثت هذا النداء المشترك بالاتفاق مع الرئيس روزفلت الى ستالين :

« اننا نفكر في الرأي العام العالمي ، وما سيلحق به من صدمة ، اذا تخلينا عمليا عن المكافحين ضد النازية في وارسو ، وأعتقد ان من واجبنا نحن الثلاثة ان نبذل كل ما في وسعنا لانقاذ اكبر عدد ممكن من ارواح الوطنيين فيها ونحن نأمل انك ستلقى المساعدات والذخائر من الجو على الوطنيين البولنديين في وارسو او انك ستوافق على مساعدة طائراتنا في اداء هذا العمل بكل الطرق المكنة ولا ريب في ان عامل الوقت مهم للغاية .

وكان هذا هو الرد الذي تلقيناه منه :

« تلقيت رسالتك التي اشتركت فيها مع المستر روزفلت بصدد وارسو وواجب ان اوضح آرائي تمام الايضاح :

ستعرف هذه الحقيقة ان عاجلا او آجلا ، عن تلك المجموعة من المجرمين الذين شرعوا في مغامرة وارسو ، رغبة منهم في اغتصاب السلطة ، وقد استغل هؤلاء المجرمون سذاجة اهل وارسو وحسن نواياهم ، فقذفوا بالعزل من أهلها امام دبابات الالمان ومدافعهم وطائراتهم ، وقد نشأ وضع لا يخدم البولنديين لتحرير وارسو ، بل يخدم الهتلريين الذين يقتلون اهل وارسو بصورة وحشية .

وكان هذا الوضع الناشىء ضارا بالجيش الاحمر من الناحية العسكرية بقدر ما هو ضار بالبولنديين انفسهم ، لانه وجه اهتمام

الالمان بشكل متزايد نحو وارسو ، وقد واجهت القوات السوفييتية هجمات المانية مضادة وهي تقوم ببذل كل ما في وسعها لتحطيم هذه الهجمات التي يقوم بها الهتلريون ، وليس ثمة شك في ان الجيش الاحمر سيحطم الالمان ويحرر المدينة لاهلها ، وسيكون هذا العمل خير مساعدة فعالة يمكن للجيش الاحمر ان يقدمها الى البولنديين » .

وكانت معركة وارسو قد وصلت في هذه الاثناء الى ذروتها حيث صب رجال الدبابات جام غضبهم وسخطهم ومرارة خيبتهم على الابنية المجاورة لهم ، فأشعلوا فيها النيران كما اشعلوا النار في جثث الموتى التي تملأ الشوارع ، كما دفن بعضهم في حدائق البيوت الخلفية والساحات العامة ، وصارت المواد الغذائية قليلة ولكن المدينة لم تصل الى حد المجاعة ، وقد جف الماء في الانابيب ، وضاعف اسقاط المؤن من الجو من رفع الروح المعنوية لدى الاهالي وشد من عزائمهم .

وكنت آمل أن يساعدنا الامريكيون في اتخاذ عمل جذري ، ولكن المستر روزفلت عارض في ذلك .

ولما كانت قضية وارسو من الاهمية بمكان عظيم فقد اجتمع مجلس وزرائنا ليلة الرابع من ايلول ، لبحثها ، وكنت أود أن أقول للروس : « اننا نعتزم ارسال طائراتنا للهبوط في اراضيكم ، بعد القاء حمولتها في وارسو ، فاذا أسأتم معاملتها فسنوقف ارسال قوافلنا اليكم منذ هذه اللحظة » .

ولا ريب اننا لو كنا اتخذنا هذه الخطوة لكانت مجدية ، فقد كنا نتعامل مع رجال في الكرملين تتحكم الارقام في اعمالهم دون عواطفهم وكان وقف القوافل عنهم في هذه اللحظة الحرجة من زحفهم العظيم كفيلا بأن يترك في عقولهم آثارا لا تقل عما تتركه اعتبارات الشرف والانسانية والايمان الكريم في الناس العاديين الآخرين ، ولهذا فقد بعثت وزارة الحرب بالبرقية التالية الى ستالين ، وكانت هذه هي الخطوة المثلى التي رأينا من الحكمة القيام بها .

« تود وزارة الحرب من الحكومة السوفييتية ان تعلم ان الرأي العام في هذه البلاد متأثر أعمق التأثر بالاحداث الجارية في وارسو ، وبالآلام المرعبة التي يتحملها البولنديون ، ومهما كانت الأخطاء التي ارتكبت في بداية الثورة في وارسو ، صحيحة او غير صحيحة ، فان شعب وارسو نفسه لا يمكن ان يعتبر مسئولا عن القرار الذي اتخذ ، ولا يستطيع شعبنا ان يفهم لماذا ضن بالمساعدة المادية من الخارج على البولنديين في وارسو واصبح الكل عندنا يعرفون ان مثل هذه المساعدة لا يمكن ارسالها لان حكومتكم ترفض السماح للطائرات الامريكية بالهبوط في المطارات التي في ايدي الروس ، واذا قدر للبولنديين في وارسو ان يسحقوا بعد هذا كله على ايدي الالمان ، وهو امر بات متوقعا خلال يومين او ثلاثة كما قيل لنا ، فان الهزة التي سيصاب بها الراي العام عندنا ستكون اكثر مما يحتمل ويطاق .

واحتراما منا للمارشال ستالين وللشعوب السوفييتية التي نود مخلصين ان نعمل معها في السنوات المقبلة ، تود وزارة الحرب مني

ان اوجه نداء آخر الى الحكومة السوفييتية لتقدم كل ما في وسعها من طاقة في هذا الصدد ، وان تؤمن هبوط الطائرات الامريكية في مطاراتكم تحقيقا لهذا الغرض .

ولهذا فقد شرع الكرملين في تغيير اسلوبه في العاشر من ايلول كما بدأت قذائف المدفعية السوفييتية تتساقط على الضواحي الشرقية من وارسو ، وشقت القوات البولندية الشيوعية بأمر من الروس طريقها الى حدود العاصمة ، واخذت الطائرات السوفييتية تلقي المؤن على العاصمة ، ولكن معظم المظلات لم تتفتح فتحطمت الصناديق التي بها المؤن واخذت المجاعة تسيطر على المدينة .

وقد ادت المحاولات التي بذلتها مع الامريكيين للحصول على مساعدتهم دورها ، فحلقت مائة واربع قاذفات ثقيلة في الثامن عشر من ايلول فوق العاصمة ، والقت فوقها المؤن ولكن النجدة جاءت متأخرة ، وجاءني ميكولاجيك في الثاني من تشرين الاول ليقول لي : ان القوات البولندية في وارسو على وشك الاستسلام للالمان . والتقطنا في لندن آخر اذاعة صدرت عن المدينة الباسلة ونصها الآتي :

« انها الحقيقة البشعة ، لقد عوملنا أسوأ مما عومل به اتباع هتلر ، عوملنا أسوأ من ايطاليا ورومانيا وفنلندا ، واننا لنبتهل الى الله العادل القدير ، ان ينزل عقابه بأولئك الذين عرضوا الشعب البولندي لظلم مروع ، وأن يقتص من جميع المسئولين عما لحق بنا من عذاب » .

« مثل هذا الشعب الذي استطاع حشد هذا القدر من البطولات انما هو من الخالدين ، ولقد انتصر الذين قضوا نحبهم ، اما الذين عاشوا فسيمضون في القتال ، وسينتصرون ، وسيقيمون الدليل من جديد على أن بولندا ستظل حية طالما أن هناك بولنديين بين الاحياء .

ولا يمكن لانسان ان ينسى ابدا هذه الكلمات ، فلقد استمر الصراع في وارسو اكثر من ستين يوما ، وسقط في ميدان النضال اكثر من خمسة عشر الفا من أربعين ألفا من الرجال والنساء كانوا يؤلفون جيش المقاومة السرية وأصيب اكثر من مائتي الف من سكان العاصمة ، كما كلف اخماد الثورة الالمان اكثر من عشرة آلاف قتيل وسبعة آلاف مفقود وتسعة آلاف جريح .

وعندما دخل الروس المدينة بعد ثلاثة اشهر لم يجدوا شيئا غير الشوارع المحطمة والجثث التي لم تدفن ، وهكذا كان تحرير الروس لبولندا التي يحكمونها الآن ، ولكنها لن تكون نهاية القصة على كل حال .

التقدم في بورما

اما الموقف في جنوب شرقي آسيا فانه يختلف كل الاختلاف عن مثيله في اوروبا ، حيث كان اليابانيون يحتلون منذ اكثر من ثمانية عشر شهرا ، قوسا دفاعيا يضم المناطق الجديدة التي احتلوها ، وكان هذا القوس يمتد من الجبال التي تغطيها الغابات في شمالي بورما وغربيها ، حيث كانت قواتنا البريطانية والهندية تشتبك معها في قتال عنيف يمتد الى جزر انداماز وجزيرتي سومطره وجاوه . ومن هناك في انعطاف نحو الشرق الى غينيا الجديدة .

وقد اقام الامريكيون قواعد الطائرات البعيدة المدى في ارض الصين لمهاجمة اليابان نفسها ، كما كانت تقوم بتدمير مواصلات العدو البحرية بين اليابان وجزر الفيلبين ، وكذلك تقوم ايضا بنقل المعدات للقوات الصينية بطريق الجو فوق جبال هملايا وكانت هذه عملية شاقة ومتعبة جدا ، وقد طلب منا الامريكيون أن نعيد احتلال شمالي بورما بسرعة لتأمين الطريق الى الصين ، لاننا كنا نؤيد بقاء الصين في الحرب واستخدام اراضيها كقواعد جوية لطائرات الحلفاء ، ولكنني لم تستهوني فكرة القيام بحملة واسعة النطاق في شمالي بورما لان هذا المكان كان أسوأ ميدان لكي نقاتل فيه اليابانيين ، كما ان شق الطريق الذي طلبه الامريكيون ليصل ليدو بالصين كان عملا في ذاته منهكا ، وكان لا يمكن اتمامه الا بعد ان تكون الحاجة اليه قد انتهت وحتى لو تم اتمامه في الوقت المناسب لاستعماله في تزويد القوات الصينية بالمعدات والسلاح فان ذلك لا يغير شيئا من طاقتها ، ولا ريب في أن الحاجة الي تقوية القواعد الجوية الامريكية في الصين ستخف تدريجيا كلما تقدمت قوات الحلفاء في المحيط الهادي ومن ناحية استراليا ، واحتلت مطارات تقربها من اليابان .

وقد كنت افضل ابقاء اليابانيين في مركز الدفاع في بورما وان نخترق القوس الدفاعي العظيم من الجزر التي تؤلف الطرف الخارجي لجزر الهند الهولندية ، حيث كان في وسع جبهتنا الهندية في هذه الحالة ان تتقدم الى خليج البنغال لتشتبك مع العدو عن طريق استخدام العمليات البرمائية في كل مرحلة من هذه المراحل .

هذا وقد بدات الحملة في كانون الاول عام ١٩٤٣ عندما اجتاز الجنرال ستلويل بفرقتين صينيتين ، الحاجز المائي من ليدو الى الادغال التي تحت سلسلة الجبال الرئيسية ، وقد قاومته الفرقة اليابانية الثامنة عشرة المشهورة ولكنه واصل التقدم حتى توغل مسافة اربعين ميلا ، كما قام فيلق بريطاني في الجنوب بالزحف على طول ساحل

اراكان على خليج البنغال ، وتمكنا في الوقت نفسه بمساعدة الطائرات القاذفات اللهب من احراز شيء من التفوق الجوي ، ومع هذا فقد توقف زحفنا في شهر شباط فجأة .

اما اليابانيون فقد اخذوا يعدون خططهم منذ شهر تشرين الثاني ، حيث ضاعفوا قواتهم في بورما من خمس فرق الى ثمان ، كما فكروا في غزو شرقي الهند ، لرفع علم الثورة ضد البريطانيين ، وكانت الضربة الاولى التي فكروا فيها هي القيام بهجوم في اراكان نحو ميناء شيتا جونج ، لكي يرغمونا على سحب قواتنا الاحتياطية كما تمكنوا من وقف زحف فرقتنا الخامسة على الساحل ، ثم تسللوا بفرقة اخرى داخل الادغال حول فرقتنا السابعة التي كانت في الداخل ، وقد تمكنوا في بضعة ايام من تطويق هذه الفرقة ، كما هددوا بقطع طريق الساحل وراء فرقتنا الخامسة وظلت قواتنا تتلقى الغذاء والماء والعتاد بطريق الجو مدة اسبوعين .

ولم يكن هذا كل شيء ، فقد تلقينا اشارات واضحة تؤكد ان جبهتنا الوسطى في اجهال ستتعرض للهجوم ، وكنا بدورنا نستعد للزحف نحو نهر شندوين . واعدت قوات الشنديت المشهورة التي يتولى قيادتها الجنرال وينجيت لتوجيه ضرباتها الى خطوط تموين العدو ومواصلاته ، كما بدأنا في الخامس من اذار نقل لواءين آخرين من القوات البريطانية وجنود الجوركا (من الهنود) تعززها وحدة من الفدائيين الجويين الامريكيين تحملها ٢٥٠ طائرة ، وبعد ان اجتمعت هذه القوات في مكان واحد شرعت في هجومها فقطعت مواصلات السكة الحديدية الى الشمال من ايندأد ، ولكن ضربة العدو الرئيسية سقطت على جبهتنا كما توقعنا حيث شرعت ثلاث فرق يابانية في الهجوم في الثامن من شهر آذار ، كما سحب الجنرال سكوينز فيلقه الرابع المؤلف من ثلاث فرق ايضا الى هضبة امبهال ، ليخوض معركة في ارض يختارها هو ، وكرر اليابانيون الخطة التي اتبعوها نفسها في اراكان ، وركزوا خطتهم من اجل الاستيلاء على مستودعاتنا الضخمة في امبهال ، كما كان هدفهم ان يقطعوا الطريق الى ويمابور والسكك الحديدية ايضا ، وذلك لقطع طريق تموين قوات الجنرال ستلويل ، والجسر الامريكي الى الصين ، وقد اضطررنا لايقاف عملياتنا الحربية على ساحل اراكان ، كما سحبنا الفرقة الهندية لمساعدة الفرقة الخامسة في امبهال ، ونقلنا الفرقة السابعة الى ديمابور ، بقيادة الجنرال ستوبفورد .

ولما كانت بلدة كوهيما تسيطر على مفترق الطرق وعلى المضيق المؤدي الى وادي آسام ، فقد شن اليابانيون هجوما عنيفا عليها استخدموا فيه فرقة كاملة وكانت حاميتنا تتألف من فوج من قوة كنت الملكية ولواء من قوة نيبال ولواء من قوات آسام ، وايضا كل جندي يستطيع حمل السلاح من الناقهين في المستشفيات ، وقد اضطرت قواتنا الى التراجع الى منطقة صغيرة ثم حوصرت في تل واحد .

هذا وقد اشتد القتال حتى بلغ ذروته في ايار سنة ١٩٤٤

وقد حوصرت قواتنا البالغ عددها ستين الف جندي بريطاني وهندي بكل معداتهم الحديثة في دائرة في سهل امبهال وايقنت ان كل شيء يتوقف الآن على طائرات النقل ، فأبرقت الى مونتباتن في الثاني والعشرين من حزيران أقول :

« اعرب رؤساء اركان الحرب عن قلقهم بصدد الوضع في امبهال ، ولا سيما بالنسبة الى احتياطي الذخائر والمؤن ، ونحن نخولك ان تطلب ما تشاء من الطائرات اللازمة للمحافظة على الوضع ، سواء أكانت من الطائرات التي تنقل المعدات الى الصين ام من اي مصدر آخر ، ومن الواجب اعتبار طائرات هاملايا (السنام) احتياطيا دائما ، تسحب منه ما تحتاج اليه في كل وقت اذا اقتضت الضرورة ، حتى لا يبقى لك أي عذر اذا فشلت في مسعاك ، ويجب عليك ان تحافظ على مهام منصبك خصوصا في هذه المرحلة الحرجة الخطيرة » .

وقد جاء منه الرد التالي :

« كان الوضع في الاسبوع الثالث من شهر حزيران حرجا جدا ، الا انه بعد وصول الفرقة البريطانية الثانية والفرقة الهندية الخامسة امكننا ان نفتح الطريق الى القوة المحاصرة في امبهال ، وبدأت القوافل سيرها في الحال » .

وهكذا انتهت قصة غزو اليابان للهند ، بعد ان خسر اليابانيون اكثر من ثلاثة عشر الف قتيل ، واذا ما اضفنا اليهم اولئك الذين فقدوا ارواحهم بسبب اصاباتهم بجراح قاتلة ، او من جراء الجوع او المرض ، أمكن القول ان خسائرهم بلغت خمسة وسبعين الف رجل .

وعندما بلغت الرياح الموسمية ذروتها توقفت العمليات الحربية ، وفي اثناء ذلك ، تم تعزيز قوات الشنديت ، وكانت اربعة من الويتها الخمسة تشق طريقها شمالا بجوار السكة الحديدية في اندار ، لتحول بين وصول النجدات الى العدو ، ولتدمر كل ما تلقاه في طريقها من مستودعات الا انه على الرغم مما اوقعته هذه القوات من اضطراب في مؤخرة العدو ، فان القوات اليابانية لم تحاول ان تسحب جنودا من جبهة امبهال ، كما لم تسحب الا لواء واحدا من جبهة ستلويل ، وكذلك جاءت الفرقة الثالثة والخمسون من جبهة سيام ، ولكن محاولتهم منيت بالفشل ، حيث واصل ستلويل تقدمه المستمر فاحتل متكينا في الثالث من آب ، كما استمر العمل في تمهيد الطريق الطويلة الممتدة من شمالي آسام لايصالها بالطريق الاساسي الممتد من بورما الى الصين ، وبذلك تيسر انشاء خط انابيب للزيت طوله ٧٥٠ ميلا يمتد من كلكوتا .

وعلى الرغم من هذه الانتصارات ، فقد ظللت اواصل حث حلفائنا على وجوب الاستمرار في القتال في الاحراج الى اجل غير مسمى ، كما كنت راغبا في توجيه ضربة برمائية من خليج البنغال الى رانغون في قاعدة البر البورمي حتى اذا زحف الجيش الرابع عشر

آن ذاك من اواسط بورما امكننا فتح الطريق لهجوم نشنه على سومطر وهكذا مضينا ببطء نخوض اعظم معركة برية مع اليابان وقعت - الآن فاتصل الجيش الرابع عشر بالقوات الامريكية الصينية الزا- من الشمال وامكن في منتصف شهر كانون الاول ان نقيم راس جسر نهر شندوين استعدادا للزحف الرئيسي الى سهل بورما الاوسط الا انه اعترضتنا مشكلات ادارية هائلة .

فهناك في جنوب شرقي الصين ، بدأ اليابانيون الزحف عل شونكينج عاصمة تشيانج كاي شيك ، وأيضا على كونمينج وهي النقطة التي تسلم فيها المعدات التي تنقل بالطائرات الامريكي وقد اهتم الامريكيون اهتماما بالغا بهذا التطور ، فقد اكتسح ال مطاراتهم الامامية في الصين ، ولم تتمكن قوات شيانج كاي شيك الصمود واستنجدت بفرقتين صينيتين من القوات العاملة في شـ بورما ، كما طلبت الاستعانة بأسراب جوية امريكية جديدة خصو طائرات النقل .

وكانت هذه الانباء سيئة للغاية ، ولكن لم يكن لنا مناص من قبو ولو اننا كنا في حاجة ماسة الى هذه الطائرات لتموين الجيش الر الذي كان يقوده الجنرال سليم بطريق الجو ، لعدم صلاحية الط البرية في تموينه ، مما سبب تأخيرا خطيرا للحملة ، الا انه على الر من كل هذه العقبات فقد تمكن الجيش الرابع من الاندفاع من الجـ السهل الذي الى الشمال الغربي من مندلاي كما تمكن الجنرال سلـ الذي خلف ستلويل في نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٥ من اعادة فتح الطر الى الصين .

وفي الشهر التالي عندما بدأت المعارك الحاسمة ، واجه الامـ مونتباتن صعوبات استراتيجية ، حيث كانت الاوامر قد صدرت ا بأن يحرر بورما ثم يحتل الملايو ويفتح مضايق ملقا ، مع ادراكه لن يستطيع الحصول على قوات جديدة لتحقيق جميع هذه الاهداف وكانت مهمته الاولى ان يحتل السهل الاوسط في بورما ومد رانغون قبل حلول الرياح الموسمية في اوائل شهر ايار ، وكان في وسـ ان يختار بين عمليتين : اما ان يركز جميع قواته في معركة حاسـ في سهل مندلاي ثم يتقدم بسرعة الى الجنوب او يستخدم جزءا مـ في عملية برمائية ضد رانغون ، وكان كل شيء يتوقف على التمو الجوي الذي تقوم فيه الطائرات الامريكية بدور بارز .

ولما كانت فكرة مساعدة الصين لا تزال تحتل الجزء البارز السياسة الامريكية وكان من المحتمل ان تسحب طائرات اخرى الطائرات التي تعمل معه ، مما يدمر خططه كلها ، فقد قرر الق بعملية واحدة ضد قوات العدو الرئيسية الى الغرب من مندلاي ، يتقدم في الوقت نفسه في اتجاه رانغون ، وقد تمكنت احدى فر من احتلال راس جسر على الضفة المقابلة لنهر ايراوادي ، على اربعين ميلا الى الشمال من مندلاي ، كما عبرت الفرقة العشرون الثاني عشر من شباط النهر الى الجنوب والى الغرب من مندلاي

وسرعان ما انضمت اليها الفرقة البريطانية الثانية ، وعندئذ اقتنعت القيادة العليا اليابانية بأن المعركة الحاسمة اصبحت وشيكة الوقوع ، فسارعت الى ارسال النجدات الى الميدان التي اشتبكت مع قواتنا في قتال عنيف تمكن في أثنائه الجنرال سليم من عبور نهر ايراوادي بفرقته السابعة في الثالث عشر من شباط ، وتمكن من اقامة راس جسر فوق النهر ، وفي الحادي والعشرين من شباط انطلق لواءان مدرعان من الفرقة السابعة عشرة ولواء من الدبابات من راس الجسر فوصلت كلها الى ميكتيلا في الثامن والعشرين منه ، وكانت هذه البلدة هي المقر الاداري للجبهة اليابانية كلها ، كما كانت مركز مواصلاتهم ومطاراتهم ، وبعد قتال عنيف استغرق اسبوعا كاملا سقطت البلدة في ايدينا .

كما كان الجنرال سلطان يتحرك في الشمال ايضا فوصل في منتصف شهر آذار الى منتصف الطريق الممتد من الاشيو الى مندلاي ، ولكن شيانج كاي تشيك فرض التوقف على قوات الحلفاء ولم يسمح للفرق الصينية بمواصلة السير ، وأصر على سحبها ، واقترح على الجنرال سليم وقف زحفه بعد احتلال مندلاي ، وكان هذا ما خشيه مونتباتن حقا ، عندما أعد خطته قبل شهر ، وبالفعل فقد تمكن اليابانيون من نقل فرقتين من فرقهم الثلاث من هذه الجبهة ، وبعثوا بهما فورا الى جبهة الجيش الرابع عشر .

واستمرت معركتا مندلاي ومكيتيلا ناشبتين طوال شهر آذار ، ودخلت قواتنا مندلاي في التاسع من الشهر ، كما احتلت جبل مندلاي ولكن اليابانيين قاوموا بشدة ، وصمدت اسوار قلعة دوفرين امام الصواريخ العادية ، واخيرا تم اخراق هذه الاسوار بقنابل زنة الفي رطل ، وفي العشرين من آذار فر العدو من القلعة ، وواصلت بقية الفيلق الثالث والثلاثين طريقها الى ميكتيلا ، ولقيت مقاومة عنيفة ، لان القائد الياباني العام — على الرغم من تدخل الفرقة السابعة عشرة وراء جبهته — لم يبد اية علامة تشير الى رغبته في الانسحاب ، الا انه بعد ان يئس من المعركة بدأ ينسحب على الطريق الرئيسية الممتدة الى تونغو ورانغون مخترقا الجبال الى الشرق ، وكذلك توقف الجنرال سليم على طريق لاشيو ، كما انه لم يعد هناك اي امل في وصول الجيش الرابع عشر الى رانغون في اواسط نيسان .

ولما كان الجنرال سليم مصمما لا على الوصول الى رانغون فحسب ، بل ايضا على القاء شبكة مزدوجة في جنوبي بورما لاصطياد العدو فيها ، فقد اندفع الفيلق الثالث والثلاثون من ميكتيلا على طول نهر ايراوادي بسرعة فائقة فوصل الى بروم في الثاني من شهر ايار ، كما كان الفيلق الرابع يتقدم ايضا على الطريق والسكة الحديدية اللتين الى الشرق ، كما وصل رتل مدرع مع الالوية الآلية التابعة للفرقتين الخامسة والسابعة عشرة الى تونغو في الثاني والعشرين من نيسان ، على ان تكون قفزتها الثانية نحو بيغو لاحتلالها ، مما سيؤدي الى سد طريق النجاة على قوات العدو المرابطة في الطرف الاسفل من بورما ،

ولما وصلت قواتنا الامامية اليها في التاسع والعشرين من نيسان ، سقطت الامطار بشدة ، فتوقفت المطارات الامامية عن العمل ولم تستطع الدبابات والسيارات ان تتحرك على الطريق .

ولما كان اليوم الثاني من ايار هو موعد النزول البرمائي ايضا ، فقد ظلت قاذفات الحلفاء الثقيلة تقصف مدة يومين تحصينات العدو في مدخل نهر رانغون ، كما انزلت الطائرات في اليوم الاول من ايار فوجا من المظليين على خطوط العدو ، ووصلت ايضا سفن الفرقة السادسة والعشرين تؤيدها وحدات المجموعة الجوية ٢٣٤ في اليوم التالي الى مصب النهر .

ولما كان اليابانيون اعتقادا منهم باستحالة القيام بنزول برمائي في مثل هذا الوقت ، قد اخلوا مدينة رانغون واتجهوا الى الشمال للدفاع عن بيغو ، وحلقت طائراتنا عليها ووجدتها خالية من جيوش الاعداء ، انزلت اليها الملاحين بالطائرة فدخلوها دون مقاومة .

وفي الوقت نفسه سارعت القوات البرمائية الى الاتجاه شمالا ، نحو بيغو وبروم ، وهكذا انتهى الصراع الطويل الذي خاضه الجيش الرابع عشر ببسالة .

معركة خليج ليتي

اما حرب المحيطات ضد اليابان وهي التي تشتمل على سلسلة طويلة من مجموعات الجزر التي تمتد نحو الفي ميل فقد بلغت ذروتها ايضا ، كما وصلت قوة الحلفاء البحرية في المحيط الهادي الى مرتبة التفوق ، ولما كان العدو قد حصن عددا كبيرا من هذه الجزر وجهزها بأحدث المطارات بالاضافة الى قاعدة تروك البحرية الكبرى التي في الطرف الجنوبي من اليابان ، كما يلي هذه الدرع الواقية فرموزا والفلبين والصين وذلك لحماية طرق تموينه الامامية فقد اصبح من المتعذر علينا ان نقوم بغزو اليابان او قصفها من الجو ، قبل أن نحطم هذه الحلقة ، واحتلال جميع الجزر المنيعة المحصنة ، ولذلك فقد اتبع الامريكيون اسلوب الضفدعة في القفز ، حيث كانوا يحتلون الجزر الهامة منها .

ففي مستهل شهر حزيران سنة ١٩٤٤ اكمل الجنرال ماك ارثر احتلال غينيا الجديدة على حين واصل الاميرال نيميتز في الوسط الضغط على سلسلة الجزر المحصنة ، وكانا يهدفان من وراء ذلك الى جزر الفلبين والى تدمير الاسطول الياباني الذي كانت تأمل اليابان من ورائه احراز نصر بحري كبير ضد الحلفاء .

ورغبة منها في المحافظة على قوتها لهذه المغامرة الخطيرة والحيوية ، سحبت من قاعدة تروك القسم الاكبر من اسطولها ، وقسمته بين جزر الهند الشرقية وبين مياه اليابان نفسها ، الا انه في الوقت نفسه وجه الاميرال سبراونس ضربة بحاملات طائراته الى جزر الماريان ونزل في الخامس عشر من حزيران في جزيرة سيبان المنيعة ، مما اضطر الاسطول الياباني الى التدخل واتجه بسرعة نحو الشرق على مقربة من الفلبين ، كما هاجمت طائراته اسطول الحاملات الامريكية من جميع الاتجاهات حيث الحقت بالقوات الامريكية خسائر فادحة .

وفي العشرين من حزيران اشتبكت القوات البحرية الامريكية مع مثيلاتها من القوات اليابانية ، فأغرقت للعدو حاملة طائرات كما اغرقت الغواصات الامريكية حاملتين كبيرتين ايضا مما اضطر الاسطول الياباني الى الانسحاب، وبذلك اصبحت جزيرة سيبان تحت ايدينا كما تم ايضا اجتياح جزيرتي جوام وتينيان في اليوم التاسع من تموز .

وفي نهاية الشهر كانت كل جزر الماريان في قبضة الامريكيين ، وكان سقوط جزيرة سيبان ضربة صاعقة للقيادة العليا اليابانية مما ادى الى زوال حكومة توغو ، اذ كانت بها قلعة منيعة جدا وممتازة ولكنها بسقوطها في ايدي الامريكيين تكون قد فصلت المناطق الدفاعية

الجنوبية واصبح في وسع القاصفات الامريكية الثقيلة ان تستخدم هذه القاعدة لمهاجمة اليابان نفسها ، كما اصبحت الطرق مفتوحة امام البوارج الاخرى للاشتراك في الهجوم ، ولو ان الاسطول الياباني كان لا يزال قويا فانه اصبح عاجزا عن خوض اية معركة شديدة دون الاستعانة بطائرات ترتكز الى قواعد ثابتة .

كما كانت حالة الجيش الياباني افضل قليلا ، الا أنه مع كثرته العددية كان منتشرا في الصين وفي جنوب شرقي آسيا وفي مختلف الجزر النائية ، وقد اصدرت القيادة العليا أوامرها بالقتال امام فورموزا والفلبين حتى النهاية كما قررت ان تدفع بالاسطول كله الى ميدان المعركة في شهر آب ولتضمن عدم انقطاع الزيت الذي يصلها من الهند الشرقية ، ولما كانت خطة حلفائنا حتى الآن تستهدف غزو الجزء الجنوبي من الفلبين اي جزيرة ميندناو ، فقد بدأت طائرات هالس تهاجم المطارات اليابانية في الجزيرة ، وفي جزيرة لوزن الشمالية الكبيرة ، فحطمت عددا كبيرا من طائرات العدو ، واكتشفت في اثناء المعارك الجوية ان الحامية اليابانية في ليبتي ضعيفة الى حد لم تكن تتوقعه ، وكانت هذه الجزيرة بين جزيرتي ميندناو ولوزون اللتين كانتا هدفي النزول الامريكي فقرر الاميرال نيمتز غزو جزيرة ليبتي فورا ، وقد وافقه الجنرال ماك ارثر .

وقد بدأ الامريكيون حملتهم في اليوم العاشر من تشرين الاول بغارات على المطارات التي بين اليابان والفلبين ، فأنزلوا بالعدو خسائر فادحة جدا ، وصمد اسطول حاملات طائراتهم للهجمات اليابانية .

ولما كانت جزيرة ليبتي بين جزيرتي الفلبين الكبيرتين وهما لوزون في الشمال وميندناو في الجنوب وتعتبر أهم هذه الجزر ، فقد استهدف الامريكيون احتلال هذه الجزيرة ، على حين صمم اليابانيون على موقفهم وتدمير الاسطول الامريكي ، ولذلك اصدر القائد الياباني العام اوامره في السابع عشر من تشرين الاول الى اسطوله بالابحار الى مضيق سوريغار للدفاع عن هذه الجزيرة وغيرها من الجزر الاخرى .

وقد اشتبك هذا الاسطول مع الاسطول الامريكي في موقعة ضارية تغلب فيها الاسطول الامريكي عليه واحتل جزيرة ليبتي بعد ان خسر فيها ثلاث حاملات طائرات وثلاث مدمرات وغواصة ، في حين غرقت للعدو ثلاث بوارج واربع حاملات طائرات وعشرون سفينة حربية ، ولم يبق له من سلاح فعال الا القاذفات الانتحارية ، مما ساعد على هبوط اكثر من ربع مليون امريكي في جزيرة ليبتي في نهاية شهر تشرين الثاني .

وقد واصل الجنرال ماك ارثر زحفه الرئيسي فاحتل دون مقاومة جزيرة ميندورو التي لا تبعد اكثر من مائة ميل عن مانيلا .

وفي التاسع من كانون الثاني ١٩٤٥ أنزل اربع فرق جديدة في خليج لينغاين الى الشمال من مانيلا مفتتحة صفحة جديدة في معركة الفلبين ، وعندما اندفع الامريكيون نحو مانيلا اخذت المقاومة اليابانية

تشتد ولكن القوات الامريكية هبطت في مكانين آخرين علــى الساحل الغربي واحاطت بالمدينة بعد ان خسر العدو من القتلى ستة عشر ألف جندي ، الا ان الطائرات الانتحارية اليابانية ألحقت بنا خسائر فادحة حيث اغرقت ست عشرة باخرة امريكية في يوم واحد ، كما اصيب الطراد اوستراليا .

هذا وقــد تمكنت حاملات طائرات الاميرال هالسي في منتصف كانون الثاني من شق طريقها الى بحر الصين الجنوبي وتمكنت طائراتنا من الحاق أكبر الاضرار بهونغ كونغ .

وعلى الرغم من استمرار القتال في الجزر عدة اشهر اخرى تمكنت القوات الامريكية من السيطرة على بحار الصين الجنوبية ، وبذلك تم الاشراف على طرق تموين اليابان بالزيت والمواد الأولية الاخرى التي يعتمد عليها مجهودها الحربي .

تحرير أوروبا الغربية

في الاول من ايلول ، تسلم الجنرال ايزنهاور القيادة العليا للقوات البرية في شمالي فرنسا ، وهي مكونة من مجموعة الجيوش البريطانية الحادية والعشرين بقيادة الارشال مونتغمري ، ومجموعة الجيوش الاميركية الثانية عشرة بقيادة الجنرال برادلي ، وبذلك كان يسيطر على اكثر من سبع وثلاثين فرقة تضم اكثر من نصف مليون رجل ، وكانت قوات العدو تبلغ سبع عشرة فرقة .

وكانت خطة الجنرال ايزنهاور تستهدف الاندفاع في الاتجاه الشمالي الشرقي بأقصى ما لديه من قوات لاجتياح مراكز اطلاق القنابل الطائرة الالمانية واحتلال انتويرب ، لانه ما لم تحتل قوات الحلفاء هذا الميناء الضخم لم يكن في امكاننا القيام بهجوم عبر المجرى الادنى من نهر الراين والاندفاع الى سهول المانيا الشمالية ، ولذلك فقد اتجهت جيوش مونتغمري الى ميناء انتويرب فاحتلت مدينة اميان واسرت الفرقة المدرعة الحادية عشرة قائد الجيش الالماني السابع في اثناء تناوله الفطور في اميان ، وواصلت اندفاعها الى مدن العقود رغم اراس ودواي وليل ، قد اخلى الالمان بروكسل فدخلتها فرقة الحرس المدرع الثالث في اليوم الثالث من ايلول ، كما اتجهت فرقة الحرب بعد ذلك شرقا الى لوفين .

وقبل التاسع من ايلول كانت قواتنا قد تمكنت من تطهير منطقة خليج كاليه ، بما فيها من مراكز اطلاق القنابل الطائرة ، وكذلك موانىء القتال وهي ديبب وبولون ودنكرك ، الا ميناء الهافر حيث ظلت حاميته المؤلفة من احد عشر الف رجل تقاوم بشدة واصرار على الرغم من قصفها بمدافع بحرية من عيار خمس عشرة بوصة ومن اكثر من عشرة آلاف طن من القنابل من الجو ، حيث استسلمت في الثاني عشر من ايلول ، كما احتلت الفرقة المدرعة البولندية مدينة غنت التي لا تبعد اكثر من اربعين ميلا عن انتويرب .

وبقيت امامنا القفزة الاخيرة نحو ارنهيم ، حيث كان الطقس السيىء قد حال دون ايصال الامدادات والمؤن والذخائر بطريق الجو ، وكانت الفرقة الاولى التي نقلت بالطائرات بالجو في وضع يائس ، فقد عجزت عن الوصول الى الجسر ، واصبحت محصورة في قطاع ضيق على الضفة الشمالية ، متعرضة لهجمات عنيفة ، وقد بذلت كل محاولة ممكنة من الضفة الجنوبية لانقاذها ، ولكن العدو كان قويا للغاية ، وقامت بهذه المحاولات فرقة الحرب والفرقة الثالثة والاربعون ولواء المظليين البولنديين ، ولكنها جميعها منيت بالفشل ، حتى اضطر

الماريشال مونتغمري الى اصدار اوامره الى من تبقى من الفرقة بالعودة .

وبعد ذلك اتجهنا لتطهير مصب الشلوت وفتح ميناء انتويرب للملاحة حيث كانت فرقة مدرعة المانية ومدربة خير تدريب تتولى الدفاع عن جزيرة بريسكينز وقد اثبتت صلابتها ، كما دار قتال عنيف جدا لعبور قناة ليوبولد واحتلال جنوبي بيفيلاند ، وقد تمكنا في نهاية الشهر وبعد جهود عظيمة هائلة من الاستيلاء على البرزخ كله واسر نحو ١٢٥٠٠ الماني .

وهكذا اصبحت الطرق ممهدة للهجوم على وولشيرين ، ووجه السلاح الجوي الملكي في اوائل تشرين الاول الضربة الاولى حتى تمكنت طائراتنا من فتح ثغرة عظيمة وقد اشترك في هذه العملية ثلاث وحدات من فدائيي البحرية . كما اشترك الاسطول البحري ايضا في الهجوم .

وعلى الرغم من الاصابات القاسية التي وقعت برجال الاسطول فقد تمكن من مواصلة اطلاق مدافعه حتى تمكنت وحدات الفدائيين من النزول الى الساحل ، كما صبت مدافع الفيلق الكندي الثاني نيرانها القوية عبر الماء من شاطىء بريسكنيز على مدافع العدو القوية المثبتة في دعائم من الاسمنت المسلح ، وقد تمكنت وحدة الفدائيين الثامنة والاربعون من قتل واسر بقية رجال حامية الجزيرة ، ولم تمض بضعة ايام في قتال عنيف حتى كانت الجزيرة كلها في ايدينا .

كما واصل برادلي ، وضباطه المتحمسون ، اندفاعهم القوي على الجناح الايمن وراء باريس ، على رأس مجموعة الجيوش الامريكية الثانية عشرة ، فسقطت في ايديهم شارلروا ، ومونز ، ولييغ ، وتمكنوا خلال اسبوعين من تحرير اللكسمبورغ بأسرها وجنوبي بلجيكا ، ووصلوا في الثاني عشر من ايلول الى الحدود الالمانية ، كما اخترقوا خط سيغفريد على مقربة من آخن .

هذا وقد قامت القوات الجوية الاستراتيجية بدور بارز في زحف الحلفاء الى حدود فرنسا وبلجيكا ، ثم عادت في الخريف الى دورها الاساسي في قصف المانيا مستهدفة مستودعات البترول وأجهزة المواصلات كأهداف محدودة ، كما أرغمت هجماتنا المستمرة الالمان على توزيع مصانعهم في نقاط متباعدة وقد دفعت قواتنا الثمن غاليا لتحقيق هذا الهدف .

ولما كان الالمان يعتمدون على طرق مواصلاتهم الجيدة ، وقد تعطل اكثرها بسبب الغارات فقد تسبب ذلك في تكديس اكوام الفحم في المحطات لعدم وجود عربات الشحن التي تنقلها كما اضطر اكثر من الف قطار من قطارات الشحن للتوقف يوميا بسبب الافتقار الى الوقود ، وكذلك بدأت محطات القوة الكهربائية والمصانع ومعامل الغاز تغلق ابوابها وهبط انتاج البترول واحتياطيه هبوطا هائلا مما اثر لا على

حركة القوات العسكرية فحسب ، بل على النشاط الجوي وتدريب الطيارين .

وقد حذر سيبر في شهر آب الفوهرر من شل الصناعة الكيماوية كلية بسبب الافتقار الى المنتجات الثانوية من مصانع الزيت الكيماوي ، واخذ الوضع يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وقال سيبر : انه اذا استمر الوضع في التردي والتوقف في حركة القطارات فان النتيجة ستؤدي الى كارثة انتاجية ذات اهمية حاسمة .

ولهذا السبب فقد بدا هجومنا الجوي يحقق غاياته اخيرا .

الزيارة لموسكو

لما كنت قد اتفقت مع الرئيس في اوائل فصل الصيف علـى تقسيم المسؤوليات بالنسبة لمختلف البلاد المتأثرة بحركات الجيوش ، وكانت الاوضاع قد تحسنت خلال الاشهر الثلاثة التي اتفقنا على ان يستغرقها الاتفاق ، فانه متقدما حل فصل الخريف أخذ كل شيء في أوروبا الشرقية يسير في طريق الازمة والتوتر حيث كانت الجيوش السوفياتية تضغط بشدة علـى المسرح البلقاني ، واصبحت رومانيا وبلغاريا في قبضتها ، كما أصبح من الحتم ان تسقط بلغراد في قبضتها بعد قليل ، على حين كان هتلر يقاتل بعناد واصرار للاحتفاظ بالمجر .

ولما كان انتصار الحلفاء الاعظم قد اصبح قضية وقت ليس الا ، بعد البداية الناجحة لعملية « السيد الاكبر » فقد كان من الطبيعي أن تنمو اطماع الروس ، بعد ان رفعت الشيوعية رأسها وراء الجبهات الروسية المزمجرة ، لذلك شعرت بالحاجة الى اجتماع شخصي بستالين ، وان استغل العلاقات الطيبـة التـي تربطنا بالسوفيات للوصول معهم الى حلول مرضية للمشكلات الجديدة التي بدت بـين الشرق والغرب ، وعلى الاخص مصير بولندا التي دخلنا الحرب بسببها وكذلك مصير اليونان الذي كان يؤثر علينـا تأثيرا كبيرا ، وكانت حكومتاهما قد لجأتا الى لندن ، وكنا نشعر بمسؤولياتنا في اعادتهما الى بلديهما ، وكان هذا رغبة شعبيهما ايضا ، وكانت الولايات المتحدة تشاركنا في هذه المخاوف الى حد كبير ، ولو انها كانت غير مدركة لقوة النفوذ الشيوعي الذي تسرب قبـل زحف الجيوش الروسية القوية ثم سار في ركابها .

وبالاضافة الى هذه القضايا الخطيرة التي اثرت علـى اواسط أوروبا كلها ، فان مشكلات التنظيم العالمي ، بدأت تلقي بثقلها علـى تفكيرنا ، وكنا قد عقدنا من قبل مؤتمرا طويلا في « دومبارتون أوكس » على مقربة من واشنطن ، امتد بـين آب وتشرين الاول ، حيث وضعت الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفياتي والصين المشروع الذي اصبح الآن معروفا لحفظ سلام العالم وامنه .

وقد كشفت المناقشات عـن خلافات عدة بـين الدول الكبرى الثلاث ، لان وفد الكرملين لم يكن راغبا في الاشتراك في هيئة دولية تتغلب فيها اصوات مجموعة من الدول الصغرى على صوته ، وقـد كنت على ثقة من اننا نستطيع الوصول الى قرارات طيبة مـع روسيا طالما اننا لا نزال في حرب مع عدو مشترك .

وقد هبطنا في مطار موسكو في التاسع من تشرين الاول ، وعقدنا اول اجتماع في الكرملين ، شهده ستالين ومولوتوف وايدن ، وقررنا ان نوجه الدعوة الى رئيس وزراء بولندا ووزير خارجيتها المسيو رومير والى المسيو غرابسكي ، للحضور الى موسكو فورا ، كما أبرقت كذلك الى المسيو ميكولاجيك لكي يحضر للتباحث مع الحكومة السوفياتية ومعنا ومع لجنة لوبلين البولندية ، وأوضحت لهم أن رفضهم الحضور للاشتراك في المحادثات سعيني رفضا واضحا لنصيحتنا وسيؤدي من ثم الى تحللنا من كل مسؤولية تجاه حكومة بولندا التي في لندن .

وبينت لستالين ان الفرصة متاحة للعمل ، لكي تسوى جميع القضايا المتعلقة بالبلقان ، كما انه يجب علينا الا نقف متعارضين في اهدافنا تجاه قضايا بسيطة بالنسبة الى بريطانيا وروسيا ، وقلت له : ما قولكم في ان يكون لكم التفوق بنسبة تسعين في المائة في رومانيا وأن تكون لنا النسبة نفسها في اليونان وأن نكون متعادلين في يوغسلافيا ، وبينما كان المترجم ينقل ما قلته الى الروسية كتبت على ورقة صغيرة البيان التالي :

رومانيا :

روسيا	٩٠٪
الدول الاخرى	١٠٪

اليونان :

بريطانيا بالاتفاق مع الولايات المتحدة	٩٠٪
روسيا	١٠٪

يوغسلافيا :

روسيا	٥٠٪
بريطانيا وأمريكا	٥٠٪

المجـر :

روسيا	٥٠٪
بريطانيا وامريكا	٥٠٪

بلغاريـا :

روسيا	٧٥٪
الدول الاخرى	٢٥٪

ودفعت بالورقة الى ستالين ، فكتب عليها بقلمه بالموافقة ، واعادها الي ، وهكذا تم اقرار كل شيء في أسرع وقت ممكن ، امـا القضايا

الكبرى فقد ارجأناها لمائدة الصلح ، وهذا وقد بعثت الى الرئيس كتابا خاصا قلت فيه :

اري من الضرورة ان نحاول التفاهم بصدد البلقان ، لكي نتمكن من الحيلولة دون وقوع الحروب الاهلية في عدد من البلاد عندما اكون انا وانت الى جانب فريق من الناس ويكون ستالين الى الجانب الآخر ، وسأواصل اطلاعك على ما يجد في هذا الموضوع ، ولن يتقرر اي شيء باستثناء اتفاقات اولية تمهيدية بين بريطانيا وروسيا ، وانا واثق انك على هذا الاساس لن تعارض في ان نحاول الالتقاء فكريا مع الروس .

وبعد هذا الاجتماع استعرضت في مخيلتي علاقاتنا بروسيا بالنسبة لمناطق اوروبا الشرقية ، ورغبة مني في ايضاح افكاري ، أعددت كتابا الى ستالين في الموضوع مرفقة به مذكرة توضح تفسيراتنا للنسب المئوية التي اتفقنا عليها ولكنني لم ابعث بهذه الرسالة في النهاية ورأيت من الحكمة ان اترك الامور تسير وحدها .

غير انني قد بعثت الى اخواني في الوطن برسالة مؤرخة ١٢ من تشرين الاول عام ١٩٤٤ بينت فيها النسب المئوية التي اتفقنا عليها وتفصيل الاسباب التي دعت الى ذلك ، كما بينت انه سيعاد النظر فيها عندما تجتمع الدول العظمى بعد انتهاء الحرب على مائدة الهدنة او الصلح لاعداد تسوية اوروبية عامة .

ولما وصل البولنديون من لندن ، اجتمعنا في الثالث عشر من تشرين الاول في دار ضيافة الحكومة السوفياتية المعروفة باسم « سبيريدونوفكا » لنستمع الى ميكولاجيك وزملائه وهم يعرضون قضيتهم ، وكانت هذه المباحثات بمثابة تمهيد لاجتماع آخر يعقده الوفدان البريطاني والامريكي مع ممثلي لجنة لوبلين البولندية الشيوعية ، وقد الححت على ميكولاجيك ليدرس قضيتين :

الاولى — الاعتراف واقعيا بخط كرزون ، مع اجراء تبادل في السكان واجراء محادثات ودية مع لجنة لوبلين لتأمين السبل لقيام بولندا متحدة ، وقلت : ان الخير كل الخير في تحقيق الوحدة الآن في هذه المرحلة الختامية من الحرب ، وطلبت اليهم ان يدرسوا هذا الموضوع بعناية في هذه الليلة ، وأكدت لهم انني والمستر ايدن سنكون تحت تصرفهم ، ولكنه من الضروري ان يتصلوا بلجنة لوبلين وان يقبلوا بخط كرزون كترتيب عملي على ان يعاد النظر في الموضوع كله في مؤتمر الصلح .

وعندما اجتمعنا في الساعة العاشرة مساء من تلك الليلة الى ما يسمى باللجنة البولندية ، اتضح لنا فورا ، ان البولنديين اعضاء لجنة لوبلين ليسوا سوى مخالب في ايدي روسيا ، وقد حفظوا الدور الذي يجب عليهم ان يمثلوه ، فمثلا قد تحدث الينا المستر بيرون زعيم اللجنة بقوله : « اننا نطالب هنا باسم بولندا بأن نكون جزءا من روسيا ، وهذه هي ارادة الشعب البولندي » كما تحدث زعيم آخر من زعماء لجنة لوبلين هو المسيو اوسوبكا موروفسكي باستفاضة واسهاب وكان

حديثه باعثا على الالم وقد كون المستر ايدن أسوأ فكرة عــن الزعماء البولنديين الثلاثة ، ودام المؤتمر اكثر من ست ساعات ولكن النتائج كانت مخيبة للامل ، ومع مضي الايام لم يتحقق الا القليل في طريق تحسين العلاقات البولندية الروسية ، وكان بولنديو لندن على استعداد لقبول خط كرزون ، كخط للحدود بين روسيا وبولندا ، ولكن الروس أصروا على استعمال العبارة التالية « كأساس للحدود بــين روسيا وبولندا » واصر كل من الفريقين على رأيه .

وقد كان ستالين معارضا في محاولة تأليف حكومة بولندية موحدة قبل تسوية مشكلة الحدود اولا ، وقال : انه اذا سويت مسألة الحدود فانه سيكون على استعداد لقبول تولي جيكولاجيك رياسة الحكومة الجديدة . وقــد خيــل الــي أن صعوبات ليست بأقــل حــدة وعنادا ستنشب عند البحث في ادماج الحكومة البولندية في لجنة لوبلين ، لانهم كانوا يطمعون في تولي حكم بولندا ، ولذا فقد رأيت من الافضل طبقا للظروف الراهنة ، أن يعود كل من الوفدين البولنديين الى المكان الذي جاء منه ، وأحسست احساسا عميقا بالمسؤولية الملقاة على عاتقي وعاتق وزير الخارجية في محاولة وضع الاقتراحات لايجاد تسوية روسية ـ بولندية ، وانه مما لا ريب فيه ، أن فرضنا خط كرزون على بولندا سيثير علينا عاصفة من النقد .

ولما كان مــن الواضح ان الحكومة السوفياتية تعتزم مهاجمــة اليابان فور سقوط هتلر ، وان هذا الهجوم سيؤدي الى تقصير امد الكفاح كله ، فانه مما لا ريب فيه ان الترتيبات التي اتخذناها بصدد البلقان ، كانت خير ما يمكن الوصول اليه ، واذا مــا سارت هــذه الاجراءات جنبا الى جنب مع عمليات عسكرية ناجحة فستؤدي حتما الى انقاذ اليونان ، ولم يكن لدي شك ايضا في أن اتفاقنا على اتباع سياسة مشتركة بنسبة الخمسين في المائة في يوغسلافيا كان احسن حل لمتاعبنا بالنسبة الى سلوك تيتو ، الذي جاء بعد ان عاش ثلاثة اشهر او اربعة في حمايتنا الــى موسكو بصفة سرية ليشاورها دون اطلاعنا على المكان الذي سافر اليــه ، ولا سيما بعد ان وصلت قوات روسية وبلغارية تحت القيادة الروسية الــى بلاده لمساعدة جناحــه الشرقي .

ولم يكن ثمة شك في اننا ضمن دائرتنا الضيقة ، كنا نتحدث انا وستالين بمنتهى الحرية والود ، وبشكل لم يسبق له ان ساد العلاقات بين بلدينا ، الا أنني ازددت اقتناعا الآن بأنه ليس على كل حال الحاكم المطلق في بلاده ، وقد قلت لزملائي في الوطن : « ان هناك يدا خفية تلعب وراء ظهر الفارس » .

بــــاريس

عندما تم الاتفاق على ان خير موعد اقوم فيه بزيارة باريس هو يوم الهدنة في الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٤ ، واعلن رسميا انني ساقوم بهذه الزيارة في ذلك التاريخ ، فقد وصلتنا تقارير عدة تقول ان المتعاونين مع الالمان سيحاولون الاعتداء على حياتي ، وبناء على ذلك فقد اتخذت الاحتياطات الوقائية اللازمة ، وهبطت في العاشر من تشرين الثاني في مطار اورلي ، حيث كان ديغول في استقبالي على راس ثلة من حرس الشرف ، ثم ركبت معه عربة مكشوفة ، فاجتزنا ضواحي باريس الى ان وصلنا الى « الكي دورسيه » حيث حللت مع زوجتي وابنتي ماري ضيوفا رسميين على الدولة ، وكان كل شيء على احسن ما يرام .

وفي اليوم التالي غادرنا باريس الى بيزانسون ، لكي يطلعني الجنرال ديغول على الهجوم الواسع النطاق الذي تقرر ان يقوم به الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال دي لاتردي تاسيني ، وقد وصلته قبل بدء المعركة بوقت طويل ، وكان من المقرر ان نزور مركز مراقبة على الجبال ، ولكن بالنظر الى الثلوج الغزيرة حيث كانت الطرق غير صالحة للسير تقرر تأجيل العملية كلها .

وفي المساء توجهت بالقطار الى ريمز فوصلتها في الصباح حيث قمت بزيارة للجنرال ايزنهاور وعدت في المساء طائرا الى نورفهولت .

ولم يكن الوضع في الجبهة الغربية في هذه الآونة مناسبا تماما ، فلقد كان هناك الكثير من الاعداد للزحف نحو نهر الراين ، الا ان جيش ديسمبس الثاني في القطاع البريطاني تمكن من طرد العدو الى ما وراء نهر الموز ، اما في الجنوب فقد تلاقت قواتنا مع الجيش الامريكي التاسع واخذت تناضل زاحفة فوق ارض مشبعة بالمياه للوصول الى نهر الروهر ، وكان من المجازفة حتى الآن محاولة عبور هذا النهر ، لانه كان تحت سيطرة سدود ضخمة كانت لا تزال في قبضة العدو ، وكان في وسعه عن طريق فتح هذه السدود ان يعزل قاتنا التي على الضفة الاخرى ، وقد حاولت قاذفاتنا التي على الضفة الاخرى ، تحطيم هذه السدود ، واطلاق هذه المياه ولكن على الرغم من اصابتها اصابات مباشرة لم تفتح فيها اية فجات مما اضطر الجيش الامريكي الاول في الثالث عشر من كانون الاول الى تجديد زحفه للاستيلاء عليها .

وفي هذا الوقت كان الجنرال باتون قد عبر نهر الموزيل في الجنوب من الاردين وزحف شرقا متجها الى الحدود الالمانية ، واضطر جيشه الى التوقف امام حصون منيعة من خط سيجفريد ، كان يدافع

عنها العدو بعناد واصرار ، والى يمين هذا الخط ، تمكن جيش الجنرال وبغير السادس من شق طريقه نحو الفوج وثغرة بيلفورت ، كما تمكن الفرنسيون بعد معركة دامت اسبوعا ، من الاستيلاء على بيلفورت في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ، ووصلوا الى نهر الراين الى الشمال من بال ، وهنا التف الفرنسيون جنوبا حول الجناح الالماني في الفوج ، مما ارغم العدو على الانسحاب بسرعة ، ويسر دخول الحلفاء ستراسبورغ ، في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ، كما طهر الجيش الامريكي السابع في الاسابيع التالية جميع المناطق الشمالية من الالزاس ، واستدار حول ميمنة الجيش الثالث ، ثم عبر الحدود الالمانية واخترق خط سيغفريد على مقربة من ويسمبورغ .

ولكن هذه الانتصارات المهمة ، لم تكن لتخفي الحقيقة الواقعة وهي ان الحلفاء الغربيين منوا بانتكاسة استراتيجية حيث كنا قد سجلنا قبل البدء بهذه الحركة الواسعة وجهة نظرنا في ان من الخطأ الهجوم في الجبهة كلها ، وعلى الرغم من خيبة الامل التي منينا بها .

هذا وقد بعثت برسالة الى الرئيس في السادس من كانون الاول أعربت فيها عن مخاوفي وقلت فيها : « لقد حان الوقت لاعرض عليك الوضع الحربي الحرج والمخيب للآمال الذي يواجهنا في نهاية هذا العام ، فعلى الرغم من احرازنا بعض الانتصارات فقد ظلت هناك الحقيقة الماثلة ، وهي اننا فشلنا حتما في الوصول الى الاهداف الاستراتيجية التي حددناها لجيوشنا قبل اسابيع ، فلم نصل بعد الى الراين في طرفه الشمالي ، وهو أهم قطاع في الجبهة ، وسنقضي عدة اسابيع اخرى في معارك ضارية ، قبل ان نأمل الوصول الى الراين ، واقامة رؤوس جسورنا عليه وبعد ذلك علينا من جديد ان نستأنف الزحف داخل المانيا ، وما زال الالمان يحتفظون في ايطاليا بست وعشرين فرقة وهو ما يعادل ست عشرة فرقة كاملة التجهيز او نحوها على جبهتنا .

ولا ريب ان السبب الذي حال بين مجموعة الجيوش الخامسة عشرة وبين تسجيل نصر حاسم على قوات كيسلرنج ، هو التأخر الذي نجم عن اضعاف قواتنا لتأمين عملية « التنين » والنزول في جنوبي فرنسا ، ولهذا لم نستطع عبور جبال الابنين ، قبل ان تغمر المياه حوض نهر البو ، هكذا لم نستطع لا في الجبال ولا في السهول استخدام ما لدينا من تفوق في سلاح المدرعات .

وبالنظر الي عناد المقاومة الالمانية في جميع الجبهات ، لم نقم بسحب الفرق البريطانية الهندية الخمس من اوروبا لنمكن مونتباتن من الهجوم على رانغون في شهر آذار ، ولهذا فقد بدأ مونتباتن ــ وفقا لما اتفقنا عليه في كويبك ــ زحفا عاما في تجاه بورما من الشمال والغرب . واحرز تقدما مرضيا ، أما الآن وبالنسبة الى الزحف الياباني في الصين ، بما سينطوي عليه من تهديد بالقتال لكومينج ، وربما لشونكنج ، وللجنرال لسمو شيانج كاي شيك ، فقد تقرر سحب فرقتين صينيتين او اكثر للدفاع عن الصين ، ولو ان هذه الخطوة كانت صائبة فقد

كانت نتائجها مع ذلك بالغة الخطورة ، وهكذا انتكست جميع آرائي في توجيه ضربة ثقيلة عبر الادرياتيك أو عبر خليج البنغال .

وعلى الرغم من جهودنا المشتركة يقوم هنا سؤال محدود تماما : « ترى ماذا في وسعنا ان نفعل ؟ » ويزداد قلقي من انهيار جميع الآمال في قيام اجتماع مبكر بين ثلاثتنا ، ومن التأجيل الذي لا نهاية له في عقد اجتماع بيني وبينك ، يحضره اركان حربنا ، لنبحث في مشكلاتنا الانكليزية الامريكية ككل ، ولهذا أرى لزاما علي ان اقول : انـه اذا لـم يتيسر لك الحضور بنفسك قبل شهر شباط ، فلتبعث برؤساء اركان حربك الى هنا في اسرع وقت ممكن ليكونوا على اتصال وثيق بجيوشنا الرئيسية وبالجنرال ايزنهاور ، لكي يكون عملنا المشترك مركزا تمام التركيز بصورة مماثلة لما وقع في حملاتنا عام ١٩٤٤ » .

وقد بدا لي ان الرئيس روزفلت ، على الرغم من شعوره الودي لم يكن يشاطرني مخاوفي ، فقد بعث الي يقول : « لقد كنت اشعر دائما بأن احتلال المانيا حتى الضفة اليسرى من الراين سيكون دائما عملية شاقة كما انني لـم اشعر بالتفاؤل من سهولة اجتياز نهـر الراين بجيوشنا المشتركة ، ومع ذلك فاني اعتقد ان خططنا الاستراتيجية الواسعة والمتفق عليها ، تسير وفقا للخطة المرسومة ، واذا كان قد طرأ بعض التأخير في الوقت الحاضر ، فانني ارى ان الاستمرار في المعارك ونتائجها موكولان الى قادتنا في الميدان الذين يتمتعون بكامل ثقتي » .

وكان من المقدر ان نتحمل الآن ضربة ثقيلة ، فبعد ستة ايام من ارسال هذه البرقية تعرضنا لازمة خطيرة ، فقد كان القرار الذي اتخذناه بتوجيه ضربتنا من آخن الى الشمال وعبر الالزاس في الجنوب ، قد جعل جبهتنا الوسطى ضعيفة كل الضعف ، اذ كان الفيلق الامريكي الثامن الذي يضم اربع فرق يتولى حراسة جبهـة طولها خمسة وسبعون ميلا في الاردين ، وقد توقعنا الخطر ، وكانت النتائج خطيرة ، وكان من المحتمل ان تزداد في الخطورة ، فقد تمكن العدو بعد جهد رائع من حشد نحو سبعين فرقة في الجبهة الغربية بينها خمس عشرة فرقة مدرعة تشتمل على الجيش المدرج السادس الذي هو في منتهى القوة والاعداد .

كما ان الالمان ، كانوا قد اعدوا بالفعل خطة رئيسية ، فقد حشد رونشتادت جيشين مدرعين هما الجيش الخامس والسادس ومعهما الجيش السابع اي ما يقرب من عشر فرق مدرعة واربع عشرة فرقة مشاة .

وكان من المقرر ان تخترق هذه القوة الضخمة يقودها سلاحها المدرع جبهة الاردين الى نهر الموز ، وان تندفع شمالا وشمالا بغرب ، فتشطر خط الحلفاء شطرين وتحتل ميناء انتويرب وتقطع شريان الحياة على جيوشنا الشمالية ، وكان هتلر قـد وضع هذه الخطة ولم

يكن ليقبل اي تبديل فيها ، مما قد يقترحه قادته الذين يشكون في سلامتها ، وحشدت بقايا القوة الجوية الالمانية للقيام بمجهود نهائي على حين عهد الى رجال المظلات والمخربين والوكلاء الذين يرتدون ملابس الحلفاء العسكرية باداء دورهم في المعركة المنتظرة .

وقد بدأ الهجوم في السادس عشر من كانون الاول ، بعد تمهيد مدفعي شديد ، وهاجم الجيش الالماني المدرع السادس من ناحية جناحه الشمالي ميمنة الجيش الامريكي الاول الذي كان يتقدم في اتجاه سدود نهر الروهر ، وبعد معركة ظلت متارجحة من الزمن تمكنت قوات الحلفاء من وقف العدو ، كما تمكن الالمان في الجنوب من اختراق جبهتنا في قطاع ضيق ، وشن الجيش المدرع الالماني السادس هجوما اختراقيا جديدا في اتجاه الغرب والشمال الغربي على نهر الموز قبل مدينة ليبج ، وتمكن الجيش المدرع الخامس من اختراق جبهة الفيلق الامريكي وتوغل مسافة كبيرة في اتجاه نهر الموز .

وعلى الرغم من ان اتجاه العدو جاء مفاجئا لقيادة الحلفاء العليا من ناحية توقيته وثقله ــ قررت ان نعزز فورا « كتفي » منطقة الاختراق ، وان نحافظ على معابر الموز ، الى الشرق والجنوب من نامور وسارع ايزنهاور بوقف جميع هجمات الحلفاء ، واستقدم اربع فرق من القوات الامريكية الاحتياطية وست فرق اخرى من الجنوب ، وفرقتين محمولتين من الجو من انكلترا ، كما قذف الجيشان الامريكيان الاول والتاسع بكل ما لديهما من قوات احتياطية لتوسيع جناحيهما الدفاعي الى الغرب من ماليدي .

ولما كان الالمان قد شطروا جبهة مجموعة الجيوش الثانية عشرة التي يقودها الجنرال برادلي ، وحالوا بينه وبين ممارسة القيادة الفعلية من مقر قيادته في لكسمبورغ ، فقد عهد الجنرال ايزنهاور الى مونتغمري بالقيادة المؤقتة لجميع قوات الحلفاء في الشمال على حين عهد الى الجنرال برادلي بالاحتفاظ بمواقعه وشن هجمات مضادة على العدو من الجنوب ، كما قام ايضا باجراء تبديلات مماثلة في قيادة سلاح الجو التكتيكي .

ولما كانت القوات المدرعة الالمانية قد حرمت هدفها الرئيسي وهو نهر الموز ، فقد استدارت الآن بوحشية على باستون ، وتفوق العدو تفوقا هائلا في العدد على الفرقة الواحدة بعد المائة على الرغم من تعزيزها الا انها قد تمكنت من الصمود في البلدة اسبوعا آخر ، وعندما حلت نهاية شهر كانون الاول ادركت القيادة العليا الالمانية انها قد خسرت المعركة الا انها بذلت مجهودا آخر بطريق الجو حيث قامت في اليوم الاول من كانون الثاني عام ١٠٤٥ بهجوم مباغت عنيف وعلى ارتفاع منخفض على جميع مطاراتنا الامامية .

وعلى الرغم من ان خسائرنا كانت جسيمة فاننا عوضناها بطائرات جديدة فورا ، ولكن السلاح الجوي الالماني خسر اكثر مما يستطيع احتماله من خسارة في آخر هجوم قامت به المانيا في الحرب الثانية .

وكان هذا هو آخر هجوم شنه الالمان في الحرب ، ولو ان هذا الهجوم قد اقلقنا اشد القلق واخر زحفنا ، فاننا استفدنا منـــه في النهاية ، فلم يكن في وسع الالمان ان يجدوا بديلا عن الخسـائر التـي خسروها .

وعلى الرغم من ان معاركنا المقبلة على نهر الراين كانت عنيفة وقاسية ، فان هجوم الاردين الفاشل قد سهل مهمتها . ولا ريب في ان القيادة العليا الالمانية وهتلر نفسه قد خدعا عندما باغتهما ايزنهاور وقادتهم بهجومهم ، اما الفضل كل الفضل لنجاحنا فيعود الى ما ذكره مونتغمري في تقريره وهو « لقد كسبنا معركة الاردين بفضل ما يتمتع به الجندي الامريكي من روح حربية عالية » وفعلا قد قامت القوات الامريكية بأكبر قسط في المعركة وتحملت اكبر قسط في الخسائر .

الميلاد في اثينا

لقد اشتهر اليونانيون بأنهم من اكثر شعوب العالم اهتماما بالسياسة ، وانه مهما كانت اوضاعهم قاسية او كانت الاخطار التي تتعرض لها بلادهم خطيرة ، فانهم لا ينفكون عن الانقسام الى شيع واحزاب عدة ، يتولى قيادتها عدد من الزعماء يتخاصمون ويتشاحنون بحيوية وحماس .

ولما كنت قد طلبت الى رئيس اركان حرب القوات البريطانية ، اعداد التفاصيل المتعلقة ، بايفاد حملة بريطانية الى اليونان في حالة انهيار الالمان وذلك قبل ان اغادر ايطاليا في نهاية شهر آب ، فقد تم اعدادها في اوائل ايلول ، واطلقنا على هذه العملية اسم « المن » وفي الوقت نفسه كنا قد اتينا بالمسيو باباندريو رئيس الوزراء وزملائه الى ايطاليا واخذ يعمل مع ممثلي جبهة التحرير الوطني « ايام » ومع منافسيهم القوميين من جماعة الجيش الوطني الديموقراطي « ايديس » يساعده في ذلك المستر ماكميلان وزيرنا المقيم في البحر الابيض المتوسط ، والمستر ليبر سفيرنا لدى الحكومة اليونانية وتمكنوا جميعا من الوصول الى اتفاق شامل تم التوقيع عليه في السادس والعشرين من ايلول ، وقد نص الاتفاق على ان تضع جميع قوات العصابات في البلاد نفسها ، تحت اوامر الحكومة اليونانية التي وضعت نفسها بدورها تحت تصرف القائد البريطاني الجنرال سكوبي ، وقد قدر لهذه الوثيقة التي سميت باتفاق « سايبسترا » ان تسيطر على جميع اعمالنا في المستقبل .

وقد بدأ تحرير اليونان في شهر تشرين الاول ، وبعثنا بوحدات من الفدائيين الى جنوبي اليونان ، وتمكنت قواتنا في الساعات الاولى من صباح الرابع والعشرين من شهر تشرين الاول من احتلال باتراس ، وكانت هذه اول موطىء قدم لنا منذ ان خرجنا ذلك الخروج المؤلم في عام ١٩٤١ .

ولما شرع الالمان في الجلاء عن اثينا ، في الثاني عشر من تشرين الاول ، هبط المظليون البريطانيون في اليوم التالي في مطار ميغارا ، القريب من العاصمة ، واحتلوا المدينة في اعقاب الانسحاب الالماني كما دخلت قواتنا البحرية ميناء بيريه يصحبها الجنرال سكوبي مع اكثر جنوده ، وكما وصلت ايضا الحكومة اليونانية بعد يومين يرافقها سفيرنا .

ولما كانت المؤن قد نفدت ، وكان المستر ايدن وهو في طريق عودته من موسكو ، عرج على اليونان لزيارة اثينا ، وكان يرافقه في هذه الزيارة اللورد موين الوزير المقيم في القاهرة والمستر ماكميلان ، فقد بحث كل ما يمت الى موضوع الاغاثة واتخذت كل التدابير الممكنة

لتأمينها ، كما بدأ رجال فرقة المهندسين البريطانيين في اصلاح طرق المواصلات التي لا غنى عنها ، وعندما حل اليوم الاول من تشرين الثاني كان الالمان قد انسحبوا من سلانيك وفلورينا ، وبعد عشرة أيام اجتازت آخر قواتهم الحدود الشمالية ، وبذلك تحررت اليونان بأسرها ، باستثناء بعض الجزر الصغيرة النائية والمعزولة والتي كانت الحاميات الالمانية لا تزال فيها .

ولما كانت الحكومة اليونانية لم تكن تملك القوات الكافية للسيطرة على البلاد وارغام « ايلاس » على احترام اتفاقية سابيسترا ، وانتشرت الفوضى وعمت البلاد ، وكان من المتوقع ان تقوم جبهة التحرير الوطني بثورة في كل لحظة ، فقد اصدرنا الاوامر الى الجنرال سكوبي في الخامس عشر من تشرين الثاني باتخاذ استعدادات مضادة كما تقرر اعلان مدينة اثينا منطقة عسكرية وكذلك اصدرت الاوامر الى جيش التحرير « أيلاس » بمغادرتها ، وفي هذا الوقت كانت الفرقة الهندية الاولى قد وصلت الى اليونان ، وكان من الواضح ان الطريقة الوحيدة لتجنب الحرب الاهلية انما هي في نزع سلاح افراد العصابات والقوات الاخرى ، واقامة جيش وطني جديد وقوة من الشرطة تعمل تحت الاشراف المباشر لحكومة اثينا .

وفي اليوم الاول من شهر كانون الاول استقال وزراء جبهة التحرير الستة واعلن الاضراب العام في اثينا في اليوم التالي ، واصدرت البقية الباقية من مجلس الوزراء مرسوما بحل العصابات ، كما نقل الحزب الشيوعي مقر رياسته من العاصمة ، ووجه الجنرال سكوبي رسالة الى الشعب اليوناني اكد فيها وقوفه الى جانب الحكومة الدستورية القائمة ، الى ان تتم اقامة الدولة اليونانية عن طريق انتخابات حرة ، كما وجهت رسالة مماثلة من لندن .

وفي اليوم الثالث من كانون الاول اصطدم انصار الشيوعيين الذين كانوا يسيرون في مظاهرة ممنوعة مع رجال البوليس وبدات الحرب الاهلية، ولذلك اصدر الجنرال سكوبي اوامره الى قوات جيش التحرير « ايلاس » بالجلاء عن اثينا وبيريه ، ولكن هذه القوات يؤيدها المدنيون المسلحون حاولت الاستيلاء على العاصمة بالقوة ، وعندما علمت ان الشيوعيين قد استولوا على معظم مراكز الشرطة وذبحوا كل الرجال الذين كانوا فيها ، ولم ينضموا اليهم ، وانهم اصبحوا على بعد ربع ميل من مقر الحكومة ، اصدرت اوامري الى الجنرال سكوبي والى خمسة آلاف جندي من البريطانيين الذين يعملون تحت امرته بالتدخل واطلاق النار على المعتدين الآثمين ، ولا ريب في ان وجود مثل هذه الاوامر في حيازته ، لا تقتصر على تشجيعه على القيام بعمل حاسم ، بل تمنحه التأكيد اللازم بأني سأكون الى جانبه في اي اجراء حازم قد يتخذه مهما تكن النتائج .

اما وقد عرف العالم الحر الآن الكثير عن الحركة الشيوعية في اليونان وغيرها ، فان الكثير من القراء سيدهشون حتما من الحملات العنيفة التي تعرضت لها الحكومة البريطانية ، وتعرضت لها انا شخصيا بصفتي رئيسها ، كما استنكرت معظم الصحف الامريكية ،

اجراءنا ، اشد الاستنكار . واصدرت وزارة الخارجية الامريكية التي كان يراسها المستر سبيتيتينوس ، بيانا انتقاديا واضحا ، وشهدت انكلترا نفسها غليانا وهيجانا شديدين ، ووجهت صحيفتا « التايمس » و « المانشستر غارديان » اللوم العنيف لما اسمتاه بسياستنا الرجعية اما ستالين فقد حافظ من جانبه بأمانة على اتفاقنا الذي عقدناه في شهر تشرين الاول .

كما شهد مجلس العموم اضطرابا شديدا ، وكانت هناك تيارات قوية من الآراء الغامضة ومن العطف والتأثر ، ولو كانت هناك حكومة اخرى لا تتمتع بما تتمتع بـه حكومتنا القوية من اسس ثابتة قوية لتهاوت محطمة منهارة ، ولم يقترع ضدنا الا ثلاثون فقط واقترع معنا نحو من ثلاثمائة ، وكانت مناسبة جديدة اظهر فيها مجلس العموم قوته المستمرة وسلطته .

وفي ذلك الوقت كانت القوات البريطانية تقاتل بشدة في قلب اثينا وقد حوصرت وتفوق عليها العدو عددا ، وكانت تشتبك في قتال من بيت الى بيت مع عدو يرتدي اربعة اخماس افراده الملابس المدنية ، وكان باباندريو ومن تبقى من وزرائه قد فقدوا كل سلطة ، كما رفض الملـك اقتراحا باقامة مجلس وصاية يرأسه رئيس الاساقفة داما سكينوس الا ان سفيرنا المستر ليبر عاد فعرض الفكرة ثانية على الملك في العاشر من شهر كانون الاول ، ولكنه ظل معارضا لها ولم نكن في ذلك الحين نرغب في الضغط عليه لقبولها .

وكان قد وصل الى اثينا في هذا الوقت كـل مـن الماريشال اليكساندر والمستر هارولد ماكميلان ، وصدر الامـر بتحول الفرقة البريطانية الرابعة — التي كانت تنتقل من ايطاليا الى مصر — الى اليونان ، وادى وصولها في النصف الاخير من الشهر وفي الوقت المناسب الى قلب الاوضاع ، وان كان قتال الشوارع في اثناء ذلك ظل متأرجحا على نطاق واسع ، ولذلك فقد حذرني اليكساندر بضرورة الوصول الـى تسوية في أسرع وقت ممكن ، وأكد ان خير سبيل لذلك يكون بتدخل رئيس الاساقفة ، وابرق الي يقول : « ما لم تقم بذلك فانني اخشى اذا استمرت مقاومة الثائرين على ما هي عليه الآن من شدة وعنف ان اضطر الى ارسال نجدات كبيرة اخرى من الجبهة الايطالية ولاضمن تطهير مقاطعة اثينا — بيريه ، وهـي منطقة تضم خمسين ميـلا مربعا من المنازل » .

فقررت ان اذهب الى اثينا لارى الامور بنفسي على مسرحها وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من كانون الاول ، وكنا قد اعددنا حفلة عائلية تضم عددا من الاطفال بمناسبة ليلة عيد الميلاد ، لكني شعرت بالحاجة الماسة الى ان اطير الى اثينا ، وان اتعرف على رئيس الاساقفة الذي يتوقف عليه وعلى شخصه الكثير ، واسرعت باعطاء الاوامر لاعداد طائرة لي في تلك الليلة في نور شهولت حيث كان ينتظرني المستر ايدن لكي نستقلها معا الى اثينا ، فهبطنا عند الظهر في مطار كالماكي ، وكان في انتظارنـا الماريشال اليكسانـدر والمستـر ليبـر والمستر ماكميلان ،

فصعدوا الى الطائرة حيث قضينا ثلاث ساعات في مناقشات حادة استعرضنا فيهـا الموقف بكامله مـن نواحيه السياسية والعسكرية واتفقنا على الخطوات التي يجب ان نتخذها فورا .

وتقرر ان نمضي الليلة على ظهر الطراد اجاكس ، ولكي نستقبل فيه رئيس الاساقفة وبطانته ، فذهبنا الى حيث الطراد وعند وصول رئيس الاساقفة اجتمعنا به ، فتحدث بمرارة بالغة عن فظائع جيش التحرير « ايلاس » وعن اليد الاثيمة البشعة التي تقوم وراء جبهة التحرير « ايام » ، وعندما اصغيت اليه تبين لي دون شك ان الرجل يخشى الشيوعيين خشية كبيرة ، كما يخشى تدخلهم في الشؤون اليونانية وقال : انه قـد اصدر منشورا بطريركيا اعلن فيـه حرمان جيش التحرير « ايلاس » لاخذه ثمانية آلاف من الرهائن معظمهم من الطبقة الوسطى وبينهم عدد مـن الصربيين ، ولقتله عددا منهم كـل يوم ، واضاف انه سينقل هذه الانباء الى الصحافة العالمية ، اذا لم يقم جيش التحرير باطلاق سراح النساء فورا ، وقد اثر علي تأثيرا طيبا بصورة عامة ، لما يتميز به من ثقة في نفسه ، وفي النهاية قبل اقتراحنا بـأن يتولى رياسة المؤتمر الذي سيعقد في اليوم التالي والذي دعى جيش التحرير « ايلاس » لارسال ممثليه اليه .

وفي صباح اليوم التالي توجهنا الى السفارة ، حيث قابلت رئيس الاساقفة وقد وافق على كل مـا اقترحناه ووضعنا مخططا للمؤتمر الذي تقرر عقده بعد ظهر ذلك اليوم .

وفي الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم انعقد المؤتمر برياسة رئيس الاساقفة وقد جلست عن يمينه ، وجلس المستر ايدن والماريشال اليكساندر عن يساره ، كما حضر المؤتمر المستر ماكفي السفير الامريكي والمسيو بيليـه وزيـر فرنسا المفوض والممثل العسكري السوفياتي ، وكذلك حضر الزعماء الشيوعيون الثلاثة الذين يمثلون جيش التحرير وكانوا يرتدون زي الميدان البريطاني ، وقد بدأت الحديث بقولي :

« من الخير ان نبذل كل مجهود لجعل اليونان عاملا من عوامل النصر وان نبدأ جهودنا الآن ، وليس من قصدنا ان نقف حائلا دون تفاهمكم وتشاوركم وسنترككم نحن البريطانيين ومن معنا من ممثلي الدول الحليفة لتتشاوروا وحدكم برياسة هـذا الوطن البارز جدا ، ولن نزعجكم الا اذا استدعيتمونا وكلي امل على كل حال ، في ان هذا المؤتمر الذي يبدأ هنا في اثينا سيعيد اليونان مرة اخرى الى شهرتها وقوتها بين الحلفاء وبين الشعوب المحبة للسلام في العالم ، وسيضمن سلامة الحدود اليونانية من اي خطر من الشمال وسيتمكن كل يوناني من ان يظهر نفسه وبلاده بأحسن مظهر امام العالم بأسره .

وبعد ان انتهينا من القاء الخطب الرسمية انسحبنا من المؤتمر وقد استغرقت المحادثات العنيفة بين الاحزاب اليونانية معظم ساعات النهار وبعد ذلك اجتمعت في الخامسة والنصف مساء اجتماعا اخيرا مع رئيس الاساقفة وعلى ضوء المحادثات التي اجراها مع ممثلي جيش التحرير « ايلاس » تقرر ان اطلب الى ملك اليونان تعيينه وصيا ، لكي

يشرع فورا في تأليف حكومة جديدة لا تضم الشيوعيين ، وتعهدنا لـه بأن تظل القوات البريطانية على استعداد ، الى ان يتم احد امرين : اما ان يقبل جيش التحرير الهدنة او تطهر منطقة اثينا من قواته ؛ وقلت له : اننا سنحاول الاحتفاظ بالقوات البريطانية في اليونان الى ان يتم تأليف الجيش اليوناني الوطني .

هذا وقد غادرت اثينا ومعي المستر ايدن الى لندن في التاسع والعشرين من كانون الاول وفي الحال عقدنا اجتماعا مع الملك وقد وافق جلالته في نهايته على الا يعود الى اليونان الا اذا دعي للعودة بارادة حرة ونزيهة ، كما وافق على تعيين رئيس الاساقفة وصيا على العرش ، وبذلك اصبح الجنرال بلاستيرس رئيسا للوزارة .

وبذلك انتهى القتال المستمر في اثينا بطرد الثائرين اخيرا من العاصمة كما اصبحت القوات البريطانية مسيطرة على جميع مقاطعة اثينا ووقعت الهدنة في الحادي عشر من كانون الثاني ، وفي الوقت نفسه تحررت اليونان من العبودية الشيوعية .

واذا ما قورنت احداث اليونان بما كان يدور حين ذاك في انحاء العالم حيث يقف نحو مـن ثلاثة ملايين رجل يتصارعون في الجبهة الغربية ، وحيث تنتشر قوات امريكية كبيرة في انحاء المحيط الهادي ضد اليابان ، بدت صغيرة تافهة ، ولكنها على كل حال ، كانت تقع في العصب الحساس لحرية العالم الغربي وسلطته وقانونه .

ومن الغريب انه عندما ينظر الانسان الى هذه الاحداث ، فانه لا شك يقر السياسة التي تبنيتها انا وزملائي ، والتي قاتلنا باصرار من اجلها فقد رأيت بوضوح ان الشيوعية ستكون الخطر الذي يهدد الحضارة ، والتي يجب ان نواجهها بعد هزيمة النازية والفاشية .

واذا كانت اليونان قـد نجت من مصير تشيكوسلوفاكيا ، واذا قدر لها ان تعيش الآن كدولة من الدول الحرة ، فالفضل في ذلك لا يعود الى الاجراء الذي اتخذته بريطانيا في عـام ١٩٤٤ وحده ، بـل الى المجهودات الصامدة التي اصبحت بعد مدة بسيطة تعبيرا عن القوة المتحدة للعالم الناطق بالانكليزية .

مالطة ويالتا مشروعات للسلام العالمي

لما كانت جيوش هتلر قد سحبت داخل حدودها في نهاية شهر كانون الثاني عام ١٩٤٥ باستثناء بعض فلول منها واهية كانت لا تزال قابضة على المجر وعلى شمالي ايطاليا . فان الوضع السياسي مع ذلك على اية حال في شرقي اوروبا لم يكن مرضيا ، ولو ان الهدوء ساد اليونان ، وبدا أن حكومة ديموقراطية حرة ستقوم على اساس الانتخاب المباشر العام والاقتراع السري فان رومانيا وبلغاريا قد اصبحتا في قبضة الاحتلال العسكري السوفياتي كما كانت المجر ويوغوسلافيا تحتدم فيهما المعارك ، اما بولندا فعلى الرغم من تحررها من الالمان ، قد احتلتها روسيا ، مع ان الاتفاق غير الرسمي والمؤقت الذي عقدته مع ستالين في اثناء زيارتي في شهر تشرين الاول لموسكو ، لم يكن المقصود منه ، من ناحيتي على الاقل ، ان يتحكم او يؤثر في مستقبل هذه المناطق الواسعة بعد هزيمة المانيا .

وكان وضع اوروبا بعد الحرب وكيانها كله يتطلبان ضرورة اعادة النظر فيهما حتما ، وكذلك في الطريقة التي ستتبع في معاملة الالمان بعد هزيمتهم والمساعدة التي يمكننا ان نرجوها من الاتحاد السوفياتي في المرحلة الاخيرة لكي نهزم اليابان ، وبعد ان تتحقق لنا اهدافنا العسكرية ، اما الترتيبات والتنظيمات التي تستطيع دول الحلفاء الكبرى ان تقدمها لسلام العالم ولحسن تنظيمه ؟ هذا هو السؤال الذي كنت اردده في ذهني دائما .

ولما كانت المحادثات التي جرت في دومبارتون أوكس قد اسفرت عن خلافات جزئية ، كما انتهت ايضا المحادثات التي هي اضيق نطاقا والتي دارت بين لجنة لوبلين البولندية التي يرعاها السوفيات وبين مواطنيها القادمين من لندن الى نتيجة مماثلة ، مع انني عملت انا والمستر ايدن كل ما في وسعنا لانجاحها في اثناء زيارتنا للكرملين في تشرين الثاني عام ١٩٤٤ ، وعلى الرغم من الاتصالات غير المجدية التي دارت بين الرئيس روزفلت وستالين اعترف السوفيات في الخامس من كانون الثاني بلجنة لوبلين على اعتبار انها حكومة بولندا المؤقتة .

ولما كان الرئيس مقتنعا كل الاقتناع بضرورة عقد اجتماع آخر بالثلاثة الكبار ، وبعد الحاح شديد من جانبي ، وافق الرئيس ايضا على ان نعقد انا وهو مؤتمرا تمهيديا في مالطة ، ولعل القراء يذكرون المخاوف التي عبرت عنها للرئيس في برقيتي التي بعثت بها اليه في السادس من كانون الاول ، وكانت هذه المخاوف لا تزال تلازمني ، كما كان رؤساء اركان الحرب البريطانيون والامريكيون في حاجة الى التشاور قبل الاجتماع ، فغادرت نورثهلت في التاسع والعشرين من شهر كانون

الثاني عام ١٩٤٥ على طائرة ومعي ابنتي سارة وعدد من الموظفين الرسميين ، ووصلنا الى مالطة في الثلاثين من كانون الثاني .

كما وصلت السفينة الحربية الامريكية « كونيس » صباح اليوم الثاني من شباط عام ١٩٤٥ الى خليج فالينا ، وعلى ظهرها الرئيس روزفلت وصحبه ، وفي الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ، عقدنا أنا والرئيس اول اجتماع في قمرته الخاصة ، واستعرضنا تقرير هيئة اركان الحرب المشتركة والمباحثات العسكرية التي كانت دائرة في مالطة منذ ثلاثة ايام ، وانتهزنا الفرصة بالطبع لاستعراض الوضع العسكري كله ، وفي ذلك الحرب ضد الغواصات ، والحملات المقبلة في جنوب شرقي آسيا والمحيط الهادي ، والوضع في البحر المتوسط .

وقد وافق برمين على سحب فرقتين من اليونان عندما يمكن سحبهما ، ولكنني اوضحت اننا لن نجد انفسنا مضطرين للقيام بذلك ، الا بعد ان يصبح للحكومة اليونانية جيشها كما تقرر سحب ثلاث فرق اخرى من ايطاليا لتعزيز قواتنا في شمالي اوروبا الغربي ، ولكنني اكدت انه ليس من الحكمة القيام بسحب عام للقوات البرمائية وقد كان من المهم ان نتتبع اي انسحاب لالمانيا من ايطاليا ، كما ابلغت الرئيس ان الواجب يحتم علينا احتلال اكثر ما يمكننا من النمسا ، اذ ليس من المرغوب فيه ان يحتل الروس مسافات اكثر من اللازم في اوروبا الغربية .

وقد اسفرت المباحثات عن نتائج مهمة واتفاقات حول مختلف القضايا العسكرية ، كما ان هيئة اركان الحرب المشتركة اصبحت على علم بجميع نقاط الاتفاق ، وعلى جميع وجهات نظرنا ، قبل الشروع في المحادثات مع اركان الحرب السوفيات ، والتي ستبدأ بعد ذهابنا الى هناك للاجتماع بهم .

هذا وقد اعدت الطائرات لنقلنا ولنقل رجال الوفدين الرسميين البريطانيين والامريكيين البالغ عددهم نحو سبعمائة رجل ، الى مطار ساكي في جزيرة القرم ، ولما وصلنا الى هناك انتقلنا بالسيارات الى يالتا .

وكان المقر السوفياتي في يالتا هو قصر يوسوبوف ، حيث كان ستالين ومولوتوف وجنرالاتهما يتولون ادارة دفة الحكم في روسيا والسيطرة على جبهتهم الهائلة التي يحتدم القتال فيها الآن من هذا المركز ، هذا وقد نزلنا في قصور فسيحة اعدت لكل منا ، وقد بذل مضيفونا كل جهد لضمان راحتنا ، وكانوا يهتمون بكل ملاحظة عارضة تصدر منا .

وقد بدأت الجلسة الاولى للمؤتمر بعد ظهر الخامس من شباط ، وتناول الحديث مستقبل المانيا ، وكنت بالطبع قد فكرت في هذه المسألة ، ووجهت الى المستر ايدن من حوالي شهر تقريبا الرسالة التالية .

« بالنسبة لمعاملة المانيا بعد الحرب ، اعتقد ان من السابق لأوانه تقرير مثل هذه الموضوعات الكبيرة ، اذ من الواضح انه عندما

تتوقف المقاومة الألمانية المنتظمة فان المرحلة الاولى ستكون ممثلة في اشراف عسكري قاس ، وقد يستغرق هذا الاشراف عـدة اشهر او سنة او سنتين ، اذا ظلت المقاومة السرية الالمانية نشيطة ، ولهذا فاني اقترح مـع كـل المشاغل التي ننوء تحت اعبائها في الوقت الحاضر الا نسارع الى بحث هذه المشكلات المؤلمة التي قد تؤدي الى تصدع كبـير .

واني لاوثر التركيز على القضايا العلمية التي ستحتل الصدارة في السنتين او السنوات الثلاث القادمة ، بدلا من ان نضيع وقتنا في مناقشات عن علاقات المانيا الطويلة الاجل بأوروبا ، ولهذا فهناك الكثير من الحكمة في ان يحتفظ الانسان بقراراته اطول مدة ممكنة ، حتى تتكشف جميع الحقائق والوقائع التي قد تصبح قائمة وعملية .

ولهذا فقد قلت لستالين ، عندما تساءل عن الطريقة التي ستجزأ بها المانيا : ان هذه القضية من التعقيد بحيث يتعذر حلها في خمسة ايام او ستة ، فمثل هذا الموضوع يتطلب دراسات عميقة في التاريخ وعلم الاجناس البشرية ، والحقائق الاقتصادية ، واستعراضا طويلا تقوم بـه لجنة تتولى دراسة مختلف الاقتراحات وتقدم رأيهـا فيهـا ، فهناك الكثير مـن المسائل التي يجب ان تدرس ، اذ ماذا سنعمل في بروسيا ؟ واي مناطق يجب ان تكون لبولندا والاتحاد السوفياتي ؟ ومن يتولى الاشراف على وادي الراين والمناطق الصناعية المهمة في الروهر والسار ؟ وارى أن تؤلف هيئة خاصة لدراسة هذه القضايا ويعرض تقريرها علينا قبل الوصول الى اية قرارات نهائية ، واقترح المستر روزفلت ان يعهد الى وزراء خارجيتنا باعداد خطة لدراسة هذه القضية على ان يتم اعدادها في اربع وعشرين ساعة وان يوضع المشروع النهائي لتجزئة المانيا خلال شهر وتركنا الموضوع عند هذا الحد .

واتفقنا على ان نجتمع في اليوم التالي لدراسة موضوعين مهمين جدا ، وهما مشروع دوميرتون اوكس لضمان الامن العالمي وموضوع بولندا .

هذا وقد انتهى مؤتمر دوميرتون اوكس كما سبق لي ان ذكرت دون الوصول الى اتفاق كامل بشأنه .

وقد قال ستالين : انه يخشى ـــ على الرغم من ان الدول العظمى الثلاث متحالفة الآن ، وانه لن تقوم اية منها بأي عمل من اعمال العدوان يخشى ان الزعماء الثلاثة قد يختفون من المسرح في غضون عشر سنوات أو نحوها وقد يتولى السلطة جيل جديد لم يمر بتجربة الحرب وقد ينسى كل ما مررنا به من محن ، ثم قال « اننا جميعا متفقون على الرغبة في احلال السلام لمدة خمسين عاما على الاقل ، ويقوم الخطر الاكبر في أن نتصارع بعضنا مع بعض ، فلو ظللنا على اتحادنا ، فلن يكون للخطر الالماني اية اهمية .

ولهذا يجب علينا أن نفكر في ضمان وحدتنا في المستقبل وان نؤمن بقاء الدول العظمى الثلاث ومعها الصين وفرنسا ان أمكن في جبهة متحدة .

ومضى ستالين يقول : ولا يستطيع زملائي في موسكو ان ينسوا ما حدث في تشرين الاول عام ١٩٣٩ في اثناء الحرب الروسية الفنلندية ، عندما استخدمت الحكومتان البريطانية والفرنسية عصبة الامم ضدنا ، ونجحتا في عزلنا ، وفي طرد الاتحاد السوفياتي من العصبة ، ولذلك فانه يجب الحصول على ضمان بأن امورا كهذه لن تتكرر في المستقبل .

وقد تمكنا بعد الكثير من الجهد والايضاح من اقناعه ، بقبول مشروع امريكي يصبح فيه مجلس الامن عاجزاً عن اصدار اي قرار الا اذا اجمع عليه « الاربعة الكبار » واذا رفضت اية دولة منها اي مشروع فلا يجوز لمجلس الامن اقراره ، وهذا هو « الفيتو » .

وكنت من ناحيتي ارى ان اقامة اي جهاز عالمي يجب ان تكون على اساس اقليمي ، فهناك مناطق اقليمية رئيسية موجودة وتفرض هـذا الوجود ، كالولايات المتحدة واوروبا المتحدة وجامعة الشعوب البريطانية والاتحاد السوفياتي وامريكا الجنوبية ، وهنـاك مجموعات اخرى ، كالمجموعات الاسيوية والمجموعة الافريقية ، وفي الامكان تنمية هذه الفكرة عن طريق الدرس . وكان الهدف من فكرتي هو حل القضايا التي تدور حولها الخلافات المحلية الحادة في المجالس الاقليمية التي تبعث بعد ذلك بثلاثة او اربعة من ممثليها الى المجلس الاعلى ، الذي سيتألف من ثلاثين او اربعين شخصا من ابرز الساسة العالميين يكون كل واحد منهم مسئولا عن منطقة ومعالجة القضايا العالمية ايضا ، ولا سيما قضية الحرب ، اما دعوة جميع الدول صغيرها وكبيرها قويها وضعيفها الى الاشتراك على قدم المساواة في الهيئة المركزية « الجمعية العمومية » فهي اشبه ما يكون بتنظيم جيش لا تفريق فيه بين قيادته العليا وقادة فرقة وألويته ، ويكون كل ما حصلنا عليه من هذا الاجراء ، انما هو برج بابل جديد ، يتميز بشيء من المهارة في مناورات ما وراء الكواليس ، ولكن علينا ان نتحمل ، وان نصبر على اية حال .

روسيا وبولندا

لقد بحثنا موضوع بولندا في نحو سبعة اجتماعات من الاجتماعات الرسمية التي عقدناها في يالته ، وتمكنا بمساعدة وزراء خارجيتنا ومساعديهم - الذين عقدوا اجتماعات عدة وطويلة واحتدمت بينهم المناقشات الحادة - من الوصول اخيرا الى بيان رسمي ، يمثل وعدا منا للعالم واتفاقا بيننا على اجراءاتنا المقبلة ، ولكن فصول القصة المؤلمة لم تكتمل بعد ، كما لم تعرف جميع الحقائق الصحيحة تمام المعرفة ، الا ان ما دونته هنا يلقي ضوءا على الجهود التي بذلناها في المؤتمر قبل الاخير ، من مؤتمراتنا الحربية ، حيث كانت المشكلات والمتاعب قديمة ومتعددة وحتمية ، وكانت حكومة لوبلين البولندية التي يرعاها الروس والتي يطلقون عليها اسم حكومة « وارسو » تنظر الى حكومة لندن البولندية ، بشعور من العداء المرير ، وكانت العلاقات بينهما قد ساءت بعد اجتماع موسكو الذي عقد في تشرين الاول ، وكانت القوات الروسية تتدفق عبر بولندا ، وقد اسندت الى جيش المقاومة السرية البولندي مهمة قتل الجنود الروس ، واعمال التخريب والهجوم على مناطق المؤخرة وعلى طرق المواصلات ، ولم يكن في وسع الحلفاء الغربيين الحصول على معلومات او الوصول الى المنطقة ، وكان هناك اكثر من مائة وخمسين الف جندي بولندي يقاتلون ببسالة في ايطاليا ، وفي الجبهة الغربية لتدمير الجيوش تدميراً نهائيا ، وكان هؤلاء وغيرهم كثيرون في اوروبا يتطلعون بشوق الى تحرير وطنهم ، كما كانت الجالية البولندية الكبيرة في الولايات المتحدة تنتظر في شوق ولهفة الى تسوية نهائية بين الدول العظمى .

ويمكن تلخيص الموضوعات التي بحثناها فيما يلي :

كيف يمكن تاليف حكومة بولندية واحدة مؤقتة ؟

وكيف ومتى تجري الانتخابات الحرة ؟

وكيف تسوى الحدود البولندية في الشرق والغرب ؟

وكيف نؤمن مناطق المؤخرة وطرق المواصلات للجيوش السوفياتية الزاحفة ؟

ولا ريب في ان قضية بولندا ، كانت من اهم العوامل التي دعت الى عقد مؤتمر يالته ، وكانت من اهم القضايا الرئيسية التي أدت الى انهيار الحلف الاعظم ، وكنت من ناحيتي على ثقة ، في ان قيام بولندا ، قوية ، وحرة ومستقلة ، اهم بكثير من الحدود الاقليمية المعنية ، وقد

ذت أن يعيش البولنديون احرارا ، وان يحيوا الحياة التي يريدونها كما يشاءون ، ولا ريب في ان هذا هو السبب الذي دفعنا الى الحرب ضـد المانيا في عام ١٩٣٩ ، وكاد هـذا الثمن نفسه يكلفنا حياتنا لا كامبراطورية ، بل كدولة ايضا .

ولذلك فانه عندما اجتمعنا في السادس من شباط عام ١٩٤٥ ، عرضت الموضوع على النحو التالي : اليس في وسعنا ان نخلق حكومة او جهازا حكوميا لبولندا يتولى ادارة البلاد بصورة مؤقتة الى ان يتم اجراء انتخابات حرة وكاملة يعترف بها الجميع ؟ واذا تمكنا من تحقيق ذلك فاننا نكون قد خطونا خطوة عظيمة نحو احلال السلام في المستقبل لاوروبا الوسطى .

وادعى ستالين ، في النقاش الذي تلا ذلك ، انه فهم موقفنا وذكر ان بولندا ، تمثل بالنسبة الى البريطانيين قضية كرامة ، ولكنها تمثل بالنسبة الى الروس قضية كرامة وسلامة معا ، حيث توجد خلافات كثيرة بين الروس وبينهم ، وهم يريدون القضاء على اسباب هذه الخلافات ، لان بولندا تقوم على حدود روسيا ، ولقد كانت دائما ممرا يجتازه اعداء روسيا لمهاجمتها وقد فعل الالمان هذا مرتين في بحر ثلاثين عاما ، لان بولندا كانت ضعيفة وتريد روسيا من بولندا ان تكون قوية تستطيع اغلاق هذا الممر بقوتها وحدها ، لان روسيا لا تستطيع اغلاقه من الخارج ، وهذه قضية حياة او موت بالنسبة الى الدولة السوفياتية .

اما بالنسبة الى الحدود ،فقد قال ستالين ان الرئيس روزفلت قد اقترح اجراء بعض تعديلات على خط كرزون ، وان تعطى « لوار » وبعض المناطق الاخرى الى بولندا ، وقد قلت ان مثل هذا العمل سيكون بادرة ترمز الى الشهامة ، الا ان ستالين اشار الى ان الروس لم يكونوا هم الذين اخترعوا خط كرزون فقد رسم كرزون وكليمنصو وممثلو الولايات المتحدة هذا الخط في مؤتمر الصلح لعام ١٩١٨ ، الذي لم تدع روسيا الى حضوره ، ولم يوافق لينين على هذا الخط .

وعندما عدنـا الـى الاجتماع في السابع مـن شباط ، ذكرت مستمعي بأنني قد حددت دائما تحرك الحدود البولندية غربا بقولي ، ان من حق البولنديين ان يكونوا احرارا في الحصول على اراضي في الغرب على الا تكون اكثر مما يستطيعون ادارته ادارة صحيحة ، ولو اخذت بولندا بروسيا الشرقية وسيليزيا حتى نهر الاودر ، فان هذا يعني نقل ستة ملايين الماني الى المانيا ، ومن الممكن ان يسوى الموضوع على هذا النحو .

وقال ستالين ان هذه المناطق خالية من الالمان لانهم فروا منها جميعا ، وقد رددت عليه قائلا ، ان السؤال هو ، هل يتسع للالمان ما تبقى من المانيا ؟ ولقد قتل ستة ملايين او سبعة ملايين الماني ، وقد يقتل مليون او مليونان كما اقترح ستالين قبل انتهاء الحرب ، ولذا فسيكون هناك مجال لهؤلاء المهاجرين الى حد ما ، وانا لا افزع من

مشكلة نقل السكان ،اذا كان في وسع البولنديين ان يديروا امر البلاد التي يستولون عليها ، ولكن هذه القضية تتطلب درسا ، لا كموضوع مبدأ ، ولكن كموضوع ارقام تجب معالجتها .

وقد وافق المستر روزفلت في الثامن من شباط ، على ان يكون خط كرزون هو الحدود الشرقية لبولندا ، ولكنه كان صلبا ودقيقا في موضوع الحدود الغربية ، اذ من الواجب ان تأخذ بولندا تعويضا على حساب المانيا ، ولكن ليس ثمة مبرر لامتدادها الى نهر المسيسبي الغربي ، وكان هذا رأيي دائما ، وكان علي ان أعيد التكلم في موضوعه ، عندما اجتمعنا في بوتسدام بعد خمسة أشهر .

وهكذا كنا متحدين في يالته ، من ناحية المبدأ ، بصدد الحدود الغربية وكان السؤال الوحيد ، هو اين يجب ان يرسم تماما هذا الخط ؟ وما يمكننا قوله في هذا الموضوع ، هو انه يجب ان يأخذ البولنديون جزءا من بروسيا الشرقية ، وان يكونوا احرارا في الامتداد الى نهر الاودر ، ولكننا لم نكن على ثقة ، فيما اذا كان في وسعنا ان نمضي الى ابعد من هذا ، او ان نقول شيئا من هذا الموضوع في هذه المرحلة ، وبعد ثلاثة ايام قلت للمؤتمر ، انني قد تلقيت برقية من وزارة الحرب ، تعترض على اية اشارة الى الحدود على نهر المسيسبي الغربي ، لان مشكلة نقل السكان ستكون اضخم من ان تعالج .

ولهذا فقد قررنا ان ندخل الفقرة التالية في اعلاننا المشترك :

« يرى رؤساء الحكومات الثلاث ان حدود بولندا الشرقية يجب ان تسير مع خط كرزون ، مع بعض الانحرافات عنه في بعض المناطق التي لا تتجاوز خمسة كيلومترات او ثمانية لمصلحة بولندا ، وهم يعترفون ان على بولندا ان تتنازل عن بعض الاراضي في الغرب والشمال ، وهم يشعرون ان من الواجب تحري رأي الحكومة البولندية المؤقتة الممثلة للوحدة الوطنية ، في الوقت المناسب ، بالنسبة الى مدى هذه التساهلات وان يؤجل التخطيط النهائي لحدود بولندا الغربية الى مؤتمر الصلح » .

وظلت امامنا مشكلة تأليف الحكومة البولندية التي نستطيع الاعتراف بها جميعا ، والتي يرضى بها الشعب البولندي ، وقد بدأ ستالين الحديث بالاشارة الى اننا لا نستطيع تعيين حكومة بولندية الا اذا وافق عليها البولنديون انفسهم . وكان ميكولاجيك وغرابسكي قد وصلا الى موسكو ، في اثناء زيارتي الماضية لها ، وكانا قد اجتمعا مع حكومة لوبلين ، ووصلا معها الى حد من الاتفاق ، ثم غادرنا ميكولاجيك الى لندن على اساس انه سيعود ، ولكن زملاءه في لندن اخرجوه من رياسة الوزارة . لمجرد انه فكر في الاتفاق مع حكومة لوبلين ، وكانت حكومة لندن البولندية معادية تمام العداء لمجرد فكرة حكومة لوبلين ، وكانت تصفها بأنها شركة من المجرمين وقطاع الطرق وكانت حكومة لوبلين تضفي على حكومة لندن البولندية الاوصاف

نفسها وكان من الصعب الوصول الى حل في هذا الموضوع ، وقد قال ميكولاجيك :

« تحدثوا الى حكومة لوبلين ان شئتم ، فسأحملهم على المجيء اليكم هنـا او في موسكو ، ولكنهم لا يقلون ديمقراطية عـن ديغول ، وفي وسعهم ان يحفظـوا السلام في بولندا وان يوقفوا الحرب الاهليـة والهجمات على الجيش الاحمر ، ولكن جماعة لندن لا يستطيعون ان يفعلوا ذلك ، فعملاؤهم في بولندا قد قتلوا الجنود الروس وهاجموا مستودعات اسلحتهم للحصول على السلاح ، وكانت محطات اذاعتهم تعمل بدون ترخيص وبدون تسجيل » .

ومن المهم بالنسبة للجيش الاحمر ، ان تكون مناطق مؤخرته سليمة مأمونة وهو كرجل عسكري لا يستطيع ان يؤيد الا الحكومة التـي تستطيع تأمين هذه المؤخرة .

ولمـا كان الوقت متأخرا في هـذه الليلة ، فقد اقترح الرئيس روزفلت تأجيل الاجتماع الى اليوم التالي ، ولكنني رأيت من المناسب ان اقول انه طبقا لمعلوماتنا ، فانه لا يوجد اكثر من ثلث الشعب البولندي يؤيد حكومة لوبلين ، اذا سمح له أن يعبر عن رأيه في انتخابات حرة ، وأكدت لستالين اننا كنا نخشى دائما من وقوع اصطدام بين الجيش السري البولندي وحكومة لوبلين ، لما يسفر عنه من سفك دماء واعتقالات ونفي ، وان هذه الخشية هي التي تدفعنا الى الرغبة في الوصول الى ترتيب مشترك ، ومن الواجب حتما ان يعاقب المسؤولون عن مهاجمة الجيش الاحمر ، ولكـن بالنسبة الى ما لدي مـن معلومات ، فانني لا استطيع ان اشعر ان مـن حق حكومة لوبلين ان تقول انها تمثل الشعب البولندي .

ولما كان الرئيس شديد الرغبة في انهاء النقاش ، فقد قال ، لقد كانت بولندا مصدرا للمتاعب اكثر من خمسمائة عام ، فرددت عليه قائلا ، وهذا وحده كاف ليدفعنا الى ان نعمل كل ما في وسعنا لانهاء هذه المتاعب ، ثم انفض الاجتماع .

هذا وقد وجه الرئيس في تلك الليلة رسالة الى ستالين ، حثـه فيها على وجوب دعوة ممثلين عن حكومة لوبلين ، وممثلين آخرين عن حكومة لندن ، يأتون من انكلترا او من داخل بولندا نفسها للمجيء الـى يالته ، والاشتراك في المؤتمر ، وان يحاولوا معا ، وبحضورنا ، الاتفاق على حكومة مؤقتة ، نستطيع الاعتراف بها جميعا ، لتتولى اجراء الانتخابات الحرة في اسرع وقت ممكن ، ولكن بدا أن هذا الاقتراح غـير عملي ، فقد اطرى مولوتوف فضائل حكومـة لوبلين ـ وارسو ـ وحمل علي مساوىء جماعة لندن وعيوبهم ، وقال ، اننـا اذا حاولنا خلق حكومة جديدة ، فان البولنديين انفسهم قد لا يصلون الى اتفاق ابدا ، ولذا ، فانه من الافضل « توسيع » الحكومة القائمة ، وستكون هذه الحكومة على كل حال مؤقتة ، اذ ان هدفنا الوحيد جميعا ، هو اجراء انتخابات حرة في بولندا في اسرع وقت ممكن ، وسيتفق على

طريقة تدعيم الوزارة مع السفيرين البريطاني والامريكي في موسكو ، ولكونه راغبا في الاتفاق فانه يقبل اقتراح الرئيس روزفلت بدعوة بولنديين من غير رجال حكومة لوبلين ، ولما كان هناك احتمال بأن ترفض حكومة لوبلين التحدث الى بعضهم كميكولاجيك مثلا ، الا انه اذا ما بعثوا بثلاثة ممثلين وجاء ممثلان من اولئك الذين اقترحهم المستر روزفلت فان المحادثات قد تبدأ فورا .

وهنا قلت : ان هذه النقطة هي عقدة المؤتمر بالذات ، وان العالم كله يرقب تسوية هذه القضية ، واذا افترقنا من هنا وما زال كل منا يعترف بحكومة بولندية تختلف عن الاخرى ، فان العالم بأسره سيرى ان الخلافات الجوهرية ما زالت قائمة بيننا ، وستكون النتائج باعثة على الاسى ، وستحكم على اجتماعنا بالفشل الذريع ، واذا أطحنا بحكومة لندن ، وأيدنا حكومة لوبلين ، فسترتفع هناك ضجة عالمية ، وسيحتج علينا جميع البولنديين الذين يعيشون خارج بولندا .

ولما كان يعمل معنا جيش بولندي يضم مائة وخمسين الفا ، جمعوا من كل الرجال القادرين على حمل السلاح خارج بولندا ، وقد قاتل هذا الجيش وما زال يقاتل ببسالة ، فأنا لا استطيع ان اصدق بأن هذا الجيش سيرضى ابدا عن حكومة لوبلين ، واذا كانت بريطانيا العظمى ، ستنقل اعترافها من الحكومة التي اعترفت بها منذ بداية الحرب ، الى حكومة لوبلين ، فان هؤلاء الجنود سينظرون اليها على انها خانتهم .

ومضيت اقول : ولا ريب في ان الماريشال ستالين والمسيو مولوتوف يدركان تمام الادراك ، بأنني لم اكن راضيا عن اعمال حكومة لندن ، التي كنت ارى فيها الحمق في كل مرحلة من المراحل ، ولكن نقل اعترافنا رسميا من هؤلاء الذين كنا نعترف بهم حتى الآن ، الى هذه الحكومة الجديدة ، سيعرضنا الى اشد ما يمكن من النقد ، وسيقال ان حكومة جلالته ، قد سلمت تسليما كاملا في موضوع الحدود الشرقية ، كما فعلنا حقا ، واننا قد قبلنا وتبنينا الدفاع عن وجهة النظر السوفياتية ، وسيقال ايضا اننا فصمنا علاقاتنا كلية مع حكومة بولندا الشرعية ، التي اعترفنا بها طيلة السنوات الخمس الماضية من الحرب ، واننا لا نعرف شيئا عن حقيقة ما يقع في بولندا ، فنحن لا نستطيع دخول تلك البلاد ، ولا نستطيع ان نرى ، وان نسمع حقيقة الراي العام فيها ، كما سيقال اننا نقبل كل ما تقول به حكومة لوبلين عن رأي الشعب البولندي ، وسنتهم في برلماننا نفسه ، بأننا تخلينا عن قضية بولندا ، وستكون المناقشات التي ستتلو ذلك في البرلمان مؤلمة كل الايلام ، ومربكة لوحدة الحلفاء ، حتى ولو افترضنا اننا قد تمكنا من قبول اقتراحات صديقي المسيو مولوتوف .

واستطردت اقول : واعتقد ان هذه الاقتراحات ستقربنا الى الوصول الى حل ، فاذا تخلينا عن حكومة لندن البولندية ، فيجب ان نبدأ بداية جديدة من الطرفين على اسس متكافئة تقريبا ، فقبل ان نتوقف عن الاعتراف بحكومة لندن ، وقبل ان ننقل هذا الاعتراف

الى حكومة اخرى ، يجب ان نتأكد من ان هذه الحكومة الجديدة تمثل حقا الشعب البولندي ، وانا اوافق على ان هذه وجهة نظر واحدة ليس الا ، لاننا لا نعرف حقا ، جميع الحقائق وستزول جميع خلافاتنا حتما ، اذا جرت انتخابات عامة وحرة في بولندا على اساس الاقتراع السري ، والتصويت العام ، وحرية الترشيح ، واذا ما تحقق هذا ، فان حكومة بريطانيا ، ستحني رأسها اجلالا للحكومة التي تتمخض عنها مثل هذه الانتخابات ، ودون ان تكترث بحكومة لندن ، ولا ريب في ان الفترة التي تسبق الانتخابات هي التي تسبب لنا الكثير من القلق .

وقال مولوتوف : انه يأمل ان تسفر محادثات موسكو عن نتائج مجدية ، وستتاح الفرصة للبولنديين ليقولوا ما يريدونه ، وسيكون من الصعب معالجة الموضوع بدون وجودهم ، وقد وافقته على رأيه ، ولكنني قلت ان من المهم ان ينفض المؤتمر ، وقد ظهر بمظهر المتفق على شيء يجب ان نعمل جميعا بأناة للوصول اليه .

وهنا تدخل ستالين ، فتناول شكواي من اننا لا نتلقى اية معلومات ولا سبيل لنا للوصول الى هذه المعلومات .

فرددت عليه ، بأن لدي بعض المعلومات .

فقال : ولكنها لا تتفق مع معلوماتي ، ثم مضى يؤكد لنا ان حكومة لوبلين ، تحظى بتأييد الشعب ولا سيما بيروت وغيره من رجالها ، فهؤلاء الرجال لم يغادروا البلاد ابان الاحتلال الالماني لها ، ولكنهم ظلوا يعيشون في وارسو طيلة الوقت . ثم خرجوا من اماكن اختفائهم الى حيث يوجدون الآن وهو لا يعتقد انهم من العباقرة ، فقد تضم حكومة لندن رجالا اكثر منهم ذكاء ولكن الشعب لا يحبهم ، لانه لم يرهم معه يحتملون معه آلام الاحتلال الالماني ، في الوقت الذي كان يرى فيه اعضاء الحكومة المؤقتة ، ولكنه كان يتساءل : اين هم رجال حكومة لندن ؟ ولا ريب في ان هذه المشاعر ، حطمت نفوذ حكومة لندن ، وكانت السبب في أن يتمتع رجال الحكومة المؤقتة بمثل هذه الشعبية العظيمة مع انهم ليسوا من الرجال العظام ، واضاف يقول :

كما انه ليس في وسعنا ان ننسى كل هذه الامور ، اذا اردنا حقا تفهم المشاعر الصادقة للشعب البولندي ، وقال ان المستر تشرشل يخشى ان ينفض المؤتمر قبل الوصول الى اتفاق ، فماذا يمكن ان نفعل يا ترى ؟ فالحكومات المختلفة تملك معلومات متباينة ، وتبني على هذه المعلومات استنتاجات متفاوتة ، ولعل اول ما يجب ان نفعله ، هو ان ندعو البولنديين من مختلف المعسكرات والفئات ، وان نستمع الى ما يقولونه وقد حان الوقت الذي فيه يصبح في الامكان اجراء الانتخابات والى ان يتم ذلك فعلينا ان نتعامل مع الحكومة المؤقتة ، كما تعاملنا مع حكومة الجنرال ديغول في فرنسا ، وهي حكومة لم تنتخب ايضا ، وهو لا يستطيع ان يحدد ما اذا كان بيروت يتمتع بشعبية اكثر من ديغول او ان ديغول يتمتع بشعبية اكثر منه ، ولذا فلم لا نفعل الشيء نفسه مع بيروت كما فعلنا مع ديغول وان نعقد معه معاهدة مماثلة لتلك التي عقدناها مع الجنرال ؟ ولا ريب في ان اية حكومة تعمل في

بولندا ، لن تكون اقل ديموقراطية من حكومة ديغول ، واذا ما عالجنا الموضوع بدون اهواء وميول امكننا الوصول الى اتفاق مشترك . فالوضع ليس على النحو الذي صوره المستر تشرشل من الاسى ، وفي الامكان حل القضية ، اذا لم نعلق كبير اهمية على القضايا الثانوية وركزنا اهتمامنا على القضايا الجوهرية .

وتساءل الرئيس روزفلت : ترى متى يصبح في الامكان اجراء انتخابات ؟

فقال ستالين : في بحر شهر ، الا اذا وقعت كارثة في الجبهة ، وهو امر بعيد الاحتمال .

ووافقت على ان مثل هذا القول يزيل قلقنا ، وفي وسعنا ان نؤيد من صميم قلوبنا حكومة تنتخب انتخابا حرا ، ولكن يجب الا نطلب شيئا قد يؤدي في اي حال من الاحوال الى عرقلة العمليات الحربية ، فهي الهدف الاول والاهم ، واذا كان في الامكان الوقوف على راي الشعب البولندي في مثل هذا الوقت القصير او حتى في بحر شهرين ، فان الوضع يختلف آن ذاك كل الاختلاف ولن يكون في وسع اي انسان الاعتراض عليه .

وعندما عدنا للاجتماع في اليوم التاسع من شباط عام ١٩٤٥ ، تقدم مولوتوف باقتراح جديد : وهو ان يعاد تشكيل حكومة لوبلين ــ بدلا من « توسيعها » ــ على اسس ديموقراطية اكثر شمولا ، بحيث تضم زعماء ديموقراطيين من الذين يعيشون داخل بولندا نفسها او في خارجها وسيتشاور هو مع السفير البريطاني والامريكي في موسكو في الطريقة التي يتم بها تحقيق ذلك ، ومتى اعيد تنظيم حكومة لوبلين فستتعهد باجراء انتخابات حرة في اسرع وقت ممكن ، وسنعترف باية حكومة تنبثق عن تلك الانتخابات .

وقد قلت ان اقتراح مولوتوف لا بأس به ، ولكنني ارى من واجبي ان اوجه انذارا عاما ، وهو انه من حيث ان هناك جوا من الاتفاق ، فاني اشعر انه ليس في امكاننا ان نسمح للعجلة بالتدخل في تسوية مثل هذه القضايا الهمة ، وان نضيع ثمار مؤتمرنا ، لعدم رغبتنا في مد مؤتمرنا اربعا وعشرين ساعة اخرى ، ويجب الا نرتجل قراراتنا ارتجالا ، وقد تكون هذه الايام من اهم الايام في حياتنا .

هذا وقد اعلن المستر روزفلت ، ان الخلافات بيننا وبين الروس اصبحت شكليات ليس الا ، واكد انه يهمه كما يهمني جدا ان تكون الانتخابات حرة ونزيهة حقا ، وقلت لستالين : اننا نشعر بنقص معيب في معرفة حقيقة ما يدور في داخل بولندا ، ومع ذلك يطلب الينا ان نتخذ قرارات خطيرة تتناول مسؤوليات ضخمة ، فقد كنت اعرف مثلا ان هناك شعورا بالمرارة والالم بين البولنديين ، لما قيل لي ان حكومة لوبلين قد اعلنت بصراحة عن عزمها على محاكمة جميع افراد الجيش البولندي الداخلي وحركة المقاومة السرية كخونة ، ولو اني اولى قضية سلامة الجيش الاحمر المقام الاول من اهتمامي ، الا انني ارجو من ستالين

ان يدرس الصعوبة التي نواجهها ، فالحكومة البريطانية لا تدرك حقيقة ما يدور في بولندا ، الا عن طريق القاء بعض الرجال البواسل بالمظلات ، وخروج بعض اعضاء حركة المقاومة الداخلية ، واكدت له انه ليست لدينا وسائل اخرى للمعرفة ، واننا لا نود الحصول على معلومات بهذه الطريقة ، فهل يمكن اصلاح هذا الموضوع دون عرقلة حركات القوات السوفياتية ؟ وهل يمكن منح تسهيلات للبريطانيين والامريكيين ليروا بأنفسهم كيف تسوى المنازعات البولندية ؟

وقد ذكر تيتو انه عندما تجري الانتخابات في يوغوسلافيا فلن يعارض في حضور المراقبين الروس والبريطانيين والامريكيين ، لينقلوا الى العالم بشكل غير متحيز ان هذه الانتخابات قد جرت بصورة عادلة ونزيهة .

امـا بالنسبة لليونان ، فـان حكومة جلالته تتعهد بـأن ترحب ترحيبا حـارا بمجيء المراقبين الامريكيين والبريطانيين والروسيين ليتحققوا من ان الانتخابات ستتم كما يشتهي الشعب ، وهذا ينطبق ايضا على ايطاليا ، ومن المستحيل ان يبالغ المرء في تقدير اهمية اجراء الانتخابات بصورة نزيهة ، فمثلا : هل يستطيع ميكولاجيك ان يعود الى بولندا ، لينظم حزبه قبل الانتخابات ؟

فقال ستالين : هذا موضوع يدرسه السفراء مع المسيو مولوتوف عندما يجتمعون بالبولنديين .

فقلت : انه يجب ان اتمكن من ابلاغ مجلس العموم ان الانتخابات ستكون حرة ، وانه ستكون هناك ضمانات فعالة ، بأنهـا ستجري في جو من الحرية والنزاهة .

واشار ستالين : الى ان ميكولاجيك يمت الى حزب الفلاحين ، ولما لم يكن هذا الحزب من الاحزاب الفاشية ، فسيسمح له بالاشتراك في الانتخابات والتقدم بمرشحيه ، وقلت : ان هذا الامر سيتأكد اكثر واكثر اذا كان حزب الفلاحين ممثلا في الحكومة البولندية ، ووافق ستالين على وجوب ضم احد ممثلي الحزب الى الحكومة ، واضفت بأنني ارجو الا يكون في اي شيء قلته ما يدعو الى الاساءة .

ورد ستالين قائلا : يجب ان نسمع ما سيقوله البولنديون على اي حال ، واوضحت انني ارغب في ان احمل البرلمان على قبول موضوع الحدود الشرقية ، وانا اعتقد ، ان البرلمان قد يتساهل في هذا الموضوع اذا اقتنع بأن البولنديين قد تمكنوا من ان يقرروا لانفسهم ما يريدونه حقـا .

فرد ستالين قائلا : ان بينهم عددا لا بأس به من الناس الطيبين ، وهم محاربون من خيرة الجنود ، وظهر بينهم عدد لا بأس به من العلماء والموسيقيين ولكنهم شعب مشاكس بطبعه .

فقلت : ان كل ما اريده ، هو ان يتمكن جميع الافراد من اسماع كلمتهم .

وقال الرئيس : يجب ان تكون الانتخابات فوق مستوى النقد ، وكل ما اريده هو نوع من التأكيد استطيع ان اقدمه الى العالم ، ولا اريد ان يشك اي انسان في العالم في نزاهة هذه الانتخابات ، والمسألة مسألة مبدأ .

واقترح المسيو ستيتينوس ، ان نكتب تعهدا خطيا بأن يؤكد السفراء الثلاثة في وارسو ، بناء على ملاحظاتهم ، ان الانتخابات جرت حقا في جو من الحرية والحيدة ، فقال مولوتوف : انني اخشى اننا اذا قمنا بذلك ، حملنا البولنديين على الشعور بأننا لا نثق فيهم ، وأرى من الخير ان نبحث هذا الموضوع معهم .

ولم اقتنع بهذا ، وقررت اثارة الموضوع مع ستالين في وقت آخر ، وقد حانت الفرصة في اليوم التالي ، عندما قابلته ومعي المستر ايدن بحضور مولوتوف ، وشرحت له من جديد ، ما نحس به من صعوبة لعدم وجود من يمثلنا في بولندا ، لكي يتمكن من ان ينقل الينا ما يدور هناك ، وقلت : ان هناك احتمالين اما أن نبعث سفيرا مع عدد من موظفي السفارة ، او نبعث بلفيف من المراسلين الصحفيين ، ولم يكن راغبا في ارسال الصحفيين .

وقد قلت له : انني سأسأل في البرلمان عن حكومة لوبلين ، وعن الانتخابات وان من الواجب ان اعرف ما هناك لاتمكن من الرد .

وقد قال ستالين : بعد الاعتراف بالحكومة البولندية الجديدة سيكون في وسعكم ارسال سفير الى وارسو .

فعدت اسأله : وهل سيكون حرا في التنقل داخل البلاد ؟

فقال ستالين : اما من ناحية الجيش الاحمر ، فلن يكون هناك تدخل منه وأعدك بأنني سأصدر التعليمات اللازمة ، ولكن عليك أن تقوم بترتيباتك الخاصة مع الحكومة البولندية .

ولذلك فقد قررنا اضافة الفقرة التالية الى اعلاننا :

« وعلى ضوء ما تقدم ، فسينطوي الاعتراف على تبادل السفراء لكي تستطيع الحكومات المعنيات على ضوء تقاريرهم ، ان تعرف حقيقة الوضع في بولندا » .

وكان هذا هو ما امكن الحصول عليه .

وهكذا ، انتهت زيارتنا للقرم في اليوم الحادي عشر من شباط الا انه قد ظلت عدة قضايا خطيرة ــ كما هو المألوف في مثل هذه المؤتمرات ــ دون حل ، وقد وضع البيان الذي اصدرناه عن بولندا سياسة في خطوط عريضة ، لو قدر لها أن تتبع باخلاص وولاء وصدق لادت غرضها حقا حتى يحين موعد مؤتمر الصلح العام .

عبور الراين

قرر الالمانيون ، على الرغم من الهزيمة التي لحقت بهم في الاروين ، ان يخوضوا معركة جديدة الى الغرب من الراين ، بدلا من الانسحاب عبر النهر ، ليستجمعوا قواتهم ، ويلتقطوا انفاسهم ، ولذلك فقد خاض الماريشال مونتغمري معركة طويلة وشاقة طوال شهر شباط ومعظم شهر آذار ، لان الخطوط الدفاعية الالمانية كانت قوية وقد أصروا على الدفاع عنها بعناد ، وقد كانت الارض موحلة بسبب فيضان نهري الراين والموز ، ولما كان الالمانيون ، قد حطموا فتحات السدود الكبيرة المقامة على الروهر ، فقد اصبح النهر غير صالح للعبور ، واستمر الحال كذلك حتى نهاية شهر شباط ، ومع ذلك فقد تراجعت ثماني عشرة فرقة المانية الى ما وراء النهر في اليوم العاشر من آذار ، مما مكن الجنرال برادلي من تطهير الارض الممتدة ثمانين ميلا والواقعة بين دسلدورف وكوبليتز بعد حملة سريعة وقصيرة .

وفي السابع من الشهر واتت الحلفاء فرصة سانحة ، فسارعوا الى اغتنامها ، فقد وجدت الفرقة المدرعة التاسعة التابعة للجيش الامريكي جسر السكة الحديد في ريماجن مدمرا جزئيا ولكنه ما زال صالحا للاستعمال ، فاندفع قائد الفرقة بطلائعه فوق الجسر وتبعته القوات الاخرى ، ولم يمر وقت طويل حتى كانت اربع فرق قد عبرت النهر وأقامت لها رأس جسر يمتد عدة اميال ، ولم يكن هذا الاندفاع جزءا من خطة ايزنهاور ، ولكنه برهن على انه عامل مساعد ممتاز ، مما اضطر الالمان الى تحويل قوات مهمة الى الشمال لصد الاندفاع الامريكي وتمكن باتون من قطع خطوط العدو حول تريبر وتحطيمها ، وبذلك تم تطويق المدافعين عن خط سيغفريد المخيف ، ولم تمض بضعة ايام حتى توقفت كل مقاومة منظمة للعدو في هذه الناحية .

وكنتيجة فرعية لهذا الانتصار ، قامت الفرقة الامريكية الخامسة بعبور نهر الراين على بعد خمسة عشر ميلا الى الجنوب من ماتينز .

وبعد معارك مستمرة دامت ستة اسابيع على جبهة طولها مائتان وخمسون ميلا ، اضطر العدو الى الانسحاب الى ما وراء الراين ، بعد ان مني بخسائر لا يستطيع تعويضها في الرجال والعتاد ، هذا وقد لعبت قوات الحلفاء الجوية دورا بارز الاهمية في هزيمة العدو ، وانزال الفوضى بقواته ، ووقتها تدخل سلاح الجو الالماني المنهار ، كما كانت الغارات المستمرة التي تشنها قاذفاتنا الثقيلة ، سببا في انقاص انتاج الزيت عند الالمان الى درجة كبيرة ، وفي تخريب مصانعه ومواصلاته ، بحيث ارغمتها تقريبا على التوقف .

وقد رغبت في ان اشهد مع جيوشنا عبور الراين ، وأخذت معي سكرتيري جوك كولفيل ومرافقي البحري تومي ، وطرنا الى مقر القيادة البريطانية ، على مقربة من فيناو ، وانتقلنا بعد ذلك الى عربة خرائط مونتغمري واطلعت على جميع الخرائط التي اعدتها مجموعة منتقاة من الضباط ، أوضحوا فيها جميع الخطط المتعلقة بهجومنا وتوزيع قواتنا ، وكان علينا ان نشق طريقا لنا عبر النهر في عشر نقاط على جبهة تمتد عشرين ميلا من رينسبرغ الى ريس ، وتقرر ان نستخدم جميع مواردنا ، حيث يوجد ثمانون ألف جندي يؤلفون مقدمة جيوش يبلغ تعداد رجالها مليونا على الاقل ، كما كان يوجد حشد كبير من القوارب والعوامات على اهبة الاستعداد ، وفي الوقت نفسه كان يقف الجنود الالمان على الطرف الثاني من النهر داخل خنادقهم ، وقد انتظموا وتسلحوا بأحدث معدات الحرب والقوة النارية .

وكنت طبقا لدراساتي او لاختباراتي في الحروب ، اشك في ان يصبح اي نهر حاجزا طبيعيا للدفاع ضد عدو متفوق ، ولهذا فقد كنت أعلق آمالا ضخمة على المعركة ، حتى قبل ان يشرح لي المارشال الخطط التي وضعت لها ، يضاف الى ذلك انه اصبحت لنا السيادة المطلقة في الجـو .

هذا وقد اراد القائد العام ان يوضح لي بصورة خاصة طريقة انزال فرقتين محمولتين في الجو تضمان نحوا من اربعة عشر الف رجل مع مدافعهم ومعدات الهجوم ، وراء خطوط العدو ، وكان قد اعد لي مكانا فوق رابية لكي اراقب فيه من الصباح حركات الهبوط من الجو ، وعند الضحى سمعنا هدير الطائرات الهائل فوق رؤوسنا ورأينا اسرابها تندفع من الافق ، وتعود بعد ان تتم قصف مواقع العدو ، الا انني شعرت بالاسى عندما رأيت الطائرات في اثناء عودتها وبعضها يتصاعد منه الدخان والبعض الآخر ينبعث منه اللهب ، كما رأيت ايضا في هـذه اللحظة بقعا صغيرة تندفع عائمة نحو الارض ، مما سبب لي ألما قاسيا جـدا .

ثم اخذت اطوف بالسيارة في جولة طويلة من نقطة الى اخرى مارا بمختلف قيادات الفيالق ، وقد سارت الامور على ما يرام طوال ذلك اليوم ، وتركزت الفرق الاربع المهاجمة وهي الفرقتان الخامسة عشرة والحاديـة والخمسون البريطانيتان والفرقتان « الثلاثون والتاسعـة والسبعون الامريكيتان » تركزت عبر النهر وأقامت رؤوس جسور بجوار النهر تمتد خمسة آلاف باردة ، كما كان ضرب اسلحة الحلفاء الجوية الذي لا يفوقه في العنف الا ما حدث يوم الغزو في نورماندیا ، يشمل ايضا القوات الجوية الاستراتيجية العاملة من بريطانيا والقاذفات الثقيلة العاملة من ايطاليا ، والتي توغلت الى مسافات بعيدة في المانيا .

وعندما عدنا في المساء الى غرفة الخرائط ، أتيحت لي فرصة رؤية اساليب مونتغمري في ادارة دفة المعركة ، حيث رأيت سلسلة متعاقبة من الضباط الشبان لا يتجاوز اعلاهم مرتبة الرائد ، يتوافدون واحدا بعد

الآخر بعد ساعتين ، وقد عاد كل منهم من احد قطاعات الجبهة ، وهؤلاء الضباط هم الممثلون الشخصيون المباشرون للقائد العام ، وفي وسعهم ان يذهبوا الى اية جهة يريدونها ، وأن يوجهوا اي سؤال الى القادة في الاماكن التي يذهبون اليها كما يبلغونهم اوامر القائد العام ، وعندما قدم كل منهم تقريره واجاب على اسئلة القائد العام الكثيرة والدقيقة والشديدة الاهتمام بكل شيء ، اتضحت القصة الكاملة لمعركة اليوم ، وكانت هذه خير طريقة للتثبت من الوقائع التي تسردها التقارير الواردة من مختلف القيادات والقادة ، والتي عهد الى الجنرال دي غوينغانير رئيس اركان حرب مونتغمري بقراءتها وفحصها ، واعتقد ان هذا النظام مفيد جدا ، وانه الوسيلة التي يستطيع القائد العصري بوساطتها ان يرى وان يقرأ ما يقع في كل جزء من اجزاء الجبهة .

وقد ذهبنا في اليوم التالي الموافق الخامس والعشرين من آذار لمقابلة ايزنهاور ، واجتمعنا به ، وكان معه حشد من القادة الامريكيين ، وبعد ان تحدثنا في مختلف الشؤون ، قال ايزنهاور ان هناك بيتا على الطرف الذي نقف عليه من الراين ، وهو يبعد نحو عشرة اميال من هنا ، ويمكن مشاهدة النهر والضفة الثانية منه بصورة واضحة ، واقترح ان نذهب الى ذلك البيت ، وقد وجدنا على مقربة من ضفتنا قاربا بخاريا صغيرا ، فقلت لمونتغمري دعنا نعبر به النهر لنلقى نظرة على الضفة الاخرى ، فوافق ، وبعد ان قام ببعض التحريات شرعنا في عبور النهر ومعنا اربعة من القادة الامريكيين وستة من الجنود المسلحين ، ونزلنا بمنتهى الهدوء على الجانب الالماني وسرنا هناك على الضفة نحوا من نصف ساعة دون ان يزعجنا احد .

وعندما عدنا طلب مونتي ، ان نذهب الى الجسر الحديدي في ويل لنرى بأنفسنا ما يجري هناك ، فركبنا سيارة الى هناك حيث كان الالمان يردون على نيراننا بقذائف كانت تتساقط في مجموعات اربع على بعد نحو ميل منا ، كما سقطت عدة قذائف اخرى بين السيارات التي كانت خلفنا ، ولهذا فقد تقرر ان نبتعد عن هذا المكان ، وقد عدنا الى مقر القيادة ثانيا .

هذا ، وقد واصلت جيوشنا تقدمها ، وفي ختام الشهر ، كنا قد استولينا على مسطح كبير يمتد الى الشرق من نهر الراين ، استطعنا منه ان نشن عملياتنا الرئيسية الى داخل المانيا الشمالية ، اما في الجنوب فان الجيوش الامريكية على الرغم من مواجهتها مقاومة جدية الا انها تقدمت تقدما عظيما ، بفضل شجاعتها ، كما تم عبور الراين في اماكن اخرى الى الجنوب من كوبليتر وعند وورمز ، ووصل الجيش الامريكي الثالث في التاسع والعشرين من آذار الى فرانكفورت ، وتم تطويق حوض الروهر وحماته الذين يبلغ تعدادهم ثلاثمائة وخمسة وعشرين الفا ، وبذلك فقد انهارت جبهة المانيا الغربية بأكملها .

وعلى هذا الاساس ، فقد استعلمت عن الخطة الاستراتيجية التي

اعدتها قيادة الحلفاء العليا لتقدم الجيوش الانجلو - امريكية ، وأبرق الى الجنرال ايزنهاور يقول :-

أقترح ان نزحف شرقا ، لنلتقي مع الروس ، او لنقيم خطا عاما على نهر الالب ، وأرى ان هذا يتوقف على رأي الروس ، وان محور كاسيل - لايبزغ ، هو خير مكان للزحف ، اذ يضمن اجتياح تلك المنطقة الصناعية الهامة ، التي يعتقد بأن الوزراء الالمان قد انتقلوا اليها ، كما انه سيشطر القوات الالمانية شطرين ، ولن يقحمنا في مشكلة عبور نهر الالب ، وان هذه الخطة تستهدف تجزئة ما تبقى للعدو من قوات رئيسية في الغرب وتحطيمها .

هذا هو الاتجاه الاساسي لزحفنا ، واذا لم يتضح لنا ان تركيز جميع جهودنا على هذا الاتجاه ، لم يعد ضروريا ، فانني على استعداد لان أوجه جميع قواتي لاضمن نجاح هذا الهدف .

وعندما نتأكد من نجاح الاندفاع الرئيسي ، فانني اقترح القيام بتطهير الموانىء الشمالية ، وهي عملية تساعد على عبور نهر الالب من ناحية كييل ، وسيكون مونتغمري مسؤولا عن هذه العمليات ، وانا اعتزم زيادة القوات العاملة تحت امرته اذا رأيت ذلك ضروريا لاداء العمل المطلوب منه .

وعلمت ايضا ، ان ايزنهاور ، قد اعلن سياسته هذه في برقية مباشرة بعث بها الى ستالين في الثامن والعشرين من آذار ، اخبره فيها ، انه بعد عزل نهـر الروهر ، سيندفع مباشرة على محور ويرفورت - لايبزغ - دريسدن ، ليلتقي بالجيوش الروسية ، وليشطر ما تبقى من قوات المانيا ، وسيقوم بتقدم فرعي آخر عبر ريفينسبرغ الى ليتر ، حيث يتوقع ايضا الالتقاء بالجيوش الروسية وليحول دون تركيز المقاومة الالمانية في الكمائن الموجودة في جنوبي المانيا .

وقد وافق ستالين في الحال على اقتراحات ايزنهاور ، وقال بأنها تتفق تمام الاتفاق مع الخطة التي وضعتها القيادة العليا السوفياتية ، واضاف ستالين يقول :

اما برلين فقد فقدت قيمتها الاستراتيجية السابقة ، ولهذا فان القيادة العليا السوفياتية تعتزم تحويل قوات ثانوية في اتجاه برلين ، ولكن الاحداث التالية كانت تتعارض تماما مع هذا البيان .

ولما كان هذا الموضوع مهما للغاية فقد ابرقت الى الرئيس في اول نيسان اقول :-

من الواضح انه اذا نحينا جانبا كل عائق ، وتجاهلنا كل انحراف ، فان الواجب يقضي على جيوش الحلفاء في الشمال والوسط ، ان تتجه الآن وبأقصى سرعة ممكنة نحو نهر الالب ، وهنا يكون المحور مرتكزا على برلين ، اما الجنرال ايزنهاور ، فبالنسبة الى تقديراته لمقاومة العدو والتي اعلق عليها بدوري اهمية عظمى ، يود الآن ان يوجه المحور نحو

الجنوب ليضرب في اتجاه لايبزغ ، وحتى في اتجاه دريسون في الجنوب البعيد ، وانني لاقول بمنتهى الصراحة ، ان برلين ما زالت على جانب كبير من الاهمية الاستراتيجية ، فلا شيء يمكن ان يؤدي الى التأثير نفسيا والايحاء باليأس لجميع قوات المقاومة الالمانية من سقوط برلين نفسها ، انها ستكون الدليل الاكبر على الهزيمة بالنسبة الى الشعب الالماني ، اما اذا تركت منفردة ليحاصر الروس ما تبقى من حطامها ، وليظل العلم الالماني خفاقا فوقها ، فانها ستبعث المقاومة والحيوية عند جميع الالمان الذين يحملون السلاح .

وهناك ايضا ناحية اخرى ، ارى من الجدير بنا ، ان نجعلها موضع الاعتبار ، فلا ريب ان الجيوش الروسية ستجتاح جميع اراضي النمسا ، وتدخل الى فيينا ، واذا كانوا هم الذين سيدخلون الى برلين ايضا ، افلا يؤدي ذلك الى ان الانطباع الذي يحملونه بأنهم هم الذين اسهموا اسهاما اكبر في نصرنا المشترك ، سيتركز في عقولهم بشكل لا ضرورة له ، كما يؤدي هذا ايضا الى قيام حالة فكرية لديهم تثير لنا الكثير من المتاعب الخطيرة والقاسية في المستقبل ، ولهذا فاني ارى من الناحية السياسية ان علينا ان نسرع بالزحف شرقا الى المانيا باقصى سرعة ، حتى اذا وقعت برلين في قبضتنا فاننا نستولي عليها ، ويبدو لي ان هذا الرأي سليم من الناحية العسكرية ايضا .

ولكن حالة الرئيس الصحية ، كانت في هذا الوقت ، قد ساءت الى الحد الذي اصبح فيه ، الجنرال مارشال ، هو الذي يعالج هذه القضايا الخطيرة ، وان كنت لم اكن اعرف هذه الحقيقة ، وقد رد المسؤولون في الولايات المتحدة بما معناه ، ان خطة ايزنهاور تبدو متفقة مع الاستراتيجية المتفق عليها ومع توجيهات واشنطن ، فقد كان يوزع عبر الراين في الشمال اقصى ما يمكن استخدامه من قوات . اما المجهود الثانوي الى الجنوب ، فقد كان يحقق نجاحا بارزا ، ويجري استغلاله بقدر ما تسمح به ظروف التموين ، كما انهم على ثقة من ان عمل القائد الاعلى ، سيضمن الموانىء وكل ما ذكره البريطانيون بصورة اكثر حسما من الخطة التي يقترحها البريطانيون .

وقالوا ان معركة المانيا قد وصلت الى الحد الذي يجب ان يترك فيه الى قائد الميدان ، الحكم على الاجراءات التي يجب عليه ان يتخذها ، وان يقرر بنفسه هذه الاجراءات ، وليس من الحكمة في شيء ان نبعد انظاره بصورة متعمدة عن استغلال ما يبدو على العدو من ضعف ، فالهدف الوحيد يجب ان يكون النصر السريع الكامل ، وعلى الرغم من ان واشنطن تدرك وجود عوامل لا تعني القائد العام مباشرة ، الا انهم يرون ان مفاهيمه الاستراتيجية سليمة كل السلامة .

كما اكد لي ايزنهاور نفسه ، انه غير غافل مطلقا عن الاهمية العظمى في الزحف نحو الساحل الشمالي ، على الرغم من ان برقيتك التي ارسلتها الي والتي ترغبون فيها تحقيق اهداف ذات اهمية عظمى بالنسبة للسياسة

العامة ، واني لارى النقطة التي اشرت اليها في هذا الصدد بكل وضوح . كما انه لكي اضمن نجاح مجهود من المجهودات التي خططت لها ، فانني اركز جهودي اولا على الوسط ، لاحصل على الوضع الذي احتاج اليه ، وارى كما يبدو لي الآن ، ان الخطوة التالية التي يجب ان نقوم بها ؛ هي ان نسمح لمونتغمري بعبور نهر الالب ، وان نعزز قواته بما تقضي به الضرورة من قوات امريكية ليصل الى خط يضم لوبيك على الشاطىء ، واذا كانت المقاومة الالمانية من الآن فصاعدا ، ستنهار حتما ، ففي وسعك الا ترى فرقا كبيرا في الزمن ، بين ما اراه من كسب موضع في الوسط ، وما تراه انت من عبور نهر الالب ، اما اذا كانت المقاومة الالمانية ستستمر ، فانني ارى من الضروري جدا ، ان اركز كل مجهود على حدة ، والا اسمح لنفسي بالتشتت والضياع في محاولة القيام بجميع المشروعات في وقت واحـد .

ومن الطبيعي ، انه اذا وقع الانهيار فجاة في اية لحظة وفي كل مكان مـن الجبهة فسنندفع الـى الامام بسرعة وستكون لوبيك وبرلين بين اهدافنا المهمة .

وبعد ان شكرته قلت له انني لا ازال اعلق اهمية كبرى على دخول برلين وهي كما يبدو من رد موسكو ، مفتوحة امامنا ، اذ قالت في البرقية ، ان برلين قد فقدت اهميتها الاستراتيجية السابقة ، وانني ارى مـن الاهمية بمكان عظيم ان نلتقي بالروس في ابعد نقطة الى الشرق ، مهما كانت الاسباب ، اذ قد تحدث اشياء كثيرة في الغرب قبل ان يبدأ ستالين هجومه الرئيسي .

ورايت من واجبي ان انهي هذا النقاش ، وان اسجل اعتقادي بانه لا بد ان تكون قد تغلبت على واشنطن آراء اطول مدى واوسع افقا كما انه من الحق ان يقال ان التفكير الامريكي ، لا يهتم مطلقا بالقضايا التي تبدو ذات علاقة بالتوسع الاقليمي ، وقد اتضح لي ان نقاط الخلاف بيننا لم تكن كبيرة الاهمية بالنسبة الى قادة الولايات المتحدة ، ولكن هذه النقاط قد لعبت دورا مسيطرا في مصير اوروبا .

وفي وسعنا الآن ان نرى الفجوة المخيفة التي قامت بين اضمحلال قوة الرئيس روزفلت ، ونمـو قوة الرئيس ترومان وسيطرته علـى المشكلات العالمية ، ففي هذا الفراغ المحزن ، لم يكن في وسع رئيس في طريق الرحيل عن الحياة ان يعمل ، ولا في وسع رئيس جديد ان يعرف ، ولم يكن القادة العسكريون ، ولا رجال وزارة الخارجية يتلقون التوجيه الذي يحتاجون اليه ، فالاوائل حصروا انفسهم في مجالاتهم المهنية ، والآخرون لـم يفهموا القضايا الخطيرة التي تنطوي عليها الاحتمالات ، وهكذا فقد التوجيه السياسي الذي لا مندوحة عنه ، في اللحظة التي كان الجميع في اشد الحاجة اليه ، ووقفت الولايات المتحدة على مسرح النصر مسيطرة على مصير العالم ، دون ان يكون لها تصميم صادق او منسجم ، اما بريطانيا فعلى الرغم من قوتها الكبيرة جدا ،

فقد كانت عاجزة عن تقرير الامن بشكل حاسم وحدها ، ولم يكن في وسعي في هذه المرحلة ان افعل غير التحذير والرجاء .

وهكذا فقد اصبحت هذه الذروة من النجاح الظاهري الذي لا حدود له من اكثر اللحظات ألما وشقاء على نفسي ، وكنت اسير بين الحشود الهاتفة او اجلس الى المائدة التي ازدانت برسائل التهاني والتبريك ، وقلبي ينصهر بالالم كما كان عقلي واقعا تحت كابوس من المخاوف والقلق .

فلقد جاء تحطيم القوة العسكرية الالمانية معه بتبدل جوهري في العلاقات بين روسيا الشيوعية والديموقراطيات الغربية ، فبعد ان تحطم عدوهما المشترك ، الذي كان هو الرباط الوحيد الذي يشدهما ويوحد بينهما ، بدأت الاستعمارية الروسية والعقيدة الشيوعية في فرض سيطرتهما المطلقة التي لا تحدها قيود .

وما كنت لاكتب هذه القصة الآن ، بعد ان اتضح كل شيء في ضوء النهار الساطع ، لو لم اكن آن ذاك اعرف كل شيء ، واحس بكل شيء عندما كان كل ما حولنا غامضا ، وكا نالنصر الذي حققناه ، يضاعف من هذه الظلمة الداخلية في القضايا الانسانية ، وانني اترك للقارىء وحده ان يحكم لنا او علينا .

الستـــار الحديدي

بعد ان مرت عدة اسابيع على مؤتمر يالته ، اتضح لنا ان الحكومة السوفياتية لم تنفذ ما اتفقنا عليه ، حول زيادة عدد رجال الحكومة البولندية ، لتشمل جميع الاحزاب البولندية ، والفريقين المتنازعين ، كما رفض مولوتوف أن يعطي رأيا في البولنديين الذين ذكرنا اسماءهم ولم يسمح لاي منهم بالمجيء حتى ولا الى مؤتمر تمهيدي على مائدة مستديرة وكان قد عرض علينا ارسال مراقبين الى بولندا ، الا اننا عندما ابدينا استعدادنا لذلك ، افزعه قبول هذا العرض السريع ، واحتج بأمور عدة ، منها ، ان هؤلاء المراقبين ، قد يقللون من سمعة الحكومة البولندية المؤقتة في لوبلين ، ولذا فان محادثات موسكو لم تحقق اي تقدم ، وكان الوقت الى جانب الروس وانصارهم من البولنديين الذين اخذوا يشددون قبضتهم على البلاد بمختلف الوسائل ، والاساليب ، التي لم يكونوا راغبين في اطلاع العالم الخارجي عليها عن طريق المراقبين .

وفي احدى الامسيات ، عندمـــا كنت اتحدث في مجلس العموم عن نتائج جهودنا في مؤتمر يالته ، وقع اول نقض لاتفاقاتنا في رومانيا من جانب الروس ، مع اننا كنا قد التزمنا في الاعلان الذي اصدرناه عن اوروبا المحررة ، والذي وقعناه قبل مدة قريبة ، بأن تضمن انتخابات حرة قيام حكومات ديموقراطية في البلاد التي تحتلها جيوش الحلفاء .

ولكن فيشنسكي الذي وصل الى بوخارست فجأة في السادس والعشرين من شهر شباط ، طلب في اليوم التالي ، مقابلة الملك ميخائيل واصر على وجوب طرد الحكومة الممثلة لجميع الاحزاب والتي تم تأليفها بعـــد الانقلاب الملكي في شهر آب عـــام ١٩٤٤ والتي قامت بطـــرد الالمان من رومانيا ، الا ان الملك يؤيده وزير خارجيته فيسويانو اجل هذه الطلبات حتى اليوم التالي ، وعندما قام فيشنسكي بزيارة الملك ثانية رفض طلب الملك السماح له على الاقل باستشارة زعماء الاحزاب السياسية ، وضرب بقبضة يده على المائدة ، وصرخ طالبا الاذعان الفوري ثم خرج من الغرفة بعد ان رد الباب وراءه بعنف ، وفي هذه الاثناء انتشرت القوات السوفياتية بدباباتها في شوارع العاصمة ، وتولت الحكم والادارة التي اختارها الروس في السادس من شهر آذار .

وقد ازعجتني هذه الانباء كل الازعاج ، لانها كانت دليلا على ما يجب ان ننتظره من احداث ، لكننا لم نستطع الاحتجاج ، لانني كنت قد وافقت انا والمستر ايدن في اثناء زيارتنا لموسكو في شهر كانون الاول الماضي علـــى ان تكون لروسيا الكلمة الاولى في رومانيا وبلغاريا ، وان

تكون لنا الكلمة الاولى في اليونان ، وكان ستالين قد حافظ باخلاص ودقة على هذا الاتفاق ، طيلة الاسابيع الستة التي دار فيها القتال ضد الشيوعيين وضد جيش التحرير « ايلاس » في مدينة اثينا .

وقد كنت آمل ، بعد ان عاد الهدوء والسلام الآن في اليونان ، اننا سنتمكن في الاشهر القليلة القادمة من اجراء انتخابات حرة نزيهة واننا بعد ذلك سنتمكن من ضمان قيام دستور وحكومة طبقا لارادة الشعب اليوناني التي لا تعارض ولا تقاوم .

ولكن ستالين كان يسير في البلدين الآخرين الواقعين على البحر الاسود على سياسة مغايرة تماما لسياستنا ، بل ومتعارضة تماما مع كل فكرة ديموقراطية ، وكان قد اقر على الورق مبادىء بالتة ، وها هو يدوس عليها بقدمه في رومانيا ، وكنت اخشى انني اذا ضغطت عليه ، أن يرد علي قائلا : « انني لم اتدخل في عملكم في اليونان ، فلماذا لا تعطونني الفرصة نفسها في رومانيا » ، كما كنت اخشى بصورة خاصة ، ان تقوم هذه الحكومة بعمليات تطهير عمياء ضد العناصر المعادية للشيوعية في رومانيا على غرار ما هو متبع الآن في بلغاريا .

وهكذا اخذت السياسة السوفياتية تزداد وضوحا يوما بعد يوم ، كما اخذ يتضح لنا ما تجنيه من فوائد ، عن طريق سيطرتها المطلقة التي لا رقابة عليها ولا اشراف على بولندا ، حيث طلب الروس ان تمثل بولندا في المؤتمر المقبل الذي ستعقده الامم المتحدة في سان فرانسيسكو ، وان يقتصر هذا التمثيل على حكومة لوبلين ، وعندما رفضت الدول الغربية هذا الطلب ، رفض السوفيات السماح لمولوتوف بحضور المؤتمر ، وكان هذا التطور يهدد اي تقدم في سان فرانسيسكو بل ويهدد الفكرة نفسها بالفشل ، وقد اصر مولوتوف على ان بلاغ يالتة لا يعدو ان يكون مجرد اضافة عدد صغير آخر من البولنديين الى الحكومة القائمة من « الدمى » الروسية ، واحتفظ في ان يستعمل « الفيتو » ضد ماجولاجيك ، وضد غيره من البولنديين الذين نقترح اسماءهم .

وفي هذه الاثناء كانت تدور بين الحكومتين البريطانية والامريكية من ناحية وبين السوفيات من ناحية اخرى رسائل اكثر مرارة وأهمية تتناول قضية مختلفة كل الاختلاف عن هذه القضايا ، فقد ادى تقدم الجيوش السوفياتية وانتصارات اليكساندر في ايطاليا ، وفشل الهجوم الالماني المضاد في الاردين ، وزحف ايزنهاور على الراين ، الى اقناع جميع الالمان ما عدا هتلر ، وافراد بطانته الاقربين ، بأن استسلام المانيا اصبح امرا لا مفر منه ولا مناص ، وكان السؤال الذي يتوارد في خواطرهم ، ترى لمن يجب ان نستسلم ؟ ولما كان لم يعد في وسع المانيا ان تخوض حربا في جبهتين ، كما كان الصلح مع السوفيات امرا محالا كما هو الظاهر ، فلم يبق امامهم الا الحلفاء في الغرب ، وكانوا يسائلون انفسهم ، الا يمكن والحالة هذه ان تعقد هدنة مع بريطانيا وأمريكا ؟ فلو تمكنوا من عقد هدنة مع الغرب ، فان في وسعهم ان يركزوا قواتهم لوقف الزحف الروسي ، وكان هتلر وحده الذي يعارض في

ذلك ، حيث قد انتهى الرايخ الثالث ، وعزم على ان يموت معه ، وقد حاول عدد من اتباعه اجراء اتصالات سرية مع الحلفاء الغربيين ، ولكن جميع اقتراحاتهم رفضت بالطبع ، وكان شرطنا الوحيد الاستسلام بلا قيد او شرط في جميع الجهات ، كما سمح في الوقت نفسه لقوادنا في الميدان بصلاحيات مطلقة لقبول اية استسلامات عسكرية من جانب قوات العدو التي تواجههم ، وقد ادت المحاولة الى ترتيب ذلك ـ في الوقت الذي كنا لا نزال نحارب فيه على حوض الراين ـ الى سوء تفاهم بين الروس وبين الرئيس الامريكي الذي وقفت الى جانبه .

وقد ادركت على الفور ، ان شكوك الحكومة السوفياتية قد تثار من جراء استسلام عسكري منفصل في الجنوب يمكن جيوشنا من التقدم دون مقاومة الى فيينا والى ما وراءها ، وحتى الى نهر الالب وبرلين ويضاف الى هذا ، انه لما كانت جميع الجبهات المحيطة بألمانيا جزءا لا يتجزأ من حرب شاملة ضد المانيا ، فان الروس سيتأثرون بطبيعة الحال ، من اي عمل قد يقع في اية جبهة من هذه الجبهات .

وصدرت التعليمات الى سفيرنا في موسكو ، بابلاغ الحكومة السوفياتية ثانية ، ان الغرض الوحيد من الاجتماعات ، كان للتأكد من ان الالمان كانوا يملكون الصلاحيات للتفاوض على استسلام عسكري ، وان النية متجهة الى دعوة المبعوثين الروس للمجيء الى مقر قيادة الحلفاء في سايبستر! ، وقد نفذ السفير هذه التعليمات ولكن مولوتوف سلمه في اليوم التالي ردا تضمن الآتي : ـ

« كانت المفاوضات تدور في بون « خلال اسبوعين ، من وراء ظهر الاتحاد السوفياتي الذي يحمل وحيدا عبء الحرب ضد المانيا » ، بين ممثلين للقيادة العليا الالمانية من ناحية وممثلين للقيادتين الانكليزية والامريكية من الناحية الاخرى » .

وقد اوضح السير ارشيبالد كلارك كير بالطبع ، ان السوفيات قد اساءوا فهم ما وقع ، وان هذه المفاوضات لم تكن اكثر من مجرد محاولة لاختبار وثائق اعتماد الجنرال وولف وصلاحياته ، ولكن تعليق مولوتوف كان جافا ومهينا ، فقد كتب يقول « اذن ففي مثل هذه الحالة ، لا ترى الحكومة السوفياتية مجرد سوء تفاهم ، بل ما هو اسوأ من ذلك » ، كما حمل على الحكومة الامريكية بالاسلوب نفسه .

ولهذا فقد رايت من الضروري اطلاع كل من مونتغمري وايزنهاور على رسالة مولوتوف .

وقد انزعج الجنرال ايزنهاور انزعاجا شديدا من هذه الرسالة وبان عليه الغضب من جراء ما اعتبره تهما غير عادلة ولا اساس لها من الصحة ، وقال انه كقائد عسكري ، مستعد لقبول اي استسلام غير مشروط من اية مجموعة من قوات العدو في جبهته ، مهما كان حجم هذه المجموعة ، سواء كانت سرية او جيشا بأكمله وانه يعتبر هذا الموضوع قضية عسكرية بحتة ، وان لديه السلطات الكاملة لقبول مثل

هذا الاستسلام ، دون ان ينتظر معرفة رأي اي انسان ، اما اذا ظهرت مسائل سياسية ، فانه على استعداد لاستشارة الحكومات المعنية فورا ، كما اعرب عن خشيته من ان اقحام الروس في موضوع احتمال استسلام قوات كيسلرنغ وهو احتمال يستطيع هو ان يبت فيه بنفسه ، في غضون ساعة ، قد يؤدي الى اطالة امد المحادثات ثلاثة اسابيع او اربعة ، مما لا ينتج عنه الا شيء واحد ، وهو الحاق خسائر فادحة بقواتنا ، وأوضح انه سيصر في حالة وقوع استسلام ، ان تضع جميع القوات العاملة تحت امرة القائد طالب الاستسلام اسلحتها ، وأن تقف دون اي عمل الى ان تتلقى اوامر جديدة ، بحيث لا تتاح لها الفرصة ، للانتقال عبر المانيا لمقاومة الروس مثلا .

وتلقيت في الخامس من نيسان ، من الرئيس روزفلت ، النصوص المذهلة للمخابرات التي جرت بينه وبين ستالين .

فقد كتب ستالين يقول : « لا شك في انك محق كل الحق ، انه بالنسبة الى القضية المتعلقة بالمفاوضات بين القيادة الانجلو ــ امريكية ، والقيادة الالمانية ، في مكان ما ببون او في غيرها ، فان جوا من الشكوك والمخاوف يستحق الاسف ، قد خلق بيننا » .

« وانك لتصر على ان اية مفاوضات لم تدر بعد ، وقد يقال انك لم تطلع على الموضوع تماما ، او لم يطلعوك عليه ، ولكن زملائي من العسكريين لا يساورهم ادنى شك في ان المفاوضات قد وقعت فعلا ، وانها انتهت بالاتفاق مع الالمان على اساس قيام القائد الالماني في « الجبهة الغربية » الماريشال كيسلرنغ بفتح جبهته ، والسماح للقوات الانجلو ــ امريكية ، بالتقدم شرقا ، في حين وعد الانجلو ، امريكيون الالمان مقابل ذلك بتسهيل بنود الصلح وتخفيفها .

« وكنتيجة لهذا ، فان الالمانيين في الوقت الحاضر ، قد توقفوا فعلا عن الحرب ضد انكلترا والولايات المتحدة ، في حين هم يواصلون في الوقت نفسه الحرب ضد روسيا ، حليفة انكلترا والولايات المتحدة » .

وقد اغضب هذا الاتهام الرئيس روزفلت ، ولم تكن صحته لتسمح له بأن يكتب رده بنفسه ، فقام الجنرال مارشال بصياغة الرد الذي وافق عليه روزفلت ، وجاء فيه :

« ثقة مني بأنك لا تشك في استقامتي الشخصية ، وتصميما مني على الحصول معك على استسلام غير مشروط من النازيين ، يدهشني أن اسمع بأن الحكومة السوفياتية قد تسلط عليها الاعتقاد بأنني قد توصلت الى اتفاق مع العدو ، دون ان احصل مقدما على موافقتك التامة ، وأود ان اقول اخيرا : انها ستكون من اشد مآسي التاريخ ايلاما ، اذا كنا في ساعة النصر الذي اصبح في متناول ايدينا ، ثم يقوم بيننا مثل هذا الجو من عدم الثقة ، والافتقار الى الايمان ، مما يؤثر حتما على كل ما قمنا به بعد هذه التضحيات الكبيرة في الارواح والاموال والموارد .

وأود ان اصارحك بأنني لا استطيع ان اكتم الشعور بالسخط الشديد على مخبريك ، ايا كانوا ، على مثل هذا التشويه اللئيم لتصرفاتي وتصرفات مساعدي الموثوق بهم » .

***

هذا وقد توفي الرئيس روزفلت فجأة بعد ظهر الخميس الثاني عشر من شهر نيسان عام ١٩٤٥ ، وعندما تلقيت هذا النبأ شعرت وكأنني قد اصبت بصدمة قوية على راسي ، واحسست بشعور عميق يغمرني للخسارة الفادحة التي لا تعوض ، وقد اقترحت على مجلس العموم ان نفض جلستنا اليوم اكراما لذكرى الفقيد العظيم .

وكان اول خاطر جال في فكري ، ان اطير الى واشنطن لحضور المأتم ، وفعلا اصدرت اوامري باعداد الطائرة ، وقد ابرق الي اللورد هاليفاكس يقول : ان هوبكنز وستينيوس قد تأثرا اشد التأثر من فكرتي بالمجيء ، ووافقا بحرارة على قراري ، الذي قد ينتج عنه الكثير من الخير ، كما طلب اليه المستر ترومان ابلاغي انه قدر شخصيا كل التقدير ان تتاح له الفرصة للقائي في اقرب وقت ممكن . وان اظل بعد تشييع الجثمان يومين او ثلاثة لنتحدث معا » .

ومع ذلك فقد تعرضت لضغط هائل ، بألا اغادر البلاد في هذه الفترة الحرجة والكثيرة المصاعب ، ووجدت نفسي مرغما على الاذعان لرغبات اصدقائي ، اما الآن وعلى ضوء ما حدث بعد ذلك فانني لآسف اشد الاسف على تخلفي عن تلبية اقتراح الرئيس الجديد ، لانه لم يسبق لي ان اجتمعت به ، وانني لاشعر بأنه كانت هناك نقاط عدة يكون الحديث الشخصي بصددها مهما كل الاهمية ، ولا سيما اذا دارت هذه الاحاديث في ايام عدة ، ولم ترتجل ، او تتخذ شكلا رسميا مختصرا ، كما بدا لي « ان من الغرابة بمكان عظيم ، ولا سيما في بضعة الاشهر الاخيرة » ان روزفلت لم يحاول ان يجعل خلفه المحتمل مطلعا تمام الاطلاع على الاحداث كلها ، كما لم يقحمه مطلقا في القرارات التي كانت تتخذ في ذلك الحين ، وقد

برهنت هذه السياسة على ضرر كبير لحق قضايانا ، فليس ثمة وجه للمقارنة بين ان يقرأ الانسان الحوادث فيما بعد ، وبين ان يعيش فيها ساعة اخرى ، فكيف يمكن للمستر ترومان ان يعرف جميع القضايا ذات الخطورة ، ونحن في ذروة الحرب وان يزنها ؟ ولقد دل ما عرفناه عنه فيما بعد على انه رجل جريء وذو عزيمة وقادر على اتخاذ اخطر القرارات واعظمها ، الا ان مركزه في الاشهر الاولى كان صعبا كل الصعوبة ، ولم يمكنه من اظهار مواهبه البارزة الى حيز التنفيذ .

استسلام المـانيا

انتهت حملاتنا في البحر الابيض المتوسط ، بانتصار مشرف ، وقد تولى اليكساندر القيادة العليا في شهر كانون الاول خلفا لويكسون ، كما تولى مارك كلارك قيادة مجموعة الجيوش الخامسة عشرة ، وبالنسبة للجهود المضنية التي بذلتها الجيوش في ايطاليا ، فقد اصبحت في حاجة الى التوقف لفترة تعيد فيها تنظيمها وتجديد روحها المعنوية وقوتها الهجومية.

وكانت المقاومة الالمانية الباسلة والطويلة ، والتي كانت غير متوقعة على جميع الجبهات ، قد جعلتنا نحن والامريكيين مفتقرين الـى العتاد المدفعي ، كما ارغمتنا تجاربنا القاسية ، في حروب الشتاء في ايطاليا على تأجيل الهجوم العام حتى الربيع ، الا ان قوات الحلفاء الجوية بقيادة الجنرال كانون ظلت تقصف خطوط تموين الجيوش الالمانية حتى تم اغلاق الطريق المهم الممتد مـن فيرونا الى ممر برنر حيث كان هتلر وموسوليني يعقدان اجتماعاتهما في اماكن عدة طوال شهر آذار ، وقد تسبب اغلاق هذا الطريق في تأخير نقل الفرقتين الالمانيتين اللتين تقرر ارسالهما الى روسيا اكثر من شهر .

وكان لدى العدو كميات كافية من العتاد والمؤن ، ولكنه كان في حاجة الى الوقود ، وكانت وحداته لا تزال كاملة وروحها المعنوية عالية على الرغم من هزائم هتلر في الراين وعلى نهر الادور ، ويبدو ان القيادة العليا الالمانية ما كانت لتخشى الكثير لولا سيطرتنا الجوية ولولا اننا كنا نتمتع بزمام المبادرة ونستطيع ان نوجه الضربة حيث نشاء ، بينما كان الخط الدفاعي الذي اختاره الالمان سيئا ، اذ جعلوا نهر اليو الواسع وراء ظهورهم ، وكان من الافضل للالمان لو تخلوا عـن شمال ايطاليا كلهـا وانسحبوا الى الخطوط الدفاعية المنيعة في الجبال ، حيث كـان في استطاعتهم ان يصمدوا امامنا بقوات قليلة ، وان يبعثوا بما يتوافر لديهم من قوات الى الجبهات الاخرى .

ولكن الهزيمة التي لحقت بالالمان في جنوبي نهر اليو كانت بمثابة كارثة . ولا ريب في ان كيسلرنغ قد ادرك ذلك ، وهو ما حمله على المفاوضات التي سجلناها في الفصل السابق ، ولكن هتلر كان دائما العقبة الكأداء ، بدليل انه عندما اقترح فيتينغهوف الذي خلف كيسلرنغ في الانسحاب التكتيكي ، جاءه الرد الصارم من هتلر وقد قال فيه : « ان الفوهرر يتوقع الآن كما توقع دائما ان تؤدي بثبات وصلابة مهمتك الراهنة في الدفاع عن كل شبر من اراضي شمال ايطاليا ، وهي الاراضي التي أوكل اليك أمر الدفاع عنها » .

وقد شرع الجيش الثامن في هجومه مساء التاسع من نيسان بالغارات

الجوية ومدافع الميدان ، ولم يحل اليوم الرابع عشر من نيسان حتى كانت الانباء الطيبة قد وصلت من جميع انحاء الجبهة ، وقد تمكن الجيش الخامس بعد قتال عنيف استمر اسبوعا من الخلاص من المنطقة الجبلية وعبور الطرق الرئيسية الممتدة الى الغرب من بولونا ، ثم اتجه شمالا . وفي اليوم العشرين من نيسان امر فيتينغهوف قواته بالانسحاب متحديا اوامر هتلر ، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت ، حيث استمر الجيش الخامس في اندفاعه نحو نهر البو ، ومهدت له الطائرات طريق تقدمه ، حيث قطع خط الرجعة على ألوف الالمانيين الذين وقعوا في الفخ وانقطعت بهم السبل فوقعوا اسرى ولم تتمكن هذه البقايا التي خلفت وراءها جميع معداتها الثقيلة قبل عبور النهر من اعادة تنظيمها ، فقد طاردتها جيوش الحلفاء الى سفوح الاريج ، في حين كان رجال المقاومة الايطالية ينزلون المصاعب بالعدو في الجبال والمناطق الخلفية .

وفي الخامس والعشرين من نيسان ، صدرت الاوامر لقوات المقاومة باعلان الثورة العامة وفي الحال شرعت تشن هجمات واسعة النطاق وتمكنت من السيطرة على مدن مهمة كميلانو والبندقية وغدت عملية الاستسلام في شمال غربي ايطاليا بالجملة ، كما سلمت حامية جنوة المؤلفة من اربعة آلاف جندي نفسها الى ضابط ارتباط بريطاني والى قوات المقاومة .

وفي هذه الاثناء ، جاء وولف الى سويسرا ثانية بعد ان منحه فيتينغهوف السلطات الكاملة ، كما وصل رسولان آخران مفوضان الى مقر قيادة اليكساندر ، ووقعا في التاسع والعشرين من نيسان وثيقة الاستسلام غير المشروطة بحضور بعض الضباط البريطانيين والامريكيين والروسيين ، كما انه في الثاني من ايار استسلم نحو من مليون الماني كأسرى حرب وانتهت — باستسلامهم — الحرب في ايطاليا كلها .

وهكذا انتهت حملتنا التي استغرقت عشرين شهرا ، وكانت خسائرنا كبيرة الا ان خسائر العدو كانت اعظم .

وجاءت النهاية لموسوليني ايضا ، ويبدو انه ظل كهتلر محتفظا بأحلامه وخيالاته ، حتى اللحظة الاخيرة ، فقام في نهاية ايار بآخر زيارة لشريكه الالماني ، ثم عاد لمقر قيادته علي شاطىء بحيرة جاردا ، وقد انتعشت في خاطره احلام الاسلحة السرية التي ستؤدي الى النصر ، ولكن سرعة زحف الحلفاء من جبال الابنين قد قضت على هذه الاحلام .

وقرر موسوليني في الخامس والعشرين من نيسان ان يحل ما تبقى من قواته المسلحة وان يطلب الى كردينال ميلانو ورئيس اساقفتها ان يرتب اجتماعا له مع اعضاء اللجنة السرية العسكرية لحركة التحرر الوطني الايطالية ، ودارت المحادثات في قصر الكردينال في ظهر ذلك اليوم ولكن موسوليني خرج غاضبا منه ، وفي المساء سار موسوليني على رأس قافلة تضم معظم الباقين من زعماء الفاشية الى دار الشرطة في كومو ، بعد ان ارتدى معطفا وخوذة من التي يرتديها الجنود الالمان ، ولكن دوريات رجال

المقاومة اوقفت القافلة وتعرف افرادها على موسوليني فوضعوا ايديهم عليه ونقلوه الى السجن ، كما اعتقل آخرون من بينهم عشيقته السنيورة بيتاتشي ، وحمل الدوتشي وعشيقته في اليوم التالي بأمر من الشيوعيين في السيارة الى خارج البلدة وقتلا ، ونقل جثماناهما الى ميلانو ، حيث علقا من الاقدام على خطافات اللحم في محطة بنزين في « بياز الي لورينو » ، وهكذا كانت خاتمة الديكتاتور الايطالي .

وقد واصلت الجيوش النازية زحفها في المانيا بقـوة ، واخذت المسافات بينها تضيق يوما بعد يوم ، وكان ايزنهاور في اوائل شهر نيسان قد اجتاز نهر الراين واخذ يندفع الى المانيا واواسط اوروبا ضد عدو كان لا يزال يقاوم بضراوة في بعض الجهات ، وان كان عاجزا عن وقف زحفنا المظفر ، وكانت بولندا خارج نطاق امكاناتنا وكذلك كانت فيينا ، التي ضاعت فرصتنا في الوصول اليها قبل الروس ، عن طريق زحف سريع من ايطاليا قبل ثمانية اشهر ، عندما ضوعفت قوات الجنرال اليكساندر ، لتمكين حركة الانزال في فرنسا من النجاح ، وكان الروس قد زحفوا على المدينة من الشرق والجنوب وامتلكوها .

وقد بدا لي انه ليس هناك ما يحول بين الحلفاء الغربيين وبين احتلال برلين ، وكان الروس على بعد خمسة وثلاثين ميلا منها ، وكان الالمان قد تحصنوا في خنادقهم على نهر الادور ، وكان من المتوقع ان تدور معارك شديدة للغاية قبل ان يتمكن الروس من عبور النهر واستئناف الهجوم ، وكان الجيش الامريكي التاسع من الناحية الاخرى قد عبر نهر الالب على مقربة من مجدبورج وغدا على بعد ستين ميلا من برلين وتوقف هناك . وبعد اربعة ايام شرع الروس في هجومهم واتموا تطويق برلين في الخامس والعشرين من نيسان ، مع ان ستالين كان قد ابلغ ايزنهاور ان ضربته الرئيسية الثانية ضد المانيا، ستشن في حوالي النصف الثاني من شهر ايار، ولكنه تمكن من الزحف قبل شهر من الموعد الذي حدده ، ولعل في تقدمنا السريع نحو نهر الالب ، التفسير الصحيح لزحف الروس بمثل هذه السرعة .

وفي الخامس والعشرين من نيسان عام ١٩٤٥ ، التفت طلائع قوات الجيش الاول الامريكي القادمة من ليبزيغ بالقوات الروسية على مقربة من تورغاو على نهر الالب ، وهكذا تم شطر المانيا الى شطرين ، ورأينا الجيش الالماني ينحل امامنا ، وسقط في الاسر اكثر من مليون الماني في الاسابيع الثلاثة الاولى من شهر نيسان .

ولما كان الجنرال ايزنهاور يعتقد بأن النازيين المتعصبين سيحاولون الدفاع عن جبال بافاريا وغربي النمسا ، فقد اتجه بالجيش الامريكي الثالث جنوبا ، ودخل جناح الجيش الايسر الى تشيكوسلوفاكيا ، فوصل الى بوديغوفيك وبيلسين وكارلسباد واصبحت براغ في متناول ايدينا . ولم يكن هناك ما يحول دون احتلالها من الناحية العسكرية ، وقد اقترحت على ترومان ان يقوم ايزنهاور باحتلال العاصمة التشيكية ، ولكن ترومان عارض الفكرة ، وبعد اسبوع ابرقت شخصيا الى ايزنهاور بذلك ، ولكنه

رد علي بأنه اذا تطلب الوضع فقد يجتاز الحدود الى الخط العام الممتد من كارلسباد الى بيلسين فبوديغوفيك ، وقد وافق الروس على ذلك ، وبعد ان تحركت قوات ايزنهاور الى الخط الجديد ، عارض الروس بشدة في ان يستمر الجيش الامريكي الثالث في زحفه حتى نهر فولتافا ، الذي يمر عبر مدينة براغ ، وهكذا توقف الجيش الامريكي ، في حين ظهر الجيش الاحمر على الضفتين الشرقية والغربية لنهر مولداو واحتل مدينة براغ ، في التاسع من شهر ايار ، اي بعد يومين من التوقيع على الاستسلام العام في ريمز .

ولما كان موضوع احتلال الحلفاء الرئيسيين لالمانيا قد درس دراسة عميقة في صيف عام ١٩٤٣ بالاتفاق مع رؤساء اركان الحرب ، فقد تقرر ان تحتل المانيا بأكملها اذا أريد نزع سلاحها بصورة فعالة ، اما اذا اريد التخلص منها بتقسيمها ثلاث مناطق احتلال رئيسية متساوية حجما ، فيجب ان يحتل البريطانيون الشمال الغربي ، والامريكيون الجنوب والجنوب الغربي والروس المنطقة الشرقية ، كما يجب ان تكون مدينة برلين منطقة مشتركة منفصلة يحتلها الحلفاء الثلاثة ، وتم الاتفاق على هذه التوصيات وقدمت الى المجلس الاستشاري الاوروبي الذي كان يتألف من السفير السوفياتي المسيو جوسييف والسفير الامريكي المستر وينانت والسير ويليام سترانغ من وزارة الخارجية البريطانية .

وبدا الموضوع في ذلك الوقت مجرد شيء نظري ، فلم يكن في استطاعة اي انسان ان يتكهن آن ذاك كيف ومتى ستنتهي الحرب ، وكانت الجيوش الالمانية لا تزال تحتل مناطق واسعة من روسيا ، وكان لا بد ان يمضي عام واحد على الاقل قبل ان تضع الجيوش البريطانية والامريكية اقدامها في اوروبا الغربية ، وعامان قبل ان تدخل هذه الجيوش المانيا ، وهكذا ظلت هذه الاقتراحات كغيرها موضوعة على الرف ، وكانت الفكرة السائدة في تلك الايام ان روسيا لن تستمر في الحرب بعد ان تستعيد حدودها السابقة ، وكان على الحلفاء الغربيين ان يبذلوا جهودا ضخمة لاقناع الروس بعدم التراخي في مجهودهم ، ولهذا فان موضوع الاحتلال الروسي لالمانيا لـم يتبلور في افكارنا ولا في المحادثات البريطانية الامريكية ، كما لم يثر في اجتماع الكبار الثلاثة في طهران .

وعندما اجتمعنا في القاهرة في طريق عودتنا الى الوطن في تشرين الاول عام ١٩٤٣ ، اثار رؤساء اركان الحرب الامريكيون الموضوع ، ولكن لم تكن اثارتهم اياه بناء على طلب من روسيا ، وقد ظلت مسألة الاحتلال الروسي لالمانيا ، لا تغدو ان تكون امنية او خيالا ، كما انه قد قيل لي ان الرئيس روزفلت رغب في ان يغير وضع احتلال المنطقتين البريطانية والامريكية في المانيا ، لكي تكون طرق مواصلات القوة الامريكية في المانيا مستندة الى البحر مباشرة ولا تمر عبر فرنسا ، ولم نتوصل الى قرار ، وكان من رأي اركان حرب القيادة البريطانية ان الخطة الاصلية هي الافضل ، كما كان يشاطرهم زملاؤهم الامريكيون في هذا الرأي ، وقد توصلنا في مؤتمر كويبك في ايلول عام ١٩٤٤ الى اتفاق ثابت بيننا .

وعندما اقتنع الرئيس بهذا الرأي العسكري ، اشترط ان تتمكن الجيوش الامريكية من الحصول على منفذ قريب الى البحر ضمن منطقة الاحتلال البريطاني ، واتفقنا على ان بريمن وضاحيتها بريمن هافن ، تفيان بهذا الغرض وبمتطلبات امريكا ، وتقرر ان يعهد الى القوات الامريكية بالاشراف عليها .

وقد قبلت الخطة التي وضعناها في كويبك في مؤتمر يالته الذي عقدناه في شهر شباط عام ١٩٤٥ ، دون اية دراسة ، وتركنا البحث الشامل فيها الى معاهدة الصلح ، كما اقترحنا ايضا ان نتفق على مناطق الاحتلال في النمسا ، ووافق ستالين بعد جهود كبيرة بذلتها لاقناعه ، على ان تعطي للفرنسيين منطقة احتلال ضمن المنطقتين البريطانية والامريكية وان نعطي لها مقعدا في مجلس الاشراف الحليفي ، وكان مفهوما للجميع ان هذا الاتفاق على مناطق الاحتلال ، يجب الا يعرقل سير الحركات العملية لجيوش الحلفاء ، وان يكون في وسع اي جيش ان يحتل برلين او براغ او فيينا اذا وصل اليها قبل غيره ، وعندما افترقنا في شبه جزيرة القرم ، لم نفترق كحلفاء فحسب بل كأصدقاء ، نواجه عدوا ما زال قويا .

وشهد الشهران اللذان تليا ذلك الاجتماع تبدلا هائلا نفذ الى اعماق تفكيرنا ، حيث كان قد تقرر مصير المانيا الهتلرية ، حيث كان الروس يحاربون داخل برلين نفسها كما اضحت فيينا ومعظم اجزاء النمسا في أيديهم ، وأصبحت العلاقات بين روسيا وبين الحلفاء الغربيين في حالة سيئة من التوتر ، وظلت كل قضية تتعلق بالمستقبل قائمة لا حل لها بيننا ، وقد طرح الكرملين المنتصر الظافر جانبا ، كل ما اتفقنا عليه او تفاهمنا بشأنه في يالته ، وبرزت مخاطر جديدة لا تقل فظاعة عن تلك التي تغلبنا عليها ، على العالم الممزق المتعب .

وقد زاد قلقي لهذه التطورات المنذرة بالشر ، حتى قبل وفاة الرئيس روزفلت ، وكان هو بدوره ايضا قد احس بالقلق والاضطراب ، وقد سجلت في هذا الكتاب ما احس به من غضب بسبب اتهامات مولوتوف بشأن اتصالات برن . وعلى الرغم من زحف جيوش ايزنهاور الظافرة ، فقد وجد الرئيس ترومان نفسه في النصف الاخير من شهر نيسان ، يواجه ازمة ضخمة ، وكنت احاول منذ مدة ان ابصر الحكومة الامريكية بالتبدلات الهائلة التي اخذت تطرأ على المسرحين السياسي والعسكري .

وكان الجنرال ايزنهاور قد اقترح ، انه في الوقت الذي تعطى فيه الحرية للجيوش من الشرق والغرب ، بالزحف والتقدم دون اعتبار مناطق الاحتلال وان في وسع هذه الجيوش بعد ان يتم اتصالها في اية منطقة ، ان تنسحب الى ما وراء حدود مناطق الاحتلال المقررة ، كما تعطى الصلاحيات لتوجيه طلبات الانسحاب ولاصدار الاوامر المتعلقة بها ، الى قواد مجموعات الجيوش ، وبذلك تتم عمليات الانسحاب وفقا لمقتضيات العمليات الحربية ، وقد رأيت ان هذا الاقتراح سابق لاوانه ، وانه يتجاوز الاحتياجات العسكرية الفورية .

وعلى ضوء هذا الراي وجهت رسالة في الثاني عشر من نيسان الى الرئيس الجديد المستر ترومان ، ولما كان الرئيس حديث عهد بكل هذه المشكلات التي تواجهنا ، فقد كان من الطبيعي بالنسبة له ، ان يلجأ الى مستشاريه ، ولهذا فقد احرزت الفكرة العسكرية المجردة ، تأكيداً وتأييدا اكثر مما تستحقه ، وقد ابرقت اليه اقول :

« انني على أتم استعداد للتقيد بمناطق الاحتلال ، ولكنني لا احب ان ارى قوات الحلفاء والقوات الامريكية ، ترغم على الرجوع في اية نقطة ، تلبية لطلبات سخيفة من قائد روسي محلي ، وارى ان يتفق على هذا بين الحكومات ، بحيث تتوافر لايزنهاور الفرصة ليقرر فورا وفي المنطقة نفسها ، الاجراء الذي يجب ان يتخذ وفقا لطريقته .

« ولما كان قد اتفق على مناطق الاحتلال بصورة عاجلة في كويبك في شهر ايلول عام ١٩٤٤ ، عندما لم نكن نتوقع أن تتمكن جيوش الجنرال ايزنهاور من احراز هذا التوغل العميق داخل المانيا ، وليس في الامكان تبديل هذه المناطق الا عن طريق الاتفاق مع الروس ، الا انه في الوقت الذي يتم فيه النصر النهائي في اوروبا ، يجب علينا ان نحاول فورا وفي اليوم نفسه اقامة مجلس الاشراف الحليف في برلين ، وان نصر على توزيع عادل للمواد الغذائية التي تنتجها المانيا على جميع اجزاء البلاد ، وقد كانت منطقة الاحتلال الروسي في الوقت الحاضر ، تنتج اكبر نسبة من المواد الغذائية في حين ان عدد سكانها كان ضئيلا ، بالنسبة لغيرها من المناطق ، كما لا يملك الامريكيون نسبة كافية من المواد الغذائية في مناطقهم تكفي لاهلها ، اما نحن البريطانيين المساكين ، فسنأخذ ما تبقى من حطام حوض الروهر والمناطق الصناعية الاخرى التي تعتمد مثلنا في الاوقات العادية على ما تستورده من كميات ضخمة من المواد الغذائية » .

ولما كان المستر ايدن في واشنطن ، فقد وافق تماما على آرائي التي بعثت بها برقيا اليه ، ولكن رد المستر ترومان ، لم يتقدم بنا خطوة واحدة الى الامام ، فقد اقترح ان تنسحب قوات الحلفاء ، من المناطق المتفق على احتلالها في المانيا والنمسا ، عندما تسمح الاوضاع العسكرية بهذا الانسحاب .

وكان هتلر يفكر في اثناء ذلك في المكان الذي يجب ان يقف فيه وقفته الاخيرة ، وكان حتى العشرين من نيسان لا يزال يفكر في مغادرة برلين « واللجوء » الى حصنه في الجنوب في جبال الالب البافارية ، وقد عقد في ذلك اليوم اجتماع شهده كبار القادة النازيين .

ولما كانت الجبهة الالمانية المزدوجة في الشرق والغرب ، قد اصبحت معرضة للانقطاع والانشطار شطرين بسبب اندفاع الحلفاء من الناحيتين فقد وافق على اقامة قيادتين منفصلتين ، وعهد الى الاميرال دونتس بأن يتولى المسؤولية العسكرية والمدنية في الشمال ، وأن يكون مكلفا باعادة مليوني لاجيء الماني من الشرق الى الاراضي الالمانية ، اما في الجنوب فقد تقرر أن يتولى الماريشال كيسلرنغ قيادة ما تبقى من الجيوش الالمانية ، كما تقرر ان يشرع في تنفيذ هذه المخططات عقب سقوط برلين .

وفي الثاني والعشرين من نيسان ، اتخذ هتلر قراره الاخير والخطير بالبقاء في برلين حتى النهاية ، وفي الحال أتم الروس تطويق العاصمة ، بعد ان فقد الفوهرر كل قدرة على السيطرة على الاحداث ، وقد اعلن لمن تبقى من الزعماء النازيين معه بأنه سيموت في برلين ، وكان غورنغ وهملر قد غادرا برلين بعد مؤتمر العشرين من نيسان ، وقد طافت برأسيهما افكار التفاوض لعقد الصلح واتجه غورنغ الى الجنوب ، وافترض ان هتلر قد تنازل عن سلطاته ببقائه في برلين وقد طلب منه تأكيدا رسميا بأن يكون خليفته ، وكان رد هتلر ، أن طرده من جميع مناصبه ، وبعدها وقع اسيرا هو ومائة من كبار قادة السلاح الجوي الالماني في ايدي القوات الامريكية .

ولم يبق مع هتلر من كبار شخصيات العهد الا جوبلز وبورمان حتى النهاية ، وكانت القوات الروسية ، قد بدأت تقاتل في شوارع برلين ، وفي الساعات الاولى من صباح التاسع والعشرين من نيسان كتب وصيته الأخيرة ، واستمر يؤدي أعماله العادية في الملجأ الموجود تحت دار المستشارية الى ان وصلته الانباء عن نهاية موسوليني ، وبعد ان تناول غداءه في اليوم الثلاثين صافح افراد حاشيته ، ثم انسحب الى غرفته الخاصة . وانتحر بمسدسه ، وكانت بجواره ايفا براون — التي كان قد تزوجها سرا — بعد ان تناولت السم وتم احراق الجثتين في باحة المستشارية ، وكانت نهاية مؤلمة للرايخ الالماني .

هذا ، وقد عقد من تبقى من القادة النازيين مؤتمرا اخيرا ، وحاولوا التفاوض مع الروس ، الا أن جوكوف طلب الاستسلام بلا قيد ولا شرط وفي الحال اختفى بورمان دون أن يترك اثرا ، وقتل جوبلز اولاده الستة بالسم ، ثم امر رجال حرسه باطلاق النار عليه وعلى زوجته ، ووقع من تبقى من رجال مركز قيادة هتلر اسرى في ايدي الروس .

وصلت الى الاميرال دونتس تلك الليلة البرقية التالية : —

« لقد عينك الفوهرر ، ايها الاميرال الاكبر ، خلفا لـه ، بدلا من ماريشال الرايخ السابق جورنغ ، وسيصلك الخطاب الرسمي ، اذ هو في الطريق اليك ، وعليك أن تتخذ فورا جميع الاجراءات التي يتطلبها الموقف ، بورمان » .

وكان دونتيس على اتصال بهملر ، وقد سيطرت الفوضى ، فأخذ يعد العدة لتنظيم امر الاستسلام .

اما هملر ، فكان قد ذهب الى الجبهة الشرقية واخذ يجري اتصالات شخصية موعزا بها مع الحلفاء الغربيين ، مؤملا الوصول الى صلح منفرد ، منذ عدة اشهر ، وقد جدد الآن المحاولة عن طريق الكونت برنادوت رئيس الصليب الاحمر السويدي ولكن عروضه رفضت كلها فاختفى ولم يسمع عنه شيء ، الى ان قبض عليه متنكرا وعند ذلك تناول قارورة من سم السيانيد فمات لتوه .

اما نهاية المسرحية في الشمال الغربي فكانت اقل اثارة ، فقد وصلت انباء الاستسلام في ايطاليا في الثاني من ايار ، وكانت قواتنا قد وصلت الى لوبيك الواقعة على البلطيق ، واتصلت بالروس ، فقطعت خط الرجعة على القوات الالمانية الموجودة في الدانمارك والنرويج ، ووصلنا في الثالث من ايار مدينة همبورغ دون مقاومة ، واستسلمت الحامية دون قيد او شرط ، وبعد ذلك وصل وفد الماني الى مقر قيادة مونتغمري في لونبرغ هيث ، برئاسة الاميرال فريدبرغ الذي حاول الوصول الى اتفاق باستسلام يشمل القوات الالمانية في الشمال التي تواجه الروس ايضا ، وقد وقع وثيقة الاستسلام لجميع القوات الالمانية في شمال غربي المانيا وهولندا والجزر وشلزويغ هولشتين والدانمارك .

وتوجه فريدبرغ الى مقر قيادة ايزنهاور في ريمز حيث انضم اليه الجنرال بودول في السادس من ايار ، الذي اصر على استسلام كامل ، وقد وقع فريدبرغ وثيقة الاستسلام الكلي في صباح السابع من ايار ، كما وقع عليها اللفتنانت جنرال بيدل سميث والجنرال بودل وشهد عليها قائدان « فرنسي وروسي » ، وبذلك اوقفت جميع الاعمال الحربية في منتصف ليل الثامن من ايار ، وتم التصديق الرسمي من قبل القيادة العليا الالمانية في برلين طبقا للترتيبات التي وضعها الروس في التاسع من ايار ، ووقع الوثيقة قائد عام القوات الجوية بندر بالنيابة عن ايزنهاور والماريشال جوكوف بالنيابة عن الروس والماريشال كاتيل بالنيابة عن المانيا .

وعندما اصدر دونتيس اوامره بالاستسلام كانت هناك تسع واربعون غواصة في عرض البحر ، وقد استسلم نحو من مائة غواصة في الموانيء ، في حين قام البحارة الالمان بتخريب نحو من مائتين وعشرين غواصة قبل الاستسلام . ولا ريب ان هذه الارقام تقوم دليلا على اصرار المانيا في جهودها وعلى مدى احتمال سلاح الغواصات الالماني ، كما خسر الالمان في ثمانية وستين شهرا من القتال سبعمائة وواحدة وثمانين غواصة.

وبعد استسلام العدو بلا قيد او شرط ، احس الظافرون والخاسرون على حد سواء ، براحة لا توصف ، امـا بالنسبة الينـا في بريطانيا والامبراطورية البريطانية ، اذ كنا الوحيدين الذين خضنا الحرب من اول يوم فيها حتى آخر يوم ، فلقد كان هناك معنى لانتهاء الحرب ، يفوق المعنى الذي يحمله بالنسبة لاقوى حلفائنا واكثرهم بسالة .

وعندما طلب الي ، ان اتحدث الى الامة وجهت اليها الكلمة التالية :

« كم كان بودي ان ابلغكم الليلة ، ان جميع متاعبنا ومشكلاتنا قد انتهت ولو كان في استطاعتي ابلاغكم ذلـك لكان في امكاني ان انهي خدمتي التي استمرت خمس سنوات ، ولكن ارى لزاما علي ، أن احذركم كما حذرتكم من قبل عندما تسلمت هذه الاعباء ، بأنه ما زال امامنا الكثير لنفعله ، وان عليكم ان تستعدوا لجهود اخرى بدنية وعقلية ولاحتمال تضحيات ثابتة في سبيل القضايا العظيمة ، فعليكم الا تضعفوا ولا تهنوا بأي شكل من الأشكال ، في يقظتكم وحذركم وانتباهكم ، ومع ان افراح

الاعياد ضرورية للروح الانسانية ، الا انه يجب ان تضفي عليها القوة والمرونة ، لكي يعود كل رجل وامرأة الى العمل الذي يجب أن يعمله .

فما زال علينا في القارة الاوروبية ان نتأكد من ان الاهداف النبيلة والبسيطة التي خضنا غمار الحرب من اجلها لن يكون مصيرها التجاهل في الاشهر التي تلي النصر ، وان كلمات الحرية والديموقراطية والتحرير لن تفقد معانيها الحقيقية كما فهمناها ، ولن يكون كبير جدوى من عقاب الهتلريين على جرائمهم اذا لم يقم حكم القانون والعدالة في اوروبا ، واذا قدر للحكومات الجماعية او البوليسية ان تحل محل الغزاة الالمان .

« وعلينا الا ننسى ابدا ان هناك اليابان على الرغم من قوتها المنهارة ، وضعفها ، تمثل مائة مليون من الناس ، لا يرى المحاربون منهم في الموت ما يفزع او يخيف ، وليس في وسعي في هذه الليلة ان احدد لكم الوقت او الجهود التي سنحتاج اليها لارغام اليابانيين على اصلاح ما ارتكبوه بغدرهم وفظاعتهم ، فنحن ، مثل الصين التي أحتملت ما احتملته من اضرار فظيعة دون ان يطرأ عليها وهن او ضعف ، ونحن ملتزمون بأحكام الشرف ، وروابط الولاء الاخرى للولايات المتحدة ان نمضي في هذه الحرب العظيمة ، في ذلك الطرف النائي من العالم الى جانبها دون ضعف او تردد ، وعلينا أن نتذكر ان استراليا ونيوزيلندا وكندا كلها مهددة تهديدا مباشرا من هذه القوة الشريرة ، وهذه الدول من ممتلكاتنا المستقلة تهب لنجدتنا في أحلك ظروفنا ، وعلينا الا نترك اية مهمة تتعلق بسلامتها ومستقبلها غير ناجزة ، وسأكون غير جدير بثقتكم وبكريم عواطفكم اذا لم اواصل النداء لكم قائلا : الى الامام ، دون تردد ودون خوف ، ودون لين ودون هوادة ، الى ان تكملوا واجبكم كله ، والى ان يصبح العالم كله آمنا مطمئنا وخاليا من كل شائبة » .

بـــدء الانفصام

كان القلق من المستقبل ، وغيره من مشاعر الخوف تملأ جوانحي ، وانا انتقل بين الجماهير المحتفلة بالنصر الذي استحقوه عن جدارة ، بعد تلك المصائب التي اجتازوها ومروا بها وبدا لمعظمهم ان خطر هتلر قد اختفى بعد ان استسلم العدو الهائل ، الذي قاتلوه اكثر من خمس سنوات دون قيد او شرط ، وكل ما بقي هناك امام الدول الظافرة الثلاث ، هو ان تضع سلاما عادلا ودائما تحرسه منظمة عالمية ، لكي يدخل العالم في عصر ذهبي من الرخاء والازدهار .

ولكن كان هناك جانب آخر من الصورة ، فاليابان لم تستسلم بعد ، والقنبلة الذرية لم تخلق بعد ، وكان العالم يعيش في اضطراب وارتباك ، فقد اختفت تلك الوشيجة العظيمة من الخطر المشترك ، التي كانت تربط بين الحلفاء ، بين عشية وضحاها .

اما انا فقد رايت ان الخطر الشيوعي قد حل محل الخطر النازي، مع فارق واحد ، هو عدم وجود روح من التحالف والزمالة ضده ، كما اختفت ايضا في الوطن اسس الوحدة القومية التي قامت عليها الحكومة القومية ، في اثناء الحرب قوية ثابتة ، ولم يكن في وسعي ان اخلص عقلي من الخوف ، لان جيوش الديموقراطية الظافرة ستتفرق عما قريب ، مع ان اقسى التجارب والاختبارات واكثرها حقيقة ووقعا ما زالت امامنا .

وكان همي الاول منصرفا الى عقد اجتماع آخر للثلاثة الكبار ، وكنت آمل في ان يأتي الرئيس ترومان الى هذا الاجتماع عن طريق لندن لنلتقي ، اولا ، وكانت هناك كما سيرى القارىء ، آراء مخالفة تماما ، تضغط بها جهات ذات نفوذ في واشنطن على الرئيس الجديد ، وكان يقال ان على الولايات المتحدة ، ان تكون حريصة كل الحرص ، فلا تسمح لاحد بأن يجرها الى خلاف او عداء مع روسيا السوفياتية ، لان مثل هذا العداء سيحفز المطامع البريطانية على الظهور ، ويخلق هوة جديدة في اوروبا ، وعلى السياسة الامريكية من الناحية الاخرى ، ان تقف وسطا بين بريطانيا وروسيا ، كوسيط صديق او كحكم ، وان نحاول التقليل من خلافاتهما حول بولندا والنمسا ، وان تساعد على تهيئة الاوضاع والوصول بها الى سلم هادىء سعيد ، لتمكين القوات الامريكية من التركيز ضد اليابان ، ويبدو ان ضغط هذه الآراء على ترومان كان قويا للغاية ، ولم يكن في وسعي بطبيعة الحال ، ان اقدر القوى التي تعمل في الجهاز الحساس لاقرب حلفائنا الينا ، وان كنت قد شعرت بها ، وكان في وسعي فقط ان احس بالمظاهر الهائلة للاستعمارية الروسية السوفياتية وهي تقتحم طريقها في اراض لا حول لها ولا قوة .

وقد ابرقت للرئيس بعد ثلاثة ايام من استسلام المانيا اقترح عليه دعوة ستالين الى مؤتمر ، واضفت اقول : « وآمل حتى يعقد هذا المؤتمر املا كبيرا ، الا تنسحب الجبهة الامريكية عن الخطوط التكتيكية المتفق عليها الآن » . وقد رد الرئيس فورا ، بأنه يؤثر ان يصدر اقتراح الاجتماع عن ستالين ، وأنه يأمل في ان يتمكن سفيرانا في موسكو من اقناعه بذلك ، كما اعلن المستر ترومان بعد ذلك ان علينا أن نذهب انا وهو الى المؤتمر منفردين ، تجنبا لاثـارة الشكوك في نفس ستالين عـن تكتلنا ضده واعرب عن امله في ان يزور انكلترا بعد انتهاء المؤتمر اذا سمحت لـه ظروفه وواجباته في امريكا بمثل هذه الزيارة ، وقد ادركت فورا ما تنطوي عليه هذه البرقية من اختلاف في وجهات النظر .

وقد بعثت الى الرئيس ترومان بالبرقية التالية وأرى ان يحكم القارىء علي وعلى آرائي ، على ضوء ما ورد فيها :

« انني اشعر بقلق عميق ، من جراء الوضع في اوروبا ، وقد علمت ان نصف القوة الجوية الامريكية في اوروبا قد انسحب الى مسرح العمليات بالمحيط الهادي ، والصحف ملأى بأخبار تحركات الجيوش الامريكية العظيمة خارجة من اوروبا ، ومن المحتمل ان تمر جيوشنا وفقا لترتيبات سابقة ، في مرحلة مماثلة مـن التخفيض الواضح ، وسينسحب الجيش الكندي ، أما الجيش الفرنسي فضعيف ، ومن الصعب التعامل معه ، وفي وسع كل انسان ، ان يرى أنه بعد وقت قصير جدا ، ستختفي قواتنا المسلحة من القارة الاوروبية ، باستثناء قوات صغيرة سيحتفظ بها للسيطرة على المانيا .

ولقد سعيت دائما لتوثيق اواصر الصداقة مـع روسيا ، ولكنني اشعر ، كما تشعر انت ، بالقلق العميق من سوء تصويرهم لقرارات يالته ومن موقفهم تجاه بولندا . ومن نفوذهم الطاغي في البلقان كله باستثناء اليونان ، ومن المشكلات التي يخلقونها في فيينا ، ومن الدمج بين السيطرة الروسية ، وبين البلاد التي تقع تحت احتلالهم او اشرافهم ، ومن الاساليب الشيوعية التي تتبع في بلادة عدة ، وفوق ذلك كله قدرتهم على الاحتفاظ بجيوش ضخمة على هذا النحو في الميدان الى مثل هذا الامد الطويل ، ويجوز لي ان أتساءل : ماذا سيئول اليه الوضع بعد سنة او سنتين عندما تذوب الجيوش البريطانية والامريكية مـن القارة ولا تكون الجيوش الفرنسية قد نظمت امرها بعد على نطاق واسع ، فلا تبقي لنا سوى بعض فرق معظمها فرنسي ، تواجه مائتين ، او ثلاثمائة فرقة آثرت روسيا الابقاء عليها في الخدمة الفعلية ؟ ..

ان ستارا حديديا يسدل الآن على الجبهة الروسية ، فنحن نجهل ما يدور وراء هذا الستار ، ولا يبدو ان هناك مجالا للشك في ان جميع المناطق الواسعة الى الشرق من خط لوبيك ــ تريستا ــ كورفو ، ستصبح بعد قليل في ايدي الروس ، ومن الواجب ان نضيف الى هذه المنطقة ، المساحات الشاسعة التي احتلتها الجيوش الامريكية بين ايزناخ ونهر الالب ، والتي ستنسحب منها بعد اسابيع ، لتأتي الجيوش الروسية

فتحتلها بعد انسحاب الامريكيين ، ولذلك فانه يجب على الجنرال ايزنهاور ان يتخذ اقصى ما يمكنه من الترتيبات للحيلولة دون فرار جماعي من جانب السكان الالمان في اتجاه الغرب عندما يشرع « الموسكوبون » في هذا الزحف الضخم الجديد الى اواسط اوروبا ، وهكذا فان الستار الحديدي سيعود ليسدل من جديد على مئات الاميال من الاراضي وهكذا سيقوم حزام عريض يفصل بيننا وبين بولندا ..

وفي هذه الاثناء سينحصر تفكير شعبينا في توقيع العقوبات على المانيا ، التي تحطمت وتدمرت ، وسيكون في وسع الروس بعد وقت قصير ان يتقدموا اذا شاءوا الى مياه بحر الشمال والمحيط الاطلنطي .

وأرى لزاما علينا ، ان نصل فورا الى تفاهم مع روسيا ، او نجد لنا معها حلا ، وذلك قبل ان تضعف جيوشنا ، أو تنسحب الى مناطق الاحتلال المتفق عليها سابقا ، ولا يمكن ان يتم هذا الا عن طريق اجتماع شخصي ، وأكون جد ممتن لو بعثت الي برأيك ومشورتك ..

وبالطبع يمكننا ان نفترض ان روسيا ستسلك سلوكا منزها عن الخطأ ، ومثل هذا السلوك سيضمن حتما احسن الحلول المناسبة ، واود ان اختصر رسالتي فأقول : ان قضية تسوية الامور مع روسيا ، قبل ان نخفض قواتنا ، هي من الاهمية بحيث تتضاءل امامها جميع القضايا » .

وفي الثاني والعشرين من ايار ابرق الي الرئيس يقول : انـه قـد اوفـد المستر جوزيف ديفيز ، ليقابلني قبـل انعقاد المؤتمر الثلاثي ، وليبحث معي بعض القضايا التي يؤثر عدم معالجتها عن طريق البرقيات .

وقد كان المستر ديفيز سفيرا لامريكا في موسكو قبل الحرب ، وكان مـن المعروف عنه انه من المؤيدين للنظام القائم ، وأعددت الترتيبات لاستقباله فورا ، وقد قضى معي ليلة السادس والعشرين في تشيكرز ، ودار بيننا حديث طويل ، وكان اهم ما قاله ان على الرئيس ان يجتمع بستالين اولا في مكان ما في اوروبا ، قبل ان يجتمع الي ، وقد ادهشني هـذا الاقتراح كل الدهشة حقا ، كما لم يكن تعبير « التكتل » الذي استخدمه الرئيس في رسائله السابقة قد اعجبني ، عندما كان يصف اي اجتماع احب ان يعقده معي .

ولقد كانت بريطانيا والولايات المتحدة ترتبطان بوشائج من المبادىء والاتفاق على السياسات في نواح واتجاهات عدة ، وكنا معا على خلاف عميق مع السوفيات في العديد من القضايا المهمة ، ولذا فان عقد اي اجتماع بين الرئيس الامريكي ورئيس الوزارة البريطانية للبحث والنقاش على ضوء هذه الاسس المشتركة ، كما كان يجري دائما في ايام الرئيس روزفلت ، لم يكن ليستحق تسمية شبيهة بهذه التسمية التي تطلق على « التكتل » لمقاصد الشر وتأليف العصابات ، ومن الناحية الثانية ، فان تجاوز الرئيس الامريكي لبريطانيا العظمى ، واجتماعه برئيس الدولة السوفياتية التي كنا نحـن والامريكيون متحدين تجاهها ـ ولم يكن في وسعي ، تحت أي ظروف ، ان اوافق عليه ـ يمكن اعتباره اساءة ، مهما

كانت غير مقصودة ، وعارضت في مجرد الفكرة القائلة بأن الخلافات القائمة هي بين بريطانيا وروسيا ، وأكدت ان الولايات المتحدة يجب ان تكون معنية بهذه القضايا عنايتنا بها ، وقد اوضحت هذه النقطة بجلاء للمستر ديفيز في حديثي معه ، وتجنبا لاي سوء فهم او تفسير في هذا الموضوع ، أعددت له وثيقة رسمية تضمنت وقائع الحديث الذي دار بيننا ، وقد قرأ الرئيس هذه الوثيقة بروح من الود والتفاهم .

ولما ابلغني الرئيس ترومان في الاول من شهر حزيران بأن الماريشال ستالين موافق على عقد اجتماع لمن يسميهم « الثلاثة » على ان يتم في برلين حوالي الخامس عشر من تموز ، فقد اجبته فورا باستعدادي للذهاب على رأس وفد بريطاني الى برلين ، ولكنني اكدت له ان الموعد الذي يقترحه متأخر جدا بالنسبة للقضايا التي تتطلب سرعة البت ، وقلت : اننا سنسيء الى الآمال التي يعلقها العالم علينا ، والى الوحدة العالمية ، كما ابرقت ايضا الى الرئيس اقول : ـ

انه على الرغم من انني اخوض معركة انتخابات حامية الوطيس ، الا انني لا ارى ان واجباتي في المعركة يمكن ان تقارن بالمهام المترتبة على اجتماع نعقده ثلاثتنا ، واذا لم يكن الخامس عشر من حزيران مناسبا ، فلماذا لا نجتمع في اليوم الاول او الثاني او الثالث من تموز ، وقد رد علي المستر ترومان يقول : انه بعد دراسة الاوضاع كلها تبين له ان الخامس عشر من تموز ، هو اقرب موعد يستطيع ان يحضر فيه الى الاجتماع ، كما ان ستالين لم يكن راغبا في عقد الاجتماع في موعد قريب .

وكان السبب الرئيسي الذي حداني للاسراع في الاجتماع ، هو ان يقع قبل انسحاب الجيش الامريكي من الخط الذي وصل اليه في القتال الى المنطقة التي خصصت للاحتلال الامريكي بموجب الاتفاق السابق ، وكنت اخشى أن تتخذ واشنطن قرارا بتسليم هذه المنطقة الهائلة التي تبلغ اربعمائة ميل طولا ومائة وعشرين ميلا عرضا ، وتضم عدة ملايين من الالمان والتشيكيين ، وان مجرد التخلي عن الارض سيوسع الفجوة بيننا وبين بولندا ، وسيقضي على كل سلطة او قدرة لنا على تغيير مصيرها ، فالموقف المتبدل الذي تقفه روسيا منا ، والخرق المستمر للاتفاق الذي توصلنا اليه في يالته ، ومحاولة القفز على الدانمارك التي احبطها مونتغمري لحسن الحظ في اللحظة الاخيرة ، والزحف في النمسا ، وضغط الماريشال تيتو المصحوب بالتهديد في تريستا ، كلها امور بدت لي ولمستشاري انها قد غيرت الاوضاع بالنسبة لتخطيط مناطق الاحتلال التي اتفقنا عليها قبل عامين ، واصبح من الواجب البحث في جميع هذه القضايا ككل الآن ، قبل ان تنسحب القوات البريطانية والامريكية وقواتهما الجوية بفعل التسريح ، ومطالب الحرب اليابانية الشديدة ، كما ان الوقت صالح الآن لتسوية عامة .

وكنت ارى ان التخلي عن قلب المانيا كلها ، « بل قلب اوروبا وحجر الزاوية فيها ، بمجرد عمل فردي من جانب واحد » قرار يعتبر على جانب كبير من الخطورة والارتجال ، واذا كان لا بد من هذا التخلي فيجب ان

يكون جزءا من تسوية عامة ودائمة ، والا فاننا سنذهب الى بوتسدام وليست في ايدينا اوراق نساوم عليها ، وبذلك تتعرض جميع آمال السلام في اوروبا للخطر ، وكان كل ما في وسعي ان افعله ، هو ان ارجو الاسراع في موعد اجتماع الثلاثة ، فاذا فشلت في ذلك ، فاني اعمل على تأجيل الانسحاب الى ان يتم بحث جميع المشكلات دفعة واحدة على اسس متكافئة .

ترى كيف اضحت الحالة بعد ثماني سنوات ؟ لقد امتد خط الاحتلال الروسي في اوروبا من لوبيك الى لينز ، وأصبحت تشيكوسلوفاكيا كلها ضمن الاطار السوفياتي ، كما اصبحت دول البلطيق وبولندا ورومانيا وبلغاريا دويلات تابعة يحكمها نظام شيوعي جماعي ، وقد خرجت يوغوسلافيا على هذا النطاق ، ولم نتمكن الا من انقاذ اليونان وحدها ، وهكذا سمحنا في لحظة النصر باختفاء تلك الفرصة التي كانت خير فرصنا ، بل آخر فرصة لنا للوصول الى سلام عالمي دائم ، وقد ارسلت للرئيس في اليوم الرابع من حزيران البرقية التالية ، التي اعتقد ان هناك اليوم من يستطيع مناقشتها او عدم تأييدها قلت فيها : ـ

« أعتقد انك مدرك السبب الذي يحملني على التلهف لعقد اجتماعنا الثلاثي في موعد مبكر ، ولنقل انه الثالث أو الرابع من تموز ، وانني لانظر نظرة متشائمة الى احتمال انسحاب الجيش الامريكي الى خط الاحتلال في القطاع الاوسط ، بحيث تتقدم القوة السوفياتية الى قلب اوروبا الغربية ، وبحيث يسدل ستار حديدي بيننا وبين كل ما يقع الى الشرق من اراض ، وكنت آمل ان امثل هـذا الانسحاب ، اذا كان لا بد منه يجب ان يصاحب تسوية الكثير من الامور العظيمة التي يقوم على اساسها السلام العالمي ، ولم تتم حتى الآن تسوية اي شيء مهم ، وأرى انني واياك نتحمل المسؤولية الكبرى بالنسبة الى المستقبل ، ولذا فما زلت آمل في تقديم موعد الاجتماع » .

وقد رد علي المستر ترومان في الثاني عشر من حزيران يقول : ـ ان الاتفاق الثلاثي المتعلق باحتلال المانيا والذي اقره الرئيس روزفلت بعد مشاورات تفصيلية ودرس طويل معي ، يجعل من المستحيل تأجيل انسحاب القوات الامريكية من المنطقة السوفياتية حتى تتم تسوية المشكلات الاخرى ، وليس في امكان مجلس اشراف الحلفاء ان يبدأ عمله الا بعد اتمام هذا الانسحاب ، كما ان الحكم العسكري الذي يباشره القائد الاعلى للحلفاء يجب ان ينتهي دون تأخير ، وان توزع مسؤولياته بين ايزنهاور ومونتغمري ، واضاف الرئيس يقول : ان مستشاريه قد افهموه بأن تأجيل الانسحاب الى ما بعد تموز ، سيضر بعلاقات أمريكا مع السوفيات ، ولذلك فهو يقترح ارسال رسالة الى ستالين ، كما اقترح ان نصدر الامر فورا الى جيوشنا بالانسحاب الى مناطق احتلالها المقررة .

وكان الرئيس على استعداد لاصدار امره الى القوات الامريكية للبدء في الانسحاب من المانيا في الحادي والعشرين من حزيران ، وأن يعد القادة العسكريون الترتيبات اللازمة لاحتلال المناطق المعينة لهم في برلين ، وأن

يؤمنوا حرية الاتصال عن طريق السكة الحديد والطرق العادية والجوية من فرانكفورت وبريمن بالنسبة للقوات الامريكية ، كما انه في الامكان استكمال الترتيبات في النمسا بصورة اسرع واكثر سهولة ، وذلك بجعل القادة المحليين مسؤولين عن تحديد مناطق احتلالهم في البلاد وفي العاصمة ، والا يعودوا الى حكوماتهم الا في القضايا التي يعجزون هم عن حلها .

وكانت هذه الرسالة بمثابة نذير شر مستطير لي ، ولكن لم يكن في وسعي غير الاذعان .

ويجب الا ننسى ان المستر ترومان لم يكن له شأن ولم يستشر في خطة تحديد مناطق الاحتلال الاصلية ، وكانت القضية بالنسبة اليه ، بعد تسلمه مدة الرياسة هي ، هل يجوز له ان ينقض سياسة اتفقت عليها الحكومتان البريطانية والامريكية في عهد سلفه العظيم ؟ وليس لدي شك ، في ان مستشاريه السياسيين والعسكريين قد ايدوه في موقفه وكانت مسؤوليته في هذه اللحظة محصورة في ان يقرر ما اذا كانت الاوضاع قد تبدلت بصورة جذرية بحيث يتطلب تبدلها اجراء مغايرا كل التغيير يمكن ان يتهم بنقض العهود والمواثيق .

وقد بدات الجيوش البريطانية والامريكية في اليوم الاول من شهر تموز ، انسحابها الى المناطق المخصصة لها ، تتبعها جموع حاشدة من اللاجئين الالمان ، وبذلك ثبتت روسيا السوفياتية اقدامها في قلب اوروبا ، وكان هذا اسوأ تاريخ في مستقبل الجنس البشري .

وبينما كانت جميع هذه الامور تسير على قدم وساق ، كنت مشغولا الى قمة رأسي في المعركة الانتخابية التي اشتد وطيسها في الاسبوع الاول من حزيران ، وكان هذا الشهر والحالة هذه ، من اقسى الفترات التي مرت علي ، حيث بدات الرحلات المجهدة بالسيارة الى مدن انكلترا واسكوتلنده الكبيرة ، مع القاء ثلاث خطب او اربع كل يوم على جماهير كبيرة يبدو عليها الحماس ، واعداد اربع اذاعات حسنة الصيغة والاقناع مما كانت تستنزف كل وقتي وقوتي ، وكنت اشعر طيلة الوقت ان ما حاربنا من اجله في اوروبا قد بدأ ينهار ، كما ان الآمال في حلول سلمية دائمة ومبكرة ، اخذت تنطوي ، وكنت اقضي الايام في وسط الجماهير الصاخبة ، وعندما آوي في الليل الى القطار الذي جعلت منه مركز قيادتي ، كان ينتظرني عدد لا بأس به من الموظفين وسيل لا ينقطع من البرقيات ، فاضطر الى قضاء ساعات طويلة اخرى في اعمال شاقة .

وقد سررت اخيرا بحلول يوم الاقتراع ، حيث تم اغلاق الصناديق وختمها بعد الانتهاء من الاقتراع ، وقد وضعت في اماكن امينة ، لكي تفتح بعد ثلاثة اسابيع ، بعد جمع الصناديق من جميع انحاء العالم التي توجد بها قواتنا .

ولهذا فقد قررت ان اقضي اسبوعا استمتع فيه بالراحة ودفء الشمس وحرارتها قبل موعد المؤتمر ، فسافرت الى بوردو مع زوجتي وابنتي ماري ، ونزلت في فيلا جميلة وضعها تحت تصرفي الجنرال

بروتينيل في « هنداي » على مقربة من الحدود الاسبانية ، وكنت اقضي معظم ساعات الصباح كل يوم في قراءة قصة رائعة لكاتب فرنسي عن تاريخ هدنة بوردو ، وقصة وهران المحزنة ، ومن الغريب انني استعدت ذكرياتي عن سنوات خمس سابقة ، وقد تعلمت من هذه القصة اشياء كثيرة لم اكن اعرفها في حينها ، كما كنت اخرج بعد الظهر ومعي لوحاتي وأدوات الرسم الى بعض الاماكن الجذابة على نهر نيف وخليج سان جان دي لوز فأصورها .

وقد اقتصر عملي الرسمي في هذه الفترة على تصريف بعض البرقيات التي تتناول مؤتمرنا المقبل ، وقد حاولت ما وسعني من جهد في ان ابعد الخلافات الحزبية عن تفكيري ، ومع ذلك يجب ان اعترف أن سر صناديق الاقتراع وما تضمه ، كان يطغي على تفكيري ، وما كنت لاستطيع ابعاد هذه الافكار عني ، الا عندما اعد لوحتي وأبدأ الرسم .

وقد احتفى بنا اهل الباسك ، احتفاء رائعا ، فلقد عانوا فترة طويلة من الاحتلال الالماني ، وكانوا سعداء باستنشاق نسيم الحرية من جديد ، ولم اكن في حاجة الى اعداد اي شيء للمؤتمر ، فقد كنت احمل في رأسي كل شيء ، ولما كان الرئيس ترومان قد ابحر على ظهر الطراد الامريكي اوغسطا ، وهو الطراد الذي استقله الرئيس روزفلت عند مجيئه لاجتماعنا في الاطلنطي عام ١٩٤١ ، فقد اخذت السيارة في الخامس عشر من تموز الى مطار بوردو ، حيث اقلتني طائرتي « سيدة الاجواء » الى برلين .

القنبلة الذرية

وصل الرئيس ترومان الى برلين في اليوم الذي وصلت فيه اليها ، وقد كنت متلهفا للتعرف عليه ، وكانت علاقاتي الودية معه على الرغم من بعض الخلافات ، قد أقيمت عن طريق المراسلة ، فقمت بزيارته في صباح اليوم التالي لوصولنا ، وقد تأثرت بما يبدو عليه من اشراق ودقة في التفكير ، وقدرة على الحسم في المواقف .

وقد قام كل منا منفردا بجولات في المدينة ، في اليوم التالي لوصولنا ، ولم تكن المدينة الا حطاما من الخرائب ، ولم يكن قد صدر بيان عن زيارتنا ولذلك فقد كانت الشوارع خالية الا من المارة العاديين ، الا انني رأيت حشدا من الناس في الساحة الواقعة امام دار المستشارية ، وعندما نزلت من السيارة ومشيت بين هؤلاء الناس ، هتف لي الجميع ، باستثناء رجل عجوز واحد ، هز رأسه هزة تنطوي على عدم الموافقة ، وكانت كراهيتي لهم قد زالت باستسلام المانيا ، وقد تأثرت تأثرا بالغا بمرآهم ، وبما يبدو على وجوههم من انهاك وتعب ، وعلى اجسامهم من ملابس رثة مهلهلة ، ودخلنا دار المستشارية ، وقضينا وقتا طويلا نجوب ابهاءها وقاعاتها المحطمة ، كما رأينا الملجأ الذي أعده هتلر لنفسه للاحتماء فيه من الغارات الجوية ، كما رأينا الغرفة التي انتحر فيها هو وزوجته .

وكان المسلك الذي اتبعه هتلر ، اكثر ملاءمة لنا من المسلك الذي كنت اخشى أن يتبعه ، فقد كان في وسعه في اي وقت من الاشهر الاخيرة من الحرب ان يطير الى انكلترا وان يسلم نفسه قائلا : « افعلوا بي ما تشاءون ، ولكن اتركوا شعبي الذي لم يكن له حول او طول » ، ولا ريب عندي في انه في مثل هذه الحالة كان سيشترك مع مجرمي نورمبرغ في مصيرهم ، لان المبادىء الخلقية للحضارة الحديثة تقضي بأن يعدم المنتصرون قادة الدول المنهارة في الحرب ، ولا ريب في ان مثل هذه المبادىء ستدفع القادة في اي حرب مقبلة الى المضي في القتال الى النهاية ، فمهما ضحوا بأرواح جديدة فان مصيرهم واحد ، وفي مثل هذه الحالة فان جماهير الشعب التي لا شأن لها في شن الحروب او انهائها هي التي تدفع الثمن الاضافي .

اما الرومان فقد كانوا يتبعون سبيلا مغايرا ، ولا شك في ان الفضل في انتصاراتهم يعود الى ما تميزوا به من رأفة بقدر ما تميزوا به من قوة .

وفي السابع عشر من تموز ، وصلت انباء هزت العالم بأسره ، فقد قام ستمسون بعد ظهر ذلك اليوم بزيارة مسكني، وبسط امامي ورقة كتب

عليها « ولد الطفل بصورة مرضية » وتبينت من حديثه ان شيئا بارزا قد وقع ، واستمر يقول « أن هذه الجملة تعني أن التجربة التي اجريت في صحراء المكسيك قد نجحت ، وأن القنبلة الذرية اصبحت امرا واقعا » ، وعلى الرغم من اننا كنا نتابع هذا البحث مما يصل الينا من انباء متفرقة ، الا انني لم اعرف من قبل على الاقل بموعد التجربة الحاسمة ، كما انه لم يكن في وسع اي عالم مسؤول ان يتكهن بما قد يقع عندما تجري تجربة أول تفجير ذري ، هل هي عديمة الجدوى أو انها مبيدة وقاتلة ؟

لقد عرفنا الآن انه قد تمت « ولادة الاطفال » بشكل مرض ، لكن ليس في وسع أي انسان حتى الآن تقدير النتائج العسكرية الفورية لهذا الاكتشاف ، كما لم يقم اي انسان حتى الآن بتقدير اي شيء عنها .

ووصلت في الصباح التالي ، طائرة تحمل وصفا كاملا لهذا الحدث العظيم ، في التاريخ البشري ، وجاء ستمسون بالتقرير الي ، وانني اشرح الآن القصة كما اتذكرها .

فقد فجرت القنبلة او ما يعادلها على قمة « بيلون » ــ عمارة فرعونية ارتفاعها مائة قدم ــ وقد اخليت منطقة دائرية نصف قطرها عشرة أميال من كل انسان ، ووقف العلماء ومساعدوهم وراء دروع ضخمة من الاسمنت المسلح ، وملاجىء تبعد نحوا من هذه المسافة ، وكان الانفجار مروعا ، فقد ارتفع عمود هائل من اللهب والدخان الى مقربة من حدود المنطقة الجوية التي تحيط بأرضنا المسكينة ، وكان التخريب داخل دائرة قطرها ميل واحد كامل ، وهكذا بدت النهاية السريعة للحرب الكونية ولاشياء اخرى ايضا .

وقد دعاني الرئيس للتشاور معه بعد ذلك ، وكان معه الجنرال مارشال والاميرال ليهي ، وكنا قد وضعنا خططنا بالنسبة لليابان ، على أساس مهاجمة جزرها الاصلية بقصف جوي مرعب ، وبغزو تقوم به جيوش هائلة ، وكنا نتوقع مقاومة شديدة من اليابانيين الذين يقاتلون حتى الموت ، بتكريس رجال الساموراي ، لا في المعارك الحربية الضخمة فحسب ، بل في كل كهف وحفرة ايضا ، وتصورت منظر جزيرة أوكيناوا ، حيث آثر عدة الوف من اليابانيين بدلا من الاستسلام ، ان يقفوا في صف واحد ، وان يقضوا على انفسهم بالقنابل اليدوية بعد ان كان قادتهم قد أتموا طقوس الانتحار المعروفة بالهاراكيري .

ويعني القضاء على المقاومة اليابانية رجلا رجلا واحتلال بلادهم شبرا شبرا ، ضياع مليون امريكي ونصف هذا العدد من البريطانيين او اكثر منه ، هذا اذا تمكنا من ايصال هذه القوات الى بلادهم ، اما الآن فقد اختفى هذا الكابوس المرعب ، وطلعت امامنا صورة بدت لنا جميلة ومشرقة ، وهي أن تنتهي الحرب كلها بهزة او بهزتين عنيفتين ، وفكرت توي ، كيف يمكن لهذا الشعب الياباني الذي كنت دائم الاعجاب بشجاعته ، ان يرى في هذا الطيف من السلاح الغيبي او فوق الطبيعي ، ذريعة تحفظ له شرفه وتحرره من التزاماته بالموت حتى آخر رجل محارب .

وكان هناك شيء اهم ، وهو اننا لن نحتاج الى الروس ، اذ ان نهاية الحرب مع اليابان لم تعد تعتمد على تدفق جيوشهم ، لتوجيه الضربة الاخيرة والحاسمة ، ولم نعد في حاجة الى ان نطلب منهم منة او فضلا ، واصبح في وسعنا ان نواجه مشكلات اوروبا على حقيقتها ، ووفقا لمبادىء الامم المتحدة الواسعة ، وبدا اننا اصبحنا فجأة واقعين تحت سيطرة رغبة رحيمة في اختصار المذابح في الشرق ، وأمل اكثر اشراقا وسعادة في اوروبا ، وعلى اي حال ، لم يكن هناك ما نضيعه في النقاش ، في هل تستعمل القنبلة الذرية او لا تستعمل ؟ واتضح لنا ان تجنب مذبحة هائلة لا حدود لها ، وان الوصول بالحرب الى نهاية ، وبالعالم الى السلام ، وان مد يد الرحمة الى شعوبه المعذبة عن طريق غرض لقوة طاغية ، لا تكلف الا بعض انفجارات ، كلها امور جاءت بعد هذه الاخطار والمتاعب ، كمعجزة من معجزات الانقاذ .

وكانت موافقة بريطانيا المبدئية على استعمال هذا السلاح ، قد صدرت في الرابع من شهر تموز اي قبل اجراء التجربة ، امـا القرار النهائي فقد اصبح الآن بين يدي الرئيس ترومان ، الذي يملك السلاح ولم يداخلني الشك قط فيما سيكون عليه هذا القرار ، وفي انه كان على حق في اتخاذه ، لكن الحقيقة التاريخية تظل قائمة ، ويجب الحكم على ضوئها في مستقبل الايام ، وهي ان القرار الذي اتخذ باستخدام القنبلة الذرية لارغام اليابان على الاستسلام ، لم يكن في يوم ما مصدر خلاف حيث كان هناك اتفاق اجماعي واوتوماتيكي ودون حاجة الى سؤال او نقاش حول المائدة التي كنا نجلس عليها . ولم اسمع اي اعتراض من اية جهة ، على ان الواجب يحتم علينا عدم استعمالها .

وكان السؤال الدقيق المعقد ، هو ماذا سنقول لستالين ؟ بعد ان اصبحنا في غير حاجة الى مساعداته في اخضاع اليابان ، وكان ستالين قد تعهد في مؤتمري طهران ويالته ، بأن تهاجم روسيا السوفياتية اليابان فور هزيمة الجيش الالماني ، وتحقيقا لهذا الوعد ، بدأت منذ اوائل ايار ، حركة نقل واسعة ومستمرة للقوات السوفياتية الى الشرق الاقصى على سكة حديد سيبيريا ، ورأينا الآن انا لسنا في حاجة الى هذه القوات ، وبذلك يكون ستالين قد فقد قوة المساومة ، التي كان قد استخدمها بنجاح مع الامريكيين في يالته ، الا انه كان على كل حال حليفا عظيما في الحرب ضد هتلر ، وقد شعرنا في هذه اللحظة ان من الواجب ابلاغه (الحقيقة الجديدة العظيمة) التي اصبحت تسيطر على الموقف دون ان نعطي له التفاصيل ، ولكن كيف ننقل اليه هذا النبأ ؟ أيكون النقل كتابة او شفويا ؟ وهل سيكون الابلاغ في جلسة رسمية او خاصة او في اثناء اجتماعاتنا اليومية او بعدها ؟ وقد اختار الرئيس اخيرا الوسيلة ، فقال ، أعتقد ان من الخير ان ابلغه النبأ بعد اجتماعاتنا ، وان أقول له اننا توصلنا الى اختراع طراز جديد من القنابل يختلف عن النوع المألوف ، وسيكون ذا اثر حاسم في عدم استمرار اليابانيين في الحرب ، وقد وافقت الرئيس على هذا الاجراء .

كما استمرت في هذه الاثناء الهجمات المدمرة على اليابان مـن

الجو والبحر ، ولم تحل نهاية شهر تموز ، حتى كان الاسطول الياباني قد اختفى من الوجود تقريبا ، كما سيطرت الفوضى على الوطن ، وأخذ الديبلوماسيون المحترفون يميلون الى الاقتناع بأن الطريقة الوحيدة لانقاذ اليابان من التفكك الكلي ، هي ان يصدر الامبراطور امره فورا بالاستسلام ، ولكن السلطة كانت لا تزال في ايدي زمرة من العسكريين الذين صمموا على ان يقودوا البلاد كلها الى الانتحار الجماعي ، بدلا من قبول الهزيمة ، ولم يرهب الدمار الرهيب الذي يواجههم ، هذه الزمرة الحاكمة المتعصبة ، التي ما فتئت تؤمن بمعجزة من نوع ما تقلب الوضع الى صالحهم .

هذا ، وقد بحثت مع الرئيس في محادثات طويلة عدة على انفراد او مع بعض مستشاريه ، ما يجب ان نفعله ، واشرت الى الثمن الباهظ في ارواح الامريكيين وفي ارواح البريطانيين ايضا ، اذا ما فرضنا على اليابان « الاستسلام بلا قيد ولا شرط » وتركت للرئيس ان يقرر ، ما يضمن لنا الحصول على كل ما نراه ضروريا للسلام والامن في المستقبل ، ويترك لليابانيين في الوقت نفسه بعض المظاهر للحفاظ على كرامتهم العسكرية ، مع التأكيد لهم بوجودهم القومي اذا ما قاموا بتنفيذ جميع الضمانات التي يطلبها المنتصرون ، وقد رد الرئيس علي باشمئزاز قائلا :
ــ انه لا يعتقد في وجود اي شرف عسكري لليابانيين بعد هجوم بيرل هاربور .

وقد تقرر اخيرا ان نوجه انذارا نهائيا الى اليابان ، نطلب فيه استسلام قواتها العسكرية بلا قيد ولا شرط فورا ، ونشرنا هذه الوثيقة في السادس والعشرين من تموز ، ولما رفض حكام اليابان العسكريون هذا الانذار ، اعد سلاح الجو الامريكي خططه تبعا لذلك ، لالقاء قنبلة ذرية على هيروشيما ، واخرى على ناجازاكي ، واتفقنا على ان نعطي للاهلين كل فرصة ممكنة ، وتم وضع الاجراء بالتفصيل وللتقليل الى اكبر حد ممكن من الخسائر في الارواح ، قامت الطائرات الامريكية في السابع والعشرين من شهر تموز ، بالقاء نشرات على احدى عشرة مدينة يابانية ، تحذرها فيها انها سوف تتعرض لقصف جوي هائل ، وهوجمت ست من هذه المدن في اليوم التالي ، كما حذرت الطائرات اثنتي عشرة مدينة اخرى في اليوم الحادي والثلاثين من تموز . وقصفت اربعا منها في اليوم الاول من آب ، ووجه الانذار الاخير في الخامس من شهر آب .

وفي اليوم السادس من آب القيت القنبلة الذرية الاولى على هيروشيما ، كما القيت في اليوم التاسع من آب القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناغازاكي ، وفي اليوم التالي وافقت الحكومة اليابانية ــ على الرغم من فتنة قام بها بعض العسكريين المتطرفين ــ على قبول الانذار ، على شرط الا يؤثر ذلك على سلطات الامبراطور كحاكم مطلق ، فدخلت اساطيل الحلفاء خليج طوكيو ، وتم في اليوم الثاني من ايلول توقيع وثيقة الاستسلام الرسمية على ظهر البارجة الامريكية «ميسوري» وكانت روسيا قد اعلنت الحرب على اليابان في الثامن من شهر آب ،

اي قبل اسبوع واحد من انهيارها ، ومع ذلك طالبت بجميع حقوق الدولة المحاربة .

ومن الخطأ الافتراض بأن القنبلة الذرية ، هي التي قررت مصير اليابان ، فقد كان المصير المحتوم بالهزيمة ينتظرها ، قبل القائها ، وقد فرضت هذا المصير قوة الحلفاء البحرية المتفوقة التي مكنت الحلفاء في الوقت نفسه من احتلال القواعد البحرية في المحيط ، لتشن منها الهجوم النهائي ، ولترغم الجيش الياباني في الوطن على الاستسلام ، دون ان توجه اليه اية ضربة ، فقد تحطمت بحرية اليابان ، حيث دخلت الحرب وهي تملك اسطولا من البواخر تزيد حمولته على خمسة ملايين ونصف مليون من الاطنان ، ثم زاد هذا الرقم من البواخر التي استولت عليها او بنتها ، ولكن نظام القوافل والحراسة الذي وضعته كان غير كاف وكان مفتقرا الى التنظيم ، وقد تم اغراق بواخر يابانية تزيد حمولتها على ثمانية ملايين ونصف مليون من الاطنان ، ذهب منها نحو خمسة ملايين ضحية للغواصات .

ولما كانت خيبة الامل ، هي الطابع الذي تميز به مؤتمرنا الثلاثي الاخير ، فلن احاول ان اشرح جميع القضايا التي اثيرت في مختلف الجلسات ، وان كانت لم تسو ولم تحل ، وسأكتفي بالحديث عما اعرفه بخصوص القنبلة الذرية ، وبتخطيط قضية الحدود الالمانية ـ البولندية ، لان هذه الاحداث لا زالت تعيش معنا حتى الآن .

فقد تم الاتفاق بيننا في مؤتمر يالته ، على ان تتقدم روسيا بحدودها الغربية مع بولندا الى خط كرزون ، كما كنا قد اعترفنا دائما لبولندا في حقها بدورها في الحصول على تعويضات مناسبة من الارض الالمانية ، وكان السؤال هو الى اي مدى ؟ والى اية مسافة في المانيا يجب ان تمضي بولندا في توسيع حدودها ؟ فقد اختلفنا حول تلك اكبر اختلاف ، وكان ستالين قد اراد توسيع حدود بولندا الغربية على طول نهر الاودر حتى نقطة التقائه بنهر النييسي الغربي ، وكان رؤساء الحكومات الثلاث ، قد تعهدوا علنا في يالته ، باستشارة الحكومة البولندية ، وبترك الموضوع للتقرير النهائي في مؤتمر الصلح ، وكان هذا خير ما استطعنا عمله ، ولكننا واجهنا في تموز عام ١٩٤٥ وضعا جديدا ، فقد وسعت روسيا حدودها الى خط كرزون ، وكان هذا يعني كما ادركت انا وروزفلت ، ان الملايين الثلاثة او الاربعة من البولنديين الذين يعيشون على الجانب الثاني من الخط ، يجب ان ينزحوا الى الغرب ، وواجهنا الآن امرا اسوأ من هذا ، فقد وسعت حكومة بولندا التي يسيطر عليها السوفيات حدودها لا الى النييسي الشرقي بل الى الغربي ايضا ، ويسكن الالمان معظم هذه المنطقة ، وعلى الرغم من ان عدة ملايين قد فروا غربا ، الا ان عددا كبيرا قد ظل في مكانه ، فماذا سنصنع بهؤلاء ؟ كما ان نقل اربعة ملايين بولندي امر سيىء في حد ذاته ، فهل يتحتم علينا ان ننقل ثمانية ملايين الماني او

اكثر ايضا ؟ وحتى لو امكننا تحقيق ذلك ، فليس هناك ما يكفيهم من الطعام في الاقسام المتبقية من المانيا لان معظم القمح الذي تنتجه المانيا في الاراضي التي اخذها البولنديون ، واذا حرمنا هذا القمح ، فاننا معشر الحلفاء الغربيين سنظل مسيطرين على مناطق صناعية خربة ، وشعب متضخم جائع ، وهنا يكمن خطر بالنسبة لسلام اوروبا في المستقبل اكبر من الخطأ الذي تمثله الالزاس واللورين ، او ممر دانزيغ ، وسيأتي يوم يطالب فيه الالمان باسترداد اراضيهم ، ولن يكون في وسع البولنديين ان يحولوا بينهم وبين استعادتها .

والآن يجب علي ان اتحدث عن الاتصالات الشخصية والاجتماعية التي خففت شيئا من حدة مناقشاتنا الجدية ، وكان على كل وفد من الوفود الكبيرة ان يقيم الولائم الوفدين الآخرين ، وقد وقع الدور على الولايات المتحدة أولا ، وعندما جاء دوري ، اقترحت ان نشرب نخب « زعيم المعارضة المقبل أيا كان الزعيم » وقد سر المستر أتلي الذي كنت قد دعوته الى المؤتمر ، تطبيقا لنظريتي في ان من واجب رئيس كل حكومة في اوقات الازمات ان يعد نائبا له يعرف كل شيء ، ويستطيع ان يحافظ على الاستمرار في حالة وقوع احداث ، كما كان العشاء السوفياتي رائعا ايضا ، واشتمل على حفلة موسيقية عزف فيها كبار الفنانين الروس ، وقد استمرت الحفلة الى ساعة متأخرة من الليل ، حتى انني اضطررت الى التسلل والذهاب .

وعندما انتهى اجتماعنا الرسمي في اليوم التالي ، اي في الرابع والعشرين من تموز ، ونهضنا جميعا ، رأيت الرئيس يتجه الى ستالين فيقف بجانبه ، ويأخذ الرجلان في حديث وليس معهما الا المترجمان ، وكنت واقفا على بعد خمسة ياردات تقريبا ، حيث كنت ارقب باهتمام بالغ الحديث الخطير التاريخي ، لاني كنت اعرف ما اعتزم الرئيس ان يقوله ، وكان يهمني ان اعرف مدى تأثير قوله على ستالين ، واني لارى الصورة امامي الآن وكأنها وقعت بالامس لقد بدا عليه السرور ، وقال : قنبلة جديدة ! لها قوة خارقة ! قد تكون حاسمة في تقرير الحرب كلها مع اليابان ! يا له من حظ سعيد ! كانت هذه الانطباعات التي حملتها تلك الساعة ، وكنت على ثقة من انه لم يقدر تماما اهمية ما قيل له ، وبدا لي ان القنبلة الذرية لم تلعب دورا في متاعبه وجهوده ، ولو كانت لديه اية فكرة ولو ضئيلة ، عن الثورة التي تحدث الآن في الشؤون العالمية بسبب هذا الاختراع لكان رد فعله مغايرا تماما ، ولم يكن اسهل عليه من ان يقول « شكرا لك على ابلاغك اياي نبأ قنبلتك الجديدة وبالطبع انا اعرف شيئا عن الحقائق المتعلقة بها ، فهل تسمح لي بأن ابعث بخبرائي في العلوم النووية لمقابلة خبرائك في صباح غد ؟ » ، ولكن وجهه ظل مرحا وطبيعيا ، ولما انتهى الحديث بين الزعيمين ، استفهمت من الرئيس ، عن كيفية سير الامور ؟ فرد علي بقوله ان ستالين لم يوجه اليه اي سؤال .

وعاد المؤتمر للاجتماع في اليوم الخامس والعشرين من تموز ، وكان هذا آخر اجتماع حضرته ، وقد اثرت من جديد موضوع بولندا ،

وقلت ان حدودها الغربية لا يمكن ان تقرر دون ان نأخذ بعين الاعتبار مشكلة المليون وربع المليون من الالمانيين الذين يعيشون في المنطقة ، وهنا اكد الرئيس بأن اية معاهدة للصلح لا يمكن ان تبرم دون موافقة مجلس الشيوخ الامريكي ومشورته ، وعلينا اذن ان نجد حلا ، يستطيع ان يوصي به معتذرا للشعب الامريكي ، فقلت اننا اذا سمحنا لبولندا بأن تكون دولة الاحتلال الخامسة في المانيا دون ان نتخذ الترتيبات لتوزيع المواد الغذائية ، التي تنتج في المانيا بصورة عادلة على الشعب الالماني كله ، ودون ان نتفق على التعويضات وغنائم الحرب ، فان مؤتمرنا يكون فاشلا ، لان جذور المشكلات لا تزال قائمة امامنا ، ولم نصل حتى الآن الى اتفاق بشأنها ، فقال ستالين ، ان الحصول على الفحم والمعادن من الروهر اهم بكثير من المواد الغذائية وقلت ان هذه المعادن يجب ان تتم مقايضتها بالمؤن من المنطقة الشرقية ، والا فان المعدنين لن يستطيعوا استخراج الفحم والمعادن وكان رد ستالين ، انهم قد الفوا في الماضي استيراد المواد الغذائية من الخارج وفي وسعهم ان يواصلوا استيرادها ، فسألته ، اذن كيف يمكن لهم أن يدفعوا التعويضات ؟ فرد قائلا ، « ما زال هناك شحم كثير على جسم المانيا » ورفضت ان اقبل فكرة المجاعة في الروهر لان البولنديين يريدون الاحتفاظ بجميع المناطق التي تنتج القمح في الشرق ، وقلت ان بريطانيا نفسها تفتقر الى الفحم ، فقال ستالين ، « اذن فليشتغل الاسرى الالمان في مناجمكم ، ان هذا ما افعله انا الآن » واضاف قائلا : وما زال هناك اربعون الف الماني في النرويج وفي وسعك ان تأخذهم من هناك ، وقلت ، اننا نصدر الفحم الذي نحتاج اليه الى فرنسا وهولندا وبلجيكا ، فلماذا يبيع البولنديون الفحم الى السويد في حين تحرم بريطانيا نفسها الشيء الذي تحتاج اليه لمساعدة البلاد المتحررة ؟ فرد ستالين قائلا : — ولكنها تبيع الفحم الروسي وما زال موقفنا اصعب من موقفكم ، فقد خسرنا اكثر من خمسة ملايين رجل في الحرب ، ونحن في اشد الحاجة الى الايدي العاملة ، وعدت الى نقطتي اثيرها من جديد ، سنرسل الفحم من الروهر الى بولندا او الى اي مكان آخر ، بشرط ان نحصل بدلا منه على المواد الغذائية لعمال المناجم الذين ينتجون الفحم » .

وهنا توقف ستالين لحظة ليفكر ، وقال : — ان القضية كلها تحتاج الى المزيد من الدرس ، فوافقته على ذلك ، وقلت انني لا اريد الا الاشارة الى المتاعب التي نواجهها ، وهذا بالنسبة الي هو كل ما يهمني .

وبما انه لا يمكنني ان اتحمل مسؤولية تتجاوز النتائج التي توصلنا اليها في مؤتمر بوتسدام ، فقد اثرت في المؤتمر جميع النقاط التي لم نتفق عليها وتركتها معلقة ، وهكذا فقد تكدست مجموعة ضخمة من القضايا التي لم نصل الى اتفاق بصددها ، وكنت اعتزم اذا ظهرت نتائج الانتخابات في بلادنا في صالحنا ، وعدت الى الحكم ، كما كان متوقعا ، ان اشتبك مع السوفيات في حطام مكشوف لتقرير هذه القضايا ، فما كنت لاقبل قط ، وما كان للمستر ايدن ان يقبل ايضا ، ان يكون نهر النييسي الغربي حدا لبولندا ، وكنا قد قبلنا بخط الاودر والنييسي

الشرقي كتعويض على بولندا مقابل انسحابها الى خط كرزون ، ولكن ما كان لاية حكومة اراسها ، ان تقبل اجتياح الجيوش الروسية لجميع المناطق الممتدة حتى النييسي الغربي والى ما وراءه ايضا ، ولـم تكن القضية تتعلق بالمبدأ فحسب ، وانما كانت تتناول حقيقة هائلة ، تؤثر على نحو ثلاثة ملايين آخرين من المشردين الذين سيجلون عن بيوتهم .

وكانت هناك قضايا اخرى ، وكان لزاما علينا ان نصمد بسببها امام الروس وامام البولنديين الذين بدوا وكأنهم بعد ان ابتلعوا هذه القطع الكبيرة من الارض الالمانية قد اصبحوا اشد انصار السوفيات ، ولكن نتائج الانتخابات العامة ، قد ادت الى تجزئة المفاوضات كلها ، والى وصولها الى نتائج سابقة لاوانها ، وانا لا اقول هذا لانحي باللائمة علـى وزراء الحكومة الاشتراكية التـي خلفتنا ، والذين اقحموا في المفاوضات دون دراسة جدية سابقة ، كما لم يكونوا على اطلاع على آرائي وخططي ، بحيث يشتبكون في نزاع في نهاية الامر ، ويحكمون عليه بالفشل اذا اقتضى الامر ، بدلا من السماح بتجاوز نهري الاودر والنييسي الشرقي ، واعطاء الاراضي الواقعة وراءهما الى بولندا ، وكان في الامكان اصلاح الوضع حتى في مؤتمر بوتسدام .

ولكن تحطيم الحكومة القومية البريطانية واختفائي عـن المسرح في ذلك الوقت الذي كنت لازال اتمتع فيه بنفوذ عظيم وقوة كبيرة ، قد جعلا من المستحيل الوصول الى حلول مرضية .

ولو كانت الظروف عادية ، لشعرت بالحرية في ان اقضي بضعة ايام في استكمال القضايا الرسمية بالطريقة المألوفة ، وكان في وسعي من الناحية الدستورية ، ان انتظر انعقاد البرلمان بعد بضعة ايام ، وان اودع المجلس الجديد ، وكان في وسعي عن طريق مثل هذا الترتيب ان أتقدم الى المجلس والى الشعب قبل الاستقالة حاملا خبر استسلام اليابان ، ولكن الحاجة الى تمثيل بريطانيا فورا تمثيلا قويا يستند الى صلاحيات صحيحة في المؤتمر الـذي غادرناه ، والذي كانت القضايا الكبرى التي بحثناها فيه ما زالت معلقة امامه ، جعلت كل تأجيل في الاستقالة ، يتنافى مع المصلحة العامة ، وقد كان حكم الناخبين من الناحية الاخرى مبرما ومعبرا بشكل طاغ ، مما جعلني غير راغب في البقاء ساعة اخرى مسؤولا عن تصريف شؤونهم ، فطلبت التشرف بالمقابلة الملكية ، وتوجهت في الساعة السابعة الى القصر ، حيث رفعت استقالتي الـى الملك ، واشرت على جلالته بأن يعهد بالحكم الى المستر آتلي ، ووجهت الى الامة الرسالة التالية التي ارى ان اختم بها هذا الكتاب :

٢٦ تموز ١٩٤٥

« لقد سجل الشعب البريطاني قراره في الاحداث التي جمعها اليوم ، ولهذا فقد ازاح عن عاتقي المسؤولية التي اضطلعت بها في اوقات اكثر حلوكة وظلاما ، ويؤسفني ، انني لم يسمح لـي ، باكمال العمل

ضد اليابان ، ولكن جميع الخطط والاعدادات لاكمال هذا العمل قد تمت ، وستظهر النتائج في وقت اقرب بكثير مما كان في استطاعتنا ان نتصوره أو نتخيله ، وستقع على عاتق الحكومة الجديدة مسؤوليات ضخمة في الخارج والداخل ، ولنتوجه كلنا بالدعاء لها بأن توفق في تحمل هذه المسؤوليات .

ليس امامي الآن الا ان اعرب للشعب البريطاني ، الذي عملت من اجله ، طيلة تلك السنوات الخطيرة ، عن عميق شكري ، للتأييد الكامل ، الذي لم تشبه اية شائبة من التردد ، والذي اولاني اياه في اثناء قيامي بالواجب ، كما أعرب عن صادق عرفاني لمظاهر العطف التي غمر بها الشعب خادمه المطيع » .

الخاتمــة

تموز ١٩٤٥ ـ شباط ١٩٥٧

أتاحت لي هذه الطبعة الجديدة من المذكرات التي وضعتها عن الحرب الماضية الفرصة اليوم لاستعرض الاحداث الضخمة التي وقعت في الاثني عشر عاما الاخيرة التي تلت انتهاء الحرب ، ولاعرب عن آرائي تجاهها .

فعندما غادرت بوتسدام في الخامس والعشرين من شهر تموز عام ١٩٥٤ ، كنت اتوقع الفوز في الانتخابات بأغلبية معقولة ، وكان من المذهل ان تصدمني الحقائق المرة القاسية ، ولما كانت ادارة دفة الحرب ومعالجة الاوضاع عند نهايتها الظافرة ، قد الهتني عن فهم حقيقة ما وقع في الجزر البريطانية ، ولو انني فهمتها حين ذاك ، لكان في امكاني ان ارتب الامور بشكل مغاير تماما ، فلقد جاء رأي اغلبية الجنود ، بعد ما اظهروه لي في اثناء تلك الفترة من علائم الحب والنوايا الطيبة ، مفاجئا لي تمام المفاجأة ، كما كانت نتائج الانتخابات وارقامها مفاجأة اكبر لاوروبا وأمريكا وروسيا ، لان الجميع كانوا لا يتوقعون بعد ما رأوا من ثبات الشعوب البريطانية ما مكنها من التغلب على جميع المحن التي مرت بها في عام ١٩٤٠ ، والذي جعل من السهل عليها ان تجتاز سنوات النضال الخمس منتصرة ظافرة ، الا تتبدل الحكومة .

كما لم احاول في اثناء مؤتمر بوتسدام حتى اللحظة الاخيرة ان اشتبك مع روسيا في خصام ، بسبب سلوكها الذي يبعث على الدهشة والذهول منذ ايام مؤتمر يالته ، وكان املي كبير في الا تنسحب الجيوش الامريكية من المناطق الواسعة التي احتلوها في أوروبا الوسطى ، فلقد كانت هذه هي الورقة الرابحة الوحيدة التي يحملها الحلفاء في ايديهم عندما توقف القتال ، للوصول عن طريقها الى تسوية مرضية ، ولم تكن بريطانيا تطلب شيئا لنفسها ، ولكني كنت واثقا من انها كانت ترى في هذا التقدم الذي تقوم به روسيا في جميع الاتجاهات ، شيئا يفوق كل ما هو عدل ، وظهر ان الامريكيين لم يكونوا مدركين لخطورة الوضع ، اما الدول التابعة ، كما اصبحت تدعى ، فتحتلها الجيوش الروسية ، كما كانت برلين في ايديهم ، مع انه كان في وسع مونتغمري ان يحتلها لو سمح له بذلك ، وكان الروس يسيطرون على فيينا ، ولم يكن يسمح لممثلي الحلفاء ، حتى كأفراد بالوصول الى العاصمة المهمة ، اما بالنسبة للبلقان ، فقد اصبحت رومانيا وبلغاريا محتلتين ، كما كانت يوغوسلافيا تهتز تحت تيتو زعيمها الوطني المشهور ، وكان الروس قد احتلوا براغ بموافقة

أمريكا كما يبدو ، وهم يسيطرون على بولندا التي اتفق على ان يمتد حدها الغربي الى قلب اوروبا على حساب المانيا ، ومع ذلك فقد اتضح ان وجهة النظر الامريكية كانت ترى ان هذه الامور ضرورية للابقاء على المانيا تحت السيطرة ، كما كانت تهدف الى عدم الوقوف في صف بريطانيا ضد روسيا .

وكنت ولا ازال احترم الشعب الروسي الباسل كل الاحترام ، الا ان ظل هذا الشعب اناخ بكلكله المدمر على مسرح ما بعد الحرب ، ولم تكن هناك حدود مرئية للضرر الذي يمكن لهذا الظل ان يحدثه ، ولما كانت بريطانيا وامريكا ، بتصميمها الكلي على الانتصار على دول المحور ، لم تضعا الشروط الكافية لتقرير مصير اوروبا المثلة ومستقبلها ، فقد خضنا الحرب لا دفاعا عن استقلال البلاد الصغيرة فحسب ، بل لنعلن الحقوق للافراد ولنضمنها ايضا ، كما نضمن الحريات التي تقوم عليها اسس الحياة الخلقية ، ولما كانت لروسيا السوفياتية اهداف اخرى تهتم بها ، فقد شددت قبضتها على الاراضي التي اجتاحتها جيوشها ، واقامت حكومات ائتلافية في جميع الدول القابعة وراء الستار الحديدي يشترك فيها الشيوعيون ، وكان الامل يتركز في امكان الاحتفاظ بالديموقراطية بأي شكل من الاشكال ، ولكن الشيوعيين اخذوا يضعون ايديهم على المراكز المهمة في بلدة بعد اخرى ، ومن ثم شرعوا في اضطهاد الاحزاب السياسية الاخرى ومضايقتها ، مطوحين بزعمائها الى حياة النفي والتشريد ، كما جرت محاكمات وأعمال تطهير ، وفي الحال سيطرت الشيوعية على رومانيا والمجر وبلغاريا .

وقد كافحت كفاح الجبابرة دفاعا عن بولندا في مؤتمري يالته وبوتسدام ، وباء كفاحي بالفشل .

وقام الوزراء الشيوعيون بانقلاب مفاجىء في تشيكوسلوفاكيا مما اثار يقظة الرأي العام العالمي ، وتحطمت الحرية في داخل البلاد ، وحظر عليها التعامل بحرية مع الغرب .

كما يرجع الفضل الى بريطانيا على الغالب ، في بقاء اليونان مستقلة بصورة غريبة بين هذه الدول ، فقد خاضت بمساعدة بريطانيا وامريكا حربا اهلية طويلة ، ضد العصاة الشيوعيين ، وبعد كل تلك الجهود والآلام الطويلة التي فرضتها الحرب الكونية الثانية تبين ان اكثر من نصف اوروبا لم يفعل اكثر من استبدال طغيان بآخر .

وتبدو هذه النقاط اليوم شيئا عاديا مألوفا ، وقد اصبح الكفاح الطويل وغير الفاشل الى حد ما ، لوقف تيار الاجتياح الروسي او الاجتياح الموحى به من الروس جزءا من اعمالنا اليومية وحياتنا ، وكان من الضروري حقا في بعض الاحيان ، كما هي الحالة بالنسبة الى القضايا الصحيحة ، تخفيف الحماس والتنكر للانتهازية ، ولم يكن من السهل ابدا في ذلك الوقت ان ينتقل الانسان بأفكاره من انتصار عظيم منهك على طغيان واحد ، الى توقع حملة مضنية وباهظة التكاليف ضد طغيان آخر .

وكانت منظمة الامم المتحدة لا تزال في طفولتها ، الا انه اتضح منذ البداية ، ان العيوب الموجودة فيها قد تقيم الدليل على انها من الخطورة الى الحد الذي يبطل الاهداف التي قامت من اجلها . على اي حال تبين انها لا تستطيع ان تؤمن بسرعة وبصورة فعالة بتلك الوحدة ، وتلك القوى المسلحة التي تحتاج اليها اوروبا الحرة والولايات المتحدة للمحافظة على كيانهما ، وكنت قد اقترحت في احدى محاضراتي ان تكون الامم المتحدة مجهزة بقوة دولية مسلحة ، كما الحدث بالنسبة الى المستقبل الراهن والى المستقبل البعيد المدى على استمرار العلاقة الانكليزية ـ الامريكية الخاصة ، التي كانت احدى النظريات الاساسية التي كرست لها حياتي السياسية .

وقد قدر للسنوات الثلاث التالية ، ان تشهد مشروعا اقترب من تحقيق هذا الهدف وان لم يصل اليه تماما .

ولا اريد ان احتكر الفضل في جميع هذه الامور ، ولعل من مزايا المعارضة ، ان الانسان الذي يكون في خارج الحكم ، يستطيع ان يمضي

بخياله الى آفاق اوسع من تلك التي يمضي اليها اولئك الذين شاء لهم طالعهم ان ينقلوا المخططات الى حيز التنفيذ ، فقد تمكنت الحكومة البريطانية بوحي من ذلك الانسان ذي القلب الكبير والحكمة البالغة المستر ارنست بيفن ، ان تتولى زمام القيادة في اعادة بناء جزء من المجتمع الاوروبي ، او ما تبقى من اوروبا على الاقل ، وقد كانت الافكار الاولى منبعثة من الاخطار الناجمة عن احتمال بعث المانيا ، وقد وقعت بريطانيا وفرنسا في عام ١٩٤٧ معاهدة دنكرك ، التي التزمتا فيها ان تساعد الواحدة منهما الاخرى في حالة تعرضها لهجوم الماني ، الا ان حقائق الحاضر غير المطمئنة ، اخذت تكشف مخاوف الماضي .

وبعد مضي اشهر طويلة من النشاط الدبلوماسي ، تم التوقيع على معاهدة بروكسل في عام ١٩٤٨ ، وتعهدت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرغ ، بموجب هذه المعاهدة ، بأن تساعد بعضها بعضا في حالة تعرض اي منهما لعدوان ايا كان مصدره ، ولم يذكر اسم المانيا في هذه المعاهدة .

وقد تم انشاء منظمة عسكرية برياسة الماريشال مونتغمري ، لتقدير الموارد المدخرة للدفاع ، ولوضع خطة تتناول هذه الموارد ، وقد اسميت هذه المنظمة بالاتحاد الغربي ، وقد ايدت هذه الاجراءات ، واعربت عن املي بقوة ، في ان تحمل الولايات المتحدة على نوع من الارتباط معها ؛ اذ بدون مساعدتها ، تكون المنظمة ناقصة الى حد مخيف .

وكنا سعداء في ان يكون على رأس وزارة الخارجية الامريكية في هذا الوقت الجنرال مارشال ، البعيد النظر والكثير الاخلاص ، الذي عملنا معه بروح الزمالة الوثيقة والثقة طوال سنوات الحرب ، وقد حاول الجنرال والرئيس ترومان ، ضمن الحدود التي يفرضها الكونغرس والرأي

العام الامريكي ، ان يضيفا وزنا واهمية للجهود التي كانت تبذل حين ذاك في اوروبا ، وقد اثمرت الجهود المبذولة على جانبي الاطلنطي ، وتم التوقيع في شهر نيسان عام ١٩٤٩ ، على معاهدة شمال الاطلنطي ، التي التزمت الولايات المتحدة بموجبها ، لاول مرة في تاريخها ، مع مراعاة الحقوق الدستورية للكونغرس ، بمساعدة حلفائها اذا ما هوجموا ، وقد تضمنت الدول الاوروبية التي وقعت على المعاهدة بالاضافة الى دول معاهدة بروكسل ، كلا من النرويج والدانمارك وايسلندا وايطاليا والبرتغال ، كما وقعت كندا ايضا على المعاهدة مقدمة دليلا اضافيا جديدا على الثقة التي كنا نصفها ـ نحن في بريطانيا ـ دائما في صداقتها وولائها .

وكان العمل الذي تلا ذلك معقدا كل التعقيد ، وقد نجم عنه اقامة منظمة حلف الاطلنطي ، التي تراسها هيئة تخطيط عسكرية ، يتولى قيادتها الجنرال ايزنهاور ، الذي جعل مقر قيادته في فرساي ، ونشأ من الجهود التي بذلتها القيادة العليا لمنظمة حلف شمال الاطلنطي في اوروبا ثقة هادئة ورصينة في ان اي غزو قادم من الشرق ، سيلقى مقاومة فعالة ومنتجة .

ومن الثابت ان حلف الاطلنطي قد حقق بوجوده في البداية اكثر مما حقق بعمله ، فقد اعاد الى اوروبا الثقة ، ولا سيما البلاد الواقعة على مقربة من الاتحاد السوفياتي وتوابعه ، وقد سبب هذا الاثر انحسارا لحق بقوة الاحزاب الشيوعية في البلاد المهددة ، وفي بعث ظهر في النشاط القومي الصحيح في المانيا الغربية .

وقد جاءت التجربة العصيبة في شهر حزيران عام ١٩٤٨ عندما قطع الروس برلين عن العالم الخارجي ، وكانت غايتهم ادخال برلين كلها في الدولة الشيوعية التي اقاموها في شرقي المانيا ، وبدا ان على بريطانيا وفرنسا وامريكا اما ان تتخلى عن المدينة او تبعث بقوافل التموين اليها من المانيا الغربية بطريق القوة ، وهو حق مشروع لها ، وقد عثر على حل لحسن الحظ ، امكن عن طريقه تجنب الكثير من الاخطار ، فقد بدا الجسر الجوي في العمل ، وحتى اوائل شباط عام ١٩٤٩ ، كان قد نقل اكثر من مليون طن من المؤن الى برلين بوساطة الطائرات الامريكية والبريطانية طوال مدة الحصار وهي ثمانية شهور ، وقد اضطر الروس الى الاذعان في الوقت المناسب ، وتخلوا عن الحصار الذي فرضوه .

وكانت المساعدة الاقتصادية للحلفاء امرا حيويا ، فنحن في بريطانيا انفقنا اموالا ضخمة في الحرب ، بحيث اذا دعمنا اقتصدنا فسنظل نعاني ضائقة شديدة ، وعلى الرغم من القرض الامريكي الضخم ، فان الوضع كان يتجه عندنا نحو الخطورة ، كما كانت بقية اجزاء اوروبا تعاني الحالة نفسها على درجات متفاوتة ، ولولا مشروع العون الاقتصادي الذي وضعه الجنرال مارشال والتعاون التام مع ست عشرة دولة اوروبية اخرى ، فان اوروبا كانت ستنهار حتما الى حالة من الخراب والفقر ، تنمو فيها جذور الشيوعية بسرعة هائلة .

وكان هناك رأي آخر لآمالنا المتعلقة بتوحيد اوروبا وتقويتها لمواجهة اي عدوان خارجي ، او هدم داخلي ، فالافكار التي استهللت بها خطابي في فولتون ، قد ترجمت الى حد كبير الى افعال وحقائق عن طريق الجهود الحكومية ، وسلسلة المعاهدات والمنظمات الرسمية التي شرحتها بايجاز ، وكان من المهم جدا بالنسبة للمفاهيم البعيدة المدى ، عن فكرة اوروبا المتحدة التي جعلناها مثلنا الاعلى النهائي ، أن تجد لها ندوة تناقش فيها وتدرس ، وكان يوجد عدد كبير من ابرز الساسة الاوروبيين وقادة الفكر يحملون الآراء نفسها ، وقد شرعنا في عام ١٩٤٧ في « الحركة الاوروبية » التي تستهدف الدعوة الى وحدة اوروبا ، وبحث الوسائل التي تؤدي الى تنفيذها عمليا ، ولكن بصورة تدريجية ، لان من الخطأ في المشروعات الضخمة ، ان يحاول المرء تنفيذ كل شيء فورا ، كما انه من الصعب في قضايا من هذا الطراز ان يحاول المرء التخطيط وكأنه في عملية عسكرية ، وكانت مهمتنا اقامة اتحادات ووشائج ادبية وثقافية وأخلاقية واجتماعية في جميع انحاء العالم .

وقد قويت شوكة « الحركة الاوروبية » واشتد نشاطها ، وأدت دورا بارزا في التفكير الحكومي ، وقد اشار الجنرال مارشال ، الى ان هذه الفكرة كانت من جملة الاسباب التي حملته على وضع مشروعه لمساعدة اوروبا اقتصاديا،واثمرت المناقشات المتعددة التي جرت من خلال المجلس الاوروبي في عام ١٩٤٩ ، متخذا مدينة ستراسبورغ مركزا له ، وتم في هذه المدينة انجاز الكثير من الاعمال النافعة مع اختلاف الخطوط وظلال الدعايات .

هذا وقد احتلت القنبلة الذرية ، وطفلتها القنبلة الهيدروجينية ، وهما آخر ما امتلكه الانسان من الاسلحة المدمرة الشاملة للبشرية ، المكانة المتألقة ، في جميع افكارنا المتعلقة بشؤون الدفاع ، وكانت بريطانيا والولايات المتحدة ، قد اتفقتا في مطلع الحرب الماضية ، على تجميع معلوماتهما وتجاربهما في البحث النووي ، وقدمنا بلا ثمن ، ثمار سنوات من الاكتشافات والتجارب التي توصل اليها الرواد من علماء الطبيعة الانكليزية في هذا الميدان ، كاسهام منا المشروع السري الضخم المشترك ، الذي شرع في تنفيذه في الولايات المتحدة وكندا ، وكان في وسع هؤلاء الذين خلقوا هذه الاسلحة ، ان يسيطروا على العالم ويستعبدوه ، كما كان يفعل غيرهم ، من ذوي الايدي المشكوك في صدقها ، ولكنهم اثبتوا جدارتهم بمسؤولياتهم ، الا ان الاسرار تسربت على اي حال الى الاتحاد السوفياتي ، فساعدت العلماء الروس الى حد كبير في ابحاثهم ، وانعكست بعد ذلك جميع النظريات المتوارثة عن الاستراتيجية العسكرية ، وخلق نظام جديد لم نكن نحكم به من توازن القوى ، يقوم على أساس حيازة وسائل الابادة المتبادلة .

وقد شعرت في نهاية الحرب العظمى بالرضا عن نفسي ، لاني توصلت مع الرئيس روزفلت في كويبك في عام ١٩٤٣ الى احسن اتفاق في هذ الصدد ، وقد نص على التأكيد بأن بريطانيا وأمريكا لن تستخدما هذه الاسلحة ضد بعضهما البعض ، كما انهما لن تستخدماه ضد فريق ثالث الا بعد الاتفاق المشترك بينهما ، والا تقوما بنقل اية معلومات تتعلق بالموضوع الى فريق آخر الا بعد موافقة مشتركة من الدولتين المتعاقدتين .

الا ان الكونغرس الامريكي اصدر في عام ١٩٤٦ قانونا يحظر بموجبه نقل اية معلومات من الحكومة الامريكية الى اية دولة اخرى ، وكان الشيخ مكماهون الذي تبنى مشروع القانون لا يعرف شيئا في هذا الوقت عن اتفاق كويبك ، وقد ابلغني في عام ١٩٥٢ ، انه لـو كان يعلم بوجود هذا الاتفاق لما صدر قانون مكماهون ، وقد وجهت الحكومة البريطانية الاشتراكية (العمالية) احتجاجا في هذا الصدد ، كما انها لم تكشف عن اتفاقية كويبك والافضاء بوجودها ، الى لجنة مكماهون على الاقل ، ولو فعلت ذلك لبررت موقفنا ، ولوفرت علينا سنوات طويلة من البحث المضني والباهظ التكاليف ومن التطوير ايضا ، وهكذا حرمت بريطانيا حصتها في المعلومات التي كان لها حق مؤكد فيها ، وبذلك فاننا لم نتمكن من تفجير قنبلتنا الذرية الا في عام ١٩٥٢ .

وهكذا فان الاساس المضمون لآمالنا في السلام يرتكز على هـذه الناحية ، اي على حيازة امريكا وتفوقها في الاسلحة النووية ، ولا تعتبر جيوش الدول الغربية شيئا مهما ، اذا ما قورنت بالعدد الذي لا يحصى من الفرق التي تستطيع روسيا نشرها من البلطيق الى حدود يوغوسلافيا ولكن المعرفة الاكيدة بأن الزحف الذي سيؤدي الى اطلاق القوة الجوية المدمرة من عقالها ، هي الكابح الزاجر .

وعندما كانت الولايات المتحدة هي المالكة الوحيدة والفعالة للاسلحة الذرية ، كانت هناك فرصة للوصول الى تسوية عامة ودائمة مع الاتحاد السوفياتي ، ولكن ليس من طبيعة الدول الديموقراطية ان تستخدم ما تتمتع به من مزايا وتفوق في التهديد وفي اتباع اساليب الديكتاتورية ، ولا ريب في ان الحالة الفكرية التي كانت مسيطرة حين ذاك ، ما كانت لتسمح بأي نوع من خشونة القول مع حليفتها السابقة ، مع انه كان في وسع هذه الخشونة لو استعملت ، ان توقف الكثير من التطورات غير اللائقة التي وقعت ، ولكن الولايات المتحدة اثرت بتأييدنا طبعا ، ان تقف موقفا اكثر تعقلا بالنسبة لمشكلات الاشراف على استخدام الاسلحة النووية وجاءت معارضة لوسائل المراقبة الفعالة فأحبطت كل شيء .

وقد ادت هذه التطورات الى تبديل كل ناحية من نواحي التخطيط العسكري والسياسي ، واصبحت القواعد الضخمة اللازمة لتموين الجيوش في الحربين الكبيرتين الماضيتين اكثر الاهداف تعرضا للدمار ، وفي وسع قذيفة واحدة ، تلقي بها طائرة واحدة ، ان تدمر جميع المشاغل والمخازن في قاعدة قناة السويس ، التـي كانت المصدر الرئيسي لتموين الجيش الثامن في الصحراء بالمعدات والذخائر ، وفي وسع الموانىء مهما حمتها المدافع المضادة للطائرات والطائرات المحاربة ، ان تصبح مقبرة الاساطيل التي كانت تتولى في الماضي حمايتها ، كما كان اجلاء المدنيين وغير المحاربين من المدن اقتراحا معقولا حتى في ايام تطور الاساليب الجديدة في القصف الجوي في الحرب الاخيرة ، اما اليوم ، فعلى الرغم من الرغبة في مثل هذا الاجلاء ، فان وسائله لا تعدو ان تكون شيئا مخففا من اهوال كوارث الحرب النووية المدمرة المهلكة ، كما قد تحتم تبديل جميع الترتيبات الدفاعية لمواجهة الوضع الجديد ، وما زالت الاسلحة التقليدية ضرورية

للمحافظة على النظام في ممتلكاتنا ، ولخوض ما يسميه الناس بالحروب الصغيرة ، ولكننا لا نستطيع انتاج القدر الكافي منها ، لان انتاج الاسلحة النووية ووسائل توجيهها والتصرف فيها ، باهظة التكاليف للغاية بحيث تستنزف كل مخصصاتنا .

وظلت الآمال في قيام اتصالات اكثر ودا مع روسيا ، تسيطر على فكري دائما ، وبدا لي ان الفرصة قد توافرت بوفاة ستالين الفجائية في آذار عام ١٩٥٣ ، وكنت قد اصبحت رئيسا للوزارة ثانية ، وقد اعتبرت موت ستالين نقطة فاصلة في تاريخ روسيا ، فقد سبب طغيانه الكثير من الآلام لبلاده ، ولاماكن اخرى في العالم ، وكانت الشعوب الروسية في نضالها ضد هتلر ، قد بنت لنفسها الكثير من حسن النية في الغرب ، وفي الولايات المتحدة قبل غيرها من دوله ، ولم يكن في وسع اي انسان ان يتكهن بالنسبة الى سياسات الكرملين الغامضة بمن سيخلف ستالين ، وعلينا الا نقسو في الحكم على قادة روسيا ، فقد غزت اوروبا بلادهم ثلاث مرات في نحو من قرن ، وليس في وسعهم ان ينسوا بسهولة ، بورودينو وتانبرغ وستالينغراد ، كما انهم لا زالوا يذكرون المذابح التي قام بها نابليون في بلادهم ، ولا يمكنهم ان يغفروا لالمانيا القيصرية او النازية فظائعها ، ولكن السلامة لا تتحقق عن طريق العزلة ، ولم يحاول ستالين ان يعزل الجمهوريات السوفياتية وحدها وراء ستار حديدي عسكري وسياسي وثقافي ، بل حاول ايضا ان يقيم له خطا عميقا من المراكز الامامية في الدول لاحتياجات الاتحاد السوفياتي الاقتصادية ، ومنع كل اتصال لها بالعالم الحر ، وحتى ببعضها البعض ، ولكن لا ريب ان جميع المفكرين يرون في بعض المظاهر الموحية بالامل ، شيئا من الجلاء في الاوضاع الراهنة فالعقيدة الشيوعية آخذة في الانفصال تدريجيا عن الآلة العسكرية الروسية ، وستواصل الشعوب ثورتها على الامبراطورية الاستعمارية السوفياتية لا لشيوعيتها ، بل لانها غريبة عنها ، ولانها طاغية ومستبدة ، ولن يؤدي سباق التسلح حتى في الاسلحة النووية والصواريخ الموجهة الى ايجاد الطمأنينة او صفاء الذهن للدول الكبرى التي تسيطر على المساحات الشاسعة من الارض في آسيا او شمالي امريكا ، او الى البلاد التي تقع بينها ، وانني لا اوجه نداء لنزع السلاح ، فهذه نتيجة طبيعية ومظهر للتجاوب الحر بين الشعوب ، انه العقل الذي يسيطر على السلاح ، وانني ارى ان تتحدث الشعوب الحرة الى عقول شعوب روسيا وشريكاتها .

وقد بدا لي ان جوا أهدأ قد يسيطر بعد وفاة ستالين وبهذه الصورة عرضت بعض افكاري على مجلس العموم في الحادي عشر من ايار عام ١٩٥٣ ، واقترحت عقد مؤتمر غير رسمي بين رؤساء الدول الكبرى ، فقد ينجح من حيث فشلت الاتصالات الحادة المتكررة ، واوضحت ان مثل هذا الاحتمال يجب الا يصحب استرخاء في علاقات الامم الحرة واستعداداتها اذ ان اي اضعاف لجهودنا الدفاعية ، سيشل اي اتجاه نافع للسلام ، ولم يتحقق تماما ما استهدفته وبحثت عنه .

ولا اقصد مطلقا ان انحي باللائحة على اية جهة من الجهات بالنسبة الى الامور المزعجة التي وقعت منذ عام ١٩٤٥ ، ولا ريب ان اولئك الذين كانوا مسؤولين عن الحكم في بريطانيا في السنوات التي تلت الحرب ، قد اضطربوا امام المشكلات المعقدة التي واجهوها في الداخل والخارج ، وكانت

الاساليب التي اختاروا اتباعها لحل هذه المشكلات ، مفروضة عليهم ، اما من الظروف التي اوجدتها ، او من السياسات العقائدية المقررة سلفا ولم تكن نتائجها دائما نافعة لبريطانيا او للعالم الحر .

وتجلت في السنة التالية المحاولات الشيوعية المضايقة للغرب ، واستغلال الشعور الوطني في آسيا ، ومحاولة السيطرة على الاماكن المكشوفة في شبه جزيرة كوريا ، ففي الهند الصينية على الرغم من ان الخصم الكبير للفرنسيين هوشي مينة ، كان منزويا في موسكو ، الا ان العون المادي الذي تلقته العصابات لم يكن على نطاق كبير ، كما ارغم عدد ضئيل نسبيا من الارهابيين في الملايو عن طريق قتل المزارعين البريطانيين والموالين من الصينيين والماليزيين أرغموا قوات بريطانية كبيرة على البقاء لاعادة فرض النظام .

وكنا انا والرئيس روزفلت وتشيانج كاي شيك ، قد سجلنا في عام ١٩٤٣ تصميمنا على ان تكون كوريا مستقلة ، وكانت قد تحررت في نهاية الحرب من اليابانيين ، واحتل الامريكيون الاقسام الجنوبية منها ، بينما احتل الروس اقسامها الشمالية ، واقيمت دولتان كوريتان ، واخذت العلاقات بينهما تتأزم وتحتد ، وغدتا اشبه ما تكونان بالدولتين الالمانيتين الشرقية والغربية ، واحبطت المعارضة السوفياتية كل محاولة قامت بها الامم المتحدة لاعادة توحيد البلاد ، واخذ التوتر وحوادث الحدود يتجهان الى الازدياد ، وشرع الكوريون الشماليون في الخامس والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٥٠ ، في غزو كوريا الجنوبية ، واخذوا يتقدمون بسرعة ، فطلبت الامم المتحدة من الغزاة أن يتوقفوا وينسحبوا ، ولعب الحظ السعيد دورا بارزا في وقف « الفيتو » السوفياتي عن منع تنفيذ قرار مجلس الامن ونواياه ، « اذ تغيب الاتحاد السوفياتي عن الجلسة لانه قاطعها » ولكن اخطاء نظام الامم المتحدة ظلت عرضة للاستغلال مرة بعد اخرى في السنوات التالية ، وهيأت الامم المتحدة في هذه المناسبة الاطار الذي قامت فيه الولايات المتحدة بالعمل الفعال ، واحاطت هذه الحقائق العارية بقرار تاريخي وخطير اتخذه الرئيس ترومان ، اذ لم تمض فترة قصيرة جدا على انتشار انباء الغزو ، حتى كان الرئيس قد توصل الى الاستنتاج بأن التدخل العسكري الفوري للولايات المتحدة ، هو السبيل الوحيد لانقاذ الوضع ، وكانت القوات الامريكية هي اقرب القوى من مسرح الاعتداء واكثرها عددا ، ولكن هذا لم يكن كل شيء ، فقد كتب في مذكراته يقول :

« وتأكدت من اننا اذا سمحنا لكوريا الجنوبية في السقوط ، فان سقوطها سيشجع الزعماء الشيوعيين على ان يطئوا بأقدامهم دولا اخرى اقرب الى شواطئنا ، واذا سمحنا لمثل هذا التطور بأن يقع دون تحد من جانبنا فانه سيعني الحرب العالمية الثالثة » .

وكان سير الحرب شاقا ومخيبا للآمال ، وباهظ التكاليف في الدماء التي سفكت ، حتى تمكنت قوات الحلفاء من وقف الغزاة الشماليين ، واخذ تدخل القوات الجوية يؤتي ثمارا فعالة ، ونفذ الجنرال ماك آرثر المهمة بحماس وجراة ، حيث استعادت قوات الحلفاء سيول في اليوم الرابع عشر من آذار عام ١٩٥١ ، ووصلت بعد شهرين الى خط العرض

الثامن والثلاثين واجتازته ، وفي هذه الاثناء تدفقت قوات المتطوعين الصينيين ، كما بدأت النجدات تتدفق على نهر بالو ، في شكل جيوش كبيرة العدد وان كانت فقيرة العتاد ، ورأى القادة العسكريون الامريكيون أن من الصعب عليهم ان يقبلوا وجود هذا « الملجأ الممتاز » ، وراء حدود منشوريا ، وكانت هناك ايضا قواعد الطائرات السوفياتية النفاثة التي كانت تتدخل بصورة مستمرة في القتال ، وعندما اشتد الضغط للسماح بمهاجمة الاراضي الصينية من الجو عارض الرئيس ترومان هذا الضغط بشدة لان هذه الخطوة كانت متناهية في الخطورة ، وقال :

« ان الحمر يقومون بسبر اغوار الضغط في اسلحتنا ، وعلينا ان نواجه اندفاعهم بدورنا مع شعور متزايد من القلق ، وقلت لمجلس العموم في اليوم الثلاثين من شهر كانون الثاني « ان قضية العالم ستقرر في اوروبا ، فهناك يكمن الخطر الاكبر » ، وامتنعت عن الادلاء بآرائي مخافة ان يعتبر ذلك بمثابة انتقادات موجهة الى القادة العسكريين الامريكيين ، مما قد يعرقل جهودهم ، او يضعف الارتباطات التي توثق مصايرنا ، وقد اسهمت القوات البريطانية وقوات جامعة الشعوب اسهاما ضيقا وان كان فعالا في القتال ، ولكن امريكا احتملت العبء كله تقريبا ، ودفعت الثمن بمائة الف من زهرة شبابها .

وقد اخذت الامبراطوريات الغربية تنهار في اماكن اخرى من القارة الآسيوية ، كما ارغم حلفاؤنا الهولنديون على الخروج من جزر الهند الشرقية ، التي كانوا قد جعلوا منها نموذجا في الادارة الفعالة ، كما تحمل الفرنسيون سنوات طويلة من خيبة الامل ومن الحروب الموهنة المضنية في الهند الصينية ، حتى تجاوزت الاصابات بين الضباط في كل عام عدد من تخرجهم كلية سان سير من الضباط الجدد ، وتمكنت الجيوش الشيوعية التي تعززت بقوة من النجدات الصينية ، من احراز السيطرة التدريجية على شمالي البلاد ، وعلى الرغم من قصص المقاومة البطولية ، اضطر الفرنسيون الى الجلاء عن هذه المنطقة العظيمة المأهولة بالسكان ، وبعد مفاوضات طويلة وشاقة ، امكن انقاذ شيء ما من حطام الآمال المهدمة ، فقد ظهرت ثلاث دول جديدة الى حيز الوجود ، وهي فيتنام الجنوبية ولاوس وكمبوديا ، وتأكد استقلالها ، وان كان استقلالها لم يتضح تماما ، اما فيتنام الشمالية ، فقد اقامت لها حكومة شيوعية منفصلة شأنها في ذلك شأن كوريا الشمالية ، وهكذا كان التقسيم من جديد ، هو الحل للصراع بين المصالح الشيوعية والغربية ، وظلت الخلافات الداخلية تمزق هذه الدول الجديدة ، التي تهددها جارتها الجبارة الى الشمال .

وكانت التبديلات التي وقعت في آسيا ، شيئا لا يقاس بحساب ، ومن المحتمل ان تكون هذه التبديلات محتومة لا مناص منها ، واذا كان القارىء يجد في هذا العرض القصير لمحة من الاسف ، فعليه الا يفترض انه ناجم عن العداء لحق الشعوب الآسيوية في تقرير مصيرها ، لكن الوسائل التي اتبعت في الوصول الى الوضع الراهن ، تستدعي قليلا من التفكير والتأمل ، فهل كان من الضروري ، أن يسفك هذا القدر الكبير من الدماء ؟ او لم يكن في الامكان الوصول عن طريق التطور الى النتيجة

السعيدة نفسها مع مزيد من الثبات والاستقرار ، بدلا من الارتجال الذي دفع به الضغط الاجنبي ، والذي بسببه ضياع نفوذنا بسبب الهزائم السابقة التي منينا بها في حرب الشرق الاقصى .

لقد دار شطر كبير من الحرب العالمية الثانية للدفاع عن الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا ، والحفاظ على تموينانتا من الزيت ، وحماية قناة السويس ، وكانت دول الشرق الاوسط ، ولا سيما مصر ، قد تمتعت بمزية الحماية التي اضفيناها عليها من الغزو الالماني والايطالي ، دون ان تكلف نفسها عناء الاشتراك في الدفاع عن نفسها ، وقد اعقبت الحرب زيادة جديدة في عدد الدول المستقلة التي كانت توجد ضمن الممتلكات السابقة للامبراطورية العثمانية ، وكان خروج الفرنسيين من سورية ولبنان مؤلما لهم ، ولكنه كان محتوما ، وليس في وسع أي انسان ان يزعم اننا حصلنا لانفسنا على اي قدر من الفوائد هناك ، فقد شهد العالم في هذه المنطقة اندفاعا في الاحساس الوطني ، كان من المقدر لنتائجه ان تسير سيرها فيما بعد ، فالشعوب الاسلامية من اندونيسيا حتى مراكش في حالة غليان واضطراب ، وادى تصميمها الى مواجهة الدول الغربية ولا سيما تلك التي تتحمل مسؤوليات وراء البحار ، الى مشكلات ذات صعوبة خاصة ، وفي وسع هذه الشعوب ، وسط الهتافات الصاخبة للاستقلال والحكم الذاتي ، ان تنسى المنافع الكثيرة والمهمة التي اضفاها عليها الحكم الغربي ، ومن الصعب ايضا الاستعاضة عن النظام الذي طبقته الدول الاستعمارية في هذه المناطق الشاسعة ، بانظمة جديدة ومستقرة من الحكم السيادي .

وكانت مشكلة فلسطين من اعقد المشكلات التي واجهتها بريطانيا في هذه الارجاء ، ولقد كنت منذ صدور وعد بلفور في عام ١٩١٧ ، من أخلص انصار القضية الصهيونية ومؤيديها ، ولم اشعر قط ان البلاد العربية قد جنت منا الا العدل في معاملتها ، فالعرب مدينون لبريطانيا ولبريطانيا وحدها في وجودهم كدول ، فنحن خلقنا هذه الدول ، فلقد دفعت الاموال البريطانية والمستشارون البريطانيون بها سريعا في طريق التقدم ، وكانت الاسلحة البريطانية هي التي تتولى حمايتهم ، وكان لنا ، وما زال كما آمل ، عدد من الاصدقاء الاوفياء والشجعان في المنطقة ، وكان الملك عبدالله حاكما في منتهى الحكمة ، وادى اغتياله الى زوال الفرصة في تسوية سلمية للمشكلة الفلسطينية ، وكان الملك ابن السعود حليفا قويا ، وكنت اتابع في العراق باعجاب سلوك نوري السعيد الشجاع والحكيم ، اذ كان يخدم باخلاص ملكه ، ويقود بلاده في طريق الحكمة ، دون ان يتأثر بالتهديدات الخارجية ، او بالضجيج المتأثر من الخارج في الوطن ، ومن سوء الحظ ان هؤلاء الرجال كانوا من الشواذ(١) .

وواجهت الحكومة البريطانية كدولة منتدبة ، المشكلة الشاقة من الجمع بين هجرة اليهود الى « وطنهم القومي » ، وحماية حقوق السكان العرب، ولا يستطيع الا القليلون منا لوم اليهود على آرائهم العنيفة المتطرفة

---

(١) هذا هو رأي المؤلف الخاص وقد وجدنا نقله بدقة وامانة دون اي تعليق .

في هذا الموضوع ، وليس في مكنة شعب عانى خطر الابادة الكلية لوجوده القومي ، ان يكون عاقلا ومنطقيا كليا ، ولكن اعمال الارهابيين اليهود الذين حاولوا تحقيق اهدافهم عن طريق اغتيال الموظفين البريطانيين والجنود ، كانت مظهرا غريبا من مظاهر نكران الجميل ، ترك اثرا عميقا في النفوس ، وليس هناك من بلاد في العالم اقل صلاحا لمقارعة الارهاب ، من بريطانيا العظمى ، ولا يعود هذا الى الضعف او الجبن ، وانما الى ضبط النفس والفضائل ، والى طريقة الحياة التي عشناها في جزيرتنا التي نجحنا في الدفاع عنها ، وأحست الحكومة البريطانية بلذعة جرائم القتل في فلسطين ، وبالمهانة من بلاد الشرق الاوسط ، وحتى من حلفائنا ، فكان من الطبيعي ان تقرر اخيرا في عام ١٩٤٨ غسل ايديها من مشكلة فلسطين ، وان تترك اليهود وحدهم ، يجدون طريقة خلاصهم وادت الحرب القصيرة التي وقعت بصورة مسرحية ، الى تبديد ثقة البلاد العربية في نفسها ، بعد ان اطبقت على فلسطين آملة في نصر سريع .

وادى العنف الذي صاحب ولادة دولة اسرائيل الى اشتداد المتاعب في الشرق الاوسط بصورة مستمرة ، واني لاتطلع باعجاب الى ما تم انجازه من عمل هناك في بناء دولة واستصلاح صحراء وتقبل هذا العدد الكبير من اليهود من جميع اطراف المعمورة ، ولكن الوضع قاتم تماما ، فوضع مئات الالوف من العرب الذين اخرجوا من ديارهم ، والذين يعيشون حياة الفاقة والعوز ، في المناطق الحرام التي خلقت حول حدود اسرائيل ، خطر وفي منتهى الوحشية ، ويكثر العرب من ترديد العداء الذي لا ينطوي ولا يزول للدولة الجديدة ، ولا يستطيع القادة العرب الابعد نظرا ، ان يدعو الى الاعتدال ، دون ان يتعرضوا لخطر الاسكات والتهديد بالاغتيال ، أنه منظر مظلم وخطر عنيف لا حدود له ، وهناك شيء واضح ، فالشرف والحكمة يتطلبان بقاء دولة اسرائيل والحفاظ عليها ، والسماح لهـذا الشعب بأن يعيش في سلام مع جيرانه « شرف من يا ترى ! » وفي وسع هذا الشعب أن يأتي الى المنطقة باسهام لا يقدر بثمن من المعرفة العلمية والعمل والانتاج ، ومن الواجب اعطاؤه الفرصة لمصلحة الشرق الاوسط كلـه .

وقبل ان انتهي من هذا العرض الموجز للامور التي اثرت علي منذ انتهاء الحرب ارى ان القي نظرة على الامم المتحدة ، ففي وسع اي جهاز لحكومة عالمية ان يفشل بسهولة في تحقيق غرضه ، وكان من رأيي عندما دنت الحرب من نهايتها ، ان من الواجب ان تتحكم اعظم العقول واعظم الافكار التي يملكها البشر في مصير العالم ، وكان هذا المشروع يقضي ، اذا تحتم تمثيل جميع البلاد كبيرها وصغيرها ، ان تضعف البلاد المذكورة ، فالمغزى الذي تقدمه الامم المتحدة ، ليس الا تأكيدا لا جدوى منه لتعادل النفوذ والسلطان ، لا يمت بصلة الى الحقائق المجردة ، وقد اسفرت النتيجة عن عمليات من النشاط اللامع وراء الكواليس تحاول ان تقبض على زمام الحكومة العالمية ، وقد استعملت كلمة « المحاولة » لان صوت اي بلد لا يعد سكانها اكثر من مليون او مليونين ، لا يمكن ان يقرر او حتى يتحكم في اعمال الدول الكبرى ، وتميل الامم المتحدة في شكلها الحالي الى مصانعة الدول الديكتاتورية وارهاب الدول الضعيفة ، وليس من حق الدول الصغرى ، ان تتحدث باسم الجنس البشري كله وعليها ان

تقبل ، ولا ريب في انهــا ستقبل ذلك من طيب خاطر ، مرتبة اكثر خفضا ، ولكنها اكثر قربا من الدول الكبرى ، ويجب ان تقوم على حكم العالم مجموعة من القادة المبارزين في مجموعات من البلاد المؤلفة حسب اوضاعها الجغرافية وان عملية السماح لهذه المجموعات بأن تؤلف نفسها دون الحكم عليها بحسب قواتها او عدد سكانها هي التي تتولى تقرير الوضوع كله .

ولا أرى من وراء كل ما قلت ، الايحاء بأن جميع الجهود والتضحيات التي بذلتها بريطانيا وحلفاؤها ، والتي سجلتها في هذه المذكرات قد ضاعت عبثا ، ولم تؤد الا الى قيام وضع اكثر خطورة وظلاما ، مما كان عليه الوضع في البداية ، وانني على النقيض من ذلك ، اتمسك برايي السابق في أن محاولاتنا لم تذهب سدى ، فقد أصبحت روسيا دولة تجارية عظمى ، ويجري لاهلها في كل يوم بحماس تام ومتزايد هذه التمتيعات والملذات الموجودة في الحياة البشرية ، التي تجعل من خطط كارل ماركس ومشروعاته ، أمورا مضى عهدها ، وغدت أصغر من ان تتفق مع المشكلات العالمية ، ولقد اخذت القوى الطبيعية تعمل بحرية اكبر ، وبفرصة اعظم ، في نشر الآراء والافكار المتعلقة بفردية الرجال والنساء وتنويعها ، وهذه القوى أضخم واكثر ليونة في هذا الكيان الواسع من امبراطورية الكون ، مما قد تصوره كارل ماركس في كوخه الحقير ، وعندما يضيق نطاق الحروب نفسها بالفرعية المتبادلة نفسها للقضاء عليها ، يصبح من المتوقع بصورة متزايدة تأجيلها وعدم اللجوء اليها ، وستستمر الخلافات حتما بين الدول او القارات او مجموعات الدول ، ولكن المجتمع الانساني سينمو في آشكال متعددة ، بحيث لا تفهمه الاجهزة الحزبية ، وما دام العالم الحر متماسكا والحالة هذه ، ولا سيما بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، وما دامتا تحتفظان بقوتهما ، فستجد روسيا ان السلام والرخاء اجدى نفعا من حرب الابادة ، وان توسيع آفاق الفكر ومجالاته ، عملية تتطلب الاندفاع عن طريق البحث عن الفرص لكل من يطلبها ، ومن الخير ايضا ، اذا ما التزم الجميع جانب الحكمة والروية ، أن تسيطر الرغبة في تامين الفرص للجميع على مشاعر الجنس البشري وتعمل بمثابة ضابط لها .

شارتويل — ويسترهام — كنت ونستون تشرشل

١٠ شباط ١٩٥٧

— تم الكتاب —

فهرست

الحلف الكبير

النصر والمأساة